المركز القومى للترجمة



تأليف

بن أوكرى

ترجمة وتقديم

سمير عبد ربه

طريق الجوع



1231

طريق الجوع

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١٢٣١
- طريق الجوع
- بن أوكرى
- سمير عبد ربه
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة رواية:
The Famished Road
by: Ben Okri

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

طريق الجوع

تأليف
بن أوكرى

ترجمة وتقديم
سمير عبد ربه



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أوكرى، بن
طريق الجوع - تأليف: بن أوكرى، ترجمة وتقديم: سـمير عبدربـه،
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨م.
٧٢٣ ص، ٢٤سم.
١- القصص الإنجليزية
٢- القصص الاجتماعية
أ- عبد ربه، سمير (مترجم ومقدم)
ب- العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع: ٢٦٩٢٢ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى: 5 - 578 -437 -977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم

(الرهان الثالث على نوبل)

(رواية رائعة غمرتنى بمتعة القراءة ولم أجد لها شبيهًا فى كل ما قرأته من قبل. إنها رسالة عالمية شاملة).

"فيليب هاورد.. التايمز"

(إنها قصة أزارو، ذلك الطفل الروحى الذى يولد ليعيش لحظة قصيرة فقط قبل أن يعود إلى عالم زملائه الروحيين الباعث على الطمأنينة، لكن الاختيار قد وقع عليه للبقاء فى عالم الأحياء.

يتسم "بن أوكرى" بقدرته على كتابة الجملة الحية، وما تلبث أن تعاودك صوره المروعة واحدة تلو الأخرى فلا يعرف الملل طريقًا للقارئ.

تبدو الرواية كقصيدة ملحمية، وعندما انتهيت من قراءتها وخرجت شعرت وكأن الملائكة تجلس فوق كل أشجار جنوب لندن).

"لندا جرانت.. Independent on Sunday"

(إنها رواية ثرية ومثيرة وذات رؤية تحمل الأمل للعالم. رواية متخمة بالدراما والمفاجآت وتنتمى إلى الشكل الأدبى غير المصطنع. إنها تذكرنا بالأدب اليونانى القديم ورومانسيات القرون الوسطى).

"روبرت ويندر.. Independent"

(رواية غامرة ينبغى أن تقرأها فقط من أجل جمالها).

"جينى تيرنر.. New Statesman & Society"

(أسلوب جميل لرواية تتحرك عبر الخيال ورؤية الطفل وما فوق الطبيعة وحياة الفلاح النيجيرى فى عالم متغير. إنها رواية من أهم روايات هذا العام. الشكل المميز للإبداع الأفريقى الأسود).

"جيرمى تريجلوان.. رئيس مجلس إدارة حكام جائزة بوكر"

(واحدة من أعظم روايات ما بعد الحرب).

"هارى إيريس.. التايمز"

(سيتأثر الناس بهذه الرواية وستتألق النجوم فى أعينهم عند قراءة كل كلمة).

"روبرت ياتس.. تايم آوت"

(إنجاز رائع لرواية غنائية. يصور بن أوكرى ما بعد الحداثة بشكل مثير وأسلوب جذاب).

"هنرى لويس جتس.. The New York Times Book Review"

(أوكرى فنان صبور. رواية أفريقية متميزة لعبت فيها الخدعة دورًا لم يسبق له مثيل فى الأدب الأفريقى. حالة خاصة من الدهشة. وإبداع نثرى خاص وفريد ليس له مثيل فى أعماله الأخرى يتضح فى سلسلة من الحركات الصوتية المتقطعة السريعة والهادئة فى آن واحد. إن قراءة هذه الرواية مثل الاستماع إلى سوبرانو قادر تمامًا على التحكم فى صوته. إن أسلوب أوكرى له سماته المظلمة والمضيئة فى نفس الوقت، ويكمن ثراؤه فى عدم قابليته للخطأ. إنه ثراء تراجيدى فى بعض الأحيان لكنها تراجيديا كلاسيكية، تراجيديا مبهجة).

"روبرت فراسر.. Independent"

(تبرهن هذه الرواية بقوة على الإحساس بالواقعية بشكل غير معروف فى الغرب. إن بن أوكرى يشترك مع جارسيا ماركيز فى رؤيته للعالم. هذه الرواية تحفة فنية رائعة).

"جاى بارينى.. Boston Sunday globe"

(يتميز "بن أوكرى" بأسلوب بسيط وملتهب فى آن واحد ويمتلك طريقة رائعة فى التعبير. إنها رواية جميلة تستحوذ علـــى قارئهـــا وتتـــرك لديـــه انطباعات عميقة).

"New Statesman"

(يتمتع "أوكرى" بأعظم موهبتين يمكن للكاتب بواســطتهما أن يكـــون حكاءً بارعًا، أول هاتين الموهبتين هو ذلك الاقتصـــاد الفنـــى الخـــالى مـــن الأخطاء والذى نلمسه فى نثره الحاد، ثم موهبته الثانية المتمثلة فـــى قدرتـــه على التقلب فى مختلف بيئات المجتمع الراقية منها والفقيرة. إنه، باختصـــار، مبدع يعرف عمله).

"London Evening Standard"

كانت تلك بعض الانطباعات والآراء التى قيلت عن الرواية التى بـــين أيدينا للروائى والشاعر النيجيرى "بن أوكرى" Ben Okri المولود بمدينة مينا شمال نيجيريا عام ١٩٥٩، والذى نشأ فى لندن قبل عودته إلى نيجيريا مـــع عائلته عام ١٩٦٨، والتى لم أجد بعدها ما يمكننى إضافته تعليقًا علـــى هـــذه الرواية سوى أهمية قراءتها للتعرف عن قرب ببـــواطن الجمـــال وروعـــة الأسلوب وبراعة الحكى، والتى حاولت - قدر استطاعتى - أن أنقلهـــا إلـــى قارئ العربية بنفس الجمال والروعة والبراعة، وأتمنى أن أكون قد نجحـــت فى ذلك إلى حد ما.

عاد أوكرى إلى لندن مرة أخرى عندما منحته الحكومة النيجيرية منحة لدراسة الأدب المقارن بجامعة إيسيكس Essex University، وعمل محـــررًا للشعر فى مجلة غرب أفريقيا عام ١٩٨٣ حتى عام ١٩٨٦، بالإضافة إلـــى عمله فى إذاعة البى بى سى منذ عام ١٩٨٣ وحتى ١٩٨٥، وفى عام ١٩٨٧ أصبح عضوًا بالجمعية الملكية للأدب، ثم عضوًا بجمعية الفنون التابعة لكلية ترينتى Trinity بجامعة كامبريدج ما بين عامى ١٩٩١، ١٩٩٣، وفى عـــام ١٩٩٧ حصل على درجة الـــدكتوراه الفخريـــة مـــن جامعـــة ويستمنســـتر University of Westminster، ثم على نفس الدرجة مـــن جامعـــة إيســـيكس Essex عام ٢٠٠٢.

يذكرنا "بن أوكرى" بالكاتب العالمى النيجيرى الأصل "وول ســـوينكا" الذى تنوعت أعماله الأدبية؛ فاتخذت شكل الرواية حينًا والقصـــة القصـــيرة والشعر والمسرحية فى أحيان أخرى، فيؤكد لنا ذلك الثراءَ الأدبيَّ الذى تموج به تلك القارة السوداء الناتج عن تعدد الثقافات واختلاف الديانات، إلى جانب الاستعمار الذى لم يبرحهم دون أن يترك آثارًا متباينة انعكســـت بشـــكل أو بآخر فى معظم الأعمال الأفريقية، إن لم يكن فى كـــل الإبـــداع الأفريقـــى الأسود.

صدرت رواية أوكرى الأولى عـــام ١٩٨٠ بعنـــوان (Flowers and Shadows) ثم رواية (The Landscapes Within) ١٩٨١، وتقع أحداث كـــلا الروايتين فى نيجيريا من خلال شابين يتصـــارعان لإدراك حـــالات الفســـاد والتفسخ الحادث فى عائلة كل منهما وفى المجتمع.

أما الرواية الثالثة، فهى التى بين أيدينا الآن بعنـــوان (The Famished Road) أى الطريق الجائع أو الطريق المؤدى للجوع، لكننى - فى الحقيقة - استغرقت وقتًا طويلاً فى اختيار عنوان مناسب للرواية لا يبتعد كثيـــرًا عـــن العنوان الأصلى، ويكون على صلة وثيقة بمضمون الرواية. وبعـــد تفكيـــر

عميق لم أجد أفضل من (طريق الجوع) عنوانًا للرواية رغم رواية "جـــورج أمادو" الرائعة (دروب الجوع).

نشرت هذه الرواية عام ١٩٩١ ونالت جائزة بوكر Booker Prize فى نفس العام، ورغم تنوع أعمال أوكرى السابقة واللاحقة إلا إنها أكثر إبداعاته نجاحًا وشهرة، وهى التى حفرت اسمه فـــى قائمـــة أفضـــل كتـــاب العـــالم المرموقين.

تعد هذه الرواية من أكثر الكتب الأدبية رواجًا فى العالم. وجدير بالـــذكر أن "بن أوكرى" هو الكاتب الأفريقى الوحيد الذى حصل على جائزة بوكر بعـــد "تادين جورديمر" بالإضافة إلى حصوله على العديد من الجوائز الأدبية الأخرى:

- جائزة بوكر عن هذه الرواية The Famished Road ١٩٩١.
- جائزة روفينو الإيطالية عن الرواية نفسها ١٩٩٢.
- جائزة شيانتى روفينو الدولية للأدب عن الرواية نفسها ١٩٩٣.
- جائزة كستلايوس جرينزانى الإيطالية عن الرواية نفسها ١٩٩٤.
- جائزة بريميو كافور عن الرواية نفسها ١٩٩٤.
- جائزة المنتدى الاقتصادى العالمى Crystal Award لأفضـــل كاتـــب ١٩٩٥.
- جائزة بريميو بالمى الإيطالية عـــن روايـــة The Dangerous Love ٢٠٠٠.

وإذن فقد حصدت هذه الرواية خمسًا من الجوائز الأدبية المهمة، ويبقى الرهان على جائزة نوبل التى حالفنى الحظ بحصول كل من "وول ســـوينكا" و"تادين جورديمر" عليها بعد أن قدمتهما لقارئ العربية قبل حصولهما علـــى الجائزة، وهاهى المرة الثالثة التى أراهن فيها على "بن أوكـــرى" وينتـــابنى إحساس قوى هذه المرة بأن نوبل لن تخطىء طريقهـــا إلـــى أوكـــرى فـــى السنوات القليلة القادمة.

إن أوكرى واحد من أهم الأصوات فى الأدب الأفريقى المعاصر المكتوب بالإنجليزية، وتتميز أعماله بالهجاء والنقد لمختلف الأزمات الاقتصادية والسياسية التى أصابت الدول الإفريقية بالبلاء منذ نهاية فترة الاستعمار؛ وتجلّى ذلك بوضوح فى روايته الأولى (Flowers And Shadows) التى تعرَّض فيها للفساد وتأثيراته المدمرة على العائلة والمجتمع.

تتميز لغة أوكرى – فى الغالب – بالبساطة والوضوح والشفافية، لكنه فى هذه الرواية يضيف – إلى كل ذلك – خاصية شعرية وتصويرًا دقيقًا لعالم غارق فى الفساد السياسى ومكبل بالتقاليد العشائرية، ويقدم لنا مزيجًا غريبًا من الأمل واليأس بأسلوب سحرى أخاذ.

صدرت رواية "بن أوكرى" الأولى عام ١٩٨٠ بعنوان (Flowers and Shadows) ثم رواية (The Landscapes Within) ١٩٨١، وكلتا الروايتين تقع أحداثهما فى نيجيريا من خلال شابين يتصارعان لإدراك حالات التشوش والتفسخ الحادث فى عائلة كل منهما وفى المجتمع.

أصدر بعد ذلك مجموعتين قصصيتين؛ الأولى بعنوان (Incidents at the Shrine) فى عام ١٩٨٦، ثم (Stars of the new Curfew) ١٩٨٨، وتقع أحداث المجموعتين بين لاجوس ولندن.

كتب "بن أوكرى" بعد ذلك روايتين؛ الأولى عام ١٩٩٥ بعنوان (Astonishing The God)، والأخرى عام ١٩٩٦ بعنوان (Dangerous Love) والتى حصلت على جائزة "بريمو بالمى" الإيطالية عام ٢٠٠٠، أما عن آخر أعماله الروائية فهى بعنوان (In Arcadia) وقد صدرت فى عام ٢٠٠٢.

وفى مجال الشعر، أصدر ديوانًا واحدًا تم نشره عام ١٩٩٢ بعنوان (An African Elegy)، ثم قصيدة ملحمية عام ١٩٩٩ أطلق عليها اسم

(Mental Flight)، بالإضافة إلى مجموعة من المقالات نشرت في عام ١٩٩٧ بعنوان (A Way Of Being Free)، وله مسرحية واحدة بعنوان (In Exilus).

يتذكر "بن أوكرى" أول مرة بدأ فيها الكتابة فى سن الرابعة عشرة فيقول: "كان يومًا مهمًّا واستثنائيًّا ذلك الذى تغيرت فيه حياتى حين كانت السماء تمطر وأنا جالس بمفردى فى حجرة الجلوس بعد أن خرج الجميع، حيث تناولت قطعة من الورق ورسمت عليها ما هو موجود فوق الرف وقد استغرق ذلك الرسم منى ساعة كاملة ثم سحبت قطعة أخرى من الورق وكتبت قصيدة لم تستغرق سوى عشر دقائق، وبعد أن نظرت إلى الرسم أدركت أنه شىء مفزع ولا يعبر عن شىء لكننى حين قرأت القصيدة رأيت أنها مقبولة ويمكن احتمالها، وعندئذ أصبح من الواضح أن الكتابة هى المجال الطبيعى الذى يمكننى أن أحقق فيه طموحاتى".

ويقول أوكرى فى موقع آخر: "كانوا يحكون لى القصص كما يحدث مع كل الأطفال فى نيجيريا، وكان يتحتم علينا رواية القصص والحكايات التى تجذب اهتماماتنا، ولم يكن مسموحًا لأحد أن يروى الحكايات المعروفة أو التى سمع بها أحد من قبل، وإنما كان على كل شخص أن يبتكر حكاياته الجديدة".

ثم يضيف قائلاً: "كانت حكاياتنا تشبه - إلى حد كبير - ذلك النهر الذى يجرى خلف الفناء الخلفى لبيتك والذى هو موجود دائمًا فى مكانه ويجرى بين جوانحك وداخل روحك، لكن أحدًا لم يفكر فى التقاط صورة فوتوغرافية له أو محاولة معرفة أسراره وأساطيره، أما بالنسبة لى وبعد أن عرفت أن الكتابة - وليس الرسم - هى طريقى وبعد فترة من التأمل والوحدة ثم إحساسى الجارف بالحنين إلى الوطن وأنا بعيد عن نيجيريا، بدأت أتذكر تلك الحكايات والقصص ولكن برؤية جديدة وأصوات جديدة، ثم عرفت

أن كل البشر لديهم ما يميزهم في قصصهم التي يبدعونها بأنفسهم والتي كانت تطوق طفولتهم وتأثروا بها ثم انعكست في إبداعاتهم وهم كبار".

وهكذا يمكن القول إن أوكري قد تأثر كثيرًا بذكريات الحرب الأهلية التي حدثت في نيجيريا وهو طفل صغير، كما كان لفترة شبابه اليافع تأثير كبير عليه، بالإضافة إلى الفترة التي ابتعد فيها أربعمائة ميل عن عائلته في لاجوس لتلقي تعليمه الثانوي، وقد قال في هذا الصدد: "لقد زلزلتني تلك التجربة".

ومما لاشك فيه أن سفره لإنجلترا للدراسة في جامعة إيسيكس Essex قد ساعده على رؤية بلده بشكل أكثر وضوحًا؛ حيث قوبلت أعماله الأدبية هناك بالاستحسان غير أنه لم ينل سوى القليل من المال، حتى أنه قال ذات يوم بعد تخرجه من الجامعة: "لقد عانيت من ضيق العيش وتشردت في الشوارع ونمت فوق الأرض عند الأصدقاء؛ وبالتالي لم أكن قادرًا على التفكير السليم لكن كل ذلك كان جميلاً وبائسًا في آن واحد، وعندما عملت مذيعًا ومحررًا للشعر في مجلة غرب أفريقيا فصلوني بعد فترة لأنني لم أتمكن من نشر ما يكفي من الشعر".

بدأ "بن أوكري" قراءاته المبكرة بالأساطير اليونانية وشكسبير وإبسن وسوفوكليس ومارك توين وبرنارد شو وتولستوي وتورجنيف وديستوفسكي، وكان حبه للقراءة هو ما جعله يذهب إلى لندن في سن التاسعة عشرة وبرفقته روايته الأولى: "لقد رحلت إلى لندن لأن لندن بالنسبة لي هي موطن الأدب، لقد ذهبت إلى هناك حبًّا في شكسبير وديكنز".

بقراءة أعمال أوكري المتنوعة نستطيع أن نلمس – بوضوح – أنها أعمال أفريقية بحتة في مادتها وروحها، غير أنه يرى غير ذلك فيقول: "ليس للأدب وطن؛ وإلا لأصبح شكسبير كاتبًا إفريقيًّا حيث الكثير من أعماله يمكن

أن تكون إفريقية خالصة فى مضمونها وروحها، وكذلك شخصيات تورجنيف من المتسكعين فى أحياء الأقليات، وأيضًا شخصيات ديكنز التى من السهل رؤيتهم على أنهم نيجيريون، أقصد القول بأن الأدب قد يأتى من مكان معين لكنه دائمًا يعيش فى مملكته الخاصة الفريدة".

لذلك يرى أوكرى أن الحديث عن جابرييل جارثيا ماركيز لا بد وأن يقابله حديث مماثل عن تشينوا أتشيبى Chinua Achebe، كما أن التفكير فى لوركا لا بد أيضًا أن يستدعى وول سوينكا Wole Soyinka وإلا يصبح الأمر كله عبثًا.

قرأت كثيرًا عن "بن أوكرى"، ونظرًا لاهتمامى الخاص بالأدب الإفريقى فإن محاولاتى فى اقتناء أىٍّ من أعماله وبخاصة هذه الرواية (The Famished Road) لم تتوقف، ولذلك نهضت بعبء ترجمتها، خصوصًا بعد أن شجعنى المركز القومى للترجمة على المضى فى ذلك.

سمير عبد ربه

القسم الأول

الكتاب الأول

(١)

فى البداية كان نهرًا فأصبح طريقًا، تفرَّع الطريق إلى عديد من الطرق شملت العالم بأسره، لكنه كان طريقًا جائعًا على الدوام لأنـــه - ذات يـــوم - كان نهرًا.

فى أرض البدايات تلك امتزجت الأرواح بالـــذين لـــم يولـــدوا بعـــد، واستطعنا أن نتخذ أشكالاً عدة وأصبح عدد كبير منا طيورًا، لم نكن نعـــرف الحدود وكنا نستمتع ونلعب كثيرًا لأننا أحرار. وكثيرًا ما كان يعترينا الحزن بسبب أولئك العائدين توًّا من عالم الأحياء، كانوا يعودون بغير أسف على كل الحب الذى تركوه خلفهم وكل المعاناة التى تحرروا منها وكل ما لم يستطيعوا إدراكه وعلى كل ما بدأوا يتعلمونه بالكاد قبل عودتهم إلى أرض المنشأ.

لم يكن ثمة أحد بيننا يتطلع لحياة بنى البشر التى نمقتها ونعرف مـــدى قسوتها وما تموج به من اشتياق لا نهائى وظلم، وما تزخر به من مشاكل فى الحب، وكنا نكِن كراهية خاصة لحقيقة الموت واللامبالاة المدهشـــة للحيـــاة وسط الجمال البسيط للكون، كنا نخشى قسوة قلب الإنسان وعدم رحمته، لقد ولد كثير من بنى البشر عميانًا فلم يتمكنوا من الرؤية، أما المبصرون مـــنهم فلم يمتلكوا قَطّ القدرة على الفهم أو الإدراك.

كان ملكنا شخصية مدهشة؛ حيث كان يظهر أحيانًا على شـــكل قطـــة كبيرة، وكانت له لحية حمراء وعينان ذواتا لون أزرق ضارب إلى الأخضر، لقد ولد مرات كثيرة وكان أسطورة فى كل العالم ومعروفًا بمئـــات الأســـماء المختلفة، ولم يحدث قَطّ أن تحدَّث أحد عن ظروف ولادته، عاش مليكنا دائمًا أكثر الحيوات روعة حتى ليستطيع المرء أن يتعرف على عبقريته من خلال

العصور المسجلة وغير المسجلة، حقق إنجازات لا تضاهى فى كل حياة عاشها، وإذا كان ثمة شىء مشترك فى كل حياته فهى تلك العبقرية المتمثلة فى ذلك الحب المستحيل وتحوّل ذلك الحب إلى وقائع ملموسة وسامية.

سعدنا معظم الوقت مع أصدقائنا الروحيين، أولئك الذين يشاركوننا ألفة خاصة؛ لأننا كنا نطفو فوق هواء الحب الزبرجدى، ونلعب دائمًا مع آلهة الحقول والقطعان الرومانية والجنيَّات والكائنات الجميلة برفقة الساحرات والكاهنات الصغيرة العذبة الرقيقة، وذلك الإشعاع المتألق الرائق ذى الأشكال المتعددة لقوس قزح. كان لبكاء الأطفال – عند ولادتهم – أسباب كثيرة، وأحد أهم تلك الأسباب هو ذلك الانفصال المفاجئ عن عالم الأحلام الجميلة؛ حيث كل الأشياء تتسم بالسحر والافتتان وحيث لا توجد معاناة.

ما أن أصبحنا فى خلق آخر حتى عقدنا العزم على العودة إلى عالم الأرواح عند أول فرصة فلقد كنا أسعد حالاً وأكثر قربًا إلى نشأتنا الأولى، أخذنا على عاتقنا تلك العهود وسط الزهور البهية وتحت ضوء القمر الذى يفرد أشعته المضيئة فوق العالم، وحينئذ أطلق الأحياء علينا اسم أطفال الروح Abiku،(*) ولم يكن بمقدور كل الناس التعرُّف علينا؛ لأننا كنا نواظب على الحضور والذهاب دون رغبة بالانخراط فى الحياة كما كنا نملك قدرة التصميم على الموت، بالإضافة إلى أن العهود التى أخذناها على عاتقنا كانت ملزمة.

أصاب الهذيان أولئك الذين لم يلتزموا بعهودهم، وراح زملاؤهم يكثرون من التردد عليهم ولم يجدوا عزاءً إلا عند عودتهم إلى عالم الذين لم يولدوا بعد، إلى حيث الأصل والمصدر حيث أحبابهم ينتظرونهم فى صمت.

(*) Abiku: الطفل الذى يولد ثم يموت ثم يولد فيموت، وهكذا. (المترجم)

تم إغراء أولئك الذين بقوا فى عالم الأحياء بالإعلان عن أحداث رائعة حدثت فى الحياة مع رؤى جميلة ومحتومة، حاملة من خلالنا موسيقى الأساطير التراجيدية العذبة، عبَّرنا - نحن الغرباء دائمًا وبوجودنا الناقص فى عالم الروح - عن نبوءات غامضة، واجتاحت عقولنا صور المستقبل.

غالبًا ما كان التعرف علينا سهلاً؛ فقد كانت أجسادنا منقوشة بحد الموسى وعندما كنا نولد من جديد لنفس الأبوين كانت النقوش تظل عالقة بأجسادنا وتؤثر فى أرواحنا قبل أى شىء آخر، وعندئذ كان العالم ينسج من حولنا شبكة من الموت أو النهاية المحتومة، أما أولئك الذين ماتوا من بيننا وهم أطفال فلأن بعضهم حاول إزالة تلك النقوش بعمل بقع جميلة بدلاً منها، أو لأن بعضهم الآخر حاول تغيير لونها لكنهم كانوا يتعرفون علينا بسهولة ويستقبلوننا بصراخ مفزع وببكاء الأمهات.

كانت رغبتنا فى الرحيل وعدم البقاء تسبِّب آلامًا كثيرة لأمهاتنا، ومع كل عودة لنا كانت آلامهن تتفاقم حتى أصبحت تلك الآلام بالنسبة لنا عبئًا روحيًّا إضافيًّا يثير فينا دورة الانبعاث، رغم أن كل ميلاد جديد كان مؤلمًا بالنسبة لنا أيضًا حيث كنا نصطدم بعالم ظالم فاتسعت دائرة عصياننا مما جعل الاستياء والغيظ مِنا يصيب الأرواح الأخرى، وكذلك أجدادنا فأصبحنا مكروهين فى عالم الروح وموسومين بالعار فى عالم الأحياء حتى ظللنا - رغمًا عنا - متأثرين بكل شىء يحدث حولنا.

حاول آباؤنا إقناعنا بالبقاء فقاموا بعمل عروض حماسية ذات طقوس خاصة، كما حاولوا أيضًا أن نكشف لهم عن المكان الذى خبأنا فيه رموز الروح التى تربطنا بالعالم الآخر لكننا لم نهتم بعروضهم، وبقيت رموزنا سرًّا دفينًا وظللنا غير مبالين بمخاض الأمهات الكئيب.

اشتقنا للعودة إلى البيت كى نلعب إلى جوار النهر وفوق الأعشاب وفى الكهوف السحرية، اشتقنا للتأمل فى ضوء الشمس وفوق الأحجار الكريمة

ولابتهاجنا بندى الروح الأبدى، لقد دخلت العالم محملاً بهدايا الزوح الغريبة والألغاز والإحساس الجارف بالمنفى.

كم مرة جئت ورحلت خلال المدخل المرعب؟، كم مرة وُلِدت ومت صغيرًا؟، وكيف لنفس الوالدين؟ لا أعرف بالضبط، لقد غمرتنى رمال الحياة الكثيرة ولكن هذه المرة فى مكان ما، وفى فترة فاصلة بين عالم الروح وعالم الأحياء اخترت أن أبقى، وكان ذلك يعنى عدم الالتزام بالعهد وخيانة زملائى، ليس بسبب التضحيات أو الزيوت والبطاطا المحترقة وجوز النخيل أو حتى بسبب المداهنات والوعود المؤقتة بمعاملة خاصة أو حتى بسبب الحزن الذى تسببت فيه، وأيضًا ليس بسبب خوفى الشديد من المعرفة، وبعيدًا عن تلك العلامة المميزة فى كفى فلقد حاولت ألا يكتشفنى أحد، وعندئذ عرفت كم هو شىء صعب وكريه أن تظل للأبد بين عالمين، لكننى أنا الذى أردت أن أجرب هذا العالم وأن أشعر به وأعانى فيه وأعرفه وأحبه وأن يكون لى فيه إسهامات جليلة، لقد أردت أيضًا أن أتحلى بمزاج رفيع من الأبدية، لكننى أحيانًا أفكر بأنه كان وجهًا هو الذى جعلنى أرغب فى البقاء، وجهًا ذا خدوش لامرأة ستصبح أمى.

عندما حان وقت بداية الاحتفالات بالميلاد كانت الحقول فى مفترق الطرقات متألقة بحضور جميل وكائنات قزحية اللون، مضى بنا مليكنا إلى أول جبل من الجبال السبعة، ولأنه يحب الكلام فقد تحدث إلينا مدة طويلة بهدوء وكان لكلماته أثر كبير فى نفوسنا، ثم قال لى بجدية واضحة فى عينيه الزرقاوين المتلألئتين: "أنت شخص مزعج وعابث وسوف تسبب كثيرًا من المتاعب التى لا تنتهى، عليك أن تسافر فى طرق عِدَّة قبل أن تجد مصيرك فى أحد الأنهار، فحياتك هذه ستكون مليئة بالألغاز لكنك ستجد دائمًا من يحميك ولن تكون وحيدًا".

هبطنا جميعًا إلى الوادى الكبير فى يوم الأعياد القديم، حين رقصت حولنا الأرواح الرائعة على أنغام الآلهة معبرة عن الأناشيد الذهبية وتعويذة اللازورد من أجل تجهيزنا لأول احتكاك بالدم والأرض، فراح كل واحد منا يتخذ طريقه بمفرده ورحنا نقاوم العبور بمفردنا وننجو من اللهب والبحر وانبثاق الأوهام، فكانت بداية الاغتراب.

إنها أساطير البدايات وحكايات وأمزجة أولئك الذين نشأوا فى الأراضى الغنية والذين مازالوا يعتقدون فى الألغاز والطقوس الدينية.

لقد ولدت ليس لأننى فقط تخيلت فكرة للبقاء، ولكن لأنه خلال قدومى وذهابى المتكرر قد مضى وقت كثير ما لبث أن التف حول رقبتى، ورحت أصلِّى طلبًا للضحك ومن أجل حياة خالية من الجوع غير أن ثمة تساؤلاً غامضًا ومتناقضًا كاللغز ظل يباغتنى: كيف يكون الأمر كذلك وقد ولدت مبتسمًا؟

(٢)

أحد الأسباب التى لم أشأ أن أولد بسببها بدا واضحًا لى بعد أن أصبحت فى قلب العالم، كنت لا أزال صغيرًا جدًّا عندما أصابنى الانبهار لرؤية أبى وقد ابتلعته حفرة فى الطريق، وفى مرة أخرى عندما شاهدت أمى معلقة فى فروع شجرة زرقاء، كنت فى السابعة من عمرى عندما رأيت فى المنام يدى مغطاة بالدم الأصفر لأحد الغرباء، ولم أكن أعرف إذا ما كانت تلك الصور خاصة بهذه الحياة أم بحياة أخرى سابقة، أم أنها تنتمى إلى حياة قادمة أم أن تلك الحشود من الصور ليست سوى ما تمتلئ به عقول كل الأطفال!

وأنا طفل صغير كنت أتمتع بذاكرة قوية عن حياتى الممتدة إلى حيوات أخرى، فلم يكن ثمة فرق حتى بدا لى أحيانًا أننى عشت حيوات عدة فى حياة واحدة، عمر واحد نشأت عنه أعمار أخرى انبثقت منها جميعًا طفولتى.

شعرت كطفل بأننى قد أرهقت أمى، وفى نفس الوقت غمرنى شعور جارف بالتعب والكآبة من تلك الحياة الملتفة بالغموض، فقد كانت صدمة الوجود قاسية وساورنى شك فى قدرتى على الشفاء منها.

غالبًا ما كنت أسمع أصواتًا تتحدث لى ليلاً أو نهارًا عرفت فيما بعد أنها أصوات زملائى الروحيين.

قال أحدهم: ماذا تفعل هنا؟

أجبت: أحيا.

من أجل ماذا؟

لا أعرف.

ولماذا لا تعرف؟ ألا ترى كل ما يتربص بك؟

لا.

ثم عرضوا عليَّ صورًا لم أستطع أن أفهمها، صورة لأحـد السـجون وأخرى لامرأة ذات حبَّات ذهبية، وصورة لطريق طويل ممتد وضوء شمس شديد الحرارة، كما جعلونى أبصر فيضانًا وزلزالاً وموتًا أكيدًا، ثم قالوا: "عد إلينا فنحن نفتقدك إلى جوار النهر، لقد هجرتنا وإذا لم تعد فإننا سنجعل حياتك غير محتملة".

فى الصباح تحديتهم أن يفعلوا أسوأ ما عندهم، وذات مرة من إحـدى تلك المرات دخلت أمى إلى الحجرة، ووقفت تراقبنى وعندما رأيتها التزمـت الصمت.

كانت عيناها تشعان بالضوء حين اقتربت منى وضربتنى فوق رأسـى وهى تقول: إلى من تتحدث؟

قلت: لا أحد.

حدَّقت فىَّ طويلاً ولا أذكر كم كان عمرى وقتئذ، وبعـد ذلـك شـعر زملائى الروحيون ببهجة كبيرة لنجاحهم فى إدخالى دائرة المتاعب فأصبحت متأرجحًا بين العالمين، خاصة حين قلدوا صوت أمى ذات يوم وهتفوا باسمى عندما كنت ألعب فوق الرمال عبر الشارع، فجريت مسرعًا نحـو الصـوت حتى كدت أصطدم بإحدى السيارات، وحين أغرانى، فى يوم آخـر بـبعض الأغانى الجميلة التى ما أن تتبعتها حتى وقعت فى إحدى البالوعـات دون أن يلاحظنى أحد، لكننى كنت محظوظًا عندما شاهدنى شخص ما يستقل دراجة وأنا أتقلب فى الماء القذر وأنقذنى من الغرق.

أصابنى المرض بعد كل المتاعب التى سببها لى زملائى الروحيـون، فرحت أمضى كثيرًا من الوقت فى العالم الآخر محاولاً إقناعهم أن يتركونى وشأنى، لكننى لم أستطع أن أفهم – طوال مدة بقائى هنـاك – أنهـم كـانوا يعملون على موتى وعندما حاولت العودة بجسدى كان الوقت متأخرًا جدًّا فلم

أستطع، كما أدركت أنهم دبَّروا أمر إخراجي من حياتي فصرخت كثيرًا وبكيت من خلال أنبوبة فضية حتى تدخَّل ملكنا العظيم وأعاد فتح بوابات جسدي.

عندما استيقظت وجدت نفسي داخل كفن؛ فقد بدأ كلٌّ من أبي وأمي في إجراءات الدفن بعد أن سمعا بكائي الحاد ويئسا من شفائي، لكن شفائي المفاجئ وغير المتوقع جعلهما يقيمان طقسًا احتفاليًّا لم يكن بمقدورهما القيام به من قبل، ثم أطلقوا عليَّ اسم "لازارو" لكنني وقد أصبحت بسبب ذلك الاسم موضوعًا لكثير من النكات والدعابات، ولأن كثيرًا من الناس قد أصابهم الضيق من تشابه "لازارو" مع "لازاروس"، فقد لجأت أمي إلى اختصار اسمي إلى "أزارو".

تعلمت بعد ذلك ضرورة ألا أبقى ميتًا وألا أبقى حيًّا لمدة أسبوعين كاملين، وعرفت أن أبي وأمي قد بددا كل ما لديهما من طاقة ومال، كما عرفت – أيضًا – أن الرجل الذى يعالج بالأعشاب قد تراجع واعترف بعدم قدرته على فعل أى شيء فى علاج من هم فى مثل حالتى لكنه بعد أن ألقى بقواقعه وفك طلاسمها قال: "هذا طفل لا يريد أن يولد ولكن من الذى سيصارع الموت؟!"

ثم أضاف بأنه فى حال شفائى لابد لأبى وأمى أن يقيما فى الحال مراسم وطقوسًا تساعد فى قطع كل صلة لى بعالم الروح، وحين سمعت الأمهات ذلك الكلام عن الروح أصابهن الفزع، وأخبرهن بأننى أخفى تذكاراتى الخاصة بهوية الروح فى هذه الأرض، وأن المرض سيلازمنى حتى يتمكن أحد من العثور على تلك التذكارات، كما أكد لهن أننى سأموت قبل أن أبلغ الحادية والعشرين.

أنفق أبى وأمى كثيرًا من المال من أجل شفائى؛ فتراكمت عليهما الديون وكانت المتاعب الثقيلة التى جلبتها لهما قد جعلت أبى يشك إلى حد ما

فى قدرة المعالجين بالأعشاب، فقال لأمى ذات مرة: "لابد وأن يساورك الشك فيما يقولون وإلا فإنك ستقدمين كثيرًا من القرابين والأضحيات العبثية كلما خرجت من البيت".

انتابته الحيرة أيضًا تجاه ميلهم الشديد لعمل مراسم وطقوس باهظة التكاليف وكذلك فى طريقتهم التى يبالغون فيها دائمًا بنتائج المرض ليس لشىء سوى لشراء أدويتهم غالية الثمن ومهما كان الأمر فقد توقف كل من أبى وأمى عن عمل المراسم الخاصة بشفائى كما نسى كل منهما أو تناسيا أننى طفل روحى وهكذا مضى وقت طويل دون القيام بأى مراسم أو طقوس مما أسعدنى لأننى لم أكن راغبًا فيها وأيضًا لرغبتى فى الإبقاء على صلتى بالعالم الآخر، عالم الضوء وأقواس قزح، عالم الممكن الذى دفنت أسرارى من أجله فى ضوء القمر حيث الفراشات البيضاء تحلق فى الجو معلنة عن الحياة، عالمى الذى دفنت من أجله أحجارى السحرية ومرآتى ووعودى الخاصة وإشعاعاتى الذهبية وكل ما يتعلق بهويتى ويساعدنى فى الاتصال بعالم الأرواح، دفنت كل شىء فى مكان سرى يصعب نسيانه.

ظلت أمى فخورة بى تمامًا فى السنوات الأولى وكانت تقول لى: "أنت طفل المعجزات الذى يملك الكثير من القوة".

بدا لى وقد ظل اتصالى بالعوالم الأخرى باقيًا وظلت أشيائى مختبئة ولم يستطع أحد اكتشافها، أن الأمر سيستمر حتى يصبح حقيقة.

حين كنت طفلاً كان بمقدورى قراءة أفكار الناس ومعرفة ما يدور فى رءوسهم، وكذا التنبؤ بمستقبلهم وما كنت أبادر بمغادرة مكان ما حتى تقع فيه حادثة كما حدث ذات ليلة وأنا واقف فى الشارع مع أمى أمام أحد البيوت وسمعنا صوتًا يقول: "اعبروا بسرعة".

سحبت أمى بقوة من يدها وعبرنا الشارع وما هى إلا لحظات قليلة حتى اقتحمت البيت شاحنة مفصلية وقتلت كل من بداخله.

وفى ليلة أخرى استيقظت من النوم بعد أن حدَّق فيَّ الملـك العظـيم فمضيت مسرعًا إلى خارج الحجرة قاصدًا الطريق ثم لحق بى كل من أبـى وأمي وراحا يسحبانى للخلف غير أن المبنى عن آخره كان قد احترق وأذكر أن حياتنا تغيرت فى تلك الليلة.

امتلأ الطريق بالرجال والنساء، كانوا يغطون أجسادهم بلفافات قماشية فقيرة والنعاس يغالبهم وهم يعلِّقون المصابيح السوداء فى أيـاديهم، أصـبح الطريق مزدحمًا ولم تكن الكهرباء تعمل فى منطقتنا فأضاءت المصابيح فوق الرءوس؛ تلك الفراشات ذات العيون الغريبة والتى راحت بـدورها تبعـث وهجًا من الطيف فوق الوجوه الباهتة حتى شعرت بأننى وسط الأرواح مـرة ثانية. إنه عالم واحد يومض فى العوالم الأخرى.

كانت الليلة ملتهبة من الحريق وثمة بومة تحلِّق قريبًـا مـن المكـان المحترق والهواء مشبع بالصرخات والسكان يتدافعون جيئة وذهابًا لإحضار كميات كبيرة من الماء من أقرب بئر حتى تمكنوا من إخماد النيران تدريجيًّا لكن كل العائلات ظلت فى العراء طوال الليل مدثرين بملابسـهم ولفافـاتهم الممزقة ومراتبهم وهم يبكون لفقدان ممتلكاتهم لكن أحدًا لم يمت.

عندما اشتد الظلام حتى لم يعد بوسع المرء أن يرى أركـان السـماء البعيدة، وحين اختفت كل ملامح الغابة وقف مالك الأرض وبدأ فورًا فى إلقاء اللوم علينا ثم ألقى بنفسه فوق الأرض وراح يتدحرج ويفكر دون أن يتـردد فى إطلاق سيل جارف من اللعنات علينا إلى أن أعلن صارخًا: "كـان لابـد وأن تسيطروا على النيران فى أرضى كى لا تدفعوا زيادة فى الإيجار".

ثم قال بغضب شديد: "كيف سأتمكن من الحصول على النقود اللازمـة لإعادة بناء البيت؟".

وأضاف بصوت عالٍ: "لابد أن تسهموا جميعًـا فـى معالجـة هـذه الأضرار".

لكن أحدًا لم يهتم بكلامه حيث إن أول اهتماماتنا وأهمها كانت تنحصر فى كيفية وجود وسيلة جديدة للعيش، فرحنا نلملم أشياءنا وممتلكاتنا استعدادًا للتحرك.

قال مالك الأرض صارخًا فى الظلام: "عليكم جميعًا البقاء هنا".

ثم مضى فى طريقه مسرعًا حتى اختفى، لكنه عاد بعد ساعة وبصحبته ثلاثة من رجال البوليس الذين سارعوا بالانقضاض علينا وتكسير عظامنا بالهراوات وجلدنا بالسياط لكننا لم نستسلم وظللنا نقاومهم بالعصى والحبال حتى تمكنا من هزيمتهم وبعد أن مزقنا ملابسهم العسكرية الاستعمارية أرسلناها لهم فى صناديق، لكنهم عادوا بقوة أكبر وكان أبى غاضبًا جدًا فاستطاع أن يستدرج اثنين منهم إلى جانب الشارع حيث جلدهما بالسوط جلدًا مؤلمًا دون أن يتوقف إلا بعد أن هاجمه ستة من رجال البوليس تمكنوا من الإمساك به وإرساله إلى قسم الشرطة وفى أثناء ذلك شوَّهت قواتهم المعززة كل شىء بطريقة عنيفة وما أن انتهوا من جلد وإلحاق الأذى بخمسة عشر رجلاً وثلاثة أطفال وأربع نساء واثنين من الماعز وكلب جريح حتى بدأ الشغب.

أمطرت السماء فى عمق الليل بغزارة حتى أصبح حى الأقلية كالخرقة البالية ورغم أن الأمطار لم تدم طويلاً إلا إن الطرق تلحفت بالطين غير أن المياه ساعدت فى امتصاص غضبنا لكن أغانى الحرب القديمة والرماح والسكاكين راحت تلوح بالتهديد كما ظهرت العصابات فجأة فى الظلام ومضى الجميع فى سيره فوق الطين حتى وصلوا إلى الطريق الرئيسى فهاجموا السيارات والحافلات وتصدوا لدوريات الشرطة واقتحموا الدكاكين ثم بدأ كل شخص يشارك فى سرقة كل شىء وحرقه وتدميره، فيما كانت أمى وهى تحملنى مدفوعة بالزحام المسعور وحين أرادت تعديل وضع لفافتها استعدادًا لما هو أسوأ وضعتنى جانبًا فى الطريق الرئيسى قريبًا من منطقة الشجار حيث فقدت أمى وسط الزحام.

ظللت أهيم فى الأرض المليئة بـالعنف دون أن تفـارقنى ضـحكات الأرواح، كان القمر فى السماء ينمو ويكبر شيئًا فشيئًا ويغطى البيوت ظـلام كثيف، وكان الطريق ممتلئًا بالزجاجات المكسورة والخشب المقطوع، سرت هائمًا على وجهى وأنا عارى القدمين وكانت أكوام الزبالة سببًا فى اشـتعال الحريق بشدة أكثر، أخرجوا الرجال من سياراتهم وانبعث الدخان من البيوت وتعثرت أنا فى خطواتى باحثًا عن أمى حتى وجدت نفسى فى شارع مظلـم إلا من شمعة وحيدة ينعكس ضوؤها قريبًا من منزل مهجور، سمعت غنـاءً مؤثرًا ارتعش الشارع على إثره وعصفت الظلال وانتشرت رائحة عفنة من العرق ومن الخرق البالية ثم دقت الطبول فى الهواء بينما ظلت قطـة أليفـة تموء بخوف كأنها ملقاة فى قلب النار، وفجأة انبثق من الطريق عملاق متنكر بالريش ينبعث من رأسه دخان كثيف فصـرخت مـن الخـوف وسـارعت بالاختباء خلف أحد الأكشاك، كان المتنكر مخيفًا وملتهبًا وقد مـلأ الشـارع بزئيره الباعث على الكآبة والمختلط بهدوء قديم، بدا لى ظله – وأنا أراقبـه بخوف – كشجرة كبيرة تحترق كأنها ترقص فى الشارع الخالى.

حضر رجال أقوياء وشجعان ذوو وجوه ضخمة متلألئة فـى الظـلام وهم يرتدون أروابًا مضيئة كانت حلقات الرقص الصاخبة قد أعـاقتهم عـن الاشتراك فى الشغب وعندما ساروا بمحاذاتى زحفت بعيدًا عن المكان الـذى أختبئ فيه وعدت إلى الطريق الرئيسى وقد أصابنى الهذيان، لكـن بعـض النسوة ظهرن فجأة فى الظلام وهن يتعاطين أعشابًا مرة المذاق واقتربن منى فشاركتهن تلك الليلة الغاضبة.

(٣)

هبطت النسوة إلى الشوارع وكانت إحداهن تحمل كيسًا أسود، وأخرى ترتدى نظارة وثالثة تلتحف بغطاء واقٍ ورحن يجرين وسط الزحام كما لو أنهن ظلال أو مجرد زائرات من مملكة أخرى دون أن يلمسهن أو يلحظهن أحد وحينئذ لم أتفوه بكلمة واحدة.

عندما وقفن فى مفترق الطرق ووضعن البيض الأبيض المتلألئ فوق الأرض لاحظت أنهن جميعًا يرتدين ثيابًا بيضاء فضفاضة لكن وجوههن مختبأة خلف حجاب، واستطعت بالكاد رؤية عيونهن من خلال فتحات فى الأحجبة وبعد أن قدمن معروضاتهن فى مفترق الطرق نزلن إلى الشوارع قريبًا من حالات الشغب والاضطراب ثم دخلن الغابة وظللن يجرين فى ظلام دامس وجو من الهدوء الملبد بالسحب حتى شاهدن واقعًا آخر متمثلاً فى شخص متنكر وضخم يمتطى حصاناً أبيض ذا أسنان خشنة وعينين مشرقتين كالماس، تلاشى كل من الحصان والمتنكر فانطلقت صرخة قوية فى الهواء، ثم امتلأت الغابة بكائنات غريبة حتى أصبح السوق مزدحمًا جدًّا وكانت الأضواء الحمراء تشع من أعين تلك الكائنات الغريبة والدخان ينبعث من آذانها كما أن لهبًا أخضر كان يتوهج فوق رءوسهم، كان عددهم كبيرًا ومن بينهم الطويل والقصير، وكذلك البدين والنحيل وحين بدأوا فى التحرك ببطء اصطدموا ببعضهم البعض بينما راحت النسوة يجرين وسط تلك الكائنات دون خوف.

اجتزنا جماعة من الرجال كانوا عائدين لبيوتهم محملين بغنائمهم ثم مررنا بجوار امرأة جالسة تحت إحدى الشجرات، كانت المرأة تنزف من أحد جوانب رأسها فلم تتردد النسوة فى اصطحابها معهن، وعندئذ استطعت أن

أسمع همهماتها الغاضبة طوال الطريق إلى أن توقفنا عند حافة النهر حيث كان الزورق الطويل فى انتظارنا.

قبل أن أفعل أى شىء سارعت النسوة بإلقائى فى الزورق ثم وقفنا جميعًا فى صفوف فى مواجهة الجانب الآخر من الجزيرة التى لا تبعد كثيرًا وحين بدأت أصطدم بالزورق رحت أقاوم ورحن بدورهن يدفعننى بأقدامهن الخشنة ثم دثرننى بثيابهن الفضفاضة الواسعة.

وصلنا إلى الجزيرة فرفعتنى المرأة – التى ترتدى نظارة – ووضعتنى خارج الزورق ثم اصطحبتنى إلى الكوخ حيث اغتسلت فى حمام حقيقى وبعد أن جففتنى بفوطة خشنة وضعت الزيوت فوق كل جسدى، قادتنى إلى البيت المقدس وطلبت منى أن أتمدد فوق الحصيرة لكننى حاولت ألا أنام تلك الليلة ربما لعدم قدرتى على النوم أو حتى التحرك من مكانى حيث بدت كل التماثيل فى الظلام كأنها حية كما تراءت لى الصور وكأنها تتنفس وتراقب كل تحركاتى وتستمع إلى أفكارى.

فى الصباح وجدت نفسى فى حجرة فارغة فنهضت وقبل أن أصل إلى الباب دخلت النسوة وهن صامتات تمامًا وعيونهن مفعمة بالإصرار ثم رمقننى بنظرات ملأها التوسل، كما لو أننى أملك قوة إنقاذ حياتهن.

أدهشتنى رقتهن وهن يذهبن بى إلى بيت جميل وبعد أن بسطن أمامى أطباقًا عدة من الطعام تجمعن حولى وظللن يراقبننى وأنا أتناول الطعام وعندما انتهيت ألبسننى روبًا نظيفًا مصنوعًا من قماش أبيض ناعم فشعرت عندئذ بأننى ملفوف بالسحاب ثم رحن يلمسننى برقة قبل أن يغادرن الحجرة.

خرجت من البيت وبدأت فى التجول حول الجزيرة بافتتان.

هبت رياح متقطعة فوق البحر فاختلط الرمل الأبيض الناعم بالألغاز ومضيت فى طريقى عائدًا دون أن أتوقف عن التحديق فى الأمواج حتى

اقتربت من البيت المقدس وعندئذ فاجأتنى ربة الجزيرة الفاتنة بوجهها الجميل وعينيها الرخاميتين المتلألئتين فى الشمس وقدميها الملفوفتين بأجراس معدنية والمحاطة بجوزة الكولا وريش الملائكة والطاووس وعظام حيوانات وعظام أخرى كبيرة جدًّا لا يمكن أن تنتمى إلى الحيوانات، كانت تتوسط دائرة كاملة من البيض الأبيض الموضوع فى أطباق سوداء وفى مواجهة البحر كانت تتجلى بوضوح فتنتها الرائعة العجيبة.

كانت عينا ربة الجزيرة الفاتنة تتلألآن فى الليل كأحجار القمر، وكانت رياح البحر تداعب شعرها الشبيه بألياف النخيل فتنبعث منه أصوات نغمات طريدة وحين سمعت فى الليل صرخاتها الحادة المفعمة بالوجد سارعت بالخروج، أما عن فتنتها القاسية فلم تكن سوى مفاجأة للبحر الهائل حتى يمكن القول إنها كانت قادرة على أن تهب الميلاد لإله جديد أو عالم جديد.

كنت نائمًا فى البيت المقدس بين أشكال وصور جميلة عندما أيقظتنى دقات الأجراس، نظرت إلى ما وراء الباب فأبصرت النسوة وقد تدثرن بالثياب البيضاء يرقصن رقصات ساحرة حول المعبودة الفاتنة فلم أتوقف عن مشاهدتهن فى الظلام ثم شعرت فجأة بشىء ما يتحرك خلفى، كانت قطة قد تسللت من إحدى الصور الجميلة واقتربت منى بهدوء ثم جلست فوق قدمى وظلت تحدِّق فى بعينين مرصعتين بالجواهر وحين تحسست فراءها سمعت صوتًا يقول: "أأنت أحمق؟"

التفتت حولى فلم أرَ سوى التماثيل التى تراقبنى فعاودت مداعبة القطة لكن نفس الصوت قال: "لماذا لم تهب ربة الجزيرة الميلاد بعد؟"

أجبت دون أن أتحرك: "لا أعرف."

قال الصوت: "لأنها لم تجد طفلاً تهبه الميلاد، وإذا لم تكن حذرًا فسوف تولد أنت للمرة الثانية هذه الليلة."

كنت قادرًا فى بعض الأحيان على إدراك لغة الحيوانات وحينئذ كنت أستيقظ من حالة السحر والافتنان التى تتلبسنى وسرعان ما ينتابنى إدراك كامل للخطر الذى يواجهنى وهكذا شعرت حين اقتربت القطة منى فسمعت فى أحد أركان الحجرة المظلمة أنينًا خفيضًا لامرأة عرفت أنها نفس المرأة التى أصابها جرح أثناء الشغب، كانت قدماها ترتجفان وهى شبه نائمة وكأنها غارقة فى الأحلام، قمت بهزها لكى تستيقظ ففتحت عينيها الزائغتين ونظرت نحوى وهى تقول: "ابنى!"

قلت: "سيفعلون شيئًا من أجلى."

حدّقت فىّ بغير انفعال ثم أضفت: "لن تحب أمى ذلك."

بدأت فى البكاء دون أن تتوقف فقد فقدت ابنها أيضًا أثناء الشغب وحينئذ قلت لها مقترحًا: "دعينا نهرب."

نهضت ببطء بعد أن توقفت عن البكاء ثم تسللنا معًا خارج البيت المقدس قاصدين الزورق وعندما تجمع كثير من الناس من كل أنحاء الجزيرة على إثر صرخة مختنقة صادرة من البيت المقدس كنا نقوم بالتجديف فوق الزورق بيأس شديد بعد أن ضربت الأمواج الزورق من كل اتجاه وبعد أن اشتدت الرياح التى ساعدت فى توصيل الصرخة المختنقة إلى شعر ربة الجزيرة الشبيه بألياف النخيل.

عند منتصف الطريق هجرت النسوة طقوسهن وجئن خلفنا وكان وجه المرأة مليئًا بالكدمات وعيناها متدليتين فى ضوء القمر لكنها كانت تجدف كالأبطال غير أنها بذلت مجهودًا كبيرًا جعلها تنهار تمامًا عندما وصل زورقنا إلى الشاطئ وحين حاولت إنعاشها بالماء المالح كانت تئن وتتوجع بشدة دون أن تقول شيئًا سوى: "ابنى، ابنى."

لم أستطع أن أفعل شيئًا حتى وصول بقية الزوارق الغاضبة إلى الشاطئ لكننى صليت من أجلها ثم سارعت بالجرى بلا توقف هربًا من أولئك النسوة الصامتات.

(٤)

نمت فى تلك الليلة تحت إحدى الشاحنات وفى الصباح ذرعت شوارع المدينة جيئة وذهابًا، كانت البيوت كبيرة والسيارات تنطلق مدوية فى كل مكان والناس لا يتوقفون عن التحديق فى وجهى، وعندما وصلت إلى السوق ورأيت الكعك والفاكهة الطازجة والأسماك المجففة وحين تسللت رائحة لسان الحمل المشوى إلى أنفى أدركت حينئذ أننى جائع فذهبت من دكان إلى آخر متطلعًا إلى التجار الذين طلبوا منى الابتعاد لكن رجلاً ذا ملامح حادة - يعمل بأحد الدكاكين - رمقنى بنظرة خاطفة وقال: "هل أنت جائع؟"

أشرت برأسى فقدم لى رغيفًا من الخبز وعندئذ لاحظت أنه بلا إبهام فى يده وأن له أربعة أصابع فقط، قدمت له الشكر ثم تجولت فى السوق حتى أبصرت برميلاً سارعت بالجلوس فوقه، وبدأت أتلذذ برغيف الخبز.

كان السوق مليئًا بالناس الذين يتحركون فى كل مكان ويتخبطون فى بعضهم البعض وهم يمارسون حالات المقايضة وكان الحمالون يترنحون تحت أحمالهم الثقيلة فبدا لى الأمر وكأن العالم كله موجود فى السوق، شاهدت أشكالاً وأحجامًا مختلفة من الناس، نساء يتسمن بالضخامة ونساء نحيلات يربطن الأطفال خلف ظهورهن وأقزام بوجوه متحجرة ورجال ذوو عضلات أكتاف منتفخة بفعل الإجهاد وما هى إلا لحظة قصيرة حتى شعرت بنوع من الدوار كما أننى شعرت بالأذى وأنا أرى الكلاب الضالة والدجاج الذى يرفرف فى الأقفاص وعيون الماعز الفاترة.

أغلقت عينى وما أن فتحتهما حتى تراءى أمامى ذلك القزم الذى يمشى على إصبعين، ورجال مقلوبون رأسا على عقب وهم يضعون سلال الأسماك فوق أقدامهم، ثم بعض النسوة اللاتى لهن أثداء فى ظهورهن ويحملن أطفالاً

صغارًا فوق صدورهن بالإضافة إلى أطفال آخرين يتمتعون بالجمال لكنهم بثلاثة أذرع ووسط كل ذلك الخليط من الناس رأيت فتاة بعيون في جانب وجهها ويلف رقبتها خلخال من النحاس الأزرق بدا لى أكثر جمالاً من كل زهور الغابة، أصابنى خوف شديد فقفزت من فوق البرميل وتحركت بعيدًا لكن صاحبة الخلخال النحاسى الأزرق صرخت قائلة: "ذلك الولد يستطيع رؤيتنا."

نظروا جميعًا نحوى فاتجهت ببصرى إلى مكان آخر ثم سارعت بالابتعاد عن السوق المزدحم بالناس قاصدًا الشارع لكنهم تبعونى وكان من بينهم رجلٌ يملك أجنحة فى قدمه وفتاة تلف رقبتها بخياشيم السمك، ظلوا بالقرب منى لمعرفة ما إذا كنت أراهم حقًّا أم لا؟! فاستطعت أن أسمع همساتهم الصادرة من أنوفهم ثم تظاهرت بعدم رؤيتهم ورحت أركز فى النظر إلى أكوام الفلفل الأحمر الموضوعة فى الشمس ورغم ذلك فقد ازدحموا حولى ووقفوا عائقًا فى طريقى فلم أجد بديلاً عن السير بينهم وكأنهم غير موجودين.

بعد لحظة قصيرة تركونى وحيدًا بينما كنت أنظر بتأمل إلى التفاح البرى الذى يشقق حافة أحواض الزهور وكانت هى المرة الأولى التى أدرك فيها أن أسواق العالم لا يرتادها الإنسان وحده، وإنما الأرواح وكائنات أخرى أيضًا حيث يبيعون ويشترون ويستعرضون سلعهم ويستثمرون أموالهم ويتجولون بين فاكهة الأرض والبحر.

اتجهت إلى مكان آخر فى السوق دون أن أنظر إلى الناس الذين يعج بهم السوق أو إلى أولئك المثقلة رءوسهم بالأحمال والشعر الأشقر لكننى كنت راغبًا بشدة فى معرفة المكان الذى جاءوا منه، كما أدهشنى أولئك الراحلون من السوق إلى بيوتهم بعد انتهائهم من البيع والشراء وقد أصابهم التعب، كنت أتابعهم عبر الشوارع والطرق الضيقة والدروب المنعزلة غير أننى كنت أتظاهر طوال الوقت بأننى لا أراهم.

عندما وصلوا إلى قطعة أرض واسعة وخالية من الأشجار فى الغابة ذهبت كل مجموعة منهم إلى طريق مختلف بعد أن قالوا لبعضهم وداعًا بطريقة غريبة، ولقد كان من المفزع حقًا النظر إلى الكثير منهم غير أن كثيرين أيضًا كانوا جذابين وعدد آخر ليس قليلاً كان قبيح الشكل إلى حد ما لكن ذلك القبح أصبح عاديًا. بعد لحظة اخترت أن أتتبع روح طفل صغير كان يجر كيسًا كبيرًا وله وجه سنجاب حين كان زملاؤه يتحدثون إلى بعضهم البعض ويضحكون بأصوات خفيضة مبحوحة وهم يواصلون السير، كان أحدهم ذا قدم كالصفيحة المعدنية الرقيقة، وآخر بذيل تمساح صغير والأكثر إثارة أن عيونه كانت شبيهة بعيون الدولفين.

كانت قطعة الأرض الواسعة هى بداية الطريق السريع حيث اقتلعت شركات البناء الأشجار وسوتها بالأرض حتى أصبحت الأرض فى بعض الأماكن حمراء اللون، عبرنا شجرة مقطوعة يتدفق من أصلها المتبقى سائل أحمر وكأنها كانت عملاقًا قاتلاً لا يتوقف الدم عن التدفق منه وعندئذ ذهب طفل الروح الصغير إلى حافة الأرض الواسعة واقترب من جرح عميق فى الأرض وحين نظرت إلى ذلك الجرح سمعت صوتًا مدويًا وحادًا وكأن شيئًا ما قد انشطر إلى نصفين فأغلقت عينى وأنا خائف وعندما فتحتهما وجدت نفسى فى مكان آخر حيث اختفت الأرواح فبدأت فى الصياح وراح صوتى يدوى فى الهواء المظلم المشبع بالضباب، وما هى إلا لحظات حتى وجدت سلحفاة ضخمة بجوارى، رفعت السلحفاة رأسها بكسل ونظرت نحوى كأنها تؤنبنى لأننى تسببت فى إزعاجها وإيقاظها من النوم ثم قالت: "لماذا تصيح؟"

- إننى تائه.
- وماذا يعنى ذلك؟
- أقصد بأننى لا أعرف أين أكون.
- أنت فى النفق.
- وأين هو ذلك النفق؟

- فى بطن الطريق.
- هل للطريق بطن؟
- وهل للبحر فم؟
- لا أعرف.
- هذا شأنك.
- أريد الذهاب للبيت.

قالت السلحفاة: "أنا لا أعرف مكان بيتك وبالتالى لا أستطيع مساعدتك."

تحركت ببطء بعيدة عنى فرقدت فوق التراب الأبيض وبكيت حتى غالبنى النعاس وعندما استيقظت وجدت نفسى داخل إحدى الحفر التى تم حفرها من أجل استخدام رمالها فى تمهيد الطريق، تسلقت خارجًا من الحفرة وهربت إلى داخل الغابة.

احتضنت ما تبقى من رغيفى ونزلت إلى الشارع وعند ملتقى الطريق طلبت ماءً من بائعة الطعام فناولتنى بعضًا منه فى كوب أزرق، قضمت كسرة من رغيف الخبز وشربت الماء ببطء ثم لاحظت رجلاً ذا شعر أحمر يقف بجوارى ويرتدى قميصًا قذرًا ممزقًا والذباب يطن حول أذنيه وتنبعث منه رائحة كريهة لولاها لما كان يسيرًا ملاحظته، كما كانت أجزاء جسده الخاصة تظهر من سرواله وقدماه مليئة بالقروح وبدافع الفضول رحت أنظر إليه بتمعن فبدا لى بأربع عيون ربما من كثرة الذباب فوق وجهه. تحرك بطريقة عنيفة فتبعثر الذباب من فوق وجهه وأذنيه وعندئذ شاهدت عينيه تتقلبان فى كل الاتجاهات بصعوبة كما لو أن كل عين ترغب فى رؤية العين الأخرى، انتبهت لوجوده وقد بدأ يحدق فى أيضًا، تناولت كسرة أخرى من رغيفى وشربت بعدها ما تبقى من الماء، ثم انطلقت بعيدًا دون أن أنظر خلفى لكننى كنت متأكدًا من تعقبه لى حيث استطعت أن أسمع حوارًا خاصًا

للذباب المنتشر حول أذنيه كما أننى – بطريقة ما – استطعت أيضًا أن أشم رائحة جنونه.

أسرعت الخطى فأسرع هو الآخر لكن خطواته السريعة أحدثت صخبًا، مشيت فى المجمع السكنى قاصدًا واجهة البيت فوجدته هناك منتظرًا وظل يطاردنى ويلاحقنى وهو يهذى بلغات غريبة، اندفعت بسرعة نحو الطريق، وعند السوق اختبأت خلف إحدى الشاحنات لكنه كان يتتبعنى كظلى ولم أستطع الفكاك منه حتى صار وجوده مرعبًا، أصابنى اليأس واخترت طريقًا آخر للهرب لكن صوت الشاحنة المدوى أخافنى فسقطت منى كسرة من الرغيف ثم جريت مسرعًا بينما كان قلبى يدق بقوة فى صدرى وما كدت أشعر بالأمان حتى رأيت الرجل خلفى عند منتصف الطريق، انتزع منى الرغيف ووضعه فى فمه وحين بدأت السيارات تزعق من حوله رحت أجرى بلا انقطاع دون أن يفارقنى الخوف من احتمال تعقبه لى.

وصلت إلى شارع مألوف فتحررت من هاجس الرجل وفى قمة ارتباكى حاولت أن أدرك ما هو معروف عن المنطقة، كان الجو مشبعًا بأصوات الأطفال العذبة ووسط النفايات شممت رائحة وردة مزدهرة، بينما كانت تنطلق من البالوعة رائحة البخور، وكانت البيوت مغطاة بالتراب أما فى فراغات الليل فكانت الطيور البيضاء تحلق فوق الأشجار ووسط كل ذلك لم أتوقف عن محاولاتى فى إدراك شىء ما عن المنطقة، بدأت الفراغات تتمدد فى الشارع كما لو أن ضوء الشمس قد تحرر من كل المعوقات فى طريقه فتغير شكل المنطقة وبدا كالحقول الممتدة المقدسة، صدمتنى تلك الغرابة التى بدت لى مألوفة فازدادت حدة أنفاسى وفى الليل تلحف الشارع بضوء القمر وعندئذ تعرفت على صوت الأطفال وهم يغنون حولى فى سلسلة منظمة ومكثفة، إنها أصوات الفجر لزملائى الروحيين حين كانوا يحاولون إغرائى بالعودة إلى عالم الأحلام بعيدًا عن ذلك العالم الذى لا أحد فيه يهتم بى، وإلى العالم الذى لا يمكن أن أتوه فيه أو أضل طريقى أبدًا.

اختلطت أصواتهم بضوء القمر فصارت أكثر عذوبة وأكثر من قدرتى على الاحتمال فشعرت بنفسى قابلاً للدخول فى فضاء آخر وحين كنت أنظر إلى أى مكان كنت أجد الأرواح تجتاحنى بحضورها وظهورهـــا المفـــاجئ حتى أصبحت خاضعًا تمامًا لرائحة الزهور، كما سببت لى أغنياتهم الرائعـــة جراحًا غير مرئية فأصابنى الذبول من جراء ألحانهم الجميلة وبينمـــا كنـــت أتعثر فى الطريق أبصرت كل الأرواح فى كامل فتنتها فوق حقل من أقواس قزح وهم يستحمون فى نشوة الحب الأبدى، شعرت برأسى تتمـــزق وفـــوق الطريق المزدهرة أصابنى الانهيار بينما كانت الشـــاحنات تحـــدث هـــديرًا صاخبًا من حولى.

(٥)

اقتادونى إلى قسم الشرطة وبعد ذلك حملونى إلى المستشفى لمعالجة جروحى، كان ضابط الشرطة قد أخذ على عاتقه مهمة العناية بى بعد أن أطلقوا سراحى إلى حين العثور على أبى وأمى، كان رجلاً ضخمًا ذا جبهة عريضة وفتحة أنفه مليئة بالشعر، اصطحبنى فى سيارته البيضاء إلى منزله حيث زوجته البدينة الطويلة ذات الطبيعة الهادئة والتى ما أن رأيتها حتى تذكرت نساء الجزيرة، ساعدتنى فى الاغتسال بعد أن جهزت لى الحمام وألبستنى ملابس ابنها ثم تناولنا معًا طبقًا رائعًا من الطعام بنكهة الجمبرى واللحم مع أرز بنكهة القرفة أما لسان الحمل المقلى فكانت تنبعث منه رائحة الأعشاب القوية كما كان الدجاج المحمر لذيذًا ولا يمكن مقاومته.

كانت حجرة المعيشة التى تناولنا فيها الطعام فسيحة ومريحة ويحدها فى الوسط سجاد وثير وفوق الحوائط الزرقاء كانت شهادات التخرج معلقة فى إطارات وفوق صورة المسيح بقلبه الكبير وذراعيه الممدودتين كانت الكلمة المطبوعة تقول: "المسيح هو الضيف غير المرئى فى كل بيت".

أبصرت صورًا لضابط الشرطة وزوجته وولد وسيم ذى عينين حزينتين، كان الولد ينظر إلى وأنا أتناول طعامى وبعد لحظة بدأت أرى ما يراه ثم عرفت أنه ميت ففقدت شهيتى وتوقفت عن الأكل.

بعد الطعام قادتنى المرأة إلى حجرتى وقد انتابنى الخوف لامتلاك كل هذه الحجرة وحدى وعندما أغلقت الباب خلفها أدركت أنها حجرة ابنها فها هى لعب الأطفال الخاصة به وكتبه المدرسية وها هو حذاؤه المحفوظ بعناية وهذه أيضًا صوره المعلقة فوق الحائط فلم أستطع أن أنام تلك الليلة، كانت توجد آثار أقدام وحشية فى كل أرجاء المنزل وفى الفناء الخلفى كانت ثمة قطة تموء، ثم مؤخرًا وعندما حل الظلام دخل الحجرة شخص ما وظل

يتحسس الصور ولعب الأطفال فأحدث صوتًا كالصليل لكنني لم أستطع التعرف عليه غير أنني سمعت رنين أجراس خافت بعد أن اختفت آثار الأقدام الوحشية ولم أستطع النوم إلا عند الفجر.

بقيت في منزل الشرطي لعدة أيام حيث كانت زوجته لا تتوقف عن البكاء مما جعل عينيها واسعتين على الدوام وقد عرفت من همساتهما الليلية أن ابنهما قد مات في حادث طريق، كانت زوجة الضابط تعاملني بطريقة حسنة معظم الوقت وكانت تصنع لي الكعك اللذيذ وأطباق الخضروات، كما كانت تمشط شعري بعد الحمام وتضع الزيوت فوق وجهي وأثناء قيامها بتنظيف حجرة الجلوس أو أثناء غسيل الملابس كانت تغني لي وكنت أحيانًا أساعدها في التنظيف فننفض الغبار عن المائدة وخزانة الأكواب بما تحتويه من أفيال وسلاحف بلورية وأطباق خزفية، كما كنا نقوم بتلميع القناع الكبير المعلق فوق الحائط ودائمًا ما كنت أرتدي ملابس ابنها الجميلة ولم يحدث أن خفت منها إلا عندما بدأت تناديني باسم ابنها.

في الليلة التالية ازدادت حدة الضجيج والحركة في المنزل حيث سمعت شخصًا ما يتجول في المكان وكأنه في سجن فاهتزت خزانة الأكواب ودقت الأجراس وراحت الطيور تغني بالقرب من نافذتي. في الصباح أعطاني الضابط مصروفًا وتحدثت زوجته معي بلطف ثم قدمت لي طعام الإفطار وقد ظلت تنظر نحوي وأنا أتناول طعامي ثم جاء وقت ما بعد الظهر حيث كان المنزل هادئًا بعد أن خرجت المرأة وأغلقت كل الأبواب، نمت في حجرة المعيشة فوق الأريكة وحينما استيقظت انتابني شعور بأنني لست وحدي في المنزل، كنت جائعًا فشعرت بالدوار وبينما رحت أتجول في المنزل بحثًا عن باب مفتوح تلبسني شبح غريب ظل يتجول ويطوف بداخلي ولم أستطع الفكاك منه، ثم قال لي أشياء عجزت عن فهمها، وما هي إلا دقائق معدودة حتى شعرت بأن روحًا حزينة تحتل جسدي بالكامل.

فعلت كل ما بوسعى لإخراج الروح من جسدى، قاومت كثيرًا وتقلبت فى فراشى وبكيت وضربت نفسى فى الحوائط لكننى وجدت نفسى بعد لحظة أنزف من فمى وأنا واقع على الأرض، خرج منى شىء ما وبدأ يتحدث إلى الحجرة بينما كانت المرأة تقف فوقى فعرفت أن الروح التى خرجت منى تتحدث إليها لكنها لم تكن قادرة على سماع أى شىء.

حملتنى المرأة إلى حجرتى وعندما استيقظت فى المساء شعرت بأننى مريض جدًا ولم أكن أعلم من أكون وحتى أفكارى بدت وكأنها تنتمى إلى شخص آخر فقد خلَّفت الروح الحزينة بداخلى مساحات شاغرة، نمت طوال ذلك المساء وطوال الليل ولم أستيقظ إلا بعد ظهر اليوم التالى وبرغم عدم تناولى للطعام يومين كاملين إلا إننى كنت فاقدًا للشهية ولم أكن راغبًا فى عمل أى شىء، كنت فقط أسبح فوق موجات بيضاء من التعب.

فى تلك الليلة وأنا راقد فوق السرير فتح الضابط الباب بصحبة زوجته وطبيب الأعشاب وعندما دخلوا تظاهرت بأننى نائم، كان طبيب الأعشاب يحمل سكينًا متلألئة وكانوا يتحدثون عنى بهمس ثم غادروا الحجرة بعد لحظة قصيرة وقد تركوا بجوار سريرى طاسة من الأرز والدجاج سارعت بالتهامها، وما أن انتهيت منها وشعرت بتحسن طفيف حتى بدأت أخطط للهرب.

ساد الحجرة ظلام كثيف فسمعت كل الأصوات المنتشرة فى كل مكان بالمنزل، كما سمعت همسات الهواء وأحاديث الحوائط وأزيز الكرسى وثرثرة الحشرات وكانت الصور والتماثيل والأشكال المختلفة تتحرك فى الظلام ورأيت كائنات صفراء مفعمة بالحياة والإثارة وأشكالاً بيضاء تطفو وظلالاً زرقاء تطير عند سقف الحجرة لكننى عندما سمعت الناس تتكلم أصبح كل شىء حولى صامتًا ولم أعد أسمع شيئًا فانتظرت قليلاً ثم تسللت خارجًا إلى حجرة الجلوس لعلى أستطيع أن أسمع.

(٦)

كان ضوء الشمعة الأزرق ينبعث من المصباح فوق مائدة الطعام فانتشرت الظلال فى أرجاء المكان الذى اتسم بالهدوء بينما كانت سبع شخصيات من الرجال فى هيئة صور ورموز تجلس حول المائدة وفراشة ما تطير حولهم ورجل ثامن يقف دون حراك سرعان ما اكتشفت أنه ضابط الشرطة صاحب تلك الدعوة.

بعد أن دققت النظر بدا لى المشهد أكثر وضوحًا فاستطعت رؤية الزجاجات الثمانى فوق الطاولة وهى تتلألأ بمجرد أن يلامسها ضوء المصباح الأزرق كما أبصرت زجاجة أخرى مملوءة إلى نصفها فقط وإلى جوارها صحن فنجان أبيض بداخله فصوص جوزة الكولا وبعض أصابع الصلصال ثم صورة المعبودة الفاتنة ذات خصلات الشعر القصيرة.

ساد الحجرة غناء مؤثر وعندئذ طلب الضابط من الرجال أن ينهضوا فبدوا فى الضوء الخافت كرجال الشرطة فى زيهم، استأنفوا الغناء بصوت خفيض ثم تشابكت أياديهم عبر الطاولة تعبيرًا عن الترابط وأخيرًا عادوا للجلوس بينما ظل الضابط واقفًا.

كان الذباب يطن حول المائدة حين رفع الضابط الصنم ذا العينين الزمرديتين الشبيهتين بعيون الأفعى التى كانت تلمع فى الأضواء الخافتة وراح يلوح به فى الهواء، ثم قال شيئًا ما نهض على إثره أول الرجال السبعة بعينيه الضيقتين وشاربه الصغير وأنفه المبلل بالعرق وجسده المرتعش قليلاً، أمسك الرجل بالصنم ثم بصوت قوى ومفاجىء أقسم قائلاً: "أشهد أمامكم وعلى مرأى من النظرات المخيفة لمعبودتنا وتحت تهديد الموت أننى كنت مخلصًا وأمينًا بشأن ماجمعته من نقود وهاأنذا أقدمها لكم الآن".

كان بقية الرجال وهم جالسون يظهرون على هيئة صور ورموز وما أن انتهى الرجل الأول من قسم اليمين حتى بدأوا فى إنشاد بعض الأغانى المثيرة للخوف وبعد أن توقفوا عن الغناء تناول الرجل الأول قطعة من الصلصال وقطعها وهو يتصبب عرقًا من شدة حرارة الحجرة وسارع بمضغ قطعة منها ووضع ما تبقى فوق جبهته، ثم قال بصوت مرتعد: "إذا كنت قد كذبت أو لم أكن صادقًا فى قسمى وخائنًا لعهدى بأى شكل من الأشكال فإن شاحنة سوف تدهسنى".

كان يتحدث من البلعوم وفى محاولة منه لالتقاط أنفاسه أمسك بالزجاجة وتناول جرعة كبيرة من محتوياتها ثم أخرج النقود التى جمعها ووضعها فوق الطاولة ولما عاد للجلوس فى الخلف بجوار الضوء الخافت كان قد تحول إلى رمز مرة أخرى.

بدأ الضابط يعد النقود بتأنٍّ وبطء شديدين حين كان الرجل الأول يقلد صوت الخنزير فمنحه الضابط نصيبه من النقود ووضع البعض الآخر تحت صحن الفنجان واحتفظ بالباقى، تكررت نفس الطقوس مع كل الرجال دون أن تتوقف الفراشة عن الدوران حول رءوسهم طوال الوقت حيث وضع الرجل الثانى نقوده فوق الطاولة بحماس وثقة ثم جلس بعد أن انتهى من تلاوة القسم، أما الثالث فكان ضخمًا وعريضًا وذا بطن كبير وصوت حاد وعينين زائغتين لم تتوقفا عن التجوال فى أرجاء الحجرة بينما كان الرابع بدينًا وذا مزاج مرح غير أن النكتة التى قالها لم تلقَ سوى الهدوء والفتور وعندئذ راح يواصل حلف اليمين وهو يلوح بسكين حمراء ويضع نقوده فى تردد، أما بالنسبة للرجل الخامس الصغير بعض الشيء وصاحب الصوت المزعج فقد أقسم بعدد كبير من الآلهة وذكر أسماءً مقدسة وسرية تعبيرًا عن إخلاصه وأمانته حتى قال: "فلتقتل الآلهة ابنى الوحيد إذا كنت كاذبًا".

التزم الضابط بالصمت فسارع الرجل الخامس بالجلوس.

كان الرجل السادس نحيلاً وطويلاً ومجللاً بالوقار وأثناء قيامه بطقوس القسم لم يتصبب عرقًا كما لم تطف الفراشة حوله وبعد الانتهاء مـن تـلاوة قسمه وإعلان صدقه وولائه أصبحت إضاءة المصباح أكثر إشعاعًا وفى تلك اللحظة عدت للخلف لمراقبة المشهد بوضوح أكثر فأعجبنى منظر الفراشـة وهى تحط فوق جبهة الرجل السابع الذى لم يفعل شيئًا للتخلص منها لانشغاله الكامل بتلاوة القسم والتعبير عن ولائه بصوت قوى وبالعرق الغزير المتدفق من وجهه، تناول جرعة من الزجاجة أثناء قيامه بالإعلان عن ولائه الأبـدى فسقطت صورة ابن الضابط على الأرض لكن الزجاج لم يتكسـر غيـر أن الشمعة داخل المصباح ظلت ترتجف مما زاد من إضاءة الحجـرة، كانـت رموز الرجال الأخرى تنظر إلى الرجل السابع فى هدوء بينمـا كنـت أنـا مشغولاً بمتابعة الفراشة وهى تضرب أجنحتها فوق زجاج المصباح الساخن حين راح الرجل السابع يضع نقوده فوق الطاولة لكنه قبل أن ينتهى من حلف اليمين ارتدى فجأة قبعته وغادر المنزل.

بعد الانتهاء من كل تلك الطقوس بدا الأمر كأن شيئًا لم يحدث حيـث راحوا يشربون كثيرًا ويغنون غناءً مرتجلاً ويتحدثون إلى بعضهم البعض فى هدوء وكأنهم يتهامسون لكنهم حين بدأوا فى الرقص أظهروا نشاطًا ملحوظًا وعند نهاية اللقاء ارتدوا قبعاتهم وهم يتبادلون التحيات الودية، ثم مضوا فـى طريقهم إلى خارج البيت بمرح وهم ثملون.

عدت إلى حجرتى وانتظرت حتى يرحلوا جميعًا طلبًا للهدوء وبعـد أن رحل آخر رجل اتجهت إلى حجرة الجلوس فرأيـت الضـابط متمـددًا فـوق الكرسى وقميصه مبلل بالعرق وفوق أحد أركان فمه كانت توجد فقاعة صغيرة وذبابة ذات ذراعين صغيرتين فوق شفته السفلى بدت وكأنها تشرب من نومه.

امتلأت الحجرة بالعرق والسواد وتكدست بالرماد والفزع كما غطاهـا الدم والريش وكانت الفراشة تواصل تقديم عروضها حول زجـاج المصـباح

الساخن، انتشر الدم فوق الطاولة وفى جيب قميص الضابط ظهــرت حزمــة ورقية من الملاحظات وفى أثناء ذلك كانت المعبودة بشعرها الشبيه بــالريش معلقة فوق مسمار بالباب فى مواجهة صورة المسيح والتعليق المكتوب تحتها.

كان الضابط نائمًا بعمق فمررت بجانبه وأنا أمشــى فــوق أطــراف أصابعى ثم فتحت الباب الأمامى بهدوء وخرجت فى الليل وبعد أن أصبحت بعيدًا التصقت قدماى بشىء ملىء بالشعر فأصابنى الفزع لكننى حاولــت ألا أصرخ ووجدت نفسى أنظر إلى كلب أبيض وقد سحرتنى عيناه المضــيئتان، بادلنى الكلب نفس النظرات مدة طويلة كأنه كان يحذرنى مــن شــىء مــا فأشرت له بود مودعًا حيث عدت للمنزل وتسللت بهدوء وأنا أمــر بجــوار الضابط النائم ثم هرعت إلى حجرتى.

بقيت فى السرير لكننى لم أنم فقد كنت مشغولاً بمحاولة تفسير ومعرفة ما يحدث من ضوضاء فى البيت، سمعت أصواتًا صادرة من الحائط تقــول: "إن الضحية تنتظر القرابين".

وفى الصباح أخبر الضابط زوجته أن تغلق جميــع الأبــواب طــوال الوقت.

خرجت *المرأة فى المساء* وبقيت بالخارج مدة طويلة وحــين ســمعتها وهى تتحدث من المطبخ عرفت أنها عادت وما هى إلا لحظات قصيرة حتى أحضرت لى طبقًا من الفول ولسان الحمل المقلــى وتركتــه خــارج بــاب حجرتى، تناولت الطبق من عند الباب لكننى لم أستطع تذوقــه لأن جــوعى الشديد قد أصابنى بالدوار بالإضافة إلى السخرية القاتلة من قبــل زملائــى الروحيين التى عانيت منها طوال ما بعد الظهر والمساء وحين لم أعد قــادرًا على تحمل الجوع أكثر من ذلك أحضرت الطبق وما أن بدأت فــى تنــاول محتوياته حتى شممت رائحة كريهة تنبعث منه وثمة صحيفة تقــوم بإخفــاء الطعام بين صفحاتها وترك الطبق الفارغ خارج الباب.

في ظلام تلك الليلة وبعينين مفتوحتين وبكل غضب معـــدتى الفارغـــة استدعيت صورة أمى وعندما رأيتها بوضوح تام تحدثت إليها كثيرًا وتوسلت إليها أن تأتى وتنقذنى، كان مجرد الحديث إلى أمى كافيًـــا لأن أنـــام بعمـــق خاصة وأننى كنت متأكدًا أنها سمعتنى.

(٧)

سمعت صوتًا كالصليل فوق السطح، لقد بدأت الأمطار تتساقط والرياح تضرب النافذة، فنهضت من فوق سريرى وقد غلبنى الجوع الشديد، جلست فوق الأرض متكومًا فى الظلام حتى أننى لم أتحرك حين سمعت طرقًا على الباب، لكن صورة لأحد العمالقة فتحت الباب وقالت: "تعال لتأكل معنا".

تتبعت الرجل العملاق إلى مائدة الطعام وقد أشعرنى الجوع كأننى نائم مغناطيسيًا، جلست وأنا فى حالة من المزاج السيئ ورحت أتطلع إلى الذباب وهو يحلِّق ويطن فوق الطعام، بينما كانت زوجة الضابط تملأ طبقى بكميات وفيرة من البطاطا المهروسة وكمية أخرى مختارة من لحم الماعز وبعض الشوربة الغنية بالخضروات، كانت رائحة الطعام لذيذة ومثيرة للشهية، واحتل الحجرة ذلك البخار المتصاعد من الطاسة الكبيرة والذى كان مختلطًا بالطماطم والتوابل المجففة، وعرفت - لأول مرة - أن الجوع هو ما جعلنى أرى العالم كئيبًا، كما أدركت أيضًا لأول مرة معنى البيت وأهمية أن يكون للإنسان بيت وعرفت لماذا تلبستنى الروح، وعندما أغلقت عينىّ وفتحتهما استطعت أن ألمح الأرواح وهى تطوف حول الضابط وزوجته، كانت الأرواح الطويلة والهادئة تملأ الحجرة وكان بعضها بذقون غير كثيفة كما كانت الأرواح الشريرة بأجنحتها البيضاء ترفرف قرب النافذة، أغلقت عينىَّ وفتحتهما مرة أخرى فرأيت روحًا بثمانية أصابع وعين واحدة متلألئة وروحًا أخرى بقدم مبتور وزى رجل شرطة راحت تأكل الطعام بيدين ملطختين بالدماء قبل أن يبدأ الضابط فى تناول طعامه ثم شبحًا آخر على هيئة قدمين ذات لون أبيض كالحليب كان يترنح فوق رأس المرأة، أما القزم - الذى بدا كالنبتة الصفراء - فقد كان يرقص فوق الطعام، تعجبت لكل ذلك ورحت أحدِّق فى الأشباح كلها حتى فاجأنى الضابط بالقول: "إلى ماذا تحدِّق؟"

هززت رأسى ثم لاحظت، عند الركن حيث كانا يأكلان باستمتاع برىء، شبح ابنهما البائس والمهجور، كان فاقدًا لكلتا ذراعيه وجانب واحد من وجهه كان منسحقًا كما كانت عيناه متفجرتين وله أجنحة زرقاء، لكنه كان أكثر الأشباح حزنًا فى البيت.

عندئذ أجبت: "لا شىء".

نظر كلاهما إلى الآخر ثم اتجها ببصرهما نحوى غير أننى لم أستطع تناول الطعام بعد أن رأيت الأشباح وهى تأكل بأياديها الملطخة بالدماء واكتفيت بالجلوس والنظر إلى الذباب.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، نهضا من فوق المائدة وذهب الرجل للجلوس فوق الكرسى ذى المسندين ثم قدمت له زوجته زجاجة كبيرة من البيرة، احتساها بكلتا قدميه الموضوعتين فوق المسند ثم جلست زوجته بالقرب منه، استمعت إلى دقات الساعة القديمة فى البيت الهادىء، وحين تجمعت الأشباح حول الرجل وزوجته ظللت أحدِّق فيهما باندهاش بينما راحت الروح ذات العين المتلألئة تحتسى زبد البيرة قبل أن يفعلها الضابط بلحظة قصيرة، شرب الضابط البيرة بسرور وعندما نهضت زوجته لإحضار مشروب لنفسها نهض معها الشبح صاحب القدمين ذات اللون الأبيض كالحليب كما تتبعت الروح ذات القدم المبتور الضابط عندما ذهب إلى الحمَّام، وعندما عاد الرجل وزوجته للجلوس فى سلام وقفت الأشباح فى مواجهتهما تمامًا حتى كادت الأوجه أن تتلامس لكن الأشباح كانت صامتة ولم تفعل شيئًا.

كانت الساعة القديمة تدُق حين أدركت أن الأشباح والأرواح تأتى إلى البيت لأن الضابط – بطريقة أو بأخرى – مسئول عن موتهم، هرعت إلى حجرتى وأغلقت الباب ثم رقدت فى الظلام ورحت أحدِّق فى السقف، وبعد أن توقفت الساعة عن دقاتها الرتيبة توهَّج فى عقلى فجأة ضوء برتقالى

فتحول الظلام إلى ضوء باهت، وعندئذ استطعت أن أرى شبح الولد الحزين عند أحد أركان الحجرة والذى ما لبث أن نهض من مكانه وتحرك ناحيتى ثم قفز فوقى وهو يحرك جناحيه فى الهواء وينظر إلى أسفل بعينيه البـارزتين، شعرت بالاضطهاد فلم أستطع أن أتنفس أو أتحرك وكان مستحيلاً أن أنعـم بالنوم، وعندما قررت إغلاق عينى انتابنى إحساس مرعب بأن شـيئًا ثقـيلاً يضغط علَىَّ ويدخل جسدى لكننى لم أستطع أن أصرخ وفشلت كل محاولاتى فى التخلص منه كما أصبحت مقاومتى بلا جدوى، بدأت حوائط البيت تتحدث بهمس عن الرجل السابع الذى أطاحت به الشاحنة حين كان ينظم المرور.

بدأت الأمطار تتساقط بغزارة فى الخارج حين كان ذلك الشىء الثقيـل يدخل جسدى، فأصبحت هادئًا بعض الشىء وكانت الرياح تضرب السـطح المتجعد والمياه تتدفق بغزارة من فتحات إطار النافذة، استدرت حتى أصبحت فى مواجهة الحائط وعندما أدركت أنه بإمكانى التحرك نهضت على الفـور وجلست فوق السرير بينما كان شبح الولد عالقًا بالسقف كالضـباب الأزرق الأبدى، وكان الرعد والبرق يدوِّيَان فوق البيت كما تدفقت الأمطار وعصفت الرياح قليلاً حتى ابتعدت عن النافذة لكن البرق أخذ فى الدوى مرة أخـرى، وقد بدا - هذه المرة - كأنه يقصد البيت بالتحديد حتـى أصـبحت النافـذة والحجرة والمكان كله وكل شىء فى البيت متوهجًا بالإضاءة، وبعـد لحظـة قصيرة شممت رائحة دخان تنبعث من تحت الباب.

اختنقت الحجرة بالدخان فبدأت أسعل وعندما فكرت فى الخـروج لـم أكن قادرًا على الرؤية بوضوح؛ فقد كان الدخان كثيفًا جدًا فـازدادت حِـدَّة السعال وأحسست بألم شديد فى عينى، وعندئذ عرفـت أن المكـان يحتـرق فسارعت بفتح الأبواب وعندئذ ظهر الضـابط بشـاربه المتـدلى وعينيـه الحمراوتين، فصرخت فى وجهه قائلاً: "يوجد حريق فى المطبخ!"

كانت الأشباح تقف حولنا وتراقبنا حين أمسك كلانا بدلو مليء بالماء لإطفاء الحريق بينما ظلت المرأة تبكى والرجل يواصل السباب واللعنات، غير أن الأمطار بلغت ذروتها حتى أصبح المطبخ مبللاً تمامًا كما تسربت مياه الأمطار الغزيرة من تحت باب حجرة الجلوس حتى غرقت السجادة فى الماء، تكسرت النافذة بفعل الرياح والضربات القوية فظهرت فجأة بعض يرقات الفراشات والقواقع الصغيرة فوق الحوائط، وكان الرعد يصفق بالخارج وشبح الولد يتجول فى أرجاء البيت من الداخل وسط والديه دون أن يتعرف عليهما ودون أن يتأثر بآلامهما.

بعد أن نجحنا فى التغلب على الحريق بنجاح وبعد أن مسحنا الأرضية الغارقة عاد كل شخص إلى سريره، ولقد سمعت الضابط وزوجته وهما يتقلبان فى فراشهما ويهمسان بحديث ما إلى بعضهما البعض فلم أستطع أن أنام، وفى الساعات الأولى من الصباح وقبل أن ينجلى الفجر حيث كان الليل على وشك الانتهاء سمعت أيضًا طرقات عاجلة فوق الباب، اهتز الباب بفعل الضربات القوية والغريبة حتى بدا الأمر كأن الرياح والرعد كانا يريدان الدخول، أسرعت خارجًا من حجرتى واتجهت نحو الباب لكن الرجل كان واقفًا قبلى فاقتربت منه أكثر حيث شاهدنا امرأة واقفة عند مدخل الباب بشعرها المبلل والمترهل وعينيها الذاهلتين ورقبتها المربوطة بخيط وقدميها العاريتين، كانت الأمطار قد سقطت عليها بلا رحمة، وكانت بعض الصراصير الميتة ملقاة حول قدميها، رأيت حبلاً حول رقبتها يصلها بالسماء، تحول الحبل إلى شعاع من البرق، وفى لحظة معينة انتابنى إحساس بأننى كنت أعرفها فى حياة أخرى أو ربما فى عالم الأرواح، ثم وقفت فوق عتبة الباب وصرخت بعقل مستنير وصوت جائع: "أمى".

لم تتحرك فى البداية وكانت تنظر إلى بعينين فارغتين كأنها لا ترغب فى معرفتى، لكنها بعد لحظة صمت قصيرة ألقت بكل ما تحمله إلى الأرض

وضمتنى إلى صدرها فى صمت شديد دون أن تتفوه بكلمة واحدة، ثم رفعتنى فى الهواء وضمتنى بقوة إلى جسدها المبلل الدافىء.

(٨)

كنت فوق كتف أمي حين استيقظت على أصوات في الظلام فشاهدت وجوه نساء في المطر مضاءة بومضات البرق، ازدحمت النساء حولنا بعيونهن الملتهبة وأذرعتهن المشدودة حتى أحَطْنَنَا من كل اتجاه، ورحن يلمسنني وينظرن نحوي كما لو أنني كنت شيئًا عجيبًا سقط من السماء، كما بدأن في مداعبة شعري وتدليك جسدي حتى شعرت بأنني فقدت عظامي ثم وجدتها مرة أخرى، كما شعرت بأنني أنتمي إليهن جميعًا فساورني أمل جديد وأصبح وجودهن سببًا للبقاء في هذه الأرض والاستمتاع أحيانًا بفرحة العودة للوطن.

وضعتني أمي على الأرض وكانت قدماي لا تقوى على حملي، وبدا كل شيء غريبًا بما في ذلك أرضنا الجديدة التي بدت - حقًا - شديدة الغرابة، سرت بقدمين مرتعشتين ومرتبكتين فأمسكت أمي بيدي لتثبيت خطواتي ثم قادتني إلى حجرة وفتحت الباب الأمامي وأشارت قائلة: "إن أباك في انتظارك".

كان رجل ما نائمًا فوق الكرسي ولم أستطع التعرف عليه، كانت رأسه مربوطة بضمادة وذراعه اليسرى معلقة بحبل قذر يتدلى من العنق، ولم يكن حليقًا كما كان صدره العاري يصعد ويهبط وهو نائم، أما الحجرة فكانت صغيرة جدًا لكنها مليئة بنومه ومفعمة بالجوع واليأس وليالي الأرق ودخان الشمعة الكئيب، وأمامه مباشرة، وعند مركز الطاولة - كانت توجد زجاجة من شراب (الأجوجورو) مليئة إلى نصفها وصينية وعلبة سجائر، وكان الجهاز القاتل للناموس والباعوض موضوعًا فوق الطاولة أيضًا ورائحة الدخان اللاذعة الصادرة منه تعبيء الحجرة، كان الرجل نائمًا فوق الكرسي كأنه أحد عمالقة حكايات الجنيات، وكانت قدماه الكبيرتان مرفوعتَيْن إلى

الطاولة، وهو غارق فى نوم عميق لكن حركات صدره صعودًا وهبوطًا قد أخافتنى كثيرًا.

عندما تلألأت أضواء البرق بالخارج وازدادت حدة المطر استيقظ الرجل ونظر حوله نظرات عابسة أصبحت عيناه بعدها أكبر مما بدت عليه وأكثر احتقانًا بالدم، ظل يحدق فى الحجرة بارتباك كمن وجد نفسه فى عالم غريب، ثم شاهدنى وأنا واقف عند مدخل الحجرة وظل للحظة طويلة فاردًا ذراعيه فى حالة من الافتتان، لكنه فجأة نهض من فوق الكرسى وقذف به بعيدًا ثم بنفس الحماس اندفع ناحيتى فرحت أجرى حول الطاولة وراح -بدوره- يتعقبنى، لكننى نجحت فى أن تظل الطاولة حاجزًا بيننا رغم أننى لم أكن أعرف السبب الذى دعانى إلى الجرى والابتعاد عنه أو السبب الذى جعله يتعقبنى، وعندما سنحت لى الفرصة المناسبة هربت صارخًا باتجاه الباب وخرجت من الحجرة غير أنه أمسك بى عند الممر الضيق تحت الأمطار الغزيرة وراح يصيح وهو يقذف بى فى الهواء حيث تملكنى الفزع، وعندما ضمنى إليه بقوة غمرتنى أحاسيسه الرائعة وقلبه المرتعش فانفجرت فى بكاء مرير دون أن أعرف السبب.

توقفت الأمطار وخلعت أمى عنى ملابس الولد الميت ثم أحرقتها فيما بعد بالكيروسين والسوائل العشبية، لكن عملية الحرق استمرت وقتًا أطول من المتوقع فتلألأت عينا أمى بالخرافات وراحت تغذى اللهب الأصفر والأسود بمزيد من الكيروسين، وبعد إتمام عملية الحرق وتحول الملابس إلى كتلة لولبية من الرماد جمعت الرماد فى صحيفة وخرجت فى الظلام باتجاه الغابة.

بعد عودتها من الغابة أمسكتنى من يدى ودفعتنى إلى الحمام ذى الحوائط المليئة بالدود وأجبرتنى على الاستحمام من الدلو المليء بماء خاص، اضطررت لاستخدام الصابونة ذات اللون البنى التى لا تنتج عنها رغاوٍ كثيرة، وبينما كنت أصارع لاغتسال نفسى كانت أمى تقف خارج

الحمام القذر وهى تحكى لى كل ما حدث منذ ليلة الشغب، وكانت الطريقة التى تحكى بها قد أثارت بداخلى كثيرًا من علامات التعجب تجاهها.

فقدت أمى فى زحام تلك الليلة حين كان الشخص المتنكر يقوم يَغْوِى النسوة عبر الشوارع لأنه لم يكن من المفترض أن يرين حضوره المرعب، فراحت أمى تبحث عنى فى كل ركن وتحت كل سيارة وهى تصيح باسمى بينما كانت البيوت تحترق، وبعد عودتها للمنزل على أمل أن تجدنى هناك اكتشفت اختفاء أبى أيضًا.

قالت: "فقدت ابنى الوحيد وزوجى فى ليلة واحدة".

ظلت طوال تلك الليلة خارج البيوت المحترقة بجوار كل ممتلكاتنا المبعثرة فى الشارع، وفى الصباح تحرك السكان نحو أرض جديدة وأحياء أخرى مختلفة، خضعت أمى لتوزيع ممتلكاتنا وتقسيمها بين أقربائنا ثم ذهبت إلى كل المستشفيات وأقسام الشرطة وزرعت المدينة كلها سيرًا على الأقدام وحيدة دون عزاء وبدون أن يشاركها أحد فى خسارتها، وبعد أن أوشكت على الاستسلام لليأس وفى محاولة أخيرة منها ذهبت إلى قسم الشرطة الواقع فى وسط المدينة والذى قيل إن أبى كان سجينًا به بسبب اشتراكه فى حالات الشغب، دبرت أمر رؤيته فعرفت أنهم ضربوه وكان من اليسير عليها رؤية ذلك الجرح البالغ فوق جبهته والخدوش والكدمات فوق وجهه وذراعه معلقة إلى جانبه كعضو إضافى مريض، لكنهم أطلقوا سراحه فى اليوم التالى بعد كثير من التوسل وقليل من الرشوة حيث ذهب إلى العمل فى نفس اليوم لكنه اكتشف أنهم صرفوه من الخدمة، وفى أثناء ذلك الوقت نجحت أمى فى تأجير حجرة لنقيم فيها كما استطاعت - أيضًا - أن تجد طريقة لدفع إيجار شهر مقدمًا، حضر أبى إلى بيته الجديد بمزاج سيئ وطبع عنيف، وفى تلك الليلة شعر بالمرض وأخذ يتمتم عن الجنود المجانين الذين قتلوا الرجال البيض فى الحروب التى وقعت أحداثها عبر البحار.

كانت أمى حزينة ومتوترة لغيابى فنصحها بعض الأصدقاء باستشارة العرافة، وفى بداية الأمر ساورها الشك ولم توافق غير أنها، بعد أن حاولت عمل كل شيء وفشلت وبعد أن ذهبت إلى مراكز الشرطة والمستشفيات ولم تستطع أن تجدنى، وافقت على الذهاب إلى العرافة ذات الوجه الحاد التى كانت تضع كومة من الزجاج المكسور أمام كوخها، جعلت أمى تدخل بصعوبة فقالت لها المرأة بعينها التى تتلألأ أكثر من العين الأخرى ومن خلال ساتر بينهما إنها تعرف الهدف من زيارة أمى.

ثم صاحت بصوت متصدع قائلة: "هيا اذهبى وأحضرى لى ديكًا صغيرًا أبيض وزجاجة من شراب الجن وريش يمامة وثلاث قطع من الطباشير، وبعد ذلك سوف أساعدك".

كانت المرأة ترتدى ملابس خارجية فاخرة وفضفاضة، عندما عادت أمى ومعها كل الطلبات فراحت المرأة توشوش الودع وتقدم القرابين إلى معبودتها الجالسة فى ركن الحجرة ثم أخذت تطيل التفكير فى الظلام وهى ترتدى نظارة شمسية متلألئة، وبعد ذلك طلبت من أمى الرحيل فقد أرادت أن تواصل عملها، عادت أمى فى الصباح التالى وبدون أى تمهيد أخبرتها العرافة أن أجرها سيكون باهظًا جدًا لأن الحالة صعبة جدًا، وأضافت مخاطبة أمى: "إن ابنك واقع فى مكيدة بأحد منازل الأشباح".

أصيبت أمى بالفزع وخرجت فى الحال حيث راحت تجمع كل النقود التى استطاعت أن توفرها من تجارتها وأخذت البعض من أبى واستدانت الباقى، فواصلت المرأة قولها لأمى بأن رجلاً وامرأة كانا يحتجزانى لديهما ربما لأنهما كانا يريدان الاحتفاظ بى كأننى طفلهما، أو أنهما كانا يرغبان فى المساومة علىَّ من أجل المال، كما أخبرت أمى بأننى أعانى من نوبات قوية من السحر ولابد لأمى أن تفعل شيئًا بسرعة وإلا فقدتنى إلى الأبد.

دفعت أمى الأجر المطلوب وجلست فى الظلام تستمع إلى العرافة ذات العينين الغريبتين وهى تواصل كل أعمالها السحرية بإسراف شديد لم تفعله

من قبل؛ حيث راحت تتصارع مع القوى الموجودة بالبيت فى محاولة منهـا للقضاء على نوبات السحر التى تنتابنى، وبعد خمس ساعات وحين كانت أمى تجلس متصلبة من الفزع ظهرت المرأة من حجرتها السرية وقالـت: "لقـد تخلصت من كل نوبات السحر ما عدا واحدة كانت أقوى منى ولا يسـتطيع التخلص منها والقضاء عليها سوى برق شديد".

ارتبكت أمى وقد زودتها المرأة بالتعليمات والإرشادات اللازمـة ثـم غادرت البيت لكن قلبها كان مثقلاً بالخوف والأحزان.

ظلت طوال تلك الليلة ترثى لحالها وتلوم نفسها لفقدانها طفلها الوحيـد الذى يجب أن يعيش، وعندما جاءت إحدى القريبـات للزيـارة والاطمئنـان حاملة معها بعض الهدايا قدمت التهانى لأمى قائلة: "لقد شاهدت صورة ابنك فى الصحيفة فى اليوم التالى من اختفائه".

لم يتردد أبى فى قبول الهدايا واعتبرها فألاً حسنًا غير أن أمى ظلـت مرتبكة، لكن ما قالته قريبتنا جعلتها تتوجه إلى قسم الشرطة ثم إلـى بيـت الضابط حيث وجدتنى.

عادت أمى إلى العرافة التى أخبرتها بآخر الوصايا ثم عادت إلى البيت مطمئنة وفكرت فى تقديم الشكر للضابط وزوجته وتقديم الهدايا لهما لعنايتهما بى، كما رأت ضرورة أن تقدم لهما ديكًا صغيرًا يقدمانه قربانًـا بـدلاً مـن التضحية بى، لكنها قبل كل ذلك كان عليها أن تجرى بأسرع مـا تسـتطيع للوصول إلى بيت الأشباح حيث ظلت واقفة بالخارج لمدة ثلاث ساعات تحت الأمطار دون أن تفقد صبرها، كان الرعد يواصل قصفه فوقها وكانت السماء متصدعة من شدة البرق الذى انعكست أضواؤه الباهرة فـوق كـل البيـوت والأشجار.

ظلت أمى واقفة فى مكانها ولم تتحرك بوصة واحدة حتـى أصـابت ضربات البرق القوية منزل الأشباح مباشرة حيث كنت أسيرًا.

(٩)

تناولت طعامى بعد أن اغتسلت ثم ساعدانى على الجلوس فوق مقعد أبى وسألانى أن أقص عليهما الحكاية، فبدأت باللحظة التى تغيرت فيها أضواء الحجرة ثم رفعتنى أياد ضخمة ووضعتنى فوق السرير، رأيت أبى يضحك من تحت ضمادته الملطخة بالدم بينما راحت أمى تفرش الحصيرة فوق الأرض لتنام بعد أن غيرت مكان الكرسى ووضعت الطاولة فى المنتصف، جلس أبى فوق مقعده الخشبى وهو يدخن بسلام ثم أشعل الجهاز القاتل للبعوض، وفى تلك الأثناء كنت أسمعه وهو يتحدث إلى الحجرة الفارغة ملتمسًا الإجابة على بعض التفسيرات والأسئلة التى لا يستطيع الإجابة عليها سوى الموتى.

نمت طوال الليل والنهار ولم أستيقظ إلا فى المساء فوجدت نفسى وحيدًا فى الغرفة إلا من مصباح الكيروسين المضىء فوق الطاولة، وعندما فتحت عينى أولاً على عالم البيت الجديد كان كل شىء مختلفًا، ظلال كبيرة فى كل مكان جعلت المكان يبدو أصغر مما هو عليه، وكانت الأرضية خشنة وطوابير طويلة من النمل تزحف جنبًا إلى جنب فوق الحائط وكومة كبيرة من النمل بجوار خزانة الأكواب والأطباق، كما كانت دودة الأرض تتمدد بالقرب من حذاء أبى، والأبراص والسحالى تصعد وتهبط فوق الحوائط بسرعة، وفى أحد أركان الحجرة كان حبل الغسيل متدليًا من كثرة الملابس، أما عن متعلقات أمى التى تستخدمها فى تجارتها فقد كانت مبعثرة فى كل مكان، وكيسها مربوط إلى خزانة الأطباق، كان المكان مزدحمًا بالأوانى القذرة وآنية الفخار والأحواض، وكأن أبى وأمى انتقلا إلى مكان آخر بعد أن خَزّنا ممتلكاتهما فى الأماكن الوحيدة الخالية ولم يجدا الوقت الكافى لتنظيم أى شىء، لكن ثقوب الحوائط والفتحات الكثيرة فى السقف وخيوط العنكبوت

ورائحة الأرض والسجائر ودخان جهاز البعوض أكدت لى عدم رحيلهمـــا، فبدا كل شىء كما هو وكان الفرق الوحيد هو أننى لم أتعود تلك الرتابة.

فى المساء كانت الإضاءة فى الحجرة باهتة مما ساعد علـــى دخـــول البعوض والحشرات الطائرة، وكانت الذبابة الموشكة علـــى المـــوت تطـــن بأغنيتها الأخيرة فوق السقف وسط شبكة من خيوط العنكبوت، ظـــل ضـــوء المصباح يرفرف فتدفق دخانه الأسود نحو السقف، أما رائحة الفتيل المحترق ودخان الكيروسين فقد ساعدانى على الإحساس بالطمأنينة من جديد.

كنت فى بيتى، وياله من اختلاف كبير بين أن تكون فـــى بيتـــك وأن تكون فى بيت الضابط المريح؛ حيث لا أرواح تزعجنـــى ولا أشـــباح فـــى الأماكن المظلمة وحيث كل المحيطين بنا من الفقراء أمثالنا، لم يكـــن لـــدينا حمام يمكن الحديث عنه وإنما حمام بسيط ولكن فى تلك الحجرة ببيتنا الجديد كنت سعيدًا؛ لأننى استطعت أن أشم رائحة الوجود الـــدافىء لأبـــى وأمـــى والإحساس بقوتهما ورقتهما المنتشرة فى كل مكان.

كانت بعض الصور القديمة لأبى وأمى معلقة فوق الحوائط بمســـامير ملتوية، وكانت إحدى تلك الصور لأمى وهى جالسة على حافة الكرسى بوجه ملىء بالبودرة وابتسامة خجلى لعذراء القرية، وكان أبى واقفًا إلى جوارهـــا ببنطاله الفضفاض وقميصه الأبيض وربطة عنقه المائلة ومعطفـــه الضـــيق، وكانت تعبيرات وجهه تتسم بالقوة وبدت عيناه وفكه الجامد فى حالة تحد مع الكاميرا وكأنه أحد الملاكمين قبل أن يصبح شهيرًا، كانـــت هنـــاك صـــورة أخرى وأنا جالس بينهما مثل صغير بين حارسين بينما كانت تعلو وجوهنـــا ابتسامات حلوة وحذرة، كان الدخان الأسود المتصاعد من المصباح كثيفًا مما قلل من حدة الإضاءة، وما أن نظرت إلى الصورة فى تلك الحجرة الصغيرة حتى تساءلت عن غياب تلك الابتسامات الحلوة.

خرجت للبحث عن أبى وأمى فلم أجدهما فى الفناء الخلفى، وكانت النسوة يجلسن فى المطبخ فى مواجهة الخشب المحترق، والعرق يتصبب من وجوههن وأذرعتهن البدينة، وأثدائهن شبه العارية تتلألأ فى الضوء الخافت، نظرت إليهن وهن يجهزن الفول والدجاج المحمر والسمك المقلى، وأثناء إعدادهن لأطباق الطعام ذات الرائحة اللذيذة وعندما شاهدننى قمن بتحيتى بأصوات عالية تنم عن البهجة والسعادة، ثم فررت بعيدًا حيث كانت أمى تساوم امرأة عجوزًا فى عرض الطريق، وأمام واجهة البيت كان أبى يحكى لمجموعة من الرجال الأفظاظ عن تجاربه فى السجن حتى وصل فى حكايته إلى النقطة التى فكر فيها أنه من الضرورى القيام بتمثيل فعل معين، ففقز من فوق الكرسى وانتصب واقفًا ثم بدأ يسير إلى الأمام وإلى الخلف بطريقة تبعث على الضحك، ثم وضع حذاءه فوق الأرض وجعل ذراعه السليمة تتأرجح فى الهواء ورأسه متدلية وهو يصيح ويهتف بسبع لغات عن تعليمات الحرب، وكان ذلك يعنى تمثيل شخصية جندى مجنون حارب فى بورما أثناء الحروب البريطانية وقد أصابه مس من الجنون حين أمضى ليال كثيرة مع الجثث وحين ساورته شكوك وهمية بقتل عدد كبير من الرجال البيض، وعندئذ أصبح لا يعرف سوى شيئين اثنين فقط: هما كيفية المشى وكيفية إلقاء التهم، كان يمشى طوال اليوم فى السجن ويلقى بالتهم طوال الليل، ضحك الرجال من طريقة أبى فى التمثيل كما ضحك أبى بقوة اتسعت معها قطعة القماش الصغيرة التى يربط بها ضمادته فوق جبهته.

لم يلحظ أحد وجودى لكن صوتًا صدر منى جعل أبى يلتفت ويرانى، وعندما تأكد منى توقف فجأة عن الضحك ثم مضت لحظة طويلة بدأ بعدها فى التحرك ناحيتى فسارعت بالجرى عبر الشارع قاصدًا أمى، وعند منتصف الطريق أبصرت شخصًا يركب دراجة ويسير بغضب فى اتجاهى، فوقعت على الأرض وراحت أمى تصرخ وراكب الدراجة يتمايل محاولاً أن يتفادانى ويبتعد عن رأسى وقد سمعت لعناته وهو ينطلق بعيدًا، اندفعت أمى وسارعت بحملى إلى البيت وطلبت من أبى أن يعتنى بى.

سألنى أبى بحزن: "لماذا تجرى بعيدًا عنى؟"

لم أقل شيئًا وإنما رحت أنظر إلى وجوه رجال منطقتنا الكبيرة المعبرة عن الظلم والشدة والاستياء، ثم هبط الظلام ببطء فوقنا وبدأت مصابيح الكيروسين تنشر ضياءها واحدًا تلو الآخر على طول الشارع.

أصبح أبى فى ذلك المساء هو العملاق الحارس الذى قادنى إلى اكتشافات عالمنا الجديد، كنا محاطين بغابة كبيرة، وبين البيوت كانت توجد شجيرات كثيفة وأشجار منخفضة تنبعث منها أصوات الطيور المرتعشة وصرير الليل المفزع، مضى أبى إلى طريق ضيق فتعقبناه وفى طريقنا مررنا بنساء يحملن لفافات من الخشب المحترق فوق رءوسهن وهن يترنحن ويتحدثن بلغات غريبة، كما التقينا بفتيات صغيرات عائدات من جداول المياه البعيدة وهن يحملن جرادل الماء بمهارة فوق رءوسهن.

قال أبى ملوحًا بذراعه للإشارة إلى الغابة والشجيرات: "هل ترى كل ذلك؟"

أجبت: "نعم".

"إنها شجيرة الآن، أليس كذلك؟"

"بَلَى".

"ولكن بأسرع مما تتصور ستزول كل الأشجار ولن تجد شجرة واحدة واقفة هنا، كما أن الغابة ستنتهى تمامًا ولن تجد إلا بيوتًا تعيسة وبائسة فى كل أرجاء المكان حيث سيعيش الفقراء من الناس".

نظرت حولى مرة أخرى بدهشة ولم أستطع أن أفهم كيفية أن تتحول الغابة الحقيقية إلى شىء مختلف، وعندئذ ضحك أبى بينه وبين نفسه ولم يقل شيئًا، لكنه وضع يده فوق رأسى بعد لحظة وقال بصوت عملاق حزين: "هنا

سوف تعيش أنت أيضًا وسوف تحدث أشياء كثيرة لنا هنا، وإذا ما حدث ورحلت بعيدًا أو اختفيت في يوم ما قريب أو بعيد فلا بد أن تتذكر أن روحى ستكون إلى جوارك دائمًا لحمايتك".

ارتجف صوت أبى وعندما توقف عن الكلام مرة أخرى بدأت أبكى، فرفعنى بذراعه القوى وحملنى فوق عظام كتفه الصلبة، ولم يحاول التخفيف عنى أبدًا لكنه راح يضحك بلا صوت عندما توقفت عن البكاء، وأخيرًا توقفنا عند أول حانة.

طلب كأسًا من النبيذ وظل يضايق المرأة التى تقدم الطلبات وهى تصب لى فى كأسى الصغيرة، وعندما شرب من كأسه بدأت بدورى فى الشراب فشعر أبى بالسعادة وقال: "تعلم أن تشرب يا بنى فمن الضرورى أحيانًا أن يواصل الرجل الشراب لمواجهة هذه الحياة الصعبة".

جلست بجانبه فوق المقعد الخشبى وأنا أشرب مثله تمامًا وقد استسلمنا لجو الحانة وغمرتنا روائح النبيذ القديم وشوربة الفلفل وأكياس السمك، كان الذباب منتشرًا فى أرجاء الحانة وأثناء الحديث كان الزبائن يلوحون لإبعاده عن وجوههم، وهناك عند أحد أركان الحانة وفوق مقعد بعيد تحت ضوء الفوانيس الخافت كان أحد الرجال نائمًا وهو جالس بظهره إلى الحائط ورأسه تتخبط فى حالة من السكر.

طلب أبى كأسًا أخرى من النبيذ فبدا وجهه متلألئًا بالسرور، وراح يتبادل النكات والحكايات مع بقية الزبائن الذين كانوا جميعًا غرباء ثم بدأ يلعب لعبة (الداما).

لعب فى البداية بدون جدية وهو يمزح طوال الوقت وربح مباراة وهو فى تلك الحالة من المزاح، لكنه خسر المباراة الأخرى وكانت خسارته تزداد كلما قل مزاحه، اتسم صوته بالعداء حتى أنه ضربنى بكوعه الحاد فى رأسى

دون أن يلحظ أنه ضربنى، كان الرجلان يلعبان بأعصاب متوترة وراح كلاهما يتهم الآخر بالغش ويرفع قبضته فى وجه الآخر بالتهديد فوق طاولة الداما حتى ارتفعت أصواتهما، بينما كان المشاهدون الذين راهنوا على المباراة أكثر غضبًا وتوترًا من الرجلين، خسر أبى بهدوء لكنه راح يسب خصمه بقسوة فرد عليه الخصم بعنف شديد مما جعلنى أشعر بالقلق، وضع أبى رهانًا كبيرًا فوق الطاولة فوضع الخصم ضعف رهان أبى فأصبح كل شىء فجأة متوترًا جدًا فى الحانة دون أن يتوقف أبى عن الشراب بكثرة، فطلب كأسين أخريين من النبيذ، وفى ظل ذلك الجو المشحون بالغضب والتوتر كان المشاهدون يهاجمون بعضهم البعض ولم تهدأ ثورة الغضب والانفعال إلا بعد وقت طويل من القلق، راهن أبى بمبلغ أكبر وبدأت رأسه تتخبط من جديد بينما ظل خصمه الضخم برأسه الصغير ينظر إلى أبى بازدراء، فشعرت برغبة شديدة فى ضربه فوق أصابعه لكنه استدار ناحيتى بعينيه الثملتين الصغيرتين وقال: "إن أباك لا يعرف كيف يلعب".

قلت بغضب: "اخرس".

ساد هدوء مخيف قال بعده وقد انتابه الشك فيما سمع: "ماذا قلت؟"
أجبت: "لا شىء".

ثم قال أبى: "فلنترك ابنى وشأنه وعليك بمواصلة اللعب واستخدام عقلك بدلاً من فمك".

قال خصمه مستأنفًا سخطه ونقمته: "أتريد أن تخبرنى بأنك تسمح لذلك الولد الصغير الذى مازال لبن أمه عالقًا به أن يسبنى!".

أجاب أبى ببرود: "العب يا صديقى".

قال الرجل وهو يحدق فى: "نحن لا نربى أطفالنا بهذه الطريقة".

وأضاف أبى: "العب دورك يا صديقى".

غضب الرجل جدًا من عدم اهتمام أبى ففقد تركيزه واتزانه وظل ينفث دخان سيجارته فى وجهى وهو يقسم ويتوعد بعدة لغات، وكانت الفرصة سانحة لأبى أن يهزمه بهدوء ويربح مجموع المباريات حتى جعل جيبه خاويًا من النقود، شرب خصمه كل محتويات كأس النبيذ دفعة واحدة بعد أن أصبح فى حالة سيئة وراح يقذفنا بوابل من الشتائم ويشكو - بمرارة - من الطريقة العصرية فى تنشئة الأطفال، ثم خرج مترنحًا إلى الظلام.

عرفنا أنه غادر الحانة بدون أن يدفع ثمن مشروباته أو ثمن شوربة الفلفل، فسارعت صاحبة الحانة بالجرى وراءه وقد سمعناها وهى تتشاجر معه حين كان أبى يشرب آخر رشفة من كأسه بهدوء تام، وقد بدا سعيدًا بنفسه كما بدا وجهه متلألئًا بالرضا العميق، وعندما انتهيت من احتساء آخر قطرة من النبيذ فى كأسى الصغيرة دفع الحساب للمرأة الأخرى التى تعمل مع المدام ثم غادرنا المكان.

ازدحم الناس بالخارج وكان الرجل الخاسر فاقدًا لأعصابه ولا يريد أن يدفع الحساب لسبب بسيط، هو أننى قلت له اخرس وحينئذ صاح قائلاً للمدام: "لن أدفع إلا إذا أخبرت ذلك الولد أن يعتذر لى".

صاحت فى وجهه بالمثل وقالت: "إن ذلك ليس من شأنى وأنا لا أريد شيئًا سوى نقودى".

أجاب: "لقد أهاننى الولد فى حانتك".

توقفت المرأة عن السماع وعندما مررنا بجوار الزحام شاهدناها تسحبه وتشده بقوة من سرواله، بينما راح هو يحاول فك أصابعها عن سرواله والإفلات من قبضتها المسيطرة التى شملت الإمساك بأجزاء جسده الخاصة، وعندما فشل فى ذلك بدأ يضرب فوق يديها ويصرخ لاعنًا كل الناس ثم أصابتنا الدهشة حين رفعته المرأة فجأة من سرواله وألقت به إلى الأرض،

هتفنا جميعًا وقد فشل الرجل فى النهوض لكنه ظل يصيح بغضب شديد حتى هجم عليها وضربها فى وجهها، تحرك أبى ناحيته لكن المدام لم تمنحه فرصة المخاطرة بالتصدى له؛ إذ لم تتردد فى الإمساك بجزء حساس فى جسد الرجل الخاسر حيث صرخ بصوت عال فالتزم جميع الحاضرين بالصمت وساد هدوء غريب، ثم قلدت صوت الخنزير المتمرس ورفعته فوق كتفها وألقت به مرة واحدة لتبين قوتها إلى السماء وألقت به بوحشية فوق الأرض الصلبة، ظل فاقدًا للوعى فترة قصيرة وكان فمه مفتوحًا وعندئذ راحت تقلبه فى كل الاتجاهات وتفتش جيوبه لإخراج كل النقود ثم أخذت حقها فقط وضربته فوق مؤخرته، دخلت الحانة وخرجت حاملة كأسًا قذرًا مليئًا بالنبيذ الفاسد وسكبته فوق الرجل.

أفاق بسرعة، وعندما رأى الناس من حوله شعر بالخزى وراح يصرخ فى حالة من عدم التصديق ولم يجد ما يفعله سوى الجرى بسرعة باتجاه الغابة، وكان النبيذ الفاسد يتساقط من سرواله وبعد ذلك لم نشاهده مرة أخرى، كان الجمع مندهشًا من العرض المذهل الذى قدمته المرأة حتى أنهم جميعًا ظلوا ينظرون إليها بأفواه مفتوحة عن آخرها، وعندئذ عادت المرأة إلى الحانة ورتبت الموائد وكأن شيئًا لم يحدث، وبينما كنا نتطلع إليها بارتياب أبصرناها وهى تكسر لوحة الداما إلى نصفين وتقذف بها إلى الخارج، وعندما لاحظت أننا ننظر إليها بهدوء ودهشة سارعت بالتقدم ناحيتنا وذراعاها فوق خصريها وقالت بصوت زاعق: "هل تريدون أن تشربوا أم أنكم تريدون النظر فقط؟".

استيقظ الجمع من نوبة الدهشة وتفرقوا فذهب بعضهم إلى داخل الحانة لمواصلة الشراب على شرف أسطورتها، بينما عاد البعض الآخر إلى مناطقهم المختلفة حاملين معهم قصص الدراما الأكثر إثارة والتى لم يشهدوا مثلها منذ وقت طويل، بدأت المرأة فى تقديم الطلبات لزبائنها الجدد بثقة

كبيرة وإحساس بالفخر؛ فقد كانت تلك الليلة بداية لشهرتها إذ بدأوا جميعًا في التحدث عنها بأصوات هامسة وعن قدرتها المذهلة في قهر الرجل، وكانت تلك اللحظة هي بداية ولادة أسطورتها التي تولدت عنها آلاف الخيالات والإشاعات في قصصنا والتي أصبحت – في نفس الوقت – بعضًا من الوقائع الحية في حياتنا.

(١٠)

عندما تفرقنا عن الجمع الذى كان مشغولاً بالحديث عن المرأة الأسطورة مشيت إلى جوار أبى عبر الطرق المليئة بالشجيرات إلى داخل الغابة وأنا مخمور تمامًا، عبرنا شجرة تكتسى أوراقها السفلية باللون الأصفر، وثمة قطة كانت تسير خلفنا، كانت الغابة مظلمة حتى وصلنا إلى قطعة أرض واسعة وخالية من الأشجار، كانت زهرة جميلة تبرز من عمود خشبى وحيد منتصب فى وسط الأرض وثمة براعم صغيرة منتشرة بطول العامود بعضها متفتح وفى طريقه للتحول إلى فروع.

قال أبى: "هكذا يجب أن تكون، يجب أن تنمو وتكبر حيث تقذف بك الحياة".

حدقت فى العامود الخشبى المزدهر حين كان أبى يتحسس رأسى برقة ويقول: "انتظرنى هنا ولا تتحرك من مكانك".

مضى فى طريقه ورحت أستمع إلى خطواته وهى تدب فوق أرض الغابة.

هبت رياح قوية اهتزت الأوراق على إثرها وتشققت الفروع، فسمعت صرخة حيوان ورأيت عيون القطة السوداء المتوهجة وهى تجرى بالقرب منى فى نفس الاتجاه الذى مضى فيه أبى وبعد أن تجاوزتنى نظرت إلى الخلف نحوى مرة واحدة، كنت لا أزال أنتظر حين انتشرت الضوضاء فى الغابة فى نفس الوقت الذى كانت تحلق فيه البومة فوق رأسى وتراقبنى من فوق أحد الفروع، سمعت وقع أقدام يقترب منى، عرفت عن يقين أنها خطوات رجل ضخم، لكننى حين دققت النظر رأيت أحد الظباء وهو يقترب منى ويحدق فىَّ وهو واقف بجوار العامود الخشبى المزدهر، اقترب الظبى

منى أكثر وراح يلعق قدمى لكن تشقق فروع الأشجار جعله يفر بعيدًا عنى، انتظرت بلا حراك وقد بدأ رزاز المطر يتساقط فأغرقت المياه الطرق غير المرئية للغابة حتى تجمعت عند قدمى، وعندئذ سمعت لمرة أخرى خطوات مشابهة من كل اتجاه حولى ورأيت شيئًا يتحرك واشتدت قوة الهواء، كانت امرأة ذات وجه مشوه قادمة من عند الشجرة ورأسها تترنح فوق رقبتها وهى تتجه نحوى بجسد مائل من ناحية واحدة، كانت مشوهة بطريقة لم أستطع تحديدها وكانت ترتدى روبًا أبيض ولها عينان سوداوان صغيرتان، عندما أصبحت قريبة منى تمامًا توقفت وبدأت تضحك لكننى لم أتحرك من مكانى، هزت الرياح القوية فروع الأشجار وارتعش جسدى من الماء المنتشر فوق قدمى، بينما راحت المرأة تضحك بجنون وهى تلف وتدور حولى بوجه مائل وعينين تتلألآن فى الأضواء الخافتة، وعندما أصبحت فى مواجهتى مرة أخرى مدت ذراعيها ببطء نحو رقبتى فى نفس اللحظة التى كانت البومة تنعق فيها بعد أن طارت من فوق فرع الشجرة وحطت بجوارنا وظلت تدور حولنا مرتين، صرخت البومة مرة أخرى ثم حلقت فى الهواء وبدا صوتها الحاد كصوت شجرة تتصدع، ثم رأيتها وهى تسقط وكأن أحدًا قد أطلق عليها النار، وقعت فوق الأرض وراحت تصفق بجناحيها فى ضعف من أجل الخلاص حتى وصلت إلى حوض مليء بالماء الأصفر، ثم بدأت تجفف نفسها فى الهواء.

توقفت المرأة عن الضحك وبدلاً من أن تصل يداها الخشنتان إلى رقبتى راحت تنتزع العامود المزدهر وتشده من الأرض وقد اكتسى وجهها بتعبيرات شيطانية، لكن الأمر لم يكن سهلاً وهى تواصل انتزاع العمود ذى الجذور القوية، وبعد أن نجحت تمامًا فى انتزاعه بجذوره الممتدة مضت فى طريقها ساحبة إياه خلفها.

كنت أراقبها وهى تترنح فى مشيتها فلاحظت من خلال الجذور ثعبانًا أسود فوق الأرض، صعد الثعبان إلى العامود واقترب من يد المرأة وهى

تواصل شد العامود نحو الغابة، ثم سمعت صرخة حادة أعقبها هدوء نام لـم أر بعده المرأة مرة أخرى ولم أتحرك من مكانى، هبط ظلام كثيف، تسـلقت الدودة قدمى ولم أحاول مضايقتها، رأيت القطة السوداء مرة أخـرى وهـى تتسلل قادمة نحوى وتفر إلى الاتجاه الذى جئنا منه، وبعد وقت قصير رأيت أبى قادمًا من الغابة حاملاً كيسًا كبيرًا فوق كتفه وقد بدا عليه التعب كما لـو أنه كان يتصارع مع الشياطين، وعندما وصل إلى حيث أقـف قـال: "هـل تحركت؟"

- لا.

- جيد.

انحنيت وضربت الدودة ضربة خفيفة لإبعادها عن قدمى.

- هل حدث أى شىء؟

- خرجت امرأة من الشجرة وسقطت بومة على الأرض ثم طارت فـى الهواء كما أن الماء تجمع عند قدمى.

قال: "رائع، دعنا نعود إلى المنزل".

بدأنا فى التحرك ولم أتمكن من رؤية القطة السوداء فـى أى مكـان، فسألت أبى: لماذا انتزعت المرأة العامود من الأرض؟

- أى عامود؟

- ذلك الذى كان هناك.

- أين؟

- هناك.

قال: "لم يكن هناك عامود".

التزمت الصمت لحظة ثم قلت: "خرج ثعبان من جذوره ولدغها".

أجاب أبى: "ذلك حسن، إن الحياة مليئة بالألغاز والتساؤلات التـى لا يستطيع الإجابة عليها سوى الموتى".

مضينا فى طريقنا إلى البيت بهدوء وقد مررنا بطرق كثيرة، وفى لحظة معينة توقف الكلب الذى كان يعرج أمامنا ونظر إلينا كأنه أراد أن ينبهنا إلى الدم المتساقط من الكيس الكبير فوق كتف أبى حتى وصل إلى الضمادة فوق جبهته، وحينئذ سألته: "ما هذا الذى اصطدته؟"

– خنزير برى متوحش.

– ولماذا تنزف؟

– لقد أمسك الفخ بالخنزير لكنه لم يمت بل ظل يقاوم من أجل الخلاص، وعندما اقتربت منه كان على أن أقتله بيدى فضربنى فى رأسى.

مشيت خلفه بصمت وأنا أستمع إلى الأصوات الصادرة من الغابة وصوت أنفاسه فبدت رحلة العودة إلى البيت أطول مما هى عليه، وعندما وصلنا إلى الحانة كانت المدام تثبت اللوحة فى مكانها لكننى لم أستطع قراءتها فى الظلام، نظرت إلينا أثناء مرورنا فحياها أبى غير أنها لم ترد التحية.

وصلنا إلى بيتنا الجديد فاندفع الأطفال لمقابلتنا وسارع الرجال لمساعدة أبى فى حمل الكيس الكبير لكنه لم يكن فى حاجة للمساعدة، بينما راحت النسوة يتحدثن بطريقة مثيرة، كان باب بيتنا مفتوحًا وكانت الكراسى المطوية مرتبة فى المكان الصغير والطاولة مليئة بالشراب، وفوق الأرض كانت الطاسة الكبيرة مليئة بجوزة الكولا والصلصال وكان الهواء مشبعًا برائحة نكهة نفاذة من الطعام الطازج أما الحجرة فقد كانت فارغة، ذهب أبى إلى الفناء الخلفى حين كانت أمى فى المطبخ تعمل على إبقاء نار الحطب مشتعلة تحت الإناء الكبير الموضوع فوق حاملة الوقود، مما جعل الدموع تتساقط من عينيها وتغطى كل وجهها، عندما شاهدتنا سارعت بالإمساك بأبى بقوة ثم احتضنتنى ورفعتنى إلى أعلى، وضع أبى الكيس فوق أرضية المطبخ ونظر ناحيتى لحظة ثم قال: "لقد التزمت بوعدى".

غادر المطبخ متوجهًا إلى الحجرة ثم عاد ومعه فوطـــة وقطعـــة مـــن الصابون، وذهب ليستحم بعد أن أحضر الماء من البئر ثم جلس مع أمى فى المطبخ وهو يسعل كلما سعلت أمى، اكتمل غليان الماء فى الإنـــاء وجـــاءت النسوة من الجيران لمساعدة أمى فى إخراج الخنزير من الكيس، وقمن بصب الماء المغلى فوق جلده ثم انتزعن شعره، وقد ساعدهن خمسة رجـــال فـــى تقطيع ذلك الحيوان ذى المنظر البغيض؛ حيث بدأوا بتقطيع رأسه إلى قطـــع صغيرة وإخراج أحشائه الضخمة، وبعد ذلك بدأت النسوة فى طهو الحيـــوان المتوحش الذى اصطاده أبى فى الغابة.

بعد الانتهاء من طهى لحم الخنزير كانت المقلاة الكبيرة ممتلئة بالزيت المغلى حتى امتلأت المنطقة كلها برائحة الطعام والفلفل والبصل والأعشـــاب الطبيعية النفاذة واللحوم المقلية مما أثار شهية الجميع، وعندما ســـال لعـــابهم سألتنى أمى أن أذهب لأستحم، ففعلت وارتديت ملابـــس جديـــدة ثـــم جـــاء الزائرون وسكان منطقتنا إلى حجرتنا وجلسوا، راحت أمى تمشط لى شعرى ثم قدمت لى ولأبى نصيبنا من الطعام وذهبت لتستحم، وفى الحمام ارتـــدت أجمل ثيابها ومشطت شعرها وزينت وجهها.

ازدحمت حجرتنا بسرعة بمختلف أنواع الناس، كـــان معظمهـــم مـــن جيراننا لكن واحدًا أو اثنين جاءا من حيث كنا نسكن فى السابق وقليلاً مـــنهم كانوا غرباء تمامًا أما الغالبية فقد كانوا أطفالاً، كان جو الحجرة خانقًـــا مـــن الحر فتصبب الجميع بالعرق، وكانت كل المقاعد مشغولة ولم يكن من السهل وجود مكان شاغر، بدأت امرأة بالغناء فتبعها رجل بأغنية أخرى أكثر تأثيرًا، بينما راح الأطفال ينظرون بارتياب، دخلت أمى حاملة طبقًا من بذور الفلفل وثمرة الخبز مع بعض السجائر، وعندئذ سمعنا حركات نشيطة بالخارج.

كان أبى واقفًا عند المدخل وهو يحمل زجاجة فارغة فى يده وملعقـــة فى اليد الأخرى، ويعزف لحنًا بالنفخ فى الزجاجة والضرب بالملعقـــة فـــوق

سطحها، كان يرتدى بدلة فرنسية سوداء وضمادة جديدة ونظيفة، ويبرز من خلف رأسه ريش النسر وقد بدا سعيدًا ولم يكن مخمورًا بما يكفى، دخل وهو يواصل العزف بالزجاجة ويرقص ويغنى على أنغام موسيقاه الخاصة، ضحك الحاضرون وعبروا عن تقديرهم وبدأوا فى الثرثرة حيث ارتفعت الأصوات وانطلقت النكات عبر الوجوه المعروفة، شعرت بأننى غريب وسط الاحتفال بعودتى.

ظهرت امرأة عند الباب وهى تغنى أغنية احتفالية مما بعث فينا السرور، ودخلت أمى بصحبة ثلاث نساء يحملن إناء ضخمًا من الطعام يتصاعد منه البخار، وكان خلفها ثلاث نساء أخريات يحملن صوانى الأرز والبطاطا والفول والفاصوليا ولسان الحمل المقلى، أحضر الأطفال الأطباق الورقية والسكاكين البلاستيك، وحين تشبعت الحجرة برائحة الطعام الشهى أشرقت الوجوه معبرة عن شهية قوية، ثم راح الجميع يستمتع بالطعام الوفير.

(١١)

أحضروا الطعام وقاموا وغطوه ووضعوه فى أحد الأركـان؛ فسـال لعاب كل الحاضرين وبدأوا يتظاهرون بانهماكهم فى الحديث لإخفاء نهمهـم الشديد للأكل، وقف أكبر الرجال سناً وطلب منهم الهدوء لكنهم لـم يفعلـوا، وراحوا يطلقون النكات كما انتشرت فى الهواء المناقشات الساخنة والتنـابز بالألقاب حتى بدت حرارة الحجرة أكثر حدة، كرر الرجـل العجـوز طلبـه بالتزام الهدوء فكان ذلك سببًا فى إطلاق مزيد من النكات والدعابات، وهنـا اضطر أبى إلى رفع صوته والتلويح بذراعه القوية مهددًا إياهم حتـى سـاد هدوء نسبى.

سكب الرجل العجوز شرابًا عند قوائم الباب، ثم أقام الصلاة من أجلنـا وقدم الشكر للأجداد لأنهم وجدونى واختتم بمناشدة الآلهة ألا أضل طريقـى مرة أخرى، عندما انتهى من صلواته ودعائه انطلق فى حديث طويل رحـب خلاله بنا لأننا أصبحنا من السكان الجدد، ثم بدأ فى سرد سيل مـن الأمثـال والأقوال المأثورة والحكايات التى سقطت كالأحجار فوق أعمـاق جوعنـا، وكلما استطرد فى خطابه كلما ازدادت حدة الاكتئاب فوق الوجوه، أسـهمت أمثاله وأقواله المأثورة فى إحساسنا بجوع أكثر وانفعال وغضـب، وعنـدما أشبع رغبته فى الحديث رد أبى على تمنياته الطيبة وعبـر عـن العرفـان بالجميل لأمننا العام وصحتنا الجيدة ثم قام صلَّى لتقديم الشكر على كل تلـك الهدايا، كسر الرجل العجوز واحدة من البندق وأعطى فصًا منها لأبى الـذى مضغ قطعة صغيرة ومرر بقيتها إلى أمى ثم إلى.

تم توزيع المشروبات على الحاضرين، كانت توجد كميات كبيرة مـن مشروب (الإيجوجورو) والنبيذ للرجال وكثير من البيـرة للنسـاء وبعـض

المشروبات الخفيفة للأطفال، وحين راحوا يصبون ويتبادلون الشراب بدا العطش واضحًا فوق الوجوه المليئة بالعرق، بدأ أحد الرجال بالغناء فقالت امرأة: "إن الرجال لا يبدءون الغناء أبدًا إلا إذا كان الطعام جاهزًا". انفجرت بقية النساء بالضحك وقوبلت أغنية الرجل بالسخرية ثم بدأت النسوة يغنين أغنية قروية جميلة، لكن أبى - المولع بالإزعاج دائمًا - تناول زجاجة فارغة وراح ينقر فوقها بملعقة لإفساد إيقاع النساء، وعندئذ بدأ كل شخص يغنى أغنيته الخاصة حتى لم يعد ثمة تنافر بين مختلف الأصوات.

اتسم الاحتفال ببعض المضايقات والعناد، وكانت الحجرة أصغر من أن تستوعب كل ذلك العدد من الناس الذين يطلقون أصواتهم بالغناء فى كل مكان حتى بدا كأن حوائط الحجرة احتجت، سقطت الملابس المعلقة فوق المسامير والحبال وراحوا يمررون حذاء أبى من يد إلى يد وهم يمزحون ويطلقون النكات حتى ألقوا بالحذاء أخيرًا من الشباك، كانت الحجرة حارة جدًا فتصبب الجميع بالعرق وبدا كل شخص أكبر سنًا مما هو عليه بفعل الحرارة الشديدة، بكى الأطفال من شدة الانفعال والجوع لكن الشراب أطلق العنان للألسن التى لم تستطع السكوت فامتلأ فضاء الحجرة بالأحاديث والمناقشات، سألت النساء أمى عن الطريقة التى وجدتنى بها فأخبرتهن أمى بما لم تخبرنى به لكنها لم تذكر شيئًا عن رجل الأعشاب، بدأ الجمع فى التنافس بأصوات عالية وهم يحكون ما سمعوه من مختلف القصص المتشابهة؛ فتحدثت امرأة عن الساحر الذى أخفى طفلاً فى زجاجة خضراء، بينما راحت المرأة التى كانت مهتمة بأبى تحكى عن كيفية العثور على أختها وهى تطفو فوق الجدول ورأسها متوجة بالخرز.

قالت أمى فجأة: "تلك أكذوبة كبيرة فأنت لم تخبرينا أن لك أختًا".

أصيب الجميع بالدهشة، لكن أبى قاطعها بالتقاط الملعقة التى راح يضرب بها فوق زجاجته الفارغة محدثًا قليلاً من الضجة ثم نهض من مكانه

وراح يغنى ويرقص، اشترك الرجال معه فى الغناء واستطاعوا بنغماتهم الشعبية الحية أن يسخروا من منافسة النساء لهم، انتقل أبى بحماس إلى أغنيته الخاصة وحاول أن يشجع كل شخص على الرقص، ولما كان المكان ضيقًا ولا مجال فيه لحرية الحركة بدأ أبى – بعد أن صار مخمورًا بما يكفى – يضرب ويسب كل من لم يستجب لدعوته للرقص، فى البداية كان هناك نوع من السباب والضرب العام لكنه حين انفرد بأحدهم بدأ فى ضربه بشدة، غضب الرجل فطلبوا العفو عنه وأثناء عودته إلى مكانه لم ينس أن يتوعد بالانتقام، وهو يقول لأبى بصوت عال: "هل هذه هى الحجرة القذرة التى تتباهى بها؟ يالك من رجل كبير ولكن بعقل صغير".

ابتسم أبى بخجل فى الوقت الذى راحت أمى تلف حوله وتطلب منه أن يكون أكثر تأدبًا مع ضيوفه، وهى تحاول أن تسيطر على غضبها غير المفهوم، ثم غادرت مخلفة وراءها اضطرابًا ما ولم يرسلوا أحدًا وراءها، ارتبك أبى من الهدوء المفاجىء فطلب من الجميع أن يصبوا لأنفسهم مزيدًا من الشراب، وقد عزم هو أن يشرب نخب زوجته لكن الشراب نفد ولم يكن يملك نقودًا، فجلسنا جميعًا ننظر إلى زجاجاتنا الفارغة وقد خيم صمت مطبق، لكن أمى عادت فجأة بصحبة بعض الأقرباء الذين لم نشاهدهم منذ فترة طويلة، رحب الجميع بعودتها فقالت: "أعرف أن الشراب قد نفد فيجب إذن أن نحتفل بطريقتنا الخاصة".

تأثر أبى بذلك الترحيب ولم يجد بديلاً عن الإسراع بالخروج من الحجرة متجاهلاً ما قالته أمى، وتوجه إلى أحد الدكاكين فى الشارع المقابل ثم عاد محملاً بصندوق من البيرة.

أصبح الاحتفال أكثر صخبًا وطالب الرجال بمزيد من الشراب، وبدأ الرجل العجوز بعد أن صار مخمورًا فى سرد سيل من الحكايات والأمثال المتناقضة مع كل ما قاله فى البداية، اشتكى الرجل ذو الذقن الطويل من

رائحة الطعام التى يسيل لها اللعاب؛ فارتفعت الأصوات مطالبة بتقديم الطعام الذى طال اشتياقهم له، فبدأت أطباق الأرز واللحم تمر أمام الوجوه النهمة، ولأن عدد الحاضرين كان كبيرًا وعلى غير ما توقعت أمى فإنهم لم يحصلوا على كفايتهم من لحم الخنزير الكبير غير أنهم راحوا يقنعون أنفسهم بالشبع، تضاءلت كمية الطعام قبل أن تصل إلى الضيوف والتهموا الأرز بسرعة واختفى لحم الخنزير فى بطون الحشد الواسعة، كما أصبحت أوانى الطعام المطهو فارغة تمامًا وعندئذ راحوا ينظرون إلى الأطباق بعيون ذاهلة، تذمر الرجل صاحب الذقن الطويل قائلاً: "كان اللحم الذى تناولته قليلاً جدًا مما جعلنى أشعر بجوع أكثر".

شعر الجميع بعدم الرضا وقد أعادت رائحة الطعام - التى داعبت شهيتنا وظلت عالقة بالهواء - ذاكرتنا إلى وعود العيد الكاذبة، ووسط عدم الرضا الذى شعر به الجميع حاول أبى جاهدًا إدخال السرور على كل شخص؛ فحكى لهم بعض النكات والألغاز وتقمَّص بعض الشخصيات ثم راح يرقص ويعزف بالضرب فوق زجاجته، وفى أثناء ذلك تناولوا طعامهم وتمددوا فوق الأرض فسكبوا شرابهم ومسحوا أياديهم فى الستارة لكن أبى قدم لهم مزيدًا من الشراب ففرحوا وتهللوا، شرب الرجل العجوز بكثرة ونهم حتى سقط فوق مقعده وكسر ظهر المقعد أثناء محاولته مواجهة المرأة البيضاء بحركة مسرحية، فى نفس الوقت الذى جرى فيه رجل آخر ليتقيأ فى الممر بعيدًا عن الحجرة ثم عاد وقد بدا شبيهًا بالسحلية، أما أبى - الذى كان فى حالة من السكر الجميل - فقد تحدث عن العنف الذى كان سيلاقيه إذا كان قد ذهب إلى بيت ضابط الشرطة لأخذى، فانتهزت أمى الفرصة وقالت مقاطعة: "لماذا لم تذهب؟ لأنك كنت تعرف أنك مخمور جدًا".

ساد صمت آخر مثير للريبة فنظر أبى باستخفاف وعيون ثملة إلى كل شخص، ثم مد ذراعه إلى الحبل كأنه ينتزع الألغاز من الهواء، وقال بدون سبب واضح: "لن يرى أحد جثتى عندما أموت".

أصبح الصمت أكثر مما هو عليه، وراحت أمي تبكي بشدة فسارعت بالخروج من الحجرة ثم لحقتها امرأتان، شعر أبي بالقلق فراح يصب لنفسه كأسًا أخرى ثم بدأ فجأة يغني بطريقة جميلة، وكانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها ذلك الحزن الشديد في صوته القوي، انحنى دون أن يتوقف عن الغناء ورفعني إلى أعلى وأمسك بي في مواجهته، فأبصرت عينيه المحتقنتين بالدم وهو يقدم لي كأسه وما أن رشفت رشفتين فقط من الكأس حتى أصبحت مخمورًا بما يكفي، وضعني فوق الكرسي ثم خرج وعاد ممسكًا بذراع أمي التي توقفت عن البكاء وراحا يرقصان معًا، تأثر الحاضرون بالمشهد وبدأوا يغنون لهما وهم يطبلون بالضرب فوق المائدة، اهتزت الحجرة من الضربات القوية والأصوات ذات الإيقاعات المختلفة وموسيقى الزجاجات الفارغة، وعندئذ ظهر المصور بقبعته البيضاء وهو قادم من الطريق، كان اسمه (جيريميا) وكانت لحيته خشنة وبدا أنه معروف لدى الجميع وما أن دخل الحجرة حتى أصبح مصدرًا للضحك والسخرية، سخر البعض من توقيته الخاطيء وعدم حضوره في الوقت المناسب للاستمتاع بألذ وأشهى خنزير، بينما طلب منه البعض الآخر أن يخلع قبعته البيضاء ويبدأ بسرعة في الشراب حتى يصبح مخمورًا مثلهم، وحين تساءلت النساء عن السبب في عدم إحضار الكاميرا خرج وعاد بسرعة حاملاً معه الكاميرا، فتوقفوا جميعًا عن الرقص وبدأوا يجهزون أنفسهم لمجموعة من الصور لكن الرجل بذل مجهودًا كبيرًا في ترتيبهم من أجل الحصول على أوضاع جيدة، أما الرجل العجوز فقد جلس أمام الجميع محاولاً أن تظهر صورته في أحسن وضع، خرجت النساء من الحجرة لتزيين أنفسهن وترتيب ملابسهن وعندما عدن لم يعد الوضع الذي أعده المصور كما هو، رفعتني أمي ووقفت مع أبي بجوار الرجل العجوز حين كان المصور يجهز الكاميرا ويصدر بعض التعليمات، تقدم إلى الأمام وإلى الخلف وطلب منا أن نميل برءوسنا ثم سأل أبي أن يلف قدميه، وطلب من أمي أن تميل برقبتها قليلاً، ومني أن أبتسم ابتسامة

مجنونة، وبعد الانتهاء من ملاحظاته وتعليماته بدأ فى التقاط بعض الأوضاع المثيرة؛ مال بجسده ووقف فوق أطراف أصابعه ثم ركع وتسلق فوق المقعد وكأنه يقلد النسر فى طيرانه، شرب كثيرًا من زجاجة البيرة فتلألأت عيناه حتى تأرجح ومال للخلف، فقلنا جميعًا: Sheeze(*)

كنا نردد الكلمة بنغمات مختلفة ونتبادل الدعابات حين التقط أول صورة فأضاءت الكاميرا وتبعها صوت انفجار غريب، ومن خلال الضوء ظهرت بعض الأشباح التى ما لبثت أن استقرت عند قدمه، صرخت فضحكوا جميعًا، التقط المصور خمس صور مرة واحدة، وفى كل مرة كانت الأشباح تتساقط مترنحة من الضوء عند قدمه، وعندما ذهب إلى الأستوديو الخاص به لتحميض الصور ذهبت الأشباح معه، لكنه عاد إلينا وحيدًا وظل يشاركنا المرح الصاخب دون أن يتوقف عن الشراب حتى أصبح ثملاً بطريقة عجيبة.

بعد فترة قصيرة ظهر مالك الأرض فرحب به الحاضرون واندفعت أمى لتجهيز بعض الطعام كما اضطر أبى إلى استدانة مزيد من الشراب، أمسكوا بى وراحوا يلقون بى فى الهواء، ورغم إحساسى بألم خفيف فى ضلوعى إلا أننى تمنيت ألا يتوقفوا عن إلقائى فى الهواء.

بدا المصور كالساحر وهو يقفز من مكان إلى آخر لعمل أشياء غامضة، ثم رفع الكاميرا وكان محاطًا بعدد قليل من الأشباح والأرواح التى راحت تتسلق فوق بعضها البعض لرؤية الكاميرا عن قرب، كانت الأرواح والأشباح مفتونة بالكاميرا فراحوا يتسلقون فوقه ويتعلقون بذراعيه ويقفون فوق رأسه، كان المصور يعانى حالة شديدة من السكر لكنه التقط ثلاث صور لمالك الأرض وهو ممسك بمنفضة طرد الذباب، وبعد الانتهاء من

(*) Sheeze: تحية متبادلة أثناء الشراب.

عمله لم يجد صعوبة فى العودة إلى الأستوديو بعد أن علق الكاميرا فى أحد أصابعه حيث تجمع الأطفال والأرواح حولها وهم يشيرون إليها ويتحدثون بدهشة.

بدأ الرجال المخمورون فى مناقشات ساخنة، واصطحبت بعض النسوة أطفالهن إلى السرير، وكانت أصوات الرجال تتدفق صاخبة فى المكان عندما اهتزت الستارة فساد الصمت، وعندئذ دخلت المدام قادمة من الحانة وبعد أن شاهدها مالك الأرض أطلق صوتًا مرعبًا فنظر إليها الجميع فى هدوء وهم يترنحون من الخمر، كما ابتعدت الأرواح عن الكاميرا وراحت تحيط بالمرأة، جلسوا على بعد مسافة منها فابتسمت المرأة وراحت تلوح لنا جميعًا بالتحية، نهض أبى ورحب بها بحرارة ثم عثر لها على مقعد وبدأ يحكى لكل شخص عن أسطورتها الغريبة، كان الجميع يعرف حكايتها وظلوا ينظرون إليها بجلال خاص وأن أحدًا لم يكن يتوقع زيارتها، جهزت أمى بعض الطعام لها وأرسل أبى فى طلب مزيد من الشراب الذى لم يكن ضروريًا لأنها

أحضرت معها خمس زجاجات من النبيذ مشاركة منها فى الاحتفال بعودتى، عندما وصل شراب (الأوجوجورو) الذى طلبه أبى تناولت المرأة الزجاجة، ثم وقفت فجأة وأرسلت إشارات إلى كل مكان بالتزام الصمت، وقالت بعد أن أمسكت بيدى: "هل هذا هو الولد الذى نحتفل به؟"

أجابوا: "نعم."

- وهل هذا هو الولد الذى ضاع ثم وجدتموه؟

- نعم.

استدارت ونظرت إلى بعينيها الكبيرتين فى هدوء وقالت: "لن يبتلعك الطريق أبدًا، ونهر قدرك سيقهر الشر دائمًا، ولكى تفهم مصيرك يجب أن تعرف أن المعاناة لن تدمرك أبدًا وإنما ستعمل على تقويتك، كما أن النجاح لن يسبب لك أبدًا أى اضطراب أو ارتباك ولن يساعد فى بعثرة روحك وإنما

سيجعلك تحلق عاليًا فى ضوء الشمس الباهر، إن حياتك ستكون مدهشة على الدوام".

كانت كلماتها غريبة وعجيبة مما جعل الجميع يغرق فى صمت مطبق وهم يحدقون فيها بدهشة، ثم قال أبى بعد أن أفاق من صدمة الكلمات: "آمين".

كرر الحاضرون وراءه قائلين: "آمين".

كانت المرأة ما تزال واقفة، سكبت الشراب على الأرض تكريمًا للإله بعد أن صلّت صلاة قصيرة، ثم شربت نصف زجاجة من الأجوجورو فى رشفة واحدة فاهتزت أثداؤها فى الحجرة الحارة، وعندما انتهت جلست وقد اكتسى وجهها البدين بالعرق وأحاطتها الأرواح من كل اتجاه وهى تتحدث عنها بدهشة.

كانوا يريدون معرفة سرها لكنها لم تمكث مدة طويلة حيث نهضت فجأة، وقالت: "يجب أن أعود إلى الحانة".

حاولنا جميعا إغراءها بالبقاء لكننا لم نستطع، فقدم لها أبى الشكر على حضورها كما قدمت لها أمى الشكر على صلواتها وعلى ما أحضرته من النبيذ، وحين توجهت نحو الباب وهى تترنح كالسفينة الكبيرة توقفت فجأة ورمقتنى بنظرة قوية وقالت مخاطبة أبى: "لديك ابن غريب".

أضافت قائلة لى: "تعال لزيارتى قريبًا".

قلت: "نعم، سأفعل".

عندما غادرت الحجرة ذهبت الأرواح معها، وفى تلك الليلة فقط عرفنا اسمها، كانت معروفة باسم مدام (كوتو).

(١٢)

بعد كل ذلك المرح والصخب انتهى الاحتفال بمشـهد الرجـال وهـم نائمون فوق مقاعدهم، والأطفال وهم منبطحون فوق الأرض، والزجاجـات الفارغة فى كل مكان والعظام ملقاة فوق عتبة الباب، كان المصور يصـدر شخيرًا من أنفه وهو نائم بالقرب من حذاء أبى، أما مالك الأرض فقـد كـان محاطًا بالذباب حول أذنيه، كنت جالسًا وظهرى إلى الحائط وأنا فى حالة ما بين النوم واليقظة ومحاطًا بفوضى الأجساد البشرية عنـدما سـمعت تلـك الأصوات العذبة وقد بدأت تغنى من جديد، إنهم زملائـى الروحيـون وهـم يغنون لى بأصواتهم المغرية التى لا يمكن مقاومتها، ويسألوننى الوفاء بعهدى ويناشدوننى عدم الانصياع لاحتفالات الرجال تلك التى يسهل نسيانها والعودة إلى الأرض التى لا تعرف نهاية للاحتفالات، ظلوا يطالبوننى بالعودة وفـى مواجهة أصواتهم الملائكية وجدت نفسـى أسـبح فـوق أجسـاد الرجـال المخمورين وأخرج إلى فضاء الليل، نزلت إلى الشارع وأنا أسير فوق أجنحة من الأغنيات الجميلة دون أن أعرف إلى أى مكان ستقودنى تلك الأصـوات العذبة، سبحت عبر ممرات الأدغال حتى وصلت إلى مغطاة بلوح كبير مـن الخشب وفوقه حجر كبير، حاولت أن أحرك الحجر لكننى لم أستطع، فظللت أسبح وأطفو حول منطقتنا حتى شعرت بألم خفيف فى قدمى، وعندما توقفت رأيت أصابع قدمى وهى تنزف غير أننى لم أخف ولم أعد أشعر بأى ألـم، وبسرعة وجدت نفسى عند أطراف غابة كبيرة مكللة بالظلام، كنـت علـى وشك الدخول فى الظلام حين أبصرت قطة سوداء، كانت عينا القطة تتلألآن كالأحجار المضيئة ثم سمعت وقع أقدام يقترب، استدرت فاصطدمت بجسـد مدام كوتو الضخم.

أمسكت بى ورفعتنى قريبًا من أثدائها الكبيرة ثم أخذتنى إلى البيت فى هدوء، كانت أمى تبحث عنى فى كل مكان، وحين شاهدت مدام كوتو وهـى

تحملنى اندفعت نحونا عبر الرجال النائمين فوق مقاعدهم وسارعت بحملى ووضعى فوق السرير بينما كان بقية الأطفال نائمين وظهورهم إلى الحائط، أشعلت مدام كوتو عودًا من البخور وأغلقت النافذة ثم خرجت مع أمى.

سمعت مدام كوتو وهى تخبر أمى عن كيفية العثور علىّ، ووسط شخير الرجل سمعت أمى وهى تقدم لها الشكر، كان زملاء الروح يبكون فنمت واستيقظت على صوت طرقات فوق الباب، ودخل شخص ما ومعه مصباح، شاهدت ضوء المصباح لكننى لم أتمكن من مشاهدة حامله وهو يعبر الحجرة، وضع المصباح فوق المائدة فرفرفت الستارة حين كنت لا أزال راقدًا فى انتظار ما سوف يحدث لكن شيئًا لم يحدث، وعندما استيقظت لم أجد المصباح وإنما وجدت شمعة فى صحن الفنجان، رأيت أبى وهو يتحرك من شخص نائم إلى آخر ويعمل على إيقاظهم وحثهم على الذهاب إلى بيوتهم، كان الرجال ثملين للغاية وغير قادرين على الحركة أو حتى راغبين فيها، أما الأطفال فكان من الضرورى حملهم من أماكن نومهم، عندما اقترب أبى من المصور ولمسه فى كتفه قفز الرجل المسكين من مكانه وقال: "أين المرح والصخب والشراب؟ وأين الكاميرا؟".

ضحك أبى وهز المصور رأسه وراح يبحث عن الكاميرا فى حذاء أبى، لكنه لم يجدها فصرخ، وأخيرًا وجدها فى إناء فارغ للطعام وسط عظام الخنزير فنظفها بقميصه ثم مضى فى طريقه إلى الأستوديو.

استيقظ مالك الأرض وهز رأسه ثم نظر حوله بارتياب وقال: "أين أجرتى؟"

ثم تسلق السرير وطوقنى بذراعه وكأننى امرأة فسارع أبى بسحبه إلى الممر تاركًا إياه مع رغباته، كان الرجل ذو اللحية نائمًا فى الحجرة، وحين استيقظ تساءل عما إذا كان الاحتفال قد بدأ أم لا، ثم سأل عن السبب فى عدم تقديم لحم الخنزير له، بدأ أحد الأطفال فى البكاء، وعندما عاد أبى إلى

الحجرة طلب منه الرجل ذو اللحية بعضًا من البيرة فما كان من أبـــى إلا أن أخرجه من الحجرة، كانت الملابس المبعثرة فـــى كــل مكـــان والمقعـــدان المكسوران وبعض الزجاجات المحطمة فوق الأرض هى بعــض الأشـــياء الدالة على أنه كان هناك احتفال، وكان من العجيب أن أحدًا لم يجرح من تلك الزجاجات المحطمة، تقيأ أحدهم من النافذة وغرقت الحجرة فى رائحة نتنـــة من بول الأطفال النائمين.

راح البعوض يطن فأشعل أبى الجهاز وبدأت أمى فى تنظيــف أرض الحجرة وترتيب الملابس والأطباق والسكاكين والتخلص مـــن العظـــام، ثـــم رشت الحجرة بالمطهر، جلس أبى فوق مقعده يشرب ويدخن بهـــدوء حـــين كانت أمى تفرد الحصيرة وتشعل الشمعة قبل أن تذهب لتنام.

جلس أبى وحيدًا فى الظلام وهو يكرر: "لقد التزمنا بوعدنا".

كان دخان الجهاز القاتل للبعوض يصعد بطريقة حلزونية إلى الســـقف تمامًا مثل دخان سيجارة أبى، وكان ضوء الجهاز ووهج السيجارة الشـــيئين الوحيدين الباعثين على الضوء وسط ذلك الظلام الـــدامس، حتـــى أننـــى – وبطريقة ما – فكرت فى أن أبى ليس سوى سيجارة تدخن نفسها فى الظلام.

ظللت أراقبه تلك الليلة فبدا لى وكأنه كائن خرافى، كان ينهض أحيانًـــا ويسير بسرعة فى الحجرة محاولاً ألا يقلق أمى النائمـــة، وعنـــدما انتهـــت سيجارته أشعل واحدة أخرى، كنت ألاحظه وهو يسير إلـــى الأمـــام وإلـــى الخلف، وفى تلك الأثناء ازدادت حدة الظلام فأبصرت سيجارة أبى فى إحدى نهايات الحجرة كما سمعت خطواته عند النهاية الأخرى، وبدا لـــى أنـــه قـــد أصبح منفصلاً عن أفعاله ثم رأيت نسخًا كثيرة منه تدخن فى مختلف أركـــان الحجرة، أغلقت عينى ولم أفتحهما إلا فى الصباح فوجدت أبى نائمًـــا فـــوق مقعده، استدرت بجسدى وسمعته يطرقع مفاصله، وحين استدرت مرة أخرى كانت أمى قد استيقظت ونزعت الحصيرة ونظفت الحجرة، ولم يكن جهـــاز

البعوض فوق المائدة سوى عمود من الألومنيوم المغطى بالرماد الحلزونـــى، ولم يعد أبى نائمًا فى مقعده.

(١٣)

عرفت أن أبى خرج مبكرًا للبحث عن وظيفة، وكانت أمى تشعر بتعب شديد من احتفال ليلة الأمس، وضعت طاولة المؤن أمام الباب ثم جلست فوق أحد المقاعد ووضعتنى بجانبها وراحت تنادى بطريقة متشائمة على بضاعتها، امتلأت عيوننا بالرمال ولم تكن الشمس رحيمة بأجسادنا كما لم يسعدنا الحظ ببيع أى شىء.

بعد الظهر حضر الرجال الذين اقترض منهم أبى نقودًا بالأمس للحصول على نقودهم، وهددوا بالاستيلاء على بضائع أمى وظلوا يترددون علينا حتى المساء، فتوسلت إليهم أمى أن ينتظروا عودة أبى لكنهم لم يوافقوا، وكان أكثر شىء أثار ضيق أمى أنهم جيراننا وأنهم حضروا الاحتفال وشربوا من نبيذنا وتقيأوا فوق عتبة نافذتنا، وفى لحظة غضب كسر أحدهم ظهر الكرسى وحطم آخر زجاجتين، عرفنا فيما بعد أن مدام كوتو كانت واحدة من الدائنين، لكنها الوحيدة التى لم تأت للسؤال عن نقودها مع أن الآخرين لم يتوقفوا عن الالتفاف حول كشك أمى وإفساد عملها.

عند المساء بدأت أمى فى السعال وكانت عيناها ملتهبتَيْن من الرمال وجسدها يرتعش كلما حاولت الوقوف، حين ذهبت إلى الفناء الخلفى كانت تترنح فى مشيتها وكأن فشلها فى جذب الزبائن وعدم قدرتها على التخلص من الدائنين قد جعلاها تبدو كالمخمورة، لاحظت بعد عودتها أن عينيها صارتا غريبتين، وبين حين وآخر وبعد الانتهاء من النداء على بضاعتها لأولئك الزبائن غير المهتمين كانت عيناها لا تستقران على حال، مضى الوقت ببطء وأوشك المساء على الانتهاء، وعندما تغيرت الرياح وتسلل البرد بدأت أمى ترتعش فوق مقعدها وبدأت أسنانها تصطك، لكنها لم تتوقف عن محاولاتها الجادة فى مواصلة البيع بجسدها المرتعش ووجهها المتوتر وأنفها

الذى يتساقط منه العرق وعينيها الذاهلتين، كثيرات من نسوة المنطقة لاحظن ذلك التغيير فى وجهها فطلبن منها أن تستريح، غير أنها لم تبرح مكانها، كنا نجلس هناك فى الظلام وبضائعنا فوق المائدة مغطاة بالتراب.

بدأت الرياح تعصف بالأشجار الطويلة فى وقت متأخر من المساء حين لملمت أمى بضاعتها، وذهبت بجسدها المرتعش فى صمت وإصرار إلى الفناء الخلفى لتغسل كل ملابسنا، وبعد الانتهاء منها نظفت الحجرة وصنعت إناء من الطعام المطهو وآخر من البطاطا المهروسة لعشاء أبى، ثم شعرت بإرهاق شديد فذهبت لتنام لكن الدائنين لم يسمحوا لها بالراحة؛ فراحوا يعاودون ترددهم حول البيت والدوران حول الحجرة وهم يتهامسون عن المبالغ التى ندين لهم بها، ويبالغون فى قيمتها عند الحديث إلى كل تاجر جديد من رفقائهم بالإضافة إلى طرقاتهم فوق الباب، فقدت أمى كل قدرتها على الاحتمال فصاحت فيهم وعندئذ أخذوا عهدًا على أنفسهم بألا يبيعوا شيئًا آخر على الحساب، وظلوا يطالبون بنقودهم حتى موعد متأخر من الليل.

أصابنا القلق على أبى الذى لم يعد رغم غناء طيور الليل الذى يوحى بالوقت المتأخر وكثافة الظلام، وعندما تعبنا من القلق نامت أمى فوق السرير وغلبنى النعاس فنمت فوق الأرض، وعندئذ دخل أبى الحجرة حاملاً معه ظلالاً من الغضب، كانت أنفاسه مفعمة برائحة الكحول وكان مزاجه سيئًا، وحين أشعل الشمعة رأى أمى نائمة فوق السرير فانفجر غاضبًا وقال: "لقد ذهبت إلى كل مكان فى العالم للبحث عن وظيفة نقتات منها وأنت هنا نائمة!! يا لك من امرأة شريرة!!".

استمر أبى فى غضبه وصياحه أكثر من نصف ساعة دون أن يستمع لأحد ودون أن يتمكن من ملاحظة شيء؛ كنظافة الحجرة أو الملابس النظيفة أو أى شيء، نهضت أمى من فوق السرير وهى ترتعد بقوة ثم ذهبت مسرعة إلى المطبخ.

قلت: "ماما ليست على ما يرام".

قال أبى: "كل ما فى الأمر أنها شريرة وماكرة وليس بها أى شىء".

قلت مرة أخرى: "إنها ليست على ما يرام".

لم يسمعنى ودخلت أمى حاملة صينية الطعام، كان جسدها يرتعش وكانت الأطباق تهتز فوق الصينية لكنها نجحت فى الحفاظ على توازنها، أما أبى الغاضب فلم يرفع بصره ناحيتها وراح يتناول طعامه بشهية مفتوحة وصوت مسموع دون أن يفكر حتى فى إعطائى قطعة من السمك أو دعوتى لمشاركته كما يفعل دائمًا، وبعد أن التهم كل شىء عن آخره وفرغت الأطباق من محتوياتها بدا فى حالة مزاجية أفضل، وبدأ يخبرنا عن رحلته فى طول المدينة وعرضها تحت موجات الحر الشديدة بحثًا عن عمل دون أن يجد شيئًا، أثناء لحظات الصمت التى تبعت كلامه أخبرته أمى عن الدائنين الذين لم يتوقفوا عن مطاردتنا فوجد أبى فى ذلك فرصة مناسبة لإظهار مزيد من الغضب؛ وراح يهدد بالذهاب إليهم وضربهم لأنهم تسببوا فى مضايقة أمى والعمل على بعثرة أسنانهم فى كل أرجاء الغابة والنيل منهم بقوة ليصبحوا عاجزين طوال الليل وحتى الصباح.

صاح قائلاً: "سوف أجعل الرياح تقتات على رءوسهم".

بذلت أمى مجهودًا كبيرًا فى محاولة لإقناعه بالعدول عن مثل تلك الأعمال العنيفة، لكن أبى – وقد تملكه شيطان الغضب – راح يلعنهم جميعًا طوال الليل وهو يدخن سيجارة من أخرى ويطرقع مفاصله ويمشى ذهابًا وإيابًا فامتلأت الحجرة بمزاجه السيئ، ظل يدمدم عن كيفية مساعدته للناس الذين يتسببون دائمًا فى إثارة غضبه، وعن كل أولئك الدائنين الذين حضروا احتفالنا والتهموا لحم خنزيرنا وشربوا البيرة ورغم ذلك لم يترددوا فى مضايقة أمى عند أول فرصة تتاح لهم، كان يشتكى – بمرارة – من أولئك

الناس الذين كلفوه أكثر من طاقته ثم طعنوه فى الظهر، كنت أستمع لمثل تلك الشكاوى طوال حياتى، احترقت سيجارته بشدة وهو يغير كلامه، نهضت أمى فجأة وكان كلامه الحاد والجارح يهدف إلى كل شيء، غلبنى النعاس وفى تلك الليلة امتزجت أحلامى بلعنات أبى على الخيانة الموجودة فى العالم.

استيقظت فوجدت أمى فوق السرير ترتعش ووجهها ملىء بالعرق، اشترى أبى أدوية الملاريا وبعض الأوراق المرة التى يضعونها فى الماء المالح لتذوب، كانت أسنان أمى تصطك ببعضها البعض وعيناها مثبتتين فى زاوية واحدة، جلس أبى بجوارها وفرد ذراعه عليها ولم تعد رأسه ذات الضمادة تنزف بالدم، نهضت من فوق سريرى وحييت أمى غير أنها لم تكن قادرة على الكلام إلا بصعوبة، ضمتنى بقوة إلى جسدها الساخن حتى بدأ جسدى أيضًا فى الارتعاش، ضمتنى أكثر حتى اصطكت أسنانى مثلها، وبسرعة شعرت بالحمى وهى تنتقل من جسدها إلى جسدى فأصبحت مقلة عينى ساخنة، وحين لاحظ أبى ما يحدث لى من تغيرات اختطفنى من حضن أمى المرتجف وقدم لى شرابًا مرًا للوقاية ثم أمرنى بالذهاب للاستحمام، نظفت أسنانى بعد الحمام وعندما عدت كان أبى قد أعد بعض الطعام فجلسنا وتناولنا الطعام معًا من نفس الطاسة، بينما كانت أمى تتألم من المرض فوق السرير.

انتهينا من الطعام وراح أبى يعد نفسه للرحيل حين جاء الدائنون واحدًا تلو الآخر كما لو أنهم متفقون، طرقوا الباب ودخلوا ثم قالوا عنى أشياء جميلة وغامضة ولم ينسوا أن يعبروا عن تعاطفهم الشديد مع أمى وتمنياتهم لها بالشفاء فى أسرع وقت، سألوا عن الجروح التى أصابت أبى ثم رحلوا قبل أن يجيبهم أحد، وما هى إلا دقائق قليلة حتى عادوا واحدًا وراء الآخر لتذكير أبى بما يجب أن يدفعه لهم وكيف أنه كان حالة خاصة؛ لأنهم لا يقرضون المال لأحد ولا يبيعون شيئًا على الحساب، وفى النهاية عبروا عن تمنياتهم بالشفاء لأمى ثم غادروا.

غضب أبى وازداد سخطًا من طريقتهم فى النفاق والخبث، وراح يمشى فى الحجرة وقد تملكه الغضب، ثم فجأة وبعد أن أصبح غير قادر على مزيد من الاحتمال اندفع خارجًا من الحجرة فمضيت خلفه إلى الفناء حيث يحتشد كل الدائنين، كانوا يتحدثون عن العمل بأصوات خفيضة كما لو أنهم كانوا على وشك تشكيل شركة قانونية محدودة، مضى أبى فى سيره وسطهم فتفرقوا وحاولوا الجرى إلى حجراتهم المختلفة، لكن أبى هتف مناديًا باسم كل واحد على حدة طالبًا منه العودة، ثم بدأ فى إهانتهم جميعًا لمدة خمس عشرة دقيقة، احتملوا إهاناته بهدوء وعندما انتهى منهم جميعًا استدار بحركة مسرحية من جسده ومضى فى طريقه عائدًا إلى حجرتنا.

أدرك كل شخص أننا أعداء فى المنطقة، وما أن غادر أبى حتى تجمع الدائنون مرة أخرى، وراحوا يتحدثون بانفعال أكثر وبدوا كالمتآمرين المجانين.

عدت إلى الحجرة فوجدت أبى مرتديًا بدلته الفرنسية السوداء، سكب شرابًا ما فوق الأرض تكريمًا لأسلافه وقدم الصلاة داعيًا لأمى بالشفاء، ثم ارتدى حذاءه الوحيد فامتلأت الحجرة برائحة الجلد اللاذعة والجوارب القديمة والعرق الذى يفوح من بين أصابع القدم، وبمجرد خروجه من الباب استيقظت أمى من نومها صارخة ولم تتوقف عن الصراخ إلا حين عاد أبى وأمسك بها وقدم لها مزيدًا من شراب (الدونجويارو)، ظلت تتلوى حول السرير ثم هدأت فجأة لكن الدموع كانت تسيل فوق وجهها بغزارة حتى تتجمع أسفل أذنيها، ظل أبى بجانبها فترة لاحظ خلالها أمى وهى ترفع رأسها بحركات مفاجئة أثناء نومها ولم يعد نومها منتظمًا، فطلب أبى منى أن أبقى إلى جانبها وأعتنى بها وقال لى: "يجب أن أذهب للحصول على بعض النقود وسوف أعود بسرعة". خرج ورأسه متدلية إلى أسفل وكأنه - لأول مرة - يعترف بأن المصائب لا تأتى إلا من أعلى.

جلست فوق مقعد أبى لمراقبة أمى وظللت أطلع إلى وجهها النائم حتى بدأت عيناى فى الارتجاف، وفجأة استيقظت أمى وكان جسدها ثقيلاً وعيناها تنظران إلى لا شيء، وبدأت تتحدث بلغة غير مألوفة ثم وقفت وراحت تتجول فى الحجرة وتعيد ترتيب الأوانى والأوعية الخزفية وتنظف المائدة وتطبق الملابس وتلمع حذاء أبى، دون أن تتوقف عن الحديث بلغة غير طبيعية طوال الوقت.

صرخت قائلاً: "أمى".

لم تسمعنى ولم تشاهدنى وراحت تلتقط الأوانى والأوعية المعدنية السوداء ذات القواعد المنبعجة ثم خرجت من الحجرة، مضيت خلفها وأمسكت بأحد أطراف ملابسها بقوة حتى سقط جزء من ملابسها بين يدى، ذهبت إلى المطبخ وهى تتمتم بلغة جديدة غير مفهومة وكانت عيناها شاحبتين وخاليتين من أى تعبير، أشعلت النار فوق حاملة الوقود وبدأت فى طهى إناء من الطعام بطريقة آلية، حيث كان جسدها يتحرك لكن عقلها كان غائبًا كما لو أنها كانت تحلم، وعندما اشتدت حدة اللهب وضعت إناء فارغًا فوق الموقد ثم جلست فوق المقعد، وراحت تحدق فى الإناء حتى انبعثت منه رائحة المعدن المحترق.

صرخت مرة أخرى: "ماما".

استدارت نحوى ثم نهضت وهى تتفحصنى، وبعد أن خرجت من المطبخ لم تستطع أن تتمالك نفسها فوقعت بجوار الحفرة، هتفت بأعلى صوتى فأسرعت بعض النسوة بالمجيء وحملنها إلى حجرتنا حيث رقدت فوق السرير وهى تتنفس بصعوبة، جلست النسوة حولها بظلالهن الكبيرة وأياديهن معقودة إلى صدورهن وهن واقفات بصمت ورؤوسهن إلى أسفل وكأنهن واقفات أمام جثة.

جلست فوق مقعد أبى وظللت أنظر إليها حين غادرت النسوة وعدن بمجموعة من الأدوية المختلفة فى أباريق خضراء وزجاجات سوداء، ثم قمن بمحاولات مختلفة لعلاجها وصنعن لها جرعة شراب غريب من العقاقير والزيوت والماء المقطر، وبعد أن غادرن نامت أمى وكانت أنفاسها ذات صوت أجش، فلم أستطع أن أبتعد عنها وظللت إلى جوارها حتى غلبنى النعاس وشعرت بألم فى معدتى، وحين استيقظت فجأة رحت أنظر إلى أمى وأستمع إلى أنفاسها التى تغيرت ولم تعد مسموعة، تغيرت الحجرة وسمعت أصواتًا تغنى فى رأسى، كما أبصرت سحلية تتسلق السرير وتمشى فوق ذراع أمى ثم توقف كل شيء، لكن بدا للحظة أن أنفاسى قد انقطعت تمامًا، حاولت أن أتنفس فسقط ثعبان من سقف الحجرة ثم وقعت من فوق الكرسى وأنا أحاول التنفس مرة أخرى، لكننى نهضت وعاودت الجلوس فبدا واضحًا أن أمى هى التى توقفت عن التنفس، كان الذباب متجمعًا عند فمها دون أن تتحرك، وكما لاحظت واستمعت شعرت بألم حاد فى أذنى وتلونت عيناى بألوان مختلفة ثم أخذت نفسًا فأبصرت غشاوة زرقاء فوق وجه أمى، سمعت صراخ طفل ورأيت السحلية وهى تمشى مسرعة بجوار قدمى، حاولت إيقاظ أمى لكنها ظلت بلا حراك وناديت عليها فلم تتحرك، أصبحت الغشاوة الزرقاء فوق وجهها أكبر مما كانت عليه، وكأنها بخار متصاعد من الماء المغلى حتى تجمعت وصارت أكثر وضوحًا، وقد أصابنى فزع شديد عندما كان لون الغشاوة يتغير بسرعة من اللون الأخضر إلى الأصفر إلى الأحمر ثم إلى وميض ذهبى قبل أن يعود إلى اللون الأزرق مرة أخرى وبعد أن تأكدت مما أراه – وبخاصة بعد انتقال الغشاوة إلى اللون الفضى المشوب بالأحمر والتى راحت تتلألأ فى ظلام الحجرة – لم أعد أحتمل المزيد، لم تتحرك أمى ولم تتنفس فجريت بكل سرعتى إلى حانة مدام كوتو لإخبارها بأن أمى تحتضر.

كانت الحانة مغلقة لكننى وجدت مدام كوتو فى الفناء الخلفى وهى ترتدى لفافات زرقاء وقميصًا أحمر وتربط رأسها بقطعة قذرة من القماش.

كانت مشغولة بمحاولة الإمساك بدجاجة كبيرة حين ناديت قائلاً: "مدام كوتو".

حدقت فى بغضب وطلبت منى أن أصمت فطارت الدجاجة مــن بــين يديها، لكنها راحت تتعقبها بين الشجيرات وبعد أن استطاعت الإمساك بهــا بإحكام رمقتنى بنظرة حادة وقالت: "إن والدك مدين لى ببعض النقود".

ثم تجاهلت وجودى تمامًا وكانت الدجاجة تصارع للإفلات مــن بــين يديها، لكنها أمسكت برقبتها المليئة بالريش بقوة وأدارت فمها ثــم وضــعتها تحت قدمها وذبحتها من عند الحلقوم بسكينتها الطويلــة الخشــنة، تــدفق دم الدجاجة من مكان الجرح وارتفع عاليًا فى الهواء حتى وصل إلــى وجهــى ولطخ قميصها الأحمر، تسرب الدم إلى الحفرة التى حفرتها مدام كوتو فــى الأرض، وكانت الدجاجة لا تزال تصارع من أجل البقاء وهى ترفع رأســها وتسقطها وتفتح فمها وتغلقه فى حالات من التشنج النهائى، لكنهــا بعــد أن ماتت تمامًا كانت عيناها المفتوحتان تحدقان فى، غسلت مدام كوتو الســكين وكان العرق يسيل من وجهها وصدرها حين رمقتنى بنظرات قوية كما لــو أنها كانت فى طريقها لابتلاعى، فصرخت ثم قالت وهــى تمــص أســنانها: "أتصرخ من أجل الدجاجة؟." حاولت الوصول إلى الغلايــة حــين أمســكت بقميصها ورحت أشدها لكننى لم أستطع التحدث إليها، دفعتنى بعيــدًا عنهــا فوقعت على الأرض وظللت واقعًا أصارع الهواء حتى قلت أخيرًا: "إن أمى تحتضر".

نظرت إلى وقالت: "كيف تعرف بأنها تحتضر؟"

أجبت: "ثمة دخان يتصاعد منها".

قالت متسائلة: "دخان؟"

قلت: "دخان أحمر".

نهضت على الفور وغسلت يديها وقبل أن تبدأ فى الإسراع بالـذهاب إلى بيتنا قالت لى وهى واقفة أمام عتبة الحانة: "اذهب بسرعة لتجهيز بعض الماء المغلى وسوف أحضر حالاً".

وقفت فى مكانى مرتبكًا وقد دخلت مدام كوتو إلى حجرتها ثم خرجت وبيدها حفنة من الأعشاب، وراحت تتجول بين الشجيرات وتقطـع الأوراق من النباتات، وبعد ذلك التقطت قطعة من الإسفنج الخشن والنبات الأخضـر الأسود وصندوقًا معدنيًا أسودًا، وحين نظرت حولها رأتنى فقالت: "هيا اذهب وجهز الماء المغلى فأنا قادمة الآن".

اندفعت بسرعة نحو البيت وملأت الإناء المعدنى بالماء ثـم وضـعته فوق النار، وصلت مدام كوتو بسرعة فغسلت الأوراق ووضعتها فى المـاء المغلى، وحين دخلنا الحجرة كانت أمى لاتزال راقدة فوق السرير وقد تلاشت الغشاوة من فوق وجهها، حاولت مدام كوتو أن تضع الأوراق فى فمها لكنها توقفت عند شفتيها، فلم تجد مدام كوتو بديلاً عن صب الماء المغلى فى كوب وإضافة بعض الزيوت السوداء وشراب (الأوجوجورو) إليه، ثم رفعت رأس أمى وحاولت أن تسقيها ذلك الشراب لكن أمى لم تتحرك، فصـاحت مـدام كوتو منادية باسمها بصوت عال كأنها ضربت بأحد السياط فى الهواء وظلت تنادى باسمها بنفس القوة فى محاولة لاستدعاء روحها.

بعد وقت طويل فتحت أمى عينيها ونظرت إلى مدام كوتو ثـم إلـى، وكانت تنظر إلينا بعينيها المفتوحتين الشاحبتين الساكنتين لكن بـدون إدراك، اعتقدت أن أمى قد ماتت فحزنت كثيرًا ووقعت علـى الأرض وأنـا أبكـى وأفكر، ثم سمعت من مسافة بعيدة صوت أمى وهى تقول بصـوت خفـيض جدًا: "لقد رأيت ابنى فى أرض الموت".

ثم قالت بنفس الصوت الضعيف: "أزارو؟"

أجبت: "نعم".

سألتنى: "ماذا كنت تفعل هناك؟"

قلت: "أنا هنا يا أمى".

نظرت فيما ورائى، وفى تلك الأثناء قدمت لها مدام كوتو مزيدًا من شراب الأعشاب المختلط بالزيوت، كما ساعدتها فى احتساء بعض الشوربة ثم جعلتها تقف وطلبت منى أن أتحدث إليها دون توقف، تحدثت إليها بكل ما خطر ببالى فتغير لون وجهها حتى اختفت الغشاوة تمامًا.

هتفت قائلاً: "لقد اختفى الدخان".

فتحت مدام كوتو الباب والنافذة فامتلأت الحجرة بالهواء والضوء، ونامت أمى وهى جالسة فى مكانها ورأسها إلى الأمام، كنت أستمع إلى أنفاسها المضطربة، وبعد لحظة رأت مدام كوتو أن نتركها لتستريح فعادت إلى الحانة وإلى الدجاجة التى كانت على وشك القيام بطهيها وتجهيزها للطعام، بينما ظللت أنا خارج الحجرة وأذنى على الباب دون أن أحرم نفسى من مشاهدة الأطفال وهم يلعبون.

سمعت أمى تنادى على اسمى ثلاث مرات متتالية فهرعت إلى داخل الحجرة وجلست فوق السرير، كان وجهها متشيئًا بالعرق ورائحة المرض تنتشر فى الحجرة، كما أبصرت بعض الفقاقيع فوق شفتيها والعرق فوق جبهتها، كانت شفتاها ترتعشان وكانت تتحدث بصعوبة.

قالت: "ابنى، لقد رأيتك وأنت تمشى على رأسك، لقد كنت تمشى بعيدًا عنى وحين رحت أتعقبك جريت بسرعة وأنت تسخر منى يا ولدى".

قلت: "لم أكن أسخر منك يا أمى".

أضافت أمى قائلة: "لقد رأيتك بدون أعين وبدون فم ولك أقدام صغيرة فى رأسك، وكان هناك حبل أبيض حولك صاعد إلى السماء وحين شددت الحبل شعرت به يشدنى أيضًا، ولم أستطع أن أقطعه ثم قفز الحبل من قدمك

إلى رقبتى وشدنى عاليًا إلى السماء حتى تجاوزت القمـر، وهنـاك تمكنـت سحابة حمراء من غلق عينى".

قلت: "إن عينيك مفتوحتان يا أمى".

أجابت: "ذلك لأن الحبل الأبيض قفز إلى رقبتى بسببك، ماذا كنت تفعل بسيرك رأسا على عقب؟"

- لا أعرف.
- وكيف حصلت على تلك الأقدام الصغيرة فى رأسك؟
- لا أعرف يا أمى.
- ناولنى بعض الماء يا ولدى فأنا أشعر بالعطش.

أسرعت بإحضار الماء فى كوب نظيف وعندما عدت وجدتها نائمـة، استسلمت للنوم بسرعة وكانت أنفاسها طبيعية.

حضرت نساء منطقتنا فى الصباح الباكر للاطمئنان على أمـى التـى نهضت من مكانها وراحت تستقبلهن، فرحن يصلين صلاة الشـكر لشـفائها وبعد أن غادرن جاءت مدام كوتو حاملة طاسة مليئة بالطعام وأخرى مليئـة بالشوربة، غير أن أمى لم تكن راغبة فى الأكل لكننا ضغطنا عليها خاصـة وأنها كانت تعانى من ضعف شديد، نظفت الطاستين وأعدتهما إلى حانة مدام كوتو، وفيما بعد راح الدائنون يتوافدون علينا للسؤال عن أبى بحجـة أنهـم جاءوا فقط للسؤال عن صحة أمى التى ما أبصرتهم حتـى أصـابها القلـق، فصاحت فيهم متهمة إياهم بإفساد صحتها.

دخلت وأبصرت أمى تترنح وهى تقذفهم بكل ما يقع تحت يديها، كـان جسدها يميل ويتأرجح بشدة وهى تلقى عليهم بالأحذية، وعندما اشتركت معها فى الهجوم سارعوا بالانسحاب وفى الخارج راحوا يصبون علينا اللعنات كما شجعوا أطفالهم على إلقاء الأشياء علينا، فألقى أحدهم بحجر أصاب أمى فـى

رأسها مما أوقعها منهارة عند قدمى، فراحت النساء تبكى بشكل جماعى بكاء مأساويًا، هرب الدائنون وحملت النساء أمى إلى الحجرة وما أن تجاوزن عتبة الباب حتى أفاقت أمى لكن عينيها كانتا غاضبتين، وبعد أن رقدت فوق السرير ارتسمت فوق فمها ابتسامة غريبة كما لو أنها أدركت أخيرًا شيئًا ما دائمًا ما عجزت عن إدراكه.

ظلت تلك الابتسامة الغريبة فوق فمها طوال فترة المساء، كنت أستمع إلى الذباب وأصوات المساء، وكان الذباب يروح ويجيء فوق ابتسامة أمى التى لم تحاول قَطّ إبعاده عنها، فأخذت أضرب الهواء عند فمها للتخلص منه، وهنا نظرت أمى إلى بلا أى مشاعر، جلست فوق السرير وظللت أراقب الليل وهو يزحف إلى الحجرة من خلال النافذة المفتوحة.

كان الوقت متأخرًا جدًا عندما استيقظنا على إثر صوت قادم من عند الباب، فتحركت نحو ركن السرير حيث التففت حول نفسى وكانت عينا أمى مفتوحتين عن آخرهما، نظرت إلى الباب فرأيت أبى واقفًا كشبح طويل بعينين متلألئتين وبدون الحبل المتدلى من عنقه، كان شبيهًا بعملاق تائه ولم يتحرك لمدة طويلة، ثم أضاء شمعة وأغلق النافذة والباب، وعندما جلس اندفعت من مؤخرة بنطاله سحابة بيضاء كثيفة من التراب، كان شعره الأبيض مشعثًا وكذلك رموش عينيه، لكننى خفت كثيرًا من وجهه الذى يوحى بتعبيرات متناقضة وحائرة، كان جسده مشبعًا برائحة الأسمنت والسمك المجفف والتراب الأبيض، جلس صامتًا لفترة طويلة من الوقت دون أن يتحرك، وعندما بدأ يتحرك سمعنا طرقعات مفاصله، وكان ذراعه الجريح معلقًا فى جانبه بشكل مهلهل، ولم تكن الضمادة موجودة فوق جبهته، وكان التراب الأبيض يغطى الجرح، قال فجأة محطمًا صمت الشمعة المحترقة ببطء: "كيف حال أمك؟"

قلت: "كادت أن تموت اليوم لولا مساعدة مدام كوتو".

تنفس بعمق وأغلق عينيه وظل صامتًا للحظة فشعرت أنه غـرق فـي النوم، بينما كانت عينا أمي مفتوحتين وخاليتين من أي تعبير.

- هل يوجد أي طعام؟
- لا.

التزم أبي الصمت مرة أخرى ثم ارتدى شبشب الحمام وتناول الفوطة والصابونة ومضى إلى الحمام، عاد من الحمام نظيفًا ومهنـدمًا بـلا أتربـة بيضاء وقد تخلص من رائحة الأسمنت، لكن عينيه كانتـا ثقيلتـين وكانـت نظراته ما تزال حائرة كما أن الخوف منه لم يفارقني، راح يـدعك جسـده بالزيت ويمشط شعره ولم ينس أن يشعل الجهاز القاتل للبعوض، تحركنا إلى المائدة وفرشنا الحصيرة، وكانت الحجرة غارقة في رائحة حذائه وملابسـه، جلس فوق الكرسي ورقدت أنا فوق الحصيرة وقد وضـعت وسـادة تحـت رأسي.

قال بعد لحظة وهو يدخن: "وإذن ماذا حدث اليوم؟"

أردت أن أخبره عن الدائنين وعن ماما لكنني شعرت بملل معين تجاهه ساعد في الإحساس بثقل الليلة فقلت: "كادت أمي أن تموت".

تنهد تنهيدة طويلة ثم نهض ونظر باستياء إلى أمي ووضع راحة يـده فوق جبهتها وأغلق عينيها، عاد إلى مقعده وأشعل سيجارة أخرى فاسـتطعت حينئذ أن أعرف مدى الحزن المسيطر عليه وعلى أفكاره من الطريقة التـي يسحب بها دخان السيجارة ومن طريقته في التنهد والتقاط أنفاسه.

كنت أراقب الجزء المحترق من سيجارته في الظلام، وأخيرًا قـادني وهج السيجارة إلى حانة مدام كوتو حيث كان أبي هناك، وحيث كانت الحانة قد تحركت وأصبحت في أعماق الغابة وكان كل الزبـائن مـن الحيوانـات والطيور، جلست فوق الدكة التي كانت في الحقيقة عبارة عن ظهـر مـاعز

وشربت فى جرعة واحدة من ظهر الثور، دخلت دجاجة ضخمة إلى الحانة وجلست بجوارى ثم طلبت نبيذًا وحساءً متبلاً بالفلفل، لكن مدام كوتو لم ترغب فى خدمة الدجاجة، فقال أبى: "قدمى لها ما تريد".

خرجت مدام كوتو من الحانة وعادت حاملة مكنسة كبيرة ثم راحت تتعقب الدجاجة داخل الحانة وتضرب رأسها بينما كان أبى يضحك والدجاجة تضحك، تعثرت مدام كوتو فى سيرها فوقعت لكنها سرعان ما نهضت وضربت الدجاجة فوق رأسها ضربة قوية، جرت الدجاجة خارج الحانة وقد أحدثت تلفًا بإطار الباب، وكانت تضحك بصوت عال داخل الغابة، نظرت حولى فأبصرت أبى نائمًا فوق مقعده ورأسه متدلية إلى الأمام، أيقظتُه فاستيقظ فجأة وعندما نهض قال إن سحلية بأسنان زجاجية كانت تتعقبه فى أحلامه، رقد بجانبى فوق الحصيرة فشممت رائحته وقد أصابنى بالقلق والتعاسة، لم يكن مستقرًا فى جلسته بجانبى وكانت عظامه تطرقع وظل يتنهد ويتمتم ببعض الكلمات لأجداده، وفجأة وجدت نفسى – مرة أخرى – داخل حانة مدام كوتو فى أعماق الغابة ولكن أبى لم يكن موجودًا، وكانت الزبائن هذه المرة غير مرئيين مما جعلنى أرى الهواء وهو يحتسى النبيذ، جلست مدام كوتو فوق مقعد مصنوع من ريش الدجاجة وقد بدأ أبى يغط فى نومه بقوة، حتى أن المكنسة الخشبية الطويلة الموجودة فى الركن بدأت تكنس الحانة وتنشر التراب الأبيض فى كل مكان، أمرت مدام كوتو المكنسة أن تهدأ لكن أبى استمر فى غطيطه، فهاجمت المكنسة العنكبوت ونظفت الموائد وعندما حاولت المكنسة القذف بمدام كوتو خارج حانتها فقدت المدام أعصابها ورايتها وهى تتشاجر مع المكنسة الطويلة، لكن المكنسة ضربتها فى رأسها وعندئذ ضحكت كما توقف أبى عن إصدار أصوات وهو نائم، انتزعت مدام كوتو المكنسة ورفعتها إلى كتفها ثم ألقت بها بقوة فوق الأرض، فتكسرت رقبتها وبدأت يد المكنسة تنزف، استدارت مدام كوتو نحوى وقد امتلأ وجهها بالدم وقالت: "أنت تضحك علىّ؟! الدور عليك بعد المكنسة".

تحركت نحوى بطريقة شيطانية فصرخت، لكن أبى وضـــع ذراعـــه حولى وقال: "لا شيء سوف يسبب لك الأذى".

بعد فترة طويلة من الصمت كما لو أنه كان يجيب على ســؤال مهـــم وجهه إليه الليل ووالداه وأمنياته قال: "لقد حملت العالم فوق رأسى اليوم".

ثم غرق فى النوم بسرعة وبدا عملاقًا فى نومه.

(١٤)

كان أبى يصلى ويبتهل إلى جوار جسد أمى متوسلاً الشـفاء، وكـان الرجل الذى يعالج بالأعشاب موجودًا بالحجرة، وقـد بـدت علـى وجهـه الصرامة والحكمة وهو يحمل بعض أوراق النبات القديمة التى بـدا يلـوك بعضها بأسنانه البنية، وضع السائل فى الطاسة وأخذ يرش الحجـرة وعلـى جانبى جسد أمى كانت هناك الشموع، رقدت أمى فوق الحصـيرة وراحـت تتنفس بهدوء بينما كانت جفونها تتلألأ، لكن خفاشًا ميتًا كان يرقد فوق وجهها كما ظهرت فوق كتفيها تلك الجروح الخفيفة التى سببها الموسى، شاهدت الدم وقد تحول إلى اللون الأسود حين كان العشاب يضع الرماد فـوق الجـرح، طلب العشاب منها أن تقف وتشرب من الطاسة المليئة بالسائل المر، فحولت أمى وجهها وبدأ العشاب فى ضرب الهواء بمنفضة الذباب الجميلـة طـاردًا الأرواح غير المرغوب فيها؛ فامتلأ الهواء بصرخاتهم وبعد أن سَدَّ الفراغات ببعض الأعمال السحرية طلب من أمى الوقوف مرة ثانية، كنا ننظـر إليـه باهتمام بالغ حين ضربها فوق كتفها وأخرج إبرة طويلة وثلاث قواقـع مـن جسدها، ثم خرج من الحجرة ودفن تلك الأشياء فى الأرض.

بعد الانتهاء من العلاج غرقت أمى فى نوم عميق وقد اكتست ملامحها بنوع من السلام لم تنعم به من قبل، وفى تلك الأثناء كـان أبـى والعشـاب يتجادلان بشأن النقود، وكان صوت أبى متوترًا وهو يناشد الرجل من أجـل تخفيض الأجرة قائلاً له: "هذا هو كل ما أملك".

لكن الرجل لم يتزحزح عن رأيه ولم يرق قلبه فتنهد أبى ودفع له مـا أراد ثم جلسا يتحدثان كأنهما أصدقاء، كرهت العشاب لأنه أخذ كل تلك النقود من أبى وسببته لكن كراهيتى له تفاقمت لتظاهره بأنه صديقنا، عندما نهـض

ليغادر بدا وكأنه يرانى لأول مرة فراح يحدّق فى وأعطانى جنيهًا أعطيته على الفور لأبى فسحبت لعناتى ثم غادر، جلست فوق قدم أبى وظللنا نراقب أمى وهى نائمة بسلام فوق السرير.

فى وقت متأخر من بعد الظهر عبر أبى عن عطشه فذهبنا إلى حانة مدام كوتو التى كانت خالية من الزبائن فيما عدا بعض الذباب، سمعتها تغنى فى الفناء الخلفى وراح أبى ينادى عليها لكنها لم تسمع فاشتركت فى النداء عليها مع أبى ونحن نطرق فوق الطاولة، غير أنها ظلت غير قادرة على سماعنا، كنا نطرق فوق الطاولة وننادى على اسمها عندما تحرك الباب الأمامى، فدخلت ريح سوداء وأحاطت بنا ثم اختفت داخل إناء خزفى مملوء بالماء.

قلت متسائلاً: "هل رأيت ذلك يا أبى؟"

- ماذا؟
- الريح السوداء!
- لا.

دخلت مدام كوتو وكان شعرها منكوشاً ويداها ملوثة بدم حيوان ما، وقالت: "أزارو ووالده، أنا قادمة".

خرجت وعادت بعد دقائق قليلة وقد نظفت يديها ومشطت شعرها واستطردت قائلة: "ماذا تريدان أن تشربا؟"

طلب أبى نبيذه المعتاد والشوربة فالتف الذباب حولنا وكانت حشرة (أبو بريص) تراقبنا ونحن نشرب فقلت: "انظر إلى تلك الحشرة يا أبى".

قال بدون أن ينظر: "لا تهتم بها فهى صديقتنا، إنها تعمل على حراستنا".

كانت الشوربة أكثر سخونة من المعتاد فظللت أنفخ فيها لتبريدها وعندئذ قالت مدام كوتو: "اشرب بعض الماء".

- لا، لا أريد ماءً.
- ولِمَ لا؟
- لقد تلوثت بالريح السوداء.
- عن أى ريح تتحدث؟

قال أبى: "دعك منه ولا تهتمى بما يقول".

نظرت إلى نظرات ملؤها الشك والحيرة، ثم جلست إلى المائدة بجوارنا وقالت مخاطبة أبى: "لك ابن غريب حقًا".

أضاف أبى: "وزوجة طيبة، لقد سمعت بما قمت به من أجلها وأنتهز الفرصة لأشكرك كثيرًا" تجاهلت مدام كوتو عرفانه بالجميل ثم نظرت إلى بعينيها الكبيرتين وقالت: "ماذا عن النقود التى أنت مدين لى بها؟"

قلت: أنا!؟

- لست أنت وإنما والدك.
- نعم؟
- إننى لست كالآخرين.
- ومن هم الآخرون؟
- أولئك الذين يطلبون نقودهم والذين...

توقفت عن الكلام ثم نظرت إلى أبى وإلى وقالت: "سوف أنسى النقود إذا سمحت لابنك بالمجيء إلى الحانة كل يوم".

رمقنى أبى بنظراته وسأل: لماذا؟

- لأنه يتمتع بحظ طيب.
- أى حظ طيب؟ إنه لم يجلب لنا سوى المتاعب.
- ذلك لأنه ابنك.
- لا أستطيع الموافقة لأنه سيذهب إلى المدرسة.

قلت: أنا لا أريد الذهاب إلى المدرسة.

قال أبي: اخرس.

حدقت مدام كوتو في أبي بعينين مشرقتين وقالت: "سوف أدفع له كـي يذهب إلى المدرسة".

أجاب أبي بفخر: أستطيع أن أتكفل بمصاريف ابني.

- حسناً، لن أطالبك بالنقود في مقابل أن تسمح له بالمجيء والجلـوس هنا لمدة عشر دقائق فقط مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، وهـذا كل ما في الأمر.
- هل تريدين أن تجعلي منه سكيرًا؟
- إن أباه ليس سكيرًا.

نظر أبي إلى بطريقة مختلفة وكانت حشرة (أبو بريص) لا تزال فـي مكانها لا تتحرك دون أن تتوقف عن مراقبتنا طوال الوقت، وقال: "سـأناقش الأمر مع أمه".

قالت مدام كوتو: "شيء جيد".

فأضاف أبي: ولكن ماذا عن أولئك الناس الذين أدين لهم؟

- ماذا عنهم؟
- كنت على وشك أن تخبريني بشيء.
- ألم يخبرك أزارو؟
- عن ماذا؟
- ألم يخبرك بأنهم ألقوا الحجارة على زوجتك؟
- من؟ من الذي ألقى الحجارة؟

نهضت مدام كوتو وأحضرت مزيدًا من النبيذ ثم أجابت: "لا أسـتطيع أن أخبرك".

استدار أبى ناحيتى ونظر إلى بعنف فسارعت - قبل أن يسألنى - بإخباره عن أولئك الناس وعن الذى فعلوه، فأمسك بزجاجة النبيذ وتناول نصفها فى جرعة واحدة ومسح وجهه المليء بالعرق بقطرات النبيذ التى سقطت من فمه ثم اندفع خارجًا من الحانة دون أن يدفع الحساب.

فى الوقت الذى مضينا فيه إلى حيث نسكن كان أبى غاضبًا والتقينا مصادفة بأحد الدائنين الذى كان خارجًا لتوه من الحمام، توجه أبى ناحيته مباشرة وبدون أن يتفوه بكلمة واحدة ضربه فوق وجهه وانهال عليه باللكمات في معدته، فانحنى الرجل وراح يصدر صوتًا كصوت الخنزير ثم أمسك أبى خاصرته وألقى به فوق الأرض، وعندما اعتدل أبى وراح يسوى هندامه وينفض التراب عن يديه أبصر دائنًا آخر كان ابنه قد ألقى بالحجر فوق رأس أمي، وحين قرأ الرجل ملامح الغضب الشديد فى وجه أبى لاذ بالفرار لكن أبى جرى وراءه وأمسك به ثم ضربه فوقع الرجل على الأرض، ساعده أبى فى النهوض ورفعه فوق كتفيه فى مواجهة السماء ثم طرحه أرضًا فوق رقعة من الطين.

عاد الرجل الأول بعد أن أفاق بسرعة من سقطته، كان يجرى ناحيتنا حاملاً قطعة محترقة من الخشب وهو يلوح بها عاليًا فى الهواء بحركة دائرية، فرح أبى وحاول أن يتفادى قطعة الخشب المحترقة ثم ضرب الرجل ضربة قوية فى معدته مرة أخرى، وأصابه بالارتباك والاضطراب حين راح يصيبه بوابل من اللكمات فوق وجهه، وفى النهاية صاح أبى صيحة أدهشت الجميع طرح بعدها الرجل أرضًا.

كان الدائن الآخر مغطى بالطين حين اقترب من أبى وراح يقسم ويتوعد بقوة، بدا أبى فى تحسس لكماته فوق أنف الرجل الذى راح ينزف، ثم تخلص منه بضربة قوية من يده اليسرى فتجمع الناس وكان الدائن الآخر ملقى فوق الأرض وغير قادر على الحركة، ازدحم أقرباء الرجل الواقع على

الأرض وزوجاتهم حول أبى الذى ظل يرتطم بهم ويضـــربهم بكلتـــا يديـــه ضربات وحشية وهو مصمم على أن يفصل رءوسهم عن أجسادهم، خـــاف الرجال وراحوا يتصدون لضربات أبى المتجهة إلى كل مكان لكن أبى أوقـــع ثلاثة رجال منهم بعد عدة لكمات من ذراعه القوى.

اندهشوا جميعًا من شجاعته وقوته وقالوا: ملاكم! ملاكم!

هجمت زوجات الدائنين على أبى ونبشن أظافرهن فى وجهه ثم أمسكن بجزء حساس فى جسده فسمعته يصرخ ويتذمر، لكنه نجح أخيرًا فى إبعادهن عنه ولاذ بالفرار تحسبًا للغضب الذى تملكهن وخوفًا من إيـــذائهن، جـــرى الأطفال والنساء وراءه وعندما فشلوا فى اللحاق به عادوا وقد انتقل غضبهم إلى فهربت إلى حيث مدام كوتو صارخًا واختبأت خلـــف الآنيـــة الخزفيـــة، صاحت النساء وأقربائهن بالخارج ولم يجرؤ أحد علـــى الـــدخول وإحـــداث الفوضى داخل حانة مدام كوتو خوفًا منها ومما هو معروف عنهـــا، لكنهـــا سمعت أصواتهم من الفناء الخلفى وعندئذ رأيتها تربط لفافتها بإحكام حـــول خصرها استعدادًا للمعركة ثم تقدمت ناحيتهم وصاحت قائلـــة: "نعـــم، مـــاذا تريدون أيها الناس؟ نبيذ أم حرب؟"

تبعثرت جماعة منهم أمام تهديد مدام كوتو وانسحبت تمامًا فخرجـــت من مخبأى خلف الآنية الخزفية، وحين أبصرتنى مدام كوتو ابتسمت لى ثـــم صبت لى كأسًا من النبيذ شربته بمشاركة الذباب، ظهر أبى بعد فترة وهـــو يتحرك بين ظلال الشجيرات ثم دخل وجلس إلى جوارى فوق مقعد الحانـــة، حيث ظللنا نشرب حتى المساء لكننى بعد انتهائى من الكأس الثالثة لاحظـــت أن حشرة (أبو بريص) لازالت تحدق فينا، كانت الحشرة ذات الخط الأحمـــر فوق رأسها لا تتحرك وكانت عيناها تشبه نوعًا من الخرز الأزرق الصغير.

سألنى أبى: "إلى أى شىء تنظر؟"

أجبت: "لا شىء".

هبط الظلام فأرسلنى أبى إلى البيت للاطمئنان على أمى ومعرفة ما إذا كانت ما تزال نائمة أم لا، لكننى كنت رافضًا الذهاب فقدم لى قطعة لذيذة من طعام الحانة ثم ملأ كأسى الصغيرة بالنبيذ، فسارعت باحتسائه مرة واحدة وعندئذ قال: "لتكن ابنًا حقيقيًا لأبيك".

ابتسمت بطريقة مخمورة وخرجت من الحانة، كان طريق الأدغال هادئًا حين سمعت صياح أحد الديكة وأصوات بعض الحشرات الحية وأغانى طيور الليل، مشيت متأرجحًا وتغير العالم من حولى وأصبح كل شىء هادئًا مرة أخرى، مررت بشجرة تتدلى من فروعها قطعة قماش زرقاء، وحين أوشكت على التقاط قطعة القماش سمعت نباح الكلب لكننى لم أخف وإنما شعرت – لسبب ما – أننى أعرف ذلك الكلب الذى شاهدته من قبل فى مكان ما، وعندما عرف الكلب أننى لم أخف عاد للخلف وأسرع باتجاه الغابة ورحت بدورى أتتبع ذيله المتيبس، وعندئذ تذكرت أمى فغيرت طريقى قاصدًا البيت، كان الطريق واضحًا ومستقيمًا من حانة مدام كوتو إلى بيتنا غير أن الكلب سبب لى ارتباكًا مما جعل كل الطرق معقدة؛ فاضطررت إلى السير فى طريق واحد قادنى إلى الغابة ثم عدت فى نفس الطريق ووصلت إلى مكان لم أشاهده فى حياتى من قبل؛ حيث كل البيوت ضخمة والأشجار صغيرة والسماء منخفضة والهواء معتدل وجميل.

حاولت الخروج من ذلك المكان لكننى لم أستطع أن أجد وسيلة للخروج، فعدت فى نفس الطريق إلى الغابة لكن الطريق قادنى أكثر إلى تلك الأرض، فوقفت وكان الجو هادئًا ولم أسمع طنين الذباب ولا حتى تحركات الحشرات أو تغريد الطيور، كانت الحرارة مختلفة وقد لاحظت أن لا شىء يلقى بظلاله فى ذلك المكان الغريب، كما كان ضوء الشمس الأحمر يتخلل كل شىء ولم تكن ثمة رياح وكان الهواء باردًا وساكنًا، حين بدأت فى السير مرة أخرى لم أكن أسمع وقع أقدامى وبعد لحظة لم أعد أشعر بالخوف،

وأثناء الطريق أصبح كل شيء مألوفًا بالنسبة لي فواصلت السير عبر الطرق والممرات المعقدة، وبعد أن مشيت مدة طويلة رأيت رجلاً ذا خطوط بيضاء فوق وجهه يتقدم ناحيتي، كانت عيناه خضراء اللون لكن شيئًا ما قد تغير فيه حين نظرت إليه بإمعان، ورأيت أن الشعر في قدميه غير طبيعي وأن وجهه مقلوب فوق رقبته، كانت ملامح وجهه تشير إلى حالة من الفزع وعيناه فوق وجنتيه وفمه فوق جبهته وكانت لحيته كثيفة الشعر لكن رأسه صلعاء أما أذناه فلم أستطع أن أكتشفهما، اضطررت لتحريك رأسي وأخذت أفكر محاولاً فهم ملامحه ولم أستطع أن أفهم كيف أنني رأيته عاديًا حين شاهدته أول مرة، مضى بجانبي دون أن يلفظ بكلمة واحدة، وكانت العيون المثبتة خلف رأسه تراقبني بحذر.

لجأت إلى طريق آخر في محاولة لتجنبه ولكنني أبصرته بعد مسافة قليلة وهو يقترب مني؛ فواصلت السير محاولاً الابتعاد عنه غير أن الأمر بدا وكأننا دخلنا في متاهة غير مرئية من الممرات والأزقة وفي كل مرة كنت ألتقي به كان يبدو أنه يقصدني، عندما وصلت إلى بستان من الأشجار الزرقاء اختبأت خلف إحدى تلك الأشجار فسمعت بداخل الشجرة أصواتًا صاخبة وغاضبة كأنها أصوات صادرة من اجتماع مهم، اخترت طريقًا ومضيت فيه لكن الدهشة أصابتني حين رأيت نفسي أقترب، فوقفت في مكاني وقال الشخص الآخر الذي هو أنا: ماذا تفعل هنا؟

- أنا؟
- نعم.
- وماذا عنك؟
- ماذا عني؟!
- ماذا تفعل هنا؟
- لماذا تسأل؟
- لأنني أريد أن أعرف.

- إننى أقوم بتبليغ رسالة.
- وما هى هذه الرسالة؟
- رسالة لك.
- لى أنا؟
- نعم.
- وما هو مضمون هذه الرسالة؟
- لقد أرسلنى شخص ما لأخبرك أن تذهب للبيت.
- ذلك ما أحاول أن أفعله.
- هل أنت متأكد؟
- نعم، بالطبع ولكن من الذى أرسلك؟
- من تعتقد؟
- لا أعرف.
- الملك.
- أى ملك؟
- الملك العظيم.
- وأين هو؟
- أى نوع من الأسئلة هذا؟

توقفنا لحظة نظرت خلالها بإمعان إلى ذلك اللغز الواقف أمامى والذى كان ينظر إلى بإمعان أيضًا ثم قلت: "أنت تشبهنى".

أجاب: "إنه أنت الذى يشبهنى".

وأضاف دون معرفة من الذى بدأ يتضح للآخر وهو يشير بيديه: "اسلك ذلك الطريق وستكون على ما يرام".

نظرت فى الاتجاه الذى أشار إليه فأبصرت الكلب الذى كنت أتعقبه، وعندما عاودت النظر إلى الشخص الآخر الذى هو أنا لم أجده، مشيت خلف

الكلب حيث واصلنا السير فى الطريق بعض الوقت، كانت هناك قطع ممزقة زرقاء من القماش فوق الأشجار، وقد أصبح الطريق ضيقًا وصغيرًا جدًا فشعرت أننى أمشى فوق الحائط، لم أرفع بصرى عن الطريق محاولاً ألا أنحرف عنه حتى أننى لم أنتبه لخروجنا من الغابة، وعندما رفعت بصرى رأيت مدام كوتو متألقة فى زيها الأصفر وكأنها ذاهبة لحضور إحدى الحفلات.

سألتنى: "أين كنت؟"

أجبت: "لا أعرف".

هزت رأسها بسخط ثم واصلت سيرها ومضت إلى شئونها، وبعد أن غادرت لم أستطع العثور على الكلب فى أى مكان فواصلت طريقى قاصدًا البيت.

وصلت إلى المنطقة التى يقع فيها بيتنا بعد أن ساد الظلام الشديد وهرعت إلى حجرتى فلم أجد أحدًا ولم تكن أمى فوق السرير، لكن الحجرة كانت نظيفة ومرتبة وكانت رائحة مبيد الجراثيم تنبعث من أركان الحجرة، غادرت الحجرة ورحت أهيم فى ممرات البيت لكن أحدًا لم يصادفنى ثم سمعت أخيرًا فى الحجرة الأخيرة كل ضجيج المنطقة متجمعًا فى مكان واحد، كان هناك كثير من الصياح وظل صوت أبى يرتفع فوق الضجيج، وعندما نظرت إلى داخل الحجرة من خلال فتحة صغيرة فى الباب رأيت كل الناس والجيران مجتمعين فى لقاء عاصف لكننى لم أر أية مشروبات فوق الطاولة، كان الدائنون موجودين فى أحد جوانب الحجرة وكان الاثنان اللذان ضربهما أبى يصيحان فى الخلف ويحمل أحدهما مدية كبيرة بينما يحتضن الآخر هراوة غليظة وبينهما وبين الطاولة كان يتجمع رجال المنطقة ونساؤها، وفى الجانب الآخر من الحجرة كان يوجد أبى مع أمى وكثير من الأطفال والمصور الذى كان مشغولاً بالتقاط الصور وكان صاحب البيت هو الحكم، كان أبى هادئًا وبدت أمى فى حالة جيدة.

قال أحد الدائنين: "بما أنك قوى جدًا فلماذا لم تصبح ملاكمًا؟"

أجاب أبى: "سوف أكون".

قال الدائن الآخر: "ولماذا لا تلتحق بالجيش وتستخدم عضلاتك حتى يقتلوك؟ أنت قوى هنا فقط".

رفع صاحب البيت يده وطلب الصمت من الجميع وحين لاحظ ضوء الكاميرا وقف فى مكانه دون حراك، صاح الدائنون مطالبين بنقودهم وتعويضهم عن الجروح التى ألمت بهم، فبدوا كالأطفال مما أثار ضحكات أبي وراح صاحب البيت وسط أضواء الكاميرا يصدر أحكامه فأمر بتغريم أبى عشرة جنيهات وكانت غرامة كبيرة جدًا فتهلل الدائنون فرحًا، وكان على أبى أن يدفع ديونه والغرامة فى خلال أسبوع واحد وإن لم يستطع فلا بد أن يرحل عن المنطقة، كما أضاف صاحب البيت - ووسط فرح الدائنين وابتهاجهم بتغريمه زجاجة من شراب الأوجوجورو كى يتبادل الجميع شرابها دليلاً على تسوية الخلاف، فقال أبى إنه لا يملك المال لكنه سيشترى الزجاجة على الحساب، وعندئذ ضحكت النساء فوجد المصور الفرصة سانحة لالتقاط صورة نادرة، وفى لحظة من الشهامة غير العادية وغير المتوقعة أعلن صاحب البيت إعفاء أبى من إحضار زجاجة الأوجوجورو الخاصة بالصلح قائلاً: "سأتكفل أنا بها".

هتف الناس ابتهاجًا لحكمته وتسللت أنا من الباب إلى واجهة البيت ورحت ألعب مع بقية الأطفال فى الرمل.

سمعت بعد فترة قصيرة أصواتًا عبر الطريق فذهبت إلى الفناء الخلفى وغسلت وجهى وقدمى ثم اتجهت إلى الحجرة، كانت أمى تتحرك بخفة ونشاط وكأنها لم تكن مريضة، كان وجهها متوردًا وعيناها مشرقتين، لقد شفيت أمى تمامًا واسترردت روحها وحيوية وجهها، جلس أبى فوق الكرسى

وهو يدخن فبدا سعيدًا وقد أصبحت رأسه خالية من الجراح وذراعــه حــرًا وغير مربوط إلى عنقه.

سألنى قائلاً: "أين كنت؟"

اندفعت أمى ناحيتى وضمتنى إليها، شممت رائحة جسدها فشعرت كما لو أننى كنت ضائعًا ومهملاً منذ أيام عدة.

صاحت أمى قائلة بعينين مشرقتين على غير العادة: "ابنى!"

أطفأ أبى سيجارته وقال: لقد فاتك الاجتماع، لقد غرمونى وحين سئمت من انتظارك عدت للبيت، إن أمك فى حالة جيدة الآن، لقد استجابت الآلهــة لدعواتنا.

استطرد أبى دون أن أتخلى عن حضن أمى قائلاً لى: "تعــال، اجلــس وتناول طعامك، ابتداء من الغد وحتى موعد التحاقك بالمدرسة سوف تــذهب إلى حانة مدام كوتو وسوف تبقى هناك دقائق قليلة كل يوم.

أومأت برأسى ثم غسلت يدى وتناولنا الطعام معًا وظل أبى يــداعبنى وهو يخيرنى بين قطع الجمبرى والدجاج، بينما كانت أمى تنتزع العظام من السمك الشائك وتقدم لى أشهى الأطعمة، كانت الحجــرة مشــرقة بتألقهمــا فشعرت بأننى غريب إذ طالما افتقدت تلك اللحظــة المهمــة التــى تجلــب الأضواء إلى حياتنا.

انتهينا من الطعام فتناولت الأطباق وتوجهت إلى الفناء الخلفى لتنظيفها وفى طريق عودتى مررت بأحد الدائنين الذين ضربهم أبى، كان وجهه مليئًا بالكدمات وكانت ملامحه توحى بالشفقة، وعندما مر بجوارى ضــربنى فــى رأسى وما أن وصلت إلى حجرتنا حتى وجدت عينى تدمعان، كان أبى وأمى يجلسان معا فوق السرير فنظرت أمى إلى وقالت مخاطبة أبى: "انظــر، إن ابننا يبكى من السعادة".

ابتسمت ولم أعد أشعر بألم الضربة ورحت أنظف الطاولة وأفرش الحصيرة حيث تمددت فوقها، ذهب أبى إلى مقعده وكانت الإضاءة المنبعثة من الشمعة منخفضة فأشعلت أمى شمعة أخرى، رحت أراقب اللهب المتصاعد منها حين بدأت أمى ترتب المؤن التى تبيعها فى السلة وهى تقول: "أنا ذاهبة لأبدأ التجارة من جديد".

ابتسم أبى وقال: "زوجتى سيدة أعمال جادة".

ثم نظر إلى وقال: "يعتقد الناس أننى سأكون ملاكمًا جيدًا، لقد شاهدنى رجل عبر الشارع حين كنت أضرب الدائنين وقال إنه سيقدمنى إلى بعض المدربين والمديرين ليتولى تدريبى مدرب جيد وبدون مقابل".

ضحك وضرب الهواء بقبضة يده ثم راح يتأرجح للخلف وأضاف: "سأصبح ملاكمًا عظيمًا، يقول الناس إننى أستطيع الحصول على أموال كثيرة من الملاكمة".

ضرب الهواء مرة أخرى وبدأ يوجه ضرباته إلى لهب الشمعة فكان يطفئها مع كل ضربة ويعود لإشعالها مرة أخرى، ثم قال: "إننى أصارع النار فأصبح نارًا مثلها وعلى أى شخص يجرؤ على منازلتى أن يعرف بأنه يواجه الشمس".

ضحك مرة أخرى بينما ظللت أراقب أسرار اللهب الغامضة، وحين سمعت أمى وهى تصدر صوتًا حزينًا نظرت إليها فعرفت أنها لم تكن سعيدة من رغبة أبى فى أن يصبح ملاكمًا، فقالت وهى تعد قروشها القليلة: "لقد اعتاد والدك أن يمارس الملاكمة والمصارعة فى القرية كما اعتاد الناس أن يلقبوه بالنمر الأسود خاصة وأنه كان يتغلب على كل الشباب، وذات يوم وقبل بدء النزال ضرب الحائط الخاص بخصم أبيه فأحدث به ثقبًا كبيرًا".

ضحك أبى بصوت عال فاستطردت أمى قائلة: "صب الخصم اللعنات عليه فتجمع الناس وقالوا إن أباك سوف ينهزم إذا حاول النزال مرة أخرى

وستكون هزيمته مخجلة وستصيبه بالجنون لمدة أسبوع على الأقل، وعندئذ توقف والدك عن القتال مما جعل القرويين يسحبون منه اللقب ويطلقونه على شخص آخر، لكن مؤيديه ظلوا يطلبون منه العودة مرة أخرى لمواصلة القتال واسترداد لقبه بوصفه بطلاً للقرية، كانوا يراهنون عليه بثقة لكن أباك رفض في البداية ثم وافق في النهاية بلا غرور غير أن رجلاً صغيرًا طرح أباك أرضًا في الجولة الأخيرة وهكذا خسر أول مباراة بعد العودة".

- لكن الجنون لم يصبني لمدة أسبوع كما كانت تقول كل القرية.
- لكنك جئت إلى المدينة.
- نعم، جئت إلى المدينة.

التزم الاثنان الصمت وبدا تقريبًا كأنهما قد وصلا إلى حالة يصعب معها مواصلة الحوار، انتهت أمي من عد قروشها القليلة ثم جلست فوق السرير بينما راح أبي يتنهد ويقول: "لم أر أبي منذ خمس سنوات".

فجأة بدأ فأر في مضغ شيء ما تحت الدولاب فاستيقظت ذبابة كبيرة وطارت كما لو أنها استيقظت من نوم طويل وعميق، وراحت تطن عبر الحجرة كما خرجت الفراشة من حذاء أبي وراحت تلف حول لهب الشمعة بحركات لولبية، أشعل أبي سيجارة وراح يدخنها وهو يتأمل ويفكر، التحقت فئران أخرى بالفأر الأول وظلوا يشاركونه المضغ، وكان وجه أمي يرتعش حين قال أبي: "إن جدك لا يستطيع الرؤية الآن، لقد أصبح أعمى تمامًا، إنه كبير قساوسة ضريحنا، إنه قس إله الطريق حيث يذهب الجميع إليه إذا أرادوا القيام بعمل تضحية ما قبل البدء في رحلتهم أو قبل إجراءات الدفن أو الولادة وحتى في المآتم، كل الناس يسافرون في نفس الطريق".

توقف ثم استطرد: "كان من المفترض أن أصبح قسيسًا مثله لكن كبار القرية قالوا له: إن ابنك مقاتل وكيف يمكن للمقاتل أن يكون قسًا وإلهًا للطريق؟ لقد اختار الرب وريثًا من خارج عائلتك ولكن من الذي يستطيع أن

يتنبأ بالمستقبل؟، لقد أصيب جدك بخيبة أمل كبيرة لاختيار خليفة من خارج العائلة، إنه أعمى الآن ويرتدى نظارة سوداء ويهيم فى القرية وفى العالم بدون عصا وبدون أى مساعدة، إن أهلنا الكبار يتمتعون بروح قوية جدًا ويملكون كل أنواع القوة".

كان صوته حزينًا جدًا وهو يضيف قائلاً: "لقد نسينا تلك القوة التى لا وجود لها هذه الأيام إلا فى الأنانية والنقود والسياسة".

استمرت الفئران فى المضغ واقتربت الفراشة من لهب الشمعة حتى احترقت أجنحتها وسقطت فوق الشمع، فكانت الرائحة المنبعثة من أجنحتها المحترقة رائحة نفاذة ولم تستطع أن تحلق وهى تتلوى فى الشمع، أطفأت لهب الشمعة وأخرجت الفراشة من الشمع المحترق ثم أشعلت الشمعة مرة أخرى وسمعت أبى يقول: "إن القوة الوحيدة التى يملكها الفقراء هى إحساسهم بالجوع".

قالت أمى: "تلك الفئران"!

بسطت ذراعيها وقدميها فوق السرير وانتهى أبى من تدخين سيجارته وتخليت أنا عن الوسادة والغطاء ثم أطفأ أبى الشمعة، ورحت أستمع إلى الفئران وهى تأكل والذباب وهو يطن فى الظلام، ذهب أبى لينام فسمعنا صرير سوستة السرير، وكانت الفئران لا تزال تأكل حين قال أبى فى الظلام: "أزارو، من الممكن أن نكون أصدقاء للفئران، إن الفئران تستطيع أحيانًا أن تخبرك عما يحدث فى العالم، إنهم الجواسيس الذين يعملون لصالحنا، استمع للفئران يا أزارو وأخبرنى فى الغد بما سمعت".

كنت أستمع إلى الفئران وكان واحدٌ منهم بأسنان صفراء متلألئة كالماس، لكن الفئران لم تكن تقول شيئًا ثم سمعت صرير سوستة السرير مرة أخرى حتى طغت حركة السرير على أصوات خشخشة الفئران، نمت

واستيقظت على صوت تنهدات أمى، اهتز السرير وكانت أنواع مختلفة مـــن الحشرات تتجول وتهيم فى الظلام حين نمت مرة أخرى.

استيقظت فجأة وكان السرير لازال يتحرك دون أن ألحظ أو أستمع إلى أصوات السرير المتنوعة وهو يتصدع، لكننى كنت قادرًا على سماع أصوات صيحات الفئران القوية، وقبل أن أعود للنوم لم أعد أسمع صـــرير الســـرير أبدًا؛ لأننى أدركت فجأة أننى إذا حاولت بجدية كافية فإننى أستطيع أن أفهـــم لغة الفئران التى كانت تقول – وهى تأكل من كيس أمى الملىء بـــالحبوب – إن العالم أكثر قسوة وعنفًا وصلابة من النار والصلب، لكننى لم أفهم وحـــين غلبنى النعاس طلبت منهم تفسيرًا لكنهم لم يستطيعوا أن يفهمـــونى لأنهـــم – وعلى خلاف منا – لا يتحدثون سوى لغة واحدة.

الكتاب الثانى

(١)

ملىء ذلك العالم بالتشوهات والألغاز التى لا يستطيع معالجتها وفك رموزها سوى الموتى، عندما بدأت فى الذهاب إلى حانة مدام كوتو عرفت سبب اهتمام الأرواح بها، كنت أذهب إليها كل يوم فور خروجى من المدرسة بعد الظهر، وغالبًا ما كنت أجدها فى الفناء الخلفى وهى تحفر الأرض وتزرع شيئًا غريبًا أو تقطف أحد تلك الأشياء الغامضة، وذات يوم اختبأت وظللت أراقبها فأبصرت ما زراعته وقد نبت حول أحجار بيضاء فى الأرض لكننى لم أفهم أهمية أو دلالة ذلك أو حتى إذا كانت توجد دلالة على ذلك أم لا.

كنت أدخل الحانة أحيانًا بعد عودتى من المدرسة أثناء وجودها فى الفناء الخلفى بين الشجيرات، وكانت بمجرد أن تسمعنى تصيح قائلة: "اجلس، اجلس لتجلب الزبائن".

اعتدت أن أجلس فى الحانة الخالية من الناس إلى جوار الآنية الخزفية وكانت أسراب الذباب تتضاعف مع وجود النبيذ حتى خيل لى بأننى أتنفس الذباب مع كل شهيق، كنت أجلس وحيدًا فى الحانة لمدة طويلة دون أن يأتى أحد للشراب فلا أجد ما أفعله سوى مقاومة الذباب ومراقبة المارة من خلال فتحات الستارة، وعندئذ قلت لنفسى: "إننى لا أجلب سوى الحظ السيىء".

كانت الحانة خالية من الزبائن فى أوقات ما بعد الظهر إلا من شخص أو اثنين من العاطلين عن العمل من الذين اعتادوا المساومة على سعر كأس النبيذ، كانت مدام كوتو تعامل أى شخص باحترام منذ لحظة دخوله الحانة، لكنها كانت تكره الناس الذين يقفون بالخارج ويترددون فى الدخول وتتمنى لو يذهبون بعيدًا ولا يدخلون.

كانت النساء تمر أحيانًا فى فترات ما بعد الظهر، وكن فى معظمهن من البائعات الجائلات اللاتى يعرضن بضائعهن فى الشمس، كن يتحدثن عن أطفالهن أو أزواجهن أو عن الانتخابات القادمة وعن قطاع الطرق والعنف، لقد تم قتل الكثير من مختلف الأحزاب فى مصادمات بقلب المدينة، وكانت النساء تأتى دائمًا محملات بالصرر فوق رءوسهن ويرتسم على وجوههن مزيج غريب من الحزن والنشاط أو مزيج آخر من الهزال والحيوية، كثيرات منهن كن من الباعة الجائلين الذاهبين إلى السوق أو الذين يتوقفون لحظات للراحة من متاعب ممرات وحى الأقليات طرقه المليئة بالرمال، كانت النساء بتحدثن بصوت عال ويجتمعن حول مدام كوتو فى الفناء أثناء جلوسها فوق المقعد لإعداد شوربة المساء.

عند حضورهن كن دائمًا يضايقننى بالقول: "ها هو الولد الذى سيتزوج ابنتى، انظرن إليه".

كن يربطن أطفالهن إلى ظهورهن، ولقد تمكنت من خلال طريقتهن فى الثرثرة من معرفة كثير مما يحدث فى البلد؛ فتعلمت (لأول مرة) الحديث عن الاستقلال وكيفية معاملة الرجال البيض لنا كما عرفت شيئًا عن الأحزاب السياسية والتقسيمات العشائرية، وكان من عادتى أن أجلس فى الحانة فوق المقعد العالى دون أن تلمس قدمى الأرض أبدًا وأستمع إلى حكاياتهن عن الفضائح الجنسية المثيرة وأنا أقاوم النعاس الذى كان يهاجمنى أثناء جو الظهيرة الحار، كان الجو دائمًا حارًا مما ساعد فى انتشار مختلف أنواع الذباب والحشرات والبعوض.

اعتادت النساء على تبادل الأحاديث المختلفة، وكانت مدام كوتو تشترى منهن شيئًا أو شيئين قبل خروجهن إلى الطرق الحارة حيث كن يتحسسن جسدى أو يبتسمن لى قبل مغادرتهن.

كان بعض الزبائن يدخلون الحانة أحيانًا بعد أن تختفــي مــدام كوتــو وتتركنى بمفردى، وعندئذ لم أكن أعرف ما يمكننى عمله سوى النظر إليهم، وكانوا يبادلوننى نفس النظرات لكن أحدهم قال ذات مرة: "هل يوجد نبيذ؟"

- نعم.
- فلتقدم لنا النبيذ إذن.

لم أتحرك من مكانى فقال الرجل: ألا تريد أن تعمل على خدمتنا؟!

لم أشأ أن أتكلم فقال: أين المدام التى تعمل عندها؟

- لا أعرف.

خرجوا من الحانة وراحوا يتجولون فى الفناء الخلفى انتظــارًا لعــودة المدام ثم عادوا وجلسوا بعض الوقت، وحينئذ قالوا: "ما اسمك؟"

لم أخبرهم فشعروا بالضيق وهم يغادرون ولم أشاهدهم مرة أخرى بعد ذلك لمدة طويلة، وعندما عادت مدام كوتو أخبرتها عن أولئك الزبائن فقالــت لى بصوت أجش وعنيف: "لماذا لم تأت وتستدعينى؟"

قلت: "أين؟"

أجابت: "تعال".

اصطحبتنى إلى حجرتها الخاصة القريبة من المرحاض ولم تسمح لى بالدخول إلى الحجرة أبدًا كما كان الباب مغلقًا طوال الوقت، عرفت أيضًا أنها كثيرًا ما تذهب إلى السوق فى أوقات ما بعد الظهر لشراء متطلبــات طعــام المساء والحصول على الأعشاب المناسبة للشوربة ذات المذاق، كانت تشترى أحيانًا بعض حشائش التبغ وتظل تمضغها طوال فترة المساء.

جلست ذات مساء - كأننى زبون - حين بدأت الآنيــة الخزفيــة فــى التحرك، فوضعت يدى بداخلها حتى توقفت، لكننى حين أخرجت يدى بــدأت

تتحرك مرة أخرى، ذهبت إلى الفناء الخلفى ونظرت فى كل مكان محاولاً أن أفهم أو أجد تفسيرًا، وعندما عدت إلى الحانة رأيت ثلاثة من الرجـال ذوى الأشكال الغريبة، كانوا طوال القامة بشكل مُلاحَظ وذوى بشرة سوداء جـدًا، وعيونهم مثل حبة اللوز وأنوفهم صغيرة ولهم أذرع قصيرة للغاية ويتمتعون بابتسامة فوق وجوههم لا تتغير أبدًا، كانوا يتحدثون من أنوفهم فبدوا وكأنهم بلا صدور ولم أستطع أن أفهم ما يقولون، رفضوا التحرك من عنـد عتبـة الباب وراحوا يتطلعون إلى أرجاء الحانـة ويتفحصـونها كـأنهم يدرسـون المكان، كان كل واحد منهم ينظر فى اتجاه مختلف، لكن رءوسهم بدت كأنها تفكر فى نفس الشىء.

كانت أعينهم غامضة وتوحى بالبلادة والفتـور والاضـطراب، ولـم أستطع التأكد فى أى لحظة من معرفة ما إذا كـانوا ينظـرون لـى أم إلـى السقف، فأشرت إلى المقاعد فهزوا رءوسهم فى وقت واحد وظلوا واقفين فى أماكنهم بأجسادهم الغريبة التى تحجب الضوء عن الباب، نظرت إلى أذرعهم القصيرة وتحركت إلى جانبهم فأصابنى رعب شـديد حين اكتشـفت أن لهم -جميعًا وبلا استثناء - أصابع ستة فى كل يد، ثم لاحظت أنهـم حفـاة وأن أصابع أقدامهم مقلوبة مثل بعض الحيوانات، تألقت وجوههم بنوع من الجلال الصارم والمخيف، فنزلت من فوق مقعدى العالى وجريت إلى حجرة مـدام كوتو حيث أخبرتها بوجود ثلاثة زبائن غرباء الشكل، فأسـرعت بـالخروج قاصدة الحانة وهى تربط اللفافة حول جسدها وتقذف بـالتبغ خـارج فمهـا، عندما وصلت وراءها كانت تقف بالخارج، تطلعت حولى فلم أجـد الـذباب والحشرات وكانت قطة سوداء تتعقبنى بنظرات خاطفة وهى واقفة عند بـاب الفناء الخلفى فمشيت خلفها لكنها قفزت فوق الحائط، وعندئـذ ذهبـت إلـى واجهة الحانة فلم أجد مدام كوتو ثم دخلت الحانة فوجـدتها تمسـح الطاولـة بخرقة مبللة من القماش وهى تقول: "لم أر أى شخص ويجب أن تسـتدعينى عند حضور الزبائن فقط، هل تسمعنى؟"

لم تصدر منى أى إشارة ولم أقل أى شيء.

أصبحت أمى (بعد شفائها) أكثر حزنًا وهدوءًا كما صارت هزيلة وضعيفة، وكانت كلما استيقظت فى الصباح تتجول فى الحجرة كأن شيئًا ضربها أثناء نومها ولم تستطع معرفته، اعتاد أبى أن ينام متأخرًا ويستيقظ مبكرًا للبحث عن عمل، فلم أكن أجده حين كنت أستيقظ فى الصباح، وكانت أمى تتسكع فى الحجرة بتكاسل وبلا هدف وهى تتذمر وتتمتم بينها وبين نفسها عن الفئران والفقر.

فى بعض الصباحات كنت أصحو على صوت المكنسة التى تنفض بها أمى الغبار عن دولاب الأطباق وتنظف أسفله وتدفع سلال بضائعها وأكياس الجارى الخاصة بها بطريقة توحي كأن تلك البضائع هى السبب فى فقرها والإساءة إليها، كانت الخنافس أحيانًا تنتشر فى كل مكان وحين كانت تتسلق فوق وجهى كنت أقفز فى مكانى فتنتهز أمى الفرصة للانتقام وتسارع - دون وعى منها - إلى ضرب الخنافس بقوة وإلقائها إلى مصيرها الأخير بعد أن تقوم بكنسها ووضعها فى إناء، بدت لى أمى فى تلك الأثناء كأنها تشفى غليلها وتعبر عن غضبها، كنا نجلس لتناول الطعام ولقد اعتادت أمى أن تقدم لى بعض الخبز لآخذه معى إلى المدرسة، ودائمًا ما كانت تمشى معى حتى تقاطع الطريق ثم تواصل طريقها عبر الشوارع دون أن يقع الوعاء الخزفى الكبير من فوق رأسها وهى تنادى على بضاعتها.

اختفى أبى من حياتى فترة قصيرة من الزمن فكنت أستيقظ ولا أجده وأذهب للنوم فلا أجده، كان عمله شاقًا وعندما كنت أراه فى أيام الآحاد كان يبدو فى حالة من الكرب الشديد وكان يشتكى دائمًا من آلام الظهر، وكان علينا أنا وأمى أن نتوجه إليه فى الليل للتخفيف عنه، كان ظهره قويًا جدًا وكبيرًا ولم أستطع أبدًا أن أبقى متوازنًا فوقه، وحين كانت أمى تدوس عليه وتدلكه كان عموده الفقرى يطرقع فنبادر بدعكه بالمرهم ذى الرائحة الكريهة

الذى اشتريناه من بائع الأعشاب المتجول، كان أبى يحمل الأعباء الثقيلة فوق ظهره من مخزن السيارات والأسواق ويعمل بشقاء لا يتناسب مع ما كان يتقاضاه من نقود قليلة، لكنه رد للدائنين نقودهم كى يتوقفوا عن المجىء كل مساء لتذكيرنا بأنهم مازالوا على قيد الحياة كما أننا استطعنا بالكاد تدبير أمر الإيجار والطعام، بعد مضى بضعة أيام من عدم رؤيتى لأبى سألت أمى: "ماذا حدث له؟"

قالت: "إنه يعمل لإطعامنا".

كان الوقت ليلاً والأطفال يلعبون فى الطريق.وكنا بالداخل نعانى من الظلام لأنه لم يكن بمقدورنا الحصول على شمعة، تحركت أمى فى الظلام فى هدوء وبدون أن تتذمر أو تشكو فاصطدمت بشىء ما، وراحت تصب اللعنات ثم جلست فى مكانها وأشعلت عودًا من الثقاب فرأيت الدم يتدفق من الإصبع الكبير لقدمها اليمنى.

قالت أمى: "من المفترض أن تكون القدم اليمنى بعيدة عن الشرور".

قلت: "وقطرات الدم تتساقط فوق الأرض: هل أغلى بعض الماء؟"

لم تقل شيئًا وأوشك عود الثقاب على الانتهاء حتى أحرق أصابعى وأصبح الدم المتساقط من قدمها بلون الظلام، لم أستطع سماع أنفاسها ولم أعد أراها وقبل أن أتمكن من إشعال عود آخر من الثقاب نهضت واتجهت بصعوبة نحو الفناء الخلفى حيث غسلت الجرح، وبعد أن عادت سألتها: "ماذا فعلت بالجرح وماذا وضعت فوقه؟"

قالت: "فقر".

أشعلت عودًا آخر من الثقاب ورحت أتفحص قدمها المجروح.

قالت بحدة: "لا تبدد أعواد الثقاب".

كان الجرح لا يزال ينزف من خلال قطعة القماش السوداء التى غطته بها وقالت: "رماد".

انطفأ عود الثقاب ولم نتحرك وبدأنا نسمع صوت الفئران وهى تمضغ الأشياء كما بدأت الخنافس تتحرك داخل الدولاب.

قالت أمى: "حان الوقت لتنام".

لم أتحرك من مكانى وانتابتنى رغبة فى البقاء مستيقظًا حتى عودة أبى، تأخر الوقت وأصبح أكثر ظلامًا، وبعد لحظة سمعت أمى تقول: "أنا ذاهبة لتسخين الطعام".

لم نكن قد تناولنا الطعام منذ الصباح وكثيرًا ما كنا نذهب للنوم ببطون فارغة.

قلت: "أنا قادم معك".

اذهب لتنام وإلا فإن الشبح سيختطفك.

قلت: "فليحاول أن يختطفنى".

تحركت أمى فى الظلام وسمعت خطواتها بجوار الباب وهى تخرج، جلست فى الظلام لا أقوى على فعل أى شىء سوى محاولة سماع ما يحدث حولى، حاولت النهوض من مكانى لكن شيئًا ما كان يمنعنى وعندما حاولت أن أتحرك لم أستطع من شدة الظلام، انحنيت نحو الأرض ورحت أزحف بيدى وركبتى وكان شىء ما يزحف فوق ذراعى، حاولت النهوض وأنا خائف فاصطدمت رأسى بحافة الطاولة الحادة وظللت هكذا حتى خفت حدة الظلام واستطعت أن أتحسس طريقى، وعندئذ بحثت عن مقعد أبى وجلست فوقه فاستطعت أن أميز الأشياء، وبقيت فى مكانى حتى عادت أمى وقالت: "أما زلت مستيقظًا؟"

- نعم.
- فلتذهب لتنام.
- إننى جائع.

قالت بعد لحظة من الصمت: "عليك بانتظار أبيـك فسـوف نشـاركه طعامه".

قدمت لها الشكر وبعد أن عثرت على فى الظـلام أمسـكت برأسـى وضمتنى إليها فسمعت بكاءها الخافت، ثم قالت بصوت خفيض: "دعنى أحكى لك قصة عن المعدة".

قلت بترقب: "أخبرينى بها".

عادت إلى السرير ولم أستطع رؤيتها وراحت الفئران والخنافس تأكل كل ما تجده فى طريقها من فتات، ثم بدأت أمى قائلة: "إن الأقوياء من الناس لا يأكلون كثيرًا".

- لماذا؟
- لأنهم أقوياء فقد كان هناك ذات مرة عرّاف عظيم فى قريتى استطاع أن يطير إلى القمر فى الليل كما استطاع أن يتخطى المحيط الكبيـر سيرًا على الأقدام لزيارة الأرواح فى البلد الذى يعيش فيه ذوو البشرة البيضاء.
- لماذا؟
- لأنه ذهب بغرض حضور اجتماع مهم خاص بمستقبل العـالم كلـه، وكان عليه القيام بعمل عظيم لحضور ذلك الاجتماع فطار إلى القمر وإلى عدة كواكب ثم ذهب بعد ذلك إلى حيث يعيش البيض، لكنهم قبل أن يسمحوا له بالدخول سألوه سؤالاً واحدًا.
- وما هو ذلك السؤال؟
- سألوه قائلين: "أخبرنا أيها السيد العرّاف القادم من قرية أوتـو عـن الطعام الذى تناولته قبل ذهابك للقمر".

- وبماذا أجاب؟
- صرصار من صراصير الليل.
- صرصار فقط؟
- نعم، صرصار صغير مشوى.

ظللنا صامتين بعض الوقت حيث كنت أفكر مليًا فى قصة العرّاف وأنا جالس فوق المقعد الكبير دون أن تلمس قدماى الأرض.

سألت: "وهل تلك هى قصة المعدة؟"

أجابت أمى فى الظلام: " لا ".

توقفنا عن الكلام مرة أخرى وسادت لحظة من الصمت ثم بدأت أمى تقول: فى يوم من الأيام...

جلست فوق مقعد أبى ضامًا كلتا قدمى ومستندًا بظهرى إلى الوراء، فاستطردت أمى: فى يوم من الأيام كان هناك رجل بدون معدة، ولقد اعتاد ذلك الرجل فى كل عام أن يتعبد بأحد الأماكن المقدسة الشهيرة، وذات يوم التقت معدة بدون جسد فقالت المعدة: إننى أبحث عنك، ماذا تفعل بدونى؟

قفزت المعدة فوق الرجل وأصبحت جزءًا منه وواصل الرجل طريقه إلى المكان المقدس، ولكنه قبل أن يصل شعر بجوع شديد فقالت المعدة: "أطعمنى".

قال الرجل: "لن أطعمك، فعندما كنت أعيش بدونك كنت أسافر بعيدًا ولم أشعر قطٌ بالجوع، كما أننى كنت دائمًا سعيدًا وراضيًا وكنت أيضًا قويًا فإما أن تتركينى الآن أو تصمتى".

توقفت عند تلك النقطة من القصة فتراجعت إلى مؤخرة المقعد ثم حلقت فوق ظهر الصرصار فأصبحت رجلاً بدون معدة ودخلت فى نفق من المتعة إلى القمر.

وجدت عينى عندئذ مفتوحتين فأبصرت شمعة مضاءة فـوق الطاولـة وكان أبى واقفًا فوقى وهو يتمايل وقد بدا فى حالة من الذهول والافتتان وقال لى: "إن رأسى تؤلمنى يا أزارو".

نزلت بسرعة من فوق مقعده وظل يزرع الحجرة جيئة وذهابًا وهـو ممسك برأسه ثم جلس بصعوبة، وقال قبل أن يغرق فى النوم: "لقد وجـدت الشمعة فى السوق".

أحضرت أمى طعامه وأيقظته ففتح عينيه وأغمضهما ثم قال متأوهًـا: "كنت أحمل أكثر الشحنات بشاعة وثقلاً فى أحلامى".

قالت أمى: "يجب أن تأكل".

تجمعنا حول المائدة وكانت الشمعة تضىء وجه أبى وهو ثابـت فـى مكانه فلم يكن من الصعب رؤية العروق السميكة والمشدودة فى رقبته، كان وجهه متلألئًا وعروقه نابضة ولقد أدهشنا بكلامه المفاجىء حين قال بصوت غامض ويوحى بالتعب: "لقد بدأوا بإفساد كل شىء بالسياسة، إنهم يريـدون الآن معرفة من الذى ستنتخبه قبل أن يمنحوك فرصة العمل وحمل أثقالهم".

توقف عن الكلام وكانت عيناه محتقنتين بالدماء ثم أضاف: "إذا أردت أن تعطى صوتك للحزب المساند للفقراء فـإنهم سـيجعلونك تحمـل أكثـر الشحنات ثقلاً، إننى لست أفضل حالاً من الحمار".

قالت أمى: "تناول طعامك فأنت تشعر بتعب شديد".

أغلق أبى عينيه وبدأ يتمتم بشىء ما مما جعلنى أدعو له بالشفاء، ظلت عيناه مغلقتين وقتًا طويلاً ولم نعرف أنه غرق مرة أخرى فى نوم عميـق إلا حينما بدأنا نسمع أصوات الشخير، لم تشأ أمى أن تزعجـه للمـرة الثانيـة فتناولنا نصف الطعام وتركنا الباقى له كى يتناوله فى الصباح، أكلت مع أمى بهدوء أكثر مما تفعل الفئران.

خرج أبى فى الصباح قبل أن أستيقظ وكانت رائحة حذائه وسجائره والطين العالق به ورائحة الجهاز القاتل للناموس والعرق المتصبب منه هى كل تبقى منه، وكانت الحجرة محتقنة بتعبه.

عملنا على تقليل كمية طعامنا ولم يكن لدينا فى ذلك الصباح سوى قليل من الخبز، ذهبت أمى إلى السوق وراحت تنادى على بضاعتها من علب الكبريت والحلوى والسجائر وبقية أشيائها الغريبة، ومضت فى سيرها بمختلف الطرقات بمعدة خاوية تمامًا فبدت أكثر نحولاً بقميصها المتشبث بجسدها وأربطتها المتدلية فوق كتفيها كأنها منكمشة فى ملابسها.

مشيت خلفها إلى أن التقيت بها عند مفترق الطريق فأصابنى حزن شديد عندما سمعت صوتها الذى لا يمكن سماعه بسهولة وسط ضوضاء الحى، بدت ضعيفة جدًا وهى تواصل رحلتها الشاقة فكان من السهل لأى رياح بسيطة أن تقذف بها بعيدًا إلى السماء المتوهجة بالحرارة، لكنها قبل أن تواصل سيرها لم تنس أن تقدم لى قطعة من الخبز ثم أخبرتنى أن أهتم بنفسى فى المدرسة، سرت وراءها مسافة قصيرة ولقد تألمت لرؤيتها حافية القدمين وهى تتعثر فى الأوساخ والأحجار التى يمتلىء بها الطريق، وبدا الأمر شديد القسوة لعدم قدرتى على مشاركتها البيع ولعدم قدرتى على حماية قدميها ومساعدتها فى النداء على بضاعتها.

تتبعت خطواتها لكنها حين نظرت خلفها وشاهدتنى أجبرتنى على الذهاب إلى المدرسة، تباطأت فى الذهاب وحين استدرت رأيتها وهى تختفى داخل حى الأقليات الممتد.

(٢)

عندما ذهبت إلى حانة مدام كوتو بعد المدرسة كان المكان خاليًا من الزبائن وكنت جائعًا، جلست إلى جوار الآنية الخزفية وظللت أردد مع نفسى أننى بدون معدة، نمت واستيقظت ودخل الذباب كالعادة إلى الحانة، وعندئذ توجهت إلى حجرة مدام كوتو لأطلب منها بعض الطعام لكننى قبل أن أطرق الباب سمعت غناءها ودقات الجرس، أوشكت على العودة إلى الحانة حين مرت امرأتان من نساء الحى وقالتا: "ماذا تفعل؟"

لم أقل شيئًا، أمسكتا بى فصحت ثم خرجت مدام كوتو، كانت تضع البودرة فى أحد جوانب وجهها والصلصال فى الجانب الآخر وكان فمها مليئًا بالتبغ، نظرت المرأتان إليها ثم نظرت كلتاهما إلى الأخرى وغادرتا المكان بسرعة.

سألتنى مدام كوتو والتبغ يتساقط من فمها: "لماذا لم تطرق الباب؟"

أجبت: "لقد كنت مشغولاً".

- اذهب إلى الحانة.
- إننى جائع.
- كيف تكون جائعًا بتلك المعدة الصغيرة؟

عادت إلى حجرتها ودقت الأجراس فعدت بدورى إلى الحانة وظل الذباب يطوف حول أنفى كما أصبح الجو خانقًا فلم أستطع أن أتنفس، اشتدَّ إحساسى بالجوع فاضطررت للخروج من الحانة والتجول عبر الممرات والطرق، كانت حرارة الجو ملتهبة والأشجار تومض فى الشمس بظلالها الكثيفة، وكانت أصوات الحشرات تنطلق من بين أوراق الشجر الصغير، اعترضت سحلية طريقى ثم توقفت واتجهت نحوى وأومأت لى برأسها،

سمعت دقات جرس ما فأصابنى صوته المتنافر بالخوف وجريت بعيدًا عن الطريق قاصدًا بعض الشجيرات، ثم أبصرت رجلاً ضخمًا ذا فم كبير يقود دراجة صغيرة، ضحك الرجل ضحكة مجنونة وهو يمر بمحاذاتى بينما بقيت مختبئًا بين الشجيرات، ولم أسارع بالجرى بعيدًا عنها إلا حين احترقت قدماى بلسعات الحر وعندئذ وجدت نفسى أدوس بقدمى على جيش من النمل، فررت من النمل وأوشكت على العودة إلى الحانة عندما لاحظت أن السحلية المسكينة قد ماتت فى منتصف الطريق حين سارت الدراجة فوق رأسها التى انفصلت عن جسدها، كانت الرأس المقطوعة ما تزال تتحرك وتشير لى لكن النمل تحرك باتجاهها فأمسكت السحلية من ذيلها وواصلت طريقى باتجاه الحانة وقد عقدت العزم على دفنها بطريقة لائقة.

ثمة رجل عارى القدمين كان واقفًا خارج الحانة فى الحر، ولا يرتدى سوى ملابس داخلية مهلهلة، وكانت بقع صغيرة وكثيرة من الأوساخ المختلطة بسائل أحمر تغطى شعره الخشن وبقعة كبيرة متقرحة فوق ظهره وأخرى صغيرة فوق أذنه، احتشد الذباب حوله وظل ينفض الذباب عنه وهو يتألم وبين لحظة وأخرى كان يضحك ضحكة مكبوتة، حاولت السير حوله لكنه كان يقطع على الطريق فى كل مرة.

ناديت قائلاً: "مدام كوتو".

اقترب الرجل منى وكانت له عين أعلى من الأخرى وفم مجروح ومتقيح، كان يتألم وهو يخطو فوق الأرض ويضحك ثم دخل الحانة فجأة، مضيت خلفه وأنا أحمل السحلية الميتة كأنها صنم من أصنام الحماية فوجدته منحنيًا فى جلسته خلف الآنية الخزفية، وحين تكلم معى بغضب شديد ناديت مرة أخرى على مدام كوتو.

ضحك الرجل المجنون فكشف عن أسنانه الحمراء ثم اندفع ناحيتى، ألقيت السحلية فى وجهه فضحك ثم صرخ وارتطم بالمقاعد وهو يضحك

ضحكات خافتة وقد بدا مسرورًا بطريقة غير طبيعية، نهض ومشى فى كل اتجاه بغير وعى أو إدراك للأشياء من حوله وهو يطرق فوق الطاولة الخشبية الطويلة وفوق المقاعد، ثم راح يتتبعنى فجريت داخل المكان بحركة دائرية بينما راح الرجل يخطو خطوات سريعة فوق أرض الحانة مثل شخص ضخم نشيط، اكتشف السحلية الميتة فابتهج كالأطفال وبدأ يلعب بها، جلس فوق طاولة مرتفعة وظل يراوغ بعينيه ويحركهما فى كل اتجاه ثم بدأ يأكل السحلية.

صرخت – وقد تملكنى رعب هائل – وقلت: "مدام كوتو".

جاءت مندفعة وهى ممسكة بمكنسة جديدة، وبعد أن لاحظت الفوضى فى حانتها وشاهدت الرجل المجنون وهو يأكل السحلية ويتألم ويضحك انقضت عليه وضربته برأس المكنسة الطويل كما لو أنه بقرة أو إحدى الماعز، لكن الرجل المجنون لم يتحرك وظل يأكل بهدوء غريب، انتزعت مدام كوتو السحلية من بين يديه ثم أحكمت ربط اللفافة حول خصرها وسارعت بإمساك رقبته بيديها الكبيرتين.

مال برأسه ناحيتى وكانت عيناه منتفختين ورغوة بيضاء كانت تتساقط من جانبى فمه، ثم أطلق صرخة قوية ومفاجئة وتخلص من قبضة مدام كوتو، انتصب واقفًا كالحيوان وراح يهجم على كل شيء ويضرب الهواء دون أن يتوقف عن إطلاق صرخاته الغريبة، لكنه تغير فجأة وأخرج قضيبه الضخم وراح يتبول فى كل اتجاه، ضربت مدام كوتو قضيبه الضخم بالمكنسة فلحقتها طرطشات البول، اندفعت إلى الخارج وعادت بقطعة من الخشب المحترق وأحرقت قدميه، فظل يتراقص كالفرس ويقفز حول المكان ثم خرج من الحانة وهو يضحك ويجرى باتجاه الغابة.

نظرت مدام كوتو إلى حانتها المحطمة ثم إلى قطعة الخشب المحترقة فى يدها، وبعد ذلك حدقت فى وسألتنى: "أى نوع من الأطفال أنت؟"

بدأت أرفع المقاعد الملقاة على الأرض فأضافت: "يبدو أنك لا تجلب سوى الحظ السيء؛ فمنذ مجيئك إلى هنا توقف الزبائن القدامى عن المجيء كما لم يأت أى من الزبائن الجدد".

قلت: "إننى جائع".

أجابت وهى تمضى فى طريقها إلى الفناء الخلفى: "عليك بإحضار الزبائن والعمل على جذبهم إلى هنا وعندئذ يمكنك الحصول على الطعام".

أخرجت المقاعد والطاولات من الحانة بعد عودتها من الفناء وغسلتها بنوع خاص من الصابون ثم كنست الحانة ومسحت المكان بمبيد قوى للجراثيم، أعادت المقاعد والطاولات إلى داخل الحانة بعد أن ساعدت الشمس فى تجفيفها ومضت أخيرًا إلى نفس الطريق الذى تسلكه دائمًا قبل وصول زبائن المساء.

عادت إلى الحانة بعد أن استحمت حاملة طاسة من الشوربة والبطاطا ثم قالت وهى تلقى بالطاسة فوق الأرض: "بما أنك جائع جدًا فمن الأفضل أن تلتهم هذه الطاسة".

خرجت مدام كوتو من الحانة بعد أن قدمت لها الشكر، غسلت ملعقة وجلست لتناول الطعام، كانت الشوربة ساخنة جدًا فشربت كمية كبيرة من الماء، بينما كانت البطاطا طرية ولذيذة وكانت هناك أيضًا قطع من اللحم وبعض فضلات الذبيحة فى الشوربة، أجهزت على كل شىء تقريبًا قبل أن أدرك أن إحدى قطع اللحم كانت رأس دجاجة، لعب فلفل الشوربة برأسى وأصبحت متيقنًا أن رأس الدجاجة تراقبنى، دخلت مدام كوتو وبيدها صنم متلألىء بزيت النخيل وسحبت مقعدًا إلى مدخل الباب ثم تسلقت فوقه وعلقت الصنم بمسمار فوق الباب، وعندئذ لاحظت لأول مرة أنها بلحية صغيرة.

قلت لها: "أنا لا أحب رأس الدجاج".

قالت: "لا بد أن تأكلها فهى مفيدة لمخك كما أنها تجعلك ذكيًا، وإذا أكلت العينين فستصبح قادرًا على الرؤية فى الظلام".

لم أتناول الرأس ولا العينين وبعد أن نزلت من فوق المقعد سحبته ووضعته فى مكانه، ثم وقفت أمامى وكررت قولها: "لا بد أن تأكلها".

قلت: "لم أعد جائعًا".

نظرت إلى وكانت تدعك جسدها ببعض الزيوت اللامعة فبدت مشرقة ومتألقة وقوية، كانت رائحة الزيوت كريهة ولاذعة مما حملَنى على الاعتقاد بأن تلك الرائحة هى واحدة من الأسباب التى تجعل الأرواح مهتمة بها.

قالت: "أنت لا تريد أن تأكلها إذن؟"

كنت أعرف أنها ستغضب ولن تقدم لى طعامًا آخر بعد ذلك إذا لم أتناول رأس الدجاجة، فرحت أتناولها على مضض وبصعوبة جعلتنى أكره كل لحظة قمت فيها بذلك، سحقت رأس الدجاجة بأسنانى وكسرت منقارها وابتلعت عرفها الأحمر، لكنها سألتنى: "وماذا عن العينين؟"

قمت بمص العينين ومضغهما ثم بصقتهما على الأرض، فقالت مدام كوتو: "التقطهما من الأرض".

أمسكت بعينى الدجاجة ونظفت الطاولة ثم ذهبت لأغسل الأطباق، وبعد عودتى قدمت لى كأسًا من أفضل أنواع النبيذ، جلست فى الركن إلى جوار الآنية الخزفية ورحت أتلذذ بكأس النبيذ فى سلام.

قالت: "وهكذا تتعلم كيف تكون رجلاً".

لعب النبيذ برأسى بسرعة وعلى نحو جميل، فنمت وأنا واقف ولم أستيقظ إلا عندما دخل الحانة بعض الزبائن المشاكسين، كانت رائحتهم مثل رائحة اللحم النىء الملطخ بدم الحيوان.

صاح أحدهم قائلاً: نبيذ!

احتشد الذباب حول الزبائن الجدد وقدمت لهم مدام كوتو قنينة كبيرة من النبيذ فشربوها بسرعة، وقد ساعدت حرارة المساء في زيادة انتشار رائحتهم، أصبحوا أكثر عنفًا وهم يتناقشون بغضب في الأمور السياسية، وحين حاولت مدام كوتو تهدئتهم تجاهلوها تمامًا ولم يهتموا بها وراحوا يواصلون نقاشهم بضراوة وانفعال وبلغة مبهمة، كانوا يمارسون احتجاجهم بطريقة عنيفة حتى أن أحدهم أخرج سكينًا فهجم عليه الاثنان الآخران، وفي أثناء تلك الفوضى وذلك الاضطراب تبعثرت الطاولة والمقاعد وتكسرت القنينة والكئوس ثم حاول الرجلان استرضاء ثالثهما وانتزاع السكين منه، وضع الرجلان السكين بعيدًا وعندئذ صاح أحدهما بصوت عال: "مزيد من النبيذ!"

خرجت مدام كوتو لإحضار مكنستها وحين عادت أبصروا العنف مرتسمًا فوق وجهها وهي تقول: "لا مزيد من النبيذ وعليكم بدفع ثمن ما كسرتموه".

دفعوا كل شيء بدون أي مساومة ثم خرجوا وهم يتناقشون بنفس الغضب والحماس.

عدت إلى الركن وانتهيت من شراب كأس النبيذ لكن مدام كوتو صبت لي المزيد، تسللت رائحة الشوربة الغنية بالتوابل من الفناء الخلفي إلى الحانة ومع بداية الليل اندفع الزبائن إلى داخل الحانة، كانوا من الزبائن الغرباء وكان أحدهم مخمورًا بما يكفي قبل أن يدخل وظل يسب ويلعن ويتوعد.

أشار ناحيتي وقال: "انظروا إلى ذلك الشيء التافه".

أضاف وهو يشير إلى مدام كوتو: "وانظروا إلى تلك المرأة البدينة ذات اللحية".

خرج مندفعًا ثم عاد وطلب قنينة من النبيذ فأصبح مخمورًا أكثر، وبين الحين والآخر كان يهز رأسه بغطرسة ويلعن كل شيء، ظل يلعن السحالى والذباب والمقعد والسقف ثم صمت مرة أخرى وراح يشرب بهدوء.

دخل زبون آخر وكان أحول العينين تمامًا حتى بدأت أشعر أننى أحول مثله من كثرة النظر إليه.

سألنى بغضب: "إلى أى شيء تنظر؟"

أجبت: "إننى أنظر إلى عينيك".

قال: "لماذا؟ أليست لديك عينان؟"

أجبته قائلاً: "بلى، لكننى لا أستطيع رؤيتهما".

اقترب منى وضربنى فوق رأسى فبادلته بضربة مماثلة فى فكه لكنه ضربنى مرة أخرى بقوة أكثر، وحينئذ سارعت بالخروج وعدت ممسكًا بمكنسة مدام كوتو وضربته بها فوق رأسه فصرخ وتراجع إلى الوراء ولم أتردد فى ضربه مرة أخرى، بدأ الرجل المخمور يشتم ويسب فلعن المكانس وحول العينين والأطفال ثم أصبح هادئًا، دخلت مدام كوتو وانتزعت منى المكنسة ثم جلست.

قال الرجل الأحول: "أريد نبيذًا وعليك بتحذير ذلك الولد الذى يعمل عندك لأنه أهاننى بسبب عينى".

سألته مدام كوتو وهى تنظر بإمعان إلى عينيه: "وما العيب فى عينيك؟"

لم يجب على سؤالها وجلس فى هدوء يبعث على الكآبة، وبعد أن قدمت له مدام كوتو النبيذ شرب كمية كبيرة فى رشفة واحدة، نظر إلى فعرف أننى أحدق فيه فاستدار محاولاً إخفاء عينيه عنى.

صاح قائلاً: "أريد شوربة".

قدمت له مدام كوتو الشوربة فالتهم ما بها من فتات اللحم وشربها بسرعة فائقة وقال لها: "أخبرى ذلك الولد أن يتوقف عن التحديق فى".

قالت له مدام كوتو: "لماذا؟"

شرب مزيدًا من النبيذ وراح يلوح بكتفه لى وقد أثارتنى عيناه التى كانت واحدة منهما خضراء اللون.. إن النظر إلى العين الخضراء له تأثير غريب على نفسى.

خاطبنى الرجل قائلاً: "سوف أمنحك نقودًا إذا نظرت إلى أى شىء آخر".

قلت: "كم؟"

تقدم قليلاً للأمام - وهو يحاول إخفاء وجهه - وأفرغ كل ما معه من الفكة فوق الطاولة فتناولتها ووضعتها فى جيبى، عاد إلى مقعده دون الانقطاع عن التحديق فى بإمعان، توقفت عن ملاحقته بنظراتى لكنه كان من العسير النظر إلى أى شىء آخر بعد رؤيته، كانت عيناه - بكل ما فيهما من غرابة - كالمغناطيس الذى لا تقدر على مقاومة جاذبيته، توقفت عن النظر إليه ورحت أتطلع إلى أرجاء الحانة وعندئذ لاحظت بقعًا خضراء فوق الأرض لم أستطع معرفة كيفية وجودها، شربت المزيد من النبيذ فبدأ يتضح لى أن البقع الخضراء لم تكن سوى بول الرجل المجنون، تغيرت إضاءة الحانة وبدأ الرجل المخمور يسب ويلعن، ومن فوق بقع البول الخضراء احتشد عدد كبير من الأرواح الخضراء التى ارتفعت إلى أعلى وراحت تكبر شيئًا فشيئًا حتى لامست السقف، ثم انكمشت وتضاءلت حتى أصبحت فى حجم الدجاجة العادية، كانت كل الأرواح ذات عيون حولاء وقد أحدثت ضوضاء قوية وهى تتحرك فى دائرة حول بقع البول، رأيت الأرواح بعيونها الحولاء منتشرة فى كل مكان، فصرخت ولعن الرجل المخمور القمر ثم

جاءت مدام كوتو وأخرجتنى من الحانة وقدمت لى بعض الماء ونوعًا من التبغ لأمضغه.

قالت: "يجب أن تعود إلى البيت الآن".

لم أقل شيئًا فاستطردت مدام كوتو: "التقط أنفاسك واستمتع ببعض الهواء النقى ثم اذهب إلى البيت".

بقيت خارج الحانة بعض الوقت وكان القمر فى السماء كبيرًا وصافيًا وذا لون أبيض سرعان ما تحول إلى اللون الفضى، رأيت أشياء تتحرك فوق وجهه ولم أستطع التوقف عن التحديق فيه لأنه كان جميلاً ومتألقًا فى السماء الزرقاء المظلمة، نظرت إليه مدة طويلة سمعت خلالها أصواتًا عذبة ورقيقة تتحرك داخل أذنى، وعندئذ خرجت مدام كوتو من الحانة وقالت: ماذا تفعل؟

نظرت إلى أعلى فأبصرت القمر، وأضافت: "لماذا تنظر إلى القمر؟ ألم تر قمرًا من قبل؟"

- ليس مثل هذا القمر.
- ادخل الحانة وخذ أشياءك ثم عد إلى البيت فالوقت متأخر.

تركت القمر بصعوبة وعدت معها إلى داخل الحانة التى كانت مليئة ببعض الناس الأكثر غرابة، كان رجل ما يجلس فى أحد الأركان ويقول بصوت عال بأنه عائد للتو من حرب هتلر، لكنْ ما صدَّقه أحدٌ.

قال أحدهم: "لقد مات هتلر منذ سنوات".

أجابه الرجل ذو الصوت العالى: "أنا الذى قتلته".

- كيف؟
- لقد استخدمت نوعًا خاصًا من الجوجو(*) ونفخت الفلفل داخل عينيه فانتصب شاربه وقتلته بهذه السكين.

(*) الجوجو: juju: تعويذة عند قبائل غرب إفريقيا تجلب قوة سحرية. (المترجم)

أمسك بالسكين وراح يلوح بها مهددًا لكن أحدًا لم يهتم به، وفى ركن آخر من الحانة ظل أحد الرجال يرفع رأسه بحركات مفاجئة بينما راح آخر يصدر شخيرًا صاخبًا، كان الرجل الأصغر بجوار الرجل المخمور يتمتع بندبة مشرقة أسفل وجهه، ظل الرجل المخمور يسب ويلعن ثم يتوقف لحظات يعود بعدها للسباب مرة أخرى، اختلطت الأرواح ذات العيون الحولاء بالزبائن، وتسلقت واحدة من الأرواح الحائط كأنها نوع جديد من السحالى وراحت تتفحص الصنم الذى علقته مدام كوتو فوق الباب.

كانت ليلة غريبة جدًا؛ فقد شهدت الحانة تجمعًا عجيبًا وغريبًا من المخمورين والمجانين والجرحى والأشياء المثيرة للدهشة، شقت مدام كوتو طريقها نحوهم بكل ما تملك من هدوء وقد بدت واثقة من نفسها تمامًا ومتمتعة بقدر هائل من الشجاعة؛ لأنها - حسب اعتقادى - قد ربحت كثيرًا من المال حيث بدت سعيدة ولطيفة وسط صخب الحانة حتى أنها فعلت شيئًا نادرًا حين كنت فى طريقى لمغادرة الحانة والعودة للبيت، ابتسمت لى وقدمت لى قطعة من البطاطا النيئة ثم مضيت فى طريق عودتى إلى أمى عبر الطرقات الممتدة.

(٣)

عادت أمى مبكرة وقد بدا عليها الإرهاق الشديد والتأثر بضربات الشمس الحارة وكانت حجرتنا مزدحمة، كان صاحب البيت يجلس بقرف فوق مقعد أبى واضعًا كلتا قدميه فوق الطاولة، بينما كان بعض الدائنين وأقرباؤهم يجلسون فوق السرير ويقف بعضهم الآخر حول الحجرة وكانوا جميعًا بائسين وفى حالة من الغضب، التزموا الصمت حين دخلت فتوجهت مباشرة إلى أمى التى طوقتنى بذراعيها وقالت: "ليس أمامكم سوى أن تصبروا".

قال أحد الدائنين: "وكيف نستطيع أن نصبر؟"

هز آخر رأسه بقوة وقال: "سوف يقتلنا الصبر، لا بد أن نأكل ونعمل".

وأضاف ثالث: "نعم، لقد نفد صبرنا".

قالت أمى: "لكننا دفعنا معظم ديوننا".

أجاب أحدهم: "لكن ليس كل الديون".

وأضاف صاحب البيت: "وليس فى أسبوع واحد كما كان الاتفاق".

لم تجد أمى سوى القول بأن الصبر لا يقتل أحدًا، فسارع أحد الدائنين بالقول: هراء، إن الصبر يوشك على قتل ابنى، هل تعتقدين أننى سأدفع صبرًا للطبيب؟

ضحك صاحب البيت وأخرج قطعة من جوزة الكولا من ثوبه الفضفاض وأكلها بمفرده، فلاحظت شفتيه وهما تتحولان إلى اللون الأحمر، كانت أمى صامتة وحين استمر صاحب البيت فى طحن جوزة الكولا بأسنانه ومضغها بدأت الفئران تمضغ شيئًا ما.

نظرت إلى الدائنين فى كل أرجاء الحجرة فأصبح مجرد وجودهم كافيًا لأن أفقد شهيتى ولم أستطع أن أقول شيئًا.

أشار صاحب البيت ناحيتى وقال وهو يضحك: "انظروا إلى بطنه الكبيرة".

قالت أمى: "دعك من ابنى واتركه وشأنه".
قال أحد الدائنين وهو يحدّق فى: "لا نريد سوى نقودنا".
قلت: "ليست لدى نقود".

استطرد الرجل: "هذا الولد أسوأ من أبيه".

نهضت أمى فجأة وقالت: "إذا كنت قد جئت لإهانة ابنى فلتغادر حجرتنا الآن".

أغلقت أمى الباب والشباك فأصبحت الحجرة مظلمة ورغم ذلك رفضت أمى أن تضيء شمعة، ومن حين لآخر كان صاحب البيت يشعل عودًا من الثقاب وينظر إلى كل شخص، كانت الفئران تأكل بصوت مسموع حين راحت أمى تطلق نغمات مختلفة من العويل والنواح، لكن الدائنين لم يتحركوا بينما لم يتوقف صاحب البيت عن مضغ جوزة الكولا.

عندما توقفت أمى عن النواح أصبح الصمت أكثر عمقًا وبقينا وسط ذلك الصمت والظلام حتى سمعنا طرقًا على الباب.

- من الطارق؟
- المصور.
- ماذا تريد؟
- إن الصور جاهزة.
- ثم ماذا؟
- ألا تريدون رؤية الصور؟

نهض صاحب البيت وفتح الباب لكنه ظل واقفًا عند المدخل وهو يتأمل الصور على أضواء بطارية المصور، ثم دخل الحجرة ومن خلفه المصور حاملاً الكاميرا فوق كتفه.

قال صاحب البيت وهو يصوِب البطارية على الصور: "إنها صور جميلة".

أصبح الدائنون أكثر حيوية وراحوا يتحدثون عن صور الاحتفال وكيف أن أحدهم بدا فى الصورة مخمورًا وكيف بدت عينا شخص آخر مغلقتين بطريقة غريبة، ثم قال صاحب البيت بعد أن اقترب منه المصور: "لماذا يبدو وجه مدام كوتو هكذا؟"

كان وجه مدام كوتو فى الصورة ضبابيًا وغير واضح الملامح، وبدا كخليط من حيوان مشوه وخشب منحوت، كانت مدام كوتو فى الصورة مثل وحش مصاب بالتعب حتى إن أحد الدائنين قال: إنها عجوز قبيحة.

قلت: "لا، هى ليست كذلك".

قالت أمى: "اسكت".

نظرت إلى الصور عن قرب فأدركت أن الجميع مختلف وغريب عن صورته الحقيقية، كانت الصور غريبة وكانت البقع تعلو وجوهنا الملطخة بكاملها، بدا أبى ببقعة فوق إحدى عينيه وكانت أمى ملطخة عند كلتا عينيها كما بدا الأطفال كالسنجاب وبدوت أنا كالأرنب، كنا جميعًا كاللاجئين المشاركين فى حفل صاخب ونحن جائعون وعاجزون عن التفكير، وكانت ابتسامتنا ثابتة لا تتغير، أما الحجرة فقد ظهرت وكأنها شيدت من النفايات حتى بدونا بداخلها مثل قوم لم يعرفوا السعادة قطٍ رغم تلك الابتسامة الزائفة فوق وجوه البعض منا والتى كانت تنطوى على اشمئزاز غريب.

فرح المصور كثيرًا بالنتائج بعد أن حصل على ثمن الصور غير أن أحد الدائنين أعلن بأنه سيحصل على نسخته من الصور بعد أن يدفع له أبى

ما عليه، ثم علق مالك الأرض وصاحب البيت على صورته قائلاً: "إنني أشبه الرئيس chief".

قلت: لص thief.

نهرتني أمي بضربة فوق رأسي فقال لها صاحب البيت: "إن ابنك يشبه الماعز".

ضحك الدائنون فقالت أمي: "نريد أن ننام الآن فعليكم بالرحيل".

سألها صاحب البيت: "أهكذا تتحدثين مع صاحب البيت الذي تقيمون فيه؟"

أجابت أمي: "حسناً، فليبق الجميع، وأنت يا أزارو عليك بتجهيز سريرك".

نهضت في الظلام وتحركت حول الطاولة حتى أمسكت بحصيرتي وفردتها ثم رقدت فوقها، كانت أقدام الدائنين حول رأسي من كل اتجاه وصاحب البيت يواصل مضغ جوزة الكولا، وبعد فترة قصيرة من الصمت قال أحد الدائنين: "حسناً، إذا لم أستطع الحصول على نقودي الآن فإنني سأستولي على أي شيء".

نهض من فوق السرير ثم رفع الطاولة ومضى باتجاه الباب وقبل أن يغادر البيت قال لصاحب البيت: "طابت ليلتك".

لم تتحرك أمي من مكانها فطلب دائن آخر من صاحب البيت أن يشعل له عودًا من الثقاب، وفي الحال استولى على حذاء أبي ثم قال دائن ثالث: "أنا لا أريد الاستيلاء على شيء وإنما سأعاود المجيء مرة وراء أخرى".

قال المصور: "سأعود غدًا".

وقال صاحب البيت: "أخبري زوجك بأنني أريد رؤيته".

خرجوا جميعًا فنزلت أمى من فوق السرير وسارعت بتسخين بعض الطعام لأبى، ثم راحت تعد النقود التى ربحتها من البيع فى ذلك اليوم ووضعت جزءًا منها جانبًا لشراء بعض البضائع الجديدة واحتفظت بجزء آخر للإيجار، أوشكت الشمعة على الانتهاء فاستطعت من خلال ضوئها الضعيف أن أرى وجه أمى النحيل وعينيها المفعمتين بالقسوة وكذلك تلك العروق النافرة فى رقبتها.

- رأيت ولدًا مجنونًا اليوم وحين قيدوه فوق الكرسى ظلت أمه تبكى.
- وماذا حدث له؟
- لا أعرف.

سادت لحظة من الصمت ثم سألتنى: "كيف حال مدام كوتو؟"

أجبت: "إنها بخير".

- وهل سألت عنى؟
- لا.

ماذا تفعل طوال الوقت؟

- تبقى فى حجرتها، كان لديها كثير من الزبائن الغرباء اليوم ولقد وضعت تعويذة فوق الحائط لكن رجلاً مجنونًا دخل الحانة وأكل السحلية ثم راح يبول فى كل مكان.
- وهل هذا يعنى بأنه يجب عليك التوقف عن الذهاب إلى هناك؟
- لا أتمنى ذلك.
- ولِمَ لا؟
- لا أتمنى ذلك.
- وكيف حال المدرسة؟
- أنا لا أحب المدرسة.
- يجب أن تحب المدرسة فلو أن أباك قد التحق بالمدرسة لما عانينا كثيرًا، يجب أن تتعلم كل ما تستطيع أن تتعلمه فنحن نعيش فى عصر

جديد، إن الاستقلال قادم ولن يستطيع العيش والحصول على طعـام جيد سوى الذين يذهبون إلى المدرسة وإلا سوف ينتهى بك المطـاف إلى حمل الأثقال وتفريغها مثل أبيك.

ساد الصمت مرة أخرى ثم قالت أمى: "يجب أن تكون حذرًا من مـدام كوتو".

- لماذا؟
- إن الناس يقولون أشياءَ عنها ونحن لا نعرف من أين جاءت، ثم تلك التعويذة السحرية التى قلت لى إنها تعلقها فوق الباب ولا نعرف مـن الذى صنعها.
- لا أعرف.
- لا تحاول أن تلمسها.
- لن ألمسها ولكن ماذا يقولون عنها؟
- أنت ولد صغير ولن تفهم الآن.
- أخبرينى.
- اذهب لتنام.
- هل قتلت شخص ما؟
- اذهب لتنام.

توقفنا عن الحوار ووضعت أمى سلَّة بضاعتها والنقود فـى مكانهمـا المخصص لهما، لم يحالفها الحظ ببيع الكثير والحصول على نقـود كثيـرة، لكننى بالنظر إلى وجهها الغاضب عرفت أنها تتساءل عما إذا كان سيرها فى شوارع العالم يومًا سيئًا بعد يوم وهى تنادى على بضـاعتها حتـى يصـبح صوتها مبحوحًا يساوى تلك النقود القليلة التى حصلت عليها فـى النهايـة، تنهدت فعرفت أنها ستواصل التجوال فى الشوارع ببضاعتها رغم كل شىء، كانت التنهيدة الصادرة منها مليئة باليأس لكن ثمة أملاً أيضًا كالنائم عند نهاية يوم حار كان يفوح من قاع رئتيها ومن أعماق أنفاسها.

عندما دخلت فى أروقة النوم سمعت صوتًا صاخبًا يغنى عند مدخل المنطقة التى نسكن فيها، كان الصوت مضطربًا وصاحبه ثملاً وعندئذ سمعت صوتًا آخر يصرخ قائلاً: نمر أسود!.

ركل أبى الباب وراح يترنح فى الحجرة معلنًا عن قدومه المخيف، فقفزت أمى وأشعلت الشمعة الباقية وكان وجهها المشرق يحمل مسحة من الشك والغموض، وقف أبى عند عتبة الباب مثل عملاق مخمور لكنه بدا كالأحدب وهو يمسك بزجاجة الأوجوجورو بيد واحدة، وكانت كلتا قدميه مغطاة بالطين حتى ركبتيه ولا يرتدى سوى فردة حذاء واحدة، غرقت الحجرة برائحة الخمر والطين وكانت رقبته تطرقع وفمه يتلوى، فتح عينيه وأغلقهما بحركة لا إرادية وكأن الحقيقة قد أفقدته بصره، ثم قال بصوت عال جدًا: "أنا ذاهب للالتحاق بالجيش".

وقع على الأرض منهارًا فاندفعنا تجاهه لمساعدته لكنه عاد إلى وعيه بسرعة وحين شاهدناه ونحن نتقدم ناحيته سارع بإبعادنا عنه حيث دفعنى بقوة إلى الركن الذى اعتاد أن يضع فيه حذاءه بينما تكوَّمت أمى فوق السرير، وقف مترنحًا وبدأ فى السير بصعوبة ثم التقط زجاجة الأوجوجورو وبعد أن رشف رشفة كبيرة قال: كيف حال عائلتى؟

أجابت أمى: نحن على ما يرام.

قال: "شىء جميل، إننى الآن أملك بعض المال ونستطيع أن ندفع لأولئك الدائنين أولاد الزنا"، حاول جاهدًا أن يقلد صوت البندقية وهو يقول: "نستطيع أن ندفع لهم جميعًا وبعد ذلك سوف أطلق عليهم الرصاص".

سألته أمى: "ألست جائعًا؟"

قال أبى: "لقد وقعت فى الطين، كنت أهبط الطريق وأغنى وأنا ثمل فأخبرنى الطريق أن أنتبه لنفسى وعندئذ لعنت الطريق فتحول إلى نهر،

ورحت أسبح فيه لكنه تحول مرة أخرى إلى حريق فنفد صبرى وحين أصبح نمرًا قتلته بضربة واحدة، وحينئذ انكمش وأصبح فأرًا كبيرًا فرحت أنادى عليه لكنه هرب كما فعل الدائنون وبعد ذلك تحلل إلى طين وفقدت حذائى، كان من الممكن أن أصبح رجلاً عظيمًا لو أننى كنت أملك المال".

نظرنا إليه بخوف وقلق، تحرك قليلاً وهو يحاول أن يفرد ظهره ثم مشى مترنحًا نحو مقعده، لكنه لم يجلس وإنما ظل واقفًا يتطلع إلى المقعد كأنه عدو له.

قال: "أنت تنظر إلى أيها المقعد، أنت لا تريدنى أن أجلس عليك، إيه، هل لأننى غارق فى الطين؟ أليس ذلك صحيحًا؟"

لم يقل المقعد شيئًا فأضاف أبى: "إننى أتحدث إليك أيها المقعد، هل أنت أفضل من سريرى؟، إننى أتحدث إليك وأنت تثير مشاعرى، من أنت حسب اعتقادك؟ هيه!".

ظل المقعد يفكر فى السؤال مدة طويلة فركله أبى بقدمه الحافى وصرخ وهو ينظر إلى المقعد مرة أخرى.

قالت أمى: "اجلس على السرير".

نظر أبى إليها بكراهية ثم عاد للنظر إلى المقعد وقال له بلهجة آمرة: "عليك بالصمت".

كان المقعد صامتًا فاستطرد أبى: "ذلك أفضل، سأجلس عليك الآن سواء كنت ملطخًا بالطين أو بالذهب، أتسمعنى؟ وإذا تحركت سوف أضربك".

توقف لحظة ثم قال: "إنهم لا يدعوننى بالنمر الأسود من فراغ".

ألقى جسده بقوة فوق المقعد الذى أصدر صوتًا عاليًا حتى ظننت للحظة أنه تحطم بفعل حالة أبى المخمور، ظلّ المقعد يتمايل وأبى يتمايل معه ثم

نهض وسحب المقعد وألقى به باتجاه النافذة، كـان المقعـد يتـدحرج علـى الأرض حين انفتحت النافذة فجأة حيث هجم علينا الناموس والذباب الصـغير وراحت السحالى تتسلق الحوائط وخرجت الفئران من تحت الدولاب متجهـة إلى الحجرة، غضب أبى بشدة فضرب رأسه فى الدولاب ثم أمسك بالمقعـد وراح يضرب الفئران ويقتفى أثرها فى كل مكان، وحين هرب أحد الفئـران باتجاه الباب جرى أبى وراءه حاملاً المقعد فى يده وهو يقلد صوت البندقية.

ظل فى الخارج لحظة ثم تناولت أمى المقعد ووضـعته فـى مكانـه المعتاد، وبعد وقت طويل دخل أبى متدثرًا بلفافة شخص ما حول خصره، لقد استحم وكانت المياه تتساقط من شعره فبدا كالملاكم المخبـول، دخـل أبـى بهدوء واضعًا بنطاله فوق كتفه وكانت عيناه مشرقتين ثم نظر إلينا خلسة لئلا نكون غاضبين منه، شرب بعض الماء وعندما حـاول إغـلاق النافـذة لـم يستطع، فحاول مرة أخرى ثم رفع قبضته وجلس ببطء فـوق المقعـد لكنـه نهض فجأة ورأسه محنية وراح يضرب الهواء بلكمات متلاحقة وبعـد ذلـك حاول بصعوبة أن يرتدى بنطاله الكاكى، كان صدره عاريًا وجسده متلألئـًا لكنه كان متشيئًا بالعرق.

بدا أبى قويًا جدًا بكتفيه الكبيرين كالصخرة الصـلدة، وكانـت رقبتـه غليظة ومكتنزة كما أننى لم ألحظ من قبل قطرٌ أن فكيه على شكل مربع وأن جبهته عريضة جدًا، لاحظت أيضًا أن أنفه أكبر مما كنت أتصور وأن ذقنـه كثيف الشعر وعضلاته تتموج بطريقة مؤثرة، لقد أدهشنى ذلك التغيير فـى شكله.

لم يستطع أن يهدأ وظل يتحرك ويلقى بالمنجل يمينًا ويسارًا فى الهواء وهو غافل عنا ولا يشعر بوجودنا، كنا نراقبه عن قصـد فبـدا لنـا عنيفـًا وغاضبًا، جلس أخيرًا وأغلق عينيه ثم هز رأسه ونظر حواليه فبدا وجهه فى ضوء الشمعة عنيفًا، وحينئذ قال مخاطبًا السقف: "لقد حملت الشحنات الثقيلـة

اليوم حتى كادت رقبتى أن تتكسر، وكدت أفقد ظهرى وروحى معًا وعندئذ ألقيت بالحمولة الثقيلة من فوق ظهرى، وقلت لنفسى إن ذلك لن يحدث مرة ثانية فأنا لا أكسب شيئًا فى المقابل ولدى عائلة تريد أن تأكل، ثم عاودت حمل الأثقال وأنا أحدِّث نفسى عن ضرورة البحث عن طريقة أخرى للعيش يمكن من خلالها الحصول على المال ففكرت بالالتحاق بالجيش وفى النهاية رأيت قريبى آكو وأخذت منه بعض المال على سبيل الاستدانة".

عاد إلى صمته مرة أخرى وأغلق عينيه.

- كيف حال آكو؟
- بخير.
- وكيف حال زوجته؟
- على ما يرام.
- هل شاهدت أطفالهما؟
- لا.

رفع أبى قدميه ليضعهما - كعادته - فوق الطاولة لكن قدميه ظلتا معلقتين فى الهواء، ففتح عينيه وسأل: "ماذا حدث للطاولة؟، لقد كانت هنا حين دخلت".

أنزل قدميه وبدأ فى البحث عن الطاولة، نظر فى كل مكان بالحجرة وتحت السرير وخلف الدولاب ثم خرج وعاد مرة أخرى دون أن نتفوه بكلمة واحدة.

- أين الطاولة؟

لم نقل شيئًا فراح يحملق فينا كأننا نخفيها عنه أو كأن الأمر مجرد خدعة منا ثم كرر السؤال: أين هى؟ هل سارت بمفردها وخرجت من البيت؟ هل تخبئونها؟ أم بعتموها لشراء بعض الطعام؟ هل سرقها أحد مثلاً؟ ماذا حدث للطاولة؟

أصبح قلقًا ومضطربًا حتى أن عضلات صدره كانت تتموج بلا انقطاع، وكان فكاه يتحركان بغضب وقد استثاره صمتنا فاضطرت أمى لإخباره بما حدث، وعندئذ اتسم أبى بالوحشية وأصبح غاضبًا بشدة وراح يتذمر كالأسد الجامح ثم انتصب واقفًا واندفع خارج الحجرة عابرًا الممر بعنف، فشعرنا كأن الرعد كان يدوى فوقنا.

مشى طول الطريق دون أن يفارقه غضبه وظل يطرق بقوة فوق أبواب الدائنين ويخطو خطوات واسعة إلى الأمام والخلف طالبًا استرجاع ممتلكاته التى سرقها الدائنون، استيقظ الأطفال من نومهم وبدأوا يصرخون وبدأت أضواء الشموع تظهر فى الحجرات ثم ظهر الدائنون واحدًا بعد الآخر، ووقف كل واحد منهم أمام باب بيته مذعورًا وكان بعضهم يحمل المناجل والسكاكين الكبيرة، لكن رجلاً واحدًا كان يحمل بندقية دانمركية، تجمعت النساء ورحن يسألن: ماذا حدث؟

صاح أزواجهن بقوة طالبين منهن العودة بينما كان أبى يواصل غضبه متهمًا إياهم بسرقة ممتلكاته الخاصة، وفى تلك الأثناء خرج أحدهم وقال: "أنا لم أسرق أى شىء وقلت إننى سأنتظر عودتك".

قال أبى: "ومن الذى سرق الأثاث إذن؟"

تمتم الرجل قائلاً: "أنا لم أسرق أى شىء".

عدَّ أبى بعض النقود وقدمها له ثم واصل حملته العدائية تجاه الرجلين الآخرين قائلاً: "إنهما يختبئان الآن خلف ثياب زوجاتهما رغم أنهما هددا زوجتى وابنى فى وضح النهار وسرقا كل أشيائى، إنهما كالفئران جبناء ولصوص وأوغاد، فليخرج أحدهما وينكر ما قلت!".

فهم الناس ما يحدث فعادوا إلى حجراتهم وأطفأوا أضواء الشموع واحدًا بعد الآخر لكن اثنين فقط من أكبر السكان سنًا خرجا وحاولا تهدئة

الأمور، لم يستمع أبى لهما وظل يصيح بلا انقطاع، وثمة رجل أو رجــلان كانا مختبئين فى ظلام حجرتيهما قالا: "إنه النمر الأسود، إنه مخمور".

قال أبى بصوت عال: "نعم، أنا ثمل لكننى لــن أتوقــف عــن لعــن اللصوص".

كرر طلبه بضرورة أن يعيد الدائنون أثاثه الذى سلبوه إلى حجرته فى الحال وإلا فسوف يحطم أبوابهم ويحرق بيوتهم.

قال شخص ما: "إنه مجنون".

سمع أبى ما قاله الرجل فأجاب: نعم، أنا مجنون، إننى نمــر مجنــون وسوف أحرق كل شىء إذا لم يسارع أولئك اللصــوص بإعــادة ممتلكــاتى الآن!.

فى محاولة أخرى من قبل العجوزين لتهدئتــه واسترضــائه حــاولا الإمساك به لكنه دفعهما بعيدًا وراح يواصل ثورته وغضبه بطريقــة عنيفــة حتى بدا كالحيوان الجامح الخطير.

فى مكان ما قريب كان أحد الدائنين يتشاجر مع زوجته ثم فــتح بابــه وخرج، كان خائفًا وهو يحمل الطاولة ورأسه متدلية إلى أسفل، مشى حتــى وصل إلى حجرتنا دون أن تفارقه لعنات أبى ونظراته المليئة بالاحتقار، أنزل الرجل الطاولة أمام باب حجرتنا، وفى طريق عودته إلى حجرته اعتــرض أبى طريقه وقال: "هل أخذتها من عند الباب أيها اللص؟"

- أنا لست لصًا، أنت مدين لى ببعض النقود.
- هل كانت الطاولة هنا حين أخذتها؟

استدار الرجل وحمل الطاولة وكنت على وشك أن أفتح له الباب حين صاح أبى قائلاً: "لا تفتح الباب لذلك الجبان".

أنزل الدائن الطاولة مرة أخرى ثم فتح الباب ووضع الطاولة فى مكانها وخرج، وعند مروره بالقرب من أبى سأله بصوت خفيض: "وماذا عن نقودى؟"

مضت لحظة قصيرة من الصمت ألقى بعدها أبى النقود فوق الأرض قائلاً: ها هى نقودك أيها الجبان.

نظر الرجل إلى النقود الملقاة على الأرض ثم إلى أبى الذى رماه بنظرة غاضبة جعلته غير قادر على قول أو فعل أى شيء سوى الانحناء لالتقاط النقود.

قال أبى: "سوف يقتلك المال، لقد شربت من البيرة التى أحضرتها وأكلت من طعامى ثم تتصرف فى النهاية كالفأر من أجل مبلغ صغير من المال!"

جرى الرجل مسرعًا إلى حجرته وأغلق بابه وكان من اليسير سماع أصوات تشاجره مع زوجته وما هى إلا لحظات قليلة حتى انطفأت الأنوار.

وقف أبى مرتبكًا وسط الممر وحين لم يجد من يواجهه بادر بالعودة إلى حجرتنا لكن دائنًا آخر خرج ومعه زوج الأحذية.

صاح أبى مستأنفًا اتهامه: "أنت أيضًا، لقد سرقت حذائى!".

جرى الرجل الثالث إلى حجرتنا وترك الحذاء ثم سارع بالخروج لكن أبى اعترض طريقه ووقف أمامه بأقدام راسخة، سادت لحظات من الصمت أعقبها صياح الدجاج، وعندئذ ألقى أبى بالنقود فوق الأرض فالتقطها الدائن الثالث بدون أى مناقشة ثم أسرع بالعودة إلى حجرته وأغلق الباب.

وقف أبى وقدماه مثبتتان فوق الأرض بقوة فى انتظار المزيد مما قد يثير غضبه، ولم يبدأ فى التحرك إلا حين خرجت زوجة الدائن الثالث من الحجرة وقالت: إذا كنت قويًا بما يكفى فلماذا لم تلتحق بالجيش؟

أجاب أبى وهو يلف حول نفسه: "إذا التحقت بالجيش فإن زوجك سيكون أول من ستصيبه طلقات رصاصي".

ارتعشت وأصابنى الخوف ولم يستطع شخص آخر أن يغامر بقول أى شيء، انتظر أبى أن يقول أحد شيئًا، وفى تلك الأثناء هبت ريح عاتية عبر الممر فتساقط الناموس فوقه وازدادت حدة الصمت كما أصبحت كل الحجرات مظلمة، بدأ طفل فى البكاء وحين ضربه أحدهم ضربة خفيفة بكى بحدة أكثر واستيقظ على إثر ذلك أطفال آخرون وظلوا يبكون حتى توقفوا جميعًا واحدًا بعد الآخر، وفى النهاية غرق السكان فى نوم عميق ثم استدار أبى ودخل الحجرة.

جلس فوق مقعده وكان حذاؤه فى مكانه المعتاد، غير أن الدائن الثالث قد وضع جوربه بطريقة ساعدت فى إظهار الثقوب، لم تكن الطاولة فى مكانها بالضبط فحركتها قليلاً ووضعتها فى مكانها المناسب حيث وضع أبى قدميه فوقها ثم أشعل سيجارة.

كانت أمى جالسة فوق السرير بوجهها المتحجر وعينيها العميقتين، وكانت يداها مطبقتين فوق رأسها كأنها شاهدة على بدايات المأساة.

رائحة كريهة كانت تنبعث من قدمى أبى ولاحظت أن فردة من حذائه مقطوعة حين سأل بصوت رقيق: "ألا يوجد طعام؟"

قدمت له أمى طعامه فنهض وغسل يديه وأشار لنا أن نشاركه الطعام، ولأننا لم نكن نشعر بالجوع فقد تناول الطعام بمفرده وبشهية كبيرة، وعندما فرغ من الأكل كانت الأطباق فارغة إلا من بعض العظام المتكسرة، وعندئذ بدأت أشعر بالجوع وندمت لأننى لم أشاركه الطعام.

نظفت أمى الأطباق ونظفت أنا الطاولة ثم فرشت حصيرتى، أشعل أبى سيجارة أخرى والجهاز القاتل للناموس بنفس عود الثقاب وجلس صامتًا وهو

يواصل التدخين، ولم أنتبه لواحدة من أرجل المقعد المكسورة إلا حينما كنت على وشك السقوط فى نوم عميق، نام أبى فوق المقعد ذى الأرجل الثلاثة وكان فكه منخفضًا ووجهه متراخيًا، لكنه استيقظ على إثر السقوط المفاجىء للمقعد وتظاهرت بأننى لم أشاهده، نهض متذمرًا وأطفأ الشمعة ثم تسلق السرير ونام إلى جوار أمى.

فى الصباح التالى لم يتحدث أحد إلينا، ذهب أبى مبكرًا إلى عمله فلم يعانِ من الهمسات التى لاحقتنا فى كل مكان أو من ذلك الصمت الذى استقبلونا به عندما توجهنا إلى الفناء الخلفى لكن أمى لم تكترث، وحيَّت كل من مرت بجواره واحتفظت بهدوئها حين لم يبادلوها التحية، كأنها اعتادت على مثل هذه المعاملة طوال حياتها غير أن ذلك كان أمرًا شاقًا على نفسى؛ خاصة وأن الأطفال كانوا يحدِّقون فى بوجوه غاضبة وبدا واضحًا أنهم لا يرغبون فى صحبتى كما أصبح كل الناس متفقين على كراهيتنا.

كنا نأكل بعض الطعام الخفيف مع الخبز حين قالت أمى: "ابتداءً من اليوم سوف أبدأ العمل فى السوق فلقد سمحت لى امرأة ما بتأجير الكشك الخاص بها، وبالتالى فإننى لن أعاود التجوال والمناداة على بضاعتى كثيرًا بعد اليوم".

سررت لتلك الأخبار فراحت أمى تربِّت شعرى ثم قالت: "والآن اذهب إلى المدرسة، وبعد ذلك عليك بالبقاء فى حانة مدام كوتو وسوف أحضر إلى هناك لاصطحابك".

- نعم ماما.
- سأغلق الباب بالقفل وأحتفظ بالمفتاح وهكذا فإن أحدًا لن يستطيع أن يفعل شيئًا ونحن بالخارج.

وافقت بإشارة من رأسى ولكننا حين كنا نجهز أنفسنا لمغادرة الحجرة سمعنا طرقًا على الباب، فتحت أمى الباب ووجدت صاحب البيت واقفًا

بالخارج حيث قال لها بود وهدوء: "أخبرى زوجك بأننى سوف أطرده إذا كرر ما فعله فى الليلة الماضية، فأنا لا أبالى ولا أهتم بأنه النمر السود أو صرصار الليل الأسود كما يلقبونه فأنا أسد ولا أخاف من مثل تلك التصرفات الطائشة، وإذا لزم الأمر فإننى سوف أرسل الأولاد لضربه إذا ما حاول إثارة المتاعب مرة أخرى أو إذا تجرأ على استدانة النقود من أى شخص فى منطقتنا، أما إذا هدد بحرق بيتى فمن الأفضل له أن يرحل ويبحث له عن صاحب بيت آخر، أتسمعيننى؟"

لم تقل أمى شيئًا وكان وجهها متحجرًا، مضى صاحب البيت ومالك الأرض فى طريقه عبر الممر وقد رأيناه وهو يدخل حجرة الدائن الثانى، وعند خروجه بعد لحظات قليلة كان بصحبته اثنان من الدائنين، وكان محاطًا بنساء وأطفال الحى وهو يحدثهم بإسهاب عن الصعوبات التى تواجهه فى بناء البيوت وعن السكان الذين هم أكثر إزعاجًا من أبى الذين طردهم ودمرهم، وعن القوة التى كان يتمتع بها حتى قال وهو يلوح بأحد الأصنام: "إذا تسبب لى أحد فى المتاعب فسوف أبين له أن المتاعب هى اسمى السرى، نمر أو لا نمر، هذه أرضى وأنا لم أسرق النقود لبنائها".

انطلق مسرعًا ومن خلفه الأطفال والنساء.

انتظرت أمى بعض الوقت داخل الحجرة قبل أن تسارع بالخروج حاملة صينية البضائع فوق رأسها، خرجت معها فأغلقت الباب ولم ترافقنى حتى تقاطع الطريق، وإنما مضت فى الاتجاه العكسى الذى سلكه صاحب البيت، لم ترفع صوتها بالمناداة على بضاعتها وظللت أراقبها حتى اختفت تمامًا.

مشيت ببطء بدون أى مصروف أو حتى قطعة من الخبز ولم أشعر بأننى ذاهب إلى المدرسة، كنت متأخرًا بالفعل وعرفت بأننى سأعاقب على الملأ وأنهم سوف يجلدوننى أمام الجميع وأننى سوف أركع فى الشمس،

فقررت عدم الذهاب وعدت إلى عتبة الباب حيث جلست، خرج النساء بمقاعدهن وجلسن يضفرن شعورهن ويثرثرن وكانت هى المرة الأولى التى أسمع فيها منهن بعض الإشاعات عن مدام كوتو كما سمعت أحاديثهن الهامسة عن تعاوننا معها، كن يتحدثن وينظرن نحوى بحقد وكراهية، قلن عن مدام كوتو إنها دفنت ثلاثة أزواج وسبعة أطفال وإنها كانت ساحرة تأكل أطفالها وهم داخل رحمها وإنها السبب الحقيقى لعدم نمو الأطفال فى المنطقة والسبب وراء مرضهم الدائم، كما أنها المسئولة عن كسل الرجال وإجهاض النساء، قلن أيضًا إنها كانت تفتن الأزواج وتغرى الصبية وتقتل الأطفال بالسم وإن لحيتها كانت جذابة وكانت تنتزع منها شعرة كل يوم وتلقى بها فى النبيذ الذى تبيعه وكذلك فى الشوربة التى تصنعها؛ مما يجعل الرجال ينفقون كل أموالهم فى حانتها دون الاكتراث لعائلاتهم التى تتضور جوعًا، كما أنها كانت السبب وراء إصابة الرجال بالخبل فى الليل وأنها تنتمى إلى مجتمع سرى وغامض يتبخر فى الهواء عند اختفاء القمر.

سئمت من سماع تلك الحكايات عن مدام كوتو فأدركت أنه كان من الأفضل لى كثيرًا لو أننى ذهبت إلى المدرسة وواجهت العقاب.

(٤)

عندما وصلت إلى حانة مدام كوتو مبكرًا فى ذلك المساء كان المكـــان مغلقًا، طرقت الباب لكن أحدًا لم يفتح فانتظرت لحظة ظهر بعدها رجل بقدم واحدة وعكازين مصنوعين من فروع الأشجار المزينة وسألنى: "هل الحانـــة مغلقة؟ هل توقفت المدام عن مزاولة نشاطها؟"

أجبت قائلاً: "لا أعرف".

رد الرجل: "يا للعار".

كانت الرمال تغطى شعره وكان وجهه مشوهًا ومنطويًا على شر كبير، كما كانت القدم الخشبية البديلة مغطاة بقطعة قذرة من القمـــاش، نظـــر إلـــى اللافتة وبصق ثم مضى بعيدًا وعندئذ توجهت أنا إلى الفناء الخلفى حيث كان إناء الشوربة يغلى وبدا لى البخار المتصاعد منه كالعفاريت الهائجة، وعلـــى بعد مسافة قصيرة كانت مدام كوتو مختبئة بجسدها الضخم بين الشـــجيرات، فكرت فى البداية أنها كانت تقوم بعمل شىء خاص فلم أنظر إليها وحاولـــت ألا أشعرها بوجودى، لكننى حين عاودت النظـــر أبصـــرتها وهـــى تعتـــدل وتتفحص الأصداف البيضاء التى وضـــعتها فـــى حفـــرة بـــالأرض بالليـــل وأخرجتها فى النهار، ظهرت من بين الشجيرات حاملة ســـيفًا قصـــيرًا فـــى إحدى يديها والأصداف البيضاء فى اليد الأخرى، وسألتنى بصـــوت أجـــش وهى تخفى الأصداف: "إلى أى شىء تنظر؟"

قلت: "لا شىء".

أسرعت إلى حجرتها وعندما خرجت كانت ترتدى الأصداف البيضاء حول رقبتها، توجهت ناحية النار وألقت ببعض المحتويـــات داخـــل الإنـــاء

فانبعثت أصوات غريبة من الشوربة بدت لى مثل أصوات المظاهرات المليئة بالرفض، كانت الشوربة تغلى بشدة وامتلأت بالفقاعات حتى تناثرت خارج الإناء وأوشكت أن تطفىء النار.

قالت مدام كوتو مخاطبة الشوربة: "اهدأى".

أصابتنى الدهشة حين تلاشت فقاعات الشوربة التى هدأت بالفعل وكأنها لم تكن تغلى من قبل قطٍّ.

قلت: "إن الحانة مغلقة".

- نعم.
- ماذا حدث؟

لم تقل شيئًا وراحت الشوربة تغلى مرة أخرى حتى امتلأت بالفقاعات الخضراء اللزجة، تفجرت الفقاعات فانتشرت رائحة قوية فى الهواء.

خاطبت مدام كوتو متسائلاً: "ماذا وضعت فى الشوربة؟"

أجابت وهى تحدِّق فى: "أرواحًا".

تساءلت: "لجذب الزبائن؟"

نظرت نحوى مرة أخرى بعينين مشرقتين ومفعمتين بالفضول وقالت: "من الذى أوحى لك بتلك الفكرة؟"

- لا أحد.
- فلماذا تسأل إذن؟
- إننى أسأل فقط.
- لا تسأل كثيرًا، أتسمعنى؟

هززت رأسى فسألتنى: "هل أنت جائع؟"

كنت جائعًا لكننى أجبت: "لا".

لم تستطع ابتسامتها أن تقلل من تعبيرات وجهها المخيفة وهى تقـول: "عليك بالاعتناء بالشوربة حتى أعود".

بدأ الإناء يغلى بمجرد أن ذهبت إلى حجرتها حتى تدفقت منه الشوربة فقلت: "اهدأى".

تجمعت موجات كبيرة من الرغاوى التى انسابت عند حـواف الإنـاء وقبل أن أتمكن من فعل أى شىء كانت الرغاوى قد أطفأت النار تمامًا بعـد أن سقطت فوق الخشب وأصبحت كالجداول الخضراء فوق الرمال.

ناديت قائلاً: "مدام كوتو، لقد خمدت النار".

جاءت مسرعة ونظرت إلى النار المطفأة وحين أبصرت الشوربة وهى تغطى الرمال التى بدت كالرسوم الملونة قالت: "ماذا فعلت بالشوربة؟"

قلت: "لا شىء".

انحنت وراحت تقلب الخشب وتنفخ الجمرات حتى اشتعلت النار مـرة أخرى، وحين كنت أنظر إلى تلك التجاعيد فى رقبتها نهضـت وقالـت: "لا تلمسها".

كانت على وشك العودة إلى حجرتها عندما سمعنا أصواتًا ثائرة قادمة من باب الحانة، كانا رجلين أحدهما ضخم البنية ويربط رقبته بضمادة، بينما الآخر بدين ويتكىء على عصا زرقاء، وكان كلاهما يواصل إطـلاق النـار أمام الحانة.

قال الرجلان: "مدام، ألم تفتحى بعد؟ نحن نريد بعض النبيذ والشـوربة التى تشتهرين بها".

قالت مدام كوتو: "لم أفتح بعد، يجب أن تعودا فى وقت لاحق".

أصابهما الإحباط وقبل أن يغادرا المكان سمعتهما يتحدثان بقرف عـن عدم جدية بعض الناس فى أعمالهم.

ذهبت مدام كوتو للاستحمام كعادتها قبل أن يصل زبائن المساء وهى تقول: "إنهما من مثيرى المتاعب".

ظللت أراقب الشوربة وكانت نار الموقد قوية والشمس حارقة، فشعرت بالحر الشديد حتى سئمت من تلك الشوربة التى كانت تغلى بهدوء وبطريقة غير ملاحَظة ولم تعد تصدر منها الفقاقيع كما لو أنها فقدت أرواحها، وبين الحين والآخر كان بعض الزبائن المتلهفين يأتون فجأة ويفتحون الباب بقوة وعندئذ كنت أضطر للتوجه إليهم لأخبرهم بأن الحانة لم تفتح بعد، كانوا جميعًا عطشى وفى حاجة ماسة للشراب وكانت ألسنتهم متدلية وهم ينظرون إلى، بعد أن تأكدت من أن الشوربة ليست فى حاجة لمراقبتى، وبعد لحظة من خروج أولئك العطشى خرجت لأتجول فى الممرات فى محاولة منى للتخفيف عن نفسى والابتعاد قليلاً عن نار الموقد الشديدة وحرارة الشمس القوية.

عبر الأيام والشهور كانت الممرات تتسع باستمرار، حرقوا الشجيرات وظهرت الأعشاب الطويلة واقتلعوا الأشجار من جذورها، لقد تغيرت المنطقة تمامًا حتى أن الأماكن التى كانت مملوءة بالشجيرات والأشجار المنخفضة صارت فضاءات مفتوحة من رمال النهر الناعمة، وقد استطعت أن أسمع من مسافة ما أصوات آلات رفع الرمال والوحل وأصوات المحركات وعمال الطرق وهم يغنون، فى كل يوم كانت المنطقة تتغير فظهرت البيوت مكان الغابة، أما الأماكن التى اعتاد الأطفال اللعب والاختباء فيها فقد أصبحت مليئة بكومات الرمال وشركات البناء، كانت اللافتات معلَّقة فوق الأشجار كأن العالم كله قد تغير لكننى واصلت تجوالى كأن شيئًا لم يتغير.

أصبح الدخول إلى الغابة يتطلب وقتًا أطول وبدا أن الأشجار قد فقدت تواصلها مع البشر، وكلما مضيت فى طريقى لاحظت اختلافًا أكبر، كانت الأرض مغطاة بالرمال البيضاء، وكميات من القرميد والأسمنت كانت ملقاة

فى كل مكان بالإضافة إلى ذلك البراز الجاف الذى كان منتشرًا على جانبى الطريق، وقفت تحت شجرة بامبو متهالكة فظهرت أمامى قطة ونظرت إلى أعلى ثم دخلت الغابة لكننى مشيت خلفها حتى وصلنا معًا إلى قطعة من الأرض مغطاة بأوراق الشجر وبذور المطاط، وكان المشهد رائعًا كما بدت الرائحة كرائحة جسد أم عظيمة، امتلأ الفضاء بأصوات مختلف الحشرات وكانت الطيور تغنى حول المكان وكان ظبى ما يجرى بصحبة أطفاله الصغار، رقدت على الأرض ونمت لكننى لم أنعم بالنوم وقتًا كافيًا حيث سمعت اسمى يتردد عبر الأشجار، فتذكرت مدام كوتو وعدت مسرعًا إلى الحانة، عندما وصلت إلى الفناء الخلفى كان الوقود محترقًا بلا لهب والإناء مقلوبًا من فوق حاملة الوقود ومحتوياته مسكوبة على الأرض، وحين خرجت مدام كوتو من حجرتها قلت: "ظننت أنك كنت تستحمين!"

– أستحم؟ كيف يمكننى ذلك؟ أين كنت؟
– كنت ألعب.
– أين كنت تلعب؟
– عبر الطرقات وكنت أظن أنك...
– كنت تظن أننى أستحم، تعال.

مشيت خلفها وحين فتحت الباب الخلفى للحانة تسرب الضوء إلى الداخل، وكانت السحالى مبعثرة فوق الطاولات وحشرة البرص اللزجة تسير ببطء فوق الحائط، كانت الحانة فى حالة من الفوضى حتى إننا لم نستطع التعرُّف عليها حيث كانت الأرض مليئة بالقىء، والمقاعد مبعثرة ومقلوبة والطاولات فى غير أماكنها المعتادة كما كانت عظام الأسماك والدجاج ملقاة فوق كل مكان بالأرض وكان من اليسير أن نشم رائحة النبيذ الكريهة، كانت الحانة مليئة بالذباب وكانت صفوف من النمل تتسلق الحائط فبدا المكان خربًا كأنه سوق مهجورة.

سألتها: "ماذا حدث؟"

لم تقل شيئًا سوى أنهم كانوا بعض الزبائن المزعجين وبدأنا فى تنظيف المكان، كنست الأرضية وتخلصت من النمل ثم حركنا معًا الطاولات وكنست مدام كوتو القيء وأخرجته بعد أن رشت فوقه الرمل، أعدنا ترتيب المقاعد ورششت الماء فوق الأرض ثم كنستها مرة أخرى، غير أن المكان الذى تبول فيه الرجل المجنون كان ما يزال ضاربًا إلى الخضرة، لكن الأرواح ذات العيون الحول خرجت من الحانة وبينما كنا ندفع الطاولات لتحريكها ووضعها فى أماكنها المعتادة صدرت أصوات غريبة من مؤخرة مدام كوتو، فأصابنى الفزع من تلك الأصوات المفاجئة والمزعجة لكن لم تظهر على وجهها أى علامة تفيد بأننى سمعتها وراحت ترش مبيد الجراثيم فوق الأماكن التى تقيأ عليها الزبائن، وبعد ذلك فتحت الباب الأمامى كى يدخل الهواء ثم ذهبت للاستحمام.

لم تتمكن الرياح الضعيفة من نقل الهواء إلى داخل الحانة التى كانت ما تزال مليئة بالهواء الفاسد ورائحة الأصوات الكريهة التى صدرت من مؤخرة مدام كوتو، فقررت الخروج لحظة ولم أعد إلا بعد أن تلاشت الرائحة، جلست فى الركن المعتاد بينما كانت مدام كوتو تنظف الكئوس والقوارير بالخارج، وفى تلك الأثناء جاءت بعض صديقاتها من النسوة لرؤيتها حين كن عائدات من جولات البيع.

قالت النسوة لى وهن يحملن السلال فوق رءوسهن: "زوج ابنتى!"

كن يتحدثن فى الفناء الخلفى عن الأمور السياسية ورجال السياسة السفاحين وعن الأموال التى يهدرها رجال الأعمال والرؤساء فى الحفلات، قدمت لهم مدام كوتو الطعام ورحن يصلين من أجل الرخاء ثم غادرن، كانت أصواتهن منخفضة وعذبة وهن يثرثرن عبر الشارع.

مضت فترة المساء ببطء وكانت الحانة لا تزال خالية من الزبائن، فنمت ولم أستيقظ إلا على إثر سقوط سحلية من فوق الحائط، نهضت فأبصرت رجلاً ذا عينين متورمتين يجلس إلى الطاولة، كانت شفته السفلى غليظة بطريقة غير طبيعية، وكان يتحدث بصعوبة وبطء وكأن الكلمات كانت ثقيلة جدًا ولم يكن بمقدوره أن يحركها فوق شفته الكبيرة.

قال متسائلاً: "أهكذا تعاملون الزبائن؟"

استدعيت مدام كوتو وحين جاءت استطرد الرجل: "ألم يأت أصدقائى بعد؟"

- أى أصدقاء؟
- أصدقائى.
- لم يأت أحد بعد، هل تريد بعض النبيذ؟
- لن أشرب إلا بعد وصول أصدقائى لأنهم يحتفظون بكل النقود.

قالت مدام كوتو: "سأخدمك وعندما يحضر أصدقاؤك يمكنك أن تدفع لى".

قال الرجل دون أن يغير رأيه: "سوف أنتظر".

خرجت مدام كوتو وجلس الرجل فى هدوء ثم أغلق إحدى عينيه الجميلتين، بينما ظلت العين الأخرى المنتفخة مفتوحة وسرعان ما غرق فى النوم وراح يصدر شخيرًا، كنت أنظر إليه متعمدًا حين أدركت أن الحانة قد امتلأت لكننى لم أر أحدًا سواه وأنا أتجول بنظراتى فى أرجاء المكان الذى امتلأ بالسكارى والمناقشات والضحك ومختلف أنواع الشتائم الجارحة والمرح الصاخب، ذهبت وأخبرت مدام كوتو بما يحدث.

قالت وهى تتبعنى: "هراء".

دخلنا الحانة التى كانت مزدحمة وصاخبة ثم قالت وهى تنظر إلى: "إن الحانة مليئة بالناس".

كنت مندهشًا لكن دهشتي تحولت إلى ارتباك بعد أن جلست، كان الناس فى الحانة أكثر غرابة من كل الذين شاهدتهم من قبل، وكانت المجموعة الجالسة حول الرجل ذى العين المنتفخة متشابهة؛ حيث عيونهم جميعًا متورمة وشفاههم غليظة ومليئة بالخدوش حتى خيل لى فى البداية أنهم جميعًا من محترفى الملاكمة، ثم لاحظت أن اثنين منهم بيد واحدة وأن الرجل الثمل بأصابع ثلاثة فقط ويرتدى خواتم فى كل أصابعه، كانوا يتحدثون بأصوات صاخبة وقوية لا تتناسب مع حركات أفواههم.

جلس رجلان فى الجانب المقابل لهم وكانا يرتديان زيًا متشابهًا من قماش مزين بالسمك المطبوع وقلنسوة ضيقة ونظارات سوداء، فعرفت أنهما من فاقدى البصر غير أنهما كانا يتحدثان ويشيران ببعض الإيماءات أثناء الحديث توحى بأنهما يمتلكان رؤية ثاقبة، وعند طاولة أخرى كان رجل ما بدون إبهام يجلس وحيدًا ورأسه ملتوية بطريقة مدهشة كدرنة البطاطا، كان أصلعًا ويرتدى ساعة فى معصمه تصدر تكات عالية، وعندما راح يتثاءب شاهدت فمه الخالى تمامًا من الأسنان بالرغم من مظهره الذى يوحى بالشباب، وإلى جواره كانت تجلس امرأة ذات بشرة بنية غامقة ظلت تحرّك وتعدِل أكتافها دون أن تبتسم أو تتكلم.

تحركت مدام كوتو حولهم لتقديم خدماتها فقال الرجل ذو العين المنتفخة: هؤلاء هم أصدقائى.

سألته مدام كوتو: "ومن أين جاءوا؟"

أجاب الرجل: "من هنا، من هذا البلد وهذه المدينة، نحن نعيش هنا وهنا سنموت".

وما أن انتهى الرجل من كلامه حتى دخل رجلان من ذوى الشعر الأبيض والعيون الخضراء، كان النمش يغطى بشرة الرجلين وكانا يتمتعان

حقًا بالوسامة، ظل الرجلان يغلقان عينيهما ويفتحانهما ويتمايلان من جانب إلى آخر وكأنهما كانا غير قادرين على تحمل الضوء، رحبَ بهما كل من بالحانة فور دخولهما فابتسما وجلس كل منهما فوق مقعده فى مواجهة الشاب ذى الفم الخالى من الأسنان.

سألتهما مدام كوتو: "ماذا تريدان أن تشربا؟"

أجاب صاحب العين المتورمة: "نبيذًا وبالطبع الشوربة الشهيرة التى تتميزين بها".

خرجت مدام كوتو لإحضار طلبهما وفى تلك الأثناء دخل الحانة رجل طويل بصحبة زوجته، كانت أقدامهما طويلة جدًا وبقية أجسادهما قصيرة جدًا، ولهما رأسان صغيران وعيون بالغة الصغر لم أستطع مشاهدتها إلا حين اقتربا منى، وقف الرجل وزوجته وقفة مستقيمة للحظة ثم انحنيا فوقى كما يفعل الممثلون وفردا أقدامهما ونصفهما الأعلى، وقالا بصوت كصوت الأطفال: "نريد بعضًا من الشوربة لو سمحت".

جريت إلى الخارج وأخبرت مدام كوتو التى قالت: "اتركنى بمفردى الآن، إننى قادمة".

عدت إلى داخل الحانة فوجدت الرجل الطويل والمرأة الطويلة جالسَيْن إلى طاولتى ويضعان ركبتيهما بطريقة غير ملائمة تحت الطاولة، وقد لاحظت أنهما يمتلكان أطول رقبة لم أشاهد مثلها فى أى إنسان آخر. سألتهما: "هل أنتما من السياسيين؟"

أجاب الرجل بصوته الطفولى متسائلاً: "ماذا؟"

- هل تعملان بالسياسة؟
- وما هى هذه السياسة؟

قلت لإنهاء المناقشة: "أنتما من غير السياسيين".

ظلا يحدّقان فى فعرفت أنهما مرتبكان تمامًا، حاولت الجلوس بعيدًا دون النظر إليهما عندما أخرجت المرأة ريشة من لفافتها وقدمتها لى.

قلت: "لا، أشكرك".

ابتسمت وأعادت الريشة إلى مكانها، دخلت مدام كوتو ومعها قوارير النبيذ فانطلقت الأصوات معبرة عن الابتهاج الشديد، أمسكت بالأكواب والكئوس ووزعتها على كل الطاولات، وعندما قدمت الكئوس للرجلين الذين يرتديان نظارات سوداء أمسك كلاهما بيدى وقالا معًا: "ما اسمك؟"

- لماذا؟
- نحن نحبك ونريد أن نأخذك معنا.
- إلى أين؟
- إلى أى مكان.
- لا.
- نعم.

حاولت التخلص منهما وإطلاق سراح يدى لكنهما أمسكا يدى بقوة وكانت أصابعهما المليئة بالعظام تخترق لحم يدى.

- لا.
- نعم.

شددت يدى مرة أخرى فحدثت خدوش بها وبدأت تنزف، وعندئذ صرخت لكن الأصوات الصاخبة جدًا فى الحانة حالت دون سماع صرخاتى، رحت أقاوم وأرفس محاولاً النجاة فارتطمت أصابع قدمى بأرجل الطاولة ثم خدشت أحدهما فى وجهه وانتزعت نظارته، كانت كلتا عينيه بيضاء تمامًا كأنهما مصنوعتان من اللبن وخاليتان من أى تعبير أو انفعال ولا تتحركان، فبدا لى أنهما ملتصقتان فى مكانهما مثل شيء مشوه يملأ تجاويف فارغة.

فتحت فمى كى أصيح فضحك الرجل ضحكات قوية ظهر على إثرها سواد فمه القاتم من الداخل ففشلت محاولة الصياح ولم أستطع أن أتحرّك، شعرت بأننى مشلول وأن جسدى متيبس ثم أحسست بألم الذبول يسرى داخل عمودى الفقرى ويصعد إلى مخى وعندما نهضت وجدت نفسى فى الركن المعتاد إلى جوار الرجل الطويل وزوجته الطويلة، كانا ينظران إلى بعينيهما الصغيرتين بينما كان الجميع يشرب وكان بخار الشوربة يتصاعد من الطاسات أمام كل الزبائن، كانوا يشربون بهدوء ويتحدثون بطريقة غريبة.

ظل الرجلان ذوا الشعر الأبيض يرقصان ويتمايلان كأنهما فقدا القدرة على التحكم فى جسديهما لكنهما كانا صامتين وكذلك كان الرجل ذو الفم الخالى من الأسنان، كانوا جميعًا يحدّقون فى، وفى تلك الأثناء دخل الحانة مزيد من الزبائن من بينهم رجل برأس كرأس الجمل وامرأة ذات سنام مشوه ومخيف ثم رجل آخر بشعر أبيض وبصحبته قزم، كانت المرأة تحمل كيسًا كبيرًا فوق ظهرها قدمته إلى الرجلين ذوى الشعر الأبيض، فتح الرجلان الكيس وألقيا بمحتوياته إلى الخارج فانتشرت سحابات من التراب فى الهواء، ثم أخفيا الكيس تحت الطاولة وهما يختلسان النظر إلى.

ظل الأربعة الذين دخلوا الحانة يبحثون عن مكان للجلوس ولم يكن أمامهم سوى مزاحمتى فى طاولتى فاضطررت إلى النهوض والابتعاد عنهم، عثرت على مقعد صغير وجلست بجوار الآنية الخزفية ورحت أراقب ذلك الحشد الهائل من الزبائن.

كانت مدام كوتو متألقة وسط ذلك الزحام بقلادتها ذات الأصداف البيضاء، ومع حلول المساء أصبحت أكثر صمتًا والتزمت باحترام الجميع بينما أصبح الزبائن أكثر وقاحة غير أنها لم تتأثر حتى حين راح الرجال يضايقونها؛ كما فعل الرجل ذو العينين الكبيرتين الثملتين حين قال لها: تعالى مدام واجلسى فوق حجرى.

أجابت مدام كوتو بوقار شديد: دعنا نرى أولاً إذا كان بمقدورك حمل كأس النبيذ قبل أن تحملني.

قال رجل آخر من نفس المجموعة: هذه المدام مغرورة ومتغطرسة جدًا.

أضافت: "مغرورة وقوية".

قال الرجل صاحب الرأس الشبيهة بدرنة البطاطا: "تعالى واجلسى معى ودعينا نتحدث عن الزواج".

ردت عليه مدام كوتو قائلة: "تزوج نفسك".

سألها الرجل وهو يلوح بأصابعه الثلاثة طالبًا المزيد من النبيذ: "وإذن فأنت تعتقدين بأننى لست رجلاً بما يكفى؟!"

قالت: "لا".

اهتزت الحانة بضحكات السخرية الغريبة وضحك الرجلان ذوا النظارات السوداء بقوة ثم تحركا بعيدًا عن الطاولة، وقال أحدهما وهو يخلع نظارته ويمسحها: "قد يكون ذلك الولد هو زوجها".

لم تتحرك عيناه البيضاويتان الشبيهتان بعيون الأشباح حتى أننى لم أستطع معرفة إلى ماذا ينظر وإلى أى اتجاه.

قالت المدام: "إنه ابنى".

- هل هو كذلك؟
- نعم.
- هل تبيعينه لنا؟

هدأت الحانة فجأة وراحت مدام كوتو تنظر إلى الرجلين الذين يرتديان النظارات السوداء بينما كان بقية الزبائن يراقبونها بحذر وشغف، ثم استدارت ناحيتى ولمعت عيناها بومضة غريبة وهى تقول: "لماذا؟"

- نستطيع أن نأخذه معنا.
- إلى أين؟
- أماكن كثيرة.
- وكم من النقود ستدفعون؟
- كما تريدين.
- أتملكون وفرة من المال؟
- نعم، نملك كثيرًا من المال.

ساد الحانة صمت غريب ثم ضحك القزم فبدا كالماعز وبادله الرجل الطويل بعينيه الصغيرتين نفس الضحكات حتى أصبح شبيهًا بالضبع.

- اطلبى الثمن الذى تريدينه يا مدام.

راحت مدام كوتو تتفحص الزبائن كأنها تراهم للمرة الأولى ثم قالت: "هل يريد أحدكم مزيدًا من النبيذ؟"

صاحوا بأصوات متناغمة: نبيييييذ.

وأضافوا قائلين: "وشوربة".

انفجروا فى الضحك ثم استأنفوا حديثهم الصاخب كأن شيئًا لم يحدث.

خدمتهم مدام كوتو فشربوا وأكلوا وظلوا يطلبون المزيد، شربوا كثيرًا لكنهم لم يتأثروا وجلسوا جميعًا يشربون ويتحدثون دون أن يسكروا كما لو أنهم كانوا يشربون ماءً بدلاً من النبيذ، باستثناء ذوى النظارات السوداء الذين أصبحا مخمورين وظلا يمسحان النظارات، خلع أحدهما عدسة من النظارة ووضعها فى نبيذه ثم نفخ فيها ولمعها، وبعد ذلك أعادها إلى مكانها وارتدى النظارة من جديد، شرب الجميع كثيرًا وأكلوا كثيرًا حتى أنهم ابتلعوا عظام الدجاج بعد مضغه، بدأت مدام كوتو تشعر بالقنوط فأسرعت تجهيز مزيد من النبيذ والطعام خاصة وأن الليل لم يكن قد بدأ بعد، وبينما كانت تتحرك هنا

وهناك بهمة ونشاط وتشعل نارًا جديدة وتعد ترتيبات سريعة لتجهيز النبيذ جاءنى الرجل القزم وقال لى وهو يبتسم ابتسامة عريضة: خذ هذه فقد تحتاجها.

كانت مطواة صغيرة سارعت بوضعها فى جيبى ونسيتها تمامًا ثم ذهب القزم إلى الفناء الخلفى وسمعته وهو يبول بين الشجيرات، وعندما عاد ابتسم وغادر المكان بدون أن يتفوه بأى كلمة ودون أن يدفع الحساب، أخبرت مدام كوتو عنه فقالت: "أى قزم؟"

عدت إلى الحانة وجلست فقال الرجل الطويل: "تعال معى".

- إلى أين؟
- سأتجول بك حول العالم سيرًا على الأقدام، أنا أقوم بكل جولاتى سيرًا على الأقدام كما يفعل الجمل.
- لا.
- إذا لم تأت معى سوف آخذك بالقوة.
- لا تستطيع.

ابتسم وكذلك فعلت زوجته لكننى تصورت أنهما مخموران بما فيه الكفاية فتجاهلتهما ولم أهتم بالأمر.

امتلأت الحانة بالناس فأصبح من المتعذر الحصول على مقعد شاغر؛ فجلس البعض على الأرض وكنت أحرِّك مقعدى بصعوبة، انتشرت الروائح الكريهة والغريبة فى أرجاء الحانة، روائح الأجساد المخمورة والزحام والأعشاب المجففة والمانجو واللحوم المتعفنة والبخور وشعر الماعز ثم وجدت نفسى فجأة غير قادر على فهم ما يقولون، كانوا جميعًا يتبادلون الحديث بلغات غريبة كأنهم يعرفون بعضهم البعض منذ زمن بعيد، وبين الحين والآخر كانوا يشيرون إلى صنم مدام كوتو المعلَّق فوق الباب ويضحكون ثم بدأوا فى النظر إلى وجهى وهم يعدُّون بأصابعهم ويواصلون الضحك ويشربون، وبعد أن عادوا إلى وقارهم بدأوا ينظرون إلى من جديد.

دخلت مدام كوتو وأعلنت أن مخزون الطعام والنبيذ قد انتهى وطلبت منهم أن يدفعوا ويغادروا الحانة فأصيبوا جميعًا بخيبة أمل كبيرة.

قالت مدام كوتو: "ادفعوا وارحلوا، ادفعوا كل ما عليكم واذهبوا فسوف أغلق الحانة".

لم يهتم أحد بما قالت ففقدت أعصابها واندفعت إلى خارج الحانة بينما ارتفعت أصوات الزبائن وأصبحت أكثر بذاءة ووحشية، كنت أسمع مثل تلك الأصوات فى السابق دون وجود ذلك الحشد من الناس أما الآن فإننى أسمع نفس الأصوات لكننى حين نظرت حولى لم أجد الزبائن، أغلقت عينى وأنا لا أصدق وعندما فتحتهما اكتشفت أن الحانة خالية تمامًا وصاخبة جدًا إلا من الرجلين ذوى الشعر الأبيض وامرأة جميلة لم ألحظ وجودها من قبل، رحل أصحاب النظارات السوداء اللذين كانا يجلسان إلى الطاولة البعيدة، وكذلك رحل الرجل ذو العين المنتفخة والمجموعة التى تشبهه والرجلان ذوا العيون البيضاء والرجل الطويل وزوجته الطويلة، أصبحت الحانة هادئة وكل شىء ساكنًا فسمعت صوت الرياح وهى تضرب السقف ضربات خفيفة كأن إعصارًا قد حدث دون أن يشعر به أحد.

سألت ذوا الشعر الأبيض: "أين كل الناس؟"

ابتسمت المرأة الجميلة لى وهز ذوا الشعر الأبيض كتفيهما وهما يستديران ثم وقفا وفرشا الكيس، أصابتنى ابتسامة المرأة الجميلة بالذهول وعندئذ تحرّك ذوا الشعر الأبيض ناحيتى بسرعة وغطيانى بالكيس، ظللت أقاوم لكنهما وضعانى داخل الكيس وأحكما ربطه بمهارة كأننى حيوان، وبينما كنت أقاوم وأرفس بقدمى سمعت صخب العالم كله وأصوات مختلف الناس الذين كانوا بالحانة، كانوا يتحدثون بلغاتهم الغريبة بحيوية ونشاط كأنهم ذاهبون فى رحلة طويلة إلى أرض بعيدة.

أصابنى الفزع ولم أعد قادرًا على الحركة، وكـان الظـلام ورائحـة الموت داخل الكيس فصرخت: "سياسيون! إن رجـال السياسـة يأخـذوننى بعيدًا!"

كان صوتى ضعيفًا جدًا وكأننى كنت أصيح فـى الحلـم ولـم يكـن باستطاعة أحد أن يسمعنى حتى لو كانت صرخاتى بقوة صوت الرعد.

مضى بى الرجلان مخترقين طرقًا عدة وكانت معاملتهما لى وأنا داخل الكيس معاملة سيئة؛ حيث كانا يلوحان بالكيس فى كل اتجاه وينقلاننـى مـن كتف إلى آخر ورغم ذلك ظللت مربوطًا داخل الكيس بعناية، سمعت أصوات الشاحنات والسيارات المدوِّية وأصوات الشغب والاضطرابات فى السـوق، وكنت طوال الوقت أحاول الفكاك والتخلص من الكيس مثلما يفعل الحيـوان الواقع فى الفخ وبقدر اشتياقى للحرية بقدر ما أحكموا ربط الكيس حتى لم يعد ثمة حيز فارغ أستطيع من خلاله التحرُّك لنيل حريتى، كانت قدماى ملفوفـة حول رأسى ورقبتى مضغوطة إلى آخرها ولم أقدر على التنفس فرحت أقاوم الهلع الذى اجتاحنى وشحوب الموت الذى أصابنى، أغلقـت عينـى وحـين فتحتهما لم أشعر بأى فرق ثم غرقت فجأة فى نوم غريب ورأيت الملك فـى نومى مكللاً بالذهب لكنه سرعان ما تلاشى، ثم بدأ غناء زملائى الـروحيين يخترق أذنى وبدا أنهم فرحون لأسرى وسعداء لأننى كنت على وشك اللحاق بهم، لم أستطع الامتناع عن سماع غنائهم، كان بقائى داخل الكيس فى قبضة رجلين مجهولين يقوداننى إلى المجهول وكان سماع زملائى الروحيين وهـم يرسمون طريقى ويعذبوننى بأصواتهم العذبة فلم أعد متأكدًا أى الاختيـارين أسوأ من الآخر!

بعد محاولاتى الجادة فى الخروج من الكيس فقدت كل طاقتى ولم أقدر على فعل أى شىء، فتذكرت مليكنا العظيم وقلت مخاطبًا إيـاه: "لا أريـد أن أموت".

انتهيت من كلامى بصعوبة وعلى الفور ظهر أمامى وجه الملك الـذى تحول إلى وجه قزم، ومنذ تلك اللحظة لم أسمع أصواتًا بالخارج فيما عـدا اندفاع الأمواج وخرير الماء وغناء الطيور الحزين، لكننـى تـذكرت فجـأة المطواة التى أعطانى إياها القزم فبدأت أقاوم مرة أخرى داخل الكيس محاولاً العثور عليها، فتشت جيوبى ورحت أتحسس الكيس ولم أستطع العثور عليها، فخفت كثيرًا ثم تلبسنى هدوء غريب فاستسلمت ورضيت بقدرى.

شعرت بالماء يتصبب داخل الكيس فتيقنت بأننى كنت فى طريقى إلـى المملكة القابعة تحت الماء حيث تقيم بعض الأرواح الخاصة، وبينما أحـاول إبعاد المياه عن فمى شعرت بشىء معدنى كالسمكة المتجمدة يضرب رأسى، لقد كانت المطواة فلم أبدد الوقت وسارعت بمحاولة الخروج، كـان قمـاش الكيس سميكًا وقويًا لكن الماء قد خفف من قوته قليلاً مما تطلب بعض الوقت للخروج، وعندما أصبحت خارج الكيس كان العالم الخارجى مظلمًا مثل قاع البئر، رحت أغوص فى الماء وأقاوم من أجل البقاء.

قال صوت ما صارخًا: "الولد هرب!"

كان الظلام كثيفًا جدًا وبدا النهر كأنه الليل بعينه وكانت المياه بـاردة بشدة، ظللت بدون حركة ثم سبحت ببطء شديد وهدوء عائدًا إلى الشاطىء.

بدأت أقاوم الأعشاب المائية وزنابق المستنقع وجذور الشجر الاستوائى وخفقان الأسماك، وعندما وصلت إلى رمال الشاطئ واصلت الجرى حتـى وصلت إلى الطريق الرئيس، كان الظلام كثيفًا لا يزال، وكنت جائعًا ومـبللاً وضائعًا وقد سمعت أصواتًا قادمة من كل الاتجاهات حولى، أصوات زملائى الروحيين الشريرة وضحكاتهم المكبوتة وبكائهم اليائس، جريت حتى أصـبح الطريق نهرًا من الأصوات وكانت كل شجرة وسيارة وكل وجه يتحدث إلى، عبرت القطط طريقى وكان الناس ذوو الوجوه المظلمة الشاذة يحدّقون فـى، عند مفترق الطرق راح الناس يحملقون وبدوا كأنهم يتحركون ناحيتى بطريقة مزعجة فهربت بعيدًا وتلاشيت فى الليل.

كان الطريق طويلاً بلا نهاية ومتشعبًا إلــى آلاف الطــرق الأخــرى المتفرعة بدورها إلى ممرات كثيرة تؤدى إلــى شــوارع مليئــة بالرمــال والأوساخ وتنتهى بأزقة مسدودة، عالم جديد كان يتخلَّق وسط العالم القــديم، ناطحات السحاب تقف شامخة ومثيرة للغموض إلى جوار الأكواخ والمساكن المصنوعة من الزنك، كبارى معلَّقة فى الهواء يمكن للســيارات أن تطيــر فوقها فى المستقبل، طرق كثيرة لم ينتهوا من تشييدها بعد مزدحمة بــالآلات والمعدات الثقيلة، وهنا وهناك كان حراس الليل ينامون تحت النجــوم وإلــى جوارهم مصابيح باهتة الإضاءة، كان القمر مستديرًا ومكتملاً ومشرقًا وكأنه وجه ملك مرعب وشعرت بالراحة لوجوده، واصلت المسير وأنا جائع أمــلاً فى رؤية وجه أمى وتنسم رائحة أبى، فمضيت فى سيرى بالقرب من تجــار الشوارع النائمين إلى جوار مصابيحهم التى تعمل بالكيروسين.

سألونى كثيرًا: "أيها الولد الصغير، إلى أين أنت ذاهب فى هذا الوقت؟"

لكننى لم أجب على أحد وظللت أهيم على وجهى حتى تقرَّحت قدماى العاريتان، وأثناء المضى فى طريقى الضائع أبصرت ضوءًا متحــررًا مــن جسد ما واقفًا أمامى ورأس رجل على هيئة قمر صغير، فرحت أتتبع الضوء الذى أغرانى بالسير خلفه مسافات أطول وعندما وصلت إلــى منطقــة لــم أستطع إدراكها أصبحت غير قادر على الإحساس بقدمى فوقعت منهارًا فوق أحد جانبى الطريق، زحفت إلى أقرب شجرة ولففت نفســى حــول قاعــدتها الكبيرة المنتشرة فوق الأرض ثم سقطت فى نوم عميق تحت حمايــة القمــر الشاحب، وعلى الرغم من البعوض الذى لم يتردد فى تعذيبى والنمل الــذى ظل يقرص جسدى ويلسعنى فقد استطعت أن أنام وحلمت بالنمر.

حين استيقظت كان القمر لايزال ساطعًا فى السماء كالشــبح الــذى لا يريد الاختفاء عند ظهور أول ضوء للنهار، كان الوقت فجرًا وقليل من الناس يقفون فوقى بوجوههم المليئة بالألغاز.

صاح أحدهم: "إنه ما زال حيًا".

نهضت بسرعة فتجمعوا حولى وفردوا أذرعتهم لكننى هربت منهم وجريت فى سطوع الفجر وقد بدأت الشمس تعتلى السماء، ازدادت حرارة الهواء وشعرت بدفء الرمال تحت قدمى كما راحت نساء الكنائس الإفريقية الجديدة اللاتى يرتدين الثياب البيضاء الفضفاضة ينادين لإيقاظ العالم النائم ويحثونه على التوبة، ظهر بعض العرّافين من الغابة وحين مررت بجوارهم رأيت أوراق الشجر المليئة بندى الصباح فوق رءوسهم، وكانت ذقونهم كشبكة من خيوط العنكبوت وعيونهم مفعمة بالرؤى، ومررت أيضًا ببعض السحرة وهم يحملون المناجل المتلألئة فى ضوء النهار، كانوا يذبحون الديوك الحمراء ويقدمونها أضحية للفجر وهم يتغنون بالأناشيد المأثورة فوق الطرق الجديدة، شاهدت أيضًا العمال الذين يستيقظون مبكرًا بعيونهم الناعسة وهم يمضون فى طريقهم عبر الضباب وحرارة الشمس نحو ورش إصلاح السيارات ومحطات الحافلات.

كنت أمضى فى الطرقات بأقدام راسخة وقد بلَّل الندى كاحلى وجفَّف الجوع شفتى، كان بائعو الصحف والمجلات يزعقون فى أبواقهم ويعلنون للعالم المستيقظ توًّا فضائح العنف السياسى الأخير، وكانت نساء المدينة الكادحات يحملن سلال الأطعمة المتبلة ذات الرائحة الطيبة فوق رءوسهن ويُثِرْنَ الشهية بأصواتهن العذبة، كانت ديدان الأرض تأكل باطن قدمى.

جئت إلى مكان آخر مألوف حيث ارتفعت أصوات المؤذن ببعض التراتيل العاطفية لحث مسلمى العالم على إقامة الصلاة، انتحيت جانبًا فى أحد الأركان وصعدت أحد الممرات الذى تحول بسرعة إلى طريق ظهر منه فجأة ثلاثة رجال اندفعوا ناحيتى بثيابهم الفضفاضة الزرقاء، اندفعت نحو الأدغال ورحت أجرى بين الأشجار وأصرخ فى الغابة دون أن أسمع شيئًا سوى صدى صوتى، لكن الطيور تبعثرت من فوق الفروع وتساقطت حبات

النبات من أعلى الشجر، عرفت أننى تخلصت من الرجال لكننى لم أتوقف عن الجرى؛ فقد بدا العالم مليئًا بالناس الذين يريدون الإمساك بى لأسباب مختلفة غامضة.

بينما كنت أجرى فى طرق الغابة وممراتها خطوت فوق طبق مزخرف ولامع من تلك التى يقدمونها كأضحيات وقرابين، وكان الطبق مليئًا بالبطاطا المحمرة والسمك والقواقع المطهوة وزيت النخيل والأرز وجوزة الكولا، التصقت بباطن قدمى بعض شظايا الأصداف والمحار وقليل من الدبابيس وبدأت أنزف، كنت جائعًا بشدة حتى أننى لم أستطع أن أمنع نفسى من تناول بعض تلك القرابين غير أن معدتى تورمت واخترقتنى أطياف أرواح الطريق الجائعة والمنزعجة، لم تتوقف قدماى عن النزيف وكانت قطة سوداء ذات عينين ذهبيتين تقتفى أثر دمائى، أصابنى الهذيان فمشيت فوق الزجاج المكسور وفوق رمال الأدغال الساخنة وفوق طرق الأسفلت الجديدة.

بدأت ملامح الطرق تتضح لى لكن خيالى الجامح غير المحدود جعل الطرق تتضاعف وتعيد إنتاج نفسها وتقسم نفسها إلى أجزاء صغيرة وتتعطف وتتداخل فى بعضها البعض كالثعابين وهى تلف وتتلوى حول نفسها حتى تصبح أذيالها فى فمها، أصابنى الطريق بأسوأ أنواع الهذيان والهلوسات، فها هو يؤدى إلى البيت ثم يبتعد عنه ولم تكن له نهاية وكان مليئًا بالعلامات والإرشادات لكن بدون اتجاهات، أصبح الطريق مصدر عذابى ورحلتى الطويلة اليائسة، ووجدت نفسى أمشى - فقط - لاكتشاف ما تؤدى إليه تلك الطرق ومحاولة معرفة نهايتها.

وصلت إلى مكان اعتقدت عنده أن الطرق قد وصلت إلى نهايتها، كانت شجرة الإيروكو الضخمة متدلية عبر الطريق وكانت أغصانها الخشنة مليئة بالعقد كوجوه المحاربين القدماء وشبيهة بشخص ميت عند نهاية الطريق، وفيما وراء الطريق كانت ثمة حفرة عميقة وفى الجانب الآخر كانت

الشاحنات محملة بالرمال، انطلقت أصوات صبيانية من جذع الشجرة وراح صداها يتردد فى الحفر وعبر الوادى، جلست فوق أحد أغصان الشجرة كى أخفف من آلام قدمى، وعندئذ – وبينما كانت أرواح الطريق غاضبة منى– رأيت كلبًا بقدمين فقط يظهر من الغابة، وقف الكلب ونظر لى وراح يئن كثيرًا، لقد أدهشتنى حقًا رؤية الكلب واقفًا على قدمين فقط لدرجة نسيت معها جوعي وألمى، كانت للكلب قدم على اليسار وأخرى على اليمين ويقف مرتعشاً كأنه مستند إلى عكازين، نظر الكلب إلى ثم عرج بعيدًا وقد بدا عليه حزن كبير، ولقد أثار فضولى وهو يمشى بتلك الطريقة الغريبة فمشيت خلفه.

قادنى الكلب وراءه عبر الغابة، كان كلبًا هزيلاً ذا عينين حادتين وذيل حسَّاس وأذنين مليئتين بالبراغيث، حاولت التخلص من البراغيث لكننى منعت نفسى وظللت أسير خلفه إلى مسافة أبعد حتى وصلت إلى قطعة أرض منزوعة الأشجار، لم أستغرق وقتًا طويلاً فى التعرُّف عليها، مشى الكلب إلى أعماق الغابة وكنت أراقبه وهو يمضى بعيدًا ولقد توقف مرة واحدة فقط كى ينظر إلى، لوحت له لكن الكلب لم يفهم إشارتى وراح يواصل سيره المتعرج، ذلك الكلب الناسك البطل كان يعيش بقدمين فقط ووجه حزين.

واصلت سيرى نحو البيت بنشاط رغم كل العقبات، وعند حافة الغابة رأيت مدام كوتو وهى تحمل طبقًا من الدجاج والبطاطا بين يديها لكن الأصداف البيضاء لم تكن حول رقبتها، وقفت المدام عند جانب الطريق ونظرت فى كل الاتجاهات كى تتأكد من عدم وجود أحد وراحت تباشر توسلاتها المشبوبة بالعاطفة، كنت أراقب حماسها المتخفى وعندما انتهت من صلاتها وتراتيلها، أضاءت شمعة ووضعتها فى الطبق كما وضعت قطعة من الصلصال الأبيض وبعض الأصداف والقواقع بجوار الشمعة ثم اعتدلت وفكت منديلها وهى تنظر فى كل الاتجاهات وسارعت بالابتعاد، مررت بالقرابين التى وضعتها فى الطريق وجريت بمحاذاة الحانة قاصدًا البيت.

(٥)

كان أبى يدَخن السجائر وهو جالس فوق مقعده ذى الأرجـل الثلاثـة، وكانت الأطباق المليئة بالطعام فوق المائدة كما كانت أمى فى سريرها وقـد ساعد الضوء المتسلل عبر النافذة المفتوحة فى التخفيف من حالـة التعاسـة السائدة، اندفعت أمى ناحيتى وألقت بكلتا ذراعيها حـولى كأنهـا أرادت أن تحمينى من العقاب، ساعدتنى فى الجلوس فوق السرير ثم بدأت تبكى لكـن أبى لم يتحرك، وسألنى بصوت مخيف: أين كنت؟

كان واضحًا أن كليهما لم ينم تلك الليلة حيث كان الإجهاد واضحًا حول عينى أبى، كما بدت أمى كأنها فقدت بعضًا من وزنها.

- أين كنت؟
- كنت تائهًا.
- كيف؟
- كنت ألعب فضللت طريقى.
- كيف؟
- لا أعرف.
- وماذا عن مدام كوتو؟
- لا أعرف.
- لقد جاءت بالأمس للبحث عنك.

لم أقل شيئًا فأضاف: "أنت لم تخبرها بالمكان الذى ذهبت إليه".

- لا أستطيع أن أتذكر.

سألتنى أمى: "هل أكلت؟"

قال أبى بصوت عال: "لا تسأليه مثل هذه الأسئلة ويجب عليه أولاً أن يخبرنى عن المكان الذى كان فيه".

- دعه ينام.
- هكذا تفسد النساء أطفالهن.
- دعه يستريح وبعد ذلك سوف يتحدث.
- إذا لم يتكلم فلن يستطيع أن ينعم بالراحة، لقد أعاقنى عن الذهاب إلى العمل وأريد أن أعرف ما كان يفعله.
- أخبر أباك يا أزارو عن المكان الذى كنت فيه.
- كنت تائهًا.

انتصب أبى واقفًا فاهتز المقعد من تحته وارتفع صوته قائلاً: "أين؟"

- لا أعرف.

قال محاولاً الإمساك بالعصا الموضوعة إلى جواره والتى لم ألحظها: "أنت طفل لئيم وشرير".

اقترب منى فوقفت أمى بيننا لكنه دفعها بعيدًا وأمسك رقبتى بيده القوية وراح يجلدنى بالعصا غير أننى لم أصرخ، ظل يجلدنى لكننى هربت من قبضته فسارع بالإمساك بى مرة أخرى وراح يواصل جلدى فى قدمى وظهرى ورقبتى، جريت حول الحجرة بلا وعى فارتطمت الأشياء ببعضها لكنه ظل يضربنى بالعصا دون توقف، حاولت أمى الإمساك به والحد من غضبه لكنه لم يتوقف عن جلدى كما راح يجلد أمى التى سارعت بالصراخ، لم أتفوه بأى كلمة مما جعل أبى يستشيط غضبًا ويواصل ضربى بالعصا بقوة أكبر حتى تمكنت من الفرار خارج الحجرة قاصدًا الحى الذى نسكن فيه، هرع بالجرى خلفى لكننى جريت بعيدًا عن واجهة البيت واخترقت الشارع ولم أتوقف إلا بعد أن أصبحت بعيدًا عن البيت، توقف أبى عن متابعتى غير أنه لم يتوقف عن تهديدى بالعصا، ظللت حيث كنت ولم أتحرك من مكانى رغم نداءات أبى المتكررة.

سمعته يقول: "تعال هنا الآن أيها الطفل السيىء".

لم أتحرك فغضب أبى كثيرًا لأنه لم يتمكن من الإمساك بى بيديه الكبيرتين وكرر نداءه: "تعال هنا الآن وإلا فإنك لن تأكل".

لم أكن أفكر بالطعام أو النوم أو أى شىء آخر وفجأة وجدته يسرع نحوى فسارعت باتجاه حانة مدام كوتو، لكنه استطاع أن يلحق بى قبل أن أصل، وأمسك بمؤخرة بنطالى القصير ورفعنى إلى أعلى ثم راح يجلدنى وهو يسحبنى باتجاه البيت، كان غضبه من النوع المخيف حتى إننى صرخت من شدة الخوف فقد تراءى لى كأنه روح تخطفنى إلى مكان مجهول، عندما سحبنى إلى داخل الحجرة ألقى بى فوق السرير وظل يجلدنى حتى تصبب العرق فوق صدره فشعر بالرضا والارتياح لإشباع رغبته وتمكنه من قتل شهوة التجوال خارج البيت التى تنتابنى من وقت لآخر، ثم ألقى بالعصا فوق الأرض وذهب ليستحم.

بدا أننى أعانى من ضربات قوية فرحت أتوجع فوق السرير وأقسم بأن أنتقم انتقامًا مروعًا، جلست أمى إلى جوارى وعندما عاد أبى من الحمام كان لايزال غاضبًا فقال لى: أنت مشكلة بالنسبة لى، أنت طفل مثير للمتاعب، إن كل الأشياء التى استطعت القيام بها لم تكن إلا من أجلك.

اندفع ناحيتى مرة أخرى لكن أمى قاطعته بقوة وقالت: "ألم تجلده بما فيه الكفاية؟"

- نعم فأنا أريد أن أجلده بقوة أكثر كى يتمكن فى المرة القادمة من التفكير فينا قبل أن يتوه.
- لقد نال كفايته من الضرب وها هى قدمه تنزف.
- لو أننى أب قاس لوضعت الفلفل فى جروحه كى ألقنه درسًا أبديًا.

كان أبى فى أشد لحظاته غضبًا لكن أمى وقفت أمامه بقوة وعقدت العزم على ألا يصيبنى بأى ضربات أخرى، ارتدى أبى ملابس العمل وهو يتذمر ويشتكى من حظه وقدره ومن قدرتى على كبح جماحه، وراح يتذكر

كيف كان طفلاً حسنًا بالنسبة لوالديه، حاولت أمي إرغامي على تناول الطعام لكن وجود أبي كان عائقًا لشهيتي وكنت أبكي بصوت رتيب وممل.

أمسك أبي بالحذاء وراح يهددني قائلاً: "إذا لـم تسـكت الآن فسـوف أضربك بالحذاء".

قالت أمي: "نعم، واقتله أيضًا إذا أردت".

واصلت بكائي الرتيب ولم يشعرني التهديد بمزيد من العقـاب بـأنني أسوأ حالاً مما أنا عليه، كان مزاج أبي سيئًا وعندما انتهى من ارتداء ملابسه التقط العصا، واقترب مني ثم قال: "إذا تحركت من هذه الحجرة اليوم أو غدًا فإنك قد تتوه أيضًا لأنني بعد أن أنتهي منك..."

لم يكمل جملته عن عمد كي يصيبني بمزيد من الخـوف ثـم وضـع العصا بخفة فوق رأسي وخرج مندفعًا من الحجرة، وعندئذ شعرت بارتيـاح كبير.

كانت أمي صامتة وظلت هكذا لحظة قبل أن تقول: "هل تـرى حجـم المشاكل ونوعيتها التي تتسبب فيها؟"

ساورني اعتقاد بأنها أيضًا تريد أن توبخني فاستجمعت قواي لمواجهة هجومها الوشيك، لكنها نهضت وخرجت ورحت أنا في نوم عميـق وحـين عادت أيقظتني وقد أحضرت إناءً مليئًا بماء الأعشاب الدافيء وطلبت منـي أن أضع فيه قدمي، ثم راحت تقتلع بدقة ديدان الأرض الملتصقة في تجاويف قدمي باستخدام إبرة سخنتها على ضوء الشمعة ثم غمستها في زيت النخيـل الحار، وهكذا طهرت جروحي وعقمتها كما وضعت خليطًا مـن الأعشـاب فوق آثار الضرب، قطعت بعض أشرطة القماش من لفافتها وراحت تضـمد باطن قدمي، كانت أوراق الأعشاب المنقوعة في الماء الدافيء تلسعني حـين ذهبت أمي وتخلصت من الإبرة الساخنة وسكبت الماء من الإنـاء، تسـلقت

السرير لكن أمي طلبت مني النزول كي أتناول الطعام فأكلت بنهم شديد بينما كانت أمي تراقبني والدموع تترقرق من عينيها، بعد أن انتهيت من طعامي تسلقت السرير مرة أخرى ولملمت أمي أغراضها وما أن أغلقت عيني حتى قالت: "فلتبق بالداخل وأغلق الباب ولا تذهب إلى أي مكان، لا تفتح الباب إلا لي أو لأبيك، هل تسمعني؟"

هززت رأسي بالكاد فخرجت حاملة الصينية فوق رأسها قاصدة شوارع الحي، أغلقت الباب وغلبني النوم وسط شقاء الحجرة.

لم يكن أبي قلقًا بشأن خروجي، نمت طوال اليوم وحلمت أحلامًا كثيرة معقدة كنت أحاول خلالها الفكاك من المقعد ذي الأرجل الثلاثة الذي لم يتوقف عن محاولة اختطافي، وعندما استيقظت كانت أمي قد عادت وشعرت بأن روحًا غريبة كانت تتلبس جسدي أثناء النوم، حاولت أن أتغلب على ذلك القلق الغريب الذي انتابني والتخلص من الثقل الكبير الذي حل بجسدي، لكن رأسي بدت أكبر مما هي عليه وامتلأت بالفراغات كما بدأت قدماي تتورم، كانت تلك الليلة فقط التي شاهدت فيها أمي وهي تتحول إلى شخصين متطابقين ولمحت فيها ابتسامة أبي الوحشية وهي تتقلب إلى أشكال عدة من الصرامة، حين التهبت مقلة عيني وبدأ جسدي في الارتعاش وانتابت عروقي موجات ساخنة من الذبول وعرفت أن الحمى قد أصابتني.

قالت أمي: "لقد أصيب الولد بالملاريا".

تمتم أبي قائلاً: "ليتها تكون الملاريا وحدها".

- اتركه وشأنه.
- ولماذا ينبغي أن أتركه؟ هل أنا الذي طلب منه الخروج والتسكع طوال النهار والليل أم أنك أنت التي سمحت له بذلك؟ إن كل ما أخبرناه به هو البقاء في حانة مدام كونتو ولم نقل له أن يهيم في الطرقات كي يصاب بحمى الطريق.

- اتركه وشأنه، ألا ترى أنه يرتعش؟
- ماذا؟ وهل أنا الذى تسببت فى ذلك؟ من المحتمل أنه ذهب إلى حيث يلقى السحرة والمشعوذين والعرّافين بالماء المختلط بأشياء غريبة إلى الأرض بعد استخراجه من أجساد زبائنهم، من الأرجح أنه مشى فوق تلك الأرض الملوثة بأمراضهم فأصابه المرض، انظرى إلى عينيه.
- لقد تورمت عيناه.
- إنه يشبه الشبح ويبدو كمن يرتدى قناعًا.
- دعه وشأنه.
- لو لم يكن مريضًا لكنت ضربته مرة أخرى.

ثم قال لى: "هل تفكر فينا؟ وهل تعلم قدر الشقاء الذى نعانيه من اجل إطعامك ومن أجل دفع الإيجار وشراء الملابس؟ إننى أحمل الأثقال طوال اليوم كالحيوان، لقد تحطمت رأسى وتقلص عقلى كى أتمكن من توفير الطعام لك، أتفهمنى؟"

استمر أبى فى توبيخه طوال الليل فازداد جسدى ارتعاشًا واخترقت الحرارة رأسى وأصابنى الهذيان، أصبحت رأس أبى كبيرة جدًا وانتفخت عيناه كما أصبح فمه أكثر اتساعًا، أما أمى فقد بدت نحيلة ومغمورة بالأسى والاكتئاب مما جعلنى - من خلال الحمى - أرى كل منهما كظلال عملاقة، انحنيا فوقى على السرير وعندما تحدثا بشأنى بدا وكأنهما يتحدثان عن شبح أو عن شخص ما غير موجود بالحجرة، كانت الحمى قد تملكت منى.

كانت كل أصوات منطقتنا تزعق فى الليل ولم أستطع أن أتناول الطعام وظللت أتقيأ وكان شرب الماء هو الشىء الوحيد الذى استطعت عمله، ظلت أمى ساهرة إلى جوارى مع ضوء الشمعة وأبى مع دخان سيجارته، وكانت الظلال تتأرجح فى أرجاء الحجرة وغلبنى إحساس بأننى أنسحب من الدنيا تاركًا الأشياء والناس إلى عالم آخر مجهول، وفى وقت متأخر من الليل

جهزت أمي طبقًا ساخنًا من الشـــوربة، كانـــت الشـــوربة مليئـــة بالتوابـــل والأعشاب مرة المذاق لكنها جعلتني أشعر بقليل من التحسن، ثم صبت لـــي نصف قدح من الأجوجورو الذي تحول لونه إلى الأصفر بعد نقعه في الخل.

أصرَّت أمي على أن أشرب نصف القدح كله في جرعة واحدة، وقال أبي متوعدًا: "إذا لم تفعل فسوف أضربك".

فعلت ما أمراني به فاضطربت معدتي من مرارة ذلك الشراب اللاذع، شعرت بمرارة شديدة في فمي اهتز جسدي على إثرها وأصـــابني الغثيـــان، فقدمت لي أمي مكعبًا من السكر لكنه لم يفلح في تخفيف حدة المرارة التي لم تفارق فمي طوال الليل وحتى الصباح، كان طعم المـــرارة لا يـــزال عالقـــا بفمي.

قالت أمي وهي تقلبني فوق السرير: "إن المرارة التي تشعر بها تساعد في طرد الملاريا".

وقال أبي بصوت ضعيف: "إن المرارة هي ما يحتاجه الولد".

كان ما يزال غاضبًا مني لأنني تسببت في إحساسهما بالقلق وبقائهمـــا دون نوم طوال الليل، وبرغم مرضي لم يستطع أن يسامحني لكنني كنت في مأمن من غضبه بسبب الحمى، نمت تلك الليلة مطاردًا بأرواح الطريق وقـــد غرقت في أحلام مخيفة.

بعد أيام ثلاثة وفي صباح يوم السبت كنت لا أزال مريضًا وفمي جافًا وكذلك عيناي، وظللت أستمع إلى الطيور وهي تغرد في أذني بينمـــا كانـــت أمي مشغولة بتنظيف الحجرة ولم يكن أبي موجودًا، وحين سألت أمي عليـــه أخبرتني بأنه ذهب للعمل في جاراج السيارات.

شعرت بحرارة شديدة في الحجرة وكان الهواء القادم من النافذة محملاً بالذباب والبعوض ولم يساعد في التخفيف من حرارة الجو، تصبب العـــرق

غزيرًا من جسدى فوق السرير حتى أصبحت راقدًا فوق بركة مبللة، وكان جسدى كله يؤلمنى وباطن قدمى يدغدغنى والصداع يتمدد فى رأسى، شاهدت أمى وهى تنظف الحجرة وقد أحاط الغبار والجفاف بوجهها.

قالت وقد اتخذت شكل الأجداد: "يجب أن تستمع إلى ما يقوله أبوك ولتكن حذرًا أثناء سيرك فى الطريق".

- حاضر يا أمى.
- إن الطريق يبتلع الناس وتستطيع فى المساء أن تسمعهم وهم يستنجدون طالبين المساعدة، تستطيع أن تسمع توسلاتهم من أجل الحرية.
- نعم يا أمى.

نظفت الدولاب وأعدت لى الطعام لكننى لم أتناول إلا القليل ثم ساعدتنى على النهوض من فوق السرير والذهاب إلى الحوش الخلفى للاستحمام، فتحت عينى بصعوبة فى ضوء النهار واخترقنى صخب الحى وكان ظهور السكان المفاجىء قد جعلنى أشعر بالزحام، توجهت إلى الحوش حيث أعدت أمى ماءً دافئًا من خليط الأعشاب وقالت: فلتستحم بهذا الماء جيدًا وإلا فسوف أساعدك.

عندما خلعت ملابسى كان الجو باردًا غير أن الماء كان ساخنًا ورائحة الصابون منعشة، وبعد الانتهاء قادتنى أمى إلى الحجرة وراحت تدلك جسدى بزيت الأعشاب وعندئذ شعرت بتحسن كبير وبدوت كأننى شخص جديد.

قالت أمى: "حان الوقت لشراب الدونجو".

كاد الإغماء يصيبنى لمجرد معرفتى بمرارة ذلك الشراب فأضافت أمى: "إذا لم تشربه كله مرة واحدة فلن أسمح لك بالخروج اليوم".

شربته كله وبعد أن تبولت تعجبت من لون البول الأصفر الغامق.

جاءت فترة ما بعد الظهر محملة بصخب الحى وسمعت النـــاس وهــم يتبادلون الأحاديث، ورأيتهم وهم يخرجون فـــى نزهـــات يــوم الســبت أو يستقبلون زيارات الأصدقاء والأقرباء، أجبرتنى أمى على ارتداء أحسن ثيابى التى لا أرتديها إلا فى الكريسماس ثم مشطت شعرى ووضعت قلــيلاً مــن البودرة فوق وجهى وبعد ذلك جاءت مدام كوتو لرؤيتنا.

بدت وقورة جدًا بذلك الخرز السحرى الأبيض ودثارهـــا الفضـــفاض وقميصها الواسع كما لو أنها كانت ذاهبة لزيارة بعض الأقارب الميسورين.

- ماذا حدث لك يا أزارو؟
- لقد ضللت طريقى.
- أعرف أنك اختفيت.

قالت أمى: "يجب أن تربطى قدميه، إنه يمشى كثيرًا".

ضحكت مدام كوتو ثم أخرجت طاسة تتبخر منها شوربة لحم الماعز.

قلت متسائلاً: "هل تحتوى تلك الشوربة على العفاريت؟"

رمقتنى بنظرة حادة وقالت وهى تبتسم لأمـــى: "إنهـــا مليئـــة بـــاللحم والسمك".

كانت الشوربة حقًا شهية وأفضل كثيرًا من تلك التى تقدمها لزبائنها فى الحانة حتى أننى شربتها كلها دون أن أترك أى قطعة من اللحم أو السمك مما أصاب معدتى بالانتفاخ.

سألتنى أمى: "أنت لم تتناول كل الشوربة التى صنعتها لك".

أجبتها: "بل فعلت".

تناولت مدام كوتو الطاسة ووضعتها فى حقيبتها ثم قالت وهـــى تتجـــه نحو الباب: "فلتصبح قويًا بسرعة لتعود وتجلس فى الحانة".

رافقتها أمى إلى الخارج وقد استطعت أن أسمع حديثهما وحين ابتعدتا عن الباب لم يعد بمقدورى سماع المزيد.

غابت أمى فترة طويلة وبدأ باطن قدمى يدغدغنى وبينما أنا راقد بين النوم واليقظة وبين حلم وآخر سمعت أصواتًا جديدة صاخبة فى الشارع، كانت الأصوات قوية جدًا حتى تساءلت بينى وبين نفسى: من هو ذلك الإنسان القادر على بلوغ ذلك الصوت القوى؟.

لم أستطع تفسير ما يقولون فشعرت فى لحظة خاطفة أن الأمر كله محض خيال منى وأن ما سمعته ليس سوى ظهور آخر للأرواح، انطلق أطفال الحى عبر الطريق جيئة وذهابًا وهم يتحدثون بشغف، ولقد سمعت الرجال والنساء وهم يتحدثون بأصوات مفعمة بالحيوية كما لو أن شارعنا قد تحول إلى شارع جديد وغريب، أسواق شرقية وملابس تنكرية وجماعات من السحرة مع بهلوانات ومشعوذين، اقتربت أصواتهم جميعًا حتى وصلت إلى أسطح المنازل مما جعل الجميع يخرجون لمعرفة ما يحدث فأصبحت البيوت خالية من السكان واستطعت عندئذ أن أسمع صراخ طفل مهجور.

غلبنى حب الاستطلاع فنهضت من فوق السرير، شعرت بأن الحجرة تتأرجح من حولى وأن الصداع قد انتقل من رأسى إلى عينى وكانت الأصوات المجلجلة بالخارج لا تتوقف، توجهت نحو الباب ولم أستطع الرؤية بوضوح إلا بعد حين، كان الطريق خاليًا من المارة حيث تجمع كل أهل الحى أمام العتبات، اكتظت العتبات بالناس وراح كل واحد يحدِّق فى مشهد الشاحنة ذات البوق المعلَّق فوق صندوقها الخلفى المفتوح، كان رجل ما يرتدى لباسًا أبيض لامعًا يتحدث بإشارات قوية، وكانت هى المرة الأولى التى أسمع فيها مثل هذا الصوت العالى والمدجج بالثقة.

تجمع سكان الشارع حول الشاحنة وقد بدا الجوع واضحًا فوق وجوههم، كما ظهر الأطفال بملابسهم الممزقة وبطونهم الكبيرة وأقدامهم العارية.

تساءل شخص ما: "ما هذا؟"

- رجال السياسة.
- إنهم يريدون أصواتنا.
- إنهم يريدون أموالنا.
- لا، لقد جاءوا لفرض الضرائب علينا.
- لقد رأيتهم عند ذهابى للبيع وسمعتهم وهم يوضحون الأسباب التى يجب من أجلها أن نمنحهم أصواتنا.
- إنهم لا يتذكروننا إلا حين يريدون أصواتنا.

قال الرجل الجالس فى الشاحنة: "أعطونا أصواتكم، نحن حزب الأغنياء وأصدقاء الفقراء".

انطلق صوت ما وسط الزحام قائلاً: "ليس للفقراء أصدقاء".

وقال آخر: "لديهم فئران فقط".

- إذا أعطيتمونا أصواتكم...

قاطعه شخص ما قائلاً: "لقد انتهينا".

- سوف نطعم أطفالكم...
- أكاذيب.
- وسوف نمهد لكم الطرق...
- تلك الطرق التى تحولها الأمطار إلى بالوعات!
- وسوف نوفر لكم الكهرباء...
- حتى تتمكنوا من سرقتنا فى الضوء!
- وسنبنى لكم المدارس..
- لتعلمونا الأمية!
- والمستشفيات، سنجعلكم أغنياء مثلنا حيث يوجد الكثير لكل شخص، كثير من الطعام وكثير من القوة، فلتمنحوا أصواتكم إلى الاتحاد والقوة!

توقفت عندئذ كل الأصوات الساخرة فأضاف الرجل: "ولكى نثبت لكـم أننا لا نتحدث بكلام أجوف أحضروا لنا أطفالكم وسوف نوزع عليهم اللـبن مجانًا، نعم، سنوزعه بالمجان هدية من حزبنا العظيم!"

ظلوا يوزعون وعودهم الحماسية فى الهواء بغير انقطاع ويرسـمون رؤيتهم المستقبلية عن الرخاء العظيم حتى تمكنوا من كسر كل حوائط الشك التى تعترينا فاندفع الناس نحو الشاحنة مغلقين شكوكهم خلفهم، ومع شعورى بأن الطريق يتمايل من حولى مع تلك الأصوات الحماسية القوية وجدت نفسى أندفع معهم باتجاه الشاحنة وقد أدهشتنى رؤية صاحب البيت ومالـك الأرض عند مؤخرة الشاحنة، كان وجهه متلألئًا بابتسامة توحى بالقوة ويرتدى لباسًا معقودًا برباط.

كانت أكياس لبن البودرة مكدسة خلف الشـاحنة وبـدأ الرجـال ذوو العضلات القوية والصدور العارية يفتحون الأكياس ويقدمون اللـبن بسـخاء إلى النساء اللاتى تجمعن فى أعداد كبيرة حول الشاحنة، بينما راح صـاحب البيت – فى لحظة من النشوة والشـعور بالانتصـار – يـوزع – بطريقـة سحرية– طاسات اللبن على الجموع المحتشدة التى اندفعت فـاردة أذرعهـا حول الشاحنة حتى اشتبك الناس مع بعضهم البعض وتعالت أصواتهم بنغمات متنافرة وأصوات مسعورة.

اهتزت الشاحنة بفعل اندفاع الناس الشديد وانطلقت الأصوات مدويـة فى الفضاء، وراح الأطفال يصرخون من قوة الاندفاع، كما تشبثت الأيـادى بأكياس اللبن فأصبحت نوبة السعار منذرة بالخطر؛ مما جعل الرجل يصـيح فى البوق قائلاً: "لا تندفعوا هكذا فلدينا ما يكفى من اللبن المجانى لإطعام كل أطفال البلد".

لكن توسلاته لم تنجح فى تهدئة الوضع بل زادته سوءًا حيـث انـدفع الناس أكثر حول الشاحنة حاملين السلال، كانوا يملأون سلالهم ويسـارعون

إلى بيوتهم لتفريغها ثم يعودون بحماسة ونشاط أكبر للحصول على المزيد حتى امتلأ الشارع كله بالسلال والجرادل والقدر المعدنية والفخارية والأصوات الحاقدة، كان الاندفاع شديدًا اهتزت الشاحنة على إثره وكادت أن تنقلب.

بدا صاحب البيت مريضًا من شدة الخوف وقد تصبب وجهه بالعرق، كانت أيادى الجوعى المتصارعة متشبثة بسترته، وحين حاول خلعها أو التخلص منها لم يستطع وكلما حاول أكثر كلما تشابكت السترة فى كل الأيادى فبدا الأمر كأن ملابسه أيضًا أصبحت امتدادًا لوعود حزبه، أى أنها أصبحت هدية مجانية لكل شخص.

عند الجانب الآخر من الشاحنة شاهدت مدام كوتو وهى تتفاوض مع الرجل الذى كان يتحدث فى البوق وتشير بحزم إلى الاتجاه المؤدى إلى حانتها، كانت جموع الناس تتدافع من حولها وتشق طريقها بقوة للحصول على المزيد حتى تمزقت مناديل النسوة وتقطعت قمصانهن إلى أجزاء، كما سقط اللبن وانساب فى كل مكان حتى غطت البودرة وجوه النساء والأطفال، اندفع الحشد وارتفعت الأصوات وحين بدأ السائق فى تشغيل محرك الشاحنة راح الجوعى ينتقمون بتكسير الشاحنة والصياح مما أصاب السائق بالقلق، كما لم يسلم صاحب البيت ومالك الأرض من أيادى الجوعى الذين مزقوا ملابسه فراح يحاول بجدية تثبيت حوافها ولكن دون جدوى، ظل يتوسل إليهم ويدافع عن نفسه غير أن الجموع الجائعة انتشلت أكياس اللبن بحركات غاضبة ومضطربة من تحت أقدام فتوات الحزب وسحبت معها سترة صاحب البيت، حاول أن يتمسك بسترته بقوة وعناد لكنهم سحبوه مع ملابسه بعيدًا عن الشاحنة حتى ظل يرفرف بقدميه فى الهواء.

توقف أحد أولئك السفاحين عن تقديم اللبن وأمسك بقدمى صاحب البيت لمنعهم من سحبه بعيدًا لكنه خسر المعركة أمام حركات الجوعى الغاضبة

والمضطربة؛ فاختفى صاحب البيت وسط الأجساد المتلاطمة وراحت سترته تنتقل من يد إلى أخرى من فوق الرءوس، وما هى إلا لحظات قليلة حتى تمزقت السترة إلى قطع صغيرة من الشرائط، راحوا يقذفون بها فى الهواء من كل اتجاه فبدت كريش الببغاء مسلوبة الشعر.

حينما ظهر صاحب البيت كان شعره مغطى بالطين وشخص ما كان قد سكب اللبن فوقه فبدا فى صورة مضحكة، وعندما حاول العودة إلى الشاحنة لم يسمح له زملاؤه فى الحزب لأنهم لم يستطيعوا التعرف عليه فراح يصب سخطه ونقمته فى نفس الوقت الذى ترك فيه الفتوات أنشطتهم وبدأوا فى مهاجمته ثم إلقائه فوق الأرضٍ على بعد مسافة من الشاحنة، وفى تلك الأثناء ظهر المصور الجسور حاملاً الكاميرا وسارع بالتقاط بعض الصور لصاحب البيت البائس وللحشود المندفعة، نهض صاحب البيت بغضب شديد وراح يهز قبضته لاعناً الحزب ثم اندفع بعيدًا باتجاه الشارع وهو غارق فى الطين واللبن الجاف بملابسه البالية وسرواله الموشك على السقوط، كان صاحب البيت يمارس تحديًا بائسًا.

واصل المصور التقاط الصور فراح الرجال الواقفون فوق الشاحنة يتخذون أوضاعًا مناسبة بالقرب من اللبن الذى يتصدَّقون به على الناس ويبتسمون بثبات غريب أمام الكاميرا حين كانت الجموع الجائعة المتلهفة تصطدم بالشاحنة، رأيت ثلاثة من الرجال الأفظاظ يختطفون فجأة أكياس اللبن من الشاحنة ويسرعون بالجرى عبر الشارع، لكن رجال الحزب الفتوات لم يترددوا فى تعقبهم، ووسط كل ذلك التنافس واصطدام الناس بعضهم البعض انسحق الأطفال وأصيب رجل بالإغماء كما سمعت صراخ امرأة وشاهدت فتاة مصابة فى عينيها وشخصًا آخر مضروبًا بالكوع فى فمه، وكان الدم مراقًا فى الهواء.

صوب المصور الكاميرا باتجاه امرأة ذات عين متورمة وهى تحمل سلة من اللبن فوق رأسها، ولفت انتباهى أحد الرجال وهو يجرى من أمام

الحشد بوجهه النازف والمليء بالخدوش، تحطمت نوافذ الشاحنة أثناء كل ذلك الشجار وتلك المعارك الصاخبة حتى اختلط الدم باللبن فوق الأرض، وعندئذ سمعت صراخ أمي فسارعت بشق طريقي بصعوبة نحو الاتجاه القادم منه الصراخ، شاهدت مدام كوتو وهى تغادر المشهد المضطرب برمته بوقار شديد وكان الخرز يتدلى منها ويلمع فى الشمس، بحثت عن أمي فى الزحام وسط كل ذلك القلق الملتهب ووسط ذلك الجوع الشديد لتلك الحشود المتدافعة، فاصطدمت رأسى بالمناكب كما أصابنى شخص ما بضربة قوية فى أنفى الذى راح ينزف وتعثرت بين الأقدام الغليظة ذات العظام الصلدة، وفى النهاية وجدت نفسى منساقًا بواسطة مئات من الأجساد المتدافعة، اندفع الحشد وراء الشاحنة فى حملة عنيفة مما جعل فتوات الحزب يلجأون إلى تغيير وسيلتهم فى الهجوم؛ فراحوا يمزقون الأكياس المختبئة ويلقون بالقطع النقدية الصغيرة فى الهواء، سقطت العملات الصغيرة فوق رءوسنا أثناء اندفاعنا باتجاه الشاحنة وتدفقت بكثرة فوق وجوهنا وعيوننا حتى كدنا نفقد الرؤية، لكننا لم نتوقف عن التقاط العملات من فوق وجوهنا وواصلنا زحفنا باتجاههم وقد نسينا اللبن، وحين انطلقت الشاحنة بعيدًا معلنة عن وعود الحزب ومكان انعقاده القادم جرى الأطفال خلف الشاحنة بينما راح بقية الحشد يزحف لجمع العملات النقدية بطريقة مسعورة.

مضى المصور فى طريقه متعقبًا الشاحنة وظل يلتقط صورًا لفتوات الحزب وهم يطرقعون عضلاتهم، وكانت منشورات الحزب تملأ الهواء وتتساقط فوق رءوسنا وعند قراءة كلماتها أدركنا أننا لم نقرأ مثلها من قبل، بعد اختفاء الشاحنة تمامًا من شوارعنا وبعد أن تلاشى ذلك الصوت القوى فى أعماق المنطقة بدأنا نشفى ببطء من حالة السعار التى أصابتنا.

كانت الطريق مليئة باللبن المسكوب وبمنشورات الحزب ولم يتوقف الأطفال عن البحث عن عملات نقدية مختبأة بين الرمال، ظهرت أمى وسط

مجموعة من النساء، وكانت آثار الخدوش والكدمات واضحة فوق وجهها، كما كان قميصها ممزقًا ولبن البودرة مسكوبًا فوق شعرها.

قالت المرأة ذات العين المتورمة: "لن أمنحهم صوتي".

شاهدتني أمي فاتجهت ناحيتي وصاحت قائلة: "عد إلى البيت لتنام".

أسرعت إلى الشارع وكان كل شيء أمامي غامضًا ولم أستطع تفسير كل ما حدث، التصقت منشورات الحزب بقدمي وتخلل لبن البودرة أنفي كما شعرت بسخونة في أذني وأصابني صداع شديد في عيني، فرحت أتباطأ في السير وأتسكع أمام عتبات الحي مستمعًا إلى الناس وهم يتناقشون في أمور السياسة، لكنني عندما أبصرت أمي وهي تعبر الطريق سارعت بدخول الحجرة، أحضرت أمي معها سلة اللبن المجانية وحين وضعتها على الأرض بدت على وجهها نظرة توحي بالانتصار، التقطت السلة من فوق الأرض ووضعتها في الدولاب بعناية كأن المجهود الذي حصلت به على هذه السلة أضفى عليها قيمة خاصة، ثم ذهبت للاستحمام.

تجمع الناس في الممر وراحوا يندمجون في مناقشات ساخنة عن الحزبين الرئيسيين وعن الأفضل منهما وأيهما يملك مالاً أكثر، وتطرق الحديث إلى ضرورة معرفة أكثرهما قربًا من الفقراء وأي من الوعود التي سمعوها هي الأفضل بالنسبة لهم، استمروا في مناقشاتهم بلا تعب أو ملل حتى سقط الظلام ببطء فوق المشهد كله.

كان الظلام قد اكتمل عندما عاد أبي الذي بدا هادئًا ومرهقًا في آن واحد رغم ذلك البؤس الواضح في عينيه، تحرّك بتكاسل وهو يميل بوجهه إلى أسفل كأنه كان على وشك البكاء في أي لحظة، اشتكى من الصداع ومن آلام ظهره وقدميه وتحدّث بقرف عن أولئك الذين يمارسون السياسة ويسببون له كثيرًا من المتاعب في عمله بالجاراج.

قال وقد ارتسمت عيناه بتعبير عنيف: "كدت أقتل أحدهم اليوم".

ثم تغيرت نبرات صوته وهو يضيف: "أحمال كثيرة وثقيلة، إن ظهرى يتكسر، يجب أن أجد وظيفة أخرى، يمكننى الالتحاق بالجيش أو العمل بالزراعة لكننى لا أقدر على تحمل كل تلك الأثقال".

سادت فترة قصيرة من الصمت أخبرته أمى بعدها عن حدث اليوم العظيم، وقدمت له اللبن ليراه وقد بدت فخورة جدًا بحصولها على سلة مليئة عن آخرها رغم المنافسة الشديدة، ثم قالت: "والآن نحن نمتلك اللبن".

قلت: "وأنا لا أريده".

لكن أمى خاطبتنى قائلة: "إن ألبانهم مفيدة جدًا لك".

تذوق أبى اللبن فكشر عن وجهه وقال: "لبن فاسد، لبن سيئ".

كان مرهقًا بشدة فغلبه النوم فوق المقعد ولم يستطع أن يستحم أو يأكل، نام أبى وهو غارق فى الطين الجاف والأسمنت ورائحة أكياس الجمبرى والسمك، غير أن أمى ظلت مستيقظة للحظة لئلا يستيقظ لكنه واصل نومه وهو يجرش أسنانه دون أن يتوقف عن الشخير، وعندئذ فردت أمى الحصيرة وتمددت فوقها بعد أن أطفأت الشمعة وما هى إلا دقيقة واحدة حتى كانت تشاركه الشخير.

ظللت مستيقظًا بعض الوقت وكنت لا أزال محمومًا وكانت ثمة أشكال ترتعش فى الظلام، وقبل أن أستسلم للنوم بلحظة قصيرة سمعت تحركات ما داخل الدولاب، وحين نظرت رأيت شيئًا ما يخرج من اللبن ويكبر شيئًا فشيئًا حتى أصبح طويلاً جدًا، وسرعان ما تحول إلى شبح وراح يطير محلقًا حول الحجرة ثم طوى ملابسه البيضاء وبدا كطائر اليعسوب الأزرق المشرق، ورفرف بجناحيه حول الحجرة ثم اختفى فى ظلام الركن الغامض.

كاد الصداع يفتتنى لكن شيئًا لم يبق فى ذاكرتى مــن ظهــور رجــال السياسة فى حياتنا سوى اللبن المجفف وأحداث تلك الليلة من يــوم الســبت المثير.

(٦)

اكتشفنا في يوم الأحد الوجوه السرية لرجال السياسة، جاء أقرباء أبي لزيارتنا بصحبة أطفالهم ذوى الملامح الجامدة الخجولة، وهم يرتدون ملابس جميلة يندر ارتداؤها إلا فى المناسبات الخاصة، لم يكن لدينا ما يكفيهم من المقاعد للجلوس فاضطرت أمى لابتلاع كبريائها والذهاب إلى الجيران لاستعارة مقاعد إضافية، كان الحى كله ممتلئًا برجال السياسة ولم يكن قدوم أقربائنا للزيارة فقط؛ وإنما لتوجيه النقد حيث راحوا يهاجمون أبى ويوجهون له اللوم لعدم القيام بزيارتهم ولعدم حضوره اجتماعات أهل المدينة وعدم مشاركته فى حفلات الزفاف أو إجراءات دفن الموتى، بالإضافة إلى عدم التزامه بتعهداته المالية، لكن أبى ردَّ على انتقاداتهم بعصبية ووبَّخهم لعدم مساعدته وعدم السؤال عنه أثناء محنته، ظلوا يتبادلون الاتهامات المضادة حتى تطور الأمر إلى نوع من الجدل المخيف وصرخوا جميعًا بأعلى أصواتهم، فبدوا جميعًا كالأعداء الذين يصعب تهدئتهم ولم يكن ثمة ما يوحى بأنهم أعضاء أسرة واحدة ممتدة.

كانوا يتحدثون ويتبادلون الاتهامات بلغة عدائية وبدا كل واحد منهم فى مواجهة عنيفة مع الآخر، فشعرت بالخجل من وجودى فى الحجرة شاهدًا على كل شيء، كان أطفال أقربائنا وزوجاتهم يتجنبون النظر ناحيتى؛ فساورنى شك بأنهم يكرهوننا بقدر ما كنا نتجنب صحبتهم، وبعد فترة طويلة من الصياح والجدل العنيف حاول أحد أقربائنا تغيير الموضوع واقترح أن يكون الحديث عن السياسة والانتخابات القادمة، لكن ذلك كان من أكثر الاقتراحات السيئة حيث بدأت المشاحنات والمشادات الكلامية تتدفق بشدة وعنف فى أرجاء الحجرة الصغيرة، كان أبى يؤيد حزب الفقراء لكن جسده راح يرتعش أثناء المناقشة ولم يكن قادرًا على احتواء غضبه، أما أحد

أقربائنا الذى يؤيد حزب الأغنياء فقد كان هادئًا وباعثًا علـى الازدراء، لقـد كان يملك مالاً أكثر من أبى وكان يعيش فى جزء من المدينة ينعم بالكهرباء.

اهتزت الحجرة باختلافاتهم وفى لحظة معينة بـدا أنهـم سـيهاجمون بعضهم البعض ويتقاتلون، غير أن أمى دخلت وهى تحمل صينية من الطعام والشراب ثم أرسل أبى فى طلب بعض الأوجوجورو وجوزة الكولا، وسكب قليلاً من الشراب على الأرض تكريمًا للإله وبدأ فى الدعاء من أجل توحيـد العائلة، تناول الأقرباء طعامهم بهدوء وبعد ذلك بدأوا يشربون بهدوء أيضًـا، ولم تعد ثمة محادثات صاخبة أو مناقشات عقيمة وعندما أصـبح الصـمت مطبقًا وثقيلاً خرجت زوجات أقربائنا بصحبة أمى إلى الممر وقـد سـمعت ضحكاتهن بينما كان الرجال جالسين فى الحجرة مشغولين بخلافاتهم.

اشتدت الحرارة بعد الظهر وأصبحت الأصوات فى الحى أكثر صـخبًا وكان الأطفال يلعبون فى الممر والجيران يتشاجرون، وحينئذ أعلن أقرباؤنـا عن رغبتهم فى الرحيل فلم يتنكر أبى لإحساس الراحة الذى انتابه، أعطتنـى إحدى الزوجات بنسًا وأخبرتنى بأننى ولد سيئ لأننى لا أزورهم، وظل أبـى بالخارج مدة طويلة بعد توديع أقربائه وعند عودته كان مزاجه معتلاً بشـدة؛ فراح يصب غضبه على كل من تربطه بهم علاقة وعلى كل الأقرباء الـذين يملكون مالاً أكثر منه حتى لعن أنانيتهم وأقسم بأنهم لم يأتوا لزيارتنا لمجـرد الزيارة والاطمئنان علينا وإنما لكى يشعروا بأنهم أفضل حالاً بالمقارنة بنـا، ثم راح يصوب حملته الكلامية الغاضبة باتجاه حزب الأغنياء وأثنـاء ذروة اتهاماته ورفضه وقعت عيناه على علبة اللبن فانتزعها من فـوق الـدولاب وقذف بها خارج البيت، سمعت أمى تتوسل له ألا يلقى باللبن بعيدًا ثم سمعتها (أيضًا) وهى تتنهد، وعندئذ عاد أبى حاملاً العلبة الفارغة وكان من اليسـير رؤية ذلك الوميض الغريب فى عينيه.

أصيبت أمى بنوع غريب من العبوس وقطَّبت عن جبينها فاقترب منها أبى وأمسك بها وبدأ يرقص معها، حاولت أمى أن تدفعه بعيدًا عنها لكن أبـى

كان ملتصقًا بها فلم تجد بديلاً عن ضربه بلطف فوق ظهره، وعندئـذ ألقيـت بنفسي فوق السرير وكان مرض الحمى قد انسحب من جسدى ومع كل ساعة كنت أشعر بتحسن كبير، كانا يرقصان معًا وسمعتهما وهما يتفقان ويبـدو أن الفكرة قد راقت لأمي فذهب أبى ليستحم وعندما عـاد ذهبـت أمـى لكنهـا استغرقت وقتًا طويلاً لإعداد نفسها، وبينما كانت تضع البودرة فوق وجههـا وتنظم طيات الزخارف فوق رأسها وترتدى عقدها وخلخالها وقميصها الشفاف وحذاءها الأبيض وتضفر شعرها فى المرآة كان أبى قد غرق فى نوم عميـق فوق مقعده ذى الأرجل الثلاثة، كانت الحجرة ساخنة جدًا من شـدة الحـرارة فظهرت بقع صغيرة من العرق فوق بدلة أبى الفرنسية التى لا يملك شيئًا لائقًا غيرها، وعندما أصبحت أمى جاهزة بدت فى صورة مختلفة تمامًا، لقد فارقت المتاعب والأعمال الشاقة كل ملامحها واختفت العظام البارزة من فوق وجهها كما تلاشت كل تعبيرات القلق التى غالبًا ما تعلو جبهتها، كان وجههـا يشـع بالحيوية والنضارة وأحمر الشفاة وكحل العين وكان جسدها متناغمًا حتى أننى رأيت فى أمى شيئًا من الجمال البرىء، ذلك الجمال الذى أنعش هواء القريـة عندما وقعت عينا أبى عليها أول مرة، بدت أمى متألقة بجمالها وقد انتشـرت رائحة عطرها الرخيص فى أرجاء الحجرة، وكان العـرق يحـيط بوجههـا المصبوغ بالبودرة وكانت عيناها مشرقتين بالإثارة، وحين لامست أبى استيقظ فجأة وكانت عيناه محتقنتين ومنتفختين وإبطاه مبللين بالعرق.

قال أبى: "أنت تأخذين وقتًا طويلاً أيتها المرأة".

أجابت أمى: "قد نكون فقراء لكننا لسنا بشـعين ونتمتـع بقـدر مـن الجمال".

بدا أبى فى حالة مزاجية جيدة، دعك عينيه وتناول جرعة من شـراب الأوجوجورو متوقعًا خروجى ثم وضع ذراعه تحت ذراع أمى، وفى لحظـة من السعادة الغامرة بدا منفصلاً عن العالم.

انتظرت حتى ذهب كلاهما فسارعت بالنهوض وصببت لنفسى شرابًا احتسيته بسرعة، ثم مضيت فى طريقى نحو الممر لمشاهدة الحياة فى الحى بعد الظهر فى ذلك اليوم الصاخب من أيام الآحاد.

مضت فترة ما بعد الظهر وعندما حل المساء بدأ صراخ الأطفال ينتشر فى الحى واصطَف الرجال والنساء فى طابور خارج الحمام، وراح كل شخص يشكو من متاعب المعدة، شاركت النساء بعضهن البعض فى الجلوس ببؤس فوق العتبات خارج حجراتهن ورجل كان يتقيأ بجوار البئر، صرخت النساء وقلن إنها حالة تسمم وإنهن يشتكين من أمعائهن بينما اكتوى الأطفال بحرارة بكائهم ثم بدأ سيل جارف من التقيؤ.

أصاب المرض كل الناس فى الحى بلا استثناء وعندما مروا بجوارى حدّقوا فى كما لو أننى – بطريقة أو بأخرى – كنت مسئولاً عن المرض الذى أصاب الجميع، تراجعت كل بهجة يوم الأحد وتراجعت معها كل الأحاسيس الجميلة وتحول كل شىء إلى صرخات لا تستطيع أن تستوعب ما حدث، وإلى أصوات تئن وتتأوه وتطلب استشارة العرّاف، ظلوا هكذا طوال المساء وأصبح الحى مكانًا للتقيؤ حيث راح السكان يتقيئون أمام العتبات وعبر الممر وفى الحمام وخارج الحمام، ولم يكن الأطفال بقادرين على ضبط أنفسهم فاندفعوا إلى الحمام للتخلص من عبء الإسهال وتمت معالجتهم بزيت الخروع للقضاء على السموم الناتجة عن الطعام الذى تناولوه غير أن ذلك لم يثمر نتيجة طيبة، جلست بالخارج وأنا أشاهد كل شىء بدهشة ثم مرت بالقرب منى زوجة أحد الدائنين فاتجهت نحوى ووقفت جامدة بعينين مفتوحتين عن آخرهما، وتمتمت بشىء كأنها كانت تلعننى ثم ألقت بوابل من حبات الفول واللوبيا والأرز من فمها فوق ملابسى النظيفة واختفت فى الفناء، نظفت نفسى وأسرعت متوجهًا إلى عتبة البيت وملأت جيوبى بالحجارة، ثم توقفت حين رأيت أمى وأبى يعودان من نزهتهما ويسارعان بدخول الحجرة،

كان أبى مخمورًا وفى حالة معنوية مرتفعة وكانت أمى متألقة بعينيها المشرقتين ووجهها المتوهج بالعرق والحب.

سألنى أبى: "ماذا كنت تفعل بالخارج؟"

أخبرته بما حدث فسألنى مرة أخرى: "وماذا تنوى أن تفعل؟"

قلت له: "سوف أقذفها بالحجارة".

قال: "اذهب واقذفها بالحجارة".

خرجت وألقيت بالحجارة فوق باب بيتها لكننى أخطأت وكسرت إحدى النوافذ، فخرج زوجها وقد بدا عليه المرض الشديد وقال وهو ممسك بالمنجل: "هل جننت؟"

قلت: "لقد تقيأت زوجتك على".

انفجر الرجل فى الضحك ثم اندفع باتجاه الفناء.

قال أبى: "لا بد أنهم جميعًا قد تناولوا شيئًا سامًا".

فقالت أمى: "كانت رؤية كل أولئك المرضى فى كل مكان شيئًا محيرًا ومثيرًا للارتباك، كانوا يتقيأون فى الممرات وفوق العتبات كما أن الأصدقاء الذين زرناهم كانوا يعانون من نفس المرض، حتى بدا الأمر كأنه طاعون حل بنا وتسلَّل إلى أمعائنا".

قال أبى بفخر: "إن العالم كله مريض لكن عائلتى بخير، وهكذا يكشف الرب عن عدالته، إننا عائلة قوية".

استمر فى حديثه المازح وهو يغنى بحيوية حتى ظهر اليعسوب فى الحجرة، وراح يحلِّق عند السقف بقوة ويصطدم بالحوائط كأنه مخمور فقال أبى ضاحكًا: تلك الحشرة تشبه أقربائى.

– لقد جاءت مع اللبن.

- ماذا؟
- الحشرة.
- متى؟
- الليلة الماضية حين كان الكل نائمًا، لقد خرجت من وسط علبة اللبن وطارت.

صرخ أبى كأنه فى لحظة خاطفة قد أدرك شيئًا ثم قال: "اللبن".

اندفع خارجًا وهو يصيح مخاطبًا الحى كله: "اللبن، إنه اللبن".

التقطت أمى الشبشب وبدأت تطارد اليعسوب إلى أن فقد قدرته على الطيران، وسقط على الأرض بجوار الحائط وظلّت تضربه بقوة حتى خرجت منه مادة لزجة وقذرة، وبنظرة لا مبالية توحى بالتفوق راحت تزيل تلك القطع الصغيرة المنتفخة من اليعسوب وتقذف بها إلى خارج الممر، وبعد أن نظفت المادة اللزجة بالخرقة ذهبت إلى حجرة الدائن وزوجته التى تقيأت على ملابسى، وطلبت منهما أن ينظفا ما تَقَيَّآه أمام عتبة بيتنا وغسل ملابسى الملطخة، كان أبى - فى تلك الأثناء - يقرع الأبواب محرضًا كل شخص وهو يصيح قائلاً: لقد خدعوكم بالبهجة الزائفة لذلك الاكتشاف الخادع، استيقظوا أيها الناس، لقد دسُّوا لنا السم فى اللبن.

تناقلت الأفواه صرخة أبى من شخص لآخر بدهشة وعدم إدراك، واشترك الجميع فى نقل الخبر الذى انتشر وغطى على أصوات التقيؤ الكريهة، فأخرجت النساء علب اللبن وأوعيته وفرَّغنها فى الشارع حتى تكدست أكوام اللبن الفاسد وملأت الشارع وشوارع الأحياء الأخرى، شاهدت أكوامًا من لبن البودرة فى طول الشارع وعرضه، وقد بدت لى كالأصنام وهى موضوعة أمام الأكشاك وأخيرًا عقد سكان المنطقة اجتماعًا عامًا لمدة طويلة تحدثوا فيه عن لبن رجال السياسة الفاسد.

كان المصور يتنقل من عتبة إلى أخرى بوجهه الهزيل الشاحب وهو ممسك بمعدته وراح يتحدى مرضه ويلتقط بمهارة صورًا لأكوام اللبن وأخرى للتقيؤ المنتشر خارج البيوت، طالبًا من النساء والأطفال أن يقفوا فى أوضاع مناسبة حول أكوام اللبن وإلى جوار التقيؤ كما التقط صورًا للأطفال المرضى والرجال الذين يعانون من الكرب والنساء الغاضبات.

استمر الاجتماع لمدة ساعات وكان الشارع بكامله غاضبًا فاقترح شخص ما القيام بإحراق كل المكاتب المحلية لحزب الأغنياء، كان الغضب يتملكهم لكنهم أيضًا كانوا عاجزين وبائسين ولا يستطيعون اتخاذ قرار صائب، ظلوا يتحدثون ولم يتمكنوا من الوصول إلى حلول بعينها وعندما حل المساء تفرقوا إلى حجراتهم فى نوبة من الضعف والإخفاق، كانوا مرهقين من كل شيء إلى درجة مقززة.

أصبح الحى أكثر قربًا وتوددًا إلينا فى تلك الليلة وراحوا جميعًا يقدمون الشكر لأبى لتنبيههم واكتشافهم سبب اعتلال صحتهم، كما راحت زوجة الدائن تنظف الوسخ الذى أحدثته أمام عتبتنا وحتى الدائن نفسه لم يطالبنا بدفع ثمن النافذة المكسورة، ظل الأطفال يبكون طوال الليل لكن سيل التقيؤ تضاءل كثيرًا، كأن معرفة سبب المشكلة قد أسهم بطريقة ما فى تحسين الحالة ولم يعد الناس يتدافعون إلى الحمام.

سكب أبى شرابًا فى الليل تكريمًا لأجداده وراح يصلى من أجل أشياء عدة حتى أننى لم أستطع الوقوف عند تفاصيل تلك الأشياء من كثرتها، وقد انتابنى شعور بأن أجداده أيضًا يعانون من نفس القلق والاضطراب.

توجهنا للنوم فى حالة معنوية مرتفعة معززين بالصلاة والسرور الذى خلَّد فى الأذهان ذلك اليوم الشهير الذى عرف فيما بعد بيوم رجال السياسة أو يوم اللبن، نمت فى تلك الليلة فوق الحصيرة ولقد سمعت أمى وأبى مرة أخرى وهما يتحركان برقة فوق السرير وعندما توقفا عن الحركة سمعت صوتًا خارجًا من الظلام، يقول: "هل الفئران ما زالت مستيقظة؟"

(٧)

عندما ذهبت إلى حانة مدام كوتو فى المرة التالية كان الذباب الأزرق الكبير يملأ المكان ولقد هاجمتنى رائحة جلد الحيوان ورائحة العرق والأرض المبللة، كان الجو حارًا والهواء بالداخل فاسدًا والحانة مزدحمة بالغرباء الذين لم يسبق لى رؤيتهم من قبل، وقد بدوا لى جميعًا أصحاب نزوات غريبة مثل أولئك الذين كانوا بالحانة فى المرة السابقة غير أن اختلافًا بدا فى ذلك التنافر الغريب بينهما؛ الذى تمثل فى وجود رجل طويل أبيض الشعر ذى عينين قرنفليتين ورأس شبيهة بقطعة البطاطا، ورجل آخر بعين منتفخة وعين أخرى بيضاء وخالية من أى تعبير وكأنها حجر مدهون، ثم رجلين بشعر أبيض ونظارات سوداء وعاهات جسدية عند المفاصل، أما الشاب صاحب الفم الخالى من الأسنان فقد تحوّل إلى امرأة، تعرفت عليهم جميعًا رغم مظهرهم المتغير وكانت الحانة مليئة بآخرين لم أشاهدهم من قبل؛ مثل صاحب العينين الخضراوتين الجامدتين والذى يشبه السحلية إلى حد كبير ومن بين أولئك الناس ذوى الأشكال الغريبة كان هناك بعض الناس العاديين الذين قصدوا الحانة بعد الانتهاء من أعمالهم وقبل عودتهم إلى ديارهم للاستمتاع بشراب المساء.

كانت الحانة مزدحمة جدًا حتى أننى كنت أبذل مجهودًا كبيرًا فى المرور بين كل تلك الأجساد المحشورة والخشنة، كانوا جميعًا يغنون ويتبادلون الاتهامات والشتائم والنكات البذيئة وسط جنبات الحانة، لكننى سمعت أصواتًا غير أرضية ولغات غريبة وحادة وضحكات كأنها آتية من جذوع شجرة ميتة فى الليل أو من قبور عميقة، شعرت عندئذ بالمرض يعاودنى مرة أخرى وأنا أسلك طريقى عبر تلك الأجساد الشاحبة والخالية من الحياة.

بدت الحانة – فى وجود أولئك الزبائن المتغيرين – مختلفة تمامًا، كانوا يتشاورون فى كل شىء تحت الضوء الأصفر الكئيب، حتى ساورنى انطباع بأن الحانة نفسها قد انتقلت من مكانها المعروف فى منطقتنا إلى مكان ما تحت الطريق أو تحت البحر وربما تكون قد انتقلت إلى مكان ريفى غامض، انتشرت ضحكاتهم فى أرجاء الحانة وازداد الضوء سطوعًا لكن أصواتهم المتداخلة أصابتنى بالرجفة وشعرت بألم مفاجىء، عبَّرت المرأة ذات الفم الخالى من الأسنان عن بهجتها بإطلاق صرخة مدوية طويلة أصابتنى بفزع غريب.

نجحت فى الوصول إلى جوار الآنية الخزفية، وكانت كل المقاعد مشغولة حتى أن قزمين كانا يجلسان سويًا فوق مقعد واحد ويشربان بهدوء وعلى الرغم من عدم استطاعتى التعرف على أى منهما فقد كانا يبتسمان لى، اقتربت المرأة ذات الفم الخالى من الأسنان منى وراحت تحدِّق فى بقوة ثم – وببطء شديد – أخرجت شيئًا ما من تحت الطاولة، كنت أراقبها وقد فتنتنى إيماءاتها الساحرة وعندما فرغت من إخراج ذلك الشىء عرفت أنه مجرد كيس، صرخت وحاولت الخروج من الباب غير أن كل المساحات والطرق المتاحة كانت مغلقة، اصطدمت بحشد هائل من الناس الذين سدوا طريقى وكأنهم كانوا يحاولون – عن قصد – أن يمنعونى من الهرب، صحت بصوت عالٍ وانطلقت من أعماق حنجرتى ضحكة مدوية فاندفعت مخترقًا الحشد الهائل، وبقدر ما جاهدت فى محاولة الهرب بقدر ما وجدت نفسى محاطًا بالناس.

أدركت عندئذ أن كثيرًا من الناس كانوا يتدافعون للدخول من الباب وكأن أرواح الموتى قد تجسدت وخرجت من هواء الليل، وراح عدد الزبائن يتضاعف حتى لم يعد ثمة مكان شاغر وأصبحت محاطًا بالأجساد العملاقة من كل اتجاه وقد تساقط شعر رءوسهم بكثرة فوق وجهى، خفت كثيرًا من

كثرة عددهم فأبصرت المرأة ذات الفم الخالى من الأسـنان وقـد أصـبحت امرأتين، كما أصبح القزمان أربعة وصار الـرجلان ذوا الشـعر الأبـيض والنظارات السوداء ثلاثة رجال، أما الرجل صاحب العين المنتفخة فقد تحوَّل أيضًا إلى رجلين، وفى الجانب الآخر من وجهه الثانى كانت إحـدى عينيـه منتفخة.

هدأت قليلاً ولم أكن أملك شيئًا أو أسلحة أقاوم بها أعدادهم المتزايـدة، ساد هدوء نسبى وكان كل شىء يرتجف فتحركت ببطء – كأننى تحت الماء – قاصدًا الدكة حيث جلست، ظل الناس المحيطون بى ينظرون ويحدِقون فى الاتجاه الذى أجلس فيه بين حين وآخر، كما لو أنهم يحاولون بحذر التأكد من أننى ما زلت موجودًا بالحانة مما جعلنى أحترس لكونى مراقبًـا مـن كـل شخص، وظللت متوجسًا حتى فى اللحظات التى لم يكن ينظر فيها نـاحيتى أحد لأننى كنت مقتنعًا أنهم يملكون أعينًا غير مرئية فى جوانـب رءوسـهم ومؤخراتها، ولقد عرفت حقيقة الفزع عندما نظرت فقط إلى أعلى لرؤية ذلك الرجل الطويل فبدا لى أن رأسه تلامس عارضة السـقف الخشـبية المليئـة بخيوط العنكبوت.

كان فم الرجل كبيرًا وواسعًا وكانت فتحات أنفه البارزة تتماوج وتبعث ضوءًا خافتًا عندما يتنفس، كما أن أذنيه كانتا كبيرتين وغير متساويتين، لكن ما أفزعنى أنه كان بلا عيون فصرخت بقوة وصوت عال واصطدمت بمقدمة ساقه، وعندئذ مال الرجل ناحيتى وفتح فمه عن آخره كما لو أنه كـان فـى طريقه لابتلاعى لكنه ظل فاتحًا فمه فى حالة من التأمل والتفكـر، وجـدت نفسى أنظر بعمق إلى فمه المرعب، كان فمه بشعًا ومظلمًا وعنـد مؤخرتـه كان هناك شىء ما مضيئًا ومستديرًا وشبيهًا بالقرص، بدا لى ذلـك الشـىء كالحجر المستوى ولقد أصابنى وميضه المتتالى بمزيد من الرعب، ثم أدركت بعد لحظة أننى كنت أحدِّق فى عين، صدمتنى تلك العين فانسحبت عائدًا لكن

العين، استطالت وتمددت فى اتجاهى ثم تحركت حول المكان وكأنها قطعة من الرخام المتلألىء الملتصق بحلق الرجل، بصقت على العين وجاهدت للتخلص من الرجل والابتعاد عنه وأنا أهذى وأرفس بكلتا يدى وقدمى، أطلق الرجل صوتًا كنعيب الغراب وانحنى مرة أخرى وفمه لا زال مفتوحًا، ثم راح يبحث عنى لكننى كنت قد اختفيت فى أرجاء الحانة.

شعرت لحظة بالراحة ولكننى عندما رأيت الناس يحيطوننى من كل اتجاه حاولت جاهدًا أن أهرب مرة أخرى، كان بعض أولئك الناس من النسوة طويلات القامة، وحين أمعنت النظر عرفت أنهن بلا عيون، وإلى جوارى كان يجلس الرجال الثلاثة بنظاراتهم السوداء وقد أدار كل منهم رأسه فى اتجاهى، خلع أحدهم نظارته السوداء فاكتشفت أن له عينين عاديتين بدلاً من تلك العيون البيضاء الصماء التى كنت أتوقع رؤيتها، وسألنى: "ماذا بك؟"

- لا شىء.
- لماذا بصقت فى فم ذلك الرجل؟

قال واحد آخر من الرجال الثلاثة: "إنه ولد مجنون".

أضاف الرجل الأول: "ولد مخبول".

قال الرجل الثانى: "إنه مخمور".

قال الثالث: "أمسكوه".

ردد أحدهم: "نعم، أمسكوه قبل أن يبصق علينا".

تحركت بعيدًا ونظراتى مثبتة عليهم لكنهم سرعان ما تغيروا وكشفوا عن أشكالهم الحقيقية فبدت أكتافهم فى لحظة كأكتاف الأحدب وتوهجت أعينهم باللهب وبدت أسنانهم كالمخالب، ابتعدت ببطء واكتشفت ركنًا آخر رحت أنظر منه إلى كل شخص بتأمل، فأبصرت كل الزبائن وقد تغيروا وأصبحوا شيئًا آخر غير ما كانوا يظهرونه تحت شفافية بشرتهم الزائلة،

حتى أننى اعتقدت بعد لحظة أنها عينى ربما هى التى تخدعنى أو ربما هى الحمى قد عاودتنى بطريقة أخرى غريبة، فأغلقت عينى وعندما فتحتهما كانت المرأة الطويلة التى ليس لها أعين قد اختفت ولم أشعر بنفسى إلا وأنا أسارع بالخروج من الحانة قاصدًا الفناء.

كانت مدام كوتو جالسة فوق أحد المقاعد ممسكة برأسها، وكانت بين لحظة وأخرى تئن وتتقيأ ولم تكن تحمل أو ترتدى خرزاتها البيضاء، بدت مدام كوتو شبيهة بوحيد القرن المضغوط فى المقعد.

اقتربت منها وتحسست كتفها فقالت: "أوه، أنت!!"

كانت مريضة تمامًا وقالت بوجهها الغائر: "ماذا حدث لك؟

نظرت إلى بحدَّة وقالت وهى تتقيأ وتمسك بمعدتها: "إنه اللبن".

– هل شربت منه؟

أجابت وهى تسعل: "طبعًا".

قلت: "نحن لم نفعل".

لم تقل شيئًا وراحت فى نوبة من التقيؤ اللاإرادى حتى بدت فى صورة بغيضة، لكننى قلت: "ماذا عن أولئك الناس فى الحانة؟"

– ماذا عنهم؟
– إنهم هم الذين نقلونى.
– متى؟
– فى آخر مرة كنت فيها هنا.
– هراء.
– هذا ما حدث.
– إلى أين نقلوك؟
– إلى النهر.

- أى نهر؟
- لا أعرف لكنهم كانوا بارعين.
- كيف تعرف؟ هل أنت واحد منهم؟
- انظرى إليهم.
- إنهم ليسوا إلا مثيرين للمتاعب والمشاكل، لقد أجهزوا على كل الشوربة وأنا لست في حال تسمح لى بالتعامل معهم.
- وماذا يمكننى أن أفعل؟

لا أعرف، افعل ما تريد ولكن اتركنى وشأنى وإلا فإننى سأتقيأ عليك.

بدت فى حال من المزاج السيء وكانت جادة فيما تقول فتصورت أنها يمكن أن تتقيأ على بالفعل؛ فسارعت بالعودة إلى الحانة لكننى بقيت عند الباب ورحت أستمع إلى الأصوات المتداخلة القادمة من الداخل وظللت أراقبهم وهم يضحكون ويضربون بأياديهم فوق الموائد بقوة، وما هى إلا لحظات قليلة حتى اكتشفت - للمرة الأولى - أن كثيرًا من الزبائن ليسوا آدميين وأن أشكالهم المشوهة كانت مذهلة كما بدوا غير متأثرين بعدم قدرتهم على الإبصار نظرًا لعدم وجود أعين فى وجوههم، وغير متأثرين أيضًا من ظهورهم المحدودبة وأفواههم الخالية من الأسنان، كانت تعبيراتهم وتحركاتهم متنافرة مع أجسادهم التى بدت غير متناسقة ومختلفة تمامًا عن جسد الإنسان العادى حتى أننى تخيلت أنهم مجرد أرواح استعارت قليلاً من الإنسان لتشاركه واقعه الحقيقى، إنهم يقولون إن الأرواح تفعل ذلك أحيانًا عندما يصيبها الملل من مجرد كونهم أرواحًا، وفقط حيث تنتابهم الرغبة فى تذوق الأشياء الإنسانية ومعايشتها، الألم، حالة السكر، الضحك وممارسة الجنس.. إنهم يفعلون ذلك أحيانًا للإثارة والإزعاج والإيذاء وأحيانًا أخرى لإغراء المراهقين أو لخطف الأطفال والذهاب بهم إلى عالمهم الروحى.

فى اللحظة التى رأيتهم فيها بوصفهم أرواحًا اندهشت لأنهم كانوا يشربون النبيذ دون أن يسكروا، ولأنهم بدوا لى بأجساد طبيعية كأجساد

الإنسان العادى وبدا كل شيء مفهومًا، ثم تأكدت أن صنم مدام كوتو قد لفت انتباههم بطريقة ما عندما تجمعوا تحته جميعًا، عرفت بسرعة ما يوجب على فعله؛ فخرجت وقلت لمدام كوتو: "إن الحانة مليئة بالأرواح".

صاحت قائلة: "دعنى وشأنى.. اتركنى لوحدى".

تركتها وحيدة ورحت أهيم حول الحانة وأبحث عن أحد فروع الأشجار التى غرسوها عند نهاية الحانة، ثم اتجهت إلى الممرات الواسعة ووجدت بعض العصى التى لم تكن طويلة أو قوية بما يكفى، وصلت إلى حافة الغابة وسمعت أنين الأشجار وهى تنهار وتصطدم ببعضها البعض، كما سمعت إيقاع الفئوس المستمر فوق الخشب الحى وقد ساعد الصمت فى تقوية صوت الفئوس، عثرت - أخيرًا - على أحد الفروع والأغصان التى بدت مناسبة وبذلت مجهودًا كبيرًا فى انتزاع الخشب الطويل المتفرع منها ثم تناولت العصا وعدت إلى الحانة.

كانت مدام كوتو ما تزال جالسة فوق المقعد فى الفناء الخلفى وكانت شبيهة بوحيد القرن ولكن بدون قرون، أمسكت برأسها وراحت تتمتم بصوت منتحب فدخلت الحانة من الباب الأمامى وأبصرت الأرواح المتنكرة فى حالة من الصخب الشديد، كانوا يملئون المكان بالمرح واللهو ويقفزون إلى أعلى ثم يتساقطون على الأرض ويرقصون بدون موسيقى ويتشاجرون ويغنون أغانى غير مألوفة بلغات غريبة، وكان الرجل ذو العين المنتفخة يلعب مع أحد المجاورين له وثمة رجل آخر خلع ذراعه من مكانه وراح يضرب به المرأة صاحبة الفم الخالى من الأسنان فوق رأسها، أصبحت الأرواح مخمورة بإنسانيتهم المستعارة وظلوا يتبادلون المزاح أثناء لهوهم الغريب.

تسلقت فوق الدّكة وتحسست الصنم بالعصا حتى لامس أحد أصابعى، وحين بدأت أنزل به شاهدتنى واحدة من الأرواح من عند النهاية الأخرى للحانة وأطلقت صرخة حادة فنزلت بسرعة وسقط الصنم من فوق العصا،

ساد الحانة صمت مخيف وأشارت لى الروح المتنكرة التى أطلقت الصرخة ثم هتفت بصوت آمر: "أوقفوا ذلك الولد".

أمسكت بالصنم الواقع على الأرض فشعرت بوهج قوته فى كفى ورحت أحاول - بصعوبة شديدة - الوصول إلى المدخل مرورًا بأقدام الأرواح المستعارة، لكننى تعثرت ووقعت أمام الباب وللحظة لم أستطع العثور على الصنم، فرحت أبحث عنه وقد تملكنى الغضب فى نفس اللحظة التى انتقلت فيها الفوضى من داخل الحانة إلى خارجها، وجدت الصنم أخيرًا تحت كومة من أوراق الأشجار وكأنه زحف إليها زحفًا كما يفعل سرطان البحر، أمسكت بالصنم حين كانت مدام كوتو تراقب تلك الفوضى وذلك الصخب خارج الحانة، وعندئذ شاهدتنى ثم صاحت قائلة: "هل جننت يا أزارو؟ فلترجع وتضع الصنم فى مكانه".

سارت خلفى بصعوبة وهى تعرج ولم تكن هى الوحيدة التى تبعتنى وإنما الأرواح أيضًا؛ حيث أمسكت إحداها بذراعها المنفصل ولوحت به فى الهواء مثل الهراوة المشوهة، وحين هربت إلى الممرات كنت أسمع خطواتهم الثقيلة خلفى وكانوا يصيحون باسمى: "أزارو، أزارو".

تردد صدى اسمى فى كل المنطقة بعد أن رددته الأرواح بقوة كبيرة، تغير معها ضوء السماء التى تلبَّدت بالغيوم الصفراء وحطت بجوارى فبدا الأمر وكأننى دخلت إلى عالم آخر، ظلوا يصرخون باسمى كالحيوانات وبأصوات مختلفة، جريت خلف الأكواخ واختبأت خلف كومات من الرمل لكن الأرواح كانت قادرة على اكتشافى، نبحت الكلاب باسمى وسدَّ طريقى قطيع من الماعز غريب الشكل وانطلق الدجاج من بين الشجيرات ثم وقف أمامى، كما أن الأشجار راحت تعيد تركيب حروف اسمى فشعرت أن كل شىء فى حالة تواطؤ مع الأرواح للكشف عن أماكن اختبائى، وبالتالى لم أشعر بالأمان حتى داخل أساسات البيوت المحفورة حيث هاجمتنى أنواع

غريبة من الحشرات، قررت عندئذ أن أتوجه إلى الغابة فمررت في طريقي بقرابين مدام كونو، كان الطبق سليمًا لكن الطعام ومجموعة الطقوس والشعائر لم تكن موجودة، مضيت في طريقي حتى استلقيت خلف شجرة كبيرة متساقطة حيث أبصرت كلبًا بقدمين فقط، خفت أن أتدحرج وأقع في الحفرة ولا أستطيع النهوض مرة أخرى، فجريت بسرعة أكبر نحو الغابة.

كانت الأرواح منتشرة في المكان كله وكان من اليسير سماع أصواتهم من كل شجرة، أبصرت منجلاً صدئًا فوق الأرض فالتقطته لكن الرجل صاحب العين المنتفخة هجم على فضربته فوق ذراعه ضربة قوية بالمنجل، ولم يتفوه بكلمة واحدة كما أنه لم ينزف وحين قذفت الصنم باتجاه عينه المنتفخة تركني ومضيت في طريقي متسلحًا بقوة مدام كوتو، ظللت أتقدم حتى ضللت طريقي ولم أعرف السبب وراء استمراري في الجري، توقفت فجأة ثم رحت أتجول بين الأشجار الصامتة ولم أعد أسمع خطوات أقدام الأرواح، غير أنني كنت لا أزال قادرًا على سماعهم وهم ينادون باسمي، كانت أصواتهم عبر الرياح ضعيفة.

أظلمت الدنيا بسرعة وهبت رياح عاتية من بين الأشجار التي راحت تئن وتزمجر، فتشققت الأغصان وبدا صوت الرياح عبر أوراق الشجر كصوت الشلال البعيد، تساقطت أكياس بيض الجنادب من فوق الأشجار ووقع أحدها فوق رأسي، وكانت الخبطة قوية فسقطت على الأرض، وفي غمرة الهدوء والظلام وجدت نفسي أمتطي حصان الليل غير المرئي وأذهب به عبر الأشجار بينما كان كل شيء حولي عبارة عن أشكال هادئة بأقنعة ضخمة، بدا كل ما حولي كالتماثيل القديمة وكلما واصلت انطلاقي بالحصان كلما أبصرت مسلات ضخمة وسحيقة القدم ذات أوجه مهيبة وأحجار زرقاء بلون السماء على شكل حبات من الخرز، كانت المسلات الضخمة مصنوعة من الذهب وتنبعث منها الأضواء في الظلام، تحرّك أحد التماثيل من مكانه

وتحوّل ليصبح مدام كوتو، وكانت ملابسها الذهبية ترفرف فى الهواء وهى تقود حصان الليل الأصيل وتأمر بقية التماثيل والمسلات أن يتبعوها، تحرَّك الشكل ذو الأقنعة الفاخرة وتحرَّكت التماثيل وتسلقوا جميعًا الجياد وتبعونى.

امتطيت الحصان وجريت بقوة ونشاط ووصلت إلى مكان ملىء بالرياح، انتزعت الرياح كل التماثيل الكثيرة واحدًا بعد الآخر من فوق الجياد حيث تحطمت إلى قطع صغيرة من الذهب فيما عدا مدام كوتو المقاتلة العنيدة؛ التى بقت وحدها فوق الحصان ومضت فى عدوها ورائى لكن السماء أمطرت قبل أن تبدأ فى مهاجمتى والانقضاض علىَّ مباشرة، كان ماء المطر يتصبب بغزارة حتى طمس ملامحها تدريجيًا ولم يعد بالإمكان رؤية ذراعها المرفوع ولا سيفها المخيف، تحلَّل ذراعها إلى سائل أزرق وظل يتصبب فوق وجهها الذى راح يتلاشى ببطء، وكأن مياه الأمطار كانت كالحامض الذى يأكل اللحم ويذيب الصلب، ثم تساقط شعرها وتضاءلت رأسها حتى أصبحت على شكل كرة من المياه الحمراء كما ذابت أكتافها وأخيرًا اختفى جسدها الضخم، ولم يتبق منه سوى عينيها الحادتين الكبيرتين اللتين راحتا ترتجفان فوق الأرض وتحدِّقان فىَّ، بينما كان الفرس يصهل ويرفع حوافره الأمامية فى الهواء ففجر عينيها بقدميه الخلفيتين وانطلق مسرعًا حتى اختفى تمامًا بين أصوات الرياح العاتية.

وجدت نفسى أهيم تحت وابل من الأمطار المنهمرة وكان الصنم مايزال فى يدى، وظللت أمشى بلا هدف وقد غمرتنى مياه الأمطار الغزيرة حتى وصلت إلى أرض جرداء خالية من الأشجار، كنت مرهقًا وشعرت بثقل الصنم الذى أخافنى وزنه الثقيل فألقيت به فى وسط الأرض، وعندئذ قررت أن أحرقه وخوفًا من أن تعثر عليه الأرواح أو مدام كوتو حفرت فتحة بالعصا، لكن الماء غمرها غير أننى لم أهتم ووضعت الصنم داخل الفتحة ثم غطيته برمال الأرض المبللة، وأخيرًا وضعت بعض أغصان الأشجار وبعض العصى حول الفتحة لكى أعرف المكان الذى دفنت فيه الصنم.

بدأت فى طريق عودتى عبر حافة الغابة لكننى بقيت تحت إفريز أحد الأكواخ تجنبًا للأمطار الشديدة، وكنت أشعر ببرد شديد وكانت أسنانى تصطك ببعضها البعض واصطبغت يدى التى أمسكت بها الصنم بصبغة زرقاء كما تسلَّخ كف يدى وتقشر إلى رقائق مبللة فبدا لى أن الصنم قد التهم جسدى، هدأت الأمطار فبدأت أسير بحذر وكانت الكلاب تنبح فى الظلام وانتزعت الرياح القوية سقف أحد البيوت الريفية وأطاحت به إلى المنطقة المجاورة، كان السكان يبكون بأصوات تبعث على الرعب كأن المحكمة قد حكمت عليهم وأدانتهم بأشد العقوبات، أو كأن الله قد انتزع عنهم غطاء حياتهم وأصابهم ببلاء شديد، كانوا يصرخون بقوة كأن آدم وحواء قد خرجا من جنة عدن إلى الأبد، كانت الليلة حزينة مع بكاء الأطفال وانهمار المطر فوق ممتلكاتهم، ولم أستطع فعل أى شيء للمساعدة فواصلت طريقى قاصدًا البيت وأنا أستمع لصوت الرعد المدوى القادم من بعيد وصوت البرق الذى يعكس أضواءه المتوهجة فوق الأشجار الضخمة.

شعرت بالخطر من كل شيء، كان نباح الكلاب شبيهًا بصرير أسنان الأرواح التوَّاقة إلى الانتقام، وبدت جذوع الأشجار وهى تطرقع كأنها على وشك أن تقفز فوقى، وحتى الملابس والثياب التى ترفرف فوق حبل الغسيل بدت قريبة الشبه تمامًا بمدام كوتو بعد أن تحررت من الجسد البشرى، وتوعدت بالانتقام المدمر الأبدى منى لأننى تسببت فى انفصالها عن جسدها، مضيت فى طريق أخرى طويلة ومتشابكة لكى أتجنب مرورى بجوار الحانة، وعندما وصلت البيت كان أبى جالسًا فوق مقعده ذى الأرجل الثلاثة يدخن سيجارة وكان الجهاز الطارد للناموس فوق الطاولة وقد تم إصلاح النافذة المكسورة، أما رائحة الطعام الطازج الشهى فقد جعلت الحجرة أكثر دفئًا.

جاءت أمى حاملة صينية من الطعام وقالت: "لقد جئت فى موعدك بالضبط".

سدَّد أبى نظراته نحوى ثم ضحك وقال: "أوه، لقد هزمتك الأمطار".

أومأت برأسى وأنا أرتعش فقالت أمى: "جفف نفسك".

تركتهما ورحت أغتسل وأجفف نفسى بفوطة أبى ثم عدت وجلست فوق الحصيرة التى لم تكن مفرودة عن آخرها، اشتركت مع أبى وأمى فى تناول الطعام من نفس الطاسة وقد أضاء ضوء الشمعة وجوهنا، وبعد الانتهاء من تناول الطعام تحركت ولففت جسدى فوق الحصيرة دافناً أسرارى داخل صمتى، ونمت كأن شيئاً لم يحدث.

(٨)

كنت خائفًا من غضب مدام كوتو ومن زبائنها فتوقفت بعض الوقت عن الذهاب للحانة، وبعد عودتى من المدرسة كل يوم كنت أتجنب الاقتراب من باب الحانة، ورغم أننى غالبًا ما وجدت باب البيت مغلقًا وجلست خارج الحجرة انتظارًا لأمى – التى تعود متأخرة فى الغالب من السوق – إلا أننى لم أفكر فى دخول الحانة.

كانت المنطقة هادئة فى أوقات الظهيرة وأشعة الشمس الحارة تغمر كل شىء والهواء ساكنًا لا يتحرك، فلم نعد نسمع الأصوات وهى تتناقل من مكان لآخر فساد مزيد من السكون، وهناك عند مقدمة الحى كانت النساء تغفو فوق الرصيف الأسمنتى بعد الانتهاء من أعمالهن المنزلية، وكانت أكوام لبن البودرة قد غرقت بماء المطر فانتشرت مادتها البيضاء السامة فى كل أرجاء الممرات الواسعة عبر قنوات المياه الصغيرة وجداولها، كانت الكلاب تنام بعين واحدة مفتوحة وأخرى مغلقة وهى تحاول أن تطرد الذباب المتكدس فوق أذيالها، وثمة أطفال صغار يلعبون فوق الرمال ويمرحون، أما الأطفال الأكبر فكانوا يغيِّرُون ملابسهم بعد العودة من المدرسة ويستجيبون لإنجاز بعض المشاوير والمهمات التى تكلفهم بها أمهاتهم، خرجوا إلى الشارع فلفحت الشمس الحارقة وجوههم السوداء وغطاهم التراب والعرق، تخللت أذناى نغمات الموسيقى القادمة من بعيد عبر أجهزة الراديو كما سمعت صوت المؤذن وهو يزعق مناديًا للصلاة.

كان المصور ينطلق بسرعة عبر الشارع حاملاً الكاميرا فوق كتفه غير عابىء بحرقة الشمس، ويسارع بالتقاط الصور وهو يحلم بموضوعات مثيرة، كان يعلِّق أحيانًا بعض الصور فى واجهة الأستوديو الزجاجية بعد

تحميضها والانتهاء منها، وغالبًا ما كنا نذهب لرؤية صور الزفاف التى كنـا نرى أصحابها شديدى الغرابة، كانت بعض صور الاحتفال بمناسبة عـودتى فى مقدمة الصور المعروضة وإلى جوارها كانت الصور المثيـرة للحشـود التى تجمعت عندما جاء رجال السياسة باللبن الفاسد، أمـا بقيـة الفاترينـة الزجاجية فكانت لصور النسوة الجريئات وأكوام اللبن وسكان الشارع وهـم يلقون باللبن بعيدًا على الأرض، كان المصور فخورًا جدًا بصوره وعنـدما تجمعنا بالقرب من الفاترينة اندفع ناحيتنا وأبعدنا ثم قال: "لا تلمسوا الفاترينة حتى لا تتسببوا فى إتلاف الصور".

تجمع كثير منا حول فاترينة الأستوديو الخارجية رغم محاولاته الجادة فى إبعادنا وقد أصبحت تلك الفاترينة أول قاعة عرض عامة بالنسـبة لنـا؛ حيث كنا نأتى إليها بعد الظهر من كل يوم أثناء عودتنا من المدرسة لرؤيـة الصور الجديدة التى يعرضها والتى نعرف من خلالها أهم الأحداث وكيفيـة مضايقة فتوات الحزب وقطاع الطرق للنسوة البائعات فى السـوق ومعرفـة عدد المواليد الجدد، لقد كان المصور - حقًا - أول صحيفة محلية بالنسبة لنا أيضًا.

الأطفال هم أول من أظهروا اهتمامًا بتلك الصـور المعروضـة فـى فاترينة الأستوديو، ثم تبعهم الكبار الذين راحوا يتوقفون أمام الفاترينة - أثناء ذهابهم للعمل فى الصباح - لرؤية الصور الجديـدة التـى يعرضـها ذلـك المصور الكادح، كما كانوا يتوقفون أيضًا بعد عودتهم من العمل فى المسـاء ولقد كان المصور دائمًا ما يثير فينا الدهشة ويؤكد كل توقعاتنا حتى أصـبح صديقًا للأطفال، فلم نكن نتردد لحظة فى تحيته إذا ما شاهدناه قادمًـا عبـر الطريق حاملاً الكاميرا وكان بدوره يبتسم ويتظاهر بالتقاط الصور لنـا ثـم يختفى داخل حجرات الأستوديو السرية، نسينا اسمه بعد وقت قصير وأصبح معروفًا لدينا بالمصور.

فى المساء، وبعد الابتعاد عن فاترينة المصور الزجاجية كنت ألعب غالبًا مع الأطفال الآخرين عبر متاهات الشوارع وفى الممرات الممتدة وحول الأكواخ والبيوت وداخل مواقع البناء وفى الغابات، كان العالم كله ملكًا لنا نلعب فيه كما نشاء، وعندما كنت أشعر بالتعب أو الجوع لم أكن أتردد فى طلب بعض الطعام من المصور الذى كان يتذمر أحيانًا لأننى أعمل على إزعاجه، لكنه غالبًا ما كان يقدم لى قطعة من الخبز ويقول: إن أباك لم يدفع ثمن الصور الخاصة به حتى الآن.

قال لى فى يوم آخر بعينين متلألئتين وبصوت تآمرى: "أخبر أباك عنى وسوف أهديك شلنًا إذا دفع أبوك ثمن الصور".

ظل يضايقنى بذلك الأمر حتى أضايق أبى عندما أعود للبيت، ثم راح يهددنى بعدم إطعامى مرة أخرى وعدم التحدث معى إلا بعد أن يدفع أبى ثمن الصور، رأيته ذات يوم فى حالة من الجوع والبؤس وحين بادرت بسؤاله عما حدث خاطبنى بغضب وعنف وانتزع حامل الكاميرا من مكانه وصرخ قائلاً: "لا أحد يدفع ثمن الصور، لا أحد على الإطلاق".

سار خلفى فى الشارع ولقد كان عنيفًا جدا فى ذلك اليوم كما بدا كريهًا وبشعًا من شدة الجوع، وفى لحظة ما شعرت بمدى إحساسه بالمرارة فقررت أن أتجنبه.

اشتد إحساسه بالجوع فلم يعد يقلق نفسه بتغيير الصور داخل الفاترينة كما كان يفعل كل صباح، كما فقد رغبته ومتعته فى رؤية الدهشة التى كانت ترتسم فوق وجوهنا الصغيرة بعد مشاهدتنا للصور الجديدة، وهكذا أصبحت كل الصور قديمة وفقدت ألوانها المشرقة وتجعدت حوافها من كثرة تعرضها لحرارة الشمس القوية فأصابنا حزن غريب، كنا نسمعه فى الليل وهو يهذى متهمًا كل شخص بأنه لا يدفع ثمن الصور، ويصيح قائلاً إن أمثالنا من الناس هم الذين يدفعون الشرفاء إلى الوقوع فى الجريمة والمضى فى طريق الفساد،

أصبحت ملابسه رثة وأطلق لحيته البنية الكثيفة لكن حالة الجوع التي صار يعاني منها لم تستطع أن تؤثر على روحه، ولم ينقطع كل مساء عن التجوال في المكان ملتقطاً الصور بعينيه المشدوهتين ومزاجه السيء.

توقف الأطفال عن التجمع حول فاترينة الصور فكان علينا أن نبتكر ألعابًا أخرى إلى جانب كرة القدم، وذات مساء سددنا الكرة بقوة نحو هدف غير مقصود فتحطمت فاترينة المصور الذي خرج ملوحًا بالمنجل في يده وقد احتقنت عيناه بالجنون وتحركاته بالكسل، وكان يرتعش من الضعف والمرض ثم اقترب من الفاترينة ونظر إلى الدمار الذي لحق بها وقال بلسان مثقل: "لا تلمسوا الفاترينة، سأقتل أي شخص يقترب منها!"

ظلت الكرة داخل الفاترينة بجوار الزجاج المهشم والصور التالفة وكان الكبار – أثناء مرورهم – يهزون رءوسهم باندهاش لذلك الشكل الجديد الغريب الذي بدت عليه الصور داخل الفاترينة، وحين أمطرت السماء كانت الكرة ما تزال داخل الفاترينة فغمرت المياه الصور وانتشرت الحشرات ومختلف أنواع الفطريات حتى أصبح من اليسير شم رائحة العفن، شعرنا بحزن شديد حين فقد المصور حماسه وبراعته في الحرفة التي يجيدها وسقط صريعًا لسيطرة الحمى الشديدة والارتعاش في حجرته الصغيرة، كنا نراه دائمًا بملابس سوداء بالية.

شعرت بحزن شديد لرؤية صوره التالفة؛ فبدأت أضايق أبي وأكرر عليه أن يحاول دفع ثمن الصور لكنه كان يغضب في كل مرة أطلب منه ذلك، فبدأت أحدث أمي في نفس الموضوع لكنها كانت تزداد نحولاً كلما تحدثت معها في ذلك الأمر، وعندئذ توقفت عن الحديث معهما بشأن المصور ونسيت الحزن تمامًا، ولأنني لم أستطع الذهاب إلى حانة مدام كوتو كل يوم بعد الظهر ولا حتى النظر إلى الصور داخل الفاترينة الزجاجية المهشمة بدأت قدماي تؤرقاني من جديد فرحت أستأنف تجوالي في شوارع العالم.

أحيانًا كنت ألعب فى الغابة، وكانت الأرض الجرداء الخالية من الأشجارهى مكانى المفضل، وفى المساء لم تكن الغابة مخيفة رغم أننى غالبًا ما كنت أسمع دقات الطبول الغريبة وذلك الغناء القادم من بعيد وأنين الأشجار قبل وقوعها، كما كنت أسمع صوت الفئوس وآلات الحفر من مسافة بعيدة، كانت الغابة فى كل يوم تتقلص شيئًا فشيئًا وقد قطعوا جذوع الأشجار التى أعرفها جيدًا، ولم يتبق منها سوى أصلها والعرق المتصبب منها.

رحت أهيم عبر الغابة وأجمع الأقفال الصدئة وبيض الطيور الأخضر والقلادات المهجورة والعرائس التى يستخدمونها فى ممارسة الطقوس والشعائر، وأحيانًا كنت أقف لمشاهدة الرجال وهم يقطعون الأشجار وفى أحيان أخرى لمشاهدة شركات البناء وهى ترصف الطرقات، انتهزت تلك الفرصة ورحت أجمع النقود مقابل أداء بعض المهمات لصالح العمال، أو عمل بعض المشاوير للفتيات الصغيرات وبعض النسوة المتزوجات اللاتى لا يتحدثن كثيرًا رغم أسئلتى المتلاحقة التى كانت إجاباتهن عليها غير شافية على الدوام، كان شراء الطعام المطهى والمثلجات من المهام التى قمت بها أيضًا مقابل قليل من البنسات التى اشتريت بها خبزًا ورقائق جوزة الكولا المحمرة وماءً مثلجًا لنفسى، ثم ادخرت بعضًا من النقود وأعطيته للمصور ثمنًا للصور الخاصة بنا، لكنه عندما شاهد المبلغ الذى قدمته له انتابته رعشة من الحمى وراح ينظر إلى بإمعان ظنًا منه بأننى أخدعه وأسخر منه.

كانت الأيام دائمًا ثقيلة وطويلة فيما عدا تلك التى كنت ألعب فيها أو أمارس فيها تجوالى، شوارع ممتدة وطويلة ومتعرجة كنت أضل طريقى فيها بعد ساعات ولا أستطيع العودة إلا بعد عدد أكثر من الساعات، ويبدو أننى بدأت أستمتع بكونى تائهًا، كنت قد غادرت منطقتنا تمامًا أثناء تجوالى فى الشوارع وصرت بعيدًا عن أكواخها وبيوتها الكثيرة العشوائية ورحت أتتبع طريق الحافلات التى تقل العمال إلى وسط المدينة، كانت النسوة يعملن فى

شواء الذرة على جانبى الطرق، وفى حانات النبيذ والمطاعم كان الرجال يبتلعون حبات (الإيبا) ويشيرون إلى بعضهم البعض بغضب وهم يتناقشون فى أمور السياسة، وأمام دكان الحلاق كان هناك مكتب الرهان الذى خرج منه رجل يرتدى بدلة فرنسية ويحيط امرأة جميلة بكلتا ذراعيه، بدأت فى التحرك نحوه لكنه لم يتعرف على وعندما صعد إلى السيارة بصحبة المرأة الجميلة ابتسم كلاهما فى ذلك اليوم الحار، ثم انطلق محرك السيارة وعندئذ استطعت أن أشاهد مستقبل أبى.

واصلت سيرى حتى اقتربت من جاراج السيارات وكانت الحركة صاخبة فى كل مكان؛ فها هى الشاحنات والحافلات ووسائل النقل المختلفة تعود للوراء ثم تتقدم للأمام لتتوقف فى مكانها المقصود، والركاب المتوجهون إلى أعمالهم يتسلقون الحافلات بصعوبة وسط الزحام فينهال عليهم السائقون بالشتائم، وراكبو الدراجات يدقّون أجراسهم والتجار ينادون على بضاعتهم والزبائن وهم يساومون بصوت عال على الأسعار، كان الزحام شديدًا والصخب زاعقًا وكان من العسير أن تجد شخصًا واحدًا لا يتحرك أو يصيح.

كانت كل الأماكن صاخبة وتموج بالحركة، وعندما واصلت سيرى شاهدت كثيرًا من الرجال الحمَّالين وهم يحملون الزكائب الضخمة كأنهم ينفذون أحكامًا صدرت ضدهم أو كأنهم يعملون فى ظل نظام عبودى مطلق، كانوا يترنحون بفعل أجولة الملح والأسمنت وأكياس الجارى الكبيرة والثقيلة جدًا التى حطمت رءوسهم وضغطت على رقابهم حتى تورمت عظام وجوههم وكادت أن تنفجر، كانت تعبيرات وجوههم توحى بأنهم ليسوا من صنف البشر وكنت أنظر إليهم وهم يترنحون تحت وطأة الأحمال الثقيلة ولا يستطيعون مقاومة الركوع، بينما يحاولون الاستمرار فى سيرهم والعرق يتصبب غزيرًا من كل جزء فى أجسادهم، كانت ملابسهم وسراويلهم مبللة بالعرق وقد اندفع أحدهم أمامى غير قادر على التحكم فى نفسه وهو يتمايل ويرتجف من ثقل أحماله الفظيعة.

توجهت ناحية الشاحنات التى تأتى بحمولتها من أقاليم البلد البعيدة، وكان الحمالون يصطفون فى طابور عند مؤخرة الشاحنات المفتوحة فى انتظار أدوارهم وهم يلفون خرقًا بالية من القماش حول جباههم، ورحت أنظر إليهم وهم يحملون الأكياس الثقيلة ويتعثرون وسط الزحام، عند مؤخرة الشاحنات كان يرفع رجلان الزكائب والأكياس الثقيلة ويضعانها فوق رءوس الحمالين الذين كان يرتجف بعضهم لمجرد رؤية ظلال الزكائب وينقلب البعض الآخر على الأرض من جراء الحمولة الثقيلة، وكان عدد قليل منهم يتجه نحو الحمولة ويقلبها يمينًا ويسارًا لتقدير ثقلها ومعاينة الجهد المطلوب لرفعها قبل البدء فى لحظة الرفع العسيرة، لكن واحدًا من بينهم كان مختلفًا وضخمًا وذا عضلات منتفخة وله وجه كريه يتسم بالعنف كما كان أحول العينين وكانوا يلقبونه بعملاق الجاراج، ساورنى الشك من تراكم كل تلك الحمولة الثقيلة التى رفعوها فوق رأسه غير أنه لم يهتز؛ بل راح يطلق أصواتًا قوية مبهمة ويصفق بكلتا ذراعيه ويقول: المزيد، المزيد.

رفعوا الزكيبة الثانية فوق رأسه فاختفت رقبته تمامًا وغاصت قدماه الكبيرتان فى طين الشارع.

قال أحد الحمالين من خلفه: "إنه مجنون".

وقال آخر: "إنه سكران".

اتجه ناحيتهما بفمه الملتوى ووجهه الصارم وصاح فيهما بصوت مخنوق: "إن أباك هو المجنون أما أنت فإن أمك هى السكرانة".

ثم عاد إلى الرجلين عند مؤخرة الشاحنة وأشار لهما مرة أخرى وهو يصفق بذراعيه بقوة وعنف كما لو أنه كان يحاول الهجوم عليهما، فانسحبا للخلف فى فزع لكنه صرخ قائلاً: المزيد، المزيد.

قال واحد من الرجلين: يكفى ذلك.

وقال الآخر: هل تعتقد أننا من رجال السياسة؟

أصبحت إشاراته لهما أكثر عنفًا فقال واحد من الحمالين وهو واقف خلفه: إنه ليس مجنونًا لكنه فقير، هذا كل ما فى الأمر.

أطلق العملاق صرخة مدوية وقال: المزيد، المزيد.

قال له أحد الرجلين: انظر، ذلك كاف بالنسبة لك فلتذهب الآن.

أجاب وقد اختفى صوته: المزيد، المزيد.

رفع الرجلان زكيبة أخرى ووضعاها فوق رأسه فانطلق صوت غير عادى من أردافه وتلاشت رأسه تمامًا دون أن يتوقف الصوت الصادر منه، ثم راح جسده يترنح يمينًا ويسارًا وعندئذ فرَّ أولئك الواقفون خلفه فى انتظار أدوارهم وراح هو يترنح ويتمايل فى كل اتجاه ويقلب طاولات السمك الطازج وصناديق البرتقال المرتبة ويطيح ببضائع التجار ويدوس بقدميه فوق أحواض القواقع، حتى صرخت النساء فيه وراحت تشده من بنطاله لكنه ظل يترنح ويحاول استعادة اتزانه، وقف على قدميه بأعجوبة وأطلق صوتًا كصوت الخنزير ثم أقسم وراح يتمتم قائلاً بصوت هامس: المزيد، المزيد.

عندما مر بجوارى لاحظت أن عينيه عاديتان وليس بهما حول كما تراءى لى؛ وإنما هى مجرد كدمة فوقهما كما لاحظت أن عضلاته ترتجف بطريقة يعجز عن التحكم فيها وعرفت أنه يئن بشدة، وحين شممت رائحة عرقه الغريب وأدركت مدى الظلم والاضطهاد الذى يعانى منه انفجرت فجأة فى البكاء.

تجمع الناس حول المكان وتوقفوا عن كل ما يفعلون لرؤية إذا ما كان ذلك الرجل – الذى لم يكن عملاقًا حقيقيًا – سينجح فى التعامل مع ذلك الحمل الثقيل، راحوا يراقبون مشهد الرجل وهو جاثم بجسده البدين فوق الأرض وكانت هى المرة الأولى التى أشاهد فيها الناس فى حالة من

السكون، وعندما بدأ الرجل يتمايل ويترنح وبعد أن وصل إلى حيث من المفترض أن يفرغ حمولته لم يكن القائمون على التفريغ موجودين فاستدار ونادى عليهم، لكنهم جاءوا متأخرين جدًا فألقى فجأة بالزكائب الثلاث الضخمة فوق الأرض مرة واحدة حيث سقطت واحدة منهم مفتوحة، لكنه وقف ساكنًا تمامًا للحظة وهو ينظر باندهاش بينما راح الناس يحيونه ويتغنون بألقابه ثم سقط بحركة بطيئة فوق الزكائب، ولم يستطع التحرك من مكانه حتى سحبوه إلى جانب الطريق وأنعشوه بدلو من الماء وكأس من النبيذ.

نهض بعد لحظة قصيرة لكن ركبتيه كانتا تتخبطان ثم عاد إلى الشاحنة وأخذ على عاتقه حمل زكيبتين فقط، لم يتوقف الناس عن النظر إليه لرؤية ما إذا كان باستطاعته عمل شيء خارق للعادة، غير أنه بعد أدوار قليلة من الحمل والتفريغ لم يفعل شيئًا سوى ابتلاع كمية كبيرة من البطاطا المهروسة، غادر المشاهدون المكان لاستئناف أعمالهم فخسروا مشاهدة رقصته الإسبانية المرتجلة مع إحدى السيدات، وحين فر هاربًا تعقبته السيدة وهى تلوح بمقلاة التحمير.

كان جاراج الشاحنات هو أكثر الأماكن المرتبكة التى رأيتها فى حياتى؛ فالناس يصيحون من كل اتجاه وأصوات عربات النقل تدوى والقاطرات تصدر أزيزًا حادًا وأصوات الموسيقى تنطلق من محلات التسجيل ومن الحانات والمقاهى، كما كانت محركات السيارات تدوى والنساء تصرخ ذعرًا من اللصوص والنشالين بينما يتصارع الرجال لحمل أمتعة المسافرين، عبر الطريق كانت ثمة امرأة تضرب رجلاً مجنونًا بالمكنسة ولقد أبصرت التجار من خلفى وهم يمسكون بأحد النشالين، أما الأولاد فقد كانوا منتشرين فى كل مكان بعيونهم البريئة وبطونهم الخاوية، وخارج السقيفة المنهارة كان يجلس العجلاتى العجوز فوق المقعد يدخن سيجارة ويراقب المشهد

المضطرب، تعطلت إحدى الحافلات فنزل الركاب لدفعها، وثمة امرأة بدينة وغنية ترتدى ملابس غالية الثمن كانت تصدر أوامرها إلى كثير من الرجال حولها، كانت امرأة ذات نفوذ وكان وجهها ينم عن احتقار شديد وهى تأمر الرجال بإخراج أمتعتها من شنطة التاكسى الخلفية.

كان يوجد الكثير لرؤيته والكثير لسماعه، أصوات الحافلات والشاحنات المدوية وأصوات الناس المتداخلة شدًا لانتباه القادمين أو الذاهبين إما للبيع أو لحمل الأمتعة، كل شىء كان يحدث فى حالة من الهياج والصخب حتى أصبح من المستحيل أن تسير فى خط مستقيم، وظللت ألتقى بالناس مصادفة وأنا أتعثر فى حفر من الطين وكومات من الزبالة المنتشرة فوق الأرض، لكننى - رغم الزحام - حاولت أن أراقب شيئًا واحدًا هو تلك الفتاة وهى تنظف مؤخرة الطفل عند جانب الطريق، وعندما زعق بوق السيارة بقوة خلفى شعرت بفزع ورحت أحترس من كل السيارات المتحركة بالقرب منى، التى بدت كأنها تحاول ببطء أن تدهسنى، ولقد سمعت شخصًا ما يصيح بصوت عال: "ابتعد عن طريقى أيها الفأر".

أصابنى الدوار وشعرت بالجوع والارتباك ولم يكن أى شخص يعير انتباهًا لأى شخص آخر.

وفى أحد جانبى الشارع كان رجل ما يحزم نفسه فجأة بصندوق التجار القصديرى، وثمة امرأة فى الجانب الآخر تساوم زبونًا على ثمن الخبز بينما كان طفلها يزحف تحت الشاحنة الواقفة فى مكانها، وعندما توجهت ناحية الشاحنة لإخراج الطفل من تحتها انطلقت صرخة زاعقة ومدوية من حولى، كانت المرأة قد أدركت للتو ضياع طفلها وفى الحال تجمعت نساء أخريات حول المكان على إثر صرختها الحادة؛ فأمسكن بأثدائهن ورحن يحركن الهواء بأياديهن وحين بدأ سائق الشاحنة فى تشغيلها صرخ الطفل واندفعت النسوة ناحيتى ثم نجحن فى إبعادى عن الطريق فيما نجح بعضهن فى

للدخول تحت الشاحنة، بينما هجم بعضهن الآخر على السائق لإجباره على عدم تشغيل مركبته المزعجة أمام أكشاكهن لكن السائق لم يمتثل وراح يدير محرك الشاحنة بصوت عال ويقذفهن بالشتائم، أصبحت النسوة مرتبكات جدًا لدرجة أنهن نسين الطفل الذى جئن لإنقاذه، وكنت أنا فى تلك اللحظة مغمورًا بالطين والقذارة فذهبت بعيدًا للبحث عن مضخة للمياه.

لم أستطع العثور على أى مضخة للمياه فذهبت إلى حيث يقوم الرجال بإنزال زكائب الأسمنت من فوق القاطرة، فرأيت مرة أخرى أعدادًا كثيرة من الحمالين، كان الأسمنت يغطى وجوههم وحواجبهم المتعرقة ويكسو شعر رءوسهم، ولقد تساءلت بينى وبين نفسى عن الكيفية التى يمشطون بها شعرهم كل صباح، كان من بين الحمالين بعض الأولاد الذين هم أطول منى قليلاً فرحت أنظر إليهم وهم يترنحون تحت زكائب الأسمنت ويتمايلون قبل أن يلقوا بها فوق الأرض ويعودون لحمل زكائب أخرى عدة مرات، حتى ينادى رئيسهم معلنًا عن وقت الراحة حيث يذهبون جميعًا لغسل أياديهم والالتفاف حول الطعام وتناوله بنهم شديد.

عندما استأنفوا عملهم مرة أخرى لاحظت أن من بينهم رجلاً عجوزًا ومعه ابنه وأحفاده الذين لا يكبروننى بكثير، كان أحد الأحفاد يشاركهم العمل لأول مرة فى ذلك اليوم وظل يشكو من رقبته وظهره ومن الحمولة الثقيلة، لكن أباه لم يطلب منه التوقف وقال له: "يجب أن تتعلم كيف تكون رجلاً".

ثم أضاف وهو يشير ناحيتى: هناك أولاد أصغر منك يعدون مفخرة لعائلاتهم.

خفت أن يشاهدنى رئيس العمال ويأمرنى بحمل زكائب الأسمنت فأسرعت بالجرى بحثًا عن مضخة للمياه حتى وصلت إلى شاحنة أخرى كان الرجال يفرغون منها زكائب الملح، نظرت إلى الصفائح المعدنية التى تغطى الشاحنة عندما سمعت احتجاجات أحد الأصوات المألوفة، سمعت الصوت

ورحت أبحث عن الوجه الصادر منه ذلك الصوت، وعندئذ شاهدت أبى بين الحمالين ووجدت صعوبة فى التعرف عليه حيث بدا وكأنــه يرتــدى قناعًــا مصنوعًا من الأسمنت وكان شعره أبيض اللون، كان عاريًا تمامًــا إلا مــن بنطال قصير رث ووسخ لم أشاهده من قبل، كانوا يرفعون زكيبتين من الملح فوق رأسه فيصرخ قائلاً: "أنقذنى يا رب".

ترنح جسده فسقطت إحدى الزكائب فوق الشاحنة وحينئذ لعن الرجــال – الذين يحملون – أجداده مما سبب لى جرحًا بليغًا، وظل أبى ينظر بدهشة وخوف والعرق المختلط بالملح يتصبب من عينيه، شكا الرجال مــن كونــه يسبب لهم كثيرًا من المشاكل وقالوا إنه يتصرف كالنساء وإذا لم يســتطع أن يحمل زكائب الملح فعليه أن يزحف عائدًا إلى سرير زوجته، عندما وضعوا زكيبة الملح الثانية فوق رأسه ظل أبى يترنح كالملاكم الذى يتلقى وابلاً مــن الضربات القوية لكنه للحظة وقف صامدًا تمامًا ثم عاد ليتــرنح مــن جديــد وكانت عضلاته تنتفض بطريقة غريبة، كانت الزكائب ضخمة جدًا وممتلئــة عن آخرها كأنها صخور ضخمة، وكان الملح يتساقط من إحداها فوق كتــف أبى.

قال أحد الرجال القائمين على التحميل: "تحرّك، هيا للأمام".

وقال آخر: "أم أنك تريد زكيبة أخرى؟"

اعتقدت فى لحظة ما أن أبى سوف يخضع للتحدى وعندئذ قــد يقــع ضحية لتلك الزكائب الثقيلة؛ فلم أستطع أن أتحمل الفكرة وصرخت بصــوت ضعيف وسط الزحام وبين تلك الحشود المضطربة من الناس: لا يا أبى.

أعين عدة صوبت نظراتها نحوى وتمايل أبى فى اتجاهــات مختلفــة محاولاً تحديد مصدر والصرخة مكانها، وعندما وجد نفسه قبالتى توقف وظل وجهه ينتفض وعضلات رقبته ترتجف وكأنه كان يعانى من شــد عضــلى، وعندئذ قال أحد الحمالين: "تحرك أيها الرجل!".

كان الملح يتساقط فوق كتفه والدموع تنهمر من عينيه ويرتسم الخجل فوق ملامح وجهه وهو يترنح أمامى حتى كاد أن يسحقنى بقدميه الكبيرتين، لكنه تظاهر بعدم رؤيتى وراح يشق طريقه بجهد كبير محاولاً رفع الحمولة للحفاظ على كرامته وهو يتمايل تحت وطأة ثقلها حتى لم يقدر على الثبات، فجرى الأطفال وتبعثرت النساء من أمامه كما يفعلون عند رؤيتهم لحيوان مجنون، تسلل العرق إلى ظهره وكنت أقتفى أثره من بعيد وقد أصابنى حزن عميق لرؤية تلك الجروح فوق ذراعيه، حاول أن يستدير عند أحد الأركان فتعثر، ووقع ثم عاد إلى توازنه لكن جسده كان يرتعش وعندئذ انزلق ووقع فى الطين والوسخ الذى يملأ الطريق، وسقطت زكائب الملح ببطء من فوق رأسه.

فكرت وأنا أغلق عينى وأصرخ بأنهم سوف يسحقونه، لكننى بعد أن فتحت عينى شاهدت الزكائب فى الطين وقد تدحرجت إحداها نحو البالوعة بينما ظل أبى فوق الأرض لا يتحرك وهو مغطى تمامًا بالطين كأنه ميت وكان الدم المختلط بأوساخ الأرض يقطر من ظهره، جاء حينئذ رئيس العمال وجرى نحوه وهو يصيح كما مر بجواره سائق الشاحنة وهو يتمتم فنهض أبى فجأة وانزلق وتدحرج فى الطين فاقدًا السيطرة على قدميه والقدرة على الوقوف مرة أخرى، ثم راح يجرى فى اتجاهين مختلفين قبل أن يستطيع تصويب نظراته باتجاه الطريق الصحيحة، وكانت الشاحنة قد ضربته فى جسده تقريبًا غير أنه لم يتوقف عن الجرى، استطعت أن أشاهده وهو يفر ويتلاشى وسط متاهات السيارات والحافلات والشاحنات الكثيرة وبين الأكشاك، حتى اختفى فى سوق الجاراج المزدحم بينما راح الناس يجرون خلفه محاولين الإمساك به بعد أن اعتقدوا بأنه لص.

لم أشأ أن أبقى فى مكانى ولم أرغب فى العثور على مضخة المياه، فمضيت نحو البيت بخطوات مترددة وكنت حزينًا بلا حدود، لقد خانتنى تجولاتى وخاننى ترحالى عبر الطرقات أخيرًا، لأننى – ولأول مرة فى حياتى – أرى وأعرف واحدًا من المصادر السرية لبؤس أبى.

(٩)

وصلت إلى البيت وجلست بالخارج ولم ألعب مع أى واحد من الأطفال، وكنت أشعر بتعاسة شديدة حتى أننى لم أنتبه لضوء النهار وهو يزول معلنًا عن بداية الليل الذى انتشر معه ظهور الناموس والذباب، كانت المصابيح مضاءة داخل الحجرات، وكان رجال الحى يتحدثون فى أمور السياسة وعن حزب الفقراء الذى نال تأييدًا كبيرًا حين أعلن عن رفضه وإدانته لما فعله اللبن الفاسد بالناس.

عادت أمى فى الظلام وكان الإجهاد باديًا فوق وجهها الأسود، دخلت الحجرة بصعوبة وهى تجرجر قدميها أنزلت بضاعتها من فوق رأسها، ثم ألقت بنفسها فوق السرير ورقدت غير قادرة على الحركة وسرعان ما راحت فى النوم، سخنت الطعام ونظفت الحجرة وحين استيقظت أمى بدت فى حال أفضل فجلست وتناولت الطعام ثم تمددت فوق السرير بينما جلست أنا فوق مقعد أبى موجهًا بصرى نحو الباب، كانت أمى صامتة لا تتكلم وحين أخبرتها بأننى رأيت أبى بدأ القلق يساورها بسبب تجوالى الدائم فى الشوارع، غير أنها كانت تشعر بتعب شديد فلم تستطع أن تناقشنى فى الأمر وظلت مستلقية فوق السرير وهى تتمتم بنغمات قديمة رتيبة عن صعوبة الحياة، رحت بدورى أستمع إليها باهتمام شديد وقد بدأت أفهم شيئًا مما تقول ثم ظل كلانا صامتًا حتى وقت متأخر جدًا فى انتظار عودة أبى.

سألتنى أخيرًا وبعد صمت طويل: "ماذا قال والدك عندما رأيته؟"

- لا شىء.
- لا شىء!! كيف؟
- لم يقل شيئًا.

- أنت لم تشاهده إذن!
- لقد شاهدته.
- أين؟
- فى الجاراج.

طال انتظارنا حتى بدأ الفجر يضىء السماء وقد غلبنا النعاس، وبدأ القلق يساور أمى حين سألتنى: "ماذا حدث له؟"

قلت: "لا أعرف".

قالت وهى تبكى: "هل أنت متأكد من أنك رأيته؟"

- نعم.
- هل كان على ما يرام؟ وهل تحدث معك؟ وماذا قال؟ أتمنى ألا يكون قد أصابه مكروه وإلا ماذا سأفعل إذا أصابه شىء؟ كيف سأعيش ومن سيعتنى بك؟

ظلت هكذا تتحدث وتتساءل وتتمتم بأشياء غريبة وهى تتنهد تارة وتتشنج وتبكى تارة أخرى حتى رحت فى نوم عميق وأنا جالس فوق المقعد، ولما بدأت صيحات الدجاج تنطلق معلنة عن بداية الفجر نهضت أمى من فوق السرير وغسلت وجهها استعدادًا للخروج والبحث عن أبى فى كل أقسام الشرطة والمستشفيات لكنها ما كادت تخرج حتى اصطدمت بأبى عند الباب، كان شكل أبى مروعًا وعيناه حمراوتين ووجهه شاحبًا وكانت روحه بائسة، فبدا كأنه وحش يعانى من ألم حاد كما كان حاجباه غارقين فى الأسمنت وبودرة البطاطا وكان شعر ذقنه كثيفًا، كان أبى فى حال مزرية وكانت ملابسه قذرة فعرفت على الفور بأنه كان يطوف الشوارع طوال الليل، لم يستطع أن يتحمل نظراتى إليه فراح يتجنبنى لكن أمى اندفعت ناحيته ولفت ذراعيها حول رقبته وقالت: "أين كنت يا زوجى، كنا قلقين..."

تذمَّر أبى ودفعها بعيدًا عنه ثم قال: "لا تسألينى عن أى شىء".

تحرك من مكانه بصعوبة وصعد فوق السرير الذى تلطَّخ بالطين الجاف وكان ينظر إلى كل شىء باندهاش ولامبالاة، لكن أمى أحاطته بعناية كبيرة وحاولت تلبية احتياجاته وسارعت بتجهيز الطعام الذى لم يتناول منه شيئًا، وحين راحت أمى تغلى له الماء كى يستحم لم يتحرك من مكانه فراحت تتحسسه برقة غير أن أبى انفجر فيها قائلاً: "لا تجلبى مزيدًا من المتاعب أيتها المرأة ولا تسببى لى القلق!"

- أنا لا أريد أن...
- اتركينى بمفردى! ألا يستطيع الرجل أن يفعل ما يشاء بدون إزعاج المرأة؟ يحق لى أن أفعل ما أريد، لقد بقيت بالخارج طوال الليل فهل تعتقدين بأننى لم أكن أفعل شيئًا؟ لقد كنت أفكر! هل تسمعين؟ كنت أفكر! لذلك لا تعملى على إزعاجى ومضايقتى كأننى كنت فى أحضان امرأة أخرى...
- أنا لم أقل بأنك كنت...

فى تلك اللحظة فقد أبى أعصابه وراح فى نوبة غضب شديد، ثم بعثر أطباق الطعام وقذف بالمائدة بعيدًا وسحب مفرش السرير وألقى به بطريقة عنيفة فى فضاء الحجرة، سقط المفرش فوقى وغطى وجهى ولم أجرؤ على نزعه من فوق رأسى قبل أن يهدأ أبى، صرخت أمى لكنها سرعان ما توقفت على إثر ضربات أبى المتتالية فوق رأسها وهزها ودفعها ثم استسلمت أخيرًا لغضبه الجامح، نهضت واندفعت نحو أبى لكنه دفعنى جانبًا فوقعت فوق حذائه وأصابنى ألم فى مؤخرتى وظللت هكذا دون أن أتحرك، أوشك أبى على توجيه صفعة قوية إلى أمى لكنه توقف فجأة وسارع باحتضانها ولف ذراعيه حولها وهى تبكى، وراح يهز كتفيها وهو يرتجف ثم صعدا معًا إلى السرير وظلا متعانقين بلا حركة مدة طويلة لكنهما كانا مرتبكين، استطعت

أن أسمع صياح الديكة وصراخ الأطفال بالخارج، وكان سكان الحى يستعدون للذهاب إلى أعمالهم وأجراس الكنائس الجديدة تعلن عن بداية يوم جديد وصوت المؤذن يخترق الفجر مناديًا للصلاة، وعندئذ ظل أبى يردد: "اغفرى لى يا زوجتى، سامحينى".

بكت أمى وبدت كأنها تبتهل وهى ترتعش وتردد قائلة: "زوجى العزيز، لقد كنت قلقة عليك وحسب، اغفر لى".

نهضت وخرجت من الحجرة متوجهًا إلى عتبة الباب وغلبنى النوم فوق الرصيف الأسمنتى، حتى جاءت أمى وأيقظتنى وعندما عدت إلى الحجرة كان أبى نائمًا فوق السرير بفم مفتوح وأنف متوهج، وكانت ملامح الكرب مرتسمة بوضوح فوق جبهته المتجعدة.

رقدت فوق الحصيرة ولم أذهب للمدرسة فى ذلك اليوم وظلت أمى راقدة فوق السرير مع أبى حتى وقت متأخر من بعد الظهر وبعد ذلك ذهبت إلى السوق، حين استيقظت كان أبى لا يزال نائمًا، لقد استسلم لنوم عميق محتضنًا معاناته التى بدت واضحة فوق وجهه.

فى المساء ذاته عادت شاحنة رجال السياسة الأشرار؛ فراح أطفال الحى ونساؤه ورجاله العاطلون عن العمل يذرعون المكان جيئة وذهابًا كما لو أن شيئًا مروعًا كان على وشك الحدوث، ازدحمت الشوارع لكننى اخترقت ذلك الزحام ومضيت فى طريقى قاصدًا أستوديو المصور حيث شاهدت شاحنة رجال السياسة الذين وزعوا السم علينا، كانوا يتحدثون بصوت عال مشوب بالعاطفة عبر مكبرات الصوت وكنا نستمع لأصحاب اللبن الفاسد بهدوء وهم يدينون الحزب الآخر ويحملونه مسئولية اللبن الفاسد، كنا نستمع إليهم وهم يدافعون عن أنفسهم ويدينون بشدة ما حدث حتى قالوا: إن منافسينا من حزب الفقراء هم الذين فعلوا ذلك بعد أن تظاهروا بأنهم نحن.

ثم أعلنت مكبرات الصوت مدوية: "إنهم هم المسئولون عن اللبن ولسنا نحن، إنهم يريدون تشويه سمعتنا".

عند مؤخرة الشاحنة شاهدنا نفس الأشخاص الذين شاهدناهم فى المرة الأولى فاكتشفنا زيف ادعاءاتهم، خاصة بعد أن تعرفنا عليهم جميعًا وكانوا يحملون هذه المرة أكياس الجارى لكن عددهم كان متزايدًا، وكانوا يحملون السياط والهراوات مع أكياس الجارى حتى بدوا كأنهم يقدمون الصدقات ويفعلون الخير وهم مستعدون للحرب فى نفس الوقت.

أعلن رجال السياسة بقوة مؤكدين: "نحن أصدقاؤكم وسوف نمدكم بالكهرباء والطرق الممهدة واللبن الطازج".

تجمهر الناس حول الشاحنة واندفع المصور بحركة سريعة حاملاً الكاميرا وبدا أنه قد شفى تمامًا من الجوع والحمى، بدأ الفتوات فى توزيع أكياس الجارى غير أن أحدًا لم يتقدم لتسلم أى شىء، فقد كان الناس يتجمعون حول الشاحنة فى هدوء وصمت وكأنهم أرادوا توصيل رسالة ما وكان شىء ما ينذر بالسوء مختبئًا داخل صمتهم.

أعلنوا عبر الميكروفون قائلين: "فلتثقوا بنا وبقائدنا وبالجارى الذى نقدمه لكم!، إن حزبنا يؤمن بالمشاركة فى تقسيم الجارى المحلى و..."

صاح شخص ما من وسط الزحام قائلاً: "كذابون!".

وقال آخر: "لصوص!".

وأضاف ثالث: "مفسدون!".

ثم قال رابع: "قتلة ومجرمون!".

انطلقت الأصوات الأربعة مدوية فى الفضاء حتى تلاشى صوت الميكروفون أمام صرخاتهم، وفقد الرجل الذى كان يبشر بالوعود الجميلة

اتزانه ثم راح يتمتم بكلام غير مفهوم وظلت تنطلق من الميكروفون أصوات عالية مليئة بالذعر، تزايد عدد الناس حول الشاحنة وقد التزموا الصمت مرة أخرى وراحوا يتتبعون الشاحنة وهى تسير دون أن يفقدوا هدوءهم وصمتهم.

كان الغيظ مرتسمًا فوق وجوه النسوة وكانت ملامح الرجال تنذر بقدوم الرعد عندما قفز فتوات الحزب من فوق الشاحنة وقال أحدهم: "من الذى قال إننا لصوص؟"

لم يجب أحد فوقعت عينا أحدهم على المصور الذى كان من اليسير رؤيته بين الزحام وهو يحمل الكاميرا، وحين راح يتحرك باتجاهه كان أحدهم يصرخ فى مكبر الصوت قائلاً: "نحن أصدقاؤكم".

ظل يردد نفس الكلمات فى محاولة لكسب الناس وإثارة عواطفهم، وفى نفس تلك اللحظة أمسك الفتوة بالمصور وسدد له لكمة قوية حتى تدفق النزيف من أنفه، لم يتحرك أحد وحين رفع الفتوة قبضته الضخمة مرة أخرى أحنى المصور رأسه بسرعة ودسها بين الزحام وهو يصرخ، بينما كان الرجال يواصلون توزيع أكياس الجارى والرجل يواصل استعطاف الناس والمناداة بوعوده الكاذبة، ثم فجأة ضرب أحد الأشخاص نافذة الشاحنة بحجر ضربة قوية فتفجَّر الناس بالعنف والغضب وراحت أياد كثيرة تتشبث بالشاحنة، كما أمسك أحدهم بالرجل من رأسه فانتابه الذعر وراح يصرخ عبر الميكروفون، بدأ السائق فى تشغيل المحرك فاصطدمت امرأة بالشاحنة وهى تتحرك فسارع المصور بتسجيل تلك اللقطة، صرخت المرأة وألقى الرجال الحجارة بقوة فحطموا نوافذ الشاحنة الجانبية والزجاج الأمامى، واندفع الحشد نحو مقدمة الشاحنة لمنعها من التحرك لكن الفتوات قفزوا من فوق الشاحنة وراحوا يجلدون الناس بينما انتهز المصور الفرصة وظل يلتقط الصور بشغف شديد، واصل الناس إلقاء الحجارة من كل اتجاه حتى نفدت الحجارة تمامًا، وعندئذ راحوا يقذفون بالصخور صوب الرجال الذين

يوزعون الجارى، صاح الرجال بعد أن نزفت وجوههم بالدماء فـراح أحـد رجال الحزب يتوسل طالبًا الهدوء، غير أن شخصًا ما من بين الزحام صرخ قائلاً: ألقوهم بالحجارة.

وقال آخر: "أحرقوا الشاحنة!".

ظل الفتوات يضربون الناس بالسياط حتى اندفع ناحيتهم سيل جـارف من الرجال فاختفوا فجأة، وعندما عادوا للظهور مرة أخرى كانوا شبه عرايا، حملت النساء الراغبات فى الانتقام الحطب وألواح الخشب فوق رءوسـهن، وثمة امرأة صغيرة لا يزال أطفالها الثلاثة يعانون من التسـمم قـد جـاءت مسرعة من بيتها وصاحت: "أفسحوا لى الطريق فأنا قادمة لأصـب المـاء المغلى فوق رءوسهم".

أفسحوا لها الطريق أفرغت إناء الماء المغلى فـوق رءوس الفتـوات المختبئين عند مؤخرة الشاحنة، صرخوا وتفرقوا فى كل اتجاه وهم يتخبطون فى أكياس الجارى ويقعون فوق الأجساد الغاضبة، وعنـدما وقعـوا علـى الأرض راح كل الناس يجلدونهم بالسياط والعصى فلاذوا بالفرار لكن الناس ظلوا يتعقبونهم ويلقون عليهم الحجارة، جرى الفتوات بعيدًا وهـم ينزفـون ويتوسلون ويطلبون التوقف لكن أحدًا لم يستمع إليهم وظلت الحجارة تتعقبهم حتى تلطخوا بالدم تمامًا، هربوا باتجاه المسطحات الطينية والمستنقعات لكـن جماهيرًا غفيرة من الناس راحت تجرى خلفهم؛ فراحوا يتقـدمون بصـعوبة وسط الأوحال والبرك والمياه العفنة ثم اختفوا فى الغابات الموحشة، وعندما عاد جمع الناس الغفير بعد ملاحقتهم لم يكن الغضب قد فارقهم.

لم يكن موجودًا بالشاحنة سوى السائق ولقد أثار العنف شـهية النـاس فبدأنا فى ضرب الشاحنة وتكسيرها بقضيب معدنى وبالحطب، لكن الشـاحنة لم تصرخ أو تتمتم ولم تلعن أحدا، تجمعنا وبذلنا كل طاقاتنا ورفعنا الشـاحنة معًا حتى قلبناها علـى أحـد جوانبهـا، وعندئـذ خـرج السـائق متـرددًا

كالصرصور، وكان هو الوحيد الذى هرب دون أن يتلقى الضربات، ذهب السائق فورًا إلى حانة مدام كوتو حيث الملجأ الوحيد الآمن.

ظلت الشاحنة مقلوبة وظل الناس أثناء الليل يواصلون التعبير عن غضبهم العقيم بضرب الشاحنة بين حين وآخر دون أن يتوقفوا رغم قدوم سيارة رجال الشرطة التى أغلقت الطريق أمامهم، كانوا مسلحين بالبنادق والهراوات، وما أن وصلوا حتى تحول الغضب الكامن إلى جحيم فألقوا بالجمرات المحترقة فوق خزان الوقود مما جعل السماء فى الليل تتوهج باللون الأصفر، فى نفس اللحظة التى كان يطلق فيها رجال الشرطة بالأوامر وينفخون فى صفاراتهم وينزلون من سياراتهم، وقفوا ينظرون بدهشة ويأس إلى ما يحدث حين كانت الشاحنة تنفجر من اللهب وتصدر منها أصوات كأصوات الرعد، سألوا قليلاً من الناس الذين قدموا التوهم بعد أن استيقظوا من النوم ولم يشاهدوا أو يسمعوا أى شىء، لكن رجال الشرطة اشتبهت فى خمسة أشخاص ولم يتمكنوا من فعل أى شىء بشأن الشاحنة المحترقة التى كانت تتفجر أجزاؤها فى الهواء، كان الدخان يتصاعد من الشاحنة طوال الليل ولم تأت فرقة الإطفاء لإخماد اللهب، عند انسحاب الشرطى شاهدنا وجوه أولئك الذين قادوهم للاستجواب والذين كان المصور أحدهم، نجح المصور فى التخلص من الكاميرا التى هى الشاهد الوحيد وبدا شجاعًا بنظراته القوية وهو يلوح لنا عندما كانوا يسحبونه بعيدًا.

ظلت الشاحنة المحترقة المقلوبة ملقاة فى الشارع مدة طويلة وفى الليل كانت تكسوها الظلال، لكننا استيقظنا ذات صباح واكتشفنا أنها تحركت من مكانها ولم تعد مقلوبة كأن الليل قادها إلى مكان آخر، وجد الأطفال فى الشاحنة شيئًا جديدًا مؤقتًا يلعبون به وتعلمنا كيفية قيادتها والالتفاف حول عجلاتها والقيام برحلات طويلة عبر الامتداد الكبير لخيالنا الجامح.

طمرت الأمطار الشاحنة المحترقة وتغير لونها بفعل الشمس والتراب، ومع الوقت تلاشت حروف شارة الحزب الكبيرة ولم يعد بالإمكان التعرف

عليها، كما أن التعرف على العجلات لم يعد ممكنًا بعد أن تشوهت ملامحها تمامًا وأصبح من العسير استعادتها، لم يمض وقت طويل حتى اختفت نهائيًا من الشارع ولم تعد موجودة، لقد تلاشت الشاحنة مع وهج الشمس وتوقفنا تمامًا عن مشاهدتها والاهتمام بها.

تم الإفراج عن المصور بعد أيام ثلاثة من القبض عليه، وأخبرنا بأنهم عذبوه فى السجن وبدا أكثر شجاعة ونشاطًا مما كان عليه، وحكى لنا حكايات أسطورية غريبة وجديدة وأخبرنا عن بطولات وهمية قام بها أثناء الفترة القصيرة التى قضاها فى السجن، عندما وصل إلى الشارع تجمع الناس خارج حجرته لتحيته والترحيب به ترحيبًا يليق بالأبطال وعندئذ قصَّ علينا كثيرًا من أحداث السجن وروى لنا عن أساليب التعذيب الوحشية التى مارسوها عليه؛ كى يعترف بأسماء الناس الذين تسببوا فى إثارة الشغب والذين يعملون على زعزعة استقرار الحكومة الاستعمارية وأسماء أولئك الذين يعدونهم أعداء الحزب، أصابتنا حكاياته بالدوار فأحضر الناس له الطعام والنبيذ وجوزة الكولا وشراب الأجوجورو، كان بمقدوره فى تلك اللحظات أن يختار عددًا قليلاً من الزوجات من بين تلك الوجوه النسائية التى التفت حوله بإعجاب، إلا أنه بدا منشغلاً بسرد قصص أسطورية جديدة عن نفسه، كنت أهيم حول الأستوديو وأستمع إلى الكبار وهم يتحدثون بكلمات مقدسة مهيبة ويتبادلون الشراب طوال الليل احتفالاً بعودته الظافرة، وقد أمكننى رؤية أبى الذى جاء للتعبير عن تقديره.

استيقظنا فى الصباح التالى وكان الوضع مثيرًا للغاية، كان الناس يتحدثون فى كل مكان بحيوية ونشاط ويمعنون النظر إلى صفحات الجريدة بعد أن كانوا يكتفون بسماع أخبار البلد من الشائعات، مما أضاف أهمية جديدة لتلك الطبعة من الجريدة، ولم أستطع أن أفهم شيئًا إلا بعد عودتى من المدرسة، فلقد كانت المرة الأولى فى حياتنا بوصفنا بشرًا التى نظهر فيها

بالصحف، لقد كنا أبطالاً بما قمنا به وأبطالاً فى الطريقة التى عبرنا بها عن احتجاجنا ومعارضتنا، كانت الجريدة تضم صورًا لنا رجالاً ونساءً وأطفالاً ونحن نقف بائسين حول أكوام اللبن، وصورًا أخرى ونحن نهاجم الشاحنة بغضب ونثير الشغب ونتظاهر ضد وسائل الساسة الرخيصة ونعمل على إهانة الفتوات منهم ونفند أكاذيبهم، أما صور المصور فقد احتلت جزءًا بارزًا فى صفحات الجريدة، وكان من اليسير التعرف على وجوهنا المنسحقة بمجرد نظرة سريعة إلى ورق الجريدة التى ضمت بين محتوياتها أخبارًا وحكايات عن اللبن الفاسد وعن غضبنا الشديد، ولقد أصابتنا الدهشة لأننا استطعنا - بلا تخطيط مسبق - أن نفعل كل ذلك فى ركن صغير من العالم الكبير كما استطعنا أن نحصل على مثل تلك الشهرة.

كثير منا أمضى ليلته فى النظر إلى الجريدة ومحاولة التعرف على نفسه وسط ذلك الحشد الكبير من الوجوه المضطربة.

كان وجه أمى واضحًا بين الوجوه ولم أبذل مجهودًا كبيرًا فى التعرف عليه، لقد شاهد وجهها عشرة ملايين من الناس دون أن يلتقوا بها فى حياتهم، كانت تحمل وعاء اللبن الفاسد وقد شوهت الجريدة جمالها وأظهرتها فى صورة غريبة وبائسة، لكنها عندما عادت من السوق فى المساء تجمهر الناس حول بيتنا وراحوا يتحدثون عن شهرتها وكيف أنها استطاعت بيع بضاعتها بأسعار رخيصة، وعن الفتوات الذين أقسموا بأن ينتقموا انتقامًا عنيفًا ثم تطرقوا فى حديثهم إلى صاحب البيت ومالك الأرض الذى كان غاضبًا لأن سكانه قد شاركوا فى الهجوم على حزبه المحبوب.

كنا مسرورين لرؤية أنفسنا فى الصفحات الأولى من الجريدة القومية لكن صورة المصور التى كتبوا اسمه فوقها كانت هى أكثر الصور إثارة للدهشة، أشرنا إلى اسمه عدة مرات وظللنا نلف وندور حول حجرته لتحيته، كان يتمتع وقتها بروح عالية وراح ينتقل من مكان إلى آخر بغرور شديد،

وهو يتحدث عن الأحداث القومية بمصطلحات وكلمات عميقة الدلالة، وحين جاء إلى الحى وتم تكريمه فى كل بيت كان يضحك بصوت عـال ويشـرب بمرح، ولم تمنعه شـهرته ولا كمية النبيذ الذى شـربه من أن تذكرنا بأننـا ما زلنا مدينين له بثمن الصور.

عندما عاد أبى من عمله وعرف صورة أمى المنشورة فى الصـحف انتابه شعور مزدوج من الفخر بها والغيرة منها، وقال إنها تشـبه العـرّاف الجائع لكن ذلك لم يمنعه من قطع الصفحة التى بها صورة أمى من الجريـدة ولصقها فوق الحائط، وبين حين وآخر كان ينظر إلى الصورة وهـو يـدخن سيجارته ويقول: "إن أمك أصبحت شهيرة".

جاء المصور أخيرًا إلى حجرتنا فأرسلنى أبى لشراء بعض الشـراب، وعندما عدت كان المصور يترنح فى الحجرة فى حالة من السـكر الشـديد، وراح يمثل دور الفتوات ورجال السياسة، اختفى خلف المقعد بينما كان أبـى وأمى غارقين فى الضحك، كان المصور مخمورًا بما فيه الكفاية وظل يتمايل فوق مقعد أبى ويقول: "إننى مصور عالمى".

أخبرنا عن العروض الكثيرة التى تلقاها بعد أن أصبح شهيرًا؛ فحكـى لنا عن أولئك الذين جاءوا لتهنئته وطلبوا منه تصويرهم داخل أكواخهم وفى بيوتهم المتواضعة وحجراتهم المزدحمة ووسـط أحواشـهم القـذرة برفقـة عائلاتهم الكثيرة على أمل أن ينشر صورهم فى الصحف، أصبح المصـور مخمورًا إلى أقصى حد ثم وقع مغشيًا عليه فوق مقعد أبـى لكننـا حاولنـا مساعدته على النهوض، كان يتكلم وهو يقاوم النوم وفمه لا يـزال مفتوحًـا وكان يستيقظ فجأة ويواصل كلامه بدقة من حيث انتهى.

جلس بوجهه الهزيل وعينيه المثيرتين واضعًا ظهره إلى الحائط ورأسه تحت النافذة، وكانت العظام نافرة من جبهته وفكيه الكبيرين، وكانت حركاته وايماءاته مفعمة بالحيوية، حتى أنه بدا وكأنه واحد من أعضاء عائلتنا الجائعة الشجاعة.

توقف فجأة عن الحديث ولم أسمع كلامه الصاخب، كان فمه يتحـــرك لكن كلماته كانت بلا صوت، وكانت الشمعة ترفرف فوق المائدة مما أصابنى بارتباك شديد.

قال أبى بصوت مفعم بالدفء: "جهزوا الطعام للمصور العالمى".

ذهبت مع أمى إلى الحوش وأعددنا طعام الإيبا واليخنة لكل شــخص، وعندما عدنا إلى الحجرة كان المصور نائمًا فوق الأرض فأيقظناه حيث راح يواصل قصته التى لم نتعرف على نهايتها، ثم تناول الطعام معنــا وطلــب مزيدًا من الشراب وقدم لنا الشكر وهو يدعو لنا ثم تقدَّم أخيرًا ناحية البــاب وهو يترنح، كان المصور حالة غريبة تركت تأثيرًا كبيرًا فى نفوسنا.

قال: "أنتم عائلتى المحبوبة فى هذا الحى".

خرج إلى الليل مترنحًا بعد أن اصطحبته أنا وأبى إلى الخارج وبعد أن صافحه أبى مودعًا بدأنا فى العودة إلى حجرتنا، وكان أبى صامتًا لكنه بــدا فخورًا وقويًا وغير متأثر بكل تلك الأحمال الثقيلة التى كادت أن تقتلــه فــى الجاراج، عند مرورنا بالقرب من الشاحنة المحترقة توقف أبى وراح يتفرس هيكلها فى الظلام ثم تحسس رأسى وراح ينبهنى قائلاً: "إن المتاعب دائمًا ما تحدث بعد الاحتفال بشىء ما، إن المتاعب قادمة إلينا".

(١٠)

كنت فى طريقى للبيت بعد عودتى من المدرسة فى اليوم التالى، حين رأيت بعض الغرباء وهم يتحلّقون حول الشاحنة وكان صاحب البيت يتوسطهم، ظل يلَوح بذراعيه فى غضب ويشير إلى كل البيوت على امتداد الشارع، بينما بدا الرجال الآخرون فى حالة من الشك والريبة وهم يرتدون النظارات السوداء، ظللنا نراقبهم بعض الوقت وهم يلفون حول الشاحنة ويتحدثون بانفعال عما حدث لها، كانوا يتحسسون أجزاءها بفضول ويراقبون الشارع ثم أشاروا إلى بعضهم البعض، ومضوا باتجاه حانة مدام كوتو وهم يديرون ظهورهم للخلف وينظرون إلى الشاحنة باهتمام شديد، عندما ذهبوا بعيدًا تجمع عدد قليل من سكان الشارع وراحوا يدورون حول الشاحنة ويتفحصونها لعلهم يعرفون سر اهتمام أولئك الرجال بها.

بعد الظهر من نفس ذلك اليوم ظهر ثلاثة رجال يرتدون زيًا فرنسيًا أمام أستوديو المصور، لم يكن المصور موجودًا بالداخل فوقفوا أمام الفاترينة الزجاجية وراحوا يتفحصون الصور الجديدة، كان الرجال الثلاثة ينظرون إلى الصور بشغف شديد وباهتمام بالغ مما أثار فضولنا، وكنا راغبين فى رحيلهم لكنهم لم يفعلوا.

كانوا يرتدون ملابس متشابهة ونظارات شمس سوداء وظلوا ينظرون بهلع إلى البيوت المحيطة، وقفوا مدة طويلة أمام الفاترينة الزجاجية دون أن يتحركوا فى انتظار المصور حتى أوشك صبرهم على النفاد، بينما تحركت الشمس من مكانها وغيرت من اتجاهات ظلالهم، أصبح السكان المجاورون للمصور شغوفين بمعرفة ما يدور بذهن أولئك الرجال الثلاثة؛ فأرسلوا أطفالهم لسؤالهم عما إذا كانوا يريدون شراء بعض المشروبات أو الأطعمة،

لكنهم لم يطلبوا شيئًا، وعندئذ توجهت امرأتان ناحيتهم وكثيرًا ووجهتا من الأسئلة لهم، وحين شعرتا بالغضب والانفعال أشارت كل منهما ببعض الإشارات فبدأ الناس يتجمعون وأصبح الرجال الثلاثة فى حالة من الارتباك الشديد وغادروا المكان، ساروا عبر الشارع ورحت أتتبعهم إلى أن دخلوا حانة مدام كوتو وطلبوا كأسًا من النبيذ لكل واحد منهم.

عدت إلى الأستوديو وجلست إلى جوار الفاترينة الزجاجية، وبعد لحظة قصيرة شاهدت المصور وهو قادم محملاً بقصته الأسطورية الجديدة وآلة تصويره والحامل ذى القوائم الثلاث، فسارعت لإخباره بأن ثلاثة من الرجال كانوا فى انتظاره.

سألنى وهو يستدير فى الاتجاه الذى جاء منه: "فى انتظارى أنا؟" ولماذا؟

- لا أعرف لكن جيرانك لم يتركوهم وشأنهم وأزعجوهم حتى غادروا المكان.
- ماذا كانوا يشبهون؟ هل هم رجال شرطة؟
- لا أعرف لكنهم طوال القامة ويرتدون النظارات.
- نظارات سوداء؟
- سوداء جدًا حتى أننى لم أستطع رؤية أعينهم.

بدأ فى السير بسرعة متجهًا صوب الطريق الرئيسية، لكننى أمسكت بيده محاولاً الاستمرار فى السير معه غير أنه قال: "اتركنى بمفردى".

سألته: "ماذا تنوى أن تفعل؟"

- سأجرى.
- إلى أين؟
- بعيدًا.
- وماذا عن الرجال؟

- عن أى رجال تتحدث؟
- أصحاب النظارات السوداء.
- دعهم ينتظرون وحين يغادرون سوف أعود.

جرى وهو ينظر خلسة فى كل الاتجاهات وكأنه أدرك فجأة بأنه محاط بالأعداء، انطلق مسرعًا عبر الشارع فى خط متعرج وهو يحنى رأسه من الخوف، وكان حامل الكاميرا بقوائمه الثلاث يهتز خلفه ويقرع بأصوات خفيفة حتى اختفى تمامًا.

عدت إلى الحى وجلست بالخارج أراقب بيت المصور، وحين تأكدت من عدم ظهور الرجال الثلاثة مرة أخرى انتظرت قليلاً ثم ذهبت لرؤية الصور الجديدة المعلقة فى الفاترينة، شاهدت صور الفتوات وهم يضربون نساء السوق وصور قائدهم بوجهه المنتفخ وعينيه المتورمتين وفمه الشره، وكانت بعض الصور الأخرى للناس وهم يلقون بالحجارة فوق رءوس رجال السياسة وسط الزحام، لقد أجاد المصور تصوير فزعهم واستطاع أن يعبر ببراعة عن الجبن والذل الذَين لحقا بهم، شاهدت أيضًا صورًا لفتيات جميلات وعدد من الأولاد وصورة للطبيب المحلى وهو واقف أمام الضريح البائس القذر.

ظللت أتفحص الصور مدة طويلة حتى تسللت الشمس الحارقة إلى داخل رأسى، وأحرقت شعرى وجمجمتى وأذابت أفكارى فشعرت بتعب شديد، ذهبت وجلست عند باب بيتنا ولم أعرف ما الذى يجب أن أفعله بعد ذلك، لكننى بعد أن هدأت قليلاً بدأت أتوجه للسوق بحثًا عن أمى.

مضيت فى طريقى عبر شارعنا وتحت حرارة الشمس القوية، كان كل شىء مجردًا والأطفال عراة وكانت عروق الرجال الكبار تتفجر من جباههم وبدا الإرهاق واضحًا فوق وجوههم، ولقد أصابنى الفزع لمجرد الشعور بعدم وجود مهرب من صعوبة هذه الحياة وعدم القدرة على التخلص من كل ذلك

الشقاء، جراح مختلفة فى كل مكان، أكواخ فقيرة وبيوت من الزنك الصدىء وشوارع مكدسة بالنفايات، أطفال بملابس بالية وفتيات عرايا يلعبن فوق الرمال الساخنة بصفائح قصديرية مهشمة، أولاد صغار يقلدُون صوت البندقية ويجلبون الصخب، حرارة شديدة متبخرة من الهواء وبخار متصاعد من البالوعات القذرة، لقد كشفت الشمس عن حقيقة حياتنا ولأن كل شىء كان مؤلمًا إلى أقصى حد استطعنا أن ندرك السر وراء اهتمام كل منا بالآخر أو اهتمام كل منا بأى شىء على الإطلاق.

مررت ببيت كانت امرأة ما تصرخ وتبكى إلى جواره؛ فتجمع الناس حول حجرتها وفكرت قائلاً لنفسى: "ربما انهال عليها فتوات الحزب بالضرب".

اقتربت منها فعرفت أنها أنجبت طفلاً بعد مخاض طويل لمدة ثلاثة أيام بلياليها، سألت كثيرًا من الأسئلة وحين عرف الكبار الذين تجمعوا حول المرأة أننى طفل ساقونى بعيدًا دون أن يجيب أحد على أسئلتى، واصلت تجوالى بلا هدف محدد ودون دراية بأى شىء سوى رغبتى فى رؤية أمى حتى أننى كنت أراها فى كل بائعة جوّالة تمر بجوارى، كان كثير من الباعة الجائلين يبيعون نفس الأشياء ولقد تساءلت بينى وبين نفسى: "كيف تبيع أمى أى شىء فى هذا العالم الملطخ بالتراب وقسوة الشمس؟"

مشيت وقتًا طويلاً حتى احترق باطن قدمى من شدة حرارة الشارع، وجف حلقى والتهبت رأسى ثم وصلت أخيرًا إلى السوق، كانت أكشاك البضائع منتشرة فى كل مكان والجو مفعمًا برائحة السوق وعبيرها، وكانت رائحة الخضروات المتعفنة والفاكهة الطازجة واللحوم النيئة والمحمرة والسمك النتن ذى الرائحة الكريهة ثم ريش الطيور البرية والببغاوات المحنطة ورائحة حبات الذرة المحمصة والملابس المصبوغة، وكان أيضًا روث البقرة ورائحة العبق الساحلية والدخان المنبعث من الفلفل المحترق

الذى يثير الأنف ومقلة العين، وكانت الأصوات الكثيرة الصاخبة المتداخلة مع كل تلك الروائح والتى يصعب تمييزها وسط كل ذلك الصخب، كانت النسوة يحملن سلال الطماطم الكبيرة المثمرة وسلال الجارى أو الذرة أو بذور البطيخ، وثمة نساء أخريات كن يبعن الحلى والأشياء الصغيرة والأمشاط الخشبية وطائر القمرية والأحزمة والبنطلونات القطنية والشباشب، بينما كان بعضهن الآخر يبعن الأجهزة الطاردة للناموس ومرايات الحب السحرية والمصابيح وأوراق التبغ، وكانت أكشاك الملابس إلى جوار تجار السمك فى كل مكان على جانبى الطريق تشكل نوعًا من الفوضى الغريبة، ثم ذلك الزحام والتدافع والشجار المسيطر على المكان، وكان القائمون على تحصيل الإيجار يتشاجرون مع النسوة، وسائقوا العربات الكارو يصيحون فى الناس لكى يفسحوا لهم الطريق، وكانت الماعز المربوطة فوق الحصيرة تشير برءوسها تحت الشمس وتتوسل من أجل الحرية، كانت أرض السوق ندية بالماء ومشبعة بالطين والطعام المتعفن وكان الأطفال يلعبون حولها وهم شبه عرايا أما النساء فكن يرتدين اللفافات الشاحبة والقمصان القذرة وكانت وجوههن شبيهة بوجه أمى فى معاناتها، كانت أصواتهن عذبة وخشنة فى وقت واحد، عذبة عندما ينادين لجذب الزبائن وخشنة عندما يساومن فى الأسعار، تجولت فى السوق وأصابتنى الأصوات المتداخلة الكثيرة بارتباك شديد والتى ربما كان صوت أمى واحدًا منها، وربما كان وجهها أحد تلك الوجوه الكثيرة، عرفت فى تلك اللحظة بأنها ليست الوحيدة التى تتعب وتتألم وتضحى وإنما كل النساء، كل نساء السوق كن يشاركن أمى نفس المعاناة.

ثمة شجار غاضب كان محتدمًا عند تقاطع الطريق، وكان الرجال يصيحون وأكشاك البيع مقلوبة والكلاب تنبح والعصى تلوح فى الهواء، ويكاد طنين الذباب أن يسد الأذن والسمك المتعفن يملأ المكان وكان الذباب منتشرًا بكثرة، رحت ألف وأدور حول المعركة الدائرة وأنا أمضى من كشك إلى آخر ورأسى تصل إلى البضائع المعروضة بالكاد، وغالبًا ما كنت أجد نفسى

أحدِّق فى عيون الأسماك الميتة وفى الأحواض المليئة بالجمبرى الكبير والاستاكوزا الضخمة وفى خياشيم أنواع الأسماك المختلفة وهى تضرب بأذيالها فى محاولة للنجاة من الشرك، كنت أبحث عن أمى حتى تعبت عيناى من كثرة التدقيق وشعرت برأسى تدور من شدة الإجهاد، لكننى فجأة شعرت بهلع شديد وغريب حين اقترب المساء وأحاطنى الناس من كل اتجاه وكان الجميع نشطًا وكل شيء يتحرك، لم أستطع رؤية أى وجه مألوف وسط ذلك الكون الحاشد، ثم فجأة وبين وميض الضوء وقدوم الظلام بدأت أرى أمى فى كل مكان، رأيتها وهى تتلوى فى حوض السمك وبين السلاحف فى الأجولة البلاستيكية ووسط تعويذات السحرة، شاهدت أمى فى كل مكان بالسوق وبين دخان الخشب وقش الأرز المحترق، كنت أشعر بها فى كل شيء وفى كل مكان غير أننى لم أستطع أن أفهم ذلك السوق بممراته الكثيرة المتشعبة حيث تؤدى الطريق الواحدة إلى آلاف من الطرق المختلفة والتى لا تشبه أى منها الأخرى.. كانت معظم تلك الطرق تؤدى إلى الجوع وكان لكل طريق وسيلته الخاصة فى الوصول إلى نفس النتيجة.

شاهدت النساء وهن يحسبن النقود ويربطنها فى نهاية ملابسهن، وكان الأطفال يبكون بجوار أكشاك البيع من الإهمال وعدم العناية بهم، رحت أتجول فى كل مكان بالسوق ولم أستطع التوغل فى أعماقه كما عجزت عن الخروج أو الاستمرار فى شق الطرقات المتداخلة؛ فقد بدأت قدماى تؤلمنى ولم أقدر فى نفس الوقت على التوقف لأن زحام الحركة الدائم كان يدفعنى ويحركنى فى كل الاتجاهات رغمًا عنى، وأحيانًا كانت الأقدام تدوسنى أو يصيح بعضهم فى وجهى كى أبتعد فأصبحت مرتبكًا من كل شيء، وعندئذ جلست إلى جوار أحد الدكاكين التى تبيع القواقع وظللت أبكى دون أن أذرف الدموع.

تغير الوقت وساد الظلام فنهضت من جلستى ورحت أجاهد خلال الزحام حتى وصلت إلى دكان آخر لرجل عجوز يبيع كل أنواع الأعشاب،

كان الرجل عجوزًا لكن عينيه كانتا مفعمتين بالحيوية والنشاط مثل عيون الحمام، وكان شعر رأسه وشاربه مكللاً بالبياض والشحوب يتصدر ذقنه المستقيم، كان الدكان الخاص به أهدأ مكان فى السوق كله، وكان يجلس إلى منصته وحيدًا ولا ينادى على أحد لبيع بضاعته ولم يكن يأتيه أحد وكانت الجذور الصفراء والزرقاء من خلفه تتدلى من الحبال ذات الألوان الكثيرة ومن الخيوط وكذلك الحدبات الوردية وجمجمة لأحد القردة وريش الببغاء ورءوس النسر المحنطة وأقدام أسد مفترس ثم أجنحة النسر ومرايا يتغير لونها تبعًا لشدة الضوء، كان دكان العجوز نظيفاً، وخلف الحبال والخيوط وكل تلك الأشياء الغريبة كانت هناك خيمة من القماش المشمع ملطخة بالطين، قبل أن أصل إليه شاهدت رجلاً يرتدى بذلة بيضاء نظيفة يقترب منه وبعد أن أشار له مضى كلاهما إلى داخل الدكان وبقيا بالداخل بعض الوقت.

قلت لنفسى: "لا بد أنه طبيب يعالج الناس بالأعشاب، وإذن فهو رجل متعلم ومتميز جدًا!"

رحت أتطلع بدهشة إلى المعروضات الموجودة فوق الطاولة؛ فشاهدت سيقان أشجار الصمغ المليئة بالحبوب وأوراقًا حمراء تم تجفيفها فى الشمس والتى يمكن شم رائحتها من مسافة بعيدة، كما لفتت انتباهى تلك الجذور المنحوتة الشبيهة بالإنسان وتلك العظام ذات الالتواءات الغريبة وبذور النباتات الطبية الملونة وقواقع البحر الشفافة والزنابق المضيئة الجافة والتوت وبذور اليانسون وبثور الطاووس الخضراء وثمة قطع صغيرة جدًا يصدر منها ضوء باهر وكأنها عيون القطط وقد رفضت أن تجف فى الشمس، أبصرت أيضًا أدوات فصل الألياف القديمة ومجموعة من الحلقان المكسورة القادمة من أعماق البحر ومئات من الأشياء الغريبة الأخرى المبعثرة فوق قطعة قذرة من القماش الأزرق، جلست فوق مقعد الرجل العجوز وانتظرت، ولقد سمعت – أثناء انتظارى – صيحات هادرة صادرة من الخيمة خلفى

وظلت الصيحات تتغير إلى أصوات شبحية من النوع الذى لا يستطيع القيام بها سوى الأرواح، ثم تغيرت مرة أخرى إلى صوت حبل سميك عند استخدامه فى الجلد أو عند لفه فى الهواء بسرعة فائقة، وأخيرًا تحولت الأصوات إلى صوت حوريات البحر وهن يتحسسن شعرهن الطويل فوق ضفاف النهر الذهبية، سمعت صرخة لكنها لم تكن صرخة رعب وظلت الصرخة حادة حتى تحولت إلى ضحكات، وعندئذ خرج الرجل ذو البذلة البيضاء النظيفة متصببًا بالعرق وهو يحمل كيسًا صغيرًا أزرقًا فوق كتفيه، كما خرج أيضًا الرجل العجوز لكنه لم يكن متصببًا بالعرق وحين اخترقنى بنظراته قلت: "إننى أبحث عن أمى".

- ومن هى أمك؟
- بائعة فى هذا السوق.
- هل أعرفها؟
- لا أعرف.
- ولماذا تبحث عنها؟
- لأنها أمى.

جلس العجوز فوقفت أنا وسألنى: "أين تركتك؟"

- فى البيت.
- هل تريد تبليغ رسالة ما؟
- لا أعرف.
- هل أرسلتك أمك لتبليغ رسالة ما؟
- لا.
- هل هى الأرواح التى أرسلتك لى؟
- لا أعرف.
- هل تعرف أمك أنك موجود هنا؟

- لا.
- وهل تعرف مكانك؟
- لا أعتقد.

ظل العجوز ينظر إلى بإمعان ويتفحصنى بعينيه الغريبتين، التقط أحد جذور النبات وراح ينقله من يد إلى أخرى ثم قضم قطعة صغيرة منه ومضغها، وراح يفكر لحظة قدم لى بعدها جذر النبات فتناولته لكننى لم أقضمه، فقال لى وهو يتفحصنى: "وهل يعرف أى شخص بأنك موجود هنا؟"

أجبت قائلاً: "لا".

ابتسم وتغير لون عينيه المفعمتين بالحيوية والشباب إلى اللون الشاحب الملىء بالشك، وراح يذكرنى بالطائر الذى يجيد الاختباء ثم سألنى: "وإذن فلماذا جئت لى؟"

قلت: "لا أعرف".

التقط جذرًا آخر من النبات على شكل طفل له رأس كبيرة وقضم رأس الطفل، ثم بصقها وبدأ فى قضم ذراعه ومضغها وسألنى: "ما اسمك؟"

- لازاروس.
- ماذا؟
- أزارو.

نظر إلى مرة أخرى كأننى خطيئة ثم قال: "هل أنت متفوق فى المدرسة؟"

- إننى أبحث عن أمي.
- هل تعلمك أمك شيئًا ما؟
- نعم.
- مثل ماذا؟

- إنها تعلمنى كيفية الطيران إلى القمر على ظهر صرصار الليل.

لم تتغير تعبيرات وجه العجوز واستطرد قائلاً: "هل لك أخوة وأخوات؟"

قلت: "فى السماء فقط".

راح يتفرسنى وهو يتحسس ذقنه وينظر إلى السوق الصاخب من حواليه، ثم نهض ودخل خيمته وعاد حاملاً طبقًا مزخرفًا ومتشققًا يحتوى على البطاطا وحبات الفول، كنت جائعًا جدًا فنسيت تحذيرات أمى بعدم تناول أى شىء من الغرباء، والتهمت الطعام الذى كان شهيًا بينما كان العجوز يتأملنى بعينين متلألئتين وظل يهمس لنفسه ويتمتم ببعض التعويذات، وعندما قدمت له الشكر على الطعام قال لى: "كيف تشعر الآن؟"

- أشعر بالشبع.
- حسنًا.

تناول الطبق الفارغ ومضى به إلى الداخل ثم عاد حاملا كوبًا بلاستيكيًا من الماء، وكان طعم الماء عذبًا ويحمل رائحة جذور النباتات الغريبة الموضوعة فوق طاولته، وشعرت بأننى أشرب من ماء بئر عميقة، لكننى أحسست بعطش لم أكن أشعر به قبل أن أشرب.

سألنى مرة أخرى: "وكيف تشعر الآن؟"

كنت على وشك الحديث لكن الدنيا أظلمت من حولى حين هاجمتنى نوبة من الإغماء المسائى واستقرت فوق عينى، شعرت بأثر غريب للضوء وبداخلى كانت هناك فراغات كبيرة ومفتوحة، حاولت أن أتحرك وكانت روحى أكثر خفة من جسدى فتحركت بينما ظل جسدى ساكنًا لا يقدر على الحركة، وعندما اعتقدت بأننى تحركت مسافة معقولة اكتشفت أننى كنت فقط فى بداية الحركة وعندئذ أحسست بأن كل شىء يلف ويدور من حولى ببطء

كما تفعل الرياح فى دورانها ثم بدأت الأشياء تمضى بسرعة أكثر، وساد مزيد من الظلام كما أصبح وجه العجوز كبيرًا بطريقة شاذة، وبعد لحظة قصيرة أصبح صغيرًا جدًا حتى أننى لم أستطع رؤية عينيه بسهولة، وأخيرًا سمعته من مسافة بعيدة جدًا يقول: "استلق يا بنى".

ثم مضى بسرعة واختفى من المكان، وكان صوت ملابسه يرفرف خلفه بعد أن تحول إلى رياح عاصفة.

كانت السوق مزدحمة بشدة، وكانت أصوات الناس ترتفع فى موجات صاخبة ثم تتحول إلى همسات، سمعت صوت المؤذن من بعيد وهو ينادى للصلاة فشعرت بأنه ينادينى لكننى لم أستطع أن أتحرك، وبدت الأجراس والفرق الملائكية وهى تنشد قريبة من أذنى لكنها سرعان ما اختفت، شاهدت من حيث أجلس بداية شجار بين امرأتين حيث طارت إحداهما فوق الأخرى ونجحت كل واحدة منهما فى نزع ملابس الأخرى وإلقائها فى الهواء، فبدت الملابس كريش طائر ضخم، هجمت كلتاهما على الأخرى مرة أخرى بسرعة وغضب شديد حتى تناثرت مناديلهما وقمصانهما حول المكان، وكنت مفتونًا بغضبهما، وحين أوشكت على التحرك والاقتراب منهما سمعت صوتًا لا يمكن معرفة الاتجاه القادم منه ولم يكن هو صوت الأرواح.

قال الصوت: "أين الرجل العجوز؟"

- ذهب.
- أين؟
- لقد جرى.
- من أى شىء جرى؟
- منى.
- لماذا؟
- لأننى أبحث عن أمى.

توقف قليلاً ثم استطرد: "وإلى أين جرى؟"

- لقد ذهب مع الريح.
- فى أى اتجاه؟
- لا أعرف.
- من هى أمك؟
- إن أمى فى السوق.
- وكيف تعرف بأن أمك هى السوق؟
- أنا لم أقل بأن أمى هى السوق.
- ماذا قلت إذن؟
- إنها بائعة فى السوق.
- ولماذا تبحث عنها؟
- لا أعرف.
- ما اسمك؟

أجبت على السؤال وكان من الواضح أن أحدًا لم يسمع إجابتى لأن نفس السؤال تكرر ثلاث مرات، كان فى كل مرة أضعف وأخف حدة من المرة التى قبلها، لقد ألقت الرياح بإجاباتى بعيدًا وشعرت بقسوة الصمت تدوى فى رأسى وأظلمت الدنيا من حولى، أصبح القمر فجأة قريبًا منى ويكاد يلامس رأسى وكان وجهه مضيئًا كأنه وجه ملك أرواح العالم العظيم، سمعت أصواتًا أخرى غامضة تقول: "انظر إليه".

- إنه يبحث عن أمه.
- إنها ترى كل شىء بعينيها الكبيرتين فى السوق.
- إن الناس يدفعون لها لإغلاق عينيها.
- إن عينيها لا تغفل أبدًا.
- وترى بهما كل شىء.
- وترى بهما كل نقودنا.

- إن عينيها تأكل كل نقودنا.
- قوتنا.
- أحلامنا.
- راحتنا.
- وأطفالنا.
- يقولون إن ابنها يطير إلى القمر.
- ولذلك فإن عينيه كبيرتان.
- انظر إليه.

استمرت الأصوات فى الحديث حتى تداخلت فيما بينها كما يحدث أثناء ممارسة إحدى الشعائر المقدسة، واقترب القمر منى أكثر حتى لامس وجهى فرحت أنظر بعين واحدة إلى الظلام المخيم على السوق، لكننى - ومع ضوء القمر الذى يسكننى ويملأ الفضاءات الشاسعة المفتوحة - شعرت بأننى أرتفع مع الظلام وأن ثمة أيادٍ خفية تدفعنى وتشدنى دون أن تفارقنى تلك الأصوات الغريبة، غير أنها هذه المرة كانت أصواتًا بلا أجساد.

- قد لا يكون فى حالة جيدة.
- وقد يكون مجنونًا.
- إن أشياء غريبة تحدث لنا.
- ولأطفالنا.
- يقولون إنه يبحث عن الروح المعنية بالاستقلال.
- يقولون أيضًا إنه يبحث عن نفسه.
- وعن الروح الخاصة به.
- تلك التى فقدها مع قدوم الرجل الأبيض.
- يقول البعض إنه يبحث عن أمه.
- لكن أمه لا تبحث عنه.
- ويقول البعض الآخر إنه ذهب إلى القمر.

- أى قمر؟ هناك كثير من الأقمار.
- قمر الاستقلال.
- وإذن فإنه يبحث عن قمر الاستقلال؟
- نعم.
- إن أشياء غريبة تحدث.
- لقد انقلبت الدنيا رأسا على عقب.
- والجنون قادم.
- والجوع قادم على شكل كلب برؤوس عدة.
- والفوضى قادمة.
- والحرب.
- والدم سيتزايد فى عيون الرجال.
- سيلتهم الجيل كله خصوبة هذه الأرض.
- دعنا نمضى.
- انظر إليه.
- ربما الأشياء الغريبة التى تحدث هى التى دفعته للجنون.
- وربما يكون على غير ما يرام.

تلاشت الأصوات مع الهواء واختفت ثم هبت ريح خفيفة فوق وجهى، وازدادت حدة الضوء بداخلى واختفت يداى وساد السوق ظلام كامل، كانت المصابيح مضاءة فى كل مكان، وكانت أرواح الموتى تنبعث من تلك الروائح النفاذة ومن الظلام الكثيف.

فجأة أصبحت الطرق والممرات الصاخبة المزدحمة شبه خالية وكانت قدماى مثبتتين فوق الأرض، لكننى رحت أتتبع الريح الخفيفة التى قادتنى إلى طرق وممرات أكثر خلوًا من الناس وأقل ازدحامًا مما أتاح لى الفرصة لاكتشاف أسرار السوق، نظرت إلى داخل البئر الموجودة فى منتصف السوق

لكننى لم أشاهد الماء بداخلها، ولم أستطع رؤية أى شيء سوى القمر، كان القمر أبيض اللون وكامل النمو ولا يتحرك، ولم تكن ثمة جرادل حول البئر وكانت التربة حولها جافة، فاستطعت أن أعرف بأن أحدًا لم يستطع الحصول على المياه من القمر القابع فى باطن البئر، وبدأت أنزل إلى القاع لأنه بدا لى أفضل مكان يمكننى النوم فيه والاستمتاع بقدر من الاسترخاء فى ظل ذلك السكون الصافى، لكن امرأة شدتنى من مؤخرة بنطالى ورفعتنى ثم ألقت بى على الأرض وصاحت: "ابتعد عن هنا".

تتبعت ضوء الطريق الباهت حتى وصلت إلى مكان مليء بالدجاج، كان الدجاج يرفرف ويصيح بقوة داخل أقفاص البامبو الكبيرة حتى ملأت صيحاته كل المكان، ورحت أنظر إليه وهو يصفق بأجنحته ويضرب بعضه البعض ولم يكن الدجاج قادرًا على الطيران أو الهرب من القفص، وما هى إلا لحظات حتى أصبح وقوعها فى شرك القفص ورفرفتها هى كل شيء، وبدا كأن فوضى السوق قد انتقلت إلى ذلك القفص الأسود الكبير، شاهدت فى أعماق الليل ثلاثة رجال يرتدون نظارات سوداء وهم يهاجمون طاولة بضائع متواضعة لإحدى النساء ويبعثرون محتوياتها الفقيرة، ألقوا ببضاعتها فوق الأرض لكنها راحت تلملمها وتنظفها بأطراف لفافتها وتعيد ترتيبها بصبر شديد فوق الطاولة، لكن الرجال قلبوا الطاولة فصرخت المرأة طلبًا للنجدة غير أن السوق كانت مزدحمة وصاخبة والكل مشغول بالصياح والمساومة ولم يكن بمقدور أحد أن يسمعها، توقفت المرأة عن طلب المساعدة وراحت تسوى طاولتها وتلم بضاعتها بينما كان الرجال ينتظرون بهدوء وما أن انتهت حتى قلبوا الطاولة مرة أخرى، اقتربت منهم فسمعت أحدهم يخاطب المرأة قائلاً: أنت لا تملكين الحق فى هذا المكان بالسوق لأنك لا تنتمين إلى حزبنا!

قالت المرأة: "وأين يمكننى أن أجد مكانًا آخر؟"

قال واحد منهم: "سؤال جيد".

وأضاف آخر: "اذهبى من هنا فنحن لا نريد أمثالك من الناس".

* أنت لست واحدة منا.

* إن أى شخص آخر موجود فى هذا الجزء من السوق هو واحد منا.

سألت المرأة: "إذا كنتم تعاملون الناس هكذا فلماذا ينبغى على أن أكون واحدة منكم؟"

- سؤال جيد.
- حقًا.
- اذهبى من هنا.
- فلتغادرى.
- نحن لا نريدك هنا.
- ولكن ماذا يمكننى أن أفعل؟ إننى أدفع مستحقاتى وأدفع إيجار المكان ولم يحدث أن اشتكى أحد منى...

رفع اثنان من الرجال الثلاثة الطاولة بما فوقها من بضائع ووضعاها بعيدًا فى منتصف الطريق فأصبح الطريق مسدودة، ظلت المرأة تصرخ وكأنها حيوان مجروح، ثم قفزت فوق الرجال وراحت تشد شعر رءوسهم وتخدش وجوههم وتقتلع نظاراتهم حتى أن أحدهم صاح قائلاً: "أنا لا أستطيع أن أرى بدون النظارة".

أمسك الرجلان الآخران بالمرأة ثم دفعاها إلى الأرض وراح أحدهما يركلها بقدميه لكنها لم تصرخ هذه المرة، احتشد عدد كبير من الناس اعتراضًا على الطريق المسدودة وامتلأ الهواء بالأصوات الغاضبة، نهضت المرأة وراحت تجرى بين الأكشاك والدكاكين حتى اختفت ثم ظهرت بعد لحظة وهى تحمل سكينًا كبيرة بكلتا يديها، كانت مصممة على شىء ما رغم

خوفها وارتباكها فانطلقت نحو الرجال بخطى واثقة وهى تتمتم بصرخات تنذر بالخطر، تفرق الرجال وهربوا فى اتجاهات مختلفة بينما ظل الرجل - الذى انتزعت المرأة نظارته - يصرخ ويعلن بأنه فقد بصره، وحين بدأ يجرى اندفعت المرأة نحوه ورفعت السكين فوق رقبته وهى تصيح بصوت مخنوق، سمعت أصواتًا قوية تنطلق وسط الزحام حيث احتشد أصحاب تلك الأصوات وتجمعوا حول المرأة، وكان كل ما استطعت رؤيته فى لحظة خاطفة هو تلك السكين وهى ترتفع عاليًا فوق الرءوس ثم بدأت النساء فى مغادرة أكشاكهن.

قالت إحداهن: "إن هذا الاستقلال لم يجلب لنا سوى المتاعب".

رفعنى القمر وأصبح كل شيء مظلمًا ووجدت نفسى فى عالم تسكنه الأرواح، كانت الأصوات تثرثر بلا انقطاع واحتشدوا حولى فى حالة من الفوضى، وكان الرجل العجوز ذو الذقن البيضاء يقول للمرأة: "حزمى أشياءك وامضى قبل أن يتأخر الليل فلقد كنت على وشك أن تقتلى شخصًا ما، أنت امرأة محظوظة لأننا استطعنا أن نمنعك من ارتكاب جريمة بشعة، اذهبى إلى بيتك وزوجك وعودى سالمة إلى أطفالك لأن أولئك الناس سيعودون، وتوقفى عن المجيء إلى السوق لبعض الوقت لأنك امرأة شجاعة وحمقاء".

لم تقل المرأة شيئًا وراحت تحزم بضاعتها وكان وجهها الجميل صارمًا ومتحجرًا، ولقد توقفت عن مسح أنفها وعينيها بطرف جلبابها كما كانت تفعل من حين لآخر، كانت النسوة من حولها يقدمن النصيحة وكان الطين يغطى جلبابها ولم يكن من اليسير معرفة الجزء المغطى بالطين من شعرها، عندما انتهت من حزم أشيائها رفعت الكيس فوق رأسها ووقفت ثم مشت وسط الزحام وعندئذ اختفى الرجل العجوز وسط الحشد الكبير من الناس.

تركنى القمر نهائيًا ورأيت وجه المرأة منبعثًا من ضــوء المصـــباح، وعندما توقف الليل عن الدوران شاهدت أمى فى تلك المرأة التى لم أســتطع التعرف عليها، فمضيت وراءها وأمسكت بقدميها لكنها أبعدتنى ومضت فـــى خطواتها متحدية كل شىء، أمسكت بملابسها وصرخت فيها بصوت عـــال: "أمى".

نظرت إلى أسفل فأسرعت بإنزال كيس بضاعتها مـــن فـــوق رأســـها ووضعته على الأرض واحتضنتنى لحظة طويلة، ثم أزاحتنى عن صـــدرها وقالت لى بعينين دامعتين: "ماذا تفعل هنا؟"

- إننى أبحث عنك.

قالت بلهجة آمرة: "اذهب للبيت".

اندفعت خلال الزحام واستطعت أن أسمع بكاءها وأنفاســـها الســـريعة المتلاحقة من خلفى، ظلت خلفى حتى ابتعدنا عن السوق، وأثناء المضى فـــى طريقى شاهدت الرجل العجوز وهو جالس عند أحد الدكاكين يراقبنى والقمر يتلألأ فى عينيه، كان العجوز يبتسم ابتسامة رقيقة وهو يواصل مراقبتى.

عندما وصلنا إلى الطريق الرئيسية أســقطت أمـــى كـــيس بضـــاعتها وانحنت لترفعنى وتربطنى خلف ظهرها، ثم وضعت الكيس مرة أخرى فوق رأسها.

قالت ونحن فى الطريق إلى البيت: "أنت تكبر".

وأضافت ونحن نواصل سيرنا عبر الشوارع: "لا شىء يكبر عندنا، لا شىء يكبر فى هذا البلد، لكنك أنت تكبر يا ولدى".

كانت المصابيح مضاءة عند جانبى الطريق وكان الناس يتحركون فى كل مكان وهم يصيحون، لكننى بقيت صامتًا وظلت أسرارى مدفونة داخـــل صمتى.

(١١)

عندما وصلنا إلى البيت كانت الدنيا مظلمة تمامًا، وكان أبى جالسًا فوق مقعده يدخن ويطيل التفكير حتى أنه لم يلتفت إلينا عندما دخلنا، كنت مرهقًا بشدة وكانت أمى أكثر إرهاقًا منى، أنزلت كيس البضاعة من فوق رأسها ووضعته فوق الدولاب ثم توجهت ناحية أبى وسألته قائلة: "كيف كان يومك؟"

لم يقل أبى شيئًا وظل يدخن بهدوء فراحت أمى تكرر نفس السؤال ثلاث مرات ولكن برقة أكثر، كان الطين يغطى أحد جانبى وجهها وكأنه يمثل جزءًا من هويتها، وحين اعتدلت وتوجهت ناحية الباب انفجر أبى غاضبًا وضرب قبضته بقوة فوق الطاولة وقال متذمرًا: أين كنت؟

ارتعبت أمى وتجمدت فى مكانها فأضاف أبى: "ولِمَ كل هذا التأخير؟"

- كنت فى السوق.
- ماذا كنت تفعلين فى السوق؟
- أبيع بضاعتى.
- أى سوق هذه وأية بضاعة تلك التى تبيعينها؟ هكذا تتصرف النساء عندما تظهر صورهن فى الصحف، إننى جائع بشدة ولا يوجد طعام فى البيت، إن ظهرى يتحطم من أجلكما وأنت لا تستطيعين تجهيز الطعام لى عندما أعود!، أعرف الآن لماذا نصحنى الناس بإيقافك عن الذهاب للعمل فى السوق، إن النساء تبدأ بتجارة صغيرة ومتواضعة لكنهن سرعان ما يبدأن فى اتباع أساليب سيئة وفى التأثر بأفكار غريبة، لقد أهملت عائلتك وتركتينى هنا أتألم من شدة الجوع ولم أجد شيئًا إلا السجائر!، هل ستطعمنى السجائر؟

كان أبى يصيح بصوت غاضب ويلوح بيديه فى كل اتجاه فقالت أمى: "إننى آسفة يا زوجى، دعنى أذهب و..."

قاطعها أبى قائلاً: "آسفة! وهل الأسف سيطعمنى؟ هل تعرفين قسوة اليوم الذى مررت به ومرارته؟ يجب أن تذهبى ذات يوم وتحملى أجولة الأسمنت كى تعرفى حياة الحيوانات التى أعيشها!"

ظل أبى يصيح حتى امتلأت الحجرة بغضبه وأصبح البقاء بها غير محتمل، ولم يستمع إلى أحد أو يلاحظ أى شىء وهو يواصل حديثه عن يومه القاسى وعن أولئك الحمقى الذين كانوا يأمرونه بعمل كل شىء وعن الفتوات الذين يلاحقون العمال، وراح يبين كيف أنه كان بطلاً وكيف شعر بيأس شديد من الحياة كلها.

قالت أمى: "وماذا عنى؟"

- ماذا عنك إذن؟
- أتعتقد بأننى لا أشعر بيأس من هذه الحياة أيضًا وأننى أفكر فى التخلص منها نهائيًا؟

صرخ أبى قائلاً: "أترغبين فى الانتحار؟! هيا إذن فلتفعلى ودعى ابنك يعانى من الجوع ويهيم فى الطرقات كالمتسول كأنه يتيم!"

قالت أمى محاولة استرضاءه: "دعنى أذهب لتجهيز الطعام".

أجاب أبى: "لم أعد أشعر بالجوع، اذهبى واصنعى الطعام لنفسك".

توجهت أمى ناحية المطبخ فسارع أبى بالانقضاض عليها والإمساك برقبتها وراح يدفن وجهها فى فراش السرير، لكن أمى لم تقاوم فدفع أبى رأسها إلى الجانب الآخر وقفز فوقها حتى أننى لم أستطع رؤية وجهها ثم عاد إلى مقعده.

قلت: "دع أمى وشأنها".

سألنى وهو يحدّق فى وجهى: "اخرس، وأين كنت على أية حال؟"

انطلقت مسرعًا من الحجرة دون أن أجيب على سؤاله فتبعتنى أمى فى الحال حيث ذهبنا إلى الحوش وجهزنا قليلاً من طعام الإيبا وسخنًا اليخنة.

(كل الرجال حمقى).. ذلك كل ما قالته أمى وهى تنظـر إلـى النـار بشرود حين كنا جالسين فى المطبخ.

قدمنا الطعام بعد الانتهاء من إعداده ثم تناولناه فى هدوء لكن أبى كان جائعًا بشدة؛ فالتهم طبقه وطلب المزيد وحينئذ نهضت أمى قبل الانتهاء مـن طعامها وأعدت المزيد من طعام الإيبا له فسارع بابتلاعـه بـنهم وبطريقـة مخزية؛ حيث كان يقذف بكميات كبيرة فى فمه دون أن تتأثر يداه أو حلقـه بالبخار المتصاعد من الإيبا، وعندما فرغ من التهام حصته الثانية من الطعام أسند ظهره إلى الحائط وراح يتحسس بطنه وقد انتابه شعور بالرضا ثم ابتسم وقال: إننى أقوم بعمل الرجال وأتناول طعامهم.

لم نبتسم معه فأرسلنى لشراء السجائر وبعض شـراب الأجوجـورو، وحين بدأ فى التدخين والشراب أصبح مزاجه معتدلاً ولم يعد غاضبًا، حاول أن يمزح معنا لكننا لم نستجب له أبدًا.

سأل أمى: "ما السبب فى تأخيرك إذن؟"

- لا شيء.
- لا شيء؟

كررت قولها بدون أن تنظر إليه: "لا شيء".

ساوره القلق وسألنى عن سبب تأخيرنا فأجبته: "لا شيء".

- لا شيء؟
- نعم.
- وماذا إذن عن ذلك الطين فوق وجه أمك؟

قلت: "لا شيء".

نظر إلى كلينا كأننا نتآمر عليه وظل يواصل سؤاله عن سبب تأخيرنا لكننا لم نجب على السؤال فطلب الصلح، ولم يستطع أن يوبخ أيًا منا خاصة بَعد أن شعر بالشبع والرضا، كانت أمى صامتة ومستغرقة فى عزلتها وكان وجهها جامدًا وخاليًا من أى تعبير يوحى بالألم والتعاسة أو حتى بالمتعة والسرور، توسَّل أبى إلينا كى نخبره عن السبب وراء عودتنا المتأخرة وقال متسائلاً: "هل هددكما أحدٌ؟"

- لا.
- هل سرقوا أشياءكما؟
- لا.
- ألم تسمعا أخبارًا سيئة؟
- نعم.
- هل عمل الفتوات على مضايقتكما؟

ترددت أمى قليلاً قبل أن تجيب: "لا، لم يحدث أى شىء".

طرقع أبى ظهره ومدَّد ذراعيه وقدميه وكان يشعر ببؤس وضيق شديدين، نهضت أمى ونظفت الطاولة ثم توجهت إلى الحمَّام وبعد أن خرجت ذهبت مباشرة إلى السرير، كان أبى جالسًا فوق المقعد يتجشأ ويدخن ويعانى من الأرق لأنه لم يستطع أن يدرك سر صمت زوجته الغريب، فرشت حصيرتى ورقدت فوقها وأنا أنظر إليه بعض الوقت حتى خيل لى أن سيجارته أصبحت نجمًا فى السماء.

قال: "إن القمر مكتمل النمو هذه الليلة".

حين كنت أنظر إلى ظل أبى سقط القمر من السماء وأشاع نوره فوق الظلام؛ فظللت أتطلع إليه ورحت أتتبع الطرقات الواسعة الكبيرة حتى وصلت إلى كوخ قريب من البئر، كان المصور مختبئًا خلف البئر وهو يلتقط صورًا للنجوم والكواكب، وكانت الكاميرا تومض بالضوء فظهر الفتوات من

خلال الضوء بنظاراتهم السوداء وبدأوا فى ضربه، وقعت الكاميرا من يـده فسمعت الناس وهم يصرخون من داخلها فهجم الفتـوات عليهـا وحـاولوا تكسيرها، بكى الناس بداخل الكاميرا ولم يتوقفوا عن البكاء، كانوا يحلمـون بالخروج من الكاميرا كى يتحولوا إلى حقيقة.

التقط المصور الكاميرا المكسورة وجرينا إلى داخل الكوخ ثم اكتشـفنا أنه لم يعد قريبًا من البئر، وإنما داخله فسقطنا فى البئر ووجدنا أنفسـنا فـى صالة كبيرة وكان الرجال الثلاثة بنظاراتهم السوداء فى كـل مكـان وكـان عددهم يتضاعف باستمرار، أشعل أبى الجهاز الطارد للناموس ونظر نحوى وقال: "كيف جاء الطين إلى وجه أمك؟"

سمعه أحد الفتوات وقال: "إنها ليست واحدة منا".

جرى الفتوات خلفنا فهربت أنا والمصور إلى داخل الحجرة حيث كان وجه مدام كوتو الرصين فى مواجهتنا، كانت ترتدى شريطًا ذهبيًا مزركشًـا وتمسك فى يديها مروحة كبيرة من جلد التمساح، دعتنا للدخول ورحبت بنـا وما كدنا نجلس حتى دخل ثلاثة رجال وقيـدونا وحبسـونا داخـل فاترينـة زجاجية، كان الدجاج يرفرف خارج الفاترينة وقد تحول فجـأة مـن كونـه دجاجًا إلى رجال من رجالات السياسة الذين يرتدون أروابًا بيضاء ترفـرف حول المكان ويتحدثون لغات غريبة، بقيت هنـاك وكانـت صـورتى وأنـا محبوس خلف الزجاج هى التى ظل أبى ينظر إليها بلا انقطاع حتى طلـوع الفجر.

(١٢)

بعد أيام قليلة قابلت مدام كوتو والرجال الثلاثة بطريق الصدفة، كانوا يتحدثون بغضب وانفعال وهم جالسون بجوار الشجرة، بدت مدام كوتو بدينة ومرهقة ولم تكن ترتدى الخرز الأبيض حول رقبتها، وعندما شاهدتنى توقفت عن الحديث وأشارت لى بحركة ما، شعرت بخوف لم أستطع تفسيره فسارعت بالجرى.

صاحت قائلة: "أمسكوه".

جرى الرجال الثلاثة خلفى لكن من غير حماس كبير وما لبثوا أن توقفوا لكننى ظللت أجرى دون توقف حتى اقتربت من البيت، جلست فوق الرصيف الأسمنتى وكان الدجاج يطوف فى الشارع وثمة كلبان يغازل أحدهما الآخر، ظل الكلبان يلفان حول بعضهما وعندما اشتدَّت حرارة الشمس نجح أحدهما فى امتطاء الآخر، وحين تجمع الأطفال حولهما عرفت أن الكلبين كانا ملتصقين تمامًا ولم يستطيعا الانفصال عن بعضهما؛ فراح الأطفال يضحكون ويلقون بالحجارة فوقهما، وأخيرًا انفصلا عن بعضهما من شدة الضرب وسارعا بالجرى فى اتجاهين متضادين وهما ينبحان.

جلست مرة أخرى أراقب ما يحدث حولى من تحركات، كانت الشجيرات ذات الأغصان الكثيفة باهتة من شدة الحرارة، واتخذت الطيور سطح بيتنا مكانًا للراحة، وامتلأ الشارع بالغبار المتصاعد من وقع أقدام الناس وخطواتهم الكثيرة، جفَّ العرق من فوق وجهى وانتشر الذباب وهبت الرياح حتى تحولّت إلى زوبعة حركت الغبار وقطع الورق المتناثرة والقاذورات وراح كل شيء يطير فى الهواء، كان الأطفال يجرون وسط الزوبعة ويصرخون صرخات حادة اختلطت بغناء الطيور وهواء ذلك العالم الساكن.

كان كل شيء متوهجًا من شدة الحرارة والجميع يتحدث بأصوات خفيضة وكاد المتسولون أن يختفوا، بينما راح الإسكافيون والخياطون يطوفون حول المكان، وكذلك بائعو الأحجبة والتعاويذ السحرية والشباشب وأعواد الخيزران والحصائر الحمراء الزاهية، وكان راعى الغنم يقود الماعز فى الشارع فامتلأ الشارع بفضلات الماعز وتشبع الهواء برائحة كريهة ولم تستطع الرياح تحريك الفضلات من مكانها، أصابنى الملل والسأم من مشاهدة تلك الأحداث العادية وشعرت فجأة بومضات فاترينة المصور الزجاجية تنادينى فتوجهت ناحيتها على الفور ووقفت صامتًا أتأمل الصور التى لم تتغير، ذهبت إلى حجرة المصور وطرقت الباب لكن أحدًا لم يرد، وحين طرقت مرة أخرى فتح المصور الباب بحذر، كان جاثمًا فوق ركبتيه وقال بصوت خائف وهو يشير بيديه: ابتعد من هنا.

- لماذا؟
- لأننى لا أريد أن يعرف أحد مكانى.
- ولِمَ لا؟
- فقط اذهب من هنا.
- ماذا لو لم أذهب؟
- سوف أضربك فوق رأسك ولن تستطيع النوم لمدة سبعة أيام.

فكرت فى الأمر فأضاف زاعقًا: "اذهب من هنا".

قلت له متسائلاً: "وماذا عن الرجال؟"

- عن أى رجال تتحدث؟
- الرجال الثلاثة.

سألنى بصوت مختلف: "هل رأيتهم؟"

- نعم.
- أين؟

- كانوا يتحدثون مع مدام كوتو.
- أوه، تلك المرأة.. عن أى شيء كانوا يتحدثون؟
- لا أعرف.
- متى رأيتهم؟
- منذ وقت قصير.

أغلق الباب بسرعة ثم فتحه مرة أخرى وقال: "اذهب الآن وإذا رأيتهم مرة أخرى فلا بد أن تأتى لتخبرنى فى الحال".

- ماذا ستفعل حينئذ؟
- إذا لم أستطع أن أقتلهم فسوف أجرى.

أغلق الباب نهائيًا، وقفت فى مكانى لحظة قصيرة لم أستطع خلالها الفكاك من صورة وجهه الخائف التى لم تبرح ذاكرتى، ثم مضيت بعيدًا وجلست فوق رصيفنا الأسمنتى وظللت أراقب كل تحركات الشارع دون انقطاع، كانت الأرض والسماء مضيئتين بفعل حرارة الشمس، وبينما أواصل مشاهداتى عرفت - فى لحظة خاطفة - السر وراء عودة الأشياء وتكرارها، التاريخ والأحلام والعالم العظيم المتلاشى للأرواح الكبيرة وتلك الأدغال الموحشة والنمور ذات العيون الماسية المتلألئة وهى تتجول بين أوراق النبات الكثيفة، شاهدت بعض الناس وهم يجرون السلاسل خلفهم وكانت رقابهم تنزف، ورأيت رجالاً ونساءً بدون أذرع يجلسون فى صفوف ويحلِّقون فى الفراغ، وكانت طيور وجياد كثيرة تنطلق من منتصف الشمس وتبدأ طيرانها حتى تقترب منى، كانت أجنحة الطيور والجياد تمتد وتغطى نصف السماء، والريش متوهج بلون الياقوت الأحمر الداكن، أغلقت عينى فأصابنى الدوار وسقطت رأسى فى البئر لكننى سارعت بفتح عينى كى أتجنب إحساسى بالسقوط، وعندئذ سمعت صوت زجاج يتكسر، وساد فترة الظهيرة صخب عارم.

كان ثلاثة من الرجال يضربون فاترينة المصور الزجاجية بقوة ثم أزاحوا بسرعة كل الصور المعروضة، وحينئذ استيقظ الناس فى الشارع من شدة الصخب ووقفوا أمام عتبات بيوتهم، انتزع الرجال الثلاثة الصور بسرعة خاطفة من الفاترينة الزجاجية وذهبوا إلى حجرة المصور، وراح الناس الواقفون يمسحون الشارع بنظراتهم لكنهم لم يروا شيئًا غريبًا، وتحرك المشهد باتجاه حجرة المصور فاندفعت أنا منطلقًا عبر الشارع.

كان باب الحجرة مفتوحًا عن آخره عندما وصلت ولم يكن الرجال هناك ولا حتى المصور، وكانت نافذته أيضًا مفتوحة عن آخرها لكننى لم أستطع أن أتسلقها وأنظر منها؛ لأنها كانت عالية جدًا عن الأرض فجريت إلى الحوش وتتبعت طريقًا خلف المرحاض مليئة بالذباب واليرقات، فتسلَّلت إلى أنفى رائحة كريهة أصابتنى بالإغماء ثم مضيت فى طريق أخرى قادتنى إلى المستنقعات والأراضى المغمورة بالماء وغابة مليئة بأشجار (الماهوجانى)، حيث شاهدت آثارًا عميقة لوقع أقدام فى التربة الناعمة خلف البيوت، مضيت أتتبع وقع الأقدام فغرقت فى الطين وتحولت التربة الناعمة إلى مستنقعات، كانت النفايات القذرة منتشرة فى كل مكان وكانت الزهور الغريبة والأعشاب الموحشة والفطريات بأشكالها الشريرة تنمو بكثافة فوق المستنقعات، وكانت الأشجار الصغيرة ذات الأغصان الكثيفة مزدهرة فى أماكن يصعب فيها الازدهار، وثمة جسر للمشاة كان مشيدًا فى الجانب الآخر، كانت التربة الناعمة مليئة بآثار وقع الأقدام وكذلك كانت المستنقعات، نظرت حولى فلم أستطع أن أجد أى شخص ووجدت نفسى أتوقف عن البحث، غسلت قدمى من الطين وقررت أن أعود إلى البيت واستأنفت مشاهداتى عبر الشارع لكننى لم أشهد شيئًا غريبًا آخر.

عادت أمى فى المساء وقد اندهشت لرؤيتى فقالت: "أنت موجود بالبيت؟ يالك من ولد طيب، لقد اعتقدت بأنك رحت تهيم على وجهك وذهبت إلى مصر هذه المرة!"

عادت أمى فى ذلك اليوم قبل موعدها المعتاد لأنها لـم تـذهب إلـى السوق؛ وإنما اكتفت فقط ببيع بضاعتها فى الشوارع وكان وجههـا مظلـلاً بلفحات الشمس.

فى تلك الليلة – وفى لحظة من لحظات طفولتى الغامضة – اسـتمعت إلى صوت أمى وأغنيات أبى كما قفزت إلى مسامعى تلك الحكايـات التـى تتناقلها الأفواه الجريئة عبر الأجيال عن العودة واللجوء، وفى نفس تلك الليلة المشبعة بضوء القمر العتيق استمعت أيضًا إلى قصص الأبطال الغامضـين الذين كانوا يتحولون إلى آلهة قسـاة وكـانوا يجلبـون الرعـد والفوضـى ويصيبوننا بالفزع، كان الخوف مسيطرًا على تلك الليلة حيث امتلأ الشـارع بأصوات حادة ظلت تصرخ دون انقطاع.

اقتحمتنا ذكريات الشارع المؤلمة المليئة بالظلال، الرجال المتوحشـون وهم يحطمون النوافذ والأبواب الخشبية ويضربون الناس فـوق أجسـادهم، وحين سبحنا بذكرياتنا مع الضباب والغيوم توقفنا عند رائحة الشعر المحترق وذلك الدخان الأصفر اللاذع المنبعث من دكان الحلاق وضوضـاء أغـانى الطقوس العقيمة والشجارات، وتلك الشرارات المضيئة الناتجة عن احتكـاك المناجل والسكاكين والهتافات من أجل الحرب.

كانت الأصوات تصرخ طالبة الانتقام فهرب جميـع مـن بالشـارع مذعورين بعد أن تلطخت صدورهم العارية بـدم الحيـوان، كـانوا نمـورًا متوحشة كثيرة العدد، وكانت أغنياتهم القادمة من أعماق الأرض ومن النجوم والزهور الذابلة تقهر الرياح بعد انتشارها فى كـل مكـان، كـانوا يغنـون ويهتفون طلبًا للدمار والتخريب حتى تشبَّع الليل بهتافاتهم، وكانت أجسـادهم المليئة بالعرق تومض مع ضوء المصابيح، ولقد سـاعدت تلـك الهتافـات العدوانية فى انعاش ذاكرتنا وساعدتنا على تذكر كل شيء.

كان من المستحيل معرفة أولئك الناس الذين انطلقت أغـانيهم مدويـة عبر الزحام حتى وصلت إلى خارج الحى وكان من الممكن سماعها فى كـل

مكان، كنا نعتقد بأننا نعرفهم وأنهم مألوفون لدينا من خــلال ظلالهــم التــى تغيرت بجوارنا وتحولت إلى حرارة شديدة مروعة، ومن خلال صــرخاتهم التى تحولت إلى صرخات طائر غريب حتى أن بعضنا كان يستجيب لنــداء روابط الدم القديم ونواقيس الغروب السرية الصاخبة.

تدفق عدد كبير من الفتوات والناس العاديين نحونا ومــلأوا طريقنــا بالجراح وليلنا بالقتلى، وأفقدونا القدرة على النوم وبثوا الــذعر فــى الأرض وهاجموا كل الأحياء ولم يتوانوا عن تكسير الأبواب وتحطيم الأسطح، لكننــا – ومن خلال صرخاتنا الجريحة – لم نستطع التعرف على أعــدائنا الــذين راحوا يهاجموننا فى الظلام بوجوه مضيئة ويضربوننا بالعصــى والحجــارة والسياط والسيور الحديدية، مضى بعض الوقت حتى أدركنا أننا فريسة لعمل من أعمال الانتقام الليلى التى تحدث فى الظلام الحالك، انطفــأت المصــابيح واحدًا بعد الآخر.

تلاشت أصواتنا فى الظلام وانطلقت فى الهواء صيحة هــادرة كأنهــا صوت القائد وهو يأمر جنوده، انطلقت الصيحة وسط سكون الأنهار العميــق فأصبح كل شيء ساكنًا وكأن الليل قد ابتلع عنفه وصخبه، هبَّت الرياح فــوق البيوت وراحت تداعب (برقة) أوراق الأشجار، ثم تبعتها همســات الأرواح وكان خرير الماء ووقع الأقدام يخترقان آذاننا فبدا الأمر وكأن الرياح تستعد للهجوم الأخير.

كسر رعب أحد الأبرياء البسطاء ذلك الســكون حــين دوت صــرخة أخرى، لم تكن الصرخة من الأعداء وإنما هى صرخة امرأة شاهدت شــيئًا عجيبًا ووحشيًا سارع البسطاء على إثرها بالعودة إلى حجراتهم، ساد الرعب والفزع كل طرقاتنا وسكن أجسادنا فى الظلام الحالك، وكانت النساء تبكى فى كل مكان بحثًا عن أطفالهن، تحركت بين الظلال ومضــيت عبــر الشــارع ووجدت نفسي وسط ظلام دامس، وكنت أعتقد بأننى أتقدم نحو الأمان لكننى

لم أستطع رؤية وجهتى أو معرفتها، وعندئذ بدأت أصوات تصيح من حولى قائلة:

- اقتل المصور.
- أسلبه صوره.
- أجهز عليه.
- اعمل على إخفائه.
- وإخفاء أعدائنا.
- ولتعمل على تدميرهم.
- ولتلقنهم درسًا.
- كن قويًا معهم.
- وحطم أصابعهم.
- ورءوسهم.
- عليك بسحق المصور.
- واترك جسده فى الشارع.
- دع الطيور تأكله وتنهش جسده.
- لأنه سخر من حزبنا.
- ومن قوتنا.
- ومن قائدنا.

ارتفعت حناجرهم بالغناء وأصبح لوقع أقدامهم أصوات ما لبثت أن تزايدت كما يتزايد لهب الحريق، واستيقظ الأموات على إثرها وعلى إثر الأصوات المتزايدة، ضربت رأسى فى شىء صلد وانتزعت كوعى من فك الموتى واتخذت طريقى خلال الصدأ الخشن، ثم اكتشفت أننى وصلت إلى الشاحنة المحترقة حيث شعرت بالأمان، اختبأت فى مقعد السائق وبالرغم من ذكريات تلك الليلة الكئيبة فقد ظللت أراقب دراما الحياة التى لا يستطيع فهمها سوى الموتى.

لم أستطع رؤية أى شيء لكننى سمعت صوتًا عبر الشارع، كان الصوت هامسًا فى البداية، ثم أصبح عاليًا وحزينًا فى وقت واحد: "أزارو! أزارو! أين أنت؟"

كان صوت أمى التى راحت تصيح مرة أخرى مرددة: "أزارو! أزارو!"

ساد هدوء مفاجيء وفى لحظة من لحظات طفولتى الكئيبة المظلمة أدركت أن أمى تقف متلهفة فى انتظار إجابتى، لكن الليل بظلامه الحالك والرياح العاتية وقف عائقًا أمام استجابة أحدنا للآخر وخيب آمالنا فى التواصل، ورغم ذلك كنت أستمع بفزع إلى اسمى قادمًا مع هبوب الرياح ومتنقلاً من فم إلى آخر ومن أحد جوانب الشارع إلى الجانب الآخر: "أزارو! أزارو!"

انتقل اسمى مع الرياح من مكان إلى آخر حتى انتشر فى شارعنا ثم راح يتردد متجهًا ناحية حانة مدام كوتو، ظل الاسم يرِن فى أذنى وظلت آلاف من الأصوات المرتجفة تردده فوق الشاحنة المحترقة وكأن الله كان ينادينى مستخدمًا أفواه الناس الصارخة.

كان الموتى أيضًا يرددون اسمى ويتناقلونه عبر الأثير فى تلك الليلة!

فى تلك اللحظة من لحظات طفولتى كنت أستمع إلى اسمى وهو يتجه – أخيرًا – نحو بيت المصور ويتردد صداه بخفوت فى الطريق حتى تلاشى تمامًا، وعندما ساد السكون لم أسمع صوت أمى.

انتابنى خوف شديد وأنا جالس فى الشاحنة، فشاهدت الموتى وهم يستيقظون وينهضون فى نفس اللحظة التى بدأت فيها الموجة الثانية من الفوضى والدمار بمصاحبة أغانى الأعداء وأناشيدهم، شارك الموتى البسطاء من الناس وامتزجوا مع الفتوات الذين ظهروا فى الليل وسدوا آذانهم

بصيحات الجرحى، ثم انطلقوا معبرين عن سعادتهم الشديدة بعد أن اكتشفوا أن تلك الليلة الشاحبة ليست سوى مكان مقدس مشبع بالحمى، وراحوا يمرحون فى تلك الليلة الخادعة حيث كانت الأجساد تومض بالدم واللون الأبيض الفضى، تخلص الموتى من صدأ الحياة لكنهم حافظوا على صلابتهم، كانت شفاههم تردد كلمات البسطاء المعارضة للفتوات والأعداء، مستخدمين مناورات رجال السياسة وأحلامهم القابلة للتبادل وحماقة الفتوات الذين يرتكبون أعمالاً وحشية لا يعرفون حتى لصالح من يرتكبونها.

كانت ليلة بدون ذكرى، ليلة تكررت فيها المضايقات وأعمال العنف فى طريق حياتنا، تلك الطريق التى ظلت جائعة من أجل إحداث تغييرات عظيمة.

أيقظ الموتى ببطء أولئك النائمون فى الطريق وكانت بهلوانات العنف تتشقلب فى الهواء بأحلام سياسية جديدة بين الرجال والنساء والأطفال، وعندئذ سمعت أصواتًا كثيرة غير خائفة تنادى بالوحدة وتحث على العمل المشترك، ثم سمعت شجارًا وصرخات مقاومة ووقع أقدام تخطو فى الظلام، وشاهدت أجسادًا صلدة تتلألأ كالفولاذ ونساءً يحملن الهاون لهرس البطاطا وبعض الرجال الأقوياء وقد أزعجتهم الرياح العاتية، كانت أصوات منبعثة من الأعماق تهتف بأسماء حكام قساة فأدركت أن الأعداء كانوا يعانون من خيبة الأمل، كان جيران المصور فى الطليعة وكان الموتى يقفون بشغف إلى جانبهم وسمعت أصواتًا لم أخطئ فى التعرف عليها تهتف بشجاعة:

- تصدوا لهم وقاتلوهم!
- قاتلوهم من أجل حريتكم!
- اضربوهم بالحجارة!
- لقد وضعوا لنا السم فى اللبن.
- والكلمات.

- والوعود.
- ويريدون أن يحكموا بلدنا!
- وحياتنا!
- والآن يهاجموننا!
- يهاجموننا فى شارعنا!
- فلتحاربوهم دون خوف!

تحولت المناجل والسكاكين إلى لهب، وكشر الليل عن أسنانه الخشنة، وعندئذ بدأ الأعداء محاولتهم الأخيرة اليائسة وقالوا:

- اسكبوا البنزين فوق البيت.
- أحرقوه.
- أحرقوا المصور.
- أشعلوا النار فى أزارو.

ارتعشت داخل الشاحنة وقذف شخص ما بجمرة مشتعلة فوق بيت المصور لكن الموتى أمسكوا الجمرة وأكلوا اللهب المشتعل، ثم ألقى شخص آخر بجمرة أخرى فى الهواء استقرت فوق الغطاء المعدنى لمحرك الشاحنة وشعرت بشىء ما يزحف فوق قدمى كما تدفق الدخان من النوافذ الجانبية للشاحنة، كانت الشاحنة مليئة بالدود والعنكبوت وحين بدأت أطل برأسى من النافذة الأخرى استعدادًا للخروج سمعت انفجارًا عنيفًا قادمًا من بيت المصور، ساد بعده صمت مطبق وبدأت الرياح تصفر.

الظلال والخطوات والأجساد المفعمة بالحياة والنمور المفترسة والتجار المنكوبون والمتلاعبون بالنار والمثيرون للموتى، كل تلك الأشياء أصبحت مجرد وقع أقدام متلاشية وتبعثرت مع الرياح وصوت الانفجار، ولم تشكِّل أصواتهم أى نوع من أنواع التهديد أو الخطر، بل أصبحت مشبعة بالخوف كما تفسخت أجسادهم السوداء.

دوّت فى الهواء طلقة من مسدس لم تكن موجهة إلى هدف محدد، وكأن نجمًا فى السماء قد انفجر فوق شارعنا مما جعل هروب الأعداء الجماعى أكثر صعوبة فاستطعت أن أسمعهم وهم يتساقطون فوق بعضهم البعض، ويصطدمون بظلالهم وأجسادهم المضيئة فى الظلام فى حالة من الذعر، سمعتهم أيضًا وهم يصرخون ويهتفون بأسماء أمهاتهم وينادون على زوجاتهم ويتساءلون قائلين: "من سيرعى أطفالنا من بعدنا؟"

كان الأبرياء والبسطاء يضربون رءوسهم بالزجاجات، حين كان رجال الشارع يمطرون المتراجعين بضربات الهراوات الشديدة وهم يتساقطون بفعل غضب الناس وبفعل مخالبهم الجريحة وسيوفهم البدائية.

التحقت قوات جديدة بمعارك الليلة وحولتها إلى نوع من التحالف مع البسطاء، وعندما انسحبت القوات العارمة أصبح الوضع هادئًا، وحين بدأ الأعداء فى تشغيل محركات سياراتهم والرحيل باتجاه حانة مدام كوتو عند نهاية الشارع هبط جيش من الموتى فوق فم الأرض النازف حيث شاهدتهم من الشاحنة أثناء مراقبتى للعالم وهو يذوب فى قصص مثيرة وغريبة، احتل الموتى - بعيونهم الزرقاء ونظراتهم الفضية - جزءًا كبيرًا من ذكرياتنا المؤلمة.

استرد سكان الشارع ليلتهم حيث بدأت الأصوات تستيقظ من جديد وأضيئت المصابيح واحدًا بعد الآخر وراح الناس يتجمعون فى تردد أمام عتبات بيوتهم، وكان المصور هو الشىء الوحيد الغائب فغابت بالتالى فرصة تسجيل أحداث الليلة وإمكانية تحويلها إلى أحداث حقيقية عن طريق تصويرها بآلته السحرية، خرجت من الشاحنة وجريت عبر الشارع متلهفًا للارتماء بين أذرع أمى اليائسة.

سمعنا فى الصباح عن الجرحى وعن المرأة التى جرحوا وجهها بالسكين، والرجل الذى شقوا رأسه بآلة حادة، وأولئك الناس الذين قطعوا

أنوفهم بالزجاجات المكسورة، وسمعنا أيضًا بأولئك الذين جلدوهم بالسيور وبذلك الرجل الذى فقد نصف أذنه والمرأة التى احترقت مؤخرتها، لكننا سمعنا – فى المقابل – عن موت العدو وعن الأعمال الوحشية التى ارتكبها أحد الأحزاب فى حق الآخر.

تفجرت كل الطاقات وامتلأ الشارع بالشجارات، لم نحتفل بمقاومتنا فقد كنا نعرف أن المتاعب لم تكن نهائية وأن الانتقام مؤجل إلى ليلة أخرى، بدا سكان الشارع الغاضبون فى الحذر استعدادًا للدفاع عن أنفسهم؛ فتسلحوا بالسكاكين والهراوات والبنادق الدانمركية وانتظرنا وقوع أى أشكال جديدة من العدوان حتى طال انتظارنا، وحين لم يقع شىء بالطريقة التى كنا نتوقعها بدأ الناس بعد أسبوعين فى التخلى عن حذرهم ثم غرقنا من جديد فى حياتنا العادية.

اختفى المصور تمامًا وتحطمت حجرته بعد أن كسروا الباب ومزقوا ملابسه وصوره وأفلامه التى لم ينته من تحميضها، كما كسروا بعض آلات التصوير الخاصة به لكن صاحب البيت القاسى – الذى لا يعرف قدر الأبطال – ظل يطوف هنا وهناك بحثًا عنه كى يصلح له الباب.

أصابتنا فكرة قتل المصور بالفزع، ظلت فاترينته الزجاجية متحطمة ومبعثرة، وبدت فى حالة بائسة لكنها أصبحت رمزًا وشاهدًا على ما يمكن أن تفعله القوات الجبارة إذا ما تحدث أى شخص عن فسادهم أو إذا تجرأ أحد على الوقوف ضدهم.

لم يكن المصور موجودًا ليسجل أحداث تلك الليلة، فلم تنشر الصحف أى شىء وبدا الأمر كأن كل ما حدث لم يكن حقيقيًا وبدأوا يستأنفون حياتهم الطبيعية.

كان الشارع يعانى من الخوف فى البداية فتوقف أصحاب الدكاكين والأكشاك عن البيع فى المساء، وبدا الشارع أكثر ظلامًا فى الليل وخاف

الناس من أن يفتح أحد أبوابهم حين يخرجون للشراب أو يعودون فى وقت متأخر؛ فقرروا أن يسكروا ويغنوا فى الليل داخل حجراتهم.

لم يحدث شيء بعد فترة قصيرة ولم ينتقم أحد منا كأن ما حدث لم يكن شيئًا ذا أهمية؛ فبدا البعض منا يشك فى ذاكرته وبدأنا نعتقد بأننا جميعًا كنا نحلم بتلك الليلة وربما كنا مصابين بالحمى، ولم تكن هى المرة الأولى أو الأخيرة التى نشعر فيها بنفس الأحاسيس وفى غضون ذلك تدفقت النمور المتوحشة وغمرت سطح طرقاتنا الجائعة.

فى كثير من تلك الليالى وكثير من لحظات طفولتى كانت أمى تحكى لى قصصًا عن أصل الزبرجد وبداياته، فاستمعت - تحت عيون القمر البيضاء وتحت سقف السماء الزرقاء ومن خلال الأضواء الذهبية المتبقية فى حجرتنا المتواضعة - إلى حكمة الأغانى القديمة التى كان يتمتم بها أبى بصوته المتصدع، كما كنت أستمع - وأنا مخدر بالظلال البيضاء والهواء اللازوردى الغامض ونظرات الموتى الفضية - إلى قصص الفرح والسرور التى يصعب تحقيقها، كنت أستمع أيضًا إلى الأغنيات المصاحبة للعمل وأوقات الحصاد وإلى القصص التى تفيض بأسرار الأبطال.

كانت رياح العودة بالخارج تهب بهدوء فوق الأرض.

الكتاب الثالث

(١)

لم تغير حملات الترويع حياتنا بأى شكل من الأشكال وظلت المضايقات تلاحق أمى فى السوق، وعندما انتقلت ببضاعتها إلى مكان آخر تظاهر فتوات الحزب بأنهم من الزبائن، وبدأوا فى مضايقتها بتقليب بضاعتها الفقيرة وأخذ ما يشاءون منها دون أن يدفعوا ثمنها، كانوا يتهمون أمى بأبشع الاتهامات مما جعل أولئك الذين اعتادوا الشراء منها يذهبون للشراء من شخص آخر ومكان آخر، وهكذا كانت أمى تعود للبيت دون أن تبيع كثيرًا ودون أن تكسب ما يكفى من النقود.

اعتاد أبى أن يعود مبكرًا كل ليلة بعد كثير من المضايقات التى كان يتعرض لها وكان يشعر بإرهاق أكثر مما كان يشعر به فيما مضى، وكان ظهره يؤلمه بشدة حتى أنه لم يكن قادرًا - فى بعض الصباحات - على الوقوف بسهولة، فقد أبى رشاقته وكانت رقبته تؤلمه طوال الوقت كما تقرَّحت قدماه وتسلخ الجلد حول كتفيه ورقبته ومن خلف أذنيه وفى كل جزء من عموده الفقرى، وأصبح لون بشرته رماديًا بعد أن تسربت محتويات أجولة الملح والأسمنت الثقيلة بكثرة فوق جسده.

توقفت بعض الوقت عن تجوالى فى الشوارع وعن الذهاب بعيدًا والدخول فى مغامرات مجهولة وغريبة، فكنت أجلس بالخارج بعد عودتى من المدرسة وأكتفى باللعب فى الشوارع، ومع بداية المساء حين يكون التعب قد استبد بأبى وأمى وحين يفقدان القدرة على عمل أى شىء آخر كنت أذهب لقضاء بعض المشاوير التى يطلبانها منى، كنت أشترى الشموع وأقراص

الناموس وأقوم بتسخين الطعام وغسل الأطباق وتنظيف الحجـرة وإحضـار الأعشاب التى يستخدمها أبى فى العلاج وممارسة بعض الطقوس السـرية، كنت أذهب إلى العرّاف لإحضار الأدوية المناسبة لعلاج ظهر أبـى، وكنـا جميعًا ننام مبكرًا ولم يعد أبى يجلس لساعات طويلة فوق مقعده.

عندما كانت الشمعة توشك على الانتهاء وتبدأ الفئران فى الحركة بحثًا عن الطعام كنت أطفىء الشمعة وأرقد فى الظلام دون أن أنام، وكـان مـن اليسير سماع شخير أبى وأمى وهما مستسلمان للنوم فوق السرير، وحين كان النوم يداعب مقلتى أحيانًا كان الجزء المضىء بداخلى ينتفض خارجًـا مـن جسدى ويطفو فى الظلام، وثمة ضوء مشرق كان يحيطنى من كل اتجاه كنت أشعر به دون أن أراه، كنت أخرج من جسدى لكننى كنت أجد صعوبة فـى النفاذ من سقف الحجرة حيث كانت الفئران بتحركاتها الصاخبة تشدنى إلـى أسفل فأغرق عندئذ فى نوم عميق.

نجحت ذات ليلة فى رفع نفسى حتى خرجت من السقف وصعدت إلى أعلى بسرعة غريبة فتساقطت النجوم من جسدى ولم أقدر على التحكم فـى حركتى، كنت أصعد وأهبط وأذهب فى كل الاتجاهـات مـارًا بالـدوامات والهضاب وقمم الجبال العجيبة وأنا مصاب بالدوار، ظللت أجرى وأرقـص مع الدوامات فبدا الظلام لا نهائيًا وبدون إشارات أو علامات توحى بنهايته، وواصلت صعودى وتحليقى فى الجو بسعادة بالغة، لكننى لم أصل إلى السماء ثم فهمت شيئًا عن الابتهاج والفرحة الناتجة عن الطيران التى لا ينعم الإنسان بمثلها.

كنت على وشك أن أتعلم كيفية التحكم فى حركاتى فـى تلـك الليلـة، عندما تفجَّر بداخلى فجأة وميض مبهر وهزَّنى كالصخب المفاجىء، فشعرت بأن جسدى قد تبعثر فى كل الاتجاهات وأصبحت كأوراق الشجر حين تقذف بها رياح العودة بعيدًا، شعرت بنفسى أسقط فى الفضاءات المظلمة الواسـعة

الموحشة، وأحسست بصراع عنيف يتخلل بهجتي فحاولت الرجوع إلى داخل نفسى غير أن الليلة كلها كانت تفيض بتيار متقلِّب، حاولت وبذلت مجهودًا كبيرًا كى أنعم بالهدوء لكننى شعرت بنفسى أسقط بسرعة مخيفة فى بئر مظلمة وقبل أن أصل إلى القاع لاحظت أننى كنت أسقط فوق وجه قمر مضىء، تراجعت بهجتى وحل مكانها الظلام ثم انفجرت صارخًا، وعندما نجحت فى استعادة نفسى سمعت للحظة صوت الفئران وهى تتحرك وتمضغ طعامها وصوت أبى وأمى وهما يغطَّان فى النوم كما سمعت صوت طرقات قوية فوق الباب.

بقيت جالسًا فوق الحصيرة فترة من الوقت دون أن أتحرك وقد أصابنى صداع عنيف، تسلَّلت الأضواء إلى عينى وشعرت بفراغ داخلى وبدا جسدى غريبًا عنى، لم تتوقف الطرقات القوية فوق الباب وتداخلت أصواتها مع أنفاس أبى وأمى والتزمت الفئران بالسكون، نهضت ومضيت نحو الباب وسألت: "من الطارق؟"

تحرك أبى من فوق السرير وتوقفت أمى عن الشخير ولم يجب الطارق على سؤالى، وعندئذ صاح أحد السكان المجاورين من نافذته قائلاً: "ما هذه الطرقات؟ إذا لم تكن راغبًا فى المتاعب فعليك بالرحيل الآن، هل تسمعنى؟"

عادت الطرقات فوق الباب مرة أخرى لكن برقة كأنها شفرة كان من المتوقع أن أفهمها، فتحت الباب فأبصرت المصور وهو ينحنى أمام حائط بيتنا المنخفض والكاميرا تتدلى من كتفه وكانت عيناه الخائفتان تلمعان فى الظلام.

قال المصور: "إنه أنا".

حدَّقت فيه مدة طويلة دون أن يتحرك من مكانه، وفى تلك الأثناء صاح جارنا مرة أخرى قائلاً: "من هو ذلك الذى يريد أن يموت؟"

فتحت الباب عن آخره كى يتمكن المصور من الدخول فسارع إلى الحجرة وهو لا يزال منحنيًا، أشعلت شمعة فاستطعت أن أرى النزيف المتدفق من رأسه، جلس فوق حصيرتى، والدم يتساقط فوق جبهته وبالقرب من عينيه حتى أغرق قميصه الأصفر، كان يتنفس بصعوبة ويحاول تهدئة نفسه، وكان شعره خشنًا ووجهه مليئًا بالخدوش وإحدى عينيه متورمة وكانت شفته السفلى منتفخة وتتحرك بطريقة لاهثة.

سألته: "ماذا حدث لك؟"

أجاب: "شيء بسيط، ليس بالشيء الذى يعجز الرجال عن تحمله".

جلس ثم ركع ضامًا رأسه بين يديه، وعندما رفع رأسه ونظر إلى أعلى بدت عيناه كبيرتين ومشرقتين ومليئتين بالفزع والمعرفة.

حكى لى عن كل ما حدث بالشارع، نفس الأشياء التى تحدث فى كل مكان وعرفت أننا - بشكل أو بآخر - سوف نواصل مقاومتنا؛ من أجل الحقيقة والعدالة وأننا سوف ننتصر فى النهاية.

كانت يداه ملطختين بالدماء فراح يمسحهما بأطراف قميصه، وحين رؤيتى للون الدم الأحمر مختلطًا بلون القميص الأصفر شعرت بالاستياء وعدم الارتياح.

أضاف المصور قائلاً: "صدقنى".

ثم صمت قليلاً قبل أن يتحدث مرة أخرى وكانت عيناه تتحركان فى كل الاتجاهات فى محاولة للتذكر، وثمة ابتسامة مترددة كانت مرتسمة فوق شفتيه حين استطرد: "جاء الرجال الثلاثة فى ليلة أخرى فقفزت من النافذة وجريت نحو المستنقعات حيث بقيت هناك مختبئًا تحت جسر المشاة الخشبى، لكننى خرجت من مخبئى حين هاجمتنى الديدان وتسللت إلى قدمى، كنت خائفًا وراح الكلب ينبح فى وجهى ويتتبعنى حيثما ذهبت، كان الكلب بائسًا

وقذرًا وبقدمين اثنتين فقط، وحين لم يتوقف عن مضايقتى ومواصلة النباح من حولى بدأ الناس ينظرون إلى فلم أعرف إذا ما كان الكلب هو العدو أم أولئك الناس الذين يحدّقون فى، ثم ركلت الكلب بقدمى ركلة قوية سقط على إثرها ولم يستطع النهوض مرة أخرى".

توقف المصور مرة أخرى ثم استطرد قائلاً: "ذهبت بعد ذلك إلى بيت أحد الأصدقاء لكنه كان بصحبة صديقته فنظفت قدمى وبقيت بالخارج ثم ذهبت لأبحث عن أقربائى".

صمت قليلاً فانتهزت الفرصة وقلت: "إن الفئران تواصل تفتيت حياتنا".

سأل وهو يقفز من مكانه: "ما هذا؟"

قلت: "الفئران".

قال: "أوه، الفئران!".

اعتقدت بأنه نسى ما أراد أن يقوله حين توقف عن الكلام وراح ينظر خلسة ويدور بعينيه ويئن، تسللت قطرة من الدم إلى جبهته وظلت تتدحرج حتى توقفت فوق خده، كنت أنظر إلى قطرة الدم حين بدأ يستأنف كلامه قائلاً: "بقيت مع واحد أو اثنين من أقربائى ولاحظت أن أولئك الناس الغرباء بدأوا فى مراقبة بيوتهم، وكنت قد سمعت عما حدث بالشارع ورغم مرور وقت كاف وعلى الرغم من أننى كنت مدينًا بثمن الإيجار وفى حاجة لشراء بعض الأشياء للكاميرا، فقد وجدت نفسى أعود إلى بيتى هذه الليلة، مررت بالأماكن المظلمة أثناء عودتى وحاولت أن أكون يقظًا لكننى حين اقتربت من الحى قفز فوقى اثنان وضربا رأسى بالسيف والعصا، وبعد أن جاهدت للتخلص منهما جريت مهرولاً نحو الغابة حيث بقيت هناك ولم أنجح فى الإفلات من لسعات الناموس، سمعت الكلب صاحب القدمين ينبح فى الظلام

لكننى لم أتمكن من رؤيته، شعرت بالجوع وسمعت أصواتًا صادرة من الأشجار، وعندئذ قررت أن ذلك هو الوقت المناسب للعودة ومواجهة العقاب".

كانت قطرة الدم لا تزال عالقة بخده، توقف عن الكلام مرة أخرى ثم استطرد: "مشيت فى طريق أخرى لكننى لم أختبىء هذه المرة ولم أسلك الأماكن المظلمة حتى يتمكن سكان شارعنا من معرفتى، وحين اقتربت من البيت قفز فوقى اثنان من الأهالى كانا مختبئين داخل الشاحنة المحترقة، هتفت لكنهما انهالا على بالضرب ثم سارعا بالهرب، وبعد ذلك جئت إلى هنا لأننى لم أشعر بالأمان فى حجرتى أو فى أى مكان آخر".

صمت مرة أخرى وراح يستمع إلى الفئران ويمسح خده بيده ويقول: "لا بد أنها فئران كبيرة!"

سألته: "وكيف تعرف أنها كبيرة؟"

أجابنى: "يمكنك القول بأنها كذلك بمجرد الاستماع إلى حركاتها".

ثم أضاف وأنا أحاول الاستماع إلى الفئران جيدًا: "إن لها أسنانًا كبيرة، أسنانًا حادة.. هل تعرف بأن الفئران فى مصر تستطيع التهام جمل بكامله؟"

قلت: "وماذا تعنى كلمة جمل؟"

- الحيوان الوحيد الذى يستطيع العيش فى الصحراء.

تعجبت لفكرة وجود مثل ذلك الحيوان فسألته: "وتستطيع الفئران أن تأكله؟"

- نعم.
- كيف؟
- بأسنانها.

قلت له مواصلاً الاستماع إلى الفئران: "هل سيأكلوننا؟"

- قد يفعلون ذلك لكنك لا تستطيع التأكد.

- التأكد من ماذا؟

- من درجة الجوع التى يعانون منها.

استمعت إلى تحركات الفئران مرة أخرى وقلت: "أعرف نوعًا جيدًا من السم يمكننا استخدامه لقتلها، إنه أفضل وأقوى سم، سوف أحضر لك بعضًا منه".

توقفت الفئران عن الأكل ولم نعد نسمع صوتها فقلت: "إنها تستطيع أن تفهمنا".

نهض المصور وقال: "حسن، إن رأسى تؤلمنى فتعال لتصحبنى إلى الحوش لأننى أريد أن أغسل كل ذلك الدم".

خرجت معه وكانت الرياح تعصف بقوة عبر الممر، ومع بداية خطواتنا كانت الدنيا مظلمة حتى إننى اعتقدت بأن الملابس فوق حبل الغسيل ليست سوى رجال بنظارات سوداء لكنها كانت ترفرف مع الرياح، كنت معتادًا على الظلام، نظف المصور جروحه من الدلو المجاور للبئر وكان يئن ويتألم بشدة، وعندما عدنا إلى الحجرة كان أبى مستيقظًا فسألنى فور دخولى: "من يكون ذلك الرجل؟"

أشعلت الشمعة وكان المصور واقفًا عند الباب والدم والماء يقطران من رقبته، نظر أبى إلينا دون أن يغير من تعبيرات وجهه وبينما كان المصور يجفف شعره بقميصه، أخبرت أبى بما حدث، وعلى الرغم من أننى حاولت أن يكون صوتى منخفضًا فإن أمى استيقظت وبعد أن عرفت كل شىء ذهبت وسخنت بعض الطعام للمصور ثم وضعت المراهم فوق جروحه.

ظلوا يتحدثون باهتمام طوال الليل ويتناقشون حول ما يمكن أن يفعلوه من أجله، وفى النهاية صمم أبى وأمى على بقائه حتى الصباح، قرروا معًا

أشياء أخرى كثيرة لكننى لم أعرف عنها شيئًا لأن النعاس قـد غلبنـي ولـم أستطع مقاومة النوم.

استيقظنا فى الصباح ولم نجد المصور لكننا أبصرنا صور الاحتفـال بعودتى فوق الطاولة.

(٢)

كان الجو حارًا بشدة أثناء ذلك اليوم من بعد الظهر حين شاهدت ستة من أبناء القادة العسكريين الصغار، والذين تصورت للوهلة الأولى أنهم حيوانات خرافية حيث بدا نصفهم الأعلى على هيئة رجل والنصف الأسفل على هيئة ثور، كانوا يمثلون دور إحدى معارك الهيمنة وهم يتقاتلون بجوار الشاحنة المحترقة دون أن يتدخل أحد للفصل بينهم ويقذفون بعضهم البعض بالعصى الطويلة والهراوات والسياط، كانوا جميعًا متشابهين ولهم وجوه عنيفة وماكرة وعضلات بارزة كأنهم ملاكمون معتزلون، كما أنهم بدوا كأولئك السفاحين والفتوات والشيالين الذين رأيتهم فى الجاراج، بدوا جميعًا فى حالة من الجوع والتوحش، وكانت صدورهم عارية ووجوههم مثيرة للرعب وظلوا يتقاتلون عدة ساعات كأنهم يعانون من كابوس مخيف فى الظلام لا يستطيعون الفكاك منه.

سمعت طرقعة السياط ورأيت السقوط السريع للهراوات، وحين سقط أحد الرجال اندفع نحوه ثلاثة آخرون وهجموا عليه وانضم إليهم الرجلان المتبقيان فراح الرجل وهو ممدد تحتهم يضرب ظهورهم بالسوط بطريقة عشوائية، وسرعان ما امتلأت أجسادهم برغاوٍ من العرق والدم، كانت البشرة البرونزية لخصمين عنيفين تتلألأ تحت الشمس المحترقة، فراحا يفصلان جسد كل منهما عن الآخر وجلد أحدهما ظهر الآخر بالسوط وظل يجلده فوق نفس المكان حتى تحول جلده إلى قشور بيضاء وما هى إلا لحظات قصيرة حتى تحولت إلى اللون الأحمر، احتمل الآخر ما حدث له لكنه رفع سوطه بعد لحظة وفعل نفس الشيء فى خصمه لكن بصمت شديد وبلا أى رحمة، كانوا جميعًا أعداء أشداء وظلوا يجلدون بعضهم البعض ويحملون السياط، ثم كسر أحدهم نوبة السعار التى انتابتهم وأمسك بسوط واحد منهم واشتبك معه

فسقط الاثنان فوق الأرض وظلا يتدحرجان حتى غطت الدماء والرمال ظهريهما.

ألقى أحدهم بالآخر وضربه فى رأسه ثم هتف مبتهجًا، نهض الآخر بعد أن وقع على الأرض وأمسك بحجر وألقى به فى عين خصمه قبل أن يتمكن من الإمساك به، تسلل نوع من الدم الأخضر من عينه لكنه لم يصرخ، وبدأ كلاهما يضرب الآخر بطريقة متتالية، اتسعت العين النازفة وأصبحت خضراء وكان سكان الشارع يشاهدون المعركة فى ذهول.

كان الرجال الأربعة الآخرون يتعاركون مع بعضهم البعض بحماقة كبيرة، ويتقاتلون فوق غطاء محرك الشاحنة المحترقة وفوق الأرض وفوق شظايا فاترينة المصور الزجاجية المتكسرة، وكانوا ينزفون من قطع الزجاج الملتصقة بظهورهم لكنهم لم يتوقفوا عن القتال وكأنهم لا يتألمون، استطعنا - فى البداية - أن نفهم ذلك النوع من القتال لكن معركتهم المحيرة أصابتنا بالحيرة والارتباك؛ فقد كان كل واحد منهم يقاتل الآخر بلا انفعال وبدون أن يستخدم أى منهما أى نوع من الحيلة أو الخداع، انتفخت عيونهم وأصبح من العسير معرفة انتماءاتهم الحزبية أو المجموعة التى يتقاتلون من أجلها أو حتى الهدف من قتالهم، كانوا يتقاتلون بطريقة غريبة ويلقون بالرمال فى أعين بعضهم البعض، ويبصقون ويرفعون وجوههم لتلقى الضربات القوية دون أن يتأثروا بها، وكانوا أحيانًا يضربون أنفسهم ليقعوا على الأرض ثم ينهضون مرة أخرى ويستأنفون الشجار بضراوة ولا مبالاة، أصيب أحدهم فى عضوه فقفز عاليًا ثم وقع على الأرض وراح يتدحرج ولم يقدر على التحكم فى نفسه، وعندما نهض مرة أخرى ظل يطأ الأرض بقوة محاولاً التغلب على آلامه، وعندئذ جاء رجل آخر - كنت أعتقد أنه من أنصاره - وضربه بحجر فى رأسه ضربة قوية سقط على إثرها فوق الأرض وراح يتمدد كحيوان ميت.

قال أحد السكان وهو واقف فى الشارع: "إنهم مجانين ينتظرون نشوب حرب شعواء".

بدا الرجل المتمدد فوق الأرض كحيوان ميت في الارتعـاش فجـأة، وراح يتألم بشدة ويرفس الأرض بقدميه ويصدر أصواتًا غريبة من حنجرته، ثم نهض من رقدته كأنه قد تحرر من كابوس وكان الجزء العلوى من جسده متيبسًا وعيناه جامدتين ولا تعبران عن أى شىء، وعندما وقف على قدميـه أطلق ضحكة قوية وأخرج شيئًا ما من جيبه الخلفى راح يلوح به فى الهـواء سبع مرات، ثم ضغط عليه بكلتا يديه حتى تدفق منه عصير أحمر، وبعد ذلك رفع كف يده المفتوح وضرب به فوق صدر أحد الأعداء.

صرخ الرجل كما لو أن الضربة كانت بالسيف ثم سقط منهارًا فـوق الأرض وهو يتألم بشدة، بينما راح الرجل - صاحب السـلاح الغريـب - يكرر عمله البطولى مع عدو آخر ويصفعه فى وجهه بقـوة محـدثًا صـوتًا كصوت الرعد، شاهدنا وجه الرجل وقد تحول إلـى اللـون الأحمـر وبـدا الاحمرار يتساقط كالشمعة المنصهرة، لف الرجل بجسده وهو يصيح ويرفس بقدمه ثم ركع على ركبتيه وأمسك وجهه وعندما وقف مـرة أخـرى كـان يترنح؛ فشاهدنا بصمات كف الرجل مرتسمة فوق جسده وجلده المتسلخ، كان يبكى كالمجنون الذى تعرض لتعذيب شديد.

تجمع الرجال الثلاثة وراحوا يضربون الرجل الوحيد الواقف فى الجانـب الآخر بقوة وألقوا به فوق الأرض خمس مرات متتالية، قفـزوا فـوق صـدره وراحوا يسددون اللكمات إلى رأسه ثم رفعوه وظلوا يضربونه من كل الاتجاهات حتى انهار تمامًا، وعندئذ هدأ الرجال الثلاثة والتقطوا قمصانهم الواسعة وراحوا يلوحون بها كالأعلام الكبيرة ثم مضوا فى الطريق رافعين أذرعهم عاليًا، وهـم يغنون تلك الأغانى المعبرة عن السيطرة وبعض الأغانى الأخرى التى لم يعرف أحد منا إذا ما كانت تنتمى إلى حزب الفقراء أم إلى الأغنياء.

عرفت عندئذ السبب فى معاركهم المتكررة وفى تجديد عدائهم القديم وتاريخهم السرى وأحلامهم الدائمة، وعندما مضى الرجال الثلاثة فى طريقهم وهم يرقصون عبر الشارع لم يقدم لهم أحد التحية ولم يشعرهم أحد بأنهم منتصرون، كما لم ينظر إليهم الناس على أنهم أبطال.

رقد الفتوات الثلاثة – الذين لم نعرف انتماءاتهم – فوق الأرض وهم يتألمون، ثم نهض أحدهم وراح يتحسس الضربة التى تلقاها فوق صدره وهو يتأوه ويئن، كانت علامة الكف مطبوعة فوق صدره الضخم كأنها مطبوعة فوق قطعة من النحاس الأصفر اللامع، راح يساعد الرجلين الآخرين فمال كل منهما على الآخر، وبدأ ثلاثتهم فى البكاء فبدوا كمجموعة حزينة من اللصوص والمحتالين الذين تعرضوا لهجوم عنيف كما بدوا كأنهم حشد من المتشردين وهم يلفون حول أنفسهم ويشعرون بمدى الخسارة التى لحقت بهم، تبعثروا فى الشارع وحاولوا الابتعاد عن أولئك الذين تسببوا فى هزيمتهم.

(٣)

ساد الفزع أرجاء الشارع بعد أن غادره أولئك المقاتلون، وكان الوقت متأخرًا فى المساء حين سمعنا شجارًا بين اثنين من الناس وصـوت طبـق يتكسر فساورنا الشك، أعاقت الحرارة الشديدة حركتنا فلم أذهب بعيـدًا عـن البيت فى ذلك اليوم؛ خوفًا من انتشار الفتوات فى كل مكان وهم يضـربون واحدًا تلو الآخر بقوة وانفعال غريبين.

عرفت – من خلال بقائى فى ذلك اليوم – قدرة حرارة شمس الظهيرة على الاحتفاظ بوهجها حتى وقت متأخر وعرفت قدرتها على إبطاء الوقـت، جلست فوق الرصيف الأسمنتى ورحت أستمع إلى طنـين الـذباب وكانـت الحشرات الطائرة تملأ المكان، والسحالى تتحرك فوق الحوائط إلـى أعلـى وأسفل، ذهبت لشراء بعض حبات الفول من بائعة متجولة تبيع الطعام الجاهز وكان الذباب يحيطها من كل جانب، لكننى استطعت أن أبصر عنـد جـانبى فمها علامات مذهلة منقوشة بالحناء، ابتسمت البائعة فبدت العلامـات شـيئًا إضافيًا وشاذًا، لكنها حين اتسمت بالجدية بدت جميلة، باعت لى الفول ببنسات قليلة و(الكوكورو) بأقل من سعره المعتاد.

سألت: "ما هو هذا (الكوكورو)؟"

– إنه النمل الذى يتغذى على الفول.

– نمل؟!

– نعم، إنه مفيد بالنسبة لك، إنه يجعلك شخصًـا رائعًـا ومتألقًـا كمـا يساعدك فى أن تكبر بسرعة.

اشتريت بعض النمل المحمر أيضًا وذهبت للجلوس فى الظل، أكلـت الفول والنمل ثم شربت الماء وعندئذ شعرت بالنعاس فنمت فوق عتبة بيتنـا،

لفحتنى حرارة الشمس وعندما عادت أمى وأيقظتنى لم أستطع رؤيةً أى شىء لمدة دقيقة تقريبًا، أصبحت خلالها أعمى تمامًا وكان كل شـــىء مؤلفًـــا مـــن كواكب دائرية زرقاء وحمراء وصفراء، قادتنى أمى إلى الحجرة وساعدتنى فى الرقاد ولم أستيقظ إلا فى المساء حيث تحول العمى الذى أصـــابنى إلـــى عالم مختلف من الألوان، وكانت أمى قد خرجت.

أصابنى غياب أمى بالقلق فأغلقت الباب وأخفيت المفتاح تحت حصيرة الباب البالية وخرجت للبحث عنها، وأثناء مرورى بالشارع قابلت صـــاحب البيت.

سألنى بنظرة فاترة وصوت يرشح بالاحتقار: "هل أبوك وأمك بالبيت؟"

قلت: "لا".

- متى سيعودان؟
- لا أعرف.
- أخبرهما بأننى سأعود لمقابلتهما فى الليل للسؤال عن إيجـــار البيـــت والاستفسار عن بعض الأمور الأخرى، أتفهمنى؟

أشرت له برأسى فسارع باتجاه الحى وواصلت أنا ســـيرى، غيـــر أن معدتى بدأت تؤلمنى وأصبحت متأكدًا من زحف النمل المحمر داخل معدتى، وفجأة انتشرت فى الهواء رائحة نتنة ونفاذة ظلت تلاحقنى أينما ذهبـــت فلـــم أستطع أن أتحملها أو أتجنبها ثم رأيت عامل المجارى وهو يتقدم ناحيتى، لم أشأ الإساءة إليه فلم أتحرك ولم أفكر فى الجرى لكننى منعـــت نفســـى مـــن التنفس، كان الرجل يترنح تحت وطأة الوزن الثقيل الذى يحمله وكان يرتدى غطاء فوق رأسه وملابس زرقاء بالية، أبصرت عينيه المنتفختين ونظراتـــه القاسية وهو يتلوى ويئن بصوت كصوت الخنزير أثناء مروره بجانبى، كدت أختنق من عدم التنفس فجريت وعندما تنفست شعرت بمرض شديد، وحـــين اقتربت من الحانة عرفت أن الجميع يشعرون بنفس المرض، وكانـــت أمـــى

ومدام كوتو يتحدثان أمام باب الحانة وكل واحدة منهما تغطى أنفهـا بكـف يدها، عدت إلى البيت وكانت الرائحة الكريهة لا تزال عالقة بـالجو وظلـت تلاحقنى حتى بعد أن أغلقت الباب.

جاءت أمى بعد لحظة وكان الإرهاق باديًا فوق وجهها وهى تقول لى: "لقد سألتنى مدام كوتو عن صحتك".

أخبرتها بما قاله لى صاحب البيت فشعرت بالقلق وقالـت: "الإيجـار؟ نحن لا نملك ما يكفى من النقود، متى قال إنه سيعود؟"

أجبت: "الليلة".

جلست صامتة بعض الوقت ثم توجهت ناحية سلة بضائعها وأخرجـت صندوقًا صغيرًا وبدأت تعد نقودها مدة طويلة، بينما كان العرق يتصبب فوق جبهتها وحين انتهت جلست صامتة مرة أخرى ثم فكَّت إحدى نهايات عباءتها وراحت تحصى النقود بداخلها، أصبح الوقت متأخرًا جدًا فأشـعلت شـمعة أخرى وكانت أمى لا تزال تحصى نقودها غير مدركة لأى شـىء، كانـت مستغرقة فى حساب ما تحتاجه لشراء بضائع جديدة وحساب المكسب الـذى سيعود عليها عندما سمعنا طرقات قوية فوق الباب، فقـزت أمـى فتنـاثرت نقودها فوق الأرض فسارعت بالتقاطها ووضعتها فى مكان بعيد، ثـم قالـت والعرق يملأ أهداب جفونها: "أزارو، اذهب لمعرفة الطارق".

مضيت نحو الباب وفتحته وما لبث أن دخل صاحب البيت دافعًا إيـاى إلى داخل الحجرة بعد أن فتح الباب عن آخره، كأنه كـان يريـد أن تصـل كلماته إلى كل العالم، كان بصحبته ثلاثة رجال آخرين وكانوا غرباء وذوى عضلات قوية وعيون ماجنة كعيون رجال السياسة السفاحين، دخلوا الحجرة بزيهم الموحد ووقفوا جنبًا إلى جنب وهم يفردون أقدامهم ويسندون ظهورهم إلى الحائط، فردوا أذرعهم ونظروا إلينا باحتقار يليق بالحشرات.

تطلع صاحب البيت حواليه وأبصر النافذة المكسورة فغضب بشدة وفقد القدرة على التماسك، ولم نستطع أن نفهم ما يقول إلا حينما هدأ قليلاً وأمرنا بإصلاح النافذة قبل زيارته القادمة، تحرّك بشكل مفاجىء ومثير في كل أرجاء الحجرة مؤجلاً - كعادته - صيحاته العالية وإشاراته المسرحية حتى يصل إلى أقرب مكان من الباب، تجمَّع الناس بالخارج وكان بعضهم ينظر إلى الداخل حين كان يلوح بكلتا يديه ويحرك عصاه الضخمة الملفوفة بالحبال.

قال لأمي: "ألا يوجد زوجك بالداخل؟"

- نعم.
- وماذا عن الإيجار؟
- عندما يعود سوف يدفع لك الإيجار.
- ألم يتركه هنا؟
- نعم.

وقف وقد باعد بين ساقيه وكأنه يقدم عرضًا مسرحيًا وأشار بيديه في غضب ثم قال: "لماذا يجب أن أحضر وأزعجكم بطلب الإيجار، لماذا؟ عندما جئتم لتطلبوا الحجرة كنتم تتوسلون لي، أما الآن فإنني أنا الذي يأتي ويتوسل إليكم، إيه؟"

- عندما يعود زوجي.
- سيبدأ في إثارة المتاعب والقلاقل.
- لا، لن يحدث.
- إن زوجك مثير للمشاكل.
- ليس تمامًا.
- إنه يعتقد بأنه قوي.

أدركت أمي عندئذ السبب في وجود الرجال الثلاثة ذوي العضلات القوية الواقفين إلى جوار الحائط، نظرت إليهم فبادلوها نفس النظرات لكنهم

لم يتحركوا من أماكنهم، وقالت أمى أخيرًا: "إن زوجى قوى لكنه ليس مثيرًا للمتاعب".

ضحك أحد الرجال الثلاثة لكن صاحب البيت صاح فيه قائلاً: "اخرس".

أصبحت ضحكات الرجل متقطعة وخافتة ومكتومة، وجلس صاحب البيت فوق مقعد أبى الذى راح يتذبذب من تحته ولم يتوقف عن النظر إلينا بإمعان كأنه كان يقرر ما سيفعله فى الخطوة التالية، أخرج فصًا من جوزة الكولا من جيبه وبدأ فى مضغه وكنا جميعًا صامتين غير أن ظلال أجسادنا كانت تطول وتقصر تبعًا لاهتزاز لهب الشموع فى الحجرة، بدا الرجال الثلاثة كالغول فى عبوسه، وكشف ضوء الشموع عن وجناتهم وعيونهم الغائرة.

- وإذن فمتى سيعود زوجك؟
- لا أعرف.

كان صاحب البيت يطحن جوزة الكولا بأسنانه حين قال بعد وقفة مبررة: "حسنًا ولقد جئت لسبب آخر بسيط؛ وهو أننى لا أحب الطريقة التى يتعامل بها سكانى مع الحزب الذى أنتمى إليه، لقد خذلتمونى أيها الناس فى ذلك اليوم، ماذا فعلت لكم؟"

نهض بعد ذلك وراح يستأنف خطواته المثيرة وهو يصفق بيديه ويقول بصوت عال كأنه يوجه كلامه إلى مشاهد مجهول: "لقد قلت ذلك لكل الناس الذين يسكنون عندى وعلى أى شخص يريد العيش فى بيتى وتحت هذا السقف الذى بنيته بيدى أن ينحاز لحزبى، هل تسمعوننى؟"

لم تصدر أى إشارة من أمى تفيد بالموافقة وظلَّت تحدِّق بعبوس فى الشمعة المرتعشة، وحينئذ استطرد صاحب البيت قائلاً: "ليس مهمًا أن يجيبنى

أحد أو لا يجيبنى؛ فلقد قلت ما كان يجب على قوله وإذا كانت لديكم آذان فاستمعوا وإن أردتم أن تظلوا فى بيوتكم فعليكم أن تذهبوا للتصويت لصالح حزبى عندما يحين موعد الانتخابات".

توقف قليلاً ثم أضاف: "إن الأمر فى غاية البساطة، كل ما عليكم القيام به هو أن تضعوا العلامة الصحيحة بجوار اسم الحزب وفقط، إنه أمر بسيط، أليس كذلك؟ سوف يشيد حزبى طرقًا جيدة وسوف يمدكم بالكهرباء وموارد المياه وتذكروا أن رجالاً تابعين لنا سيراقبونكم فى لجان الاقتراع، وبالتالى فإننا سنعرف لصالح من ذهبت أصواتكم وعلى أية حال فإننا سنكسب، سواء صوتّم لصالحنا أم لا، ولكن إذا لم تدلوا بأصواتكم لصالح الرجل التابع لحزبنا فإنكم ستواجهون كثيرًا من المتاعب وقد تبدأون أيضًا فى البحث عن مكان آخر تقيمون فيه وعن مالك آخر للأرض مثلى، وأخبرى زوجك بما قلت فليس لدى وقت كاف للعودة مرة أخرى وأرسلى لى ثمن الإيجار غدًا صباحًا، هذا كل ما فى الأمر".

كان واقفًا خلف مقعد أبى حين انتهى من خطابه وكان ظهره ناحيتنا، وشعرنا أنه فى انتظار إجابة ما أو أى رد فعل لكن شيئًا لم يحدث، وكانت الشمعة المشتعلة وألسنة اللهب المتصاعد منها هى الشىء الوحيد الذى يشاركنا الصمت، أما الرجال الثلاثة فقد بدوا كالتماثيل كأنهم رجال ميتون، فاستطعت بالكاد رؤية اللون الأبيض فى أعينهم.

استطرد صاحب البيت قائلاً: "الله وحده يعلم بأننى أتمنى الخير لسكانى أما الساكن الذى لا يريد الخير فعليه أن يرحل، إن القوة موجودة وعلى كل شخص أن يعرف بأنه سيلقى المزيد من المتاعب والمشاكل فى حياته إذا لم يسمع كلامى، إننى رجل سلام لكن الشخص الذى سيفسد سلامى سيجدنى أسدًا مفترسًا وفيلاً ضخمًا وسوف أسحقه بغضبى، وفوق كل ذلك فإننى سأرسل رجالى لضربه ضربًا شديدًا".

أصبح مجاورًا للنافذة، أخرج جوزة الكولا من فمه ثم وضعها فى جيبه وسحب من جيبه منديلاً أبيضًا راح يمسح به وجهه، وعندئذ استدار ووقف فى مواجهة أمى مباشرة وكنا جميعًا ننظر إليه بتركيز، ما عدا أمى التى ظلت تحدِّق فى لهب الشمعة وكأنها كانت ترى فيه نوعًا جديدًا من المصير المحتوم.

فتح صاحب البيت فمه ليبدأ الكلام عندما هبَّت رياح حانية وتسللت إلى الحجرة ثم تحولت إلى صورة مظلمة ظلت تنحنى كلما ارتفعت إلى أعلى مما ذكرنا بعربة المجارى، كانت الصورة هى أبى فراح صاحب البيت يغلق فمه ببطء.

ابتعد الرجال الثلاثة عن أبى وتفرقوا بعيدًا عن الحائط ثم تجمعوا مرة أخرى ووقفوا فى حالة استعداد للقتال بجوار الدولاب وفجأة بدت الحجرة ضيقة ثم صارت أكثر ضيقًا حين أغلق أبى الباب، أظهرت الإضاءة المنبعثة من لهب الشمعة وجه أبى فبدا كرجل يعانى من عذاب كبير، كان ضوء الشمعة متركزًا فوق عظام وجنتيه، وكانت عيناه غائرتين ورأسه متصلبة وبدا مرتبكًا، وقف أمام الباب ثم وقف ونظر إلينا وكانت رقبته متيبسة بطريقة أوحت لنا بأنه فقد القدرة على التفكير والقدرة على استيعاب ما يحدث كأن شخصًا ما قد ضربه بشدة فوق رأسه فلا يقدر على التركيز وبدا مرتبكًا، كأنه دخل حجرة غير حجرته ولا يجد طريقة للخروج منها.

صرخت قائلاً: "أبى".

نظر ناحيتى دون أن ينتبه لى وما هى إلا لحظة قصيرة حتى شممنا رائحة كريهة فى الحجرة، تحرك أحد الرجال الثلاثة فجأة وأحدث قلقًا فى الحجرة حين أفرز شيئًا ما من معدته واندفع باتجاه النافذة ليبصق، لكن صاحب البيت بصق فوق الأرض وحرَّك قدميه فوق البصاق يمينًا ويسارًا كأنه كان يطفئ سيجارة، ذهب رجل آخر من الرجال الثلاثة خلف أبى وفتح

الباب فدخلت الفراشات والذباب والحشرات الطائرة وظل البعوض يطن في ذلك الصمت الذى انتاب الجميع، كانت الفراشات تحلّق حول الشمعة وشعرت أن الوقت قد تحرك للوراء وتوقف عند الماضى.

توجه أبى ناحية أمى وجلس بصعوبة فوق السرير، وكانت علامات الخزى والعار مرتسمة فوق وجهه، ولكن كان من اليسير قراءة ذلك التحدى المرتسم فوق نفس الوجه، فقد صاحب البيت قدرته على التفوه بما يريد أن يقوله فتحرك ناحية الباب بعد أن فقد إحساسه وقدرته الفائقة على الكلام، وبدا أنه يتهيأ لممارسة نوع جديد من التهديد تجاه أبى، ذلك ما أحسست به.

قال مخاطبًا أبى: "سوف تخبرك زوجتك بما قلت".

أسرع بالخروج من الحجرة دون أن يكرر طلبه بدفع الإيجار، وجرى تابعوه الثلاثة خلفه بعد أن صوبوا نظراتهم الأخيرة باتجاه أبى.

جلسنا فى الحجرة مغمورين بالرائحة الكريهة كأن ثقبًا مليئًا بالرائحة العفنة قد انفتح عن آخره، لم نتحرك من أماكننا ولم نتكلم حتى احترق جناحا إحدى الفراشات وانطفأت الشمعة فساد الظلام، ورحت أتحسس بيدى فوق الطاولة بحثًا عن أعواد الثقاب، وعندئذ سمعت أمى تقول برقة ممزوجة بحزن دفين: "ماذا حدث لك يا زوجى؟"

عندما أشعلت الشمعة كانت أمى تمسك أبى بإحكام وتلف ذراعيها حول رقبته وتدس وجهها فى شعره، وحين أدركت الضوء المنبعث من الشمعة سارعت بالابتعاد عن أبى وتشاغلت بفك حذائه غير أن أبى لم يتحرك، فخلعت أمى الحذاء وأعطته لى ثم قالت: "لقد داس أبوك فوق شىء ما أثناء سيره فاذهب إلى الحمام واغسل الحذاء ولا تغسله بجوار البئر".

تناولت الحذاء وخرجت فاندفعت الرمال إلى داخل عينى من شدة الرياح الباردة الممتزجة برائحة الأشجار والليل والأدغال، كان الهواء مشبعًا

برائحة الأعشاب الزكية، وكذلك رائحة الكيروسين ودخان الشمعة لكنــه لــم يكن يحمل مثل تلك الرائحة الغريبة التى كانت بداخل حجرتنــا، اســتعرت واحدًا من مصابيح السكان الموجودة فى الحوش وجئت بــبعض المــاء ثــم جمعت بعض أوراق الصحف القديمة وقطعًا صغيرة من الخشــب، وحــين نظرت إلى حذاء أبى لم أجد فيه شيئًا غريبًا ولم تكن رائحته كريهة فيما عدا رائحة العرق ورائحة أقدامه المرهقة من قسوة العمل، لكننى غسلته على أية حال وانتهيت بغسل يدى ثم عدت إلى داخل الحجرة.

كان أبى جالسًا فوق مقعده عندما عدت وكانت أمى تسأله عن أحوالــه وتحاول أن تطمئن عليه، ولست أدرى لماذا كنت متأكدًا بأنه لم ينطق بكلمــة واحدة منذ خروجى لغسل الحذاء حتى عودتى، كانت أمى تتألم وهى تنظــر إليه بقلق كأن آلامه الغامضة قد انتقلت إليها، وعندما وضعت الحــذاء فــى الركن أخرج أبى مظروفًا من جيبه وناوله لأمى التى فتحته وأخرجت منــه بعض الأوراق المالية ثم نظرت إليه بدهشة فقال أبى: "إنهُ الإيجار".

لم تستطع أمى التغلب على عواطفها الجياشة فركعــت أمــام قدميــه وأمسكت فخذه وراحت تردد مرة تلو الأخرى: "شكرًا، شــكرًا يــا زوجــى الرائع".

قالت ذلك بحزن ممتزج بالفخر جعلنى أشعر بأن أولئك الناس الــذين يعانون كل ذلك الشقاء ليسوا سوى غرباء عن هذا العالم، لم يعبر أبى عــن امتنانه ولم تظهر عليه أى أحاسيس من أى نوع، لكن وجهه كان غريبًا ممــا أكد لى أن ما بداخله يفوق كثيرًا قدرته على التعبير.

نهضت أمى بعد لحظة لتجهيز بعض الطعام بينما ذهب أبى ليســتحم محاولاً التخلص من العرق وشدة المعاناة، وحين خرج من الحمَّام بعد قضاء وقت طويل كان يلف الفوطة حول خاصرته ولا يرتدى شيئًا آخر ثم أرسلنى لأشترى له زجاجة صغيرة من العطر.

مشيت طريقًا طويلة فى شارعنا قاصدًا الطريق الرئيسية قبل أن ألتقى مصادفة بمجموعة من بائعى قبائل الهوسا، الذين يمارسون أنشطتهم بالليـل ويبيعون البخور الهندى والخرز والعطـور والأحجبـة، اشـتريت زجاجـة رخيصة من العطر وسارعت بالعودة، كان أبى قد غيـر ملابسـه فتنـاول زجاجة العطر منى وراح يصب منها كميات كبيرة فوق جسده حتى امـتلأت الحجرة برائحتها البسيطة، غسلنا أيادينا وبدأنا فى تناول الطعام بصمت.

بعد الانتهاء من طعامنا نهضت أمى ووضعت ملابس أبى فـى دلـو مملوء بالماء ومبيد الجراثيم المطهرثم أخفت الدلو فى مكان بعيد بـالحوش، كان أبى هادئًا وهو جالس فوق مقعده باطمئنان ولم يكن يشـرب أو يـدخن، فبدا كشخص غير قادر على الشفاء نهائيًا من صدمة ذلك النوع من معرفـة الذات، وجلست أمى إلى جواره فاردة ظهرها وظل كلاهمـا صـامتًا فتـرة طويلة من الوقت، وحين شعرت بالنعاس سمعت أمى تسأل بعد أن جهـزت نفسها لقبول كل الاحتمالات: "أنت لم تقتل أحدًا، أليس كذلك؟"

حاولت التغلب على النعاس ففتحت عينى وأبصرت أبى يهز رأسه ثـم التزم كلاهما بالصمت، وراحت أمى تشعل الجهاز الطارد للناموس وعندئـذ أغلقت عينى مرة أخرى ولم أقدر على مقاومة النوم.

فى وقت متأخر من تلك الليلة كانت ثمة طرقات فـوق البـاب، كـان المصور يتسلل بسرعة وخوف فاستيقظ أبى وقال: "آه، المصور".

- نعم، إنه أنا.
- ادخل ونم جيدًا.
- وأنت يا سيدى.

رقد المصور بجانبى فوق الحصيرة وقدم لى زجاجة شفافة مسـتديرة بداخلها بودرة صفراء، وقال: "هذا أقوى سم للفئران فى العـالم، وغـدًا إذا عدت مبكرًا فسوف نقضى على كل تلك الفئران مرة واحدة وإلى الأبد".

وضع زجاجة السم وسط أشياء أخرى كانت معـــه، أطفــأت الشـــمعة فسبحنا فى الظلام وغمرتنا رائحة الحجرة الكريهة.

(٤)

ظل أبى حزينًا وغاضبًا لأيام كثيرة لم يقدم خلالها تفسيرًا لحزنه وعبوسه إلا بعد أن أخبرناه بما قاله صاحب البيت، وحينئذ استرد عافيته واستعاد روحه وقال إنه لن يدلى بصوته لصالح الحزب الذى ينتمى إليه صاحب البيت حتى لو قتلوه ولم يتوقف عند هذا الحد وإنما راح يجوب الشوارع معلنًا عن رأيه الذى قوبل بتأييد كبير من قبل بعض الجيران غير أن أمى قالت له: "إن صاحب البيت لديه جواسيسه المنتشرون فى الحى".

قال أبى: "فليكن، لكننى لن أدلى بصوتى لذلك الحزب العقيم".

- أعرف، ولكن لا تعلن ذلك على الملأ.
- ولِمَ لا؟ هل أنا جبان؟
- لا.
- يجب إذن أن أقول ما أؤمن به.
- لكنك سمعت ما قاله صاحب البيت!
- فليسقط صاحب البيت ميتًا.
- اخفض صوتك.
- لماذا؟
- الجواسيس.
- الموت للجواسيس أيضًا.
- إننى خائفة مما قد يصيبنا.
- لا شىء يدعو للخوف.
- لكننى خائفة.
- وما الذى يعطيه الحق فى فرض آرائه علينا وفى إجبارنا على التصويت لمن يشاء؟ هل هو إله؟ وحتى الرب لا يستطيع أن يجبرنا

على التصويت إلا لمن نريد نحن أن نصوت له فلا تخافى أبدًا، قد نكون فقراء ولكننا لسنا عبيدًا.

- وكيف نستطيع أن نجد حجرة أخرى؟
- قدرنا وحده القادر على الإجابة.

واصل أبى استخفافه بما قد يحدث نتيجة عدم قبوله لشروط صاحب البيت، وبدأ يتحدث عن نفسه وكأنه الوحيد الذى لن يدلى بصوته للحزب الذى ينتمى إليه صاحب البيت، أصبح المؤيدون لذلك الحزب أكثر عنفًا فى كل المناطق التى نعيش فيها، وكانوا يتجولون فى مجموعات لترويع كل الناس، وسمعنا حكايات عن أولئك الذين جردوهم من وظائفهم لأنهم كانوا معارضين، خافت أمى ولم تعد تذهب للسوق بانتظام كعادتها، فأصبحت النقود شحيحة ولم يكن أمام أمى من شىء تفعله سوى التقليل من كمية الطعام.

لم نكن نشاهد المصور إلا فى وقت متأخر من الليل، وكنت فى بعض الليالى أنتظر طرقاته فوق الباب دون جدوى لكننى حين كنت أراه كان يبدأ بالحديث عن رغبته فى الرحيل عن المنطقة، ظل يلتقط الصور الغريبة والتى كان بعضها يظهر فى الصحف، وكان يحكى أساطيرَ كلما تجمع الناس حوله، ولقد حاول أثناء الفترة التى قضاها معنا أن يحول الركن - الذى اعتاد أبى أن يضع حذاءه فيه - إلى حجرة مظلمة لتحميض الصور لكنه لم ينجح فى ذلك؛ لأن أمى كانت دائمًا تكنس وتنظف تاركة الفرصة لانتشار الضوء فى كل الأماكن المظلمة.

جاء بعض الرجال فى يوم من الأيام للسؤال عن المصور، وقالوا إنهم صحفيون وإنهم سمعوا بأنه يقيم فى المنطقة مع السكان، أنكر السكان وجوده بينهم فبدأ الرجال فى مراقبة المكان، كنا نشاهد الرجال الغرباء فى الليل وهم يستندون إلى الشاحنة المحترقة وينظرون إلى بيوتنا وحين أخبرت المصور عنهم بدا عليه الخوف ولم نشاهده بعد ذلك لعدة أيام.

أثناء تلك الفترة ظهرت مدام كوتو وجاءت إلى حجرتنا كأنها مارد خرج من الهواء فأصابتنى بالفزع، كانت أمى موجودة لكن أبى لم يكن قد عاد، خفت جدًا وقبل أن أتمكن من الهرب أمسكت بى مدام كوتو وقالت: "أنت ولد سيىء".

– لماذا؟

– لأنك تجرى من الكبار.

أعطتنى بعض النقود وأضافت قائلة: "لماذا تجرى بعيدًا عنى؟ ماذا فعلت لك؟"

– لا شىء.

– ولماذا ألقيت بتعويذتى بعيدًا؟

– لا شىء.

ضحكت أمى وأطلقت مدام كوتو سراحى ثم جلست فوق السرير إلى جوار أمى، كانت بدينة كما هى دائمًا فملأت السرير بجسدها الضخم وكأنها فاكهة كبيرة، لكن الخوف كان مرتسمًا فوق وجهها على غير عادتها ولم تكن ترتدى الخرز الأبيض حول رقبتها، كان وجهها أكثر سوادًا وعيناها مظللتين مما جعلها تبدو غامضة، وكان من العسير معرفة ما يدور بذهنها، كانت تلف جسدها بلفافات كثيرة مما زاد من وزنها وراحت تتحدث مع أمى بصوت خفيض، اقتربت منهما كى أسمع جيدًا، قدمت مدام كوتو لأمى رزمة لم أستطع معرفة محتوياتها أبدًا ثم استدارت ناحيتى وقالت: "أريدك أن تعود، ولقد وافقت أمك، إن الحانة خالية من الزبائن منذ توقفت عن المجىء".

قالت أمى: "سوف أناقش الأمر مع أبيك".

واصلت أمى الحديث مع مدام كوتو فخرجت وظللت ألعب أمام عتبة البيت، وحين كانت مدام كوتو فى طريقها للرحيل نادتنى وقالت: "إننى راحلة الآن وأريدك أن تأتى غدًا لجلب الزبائن، أتسمعنى؟"

أومأت برأسى موافقًا فقالت: "سوف أجهز لك شوربة خاصـــة مليئـــة بقطع اللحم".

ثم راحت تمشى ببطء فى الظلام.

عاد أبى مرهقًا فى تلك الليلة فلم تتناقش أمى معـــه فـــى أى شـــىء، ومضت الليلة دون أن يحضر المصور، لكن الفئران كانت تواصـــل مضـــغ الطعام.

(٥)

وضعت مدام كوتو لافتة جديدة بالألوان الزيتية فوق باب الحانة تمثل امرأة فاتنة ذات أثداء كبيرة وهى تقدِّم المشروبات وتسخن الشوربة، ثم فرشت أرض المدخل ببعض النباتات البلاستيكية ذات الألوان المتنوعة وطليت الباب باللون الأزرق، أزحت حبال الستارة المتدلية ودخلت، كانت الحانة مظلمة وهادئة بالداخل وتغيَّر شكل المقاعد واكتست الموائد بالمفارش البلاستيكية، وضعت مدام كوتو منضدة بجوار باب الفناء عند نهاية الحانة تحسبًا لحدوث مزيد من المشاكل وكانت الحوائط مطلية باللون الأبيض الفضى؛ مما ساعد فى الإحساس بمزيد من الهدوء فى الحانة، ذهبت إلى الفناء الخلفى فشاهدت فتاة صغيرة تغسل الأطباق والملاعق، نظرت الفتاة إلى بارتياب فقلت لها: "أين مدام كوتو؟"

لم تقل شيئًا فأضفت قائلاً: "ألا تستطيعين الكلام؟"

ظلت الفتاة صامتة ولم تقل أى شىء فتوجهت إلى حجرة مدام كوتو وطرقت الباب ولكن يبدو أنها لم تكن بالداخل، عدت إلى الحانة وجلست إلى جوار الآنية الخزفية، أفسد الذباب هدوء المكان بطنينه المتواصل، دخلت الفتاة الصغيرة وظلت واقفة عند عتبة الباب فغطت حبال الستارة وجهها وراحت تتفحصنى، كانت حزينة جدًا ولا تتسم بالحيوية وكانت بعض علامات القرابين والأضحيات مرتسمة فوق وجنتيها، ورغم عينيها الواسعتين لم يكن من اليسير اكتشاف بواطن الجمال فيها، لم تتوقف عن التحديق فى فقلت لها غاضبًا: "لماذا تنظرين إلى هكذا؟"

ظلت صامتة ثم ذهبت إلى الفناء وراحت تواصل غسل الأطباق والسكاكين.

لم يأت أحد للشراب طوال فترة ما بعد الظهر كما لم أشاهد مدام كوتو، ورقدت فوق المقعد ثم استيقظت فجأة وكان الجو هادئًا ومصباح الكيروسين فوق الطاولة، فشعرت بأننى موجود بإحدى الممالك تحت الأرض، رحت أبحث عن الفتاة لكننى لم أستطع العثور عليها فعدت إلى الحانة ووجدت مدام كوتو مع أحد النجارين.

كان النجار يدق دقات قوية بالشاكوش فسألتنى وهى تصيح: "أين كنت؟"

- كنت أبحث عن الفتاة.

- أية فتاة؟

- الفتاة التى كانت تغسل الأطباق.

نظرت إلى بدهشة كأننى سمكة أو كأننى أصبحت مجنونًا، ثم قالت: "أية أطباق؟"

- الأطباق التى بالفناء.

خرجت وألقت نظرة على الفناء ثم عادت وصاحت فى وجهى قائلة: "لقد أصابك شىء ما".

ذهبت إلى الفناء فشاهدت الأطباق والسكاكين ملقاة فوق الأرض بدون غسيل، وكان إناء الشوربة يغلى فوق حامل الوقود بجوار كومة الأطباق والسكاكين.

صاحت فى وجهى بصوت عال وقالت: "اذهب واغسل الأطباق قبل أن أغضب منك".

لم أكن راغبًا فى عمل ذلك لكننى ذهبت رغمًا عنى واستخرجت الماء من البئر، ثم جلست فوق دكة صغيرة من الخشب وبدأت فى غسل الأطباق والسكاكين، لكن نار الموقد لفحت وجهى فجففت عينى غير أننى تشبعت

برائحة الدخان المنبعث من الخشب المحترق فشعرت بالدوار، ظللت أستمع إلى دقات النجار وطرقعات الحطب وأصابتنى حرارة الموقد والدخان الذى كنت أتنفسه بمزيد من الدوار مما جعلنى أترنح وعندئذ حلّ المساء، تناثرت الشوربة على هيئة فقاعات خضراء وسقطت فوق الوقود، فجاءت الفتاة الصغيرة ورفعت غطاء الإناء الساخن بيديها العاريتين، ثم راحت تحرك الشوربة بمغرفة خشبية طويلة، بدت نهايتها شبيهة براحة يد إنسان.

صرخت فيها قائلاً: "ابتعدى عن هنا".

أخرجت الفتاة المغرفة من الإناء فلم تكن نهايتها الشبيهة براحة اليد موجودة، وأصبحت اليد الخشبية جزءًا من الشوربة، فقلت لها بصوت عال: "انظرى إلى ما فعلتيه!"

ألقت بما تبقى من المغرفة ولم تقل شيئًا، ثم سارعت بالتقاط عظمة كبيرة وطويلة وراحت تقلّب بها الشوربة حتى ذابت العظمة.

قلت لها مهددًا: "إذا لم ترحلى من هنا فسوف أضربك".

أعادت الغطاء إلى مكانه فوق الإناء وانحنت بالقرب من حامل الوقود ثم بدأت تحدّق فى النار، فردت يديها وكأنها كانت تبحث عن الدفء ثم ألقت بقطعتين من الودع الأبيض داخل اللهب، وحين ازداد اشتعال الحطب وراح يطقطق امتلأ الهواء بالدخان الأزرق، فاختفت الفتاة وبعد أن أصبح الجو صافيًا أبصرتها فى حالة من الذوبان وكانت يداها الممدوتان متلاشيتين فى الهواء وكذا كتفاها وجسدها، لكن رأسها بقيت فوق الأرض وظلت عيناها الواسعتان الحزينتان تنظران نحوى بلا إحساس حتى تلاشت تمامًا، صرخت وتحوّل كل شىء إلى اللون الأبيض فسقطت بالقرب من النار ولحق الوسخ بقميصى.

قالت مدام كوتو وهى واقفة فوقى: "ماذا أصابك؟"

- لقد شاهدت الفتاة مرة أخرى.
- عن أى فتاة تتحدث؟
- تلك التى كانت تغسل الأطباق.
- انهض.

نهضت وشعرت بأننى غريب كأننى أنا أيضًا قد تلاشيت وتحولت إلى شخص آخر، جلست فوق الدكة الخشبية ولم يكن ثمة شيء مكان رأس الفتاة سوى رغاوى الشوربة.

أين شاهدت الفتاة؟

أشرت إلى مكان الرغاوى وقلت: "هناك".

- لا يوجد شيء هناك.

قلت بإصرار: "كانت هنا".

- ادخل الحانة ولا تشغل نفسك بغسيل الأطباق، ادخل فقط واشرب بعض الماء.

دخلت وشربت قليلاً من الماء ثم جلست فوق الدكة لكن دقات النجار أصابتنى بصداع رهيب، وفى كل مرة كان يرفع فيها الشاكوش كنت أشعر بدقاته فوق رأسى فلم أستطع البقاء، وخرجت للجلوس فوق الرمال أمام باب الحانة ورحت أراقب الناس أثناء مرورهم بالقرب منى، لكن أحدًا لم يدخل الحانة كما لم يتوقف أى شخص لمجرد النظر، انتشر الظلام ببطء فوق الغابة وأصبح الهواء أكثر برودة وواصلت الطيور تحليقها بين الأشجار وامتلأت الأرض فى المساء بجيوش من الحشرات، وكانت الحانة لافتة للنظر أكثر من أى شيء آخر، شعرت عندئذ بأننى فوق حافة الحقيقة كما بدت لى حانة مدام كوتو كأنها أرض للجنيات الغريبة فى عالم حقيقى، أرض الجنيات التى لا يستطيع أحد رؤيتها.

بدأت ألقى بالحجارة على لافتة مدام كوتو ثم على الباب الأزرق وحبال الستارة البلاستيكية ذات الألوان الكثيرة، فخرجت مدام كوتو وقالت: "من الذى يلقى بالحجارة؟"

أجبت: "إنها الفتاة".

- أين هى؟
- لقد جرت بعيدًا.

نظرت مدام كوتو إلى نظرة شريرة وهى تداعب حلقات عقدها الأبيض ثم عادت لتواصل الغسيل، بقيت فى مكانى عند المدخل وشاهدت الظلام القادم من الغابة والذى سرعان ما غمر بقية العالم، وثمة بومة كانت تنعق من مسافة قريبة وكنت أسمع غناءً متواصلاً لأحد الطيور، أيقظ الظلام سكون الغابة وبينما كنت جالسًا أمام مدخل الحانة شعرت بسخونة الرمال من تحتى، ثم رأيت رجلاً يسير بالقرب من فتاة صغيرة، شاهدنى الرجل وحين نظر إلى لافتة الحانة تقدَّم باتجاهها وكانت بصحبته نفس الفتاة التى تلاشت، سارعت بدخول الحانة واختفيت خلف الآنية الخزفية وكان النجار يدُق آخر مسمار فى خشب المنضدة قبل أن يعلن نهاية عمله.

سألنى النجار وهو ينظر فى وجهى بشغف: "ماذا بك؟"

- إنهم قادمون.
- من؟

أزاح الرجل بيده حبال الستارة البلاستيكية وعبر عتبة الحانة ثم قال: "هل يوجد أى نبيذ هنا؟"

أجابه النجار قائلاً: "اجلس، سوف تأتى المدام حالاً".

جلس الرجل وجلست الفتاة إلى جواره، وحين أمعنت النظر فى وجهها عرفت بأننى لم أشاهدها هنا من قبل.

قال الرجل: "هذا المكان مظلم، أحضر لنا مصباح الكيروسين".

أمرنى النجار قائلاً: "اذهب لإحضار المصباح".

تناولت المصباح من فوق طاولة أخرى ووضعته فوق طاولتهما، لكن الفتاة أطفأته فأظلمت الحانة وانتشر الذباب وحشرات الليل الطائرة.

سألنى الرجل: "ماذا حدث لرأسك؟"

أجبته بصوت عال: "إنها تلك الفتاة الحمقاء، هى التى فعلت ذلك برأسى".

- أية فتاة؟
- هذه الفتاة الجالسة إلى جوارك.

صاح النجار قائلاً: "سوف أضرب رأسك بهذا الشاكوش، ألا ترى أننى أعمل، اذهب وأحضر له بعض الثقاب".

تحسست طريقى حتى خرجت من الحانة فرأيت مدام كوتو وهى ترفع الإناء من فوق الموقد، وكانت تمسك الإناء بفرش المائدة لحماية يديها من سخونة الإناء.

قلت لها: "جاءت تلك الفتاة مرة أخرى وبصحبتها رجل، إنه يريد نبيذاً وبعض الثقاب".

أعطتنى علبة كبريت وقالت إنها ستتولى أمر النبيذ، دخلت الحانة وأشعلت المصباح لكن الفتاة أطفأته مرة أخرى، كانت عيناها تتلألآن فى الظلام وكانتا مبهرتين ومتألقتين كعينين خضراوتين لإحدى القطط.

قلت لها: "أنت شريرة".

قال الرجل: "أنا!؟، جئت إلى هنا لأشرب ثم يأتى حيوان صغير مثلك ويشتمنى؟ من يكون أبوك؟"

قلت: "لست أنت، إنها هذه الفتاة، ابنتك هذه هى الشريرة".

كنت أشعل عودًا آخر من الثقاب حين ضربنى الرجل فوق رأسى؛ فسقط منى عود الثقاب ووقع فوق الطاولة، ضربنى الرجل مرة أخرى فابتسمت الفتاة لكن عينيها كانتا حزينتين وكان فمها مغلقًا، واحترق عود الثقاب فوق الطاولة فتراجعت بعيدًا فى الظلام.

قال الرجل: "تعال وأشعِل هذا الشىء".

سمعت النجار وهو يتعثر فى خطواته فوق الأخشاب والأدوات المعدنية وحين توجه ناحيتنا شممنا رائحة الصمغ، اصطدم بأحد المقاعد أثناء سيره فراح يلعن الظلام وقال: "سوف أمسك بك حين تكون غافلاً عنى وأحطم رأسك".

خرجت مسرعًا وبقيت إلى جوار ذلك الممر الذى أصبح شارعًا، وعندما ظهر النجار وشاهدنى انحنى وخلع حذاءه ثم جرى خلفى بأقصى سرعته، غير أنه توقف عن ملاحقتى حين هربت إلى الغابة وعاد إلى الحانة وهو يلعننى، بقيت فى الخارج حتى شاهدت الرجل يغادر الحانة بصحبة الفتاة الصغيرة ويمضيان عبر الشارع المؤدى إلى منطقتنا.

انتهى النجار من عمله لذلك اليوم وجلس فوق الدكة المجاورة للآنية الخزفية، وبدأ يشرب النبيذ وكانت هناك مصابيح الكيروسين فوق كل طاولة.

قال لى بغضب: "أنت محظوظ لأنك لست ابنى".

ظللت أنظر إليه وأنا واقف عند الباب فأضاف قائلاً: "أنت السبب فى مغادرة الزبون الوحيد الذى دخل الحانة اليوم ولذلك فإن مدام كوتو ستغضب منك، لقد غادر الرجل لأنه رفض أن يشرب فى الظلام، أنت ولد شرير".

كنت لا أزال واقفًا عند الباب وأنا أنظر إليه فقال: "إما أن تدخل أو تخرج لكن لا تنظر إلى هكذا كالسحلية".

بقيت بالخارج واستغرقنى التفكير والتأمل العميق لذلك القمر الشاحب وتلك النجوم المتلألئة فى السماء، حتى أننى لم أستمع للنجار وهو يزحف ناحيتى، أمسك برقبتى وسحبنى إلى داخل الحانة فى نفس اللحظة التى دخلت فيها مدام كوتو حاملة طاستين من الشوربة.

قالت للنجار: "اترك ذلك الولد المزعج".

ثم قالت لى: "كنت سأقدم لك مزيدًا من قطع اللحم لكننى اكتفيت بنصف الكمية؛ لأنك تسببت فى مغادرة الزبون".

تقدم النجار قائلاً: "دعينى أضربه".

أجابت مدام كوتو: "اذهب واضرب أولادك أولاً".

أزاح النجار يده عن رقبتى وتركنى أمضى وراح يواصل الشراب، لكننى رميته بنظرات قاسية ومليئة بالعداء، قدمت لنا مدام كوتو طاسات الشوربة الخاصة بنا، فانزويت فى الركن وجلست فوق الأرض واستندت بظهرى على الحائط ثم بدأت فى احتساء الشوربة، استطعت من مكانى فى الركن أن أنظر إلى النجار وأراه بوضوح، كانت الملعقة التى ناولتنى إياها مدام كوتو كبيرة جدًا بالنسبة لفمى؛ فخرجت لإحضار ملعقة أصغر منها وحين عدت اكتشفت ضياع معظم قطع اللحم، كان النجار يلحس أصابعه باستمتاع كبير وببراءة طفولية شديدة، فقلت متسائلاً: "من الذى سرق اللحم؟"

أجاب النجار بطريقة مزعجة: "الفتاة الصغيرة".

- أية فتاة؟
- الفتاة.

حدَّقت فيه مدة طويلة وأنا أفكر فى عمل شىء ما، ثم خرجت من الحانة وشكوت لمدام كوتو من السرقة فناولتنى مزيدًا من قطع اللحم، بدأت فى الأكل دون أن أرفع عينى عن النجار الذى ظل يغمز لى بعينيه متجاهلاً

نظراتى، وعندما انتهيت من طعامى ذهبت لأغسل الطاسة والملعقة ثم عدت فرأيت رجلاً يجلس إلى الطاولة القريبة من الباب، أدار الرجل رأسه ناحيتى فتعرَّفت عليه فى الحال.

هتفت قائلاً: "أبى".

لفَّ ذراعه حول كتفى فسارعت بعناقه ثم خرجت لإخبار مدام كوتو بوجود أبى، دخلت مدام كوتو وهى تحمل كأسًا من النبيذ وطاسة من الشوربة.

وضعت النبيذ والشوربة أمام أبى وقالت: "ابنك هذا كان سببًا فى رحيل زبونى الوحيد".

أجاب أبى برقة وبصوت مفعم بالحنان: "إنه ولد سيىء".

حاول أبى أن يدفع ثمن كأس النبيذ وطاسة الشوربة، لكن مدام كوتو قالت: "احتفظ بنقودك فهذا شيء بسيط للترحيب بك".

- أرى أنك طوَّرت المكان.
- أحاول أن أفعل ما بوسعى.
- لجذب مزيد من الزبائن، أليس كذلك؟
- سيأتى مزيد من الزبائن.

صنعت مدام كوتو لنفسها كأسًا من النبيذ وبعض الشوربة، ثم جلست بالقرب من المنضدة العالية وكان الجميع يشرب ويأكل فى صمت، حتى انحنى النجار فوق المنضدة ونظر إلى أبى ثم قال وهو يطرد الذباب من حول وجهه: "أى حزب سوف تؤيده وتدلى له بصوتك؟"

نظرنا جميعًا إلى أبى الذى أجاب: "حزب الفقراء".

قال النجار وهو يضرب بيديه فوق الطاولة: "إنهم فاسدون مثل كل الأحزاب الأخرى".

- لكننى ما زلت أؤيدهم وأقف إلى جانبهم لأنهم - علـــى الأقــل - لا يبصقون علينا.
- لكنهم جميعًا فاسدون فلقد قتلوا رجلاً فى مدينتى لأنه لم يؤيدهم كمـــا أنهم يحاولون أيضًا التلاعب بالانتخابات ولا يتورع رجالهم السفاحون عن ضرب الناس فى الأسواق، إنهم مرتشون ولا يخدمون أحدًا سوى أنفسهم.

قال أبى بعناد: "لكننى ما زلت عند رأيى".

- لماذا؟ ماذا فعلوا من أجلك؟
- لا شىء.
- فلماذا إذن؟
- لأنهم على الأقل يفكرون فى العامل العادى الذى يعمل فى الأعمـــال الشاقة.
- إنهم يفكرون فيه فقط، التفكير هو كل ما يفعلونه.

قالت مدام كوتو بحدة: "ممنوع الكلام فى السياسة داخل حانتى".

قال أبى: "أنت امرأة عاقلة وحكيمة فالسياسة تفسد العمل".

- إنهم جميعًا فاسدون ومرتشون وكلهم لصوص، أما حزب الأغنياء فإن كل شخص يعرف بأنهم لصوص.
- كفى كلامًا فى السياسة.
- لكننى لن أدلى بصوتى لهم.
- إنهم يملكون...
- لا أريد كلامًا فى السياسة.
- المال و...
- لا تتحدثا فى أمور السياسة.
- يملكون المال والقوة، إنهم يستطيعون المســاعدة وإن أيـدتهم فـإنهم سيساعدونك، لا بد للرجل الفقير أن يأكل.

نهضت مدام كوتو وخطفت الطاسة من أمـــام النجـــار وقالـــت: "ألـــم تسمعنى؟، لقد قلت إننى لا أريد كلامًا فى السياسة".

صمت النجار تمامًا وخرجت مدام كوتو وبدأ الرجلان فـــى اســـتئناف الشراب ثم استدار أبى ناحيتى وقال: "ماذا تعلمت فى المدرسة اليوم؟"

أجبت: "أخذنا درسًا عـــن ميـــدان المونجـــو وعـــن الإمبراطوريـــة البريطانية".

قال النجار: "كلهم فاسدون".

ظل أبى هادئًا وامتلأ هواء الحانة بالفراشات والذباب وأصبح النجـــار مخمورًا بما فيه الكفاية وراح يردد بلا توقف نفس الجملة، صبَّ لى أبى قليلاً من النبيذ شربته على الفور وتحوّلت عينا أبى إلى اللون الأحمر، كان النجار يواصل ترديد جملته وفى الخارج كان الطائر يغنى لحنًا متكررًا، أصـــبحت مخمورًا تمامًا أما النجار فقد توقف عن الكلام، وما كاد يبدأ فى حديث آخـــر حتى توقف مرة أخرى وألقى برأسه فوق الطاولة ثم راح فى نـــوم عميـــق، لعب النبيذ برأس أبى فبدأ يتمايل بجسده فى هدوء وقال بصوت عال: "نبيـــذ رائع".

استيقظ النجار فجأة وهو يرتعش ونظر حواليه ثم عاد للنوم، وعندئـــذ كرر أبى مقولته: "إن السياسة كفيلة بإفساد الصداقة".

لم يتحرك النجار وبعد أن فرغ أبى من احتساء نبيذه نهـــض ومضـــى ناحية النجار مترنحًا وضربه فوق كتفه، استيقظ النجار فجأة وأدار رأسه فى كل اتجاه كالطير لكن عينيه كانتا مغلقتين.

قال أبى: "إن الصداقة – أيضًا – كفيلة بإفساد السياسة".

ألقى النجار برأسه فوق الطاولة مرة أخرى وهو يكرر: "إنهم جميعًـــا فاسدون ومرتشون".

مضى أبى نحو الحوش وهو يترنح ويقول: "مدام كوتو، سوف نغادر".

قالت مدام كوتو: "تصبحون على خير".

قال أبى عند عتبة الباب وهو يتمتم بشىء ما: "دعنا نعود للبيت".

غادرنا حافة الحقيقة وأرض الجنيات التى لا يستطيع أحـد رؤيتهـا، وعدنا إلى البيت فى الليل ونحن نترنح.

(٦)

انتهى النجار من عمل الكاونتر الطويل ففقدت الحانة جزءًا مهمًا من تميزها، ولم تعد شبيهة بأرض الجنيات، وفى محاولة للتغيير وضعت مدام كوتو المقعد والطاسات البلاستيكية وآنية الشوربة وبعض أقداح النبيذ خلف الكاونتر الجديد، أخذ النجار جزءًا من النقود لقاء عمله وشرب نبيذًا بالجزء الآخر، وعندما وصلت كان مخمورًا تمامًا وكانت مدام كوتو تحاول إقناعه بالمغادرة، لكنه لم يتزحزح من مكانه وظل يطالب بمزيد من النبيذ قائلاً: "من المهم بالنسبة لى أن أشرب بعد أن انتهيت من عملى".

اعترضت مدام كوتو وأعلنت بأنه كان يشرب أثناء العمل حتى فقد اتزانه، وهاهو الكاونتر مائل عند أحد جوانبه وغير مثبت فى مكانه.

لم يتأثر النجار بما قالته مدام كوتو فلم يتوقف عن الشراب، بينما كانت مدام كوتو تواصل اعتراضها وانتقاداتها، سقطت ذبابة زرقاء فى قدح النبيذ لكن النجار لم يهتم ورفع القدح مواصلاً الشراب وهو يتمتم شاكيًا من أجره الهزيل الذى دفعته له، شغل الكاونتر مساحة كبيرة وكانت نشارة الخشب والمسامير منتشرة فوق الأرض بعد أن رفض النجار أن يكنسها، فرفضت مدام كوتو أن تقدم له مزيدًا من النبيذ، لكنه سألنى أن أقدم له بعض الماء وقال: "أعتقد أننى لن أسكر بالماء أيضًا!؟"

أمرتنى مدام كوتو قائلة: "لا تقدم له الماء".

جلست خلف الكاونتر الجديد فانحشر جسدها البدين بين الخشب والحائط وراحت تتفحص كل شىء بعيون صاحبة المكان، أما النجار فقد غلبه النعاس ولم يستيقظ إلا على إثر ضربات مدام كوتو بالمكنسة فوق المائدة حيث سارع إلى الحوش، وما هى إلا ثوان حتى سمعناه وهو يبول

ويصدر أصواتًا من مؤخرته، خرجت مدام كوتو مندفعة ثم خرجت وراءها فشاهدناه وهو يواصل تبوله فوق الحطب، وبسرعة التقطت مدام كوتو أقرب مكنسة وضربته فوق رقبته وعندئذ لاذ بالفرار دون أن يتوقف عن التبول والضحك، لكنها جرت وراءه فى الشارع غير أننى عدت إلى داخل الحانة وجلست فى الركن المعتاد ولم يمض وقت طويل حتى عادت مدام كوتو وكان العرق متصببًا فوق شفتها العليا، ألقت بالمكنسة إلى جوار الآنية الخزفية وقالت: "سأذهب للاسترخاء بعض الوقت وإذا جاء أى شخص فعليك أن تستدعينى".

خرجت تجرجر قدميها وسمعتها وهى تقلب الحطب وتلعن النجار ثم غاب عنى صوتها، كان الجو حارًا داخل الحانة لكن رائحة نشارة الخشب كانت لطيفة، وكان الذباب يطير على شكل دوائر فى الهواء، وعندئذ لاحظت إعلانًا عن الكوكاكولا ملتصقًا فوق الحائط مرسوم عليه امرأة بيضاء نصف عارية ذات أثداء كبيرة، كانت السحالى تجرى فى الحانة وتتوقف عند المنتصف ثم تشير لى برؤوسها كأنها تقدم لى التحية؛ فأشرت لها برأسى ثم انطلقت مسرعة، رقدت فوق المقعد وغلبنى النعاس.

لم أستيقظ إلا عندما دخل أحد الرجال إلى الحانة مندفعًا، كان الرجل يرتدى ملابس قذرة ويمسك فردة من حذائه فى يده، اندفع بنفس القوة التى دخل بها إلى الخارج عبر باب الحوش، عاد إلى الداخل مرة أخرى ووقف فى مكانه مذعورًا وهو يتطلع فى كل الاتجاهات، ثم أخرج منديلاً من جيبه وراح يمسح وجهه.

نظر إلى محدقًا وقال بتوسل: "أين يمكننى الاختباء؟"

- لماذا؟

- إنهم يتعقبوننى.

- لماذا؟

- رجال السياسة.
- هل أنت من المهتمين بالسياسة؟

بدا مرتبكًا وقال: "هل يوجد طريق خلف هذا الحى؟"

- لا أعرف.
- هل ستساعدنى إذا أعطيتك نقودًا؟
- لماذا؟
- هل أنت غبى أو مغفل؟ أتريدهم أن يقتلونى؟
- لا.

بدأ يتكلم مرة أخرى بعد لحظة قصيرة من الصمت، فسمعنا أصواتًا خشنة وكثيرة قادمة من الطريق، اقتربت الأصوات شيئًا فشيئًا من الحانة، فوضع الرجل فردة الحذاء بين كفيه وسارع بالجرى فى اتجاهات مختلفة وهو يقول: "أنقذنى يا إلهى".

أمسك بيدى فأشرت إلى باب الحوش وقدم لى منديله فى المقابل ثم جرى مسرعًا نحو الخارج، لم أستطع أن أفهم سبب إعطائى المنديل الذى كان قذرًا جدًا ولا يشبه لونه أى لون فى العالم، ذهبت وألقيت به بعيدًا فى الحوش.

عدت إلى داخل الحانة فشعرت بالأصوات الخشنة وراء الستارة، وكان بعض الناس قد ذهبوا بعيدًا باتجاه الشارع وهم يتشاجرون ويصيحون طوال الطريق، ثم دخل الحانة رجلان بصدرهما العارى وعضلاتهما المقيدة، وحين اقتربا منى عرفت بأننى رأيتهما من قبل، كان أحدهما قد جاء إلى حجرتنا مع صاحب البيت وكانت شفتاه كبيرتين وعيناه صغيرتين، أما الآخر فكان واحدًا من الفتوات الذين شاركوا فى معركة شارعنا العقيمة، وكانت فتحتا أنفه تنتفخ وتتقلَّص مع أنفاسه وكان يلف ضمادة حول رأسه، وقف كلاهما فوقى وسألنى صاحب الضمادة: "أين المدام؟"

- لا أعرف.
- من أنت؟
- أنا ولد.

نظر كلاهما إلى بقرف وكراهية وانتشرت رائحة عرقهما الكريهة فى أرجاء الحانة، كان الصدر الضخم لكليهما يرتفع ويهبط وهما يقومان بالتهديد والوعيد، ثم انتشرا فى الحانة ونظر أحدهما تحت المقاعد والموائد والـدكك بينما راح الآخر يتطلع خلف الكاونتر وخلف الأبواب، ثم عادا ووقفا أمـامى مرة أخرى لكنهما عاودا عملية البحث مرة أخرى كأنهمـا يفكـران بـنفس الطريقة، فخرج أحدهما من باب الحوش وخرج الآخر من البـاب الأمـامى وسرعان ما رجعا من أبواب متقابلة ثم جلسا بالقرب منى، وعندئـذ دمـدم صاحب العينين الصغيرتين قائلاً: "هل يوجد نبيذ هنا؟"

- لا.
- ولِمَ لا؟
- صاحبة الحانة لم تحضر النبيذ حتى الآن.
- هل لى فى بعض الماء؟
- لا.
- ولِمَ لا؟
- لقد جف البئر.

حدّقا فى وجهى باندهاش وقال صاحب الضمادة: "هل يوجد أى نـوع من الشوربة؟"

- لا.
- كيف؟
- إن المدام لمّا تجهزها بعد.

مضى صاحب العينين الصغيرتين نحو الآنية الخزفية ثم رفع الغطـاء وراح ينظر بداخلها وقال: أليس ذلك ماءً؟

- بَلى، لكن الرجل المجنون تبَول فيه.
- كيف؟
- لا أعرف لكن المدام قالت إنه مجنون.
- ولماذا لم تفرغوه من الآنية وتلقوا به خارج الحانة؟
- لا أستطيع حمل الآنية الخزفية.

أعاد الغطاء إلى مكانه وعاد إلى مقعده وأحاط الذباب بكليهما من كل اتجاه، ثم قال أحدهما: "أتضحك علينا؟"

- لا.

أخرج صاحب الضمادة سكيناً من جيب بنطاله وبدأ فى تقطيع فرش المائدة، ونحت الخشب فقلت له: "لا تفعل ذلك".

- ولِمَ لا أفعل؟
- سوف تغضب المدام.
- لا، لن تغضب، إنها صديقتنا كما أن حزبنا يُكِن لها مودة خاصة.

ظلا صامتين لحظة قصيرة ثم ضرب أحدهما واحدة من الذباب ضربة قوية فقتلها، وبعد أن أزاحها بعيدًا عن كفه راح يضحك ويقهقه ويقول لصديقه: "لقد قتلت ذبابة".

أشار له صاحبه برأسه لكنه ظل صامتًا وعندئذ نظر صاحب الضمادة لى بعينين نصف مغمضتين وبطريقة قاسية وقال: "هل جاء أى شخص هنا؟"

أجبت: "لا".

بقيا صامتين لحظة أخرى ثم - كأنهما سمعا شيئًا خارج الحانة أو كأن كلاهما استطاع أن يشم شيئًا ما من مسافة بعيدة - نهضا وجريا عبر باب الحوش إلى الخارج، كان الذباب يطن وسط صمت الحانة فذهبت إلى الحوش ونظرت حولى، لكننى لم أجدهما.

سمعت – فيما بعد – صوت رجلين يصيحان، وكان الصوت الضعيف يعلن عن براءته، اقتربت الأصوات وازدادت حدتها ثم راحت تبتعد شيئًا فشيئًا حتى صارت بعيدة تمامًا؛ فأصبح من العسير سماعها غير أنها سرعان ما عادت واقتربت من الحوش وتزايد عددها، فبدا أن كثيرًا من الناس يتجادلون ويختلفون حتى أن صرخة الرجل ذى الصوت الضعيف غرقت وسط ضجيج الجماهير المحتشدة، هرعت إلى الخارج وشاهدت اثنين من الفتوات وهما يقبضان على رجل ويجرجرانه عبر الممر حتى وصلا به إلى الحوش، أمسكا بذراعى الرجل الذى استسلم لهما وراح يعبر عن براءته بخنوع مما جعل بعض المحيطين بهم يتساءل عما فعله الرجل، وفى تلك الأثناء خرجت مدام كوتو من حجرتها وعندما شاهدت الفتوات وذلك الرجل التعيس سارعت بالعودة إلى حجرتها مرة أخرى.

ساد جو من الضجيج المرعب فى وجود ذلك الحشد من الجماهير وأولئك الفتوات، وأصبح صوت الرجل التعيس أكثر ضعفًا وفقد قدرته على التوسل وإعلان براءته، وصار وجهه حزينًا بطريقة مثيرة للشفقة كأنه أراد أن يعلن للعالم بأنه قد قبل قدره ورضى به.

بدأ بعد لحظة يتوسل للرجلين أن يطلقا سراحه معلنًا أنه لن يقاومهما أو يعترض عليهما مرة أخرى، ومؤكدًا بأنه لم يكن فى كامل وعيه ثم راح يتوسل للجماهير طالبًا منهم المساعدة، تعاطفت الجماهير مع الرجل وحظه العاثر، مما أتاح له فرصة الهرب المفاجىء فأصبحوا جميعًا سببًا فى تفاقم المشكلة، اندفع الرجل وسط الزحام وأزاح فى طريقه بأم وطفلها ودون أن يقصد اصطدم كوعه ببطن امرأة حامل، ثم جرى ناحيتى وهو خائف فاصطدم بى بقوة حتى وقعت على الأرض وارتطمت رأسى بقطعة كبيرة من الحطب.

صاح الاثنان: "أمسكوه، أمسكوه.

- أوقفوه، اقبضوا على الخائن.
- حرامى، لص!"

جرى بعض الناس خلفه بينما اندفع الفتوة ذو العينين الصغيرتين مسرعًا حتى أمسك بالرجل من قدمه، ركع الرجل فانقضَّ الرجلان عليه وراحا يركلانه ويصفعانه على وجهه ويضربانه فى بطنه فلم يحتمل الرجل وخر ساجدًا على ركبتيه فى حالة من الانهيار، غير أن الرجلين لم يشفقا عليه وإنما ظلا يلاحقانه بوابل من الضربات واللكمات حتى استدار الرجل بجسده كالكرة، لكنهما أيضًا لم يتوقفا بل راحا يبتكران أشكالاً جديدة من الضرب وأنواعًا جديدة من لكمات اليد العنيفة وتحطيم المفاصل والهجوم والركل بالكوع، شعر الرجلان بمتعة كبيرة من أساليب الضرب الجديدة.

خرجت مدام كوتو من وسط الزحام وقالت بغير حماس: "كفى".

لم يهتم الرجلان بما قالت وكأنهما لم يسمعا أى شىء، وراحا يواصلان ضرب الرجل بلا هوادة ثم سحباه على الأرض وهو يبكى ويرتعش والمخاط يسيل من أنفه واللعاب من فمه، كما كان ينزف من عينه اليسرى، وكان وجهه كله مليئًا بالكدمات وجسده مجروحًا فى ستة أماكن مختلفة، كان الناس ينظرون إلى المشهد بارتياب دون أن يجرؤ أحدهم على فعل أى شىء، فيما عدا واحدة من النساء بدأت تتوسل من أجل الابتعاد عنه والكف عن إيذائه وراحت تتحدث عن الرحمة والعطف ومحبة الرب ورحمته، لاحظ الرجلان حالة الناس المزاجية ومدى تأثرهم بما يحدث للرجل فقالا لهم: "إنه مخلوق فاسد وشرير، لقد كان يضرب زوجته بقسوة وبدون وعى كما أنه هجر أطفاله الثلاثة وتركهم يتضورون جوعًا، ولم يسأل على زوجته التى أمضت أسبوعا كاملاً فى المستشفى".

أضاف الرجلان قائلين: "إن زوجته هى أختنا".

غضب الناس بسبب وحشية الرجل وحين بدأ الرجلان فى سحبه بعيدًا هجمت كل النساء عليه، ورحن يضربنه فوق رأسه ويقذفنه بـأفظع الشـتائم لكونه جبانًا ووحشيًا.

سحبه الرجلان ومضيا به ناحية الغابة فتمزقت ملابسه وتدلت رأسـه، ثم مضى فى سيره خاضعًا ذليلاً كأنه يسلك طريقه نحو الموت.

اختفى الرجل والفتوات الاثنان فتفرق الناس لكن أهل الحى بقـوا فـى أماكنهم بملابسهم الفقيرة ومظاهر الجوع البادية فوق وجوههم والألم الـذى يعتصرهم، كانت وجوههم تطفح بحقائق حياتهم وهم واقفون خارج الحانـة، وكانوا يحدّقون فى اتجاه الغابة كأنها كانت على وشك البوح بشىء مشئوم أو سماع صوت ما، أو كأن الغابة كانت فى طريقها لإعلان أسرارها المثيـرة للفزع.

لم يتحرك أحد حتى بعد أن سمعوا صرخات الرجل البريئة القادمة من فروع الأشجار، وظل الجميع صامتًا فى حالة من الذهول لكن مـدام كوتـو كسرت ذلك الصمت حين توجهت إلى كومة الحطب وبدأت فـى إشـعالها، كأنها أرادت أن تؤكد بأن أشياءَ قليلة تحدث يمكنها أن تجعل استمرار الحياة أمرًا مستحيلاً.

كانت النسوة ينظرن إليها وهى تشعل الحطب ونظرت بدورى إلى كل الحاضرين، فبدت مدام كوتو - وهى مشغولة بعملها - مختلفة عن الجميـع ومتحررة من القلق الذى يساورهم، كانت الطيور متجمعة فى شكل عناقيـد هندسية الشكل وهى تحلق فى السماء وتتنقل من فراغ إلى آخر دون أن تفقد شكلها الهندسى الجميل، وكانت تنشر ظلالها فوق الأرض المحترقـة، وفـى تلك الأثناء عاد أهل الحى والجيران إلى حجراتهم، عادوا جميعًا إلى مشاغلهم المختلفة.

دخلت الحانة ورقدت فوق الدكة وحين أغلقت عينى سمعت مدام كوتو وهى تدخل وتقول: "إذا أسأت التصرف فإنك ستلقى نفس المصير".

- ماذا؟
- سوف تبتلعك الغابة.

قلت: "وعندئذ سوف أصبح شجرة".

- وعندئذ أيضًا سوف يقطعونك ويزيلونك من أجل الطريق.
- وإذن فإننى سأتحول إلى طريق.
- وسوف تمضى السيارات من فوقك كما أن الأبقار سوف تفرغ مخلفاتها فوقك، وسيقدم الناس الأضحيات والقرابين فوق وجهك.
- وسوف أصرخ فى الليل وعندئذ سيتذكر الناس الغابة.

لم تقل مدام كوتو شيئًا وظلت صامتة بعض الوقت لكننى سمعتها دون أن أفتح عينى وهى ترفع الآنية الخزفية وتفرغ منها الماء، ثم سمعتها وهى تخرج.

ساعدت الحرارة فى تغيير الألوان داخل عينى وأنا راقد فوق الدكة محتميًا بظلال الحانة، وكانت الطيور تغرد فى الخارج بنغمات جميلة فانفتحت بداخلى نافذة كبيرة ورائعة من السلام ظلت تكبر وتكبر حتى تلاشت الحرارة من فوق جلدى.

ثمة أصوات رقيقة كانت تغنى وسط الشجيرات وحين سمعت صوت المؤذن استمعت أيضًا إلى نفسى وأنا أطلق شخيرًا عاليًا، وفجأة قفز إلى مخيلتى شكل ما غريب ومتعفن كجسد حيوان خرافى كان ملقى فوق أرض أحد الممرات، انتصبت واقفًا ولم تلمس قدماى الأرض ورحت أتفحص ما حولى؛ فأبصرت سحلية تتوجه بنظراتها نحوى كما لو أننى كنت على وشك الغناء، وكانت الطيور بالخارج تغرد ألحانًا غامضة وعسيرة على الفهم.

رقدت مرة أخرى فاخترق صوت أطفال المدرسة مسامعى، كان الأطفال يصيحون صيحات حادة مليئة ببهجة اللعب ويتصادمون مع بعضهم البعض، لكننى استمعت أيضًا إلى أصوات كثيرة بداخلى، وحين شعرت بوخزة الدكة فى ظهرى أغلقت عينى فأظلمت الدنيا واتشح كل شىء بالسواد، وثمة ظل أكثر سوادًا كان من اليسير رؤيته وسط كل ذلك السواد، غرقت فى دوامة فتمددت بجسدى وعندئذ تحولت الظلمة إلى شىء خفيف كالهواء، وبينما كنت أطفو وأتحول وأنا مقيد بدوامتى تراءى لى وجه زمردى مشرق ذو عينين زرقاوتين وابتسامة حزينة لرجل فقد حياته فى اللحظة المناسبة، هل كان ذلك الوجه تجسيدًا لملك عالم الأرواح العظيم؟

تطلّع الوجه الزمردى فى وجهى بإمعان وحين حاولت النظر بعمق أكثر إلى وجهه الغامض الملىء بالأسرار شعرت بالضوء يغمرنى، وانفتحت عيناى على كثير من الإشراق والضياء.

أغلقت عينى مرة أخرى فسمعت صوتًا مفاجئًا وشعرت بفزع غريب كما لو أن ذراعًا قوية أو عدة أذرع انتشلتنى من الظلام المسيطر وراحت تتحسسنى، لم أتحرك من مكانى ولم أخف، وعندئذ شاهدت وجوه الأرواح النحيلة والدم المتدفق من أعينها، انفتح فمى كما يفعل المرء حين يصرخ أو حين يضحك فتغيرت الوجوه ثم طافت حول نظراتى رأس صلعاء، كانت الرأس الصلعاء مليئة بالعيون الحزينة من كل اتجاه، انحنت الرأس قبالتى وتقوست فأبصرت فمًا فى فروة الرأس، كان الفم يبتسم ببهجة ومرونة، استيقظت فجأة فتراءت لى بعض نظرات الأرواح الخاطفة قبل أن أشاهد وجه مدام كوتو المتجهم وهى تمسك بيدى وتقول: "انهض، ألا ترى الزبائن؟"

نهضت وتطلعت حولى فأدركت أننا كنا فى منطقة وسطى بين الماضى والمستقبل، بين ما حدث وما يجب أن يكون، لقد بدأت دورة جديدة بعد أن انحدرت الدورة القديمة وانبثق الرخاء ممتزجًا بالمأساة من داخل مشاهداتى، فعرفت أن الحانة لن تكون هى نفس الحانة مرة أخرى.

استطعت فى المساء – من خلال جدائل الستارة – أن أرى الطيور وهى تلف فى الهواء على شكل دائرة وكانت الشمس برتقالية اللون، وثمة شيء متوهج كان منفصلاً عن نسيم الغابة البارد حين انطلقت ابتسامة من وجه مدام كوتو كانت تدخرها للزبائن الذين بادلوها بمزيد من الابتسامات.

كان الكثير من الناس خارج الحانة يرتدون الجلاليب والقفاطين وسترات الرحلات المشرقة الأنيقة، ويضحكون ويتحدثون بحيوية ونشاط، وكان يتوسطهم عدد كبير من النساء اللاتى اختلطت رائحة عطورهن النفاذة بهواء المساء فتشبَّع الفضاء بها، ولم يعد بالإمكان تجاهلها.

دخل الفتوات الاثنان إلى الحانة بعد أن تركا الرجل فى مكان بعيد، وظلا يتفحصان المكان لمعرفة إذا ما كانت مساحته كافية للاحتفال المزمع إقامته، وقد بدا كلاهما شبيهًا فى مظهره وسلوكه برجال الأعمال المتحضرين أو المقاولين ورجال السياسة وأولئك الذين يعملون فى مجال التصدير، بالرغم من الضمادة وعلامات الوحشية فى أعينهما، كانا يرتديان جلبابًا معقودًا برباط وقبعات متشابهة وبدا أنهما مبتهجان بطريقة عجيبة، خرجا من الحانة ثم عادا مرة أخرى وتوجها إلى مدام كوتو وانحنيا أمامها بوقار قائلين: "هذا المكان يفى بالغرض، نريد أن نحتفل هنا خاصة وأنك صديقتنا ونصيرتنا، وبما أنك طيبة معنا فسوف نساعدك فى عملك".

حرّك الرجل ذو الضمادة جبهته وسمعته يقول: "تعالوا يا أقربائى وأبنائى، ادخلوا".

قاد الناس إلى داخل الحانة وهو يغنى ويسير بخفة ونشاط، ووقف الرجل ذو العينين الصغيرتين فى منتصف الحانة وهو يومئ لهم بإشارات توحى بالاطمئنان، لم يكن أى منهما شبيهًا بأولئك الناس، ولقد سحرنى ذلك التحول الذى طرأ عليهما.

قالت مدام كوتو بصوت متملق: "مرحبًا بكم يا زبائنى الأحباء".

نظرت إليها مندهشًا من ذلك التملق فأبصرت وجهها المتألق، فركت كفيها ثم جلس الرجلان ودخل الناس فانتشرت رائحة عطورهم النفاذة فى الحانة، وكانوا يرتدون الأربطة المزركشة وأساور المعصم وخلاخيل القدم والحليات الصغيرة والمجوهرات الغريبة، وتسربت رائحة النقود الجديدة من جيوبهم.

صرخ أحد الرجال قائلاً: "مزيد من الضوء".

وقال آخر: "ومزيد من أفضل أنواع النبيذ".

بدت لى مدام كوتو غير خائفة من أى شىء، وكانت تتحرك برشاقة وابتهاج حرصًا على ألا يفقدوا سعادتهم وسرورهم، اندفعت إلى الخارج وأحضرت قطعة نظيفة من القماش ونظفت المقاعد قبل أن يجلس عليها الرجال والنساء، كما نظفت الموائد بعناية كبيرة حتى تلألأت ثم فتحت الستارة عن آخرها بعد أن علقت الأجزاء السفلية من الجدائل البلاستيكية فى مسمار، خرجت مسرعة مرة أخرى وحين عادت نظرت إلىَّ نظرة مخيفة وصاحت فى وجهى - لأول مرة - كأننى خادمها وقالت: "انهض أيها الولد المزعج، انهض وأحضر الماء لزبائنى!"

أصابتنى صدمة شديدة فلم أستطع أن أتحرَّك وعندئذ شدتنى من مؤخرة عنقى وألقت بى خارج الحانة، التقطت قطعة طويلة من الحطب وأنا غاضب ومضطرب وبقيت بالخارج مدة طويلة، وعندما خرجت مدام كوتو رفعت قطعة الحطب عاليًا وأعددت نفسى لاستخدامها لكنها نظرت لى وقالت: "أين الماء؟"

لم أقل شيئًا وأحكمت قبضتى على قطعة الحطب محاولاً مقاومة ما وراء عينيها، اقتربت منى فتراجعت باتجاه الشجيرات؛ فابتسمت وراحت

أثداؤها الكبيرة تترجرج، اقتربت أكثر وفردت ذراعيها فجريت بعيدًا وطارت قطعة الحطب من يدى لكن شظية من الخشب التصقت بكفى، توقفت مدام كوتو واكتسى وجهها بتعبيرات جديدة ثم قالت: "نعم، نعم".

التقطت جرادل الماء بنفسها وبقيت أنا بجوار الشجيرات أراقبها، وهى تتحرك داخل الحانة وخارجها بسرعة واهتمام فى محاولة لإرضاء الزبائن، شاهدتها وهى تخرج من الحانة فى إحدى المرات بوجه عابس، لكنها حين عادت للدخول كانت تبتسم ابتسامة زائفة، اقتربت من مدخل الحانة وشاهدت عددًا أكبر من الفتوات وأصدقائهم وهم يسارعون بالدخول ويضحكون بصوت عال ويتحدثون عن المال ورجال السياسة وعقود العمل والنساء والانتخابات، اختلست النظر إلى الداخل فرأيت مدام كوتو جالسة خلف الكاونتر، كانت مبللة بالعرق وهى تستمع لما يقال بيقظة وبعينين مفتوحتين عن آخرهما، ولم تكن ابتسامتها الزائفة تفارقها كلما طلب أحدهم شيئًا ما، وعندئذ بدت لى مدام كوتو كأنها شخص غريب تمامًا لم أعرفه من قبل، وشعرت بأننى أراها للمرة الأولى.

قال أحد الرجال: "مدام، لماذا لا تحولِين هذا المكان إلى فندق؟ سوف تكسبين نقودًا أكثر".

وقال آخر: "ولماذا لا تأتين بنساء يخدِمْنَنَا بدلاً من ذلك الغلام الغريب؟"

لم أسمع إجابة مدام كوتو التى أثارت مزيدًا من الضحك بين الزبائن، ظلوا يشربون كثيرًا من طاسات الشوربة وكثيرًا جدًا من كئوس النبيذ، وحين بدا المساء يوزع ظلاله فى السماء كنت لا أزال بالخارج، فخرجت مدام كوتو للبحث عنى لكننى جريت بعيدًا عندما رأيتها تقترب منى.

سألتنى بصوت رقيق: "لماذا تجرى؟ أرجوك أن تدخل الحانة، إنهم زبائنى الأعزاء ويجب أن تعاملهم معاملة حسنة".

وعدتنى ببعض النقود وجرعة كافية من الشوربة، وحين عـدت إلـى الحانة بحذر كانت الخمر قد لعبت برءوس الرجال فبدأوا يتصايحون، وراح اثنان منهم يترنحان ويسكبان الشوربة ويرقصان بـدون موسـيقى بعـد أن أصبحا مخمورين تمامًا، ثم صعد أحدهما فوق المائدة وبدأ فى الرقص علـى إيقاع أغنية الحزب الذى ينتمى إليه، اهتزت المائدة وهـو يغنـى ويـدوس بقدميه، وحاول الرجل الآخر أن يتسلق المقعد لكنه لم يستطع وعندئذ حـاول الفتوات الاثنان تهدئتهما، اسـتدار الرجل ذو الضمادة حول طاولته محـاولاً الإمسـاك بالراقص الذى راح يقفز من طاولة لأخرى حتى انحشـر جسـده - أخيرًا - بين الخشب، لكن أحدًا لم يتحرك لمساعدته.

قال ذو العينين الصغيرتين: "لا تقلقى يا مـدام، سـوف نـدفع ثمـن الطاولة".

ظلت مدام كوتو صامتة خلف الكاونتر وقد تلاشت ومضـات وجههـا المنخفض، لكننى استطعت أن أشـعر بغضـبها الجـامح رغـم ابتسـامتها المصطنعة بالمودة وهى تقول: "شكرًا زبائنى الأعزاء".

نهضت امرأتان من المجموعة وسارعتا بمساعدة الرجل وإخراجه من وسط الطاولة، كان الرجل ينزف من أفخاذه ومن المنطقة بين الفخذين، وبدا عليه أنه لم يلحظ ذلك النزيف حيث تمدد فوق المقعد المجاور لى وغرق فى النوم، كان حذاؤه مبللاً واختلطت رائحة عطره الكريهة برائحـة الشـوربة، ابتعدت عنه بمسافة طاولتين واستأنف الآخرون شرابهم ومرحهم الصـاخب، بينما ظلت مدام كوتو تراقبهم بابتسامة لا تتغير فوق وجهها الكبيـر، كانـت تراقبهم فقط دون أن تفعل شيئًا حتى حين دخل الحانة زبـائن جـدد، وتـم طردهم والصياح فيهم من قبل الرجل ذى الضمادة وأصدقائه بعد أن قالوا لهم وهم يضحكون: "فلتبحثوا عن مكان آخر للشراب فهذه الحانة ملك لنـا هـذه الليلة".

ظلوا يدفعون الزبائن الجدد خارج الحانة ويمنعونهم من الـدخول دون أن تفعل مدام كوتو أى شيء سوى الابتسام.

أعلن الفتوة ذو الضمادة قائلاً: "هذه المدام ستصبح زوجتى".

نهض ومضى يترنح فى سيره حتى سحبها من خلف الكـاونتر وراح يرقص معها.

قال أحد الرجال: "سوف تبتلعك تلك المدام تمامًا".

ضحك الآخرون فتوقفت مدام كوتو عن الرقص، ثم خرجت وعـادت بسرعة وهى تحمل المكنسة.

هتف بعض السكارى مرددين: "اجروا، اجروا".

فرَّ الرجل الذى أغضبها قبل أن تصل إليه وقال لها ذو الضمادة (وهو يمسكها من الخلف): "أنا متأسف".

أزاحته مدام كوتو بعيدًا عنها فقال لها بجدية وانفعال: "إذا قبلت الزواج منى يا مدام فسوف تنامين فوق سرير مفروش بالنقود".

ثم – كأنه أراد أن يثبت لها ما قال – أخرج حزمة من الأوراق النقدية وبدا يلصق واحدة بعد الأخرى فوق جبهتها المبللة بالعرق، اسـتجابت مـدام كوتو ببراعة فأخفت النقود داخل ثديها بطريقة سحرية كأنهـا راضـية بمـا حدث، ثم بدأت ترقص فضحك الرجل من جشعها وهو يتمايل ويفتح عينيـه ثم يغلقهما ويتصرف كأنه لم يلحظ أى شيء، لكنه – فجـأة – أزاح حزمـة نقوده وبدأ فى الرقص بعيدًا عن مدام كوتو، كـان وجهـه يـتلألأ بالنشـوة والإحساس بالقوة.

انتشر الظلام بالخارج وانعكست ظلاله على الـداخل وكـان الـذباب كثيرًا، وفجأة ساد ظلام كثيف فسارعت مـدام كوتـو بإحضـار الفـوانيس وأشعلتها ووزعتها على الطاولات.

قال ذو العينين الصغيرتين: "سوف نمدك بالكهرباء يا مدام وسوف تعزفين لنا الموسيقى فى يوم كهذا وسوف نرقص جميعًا".

دخل النجار فى تلك اللحظة بعد أن أزاح الستارة، كانت ملابسه قذرة وعيناه مفتوحتين عن آخرهما، وبدا أنه قد انتهى من عمل آخر فى مكان ما.

قال له أحد الرجال: "اذهب وتناول شرابك فى مكان آخر".

– لماذا؟

– ولِمَ لا؟

– لأننى أنا الذى بنيت هذه الحانة.

– ثم ماذا؟

– لا أحد يستطيع أن يأمرنى بالخروج من هنا.

– أهو كذلك؟

– نعم.

كان الرجل ذو الضمادة يشعر بالسأم من كل المواجهات التى حدثت فى ذلك المساء؛ فمزق ملابسه بطريقة مسرحية وقفز بعنف فوق النجار ثم سقط كلاهما فوق الدكة واصطدم الفانوس بالطاولة، وراحا يتصارعان ويتدحرجان فوق الأرض، سقط واحد من الفوانيس وتكسر مما أشعل النار فى الطاولة؛ وعندئذ صرخت النسوة وأمسكن بحقائبهن وسارعن بالفرار خارج الحانة، لم تجد مدام كوتو بديلاً عن الإمساك بمكنستها كى تخمد بها النيران غير أن المكنسة نفسها بدأت تحترق دون أن يتوقف الرجلان عن القتال، انتزع النجار الضمادة من فوق رأس الفتوة الذى حاول أن يخنق النجار، وبدأ أصحابه فى مهاجمة النجار وركله بالأقدام وضربه بالأحذية فوق رأسه وتسديد اللكمات فى ضلوعه، لكن الفتوة صاحب الضمادة هو الذى كان يصرخ فى كل مرة يضربون فيها النجار، ثم ساد الحانة اضطراب شديد انقلبت – على إثره – كل الدكك والطاولات وتكسرت الأكواب والأطباق

وتفسخت القدر الفخارية واشتعلت النيران فى النبيذ المراق فـامتلأ الهـواء بالدخان، لم أتحرك من مكانى وسمعت أحد الفتوات يصرخ بعد أن أمسـكت النيران بملابسه؛ فخرج مسرعًا والنار تحيطه من كل اتجاه قاذفًا بنفسه وسط رحابة الليل الكئيب، اشتعلت جدائل الستارة بالنار أيضًا وسرعان ما بدا كـل شيء يحترق، جاءت مدام كوتو مع أهل الحى واندفعوا متسارعين إلى داخل الحانة وهم يحملون جرادل الماء، وراحوا يصبونها فوق الطاولات والحوائط وفوق الرجلين المتصارعين وباتجاه اللهب المتصاعد والقدر المكسورة وفوق ذلك الرجل النائم من كثرة الشراب الذى قفز فوق الطاولة قبـل أن يصـبح مخمورًا ويفقد قدرته على مقاومة النوم، صبُّوا الماء أيضًا فوق الستائر وفوق كل شيء وما هى إلا لحظات قليلة حتى تلاشت النيران وتوقف الرجلان عن الشجار ثم نهضا من فوق الأرض، كانا مبللين تمامًا بالعرق وكانت قطع من الزجاج والخشب ملتصقة بملابسهما، وكانا ينحنيان إلى الأمام ويتأوهان.

التقطت مدام كوتو مكنسة جديدة واندفعت فجأة لتضرب تلك الأجسـاد المزدحمة وبدأت تجلد كل شخص على حدة بوحشية حتى أصبحت الفوضى فى الحانة بلا حدود، ظلت تجلد الفتوات الاثنين وضيوفهما وتتعقـبهم حتـى الباب، ثم استدارت ناحية النجار وظلَّت تجلده وتجـرى وراءه فـى أرجـاء الحانة وفى غمرة غضبها لم يسلم أهل الحى – الذين جاءوا لمساعدتها – من هجومها مما جعلهم يصرخون ويقولون: "لقد أصابها الجنون".

ضربتنى فى ظهرى ورقبتى فلذت بالفرار، ثم عادت تضرب الهـواء بالمكنسة رغم خلو الحانة الكامل من الزبائن.

ظهرت فجأة أمام عتبة الباب فصرخت النساء وهتف الرجال ثم جرت ناحية الفتوات وأصدقائهم، وبدأت تضرب النساء فوق ظهـورهن والرجـال حول كاحل أقدامهم بعنف، واصلت الجرى وراءهم حتى الطريـق المـؤدى للغابة، وفى لحظة ما لم نعد نراها لكنها عادت للظهور أمامنا وهى تتـنفس

بصعوبة، جرت خلفنا باندفاع فهربنا جميعًا وتفرقنا فى جميع الاتجاهات، لكنها استطاعت – بمهارة فائقة – أن تضربنا جميعًا رغم اندفاعنا فى اتجاهات مختلفة، فأصابتنا دهشة كبيرة من تلك المهارة، ضربت الهواء بالمكنسة فى غضب ولعنت كل شىء ثم رفعت التراب من الأرض والتقطت الحجارة وراحت تلف حول نفسها وهى تتوعد، مضت خلفنا حتى دخلنا الغابة ولم تتوقف عن تعقبنا ونحن ندلف إلى الحوش وحتى أثناء هروبنا فى الممرات، هرب الناس فى كل مكان ولجأت أنا إلى دخول الحمَّام ذى الرائحة الكريهة، وبقيت بداخله فترة طويلة ولم أخرج إلا حين سمعت أصواتًا أخرى مترددة تنطلق من أماكن اختبائها حيث سارعت بدخول الحانة.

كانت مدام كوتو تجلس إلى إحدى الطاولات وقد سيطرت الفوضى على المكان المظلم إلا من فانوس واحد فقط، كانت الطاولات مكسورة ومحترقة، وكان من اليسير ملاحظة الزجاج المتكسر وعظام الدجاج والطاسات المحطمة والملاعق الملتوية والدوارق المبعثرة والملابس الممزقة والنبيذ المراق والشوربة المسكوبة فى كل أرجاء الحانة، وفوق إحدى الطاولات كانت آثار التقيؤ واضحة وكانت نتيجة شركة الكوكاكولا ملقاة فوق الأرض وبقع الشوربة تلطخ أثداء المرأة البيضاء المرسومة على النتيجة، أما الدكك فقد كانت مقلوبة رأسا على عقب وبعض النقود محترقة فوق الطاولات والحوائط ملطخة ببقع الدم، جلست مدام كوتو فى الظلام وكان صدرها يعلو ويهبط بطريقة توحى بالتعب ولم يكن وجهها يفصح عن حقيقة مشاعرها، جلست وحيدة فى حانتها وهى محاطة بالفوضى وذباب الليل وكانت يداها ترتعشان.

نظرت بعينين حزينتين شاردتين إلى الأمام دون أن تتفحص ممتلكاتها، قضمت شفتها السفلى ثم بدأت ترتعش رعشات قوية مما أثار دهشتى، جلست منتصبة بوجه جرىء لكن عينيها كانتا مهزومتين، اهتز جسدها وبكت

فتدفقت الدموع غزيرة فوق خديها الكبيرين حتى تساقطت فوق الطاولة، وعندئذ توقفت وتماسكت ومسحت وجهها بأطراف لفافتها وبدأت فى إغلاق الحانة، كانت مدام كوتو - فى حقيقة الأمر - قد تجاوزت حزنها وعبرت تلك الفجوة بين الماضى والمستقبل، بين ما حدث وما يجب أن يكون وأدركت أنها على أعتاب دورة جديدة من دورات الحياة، استدارت فجأة فشاهدتنى ونظرت إلىَّ بثبات وبعينين مليئتين بفزع الاكتشاف فى لحظة غامضة، ثم قالت بقليل من الجفاف والقسوة: "إلى أى شىء تنظر؟"

- لا شىء.

- ألم تر امرأة ناضجة تبكى من قبل؟

لم أقل شيئًا فأمرتنى قائلة: "اذهب إلى البيت".

لم أتحرك من مكانى وأدركت حينئذ أن مدام كوتو لن تكون أبدًا كما كانت، وانتابنى إحساس جارف بأن الحانة أيضًا لن تكون أبدًا هى نفس الحانة.

قالت لى مرة أخرى: "اذهب إلى البيت".

فذهبت.

(٧)

كانت أمى وحيدة فى الحجرة تتوسل لأسلافنا بخنوع شديد وتصلى للرب بخشوع، غطّى منديلها جزءًا من وجهها وهى تنحنى بجوار الباب، وراحت تفرك كف يدها الأيمن بالكف الأيسر بحماس شديد، وحين رأتنى قالت: "أغلق الباب وادخل".

فعلت ما أمرتنى به وجلست فوق السرير، كانت أجواء صلاتها القوية قد غمرت الحجرة، وسمعتها وهى تبتهل من أجل القوة وتطلب من الرب أن يهب أبى وظيفة جيدة، وأن ينعم علينا بالرخاء والسرور وألا نموت قبل يومنا المحتوم، وأن نعيش حتى ننعم بحصاد وفير، وأن نتخلص من تلك المعاناة التى تحاصرنا من كل اتجاه.

بعد أن انتهت من صلاتها وابتهالاتها انتصبت واقفة وجاءت لتجلس بجوارى فوق السرير لكنها ظلت صامتة، كان الفراغ حولها مشبعًا بالطاقة، وحين سألتنى عن مدام كوتو قلت لها: "يعتقد الناس أن الجنون قد أصابها".

ضحكت أمى وظلت تضحك حتّى أخبرتها بما حدث، ثم سادت بيننا فترة من الصمت أدركت بعدها أن أمى لم تكن تستمع لى، كانت تنظر بعينيها بعيدًا فيما وراء الحجرة وبعد أن استفاقت من حالة التأمل العميق سألتنى فجأة: "هل رأيت الباب؟"

– بابنا؟

– نعم.

– نعم رأيته.

– اذهب وأغلقه مرة أخرى.

خرجت وألقيت نظرة لكننى لم أستطع رؤية أى شىء فى الظلام سوى بعض الناس على هيئة أشباح - كما يحدث فى الأحلام - وهم يتصارعون فى الحوش ويتحركون فى الممر، ثم عدت وأغلقت الباب خلفى فسألتنى أمى مرة أخرى: "هل رأيت؟"

أجبت: "لا".

أمسكت بالشمعة ووضعت كفى فوق جانب من اللهب وخرجت مرة أخرى، وحينئذ اكتشفت آثار ضربات قوية بسكين ضخمة فوق الباب، لقد شقوا الخشب تقريبًا إلى أجزاء متفرقة فانبعثت منه رائحة كريهة وتلألأ لون أحمر من ضوء الشمعة، امتزج اللون الأحمر بالخشب فبدا كأنه إنذار بالخطر، عدت للدخول وقد أصبح من اليسير ملاحظة باب بيتنا المهشم ومعرفته.

قالت أمى: "من الذى فعل ذلك؟"

- إنه صاحب البيت.
- وكيف عرفت؟
- لقد وقف أبى أمامه متحديًا حزبه.

وضعت الشمعة فى مكانها فوق المائدة ثم قالت أمى (وهى تحذرنى بعد لحظات من الصمت): "كن حذرًا من الناس ومن الجيران؛ فقد ينقلبون فجأة من أصدقاء لنا إلى أعداء".

- نعم يا أمى.
- كنت أجهز الطعام وعندما ذهبت إلى الحجرة وعدت إلى المطبخ كان شخص ما قد صب الماء فوق النار وأطفأها.

صمتنا بعض الوقت ثم قالت أمى: "إننى أخاف الآن من السير فى الحى بالليل، ربما يضعون السم فى طعامنا! من يدرى؟!"

أصبحت خائفًا فسارعت باحتضان أمى التى راحت تربت فوق رأسى برقة، وفى لحظة ما تراءى لى باب بيتنا مكسورًا فى الليل حين كنا نائمين، ورأيت شبحًا ضخمًا ذا آذان سبعة يتصاعد منها دخان أبيض، سرعان ما ملأ حجرتنا وتلاشينا جميعًا داخل فم الشبح النازف بالدماء.

قلت: "فلنهرب".

ضحكت أمى ثم ارتسم وجهها بالجدية فعرفت للمرة الأولى ما فعلته الدنيا بملامحها الصارمة، كانت عظام خديها بارزة ولها أنف حاد وذقن ثاقب، وكانت آثار خدوش قديمة واضحة فوق جانبى جبهتها، أما عيناها فكانتا ضيقتين ومتقلصتين، كأنها كانت دائمًا ترفض رؤية كثير من الأشياء التى شاهدتها.

ترددت وهى تقول: "سيعمل القدر على حمايتنا فلا تخف من أى شىء يا ولدى، إن أسوأ ما يستطيعون عمله هو قتلنا".

ارتسم وجهها بقناع غريب من الجمود وبدأت عيناها الخاليتان من أى تعبير تنظران إلى النافذة بتركيز غريب، وقالت: "لقد تعبت من هذه الحياة على أية حال وها أنا ذا أخيرًا أتمنى الموت".

تراءت لى فجأة صورة موت أمى وظلت تلك الصورة تلاحق مخيلتى ثم تهجرنى بسرعة، فارتبكت بشدة وعندئذ تذكرت وجهها عندما ضللت طريقى فى الغابة ووسط الطرقات ولم أعد إلا متأخرًا، فكادت أن تموت من شدة القلق وتذكرت أيضًا أن وجهها الملىء بالخدوش والكدمات هو الذى جعلنى أتنازل عن عهودى التى التزمت بها مع زملائى الروحيين وأختار الحياة والبقاء وسط قيود هذا العالم، كان أحد الوعود الكثيرة التى عاهدت نفسى على الالتزام بها أن أجلب لها السعادة فقررت أن أبقى لكنها تريد الآن أن تموت، انفجرت باكيًا وألقيت بنفسى فوق الأرض وأنا أفكر وقد تملكنى

تمامًا شيطان الحزن، حاولت أمى أن تضمنى إلى صدرها وتواسينى لتعرف السبب وراء بكائى المفاجىء دون أن تعرف أننى فى تلك اللحظة لم أكن قابلاً للعزاء؛ لأنها لم تعرف سبب حزنى ولم تكن تعرف أن الشىء الوحيد القادر على تهدئتى هو وعدها لى بأنها لن تموت أبدًا.

قالت لى: "ماذا أصابك؟ هل هو حزنك على الباب؟ أم إنهم سكان الحى؟ أم بسبب تصرفات صاحب البيت؟ لا تخف فنحن أقوياء بما يكفى لمواجهتهم".

جاءت كلماتها متأخرة جدًا فلم أستطع أن أتجاوز تعاستى بعد أن تملكنى الحزن، ورحت أبكى مقدمًا على كل الأشياء التى قد تحدث وعلى الأشياء غير القابلة للتصور القابعة خلف أفق قصص حياتنا وحكاياتها، غرقت فى حالة من البؤس الشديد كما تغرق بئر عميقة بالماء بعد انهمار المطر الغزير، فبدأت أختنق وحينئذ سارع أصدقاء الروح باحتساء أحزانى وإغراقى بالأغنيات العذبة لمساعدتى على تجاوز تعاستى، توقف قلبى عن الخفقان وتجمدت فى مكانى وأصبحت متيبسًا وغير قادر على التنفس، وكان فمى مفتوحًا وعيناى واسعتين، هاجمتنى رياح قوية قادمة من الغابة والتهمنى الظلام الذى أفقدنى قدرتى على الإحساس بأى شىء.

انبثقت – فجأة – من داخل ذلك الظلام موجة عكسية من الفرح العاصى، وطفت فوق شواطىء روحى موجة من الهدوء والسلام ثم سمعت أصواتًا عذبة ورقيقة تغنى، وشاهدت ضوءًا مشرقًا يقترب من منتصف جبهتى وفجأة انفتحت عين بعيدًا عن منتصف جبهتى رأيت بها ذلك الضوء كأكثر الأشياء جمالاً وإشراقًا فى العالم، كان الجو شديد الحرارة لكنه لم يكن حارقًا وكان مشعًا بقسوة لكنه لم يكن مظلمًا، حين اقترب الضوء أكثر شعرت بمزيد من الخوف، ثم تبدد خوفى وتحول الضوء إلى عين جديدة داخل عقلى ظلت تتجول فى أعماق روحى وتتحرك فى عروقى وتدور فى دمى، ثم

استقرت فى النهاية بين تجاويف قلبى الذى احترق بألم شديد حتى شعرت به كأنه أصبح كومة من الرماد داخل جسدى، بدأت فى الصراخ فتألمت بشـــدة لكن إحساسا رائعًا من الندى المقدس كان قد تخلل جسدى، وجعــل الرحلـــة العكسية للضوء المتألق تهدئ من حرارة الممرات الملتهبة قبل أن يعود إلـــى منتصف جبهتى حيث استقر، شعرت بقبلة حارة أبدية كانت مشـــبعة بســـر غامض ولغز محير لا يستطيع أحد فك طلاسمه حتى لو كان ميتًا.

(٨)

أمسكت أمى بالشمعة فى يدها فتساقط الشمع فوق جلدها الضعيف، لكنها لم تتأثر ولم تتحرك وكانت عيناها مفتوحتين عن آخرهما، وعند الظلال المظلمة التى لم يصلها ضوء الشمعة بدا وجهها صلدًا كالصخرة.

قالت بصوت كصوت إحدى الكاهنات الملىء بالغموض والأسرار: "سوف أحكى لك فى يوم ما تلك القصة التى قهروا بها الموت".

ظلت تنظر بعمق فى وجهى مدة طويلة وقد رسم ضوء الشمعة هالة ذهبية حول أطراف شعرها المتبعثر وتحوّل الشمع إلى اللون الأبيض فوق جلدها الضعيف، وضعت الشمعة جانبًا وأزالت الشمع من فوق يديها، وعندئذ عرفت أنها لم تكن تحدّق فى وجهى وإنما إلى ما ورائى، كانت عيناها ممتزجتين بالخوف والحب معًا، حرّكت ذراعها فى الظلام وصنعت منه جسرًا وسط العتمة، كانت عتمة زرقاء انقلب على إثرها كل شىء إلى اللون الأزرق.

طفت صاعدًا الجسر فوجدت نفسى فوق حصيرة وانخفض ضوء الشمعة فوق الطاولة، وكانت النافذة مفتوحة فانتشر الناموس والذباب الصغير فى الحجرة، هبّت الرياح حاملة معها رائحة العالم الممتزجة بهواء الليل المنعش فارتعش لهب الشمعة.

طرق شخص ما طرقات خفيفة فوق باب روحى وحين فتحت الباب وجدت المصور بالخارج، لكننى لم أستطع التعرُّف عليه منذ الوهلة الأولى، لم أكن قد شاهدته منذ أيام كثيرة فبدا لى مختلفًا بوجهه النابض بالصحة والعافية وعينيه المشرقتين، وكان مبتهجًا كأنه اكتشف حقولاً من الأمل بمكان ما فى الليل، وقال لى بقليل من التردد: "إنه أنا، المصور العالمى".

انحنى قليلاً ودخل وهو يقفز وبدت روحه متأرجحة بين الخوف والبهجة، وكانت بصحبته صناديق جديدة بداخلها أدوات التصوير وغطاء للكاميرا منقوش عليه بالأبيض والأسود كلمات تقول: (لكى تصبح رجلاً).

هل كانت تلك الكلمات المنقوشة سؤالاً طرحه على نفسه ولم يكن مطلوبًا؟ أم لغزًا غير محدد؟ أم أنها كانت إعلانًا ناقصًا؟، لم أكن أعرف لكننى رحت أنظر بشغف إلى الكلمات التى سحرتنى وصرت مفتونًا بها.

همس لى وأنا أغلق الباب: "هل تتذكرنى؟"

- أين كنت؟
- كنت فى جولة حول العالم وها أنذا قد عدت.
- وكيف حدث ذلك؟
- إن المعجزات لن تتوقف.
- ولِمَ لا؟

لم يجب على سؤالى الأخير وبقينا صامتين لحظة وسط السكون حتى همس قائلاً: "لن أبقى طويلاً، سوف أمضى حالاً لأسارع بالحصول على وظيفة جديدة، إنه صاحب البيت هو الذى يريدنى أن أرحل عن بيته، إننى جائع".

- لا يوجد طعام.
- لماذا؟
- ألم تر الباب؟
- أى باب؟
- بابنا.
- رأيته بالطبع.
- لا، أنت لم تشاهده.
- كيف إذن دخلت الحجرة دون أن أراه؟

- أنا متأكد بأنك لم تر الباب.
- لماذا؟
- لقد حاول بعض الناس أن يكسروا الباب ثم وضعوا شيئًا غريبًا فوقه.
- لماذا؟
- لا أعرف.
- ومن الذى فعل ذلك؟
- لا نعرف.
- إن الشر لن يتوقف أبدًا.
- ماذا؟
- لا يوجد طعام إذن؟
- لقد صبوا الماء فوق النار فأطفأوها حين كانت أمى تجهز الطعام وكان أبى يتقلب فى فراشه ويطلق شخيرًا عاليًا وبدأنا نسمع الفئران وهى تمضغ الطعام، فلعقت أمى فمها ولم تتكلم.
- لماذا؟
- لا أعرف لكن أمى تعتقد بأنهم قد يضعون لنا السم فى الطعام.
- اسكت!
- ماذا جرى؟
- قد تسمعك روح ما وهى تمر بجوارنا.
- وماذا ستفعل إذا سمعتنى؟
- لست أدرى لكن الأمر يتوقف على...
- يتوقف على ماذا؟
- هل يوجد أى نوع من الجارى؟
- نعم.

تسلل ناحية الخزانة كاللص، أمسك الطاسة بيده وغرف بها بعض الجارى ثم صب الماء فى الطاسة، وبعد أن تخلّص من الماء الزائد على

عجل وضع الملح ومكعبات السكر فوق الجارى، وأضاف قليلاً من الماء لكى يصبح الجارى قابلاً للأكل، بعد أن فرغ من طعامه البسيط المتواضع شعر بالشبع وقال: "تعال وأرنى الباب".

تناولت الشمعة ومضيت بها نحو الخارج محاولاً حماية اللهب من الريح، مما أتاح له رؤية الشقوق والضربات فوق الباب وراح يتلمس الخشب الأحمر ذا الرائحة الكريهة، وبعد أن شمه وتذوقه قال: "إنه دم خنزير متوحش".

- وكيف عرفت؟
- لقد كنت صيادًا.

عدنا إلى داخل الحجرة فركع المصور بهدوء فوق الحصيرة، وقال بعد فترة طويلة من الصمت: "ربما حدث ذلك بسببى!"

توقف لحظة ثم أضاف: "سوف أرحل حالاً وأختفى، سأذهب تحت الأرض".

صمت مرة أخرى وقال: "لا أريد أن أجلب لكم المتاعب".

هبَّت الرياح من النافذة فأطفأت الشمعة وبقينا فى الظلام، وحين تحدث مرة أخرى كان صوته مختلفًا وهو يقول: "هل تعرف ما الذى فعلته اليوم؟"

- لا.
- التقطت صورًا للفتوات وهم يهاجمون النساء اللاتى لم يستسلمن للهجوم، كما التقطت صورًا للشغب القائم ضد حكامنا البيض، وصورًا أخرى لرجل شرطة وهو يرتشى لكنه حين شاهدنى راح يتعقبنى ويجرى ورائى فلذت بالفرار.
- كيف؟
- السحر.

- كيف؟
- تحوّلت إلى شىء خفى.
- كيف؟
- إننى أملك كثيرًا من القدرات.
- وإذن فلماذا تختفى؟
- لأنك لا تستخدم قدراتك طوال الوقت.
- وماذا أيضًا تستطيع أن تفعل؟
- أستطيع الطيران.
- إلى أين؟
- إلى القمر.
- كيف؟
- فى لمحة بصر.
- أنا لا أصدقك.
- لقد طرت بالأمس عاليًا ورحت أحلق حتى وصلت إلى القمر، والتقطت صورًا لوجهه الغريب.
- دعنى أرى هذه الصور.
- فى وقت آخر سأريك إياها.
- ولِمَ لا أشاهدها الآن؟
- لأننى لا بد أن أنام.
- وأى شىء آخر تستطيع القيام به؟
- أستطيع تغيير وجوه الناس.
- كيف؟
- بالكاميرا.
- وإلى أى شىء تقوم بتغييرها؟
- يمكننى أن أجعل الناس ينعمون بالجمال والوسامة، أو الدمامة والقبح.

- لماذا؟
- لأننى أستطيع عمل ذلك.
- وماذا أيضًا يمكنك عمله؟
- أستطيع أن أشرب عشر زجاجات من الأجوجورو دون أن أسكر.
- سمعنا صوت الفئران وهى تمضغ الطعام فقلت: "هل تستطيع أن تفهم ما تقوله الفئران؟"
- لا.
- وهل يمكنك التحدث إلى الفئران؟
- لا، ولكننى أستطيع قتلها.
- لماذا؟
- لأنها لا تشبع أبدًا، إنها مثل رجال السياسة الجشعين والمستعمرين والأغنياء.
- كيف؟
- إنهم يقضون على الممتلكات الخاصة ويلتهمون كل شىء أمام ناظريهم، وإذا شعروا فى يوم ما بجوع شديد فإنهم سوف يأكلوننا.

كنت صامتًا حين استطرد قائلاً: "عندما تستيقظ غدًا ستكتشف أن الفئران ليس لها وجود، سوف أقضى عليها جميعًا باستخدام دوائى الفعال وقوتى السحرية الغامضة، ولكن لتعلم أن دوائى وقوة سحرى لن يكون لهما أى تأثير إذا لم تنم".

نهض وأغلق النافذة ثم رقدنا فوق الحصيرة، وعبثًا حاولت أن أنام فلم أستطع؛ إذ لم تتوقف الفئران عن المضغ بأصوات تبعث على القلق، كما أن الناموس لم يتوقف عن تعذيبنا.

قال لى فى الظلام: "يمكننى أن أعلمك كيفية الطيران إلى القمر".

سألته متحفزًا: "كيف؟"

أجابنى: "عليك فقط أن تفكر بالقمر وتستغرق فى نوم عميق".

حاولت وحين نجحت محاولاتى وغلبنى النوم لم أبلغ القمر ولا حتى حلمت بوجهه الغامض الملىء بالأسرار، وفى الصباح استيقظت متأخرًا فلم أخبر المصور بأن ما علمنى إياه لم يأت بالنتيجة المطلوبة.

(٩)

اتسم وجه أبي بالوحشية حين وقف إلى جوار أمي ممسكًا بستة فئران كبيرة من أذيالها، وكان واحدٌ من الفئران الستة لا يزال يقاوم من أجل الحياة ويتحرك بالكاد، صرخت أمي وهبت واقفة من فوق السرير ثم قالت: "أين وجدت تلك الفئران؟"

اعتدلت في جلستي فأبصرت كثيرًا من الفئران الميتة عند كل جانب من جوانب الحصيرة وتحت الطاولة وقريبًا من الباب وفوق الدولاب وإلى جوار السرير، امتلأت الحجرة بجثث الفئران فبدت كأنها أرض المعركة التي تساقطت فيها الفئران ميتة في كل مكان حتى بالقرب من وسادتي، وقد تشبثت في الحصيرة بأسنانها الصفراء الصغيرة، كانت الفئران منتشرة أيضًا حول غطاء نومي وقد مات بعضها بجواري وتحت الغطاء وهلك بعضها الآخر فوق الطاولة وتدلت أذيالها الطويلة عند الحواف، بينما نشبت بعض الفئران الأخرى مخالبها في ستارة النافذة وماتت أسفل الحائط بعد أن مزقت قماش الستارة، عثرنا أيضًا على بعض الفئران الميتة داخل حذاء أبي، وكانت أذيالها متعلقة برباط الحذاء وهي تنظر إلينا بعيونها الصفراء المفتوحة الخالية من أي تعبير وكأنها تتوعد بالانتقام، كانت بعض الفئران لا تزال حية تصارع الموت فسارع أبي بوضع حد لآلامها بأن سحق رؤوسها بحذائه بمهارة فانطلقت سوائل صفراء وزرقاء من أفواهها، أما الفئران المكسوة بفراء كثيف ذات الأذيال الرفيعة الطويلة فكانت تتلوى من الألم وترفس بأقدامها الصغيرة، التقط أبي واحدًا منها وضمه إلى مجموعته التي كان يحركها كالبندول لكن الفأر اندفع في حركة مفاجئة وأمسك بطرف قميص أبي وانتزعه ومزقه، وعندئذ قذف به أبي إلى الحائط بقوة حيث ترك أثرًا قبل أن يقع منهارًا على الأرض، نشب الفأر أسنانه الخشنة في قطعة من

الخيش رافضًا أن يموت، وقف أبى وسط كومة من جثث الفئران لكننى كنت خائفًا جدًا فلم أستطع التحرك خطوة واحدة.

اقترب أبى منى وكان وجهه يوحى بالأذى وراح يلوح بالفئران الستة فوقى كالبندول القذر، فجريت إلى أمى التى قالت بعد أن تحررت من خوفها: "إنها ليست سوى فئران".

قال أبى: "كثير من الفئران".

قلت: "سوف أعدها".

تساءلت أمى: "ولكن ما الذى حدث لها؟"

أجاب أبى: "لقد حلمت الفئران أحلامًا مزعجة".

قلت متسائلاً: "أية أحلام مزعجة؟"

- لقد حلموا بحزب صاحب البيت وعندما سمعوا كلامه قرروا الانتحار.
- ما هو الانتحار؟

تساءلت أمى بدهشة: "ما الذى حدث للفئران؟"

- لقد قتلهم المصور.
- كيف؟
- بنوع خاص من سم القمر، إن تأثيره فعال.

قالت أمى وهى تنهض من فوق السرير: "لا بد أنه فعال جدًا".

التقطت المكنسة وحين تقدمت ناحية الدولاب كانت تلهث خائفة من كثرة الفئران الميتة، التى أصبح من العسير مجرد التخيل أن كل هذه الفئران كانت تشاركنا حياتنا، لقد أكلت الفئران الخيش وخشب المائدة والملابس والأحذية والقماش، وكانت توجد كميات صغيرة من الطعام ومخلفات الفئران

المنتشرة فى كل مكان، وثمة عرض للأذيال المجدولة والبطون الصغيرة والأسنان العارية كانت تشكل خيوطًا متشابكة فى احتضار الموت، كان حشد الفئران بشعًا، فقالت أمى: "لا تلمس أى شىء".

كنست كل الأركان وتحت السرير وأسفل الدولاب ثم حركت أكياسها الخالية من الثقوب وأزاحت السلال حتى تركتها خلف الباب وهى تلهث من الخوف طوال الوقت، التهمت الفئران الأكياس بنسب متفاوتة وماتت بعض الفئران وسط بضاعة أمى، فأزاحتها أمى نحو الباب حيث تكدست الجثث، مضيت لأبحث عن صندوق كرتونى فوجدت واحدًا كبيرًا من تلك التى يشحنون فيها مشروبات الشيكولاته، امتلأ الصندوق بحشد مروع من الفئران مما أصابنى بالتقيؤ والتوقف عن وضع المزيد داخل الصندوق، فتناولته أمى وتخلصت منه بإلقائه فوق كومة من الزبالة خلف الشاحنة المحترقة، ثم عادت ورشت الحجرة بالمواد السامة المطهرة وكثير من الماء، وطلبت منا بعد ذلك أن نغسل أيادينا بالمحلول المطهر وبينما راح أبى يستعد للذهاب إلى عمله كانت أمى تعد الطعام.

أثناء تناول الطعام سمعنا طرقًا على الباب فقال أبى: "ادخل".

كان الوقت مبكرًا جدًا بالنسبة للزائرين وفجأة شعرنا بالصدمة حين دخل الرجل بملابسه الممزقة وهو يختلس النظر حواليه بعينين صفراوتين، كان الرجل بوجهه الشاحب وفمه الموحى بالمرارة قادمًا من عند صاحب البيت، ويحمل رسالة تفيد بزيادة الإيجار، وقد عرفنا - بدون مواربة - أننا نحن فقط الذين انطبقت عليهم تلك الزيادة من بين كل المستأجرين، وكانت الرسالة تتضمن رحيلنا عن البيت إذا لم نذعن للأمر ونقبل بالزيادة، بعد رحيل الرجل جلس أبى على رأس مائدة الطعام وكأنه قد تلقى ضربة عنيفة دون أن يبدو عليه أى ألم، لكنه جلس صامتًا وبدت عيناه مرتبكتين ولم يتحرك إلا عندما بدأ فى طرقعة رقبته ومفاصل أصابعه، ثم وقف متململا وثائرًا وكان الألم مرتسمًا فوق وجهه.

قال بعد لحظات من الصمت: "لم أشعر بأننى أتناول الطعام".

لكنه أمسك بملعقته وراح يواصل الأكل حتى التهم كل محتويات الطبق، ثم أرسلنى لشراء بعض الأوجوجورو، لم تكن المرأة التى تبيع ذلك الشراب مستيقظة فعدت فارغ اليدين؛ وعندئذ فقد أبى صوابه مما جعلنى أسارع بالعودة، طرقت باب المرأة فاستيقظت وراحت تسبنى وهى تصب الكمية التى طلبها أبى، شرب أبى نصف الكمية فى جرعة واحدة ومضت أمى إلى الحوش بعد أن رتبت المائدة وهى تغنى أغنية من أغانى القرية، بينما جلس أبى فى الحجرة مصوبًا نظراته الغريبة إلى الأمام.

سألنى: "هل ترى ما تفعله بك الحياة؟"

– نعم.

– وهل ترى ما يمكن أن يكون عليه أولئك الأشرار المولعون بالأذى؟

– نعم.

– إنهم يدفعونك دفعًا لارتكاب الجريمة.

طرقع مفاصله مرة أخرى ثم قال متنهدًا: "ماذا يمكننى أن أفعل للحصول على تلك النقود كل شهر من أجل الإيجار؟"

أجبت بأننى لا أعرف، فصوب نظراته نحوى بحدة حتى شعرت بأننى خصمه العنيد ثم قال لى: "أترى كيف يجبرون الرجل على أن يصبح لصًا مسلحًا؟"

هززت رأسى وقلت: "نعم".

تنهد مرة أخرى وأشعل سيجارة وظل يدخن فى صمت لكنه أطفأ السيجارة فجأة وكأنه قد أمسك بفكرة رائعة، وبدأ فى ارتداء ملابس العمل وأصابنى إحباط شديد حين قال: "عندما أعود سأذهب لرؤية مدام كوتو".

قلت له: "لقد أصابها الجنون".

نظر إلى بنفس النظرات الغريبة مرة أخرى وقال (متجاهلاً ما قلتـــه): "ربما تستطيع أن تقرضنا بعض المال".

ارتدى حذاءه وضرب به فوق الأرض ثم تحسس رأسى وخرج للعمل.

جاءت أمى بعد لحظة قصيرة وكانت اللفافة حول جسدها مبللة بعد أن انتهت من غسل الملابس فى الحوش، كانت أمى تغسل وتفكر وتغسل وتغنى، بدأ الجيران يستيقظون، وثمة كلب ضال كان يهيم فى الطرقـــات فـــى ذلـــك الصباح الكئيب وتحت تلك السماء المعتمة التى كانت تنذر بســـقوط المطـــر، كانت الجرادل المعدنية تتصادم ببعضها البعض داخل البئر وكان من اليسير سماع صوت المياه المنهمرة، امتزج هواء الصباح بصوت امرأة ما وكـــان الأطفال يرتدون زى المدرسة وثمة ديك يصيح بلا انقطاع، كنـــت مســـتعدًا للذهاب إلى المدرسة حين أمسكت أمى بسلة بضائعها ومضت نحو الشـــارع وهى تترنح فى مشيتها من قلة النوم، حاملة معها عبئًا جديدًا إضافيًا.

لم تكن أمى سوى مرآة عاكسة لجزء صغير من الفقر المتغلغـــل فـــى قريتنا.

(١٠)

حاولت أن أتسلّل إلى مكان مدام كوتو، لكنها أبصرتنى وقالت بصوت مرتفع: أتهرب منى مرة أخرى؟"

بدت مختلفة بقميصها المعقود بأحد الأشرطة وتلك اللفافة غالية الثمن حول خصرها والخرز المرجانى حول رقبتها، وكانت ترتدى واقيًا للعين ساعد فى إخفاء عينيها وتضع المساحيق فوق وجهها.

كان اليوم حارًا بشدة وكان من المتعذر عدم الإحساس بلفحات الشمس الحارقة، وحين شعرت بعطش شديد قالت مدام كوتو: "تعال وتناول بعض النبيذ".

اكتشفت تغييرًا جديدًا فى الحانة حين أبصرت تقويمين لحزب الأغنياء فوق الحائط وكان الزحام غريبًا فى ذلك الوقت من بعد الظهر، بعض الناس العاديين المحترمين، وثمة رجال بوجوه مليئة بالندوب ونساء مثقلة أذرعتهن بالأساور ورجال يرتدون النظارات السوداء، وفى جو الحانة الخانق كانت المناقشات حول الشئون السياسية تدوى بصوت مرتفع والحديث عن الفضائح مفعمًا بالحماس والانفعال، كانت وجوه بعضهم متلألئة ومضيئة من العرق وكانوا يفتحون أفواههم بطريقة عجيبة عندما يتحدثون، وكان البعض الآخر نحيلاً وذا عظام بارزة وعيون ماكرة وذقون خشنة توحى بالجوع، أما أظافر النساء فكانت طويلة ومطلية وكن يحركن أياديهن بقوة حين يتكلمن ويلوحن بالجرائد أمام وجوههن لجلب الهواء، اختلطت أصوات الجميع بطنين الذباب المتواصل.

رأيت شاكوشًا فوق الكاونتر فتصورت أن النجار موجود بالمكان، لكننى حين فتشت فى كل الوجوه عرفت بأنه ليس موجودًا، كانت زجاجات

النبيذ الكثيرة منتشرة فوق الموائد والذباب محتشدًا فـوق حوافهـا وداخـل الأطباق الخالية من الشوربة، وثمة رجل يرقد فوق المقعد فاتحًا فمه وعينيـه وهو غارق فى نوم عميق، وحين جرى أبو بريص فوق وجهه ثم تسلل إلـى شعره استيقظ الرجل على الفور وصرخ صرخات متتالية انفجـر الآخـرون على إثرها فى الضحك.

وسط كل أولئك الناس جلس رجل يرتدى قبعة الرؤساء فـوق رأسـه وجلبابًا أزرقًا جميلاً، وكانت رقبته مزينة بخرزات كبيرة برتقاليـة اللـون، وقف منتصبًا وبدت عليه علامات كرب قديم وألم موروث ووقف إلى جواره أحد الصبية ممسكًا بالمروحة، ظلَّ الصبى يلوح بالمروحة باتجاه الرجل الذى بدا - وهو يشرب - كأنه صاحب المكان ولم يكن وجهه غريبًا بالنسبة لـى وحين أمعنت النظر فى وجهه أدركت أنه أحد الرجال الذين كانوا يشـرفون على توزيع اللبن الفاسد من فوق الشاحنة، كانت شـفتاه كبيـرتين بالنسـبة لوجهه، وكان مزيج من اللون الأحمر والأسود واضحًا فوق شـفته السـفلى غير أن اللون الأحمر كان أكثر من الأسود، فبدت وكأن حريقًا قـد أصـابها وهو طفل صغير، كما كانت عيناه شبيهتين بعيون الفئـران، ولـم أسـتطع التوقف عن النظر إليه.

سألنى: "إلى أى شىء تنظر؟"

توقَّف الناس عن الكلام فساد صمت غريب فى أرجاء الحانة وعندئـذ قلت: "إننى أنظر إليك".

قال متسائلاً: "لماذا؟ هل أنت مجنون؟"

أجبت: "لا".

رمقنى بنظرات غريبة ثم نهض أحد الرجال واقترب منى وضـربنى فوق رأسى وقال: "أنت مجنون".

بصقت عليه لكن بصاقى لم يصل إليه فضربنى مرة أخرى وقال: "انظر إلى ذلك الولد الشرير".

بصقت مرة أخرى فوقع بصاقى فوق قميصى وعندئذ جاءت مدام كوتو من الخارج، صفعنى الرجل بإصبعيه الكبيرين فصرخت واندفعت مهرولاً باتجاه الكاونتر لالتقاط الشاكوش، ثم سارعت ناحية الرجل لكنه هرب منى لسبب ما، أمسكت مدام كوتو بذراعى وانتشلت الشاكوش من قبضة يدى، وقالت (وهى تشير إلى شخص ما): "لا تكن ولدًا شريرًا، هل ترى ذلك الرجل، إنه الرئيس الذى سيحكم منطقتنا، وإذا لم تتوقف عن ممارسة الشر فسوف يبتلعك".

شعر الرئيس بالسعادة والرضا لذلك التقدير والثناء من قبل مدام كوتو فابتسم وبدأ من جديد فى مواصلة الشراب، استأنف الناس حديثهم وصياحهم مرة أخرى وحينئذ علَّق بعض الناس على تصرفاتى وتعجبوا من ذلك الوقت الذى لم يعد فيه الأطفال يحترمون الكبار حتى قال أحدهم شارحًا: "إن السبب فى ذلك هو أسلوب الرجل الأبيض فى الحياة، ذلك الأسلوب الذى أفسد كل قيم وإفريقيا وعاداتها".

قال أحد الرجال مقترحًا: "من الأفضل لمدام كوتو أن تستخدم الفتيات للعمل جرسونات وخادمات بدلاً من الأولاد".

قالت امرأة من بينهم: "إذا أرادت مدام كوتو بعض الفتيات للعمل معها ومساعدتها فى خدمة الزبائن فإنها تستطيع ترتيب ذلك".

قال الرجل الذى ضربنى مرتين فوق رأسى: "ذلك الولد المزعج سيتسبب فى إفلاسك يا مدام، فمن ذا الذى يرغب فى احتساء نبيذك الرائع مع رؤية ذلك الوجه الكريه؟"

قلت للرجل: "سوف تموت!"

التزم الجميع بالصمت ونهض الرجل من مقعده مرتعشًا، وقد ارتسم وجهه بخوف شديد كأنه طفل شقى ثم قال بلهجة آمرة: "قل إننى لن أموت".

- لا، لن أقول.

كانت مدام كوتو تعد النقود خلف الكاونتر دون أن تفقد متابعتها لما يحدث، تقدَّم الرجل ناحيتى وأضاف: "اسحب كلامك".

- لا.

تقدَّم ناحيتى أكثر ولم نعد نسمع أى صوت ولا حتى طنين الذباب، فقال الرئيس: "اضربه بالسوط حتى يبول على نفسه، هكذا يجب أن يتربى الطفل".

نظرت إلى الرجل دون أن أتحرك من مكانى، وعندما رفع يده ليضربنى جريت للاختباء بين قدميه فضحكوا جميعًا من تلك الخدعة البارعة، توقفت ونظرت إلى الرئيس وإلى النساء اللاتى يضعن الماكياج فوق وجوههن، وعندما اندفع الرجل ناحيتى وهو غاضب من حيلتى هربت خارج الحانة وظللت أجرى دون توقف حتى وصلت إلى الغابة، نظرت خلفى فرأيت الرجل وهو يلهث بعد أن استبد به التعب وسرعان ما استدار عائدًا من حيث أتى، دخلت إلى أعماق الغابة وجلست فوق جذع كبير لشجرة مقطوعة، ورحت أتفحص الحفرة الكبيرة التى يستخرجون منها الرمال ويستخدمونها فى بناء الطرق.

تجولّت كثيرًا فى الغابة وانطلقت من الأرض رائحة نفاذة، وبفعل حرارة الجو الشديدة انبعث دخان كحولى من أغصان أشجار النخيل فتسلَّل إلى أنفى مختلطًا برائحة لحاء الشجر ورائحة النبيذ المتبخر فى الهواء المرتجف، استمعت إلى صوت طيور الكروان التى كانت تغرد وسط بستان أشجار الصنوبر، وبينما كنت ثملاً بدخان الشمس الكحولى المنتشر فوق الأرض تقدمت ناحية جزء منعزل من الغابة، حيث كانت الطيور المغردة

الجميلة تتعانق فوق أغصان الأشجار الاستوائية ذات الجذوع العريضة، فشعرت بأننى فى واقع آخر وعالم غريب خاصة بعد أن انقلب الممر الصغير فجأة إلى طريق كامل، كان سطح الطريق مليئًا بالمطبات، وغرقت قدماى فى اللون الأسود بعد أن أذابت الشمس الحارقة تلك الطريق الأسفلتية، كانت رائحة الأسفلت المذاب قوية ومسكرة وأبصرت سرابًا لإحدى الشاحنات وهى تتمايل يمينًا ويسارًا من شدة السرعة، كانت الشاحنة تتقدم وتقترب منى وانطلق السراب مباشرة باتجاه معدات بناء الطريق الواقفة عند التقاطع، ومضى فى سيره نحو النساء اللاتى كن يشترين الماء المثلج والبرتقال، حتى اقترب من المتسولين والعمال والأكواخ حيث الجدل الدائم عن الأجور والغضب والتفكير فى الإضراب عن العمل، واصل سراب الشاحنة التقدم والاندفاع إلى الأمام حتى تغلغل فى أعماق الغابة ولم أعد أراه.

وصلت إلى طريق أخرى لم يكتمل تشييدها بعد، وكان العمال يقفون حول الماكينات والمعدات الضخمة وهم يلعنون بعض العمَّال الآخرين، رفعوا ملصقات الاحتجاج ولوَّحوا بها فى الهواء فعرفت أنهم كانوا يلعنون ويسبُّون أولئك الذين تم فصلهم من أعمالهم، ثم صاحوا بهتافات مضادة للمهندسين البيض رغم أننى لم أر أى مهندس أبيض فقلت بينى وبين نفسى: "ربما تكون الشمس هى التى تحول بينى وبين رؤية كل شىء!"

مررت وسط العمال وعندما استدرت فى طريقى ونظرت إلى الخلف شاهدت صورًا باهتة لأشخاص يهاجمون العمال المتظاهرين، كانت الشمس حارقة والظلال قاتمة، وكلما صارت الشمس أكثر إشراقًا أصبحت الأشياء معها أكثر قتامة، رقص الأعداء والمتظاهرون رقصات غير عادية ولم أستطع أن أعرف أو أميز أى شىء، سوى تلك الأشكال المضطربة للأجساد المضيئة وهى تتحرك داخل نطاق الرؤية وخارجها، وقد ساعد ضوء النهار فى جعل كل شىء غير حقيقى وشبيهًا بالوهم.

كانت الطيور تحلِّق فى السماء على شكل دوائر كبيرة فانتشرت أصواتها فى الفضاء، دخلت الغابة مرة أخرى وكانت أشعة الشمس حارقة وحادة كالزجاج، وفى لحظة ما لم أستطع الرؤية من كثرة الظلال الزرقاء المنعكسة من الأشجار الخضراء، كان المكان الظليل باردًا والهواء مختلطًا برائحة الأعشاب ولحاء الشجر، وكانت خطوط من الضوء والألوان المختلفة ترقص فوق أرض الغابة كما شاهدت – للمرة الأولى – أنواعًا من الزهور ملأت المكان بنسيم رقيق، ظللت أستمع إلى أصوات الطيور وهى تعزف ألحانًا جميلة وإلى خرير ماء الجدول البعيد والرياح الصادرة من الأشجار الساكنة، وإلى تناغم أصوات الحشرات المنتشر فى كل مكان.

ثم – فجأة – اختفى ذلك الجزء من الغابة.

وجدت نفسى فى عالم آخر، بيوت كثيرة كاملة البناء وممرات وطرق متقاطعة تحيط بالغابة فى دوائر محكمة من كل اتجاه، ومجموعة من الكنائس غير المزخرفة، وبعض جدران المساجد المطلية باللون الأبيض مما جعل الغابة أكثر كثافة وازدحامًا، كان المصلُّون فى الكنائس ذات الجدران الجرداء يرتدون أردية الكهنة البيضاء ويصلُّون على دقات الأجراس طيلة المساء، لكن الأشجار والمروج البرية كادت أن تختفى ولم أستطع أن أدرك السبب وراء اختفائها، إلا حين سمعت قاطعى الخشب وهم يضربون بالفأس أشجار الإيريكو العملاقة والأشجار الاستوائية ذات الأغصان الضخمة وأشجار المطاط، تحطَّم البيض داخل أعشاش الطيور المنتشرة فوق الأرض وامتزج بأوراق الشجر المتناثرة وبالرمال؛ فبرزت صغار الطيور من بين زلال البيض المكسور لكنها كانت تموت فور بروزها وسط ذلك العالم الخارق الملىء بالمعجزات، كانت الحشرات بمختلف أنواعها تسارع بالاحتشاد فوق صغار الطيور الميتة.

مررت فى فترات الراحة ببعض الناس الجالسين خلف الأشجار، وحين تجاوزتهم فكرت فى رؤيتهم مرة أخرى فنظرت إلى الوراء لكننى لم أجدهم،

وإنما تراءت أمامى نساء عاريات سرعان ما تلاشين أيضًا، تسلَّلت رائحة الأرض بقوة إلى أنفى وتشبعت برائحة أوراق الشجر والشمس والبراز الجاف، فقررت أن أمضى فى تجوالى عبر ذلك العالم وبين أشجار الصمغ العربى وأشجار الصنوبر؛ حيث رأيت الناس وهم يشدون الشجيرات الصغيرة ويستأصلون جذوع الأشجار المقطوعة ويقلبون عناقيد النبات المعترش، ويجمعون النباتات الطفيلية على هيئة أكوام، شاهدت دراجات قديمة فوق الأشجار ورجالاً ونساء يحرقون الشجيرات وعناقيد النبات المعترش والكروم، ولا بد أنه كانت ثمة أعشاب سحرية بين كل ما كانوا يحرقونه؛ لأننى شممت رائحة عطرة نفاذة منبعثة من أوراق الشجر الجافة ومن الدخان الأخضر والأصفر الكثيف، امتلأ الهواء برائحة القوى السحرية والروائح الجياشة.

انتشرت الروائح العطرة ورائحة الدخان فى كل مكان حتى لم يعد بمقدورى الفكاك من تلك الروائح، كما هاجمتنى الرائحة الغامضة الغريبة للنباتات المحترقة فى أعماق الغابة، فرحت أتجول بخطى متعثرة بين الأشجار وأنا أرتطم بفروع الأشجار المقطوعة وأغصانها، توقفت فوجدت نفسى بجوار قصور ذهبية من الكثبان الرملية، وحين بدأت فى الدوران حول نفسى وفى مراقبة الدراجات وهى تلف بدون ركاب بين الأشجار بدأت الكثبان الرملية تتعقبنى، وعندئذ لم يساورنى أدنى شك فى أن الغابة كلها كانت تتحرك.

اختفت الأشجار تمامًا وفقد الإنسان ظلالها الوارفة وأحسست بإرهاق فى عينى، لكننى استطعت أن أرى بعض الناس بأقنعتهم البرونزية البسيطة وهم يظهرون من بين الأشجار، ثم شاهدت طائرًا بأقدام مليئة بالشعر وشبيهة بأقدام أحد الرجال وهو يطير فوق أغصان الشجرة بطريقة تعوزها البراعة، وأبصرت أحد الظباء ذى الوجه الشبيه بوجه امرأة بسيطة طاهرة، شاهدنى

الظبى ثم توقَّف ونظر إلىَّ بإمعان لكننى تحرّكت من مكانى فاختفى بين الشجيرات الخصبة، ظهر رجل عجوز من بين الكثبان الرملية التى كانت تتعقبنى وكان شعر ذقنه أبيض، وله عينان كأنهما مرصعتان بالجواهر، ووجه يوحى بأن عمره مائة عام لكنه وجه طفولى فى نفس الوقت، كانت يداه مرفوعتين فى الهواء ورقبته معقوفة كأنه كان يحمل أكبر لغز فى العالم، بدا أنه يتعقبنى أينما ذهبت وهو يحمل معه غصنًا من أغصان شجرة البرتقال، ظلّ يتعقبنى بإصرار غامض وغريب وهو يعرج ببطء، وحين أدركت مقاصده جريت لكننى كلما ابتعدت عنه وهربت منه ظلت المسافة بينى وبينه هى نفس المسافة؛ مما جعلنى أخاف بشدة وأرتبك فتعثرت فى إحدى الجماجم وأصيب كاحلى فلم أقدر على الحركة ولم يكن بوسعى سوى الانتظار، لم أسمع وقع أقدام لكن الرجل ظلّ يزعجنى بظهوره المتكرر واقترابه منى دون أن يمسك بى أو حتى يتراجع عن ملاحقتى؛ وإنما ظل محافظًا على نفس المسافة بينه وبينى حاملاً عبئًا ثقيلاً من الألغاز الغامضة فوق رأسه.

كانت الغابة مليئة بالسراب الذى لم أستطع الفكاك منه أو التخلص من غموضه؛ فرحت أجرجر نفسى فوق الأرض وظلّ الرجل يقترب منى محافظًا على نفس المسافة بينى وبينه؛ مما أفزعنى جدًا وجعلنى - بعد لحظة - أجرجر نفسى ناحيته للاقتراب منه ومعرفة ما يريده بالضبط، غير أن خطواتى البطيئة لم تسعفنى فشعرت بالخيبة وعندما وصلت قريبًا من الجمجمة أمسكت بها وقذفتها ناحيته فاختفى الرجل العجوز تمامًا، ثم هبَّت رياح شديدة من بين الأشجار تساقطت على إثرها بذور الفاكهة وانخلعت أوراق الشجر من جذوعها وظلت تدور مع هبَّات الرياح الهائجة، شعرت بعطش شديد فتقدَّمت فى زحفى حتى وصلت إلى إحدى النخلات، وحين أبصرت يقطينة مدببة من فوق جذورها شربت منها وارتويت، ثم اكتشفت أن ما شربته كان نبيذًا غريبًا أصبحت بعده مخمورًا، هبَّت ريح عاتية وملوثة

بالأتربة وأحاطتنى من كل اتجاه وظلت تدور حول رأسى، ثم سمعت صوتًا غريبًا قادمًا من منتصف اليقطينة المدببة، وفى محاولة منى للهرب والابتعاد عن ذلك الصوت رحت أعرج باتجاه البيوت الواقعة عند حافة الغابة لكنها - أيضًا - لم تكن سوى سراب.

وصلت إلى مكان بين الأشجار كان يتساقط فيه المطر، وعند هذا المكان فقط كانت المياه تصطدم بأوراق الموز والحشائش، ولم أستطع أن أفهم ذلك المطر المتساقط فى تلك البقعة رغم وجود تلك الشمس الحارقة وتلك الرياح المنتشرة فى كل مكان، خفت من المطر، وفيما وراء ذلك المطر الغزير الغريب شاهدت رجلاً كانت الأضواء مسلطة فوق قدميه أمام إحدى الآبار بالقرب من البيوت، كان هو نفس الرجل العجوز وبدا أنه يحدِّق فىَّ، ولاحظت للمرة الأولى أن لقدميه حوافر كحوافر الفرس لكنها حوافر ذهبية، استدرت إلى الاتجاه المضاد ومشيت ببطء وأنا أتألم ثم شعرت بالتعب ولم أعد أبالى بما قد يحدث لى.

استندت بظهرى إلى شجرة وأغلقت عينى، وبعد لحظة قصيرة سمعت أغنية متواصلة بصوت خفيض ففتحت عينى ورأيت سلحفاة تتحرك بجانبى، ظللت أنظر إليها مدة طويلة وهى تتحرك ببطء شديد حتى غلبنى النوم، وحين استيقظت شعرت بأننى فى حال أفضل غير أن قدمى كانتا تؤلماننى، واصلت سيرى حتى وجدت نفسى فى نفس المكان الذى احترقت فيه الشجيرات وبدت فيه الغابة كالحلم حين امتلأت بالدخان، كنت وحيدًا فى ذلك المكان ومن خلال دخان ما أبيض ومشرق رأيت أرواح النباتات والأعشاب وأشياء أخرى لم أكن أعرف شيئًا عنها وقد تحولت إلى هواء، كما شاهدت وجوهًا حزينة ساطعة باللون الأزرق والأصفر وأقدامًا ضخمة ملطخة بالسخام وعيونًا برَّاقة تحوَّلت إلى فضاء نابض بالحياة والنشاط، لم أتوقف ومضيت فى طريقى وحين تعرفت على المكان الذى كان معتمًا فى البداية

سقط شيء ما فوق رأسي، وتسللت الرياح المختلطة بالأتربة إلى روحى ولم أستيقظ إلا على صوت الطيور المغردة الجميلة.

تساءلت وأنا أنظر حولى: "أى شيء ذلك الذى هاجمنى؟"

تجمَّعت أشعة الشمس فوق وجهى وكانت الأرض مليئة بأغصان الشجر والفاكهة وأوراقها، وثمة أحجار غريبة جلبت الدفء إلى باطن قدمى، وفى مكان ما ليس ببعيد عنى كان هناك قناع بدا مخيفًا من أحد جوانبه وضاحكًا ضحكة صوفية من الأمام وكأنه جمجمة انقسمت إلى نصفين وتم طلاؤها بالقار، وكانت له عينان مفعمتان بالرهبة والأذى وفم كبير وأنف صغير ودقيق وكان للقناع وجه تلك الأرواح ذات الصفات المتناقضة التى تتحرك بين الرجال والأشجار والتى نحتها فنان شاء له حظه أن ينعم برؤية مثل تلك الأشياء ويمتلك موهبة إحيائها، أمسكت بالقناع فخرج على الفور طائر أبيض من بين الشجيرات وراح يصفق بجناحيه الكبيرين ويصرخ بقوة فشعرت بخوف كبير، سقط القناع من يدى ثم أمسكت به مرة أخرى ووضعته فوق وجهى وبدأت أنظر إلى كل شيء من خلال عينيه، غير أن شيئًا ما حجب الشمس وأصبحت الغابة مظلمة.

أبصرت من خلال القناع عالمًا مختلفًا، ظلام كامل يعج بالكائنات فى كل مكان وأرواح بدت كل واحدة منها كالشمس المشعة بالأضواء النحاسية البرَّاقة التى يصعب على العين مواجهتها، رأيت نمرًا بأجنحة فضية وأسنان ثور وكلابًا بأذيال كالأفعى وأقدامًا برونزية، كما شاهدت قططًا بأقدام كأقدام النساء وأقزامًا بنتوءات حمراء برَّاقة فوق رءوسهم، وانقلبت الأشجار إلى بيوت وانطلقت الموسيقى فى كل مكان وامتلأت الأرض بحلقات الرقص والابتهاج، ثم طارت نحوى طيور ذات ريش أصفر وأزرق مشرق وعيون كالماس ووجوه كالحة وجائعة، ظلت الطيور تنقر القناع فانتزعته من فوق وجهى، وعندئذ تغيَّر العالم وبدا لى أن الأشجار تتساقط فوقى ولم تعد الأشياء

إلى طبيعتها إلا بعد لحظات، تناولت القناع ومضيت فـــى ســـيرى محـــاولاً اكتشاف الطريق المؤدية إلى خارج الغابة.

شاهدت فى طريقى وقع أقدام الرجل العجوز الذهبيـــة مـــرة أخـــرى؛ فاختبأت خلف إحدى الشجرات، بدا أن ما كان يحمله قد فاق قدرتـــه علـــى الاحتمال فكان يتوقف أثناء سيره لكنه لم يكن يظهر آلامه، شاهدنى وتظاهر بعدم رؤيتى وعندما مرَّ بالقرب منى ارتديت القناع وصوبت نظراتى نحـــوه، لكنه اختفى تمامًا ولم يعد موجودًا ولم يعد بوسعى رؤيته أبـــدًا مـــن خـــلال فتحات القناع، لكننى شاهدت صبيًا جميلاً يحتل موقعًا فى الهواء فوق فضاء الرجل المختفى ويطفو فوق الرياح وكان السكون يغطى ذلك العـــالم الآخـــر الملىء بأشعة الضوء الزمردية الرائعة، كان الصبى الجميل بجسده النحيـــل يوحى بطريقة ما كأنه أسد غاضب، نظر الصبى إلىَّ بعينين بليـــدتين كأنـــه وهبنى البركة التى يمنحها الكاهن بعد الصلاة، خلعت القناع فتراءى أمـــامى الرجل العجوز وهو يعاود الدخول إلى كثبان الرمل، وعندئذ ارتديت القنـــاع مرة أخرى فرأيت الكثبان وهى تتحول إلى مكان كبير ملىء بصـــفوف مـــن الأحجار الكريمة الخضراء وشرفات ذات لون أخضر ممتـــزج بقليـــل مـــن الأزرق ومتاريس من الذهب ونباتات طفيلية تتسلق الجدران الصفراء القوية، وكانت بعض التماثيل الرخامية المنحوتة المبهرة للعين منتشرة فى كل مكان، داخل ذلك القصر من المرايا الفيروزية وبابتسامة كابتسامة الـــرب اختفـــت البراءة المتمثلة فى الصبى، وأصبح كل شىء مظلمًا مرة أخرى ثم غرقـــت تمامًا فى دهشتى.

هبَّت رياح غريبة وانقلبت دهشتى إلى نوع من الارتباك، خلعت القناع لكن الدنيا ظلت مظلمة كما هى رغم بقع الضوء الصغيرة التى كانت تســـبح فوق الرياح، وعندئذ بدأت أفقد إحساسى بالواقع ولم أقدر على التمييـــز بـــين الحقيقة والخيال، وأصابنى القناع بمزيد من الارتباك فأســـرعت بـــالانطلاق

رغم أن قدمى كانتا تؤلماننى، واصلت انطلاقى مدة طويلة هائمًا على وجهى فى كل اتجاه لكننى كنت فاقدًا الإحساس بالطريق، ولم أكن أعـرف الاتجـاه الصحيح، استبَد بى القلق وكاد يقتلنى لكن ضوءًا ما أخذ فى البزوغ من بين أوراق الشجر فانطلقت بسرعة إلى أرض الغابة منزوعة الأشجار.

كانت هى نفس قطعة أرض الغابة الخالية من الأشجار التـى اعتـدت اللعب فيها والتى دفنت فيها صنم مدام كوتو، لكن الشيء المثير أنها كانـت مختلفة بعض الشيء، إنه نفس المكان تمامًا كما أتذكر لكنه مختلف فى نفـس الوقت؛ فقد بدا مظللاً رغم عدم وجود أشجار، نظرت محـدقًا فيمـا حـولى محاولاً اكتشاف أوجه الاختلاف لكننى لم أستطع ثم ارتديت القناع وعـاودت تحديقى فعرفت أن المكان لم يعد فى الحقيقة سوى قريـة لـلأرواح، كانـت شجرة الإيروكو الضخمة – بألوانها الذهبية وأوراقها الفوسفورية المضيئة – تتوسط القرية وكانت الطيور البيضاء الحالمة منتشرة فوق أغصـانها تغـرد بأعذب الألحان وأشجار الزهور الصغيرة تحتل أحـد الأركـان المشـرقة، شاهدت ناطحات السحاب والعربات الطائرة والنافورات أمام بوابة القريـة، وكذلك النباتات المعترشة المزدهرة والأعمدة الحجرية المنقوشـة وبسـاتين الفاكهة ونصبًا تذكاريًا لأبى الهول الأسـود، كـان السـائحون والمحتفلـون يرتدون أردية الكهنة الصفراء ويتقدمون فى مواكب لممارسة الطقوس الدينية وتقديم الشكر للآلهة الغريبة، خلعت القناع فشعرت بالعالم يدور بسرعة مـن حولى، والتهبت عيناى ثم جلست فوق الأرض لأستريح.

ساد الغابة ظلام دامس وكاد صوت الحشرات والطيـور أن يتلاشـى، كما تشبَّعت الرياح برائحة أوراق الشجر وأصبحت أكثـر بـرودة واختفـت الأشجار والأرض الخالية والأماكن المكشوفة المتناثرة بالتـدريج، أصـبحت الأشياء العادية ألغازًا، ووسط غموض الأشياء استطعت معرفـة الاخـتلاف الذى حدث لقطعة الأرض الخالية من الأشجار، رأيت شجرة واقفة فى نفـس

المكان الذى دفنت فيه صنم مدام كوتو، كانت شجرة وحيدة وبدت فى الظلام مثل حيوان نائم على قدميه وكأنها ثور بدون قرون، كانت شجرة قوية لكنها بدون أوراق، وبدا لى أن الجلوس فوقها أو اللعب حولها شىء مريح، انتابتنى رغبة فى الصعود إلى ظهرها لرؤية ذلك العالم الغامض فحاولت أن أتسلقها، لكننى لم أستطع أن أحمل القناع معى فاضطررت لارتدائه وربطه حول رأسى، وبينما كان القناع فوق وجهى ووسط الظلام الملىء بالأرواح استطعت الوصول إلى ظهر الشجرة، وعندئذ بدا لى أن كل الطيور قابعة فوق خصلات شعرى.

شاهدت من فوق ظهر الشجرة عالمًا مختلفًا تمامًا عما رأيته من قبل، شاهدت واقعًا مختلفًا وتوقعت للحظة أن أرى الطيور وهى تغرد داخل عينى والأرواح وهى ترقص حولى مضيئة ومبهرة، لكننى حين انتبهت تلاشت الأرواح وحلقت الطيور البيضاء بعيدًا، ولم تعد القرية موجودة ثم هبَّت رياح خفيفة حول رأسى وسمعت الأرض وهى ترتجف من العفاريت المخيفة، ارتبكت من ذلك العالم الجديد وارتعدت الأرض فجأة وتحرَّكت الشجرة من تحتى، وعندما نظرت من خلال القناع رأيت - وسط عالم الروح - مخلوقًا رائعًا وقبيحًا كأنه تنين قديم واقفًا إلى جوارى، كان التنين بجسد فيل ووجه خنزير إفريقى متوحش لكنه كان أكثر جمالاً ورشاقة وأقل وزنًا من الفيل، وكان صدى وقع أقدامه يتردد قويًا فى الأفق، ظلَّ التنين يتحرك أمامى فاكتشفت أن وجهه بشع وكريه إلى درجة لا يمكن تصديقها، إنه قاتل الإنسان والأرواح المفقودة ومفترس الأرواح وكل الأشياء العجيبة، فتح فمه المخيف وظل يزأر فأصبحت الشجرة شيئًا آخر ثم تحولت إلى جسد من اللحم المرتعش، لقد تحوَّل الخشب ببطء إلى جسد من اللحم.

اقترب المخلوق الوحشى منى فأصابتنى أنفاسه الكريهة بالدوار ولم أستطع أن أتحمل النظر إليه كثيرًا، وانتابتنى رغبة يائسة فى خلع القناع

لأننى لم أكن راغبًا فى رؤية أى شىء، انتزعت الحبل الذى ربطت به القناع غير أن القناع لم يبرح مكانه وظل ملتصقًا بوجهى، حاولت انتزاعه مرة أخرى فشعرت بأننى أنتزع جلدى من فوق وجهى، وعندئذ تحوّل الخشب بكامله إلى لحم مرتعش، ثم انطلق فجأة خوار حيوان متوحش اهتزت الأرض على إثره وعصفت رياح قوية استسلمت خلالها لتلك القوة الحيوانية، كان المخلوق الوحشى يتمايل ويهز رأسه ويخور كالثور بقوة مرة أخرى، أدركت أننى ارتكبت خطأً جسيمًا وأننى كنت أمتطى ظهر حيوان متوحش استيقظ للتو من نوم سحرى.

تحرّك المخلوق الوحشى ناحيتى فارتبكت ورحت - دون اعتبار لأى شىء - أنتزع القناع من فوق وجهى وعينى؛ فشعرت أن وجهى أصبح رطبًا إلى حد ما ولم أعد أرى ذلك الوحش القادم من وراء التاريخ، لكن الحيوان الذى أجلس فوقه كان يراه بوضوح فراح يتنقل هنا وهناك وهو ينتزع كلتا قدميه من الأرض وكأنه يستأصلهما من الجذور، وعندما تحرَّرت قدماه وقف ساكنًا للحظة وأخذ نفسًا عميقًا ثم مدَّد جسده وانتصب واقفًا، حاولت أن أنزل وأمشى على قدمى لكن الحيوان تراجع من تحتى وأطلق شخيرًا قويًا وكأنه قد فتح بقوة إحدى القنوات المليئة بالأحلام المزعجة، ثم راح كالمتسول الأخرق يلتقط البذور ويقفز فى المكان وهو يهز رأسه وبدأ فى مهاجمة الوحش المختفى، انطلق باتجاه مجموعة كبيرة من الشجيرات بسرعة فائقة، فهشمت حوافره القناع إلى قطع صغيرة ووقعت على الأرض وكان من حسن حظى أننى وقعت فوق أرض مليئة بالأعشاب والنباتات فلم تتحطم رقبتى، عاد الحيوان المتوحش وسمعت صوته المدوى وهو يدُق الأرض بحوافره فقفزت ووقفت على قدمى وبدوت كمن يعانى من سيل جارف من الكوابيس والحمى، لم أشعر بالألم فى كاحل قدمى فسارعت بالجرى خارج الغابة وهربت كالطفل المضروب قاصدًا حانة مدام كوتو.

(١١)

قبل أن أدخل الحانة كانت خيوط الغروب قد التحمت بالسماء، مشيت في الفناء الأمامي ورحت أنظر بإمعان إلى غروب الشمس وبقيت بالخارج لحظة دفنت خلالها أسرارى داخل سكون بداياتى، هبط الليل وانتشرت ظلاله فى كل مكان غير أنها كانت ظلالاً قصيرة وباهتة بعض الشىء، شاهدت – من خلال أوراق الشجر ومن بين أغصان الشجيرات الصغيرة – ضوء المصابيح داخل البيوت، وهبَّتَ ريح عاصفة من الغابة كأنها تنهيدة أحد الحيوانات الضخمة، أزاحت الريح آخر ضوء للنهار وألقت به إلى أبعد مكان فى الكرة الأرضية فهبط الليل وخيَّم الظلام، كان جانب واحد من السماء متشحًا باللون الرمادى المختلط باللون الأزرق القاتم وبقية السماء باللون الأحمر الداكن، عاودتنى الآلام فى كاحلى وجلست بالخارج مدة طويلة فى انتظار أن يهدأ العالم من حولى، لكن روحى لم تهدأ إلا بعد وقت طويل ولم أشعر بالراحة إلا بعد رؤيتى للقمر.

بدت الحانة هادئة من الخارج لكننى سمعت ضحكات شخص ما وبعض الأحاديث المتبادلة، وقفت فى الظلام وأزحت الستائر جانبًا فاكتشفت أن الحانة خالية من الزبائن، كان الرجل وحيدًا فى الحانة ولم يكن يتحدث مع أحد سوى نفسه، وفى لحظة قصيرة شعرت بتحسن بسيط فى كاحل قدمى فعرجت إلى داخل الحانة، كان المصباح الوحيد متلألئًا خلف الكاونتر فاستطعت من خلال أضوائه الخافتة أن أرى رأس ذلك الشخص المستغرق فى ممارسة طقوسه السرية، تقدَّمت وأنا أعرج بهدوء وكان الألم يعاودنى ثم يتراجع على شكل موجات، رحل الزبون فساد الحانة نوع غريب من السكون، خطوت بحذر باتجاه الكاونتر فأبصرت مدام كوتو وهى مستغرقة فى عد النقود حتى أنها لم تشعر بوجودى، وكان وجهها مضيئًا، والعرق

يتساقط من خصلات شعرها متسللاً إلى خديها وأذنيها ورقبتها حتى وصل إلى قميصها الأصفر الجميل، تركت حزمة من الأوراق النقدية دون عدها ثم ضحكت ضحكة غريبة توحى بالانتقام من شيء ما، لم أشأ أن أفاجئها بالحديث حتى لا ترتعد من وجودى المفاجئ، ووجدت فى استغراقها شيئًا مثيرًا فلم أستطع التوقف عن النظر إليها والتدقيق فى ملامحها، ظلّت تحصى النقود مرات عدة كما لو أنها قد استيقظت للتو من كابوس مفعم بالفقر، ثم راحت تحصى أصابعها وبدا واضحًا أن المبلغ كاف لحل مشاكلها، هبَّت رياح قوية بالخارج اهتزت الستارة ولهب المصباح على أثرها وعندئذ رفعت مدام كوتو رأسها وشاهدتنى بعينيها الواسعتين، ثم صاحت فجأة بعد أن قفزت من مكانها ورفعت ذراعيها فسقطت نقودها فى كل مكان، وراحت العملات المعدنية تصدر أصواتًا فوق الأرض.

قلت: "إنه أنا، أزارو".

توقّفتْ وظلت تحدّق فى مدة طويلة بوجه عابس وانطلقت تجرى حول الكاونتر، حتى أمسكت بى من رقبتى وصفعتنى فوق رأسى وهى تقول: "لماذا تقف هكذا كاللص؟"

- أنا لست لصًا.
- وإذن لماذا كنت تقف هكذا؟
- لا أعرف.
- لماذا كنت تقف وتنظر إلى نقودى؟
- لم أكن أنظر إلى نقودك.
- أين كنت؟
- عند الشجرة.
- وماذا كنت تفعل عند الشجرة؟
- كنت ألعب.

- مع من؟
- مع نفسى.
- هل كنت تلعب مع اللصوص؟
- أنا لا أعرف لصوصًا على الإطلاق.

تركتنى أمضى وسارعت بالتقاط كل نقودها من عند الكاونتر، ربطت النقود فى حزمة عند أحد أطراف لفافتها، وقالت: "سيكون معى سيف فى المرة القادمة فلا تفعل ذلك مجددًا".

لم أقل شيئًا فشعرت مدام كوتو بالارتياح وأضافت: "كل شىء فى طريقه للتغيير، أتسمعنى؟ هل تعتقد أن الحانة ستظل هكذا للأبد؟ وهل ترى بأننى سأظل أفعل كل شىء بنفسى؟ لا، سوف أبحث عن بعض الفتيات للعمل معى، وسأجد رجلاً أو اثنين للقيام بحمل الأشياء الثقيلة وتوصيل الرسائل، أما أنت فإنك سبب كل المتاعب ولا تحترم الزبائن كما أنك بارع فى خلق المشاكل معى، قل لى ما الذى تفعله هنا على أية حال؟ نعم أخبرنى؟! أنت تأتى فقط لتنام وتشرب الشوربة كلها فى مقابل لا شىء، أنت عديم الفائدة، أتسمعنى؟"

ظللت صامتًا لكننى نهضت وذهبت للجلوس فوق المقعد المجاور للباب الأمامى، كان المقعد هو أكثر المقاعد البعيدة عنها فاستطعت بذلك الابتعاد عنها دون أن أخرج من الحانة، جلست فى الظلام وظلت هى فى الضوء، كان ضوء المصباح الموجود فوق الطاولة الصغيرة تحت الكاونتر يعكس أشعة متلألئة فوق وجهها الذى بدا لى كبيرًا وبشعًا، وللمرة الأولى أشعر تجاهها بالكراهية، بدت عيناها – وهى واقفة فى مكانها – شاردتين ومتقاطعتين بطريقة غريبة، لكن كل ذلك لم يكن سوى بفعل الضوء المنعكس فوق وجهها وعينيها، وكنت أعرف أنها ليست كذلك غير أننى لم أستطع أن أتوقف عن ارتيابى فيها، لقد تغيرت مدام كوتو تمامًا ولم تعد هى نفس

الشخص الذى أعرفه، كان جسدها الممتلىء الكبير يشعرنى بالدفء لكننى أراه الآن جسدًا مليئًا بالشر، وعبثًا حاولت معرفة السبب وراء ذلك التغيير الذى طرأ عليها لكننى لم أستطع.

جلست مدام كوتو وكانت عيناها تشع بالوحشية، نظرت إلىَّ فى الظلام دون أن ترانى بوضوح وقالت: "إننى أجلس هنا طوال اليوم وأقوم بتجهيز الشوربة وغسل الأطباق وتنظيف الطاولات، كما أننى أبتسم دائمًا لزبائنى فهل تعتقد أن قيامى بكل تلك الأشياء لا يعنى أننى أريد بناء بيت خاص بى وأن أنعم بقيادة سيارة؟ أتعتقد بأننى لا أريد خدمًا يعملون لحسابى أو أننى لا أريد التمتع بالمال والقوة؟ إننى أتوق لحياة ملؤها الاحترام والتقدير، ولذلك فأنا لن أعمل على إدارة الحانة للأبد، أنت ترانى هنا الآن لكننى فى الغد سأكون قد رحلت، هل ترى بأننى أرغب فى العيش فى تلك المنطقة القذرة بدون كهرباء وبدون دورة للمياه ولا حتى مياه للشرب؟ إذا فكرت بأننى أرغب فى ذلك فلا بد أنك مجنون، أنت ولد صغير ولا تعرف أى شىء بالإضافة إلى أن شعبك غير جاد، فها أنت ذا تجلس فى الركن كالدجاجة وتنظر لى دون أن تفهم شيئًا، لكنك فى يوم ما سوف تتذكر ما أقوله الآن".

لم أفهم كلمة واحدة مما قالته، لكنها حين انتهت من كلامها ومن خلال التعبيرات الغامضة فوق وجهها وعلامات الازدراء الواضحة فى فمها وفوق شفتيها استطعت أن أفهم، بدت كأنها تحط من قدر نفسها بطريقة غريبة وهى تتوجه بحديثها لى وتسخر من كل شىء، نهضت مدام كوتو وأخذت المصباح معها ثم خرجت وذهبت إلى الحوش وعندئذ أظلمت الحانة تمامًا، سمعت شيئًا ما يتحرك بالقرب من الآنية الخزفية ويجرى بسرعة فوق الحائط كما أزاحت الرياح الستارة من مكانها وتسللت إلى داخل الحانة فتحركت أطراف النتيجة المعلقة، هبط الليل مع الرياح التى جلبت معها رائحة النخل الكريهة والذباب الميت والعنكبوت والخشب ورائحة الجاز والطعام الفاسد، بالإضافة إلى رائحة الليل نفسه الشبيهة برائحة الأرض قبل هبوب العاصفة.

اختلطت الأشياء فى الظلام ببعضها البعض وبدت الطاولات كالحيوانات الزاحفة، والمقاعد كالناس النائمين فوق الهواء، وحين اشتدت الرياح ورفرفت الستائر رأيت شيئًا غامضًا يدخل الحانة عرفت بعد لحظة أنه رجل، كان الرجل يدخن وقبل أن يتسلل دخان السيجارة إلى أنفى شممت رائحة طين جاف ورائحة عرق نابع من تعب شديد وإحباط كبير، ثم سمعت جسده وهو يطرقع كلما تحرك فقلت: "أبى".

أشعل عودًا من الثقاب فأبصرت وجهه الغارق فى التعب وعينيه الحزينتين ثم قال: "ماذا تفعل هنا وأنت جالس فى الظلام؟"

قلت: "لا شىء".

انطفأ عود الثقاب وراح أبى يتحسس طريقه بين المقاعد حتى جلس إلى جوارى فشممت رائحة تعبه وحزنه وشحوبه الغامض، لفَّ ذراعه حولى فتسلَّلت رائحة إبطيه إلى أنفى.

همس متسائلاً: "ماذا تفعل هنا؟"

همست له أيضًا: "لا شىء".

سألنى بنفس الصوت الهامس: "أين مدام كوتو؟"

- فى الحوش.
- ماذا تفعل فى الحوش؟
- لا أعرف لكنها كانت تحصى نقودها.
- تحصى نقودها؟
- نعم.
- كم كانت النقود؟
- لا أعرف لكنها نقود كثيرة.
- نقود كثيرة؟

- نعم.

- هل أعطتك أى نقود؟

- لا.

- أتعتقد أنها ستقرضنى بعض المال لو طلبت منها ذلك؟

- لا.

- ولِمَ لا؟

- لقد أصبحت شريرة.

- كيف؟

- لا أعرف.

- وإذن فلماذا تجلس هنا؟

- سوف تأتى ببعض الفتيات والرجال للعمل معها.

- أهكذا الأمر؟

- نعم.

سمعنا صوت الرياح بالخارج فتحسَّس أبى شعر رأسه الخشن، وفى تلك الأثناء دخلت مدام كوتو من باب الحوش ثم سألتنى بطريقة جافة وصوت عال: "من هذا؟"

قلت: "أنا".

- أعرف لكننى أسأل عن ذلك الآخر.

لم يقل أبى شيئًا فقالت له: "هل أنت أخرس؟"

أجاب أبى: "إنه أنا".

سألت مدام كوتو بصوت أعلى: "من يكون أنا؟"

- والد أزارو.

سادت لحظة أخرى من الصمت قطعتها مدام كوتو قائلة بغير حماس: "أوه، والد أزارو! كيف حالك إذن؟ دعنى أذهب لإحضار المصباح، أترغب فى بعض النبيذ؟ سوف أحضر لك النبيذ".

لم تتحرَّك ولم يقل أحد منا أى شىء ثم استطعت أن أراها فجأة وقد اتخذت (بوضوح) شكل الضوء الأصفر الكئيب، أحاطها الضوء فبدا وكأن بشرتها محترقة وما هى إلا لحظة قصيرة حتى تراءت لى على هيئة شخصين، ظل الضوء الأصفر فى مكانه لكن مدام كوتو بشكلها الكئيب وجسدها البدين لم تعد موجودة بالحانة، سمعتها بالخارج وكان الضوء – أينما وقفت – يلتَف حولها ببطء وهدوء أحيانًا، وبشكل عاصف فى أحيان أخرى.

- أترى يا أبى؟
- أرى ماذا؟
- الضوء.
- أى ضوء؟
- الضوء الأصفر.
- أين هو ذلك الضوء الأصفر؟

عادت مدام كوتو إلى داخل الحانة وهى تحمل أمامها فانوسًا، فتلاشى ذلك الضوء الأصفر الكثيف أمام ضوء الفانوس واختفى تمامًا من الأفق، تقدَّمتْ مدام كوتو ناحيتنا ووضعت الفانوس فوق الطاولة ثم نظرت إلينا بإمعان كأننا غرباء تمامًا وعندئذ سألها أبى بلطف: "كيف حال العمل؟"

أجابت: "نحن نتدبر أمرنا وسوف يخبرك ابنك على أية حال".

نظرتْ إلىّ بارتياب ثم وضعت كأس النبيذ فوق الطاولة، ولاحظت أن حزمة النقود المربوطة عند أحد أطراف لفافتها لم تعد موجودة، خرجتْ مرة أخرى وعادت تحمل كأسين من البلاستيك الأصفر، كانت هى المرة الأولى التى أرى فيها هاتين الكأسين.

قال أبى (بفتور): "أشكرك يا مدام ولينعم عليك الرب بمزيد من الرخاء والصحة والسعادة".

فوجئنا بطريقته المسرحية الزائفة وهو يشكر المدام ويدعو لها، فقالت وهى تسدِّد نظراتها إلينا بارتياب: "آمين".

ذهبتْ وجلستْ خلف الكاونتر وقد بدا عليها الرعب والحذر الشديدان ثم ملأ أبى لى وله كأسًا من النبيذ وأشعل لنفسه سيجارة وظل يـدخن، شـربت كأسى وحين بدأ أبى يتململ فى جلسته بعصبية أدركت أنه غير قادر علـى طلب نقود من مدام كوتو، جلس إلى جوارى منهـارًا مـن شـدة الكـرب، وارتسمت علامات وجهه بالخزى والإذلال وبدا وهو يشـرب النبيـذ كأنـه يتناول نوعًا من السم الواجب تناوله.

بقينا هكذا حتى تسربت الأصوات إلى مسامعنا من الشارع، اقتربـت الأصوات نحونا فسمعنا الرجال وهم يغنون ويعزفون إيقاعات مختلفة بالـدّق فوق الزجاج، كانوا يرتلون الأناشيد ويترنحون وعندئذ أشرق وجه مدام كوتو وتألقت عيناها ثم نهضت وسارعت بالخروج، عـادت ومـا كـادت تضـع الفوانيس فوق الطاولات حتى دخل أحد الرجال مندفعًا إلـى الحانـة فـاردًا ذراعيه عن آخرهما، صرخ الرجل قائلاً وهو يتحسس أثرًا لجرح ما فـوق جبهته: "نحن هنا!"

دخل بقية الرجال وهم يترنمون باسم مدام كوتو، وكان أحدهم يسـتند إلى عصا، رحبَت مدام كوتو بقدومهم وأرشدتهم إلى مقاعـدهم ثـم نظفـت الطاولة الكبيرة وبدأت تشاركهم الحديث وتبادلهم الإطراء، جلسوا فى أماكنهم دون أن يتوقفوا عن الغناء إلا حين شاهدونا ونحن جالسان عند أحد الأركان.

أحضرت مدام كوتو المشروبات وطاسات الشوربة، وحـين أدركـت صمتهم حاولت أن تنشر البهجة بينهم لكنها ظلت تنظر إلينا بطريقة غريبـة

توحى برغبتها فى رحيلنا، كانوا يشربون فى صمت عندما نادى الرجل ذو الندبة فوق جبهته على مدام كوتو، وراحا يتهامسان بينما لم ينقطع الرجل عن التطلع إلينا فى فترات التوقف، فبدا واضحًا أنهما كانا صامتين بسبب وجودنا، وبعد أن انتهت مدام كوتو من حديثها الهامس مع الرجل هزت رأسها وجاءت ناحيتنا لكنها غيرت رأيها فجأة وذهبت لتقف خلف الكاونتر، شعرت فى لحظة خاطفة أننى موجود وسط مجتمع غامض وبين دهاليز عالم سرى.

قالت مدام كوتو بصوت رقيق: "لقد حان الوقت يا أزارو أن تذهب لتنام".

وأضاف أحد الرجال متسائلاً: "نعم، ماذا يفعل ولد صغير فى مثل هذا الوقت على أية حال؟"

قال آخر: "هكذا يفسدون الأطفال".

وقال ثالث: "وهكذا أيضًا يصبحون لصوصًا ويضطرون لسرقة آبائهم".

لعب النبيذ برأس أبى وأصبح مخمورًا بما يكفى، استطعت أن أشعر به وهو يضم قبضته ويفردها، كما كان يحَرِّك فكيه ويتمطى بجسده ويتململ بعصبية، وبعد أن انتهى الرجل الأخير من كلامه قال أبى بتحد: "إنه ابنى وهو ليس لصًا".

ساد الصمت فترة طويلة وذهبت مدام كوتو للجلوس خلف الكاونتر، ثم أَخْفَتْ وجهها بين ظلال اللهب المتصاعد من الفانوس، ضحك أحد الرجال بشدة فدوَّت ضحكاته فى الحانة بقوة كأنها صوت حصان هائج، لكن الرجل صاحب الندبة فوق جبهته قاطعه قائلاً: "نحن لا نريد أية مشاكل".

قال أبى: "وإذن فلماذا تسبُّون ابنى وتسيئون معاملته؟"

- نحن نريد فقط أن نعقد اجتماعًا هنا ولا نرغب فى وجود الولد.
- لن يرحل الولد من هنا إلا حين أرحل أنا.

جاءت مدام كوتو من خلف الكاونتر وقالت: "لا أريد أية مشاكل فى حانتى".

ثم بدأت فى وضع المقاعد مقلوبة فوق الطاولات الفارغة، وحين انتهت من ذلك خرجت من الحانة وهى تقول: "عليكما بالرحيل إذا كنتما غير راغبين فى إثارة المشاكل".

صاح أبى وهو يضع كأس النبيذ فوق الطاولة بقوة قائلاً: "لا".

التزم الرجال بالصمت، لكن أحدهم سأل أبى بصوت معتدل: "أى الأحزاب ستؤيد؟"

- ليس من شأنك.
- إنه من شأننا أن نعرف.
- نعم، إذا أردت أن تعرف فإننى لن أؤيد حزبكم أو أدعمه.
- ولِمَ لا؟
- لأنه حزب اللصوص.

صاح أحد الرجال فى الحال مناديًا على مدام كوتو التى سارعت بالمجىء، كانت مدام كوتو تضع يديها فوق فخذيها حين قالت: "ماذا حدث؟"

- أخبرى هذا الرجل وهذا الولد أن يرحلا من هنا.
- أنا لا أريد أى نوع من المشاكل.
- حسنًا، ولكن عليك أن تختارى بين وجودهما أو وجودنا، إذا لم تطلبى منهما الرحيل ومغادرة الحانة فى الحال فإننا سنذهب إلى مكان آخر.
- أنا لا أرغب فى حدوث أية مشاكل، إذا أردتم أن تبدأوا اجتماعكم فلتبدأوا الآن لأنهما سوف يرحلان، كل شىء يمكن أن يتم فى سلام.
- نحن نريد أن نعقد اجتماعنا الآن.

نظرت مدام كوتو إليهم ثم نظرت إلينا، فقال أبى وهو يدمدم: "أتعتقدون بأنكم تستطيعون منع الرجل الفقير من الشراب لأنكم تملكون المال؟"

- نعم نستطيع.
- إذن هيًّا، فلتفعلوا ذلك ودعونى أرى.
- هل تتحدَّانا؟
- نعم.

نهض ثلاثة من الرجال فى وقت واحد وكان كل واحد منهم ضخمًا كالتمثال، اقتربوا من الطاولة التى نجلس عليها وظلوا يتحلَّقون حولها فأمسكت بذراع أبى.

قال أبى متسائلاً ببرود: "إذا أردتم أن تقاتلونى هنا فإن حانة المدام ستتحطم وسيقع اللوم عليكم".

كان أبى قلقًا وهو يتحدَّث بصوت مرتجف، فقال أحد الرجال الثلاثة: "تعال إلى الخارج إذن".

- لا بد أن أنتهى من النبيذ أولاً فأنا لا أقاتل أحدًا قبل أن أصبح مخمورًا.
- أوه، أنت سكير إذن؟

ظل أبى يشرب بهدوء وبطء وكان ذراعه يرتعش واستطعت أن أشعر بالمقعد وهو يهتز تحتى، بينما كان الرجال الثلاثة ما زالوا يتحلَّقون حولنا وينتظرون بنفاد صبر، لم تقل مدام كوتو شيئًا ولم تتحرك من مكانها، أما بقية الرجال فكانوا جالسين إلى طاولاتهم دون أن يتوقفوا عن الشراب.

صبَّ أبى آخر قطرة من النبيذ فى الكأس الأصفر البلاستيكى وقال: "حثالة، أنتم حثالة! إننى الآن مستعد".

نهض من فوق مقعده وطرقع مفاصله غير أن الرجال لم يتأثروا وخرجوا من الحانة.

أمرنى أبى قائلاً: "اذهب للبيت فسوف أتعامل مع أولئك الحيوانات بمفردى".

كانت عيناه محتقنتين بالدم ومتفجرتين بالجرأة والشجاعة، مضى نحو الباب ثم وقف بين جدائل الستارة وبصق فى الخارج قائلاً: "تعالوا".

وقفت بينما خرج أبى من الحانة دون أن يلتفت وراءه ثم تبعته لكننى لم أر الرجال الثلاثة، وما أن أصبحنا بالخارج حتى أغلقوا الباب بسرعة، تطلع أبى حواليه لرؤية الرجال فلم يجدهم ورحت بدورى أبحث معه عنهم، كانت الأشجار الصغيرة تتحرك مع الرياح وكانت البومة تنعق بشدة فى الغابة، ذهبت إلى الحوش فوجدت الباب الخلفى مغلقًا أيضًا.

قال أبى: "إنهم جبناء".

سمعنا ضحكاتهم وصيحاتهم بالداخل وظلُّوا يمرحون بشدة لكننى لم أستطع أن أفهم ما يقولون لأنهم كانوا يتحدثون لغة غريبة، وقف أبى حول المكان مترددًا، ثم ساد الصمت فجأة داخل الحانة وأصبح حديثهم هامسًا.

قال أبى وهو يتقدمنى: "دعنا نعود إلى البيت".

جرجرت قدمى خلفه وشعرت بكاحلى يؤلمنى من جديد فرحت أعرج محاولاً اللحاق به، لكنه كان يمشى بخطوات واسعة ولم يلتفت إلى الوراء مرة واحدة.

(١٢)

وصلنا إلى البيت وكانت الحجرة قد امتلأت بمزيد من الفئران الميتة، لملمت أمى الفئران الميتة وقامت كنستها وأزاحتها إلى أحد الأركان، ثم فتشت المكان كله بحثًا عن فأر ميت هنا أو هناك، كانت بعض الفئران الميتة تكشف عن أسنانها وقالت أمى بمجرد دخولنا: "لقد قتل السم الذى أحضره المصور أكثر من اثنين وخمسين فأرًا".

شعرت أن عدد الفئران الميتة أكثر مما ذكرته أمى، جلس أبى فوق المقعد ذى الأرجل الثلاثة ثم أشعل سيجارة بطريقة فيها كثير من الوقار غير المعتاد، وكانت يداه ترتعشان وهو يقول: "كدت أتشاجر مع بعض العمالقة".

وقالت أمى بقليل من الشرود: "يجب أن ننتقل من هذه المنطقة".

- كنت سأقتلهم.
- دعنا نرحل من هنا وإلا فإن شيئًا سيئًا سيحدث لنا.
- لا شىء سيحدث لنا ولن أمنحهم الفرصة لإبعادنا عن هنا.
- وكيف سندفع الإيجار الجديد؟
- سوف نتدبَّر أمرنا.
- لكننى أشم رائحة كريهة.
- إنها رائحة الفئران.
- لقد حلمت بأننى رأيتك عند جانب الطريق.
- وماذا كنت أفعل عند جانب الطريق؟
- كنت راقدًا بلا حراك وكانت رأسك غارقة فى الدم، وعندما تحدثت معك يا زوجى لم تجبنى؛ فحاولت أن أحملك لكنك كنت ثقيلاً كالشاحنة، ثم ذهبت بحثًا عمن يساعدنى وعندما عدت لم أجدك.

لم يقل أبى شيئًا واستطعت أن أراه وأسمعه وهو يحاول أن يجد شـيئًا داخل مضمون الحلم، ثم لاحظنى وقال: "اذهب لتنام يا أزارو فلا يجـب أن تستمع لكلام الكبار".

أزحت الطاولة من طريقى بعد أن أمسكت بالحصيرة وفرشـتها فـوق الأرض ثم رقدت فوقها، وكان أبى يدخن بشراهة وقالت أمـى: "لا بـد أن نقتصد فى الطعام إذا شئنا أن ندفع الإيجار".

- لا تقتصدى فى الطعام.

- وسوف ننام ببطون خاوية ابتداء من الليلة.

قال أبى محاولاً التحكُّم فى انفعالاته: "هراء، جهزى طعامنا الآن".

أغلقت عينى وعلى ذكر الطعام شعرت بجوع شديد، كانت أمى صامتة ثم سمعتها وهى تتحرك حاملة الأطباق وحين وضعت الأطباق فوق المائـدة شممت رائحة طعام جيد، عرفت أنه اليخنة ولسان الحمل المشوى، وعنـدما فتحت عينى أبصرت طاسة كبيرة من طعام الإيبا وطاسة أخرى من الشوربة السائلة تتخللها كمية متواضعة من اللحم، تناولنا الطعام فى صـمت دون أن ينظر أى منا إلى الآخر، وبعد الانتهاء من الأكل أشعل أبى سيجارة أخـرى، بينما خرجت أمى لغسل الأطباق وإحضار الملابس الجافة من فـوق حبـل الغسيل، تمددت فى مكانى وحين عادت أمى بقينا صامتين لمدة طويلة، ولـم يتجرأ أحد منا على النظر إلى الآخر ثم تنهدت أمى فجأة وألقت بجسدها فوق السرير ووجهها نحو الحائط، وما هى إلا لحظة قصيرة حتى غرق فى النوم، كان ضوء الشمعة ضعيفاً وكان أبى جالسًا لا يتحـرك لكـن عينيـه كانتـا مخمورتين، انطفأت الشمعة تمامًا فقلت لأبى: "احكِ لى حكاية".

ظل هادئًا بلا حراك فخيل لى أنه قد تلاشى واندثر، لكن تنهيدة غريبة انطلقت منه بعد لحظة قصيرة تململ المقعد من تحته على إثرها، وكان أحـد الكلاب ينبح بالخارج وقد اختلط نباحه بنعيق البومة، ثم سمعت صوتًا غريبًا

لأحد الطيور بدا لى كأنه صوت ضبع، وفى تلك الأثناء هبَّت رياح عاتية اهتزت معها نافذتنا المكسورة.

بدأ أبى يحكى فجأة ويقول: "فى يوم من الأيام كان هناك عملاق وكانوا يلقبونه بملك الطريق، كانت قدماه أطول من أكثر الأشجار طولاً ورأسه أضخم من كل الصخور الكبيرة، فلم تكن مياه النهر الصغير كافية لإشباع عطشه وعندما كان يبول كانت الأرض من تحته تتحول إلى بئر كبيرة وتنتشر الرائحة الكريهة فى كل مكان، كانت الغابة مليئة بالوحوش المخيفة من أمثاله وكانوا يتنافسون على التهام الأشياء الغريبة وتناولها، وحين تقلَّصت الغابة وأوشكت على الاندثار لم يستطع العملاق أن يجد ما يكفى من الحيوانات لالتهامها، فقرر أن يرحل من الغابة قاصدًا الطرق التى يرتادها المسافرون".

توقَّف أبى لحظة عن الحكى ثم استطرد قائلاً: "كان لملك الطريق معدة كبيرة فلم يكن يشعر بالشبع أبدًا وكان جائعًا على الدوام ولم يكن يسمح لأحد بالمرور من الطريق قبل أن يترك له قربانًا أو ذبيحة، وأحيانًا كان يأكل الناس أنفسهم إذا ما استبدَّ به الجوع وكانت لديه القدرة على الوجود فى أماكن كثيرة فى وقت واحد وبسبب إحساسه الدائم بالجوع لم ينعم بالنوم قطّ؛ حتى أصبح من اليسير لأى شخص أن يراه فى أى وقت متأهبًا فى انتظار ما سيقدمه ذلك الشخص من القرابين أو الذبائح، لم يكن باستطاعة أحد أن يتجاهل وجود الوحش وإلا فإن الوحش سيلتهمه آجلاً أم عاجلاً".

أضاف أبى بعد وقفة قصيرة وقال: "ظل الناس يقدمون له القرابين لوقت طويل، فكان يسمح لهم بالمرور والسفر عبر الطريق دون أن يجرؤ أحدهم على الاعتراض أو التذمر لأنهم كانوا يجدونه أينما ذهبوا، لم يعرف أحد من الناس إذا كان متزوجًا أم لا، كما لم يعرفوا إذا ما كان ذلك الوحش العملاق رجلاً أم امرأة لكنه كان وحيدًا بلا أولاد، وكان الناس يعتقدون أنه

موجود منذ آلاف السنين وأن لا شيء ولا أحد يستطيع قتله وأنه لن يموت أبدًا، وهكذا ظل الناس خائفين منه ولم يتوقفوا عن تقديم القرابين له مدة طويلة من الزمن، فانتشرت المجاعة فى العالم بسببه وربما بسبب أشياء أخرى، لم تكن المياه متوفرة وجفّت الجداول والأنهار الصغيرة وتلوّثت الآبار ببوله فلم تعد المحاصيل تنبت وصارت الحيوانات نحيلة وبدأ الناس يموتون من الجوع، فتوقفوا عن تقديم القرابين لملك الطريق، وعندئذ غضب الملك فراح يهاجم بيوتهم ويأكل الأحياء منهم ويلتهم جثث الذين ماتوا من الجوع".

فقد كل الناس قدرتهم على احتمال المزيد من أفعال ملك الطريق الوحشية فاجتمعوا معًا لمناقشة الأمر ومحاولة إيجاد طريقة للتعامل معه، اقترح بعضهم قتله بأى طريقة بينما اقترح آخرون أن يذهبوا إليه أولاً ليتناقشوا معه، وأخيرًا وافقت الأغلبية على الاقتراح الآخر فأرسلوا وفدًا منهم للقائه.

رحل أعضاء الوفد مبكرًا فى الصباح حاملين معهم كميات كبيرة من القرابين والأضحيات فى حقائب وفوق عربات جر صغيرة، كانت الحقائب وعربات الجر مليئة بحيوانات الأدغال والمحاصيل والبطاطا والنشا والأرز وجوزة الكولا وخلافه مما يكفى فى الحقيقة لإطعام قرية بكاملها، استغرق سفرهم وقتًا طويلاً وهم يحملون ويجرون تلك الكمية الكبيرة من القرابين، وظلوا يتوقعون ظهور ملك الطريق فى أية لحظة لكنه لم يظهر، انتظروا عدة أيام أخرى لم يظهر بعدها أيضًا فساورهم اعتقاد بأنه اختفى أو تلاشى بطريقة ما، وظنَّ بعضهم أنه مات وحينئذ سارعوا بالعودة إلى الحشود الكثيرة من الناس الذين يترقبون عودتهم بشغف وكانوا يمرحون وهم يحملون معهم الكميات الكبيرة من القرابين بعد أن شعروا بالاطمئنان، كانوا يتبادلون الحكايات فى طريق عودتهم وقد نسوا كل شيء عن ملك الطريق، لكنه ظهر

أمامهم فجأة وقد بدا نحيلاً جدًا وكان يتحدث بصعوبة ويحتضر من شدة الجوع والعطش، أمسك بهم وسألهم بصوت ضعيف: هل لديكم أى نوع من القرابين؟ أى شىء فأنا جائع بشدة كما أننى - ومنذ مدة طويلة - لم أشرب ما يكفينى من الماء.

قدَّموا له كل ما معهم فسارع بالتهام كل شىء مرة واحدة، لكنه أظهر احتجاجًا وسألهم عن مزيد من الطعام وهو يترنح ويقول: "إنه قليل جدًا ذلك الطعام الذى قدمتموه لى مما جعلنى أشعر بجوع أكثر".

قالوا له إن ذلك هو كل ما لديهم فلم يجد ملك الطريق شيئًا آخر يفعله للتخفيف من حدَّة جوعه سوى الإسراع بالتهامهم جميعًا.

توقف أبى عن السرد لحظة ثم قال لى: "هذه الحكاية تشعرنى بالعطش، أعطنى ماءً لأشرب يا أزارو".

كان أبى يحكى القصة فى الظلام، سارعت بإحضار الماء فشرب وأخذ نفسًا عميقًا وارتسمت فوق وجهه علامات السرور ثم تنهد واستطرد قائلاً: "كان بقية الناس ينتظرون بشغف عودة الوفد الذى أرسلوه وظلوا ينتظرون طوال سنوات سبع لكن أحدًا لم يعد؛ فقرروا إرسال وفد آخر حدث معه نفس الشىء وعندئذ اتفقوا جميعًا على قتل ملك الطريق".

توقف أبى مرة أخرى وأشعل سيجارة ثم أضاف: "أرسل كل رؤساء العالم والأمراء والملوك والملكات رسائل إلى شعوبهم يسألونهم فيها أن يجمعوا كل أنواع السموم التى يستطيعون الحصول عليها، ففعل الناس ذلك ونقلوا السم إلى المكان الذى سيجتمعون فيه غير أن بعض السم قد تسرب من بعض الناس ووقع على الأرض أثناء نقله إلى المكان المتفق عليه؛ فانتشرت النباتات القاتلة فى الغابة نتيجة لذلك وتوقفت النباتات الأخرى عن النمو فى بعض الأماكن.

جمعوا السم كله من أركان الأرض الأربعة وصنعوا منه طبقًا ضخمًا يحوى بداخله مئات من الأسماك وكميات هائلة من اللحم المحمَّر والبطاطا والنشا، حاول الطهاة بكل ما يملكون من خبرة وموهبة أن يكون طعم الطبق الكبير لذيذًا وشهيًا، كان الطعام كثيرًا جدًا والطبق كبيرًا فلم يستطع حمله أقل من مائة شخص، حملوه وساروا به مدة طويلة لكنهم لم يلتقوا بملك الطريق إلا بعد مدة طويلة، وحين شاهدهم كان جائعًا بشدة فأمسك بهم وسألهم عن الطعام الذي معهم ثم قال: "لقد قابلت قبلكم وفدين من الناس اعتقد كلاهما أننى مت ولم أعد موجودًا فشعرا بالسعادة لموتى وعندئذ التهمتهما جميعًا".

عرض عليه قائد الوفد الجديد الطعام الفاخر الذى جاءوا به خصيصًا له، وخاطبه قائلاً: "نحن جميعًا نتمنى لك حياة أطول".

جلس ملك الطريق وبدأ فى التهام الطبق الكبير بنهم شديد حتى انتهى منه تمامًا لكنه شعر بعد ذلك بجوع أكثر فلم يتردد فى التهام نصف الوفد.

كان إحساس ملك الطريق بالجوع يشتد ويزيد دائمًا بعد تناول الطعام، لكنه هذه المرة شعر بجوع أكثر رغم كمية الطعام الهائلة وبعد أن فرغ من الطبق بكامله ولم يتبق منه أى شيء تورَّمت عيناه من شدة الجوع فلم يجد أمامه بديلاً عن التهام الوفد بكامله ولم يستطع النجاة من شراهته سوى شخص واحد فقط بعد أن لاذ بالفرار وكان ذلك الشخص هو جدنا الكبير الذى كان يجيد الاختباء، عاد جدنا الكبير بمفرده بعد أن التهم ملك الطريق الوفد عن آخره وأخبر العالم كله بما حدث.

استطرد أبى مواصلاً حكايته: "رقد ملك الطريق ليستريح بعد أن التهم الوجبة الكبيرة غير المشبعة، ثم شعر فجأة بألم فى معدته لكنه شعر بمزيد من الجوع فسارع بالتهام كل شيء وأى شيء يراه، الأشجار الكبيرة والصغيرة والصخور والرمال وحتى الكرة الأرضية نفسها لم تسلم من محاولاته، ثم حدث أغرب شيء حين بدأ يأكل نفسه بادئًا بقدميه ويديه وكتفيه

وظهره ورقبته ثم رأسه، ولم يتبق منه سوى معدته، وفى تلك الليلة هطلت أمطار غزيرة ذابت معها معدة ملك الطريق وقد أخبرنا جدنا الكبير أن الأمطار لم تتوقف لمدة أسبوع؛ اختفت بعدها معدة ملك الطريق لكنه استطاع أن يسمعه وهو يتذمر ويدمدم بأصوات قادمة من باطن الأرض، لقد أصبح ملك الطريق جزءًا من كل طرق العالم ولم يزل جائعًا وسيظل دائما فى حالة من الجوع الشديد، وهكذا امتلأت كل طرق العالم بالحوادث مما جعل كثيرًا من الناس – حتى يومنا هذا – يضع كميات صغيرة من الطعام فوق الطريق قبل السفر ليأكلها ملك الطريق كى يسمح لهم بالسفر فى أمان، لكن بعض الحكماء منّا يعتقدون بأن الوحش ما زال موجودًا وأنه قادر على الظهور فى أى وقت، ولذلك فإنهم لا يتوقفون عن تقديم القرابين وكميات الطعام المختلفة ووضعها فى الطريق خوفًا من التهام الوحش لهم إذا لم يجد تلك القرابين".

ويرى آخرون بأنه شكل من أشكال التضرُّع إلى الله والدعاء بألا يعود مثل ذلك الوحش مرة أخرى؛ حتى ننعم بالأمان ونتخلص من الرعب الذى يلازم حياتنا.

اختتم أبى حكايته بالقول: "ولذلك فإن على الأولاد الصغار من أمثالك أن يحترسوا بشدة أثناء تجوالهم فى هذا العالم".

بعد أن فرغ أبى من الحكاية ظل صامتًا لوقت طويل لم أتحرك خلاله من مكانى، ثم نهض فجأة ومضى نحو السرير لكننى لم أستطع أن أنام، وثمة ألوان مشرقة ظلت تتراقص أمام عينى دون أن تفارقنى صورة ملك الطريق وهو راقد فى النعش أحيانًا وجائع إلى الأبد وتحت الشوارع والدروب والطرقات المألوفة وبين طرق العالم السريعة فى أحيان أخرى، سيطر علىَّ القلق وأصبح عقلى يقظًا بشدة ثم لاحظت لأول مرة ذلك السكون المخيم على الحجرة وغياب الفئران، ولا بد أن أبى لاحظ نفس الشىء لأنه قال لى: "عليك بإلقاء بعض الفئران الميتة فوق الطريق ليأكلها".

انتابنى الخوف لكننى ركعت ونظرت تحت الدولاب فوجدت فأرين ميتين، جمعتهما فى الجاروف وسارعت بالخروج ثم ألقيت بهما فى عمق الظلام الدامس، بدا لى أننى شاهدت ملك الطريق وهو يأكل الفئران الميتة ويتلذذ بها، وعندما عدت كان أبى يغط فى نوم عميق.

طفت فى الظلام فوق الرياح المعطرة برائحة البخور واختلست النظرات إلى عينى ملك الصبية صاحب الابتسامة الشبيهة بابتسامة الرب، ثم سمعت الرياح وهى تصفق فوق بابنا وتصدر أصواتًا غريبة استطعت أن أفهم مغزاها، أشعلت شمعة فأبصرت المصور أمامى، كان يرتدى جلبابًا أزرق جميلاً، ولم يكن يزحف فى مشيته أو خائفًا لكنه أيضًا لم يكن مبتهجًا كما رأيته فى المرة السابقة وإنما بدا فى حالة صحية أفضل، دخل وخلع الجزء العلوى من جلبابه فاستطعت أن أرى سلسلة من الفضة المطلية حول رقبته، جلس فوق الحصيرة ووضع إحدى قدميه فوق الأخرى وقال: "سأغادر غدًا صباحًا".

- إلى أين ستذهب؟
- سأجوب كل طرقات العالم.
- وماذا ستفعل؟
- سألتقط صورًا لكل الأشياء المثيرة التى أراها.
- كن حذرًا من الملك.
- سوف يموت الملك.
- إن الملك لا يموت أبدًا.
- وكيف تعرف بأنه لا يموت؟
- أبى قال ذلك.
- أنا لا أخاف من الملك.
- أنت تعرف بأن الملك أسوأ من الفتوات، إنه جائع على الدوام.
- أى ملك ذلك الذى تتحدث عنه؟

- ملك الطريق.

تطلع حواليه مرتبكًا ثم قال لى: "حسنًا، سأكون حذرًا".

سادت لحظة من الصمت قلت بعدها: "أين كنت؟"

- كنت مختبئًا.
- أين؟
- داخل الكاميرا.
- كيف؟
- كنت أتحرك خلف الضوء الفضى.
- وماذا كنت تفعل؟

كنت أزور بلادًا أخرى فى قارات أخرى غير قارتنا، وكنت أطوف حول الكون وألتقط صورًا لكل ما يفعله الرجال والنساء.

- وماذا عن الفاترينة الزجاجية التى كنت تعرض فيها الصور؟
- سوف أتركها.
- وإذن فإنك لن تعرض مزيدًا من الصور؟
- لن أعرض هنا فى هذا الشارع لكننى سأعرض صورى للعالم كله.
- كيف؟
- بالسحر.
- كيف؟
- أنت تسأل كثيرًا من الأسئلة.

بقيت صامتًا بعض الوقت ثم قلت: "إن السم الذى أحضرته قتل كل الفئران".

- قلت لك إنه سم فعَّال وقوى.
- هل ستعطينى بعضًا منه؟
- لماذا؟

- لاستخدامه إذا ما عادت الفئران لمهاجمتنا.

فكر فى الأمر ثم قال: "سأترك بعضًا منه لأمك".

صمت كلانا مرة أخرى ثم سألنى إذا ما كان يوجد أى طعام، وضعت بعض الجارى فى الماء فتناول الجارى المنقوع مع السمك الجاف، ثم قدمت له طاسة من لسان الحمل المشوى وبعض الطعام المطهو كانت أمى قد وضعتهما جانبًا، بعد أن فرغ من الطعام فتح حقيبة الكاميرا وأخرج منها مجموعة من الصور الجميلة وراح يتطلع فيها ثم قدمها لى، كانت الصور لبعض الناس وهم يرتدون الملابس التنكرية فى مهرجان الصيد، وكانت أرواح الموتى غريبة وضخمة.

وبعضها قبيح الشكل والبعض الآخر جميل وبهى مثل عذراوات البحر اللاتى يتحلين بابتسامة أبدية يصعب معرفة أسرارها، وثمة صور أخرى لرجال يضربون بعضهم بالسياط وأخرى لحالة من الشغب العنيف، طلبة ورجال متوحشون ونساء غاضبات يلقون بالحجارة فوق الشاحنات، شاهدت أيضًا صورًا لنساء السوق وهن يهربن من المطاردة وصورًا لبعض الناس من ذوى البشرة البيضاء وهم جالسون فوق الشواطئ الساحرة تحت مظلات كبيرة بينما الرجال السود يقدمون لهم المشروبات، كانت صور أخرى لطفل فوق ظهر أمه العليل، وصور لبيت محترق وأخرى لإحدى الجنازات وكانت النساء - فى صور إحدى الحفلات - ترتدى التنورات القصيرة فاستطعت بسهولة أن أرى أفخاذهن العارية المثيرة، كنت أقلب فى الصور حين فوجئت بأكثر الصور غرابة والتى قال عنها المصور إنه التقطها من كوكب آخر، إنها صورة رجل معلَّق من رقبته إلى شجرة ما، لكننى لم أستطع رؤية الحبل المعلَّق فى رقبته، كانت إحدى الطيور البيضاء قابعة فوق رأس الرجل بطريقة غير واضحة، وكان وجه الرجل غريبًا لكنه مألوف وعيناه مفتوحتان عن آخرهما، ربما من كثرة مشاهداته أما فمه فكان يتلَوى، وكانت قدماه متقاطعتين.

- ماذا حدث له؟
- لقد شنقوه.
- وهل مات؟
- نعم.
- ما الذى حدث بالضبط؟
- لقد شنقوه.
- من؟
- عند إحدى البقاع الداكنة مترامية الأطراف.
- وهل شنقته تلك البقاع؟
- لا، لقد شنقوه فى قارة أخرى.
- هل القارة هى التى شنقته؟
- لا.
- ماذا إذن؟
- هم.
- من هم الذين تقصدهم؟

توقف لحظة ولم يجب على سؤالى فشعرت بارتباك شديد، ثم أجابنى قائلاً: "بعض الناس من ذوى البشرة البيضاء".

لم أفهم شيئًا فتناول الصورة منى ودسَّها بين مجموعة الصور الأخرى، فقلت: "لماذا؟"

- أنت لست كبيرًا بما يكفى لأحكى لك كل شىء.

أصبحت شغوفًا أكثر للمعرفة فكررت السؤال: "لماذا؟"

- لماذا؟ ماذا؟
- لماذا شنقوه؟

صمت قليلاً وقلت له بعد لحظة قصيرة من التفكير: "هل شنقوه بسبب الطائر الأبيض؟"

– أى طائر أبيض تقصد؟ أوه! ذلك الطائر الأبيض فوق رأسه؟ لا.
– لماذا إذن؟

صمت مرة أخرى ثم قال: "لأنهم لا يحبون موسيقى البيانو".

شعرت بأنه يرغب فى تغيير الموضوع وحين أعاد الصور إلى حقيبته كانت نظرات عينيه مختلفة وتغيَّر صوته وهو يقول: "لقد مات ثمانية من الرجال الذين التقطت صورًا لهم، وعندما أنظر إلى صور الموتى فإن شيئًا ما يغرد داخل رأسى وكأنه بعض الطيور المجنونة، لا يجب أن أتحدث معك هكذا فأنت ما تزال ولدًا صغيرًا".

تمدَّد فوق الحصيرة وحين شممت رائحة عطر جميل وعبق بخور غريب سألته عن تلك الرائحة وذلك العبق، فأجابنى بأنهما للحماية من الأعداء.

قلت: "لقد شممت رائحة العطر والبخور قبل أن تطرق الباب".

ابتسم وبدا مسرورًا لامتلاكه مثل تلك الجاذبية ثم رقد بهدوء، اعتقدت بعد لحظة أنه غرق فى النوم وكنت راغبًا فى سماعه فقلت له: "أريد أن أسمع حكاية".

– أطفىء الشمعة واذهب لتنام.
– أخبرنى بحكاية قبل أن أنام.
– إذا حكيت لك حكاية فلن تستطيع أن تنام.
– لماذا؟

نهض من رقدته وأطفأ الشمعة فساد الحجرة سكون مروِّع، واستطعت أن أسمع أنفاسه.

قال المصور: "إنها حياة صعبة".

– ذلك ما اعتادت الفئران على قوله.

- إن الفئران لا تعرف شيئًا عن الحياة.
- ولماذا تكون الحياة صعبة؟

صمت لحظة قصيرة ثم قال: "اذهب لتنام".

- لماذا؟
- إذا انتظرت حتى تبدأ الطيور الجميلة فى الغناء فإنك لـن تسـتطيع النوم.
- هل ستأتى وتزورنا؟
- كل يوم.

كنت أعرف أنه يكذب وأننا لن نراه لمدة طويلـة قادمـة، وانتـابنى إحساس بأننا قد لا نراه أبدًا غير أن كذبه ذلك جعلنى أقل قلقًا وتوترًا، فكرت أن أطلب منه وعدًا بالمجىء لزيارتنا من وقت لآخر لكنه كان قد بدأ يطحـن أسنانه، تمددت فى مكانى دون أن أنام على أمل أن يستيقظ فجـأة ويسـتأنف حديثه كما كان يفعل وهو سكران، استهل كلامه من جديد لكنه كـان يـتكلم وهو نائم، فلم أستطع أن أتبين أو أفهم شيئًا من حديثه الغريب وحين توقـف عن الضغط على أسنانه وبدأ يتقلَّب ويرفس ولم يعد يتحدث فى نومه، عرفت أنه غرق فى نوم عميق وأدركت بأننى سأفتقده.

رحل المصور فى الصباح وشعرت بحزن لعدم وجـوده، لقـد الـتقط صورًا لكل الناس إلا نفسه فنسيت مع مرور الوقت شكله ولم أعد أتذكره، إلا حين أرى الفاترينة الزجاجية أو أتذكر الكاميرا المضيئة، لم أتعـرَّف حتـى على اسمه وكان المصور هو الاسم الوحيد الذى نعرفه، ترك رسالة مكتوبـة إلى أبى أخبره فيها أنه سيغادر وعبَّر فيها عن امتنانه لمساعدتنا له، فرح أبى بالرسالة وفى بعض الليالى السعيدة كنا نجلس ونتحدث فى أشياء كثيرة وعن أناس كثيرين، غير أن مجرد ذكر المصور كان يملأنا بـالفخر والاعتـزاز، وكنا نشعر باشتياق شديد لرؤيته وساورنى إحساس شبه مؤكد بأننا سنراه مرة أخرى ذات يوم.

الكتاب الرابع

(١)

لم تعد مدام كوتو كما نعرفها وأصبحت غريبة علينا كما أنها صارت أكثر بدانة واتسم صوتها بالغطرسة، كانت ترتدى كثيرًا من الأساور والخلاخيل والقلادات فبدت مثقلة بالزخارف التى تطوّق أجزاء جسدها، وكانت تمشى ببطء كشخص اكتسب لتوه مقومات القوة، واكتسى وجهها بنوع جديد من الجدية وصارت عيناها أكثر حدة من المعتاد فلم أعد أذهب إلى الحانة كثيرًا.

تغيَّرت طريقة أبى فى التعامل مع مدام كوتو وأصبح حديثه معها خاليًا من المودة، برغم أنه فى البداية لم يمنعنى من الذهاب إلى حانتها حيث كنت أجلس وسط الذباب، كان الذباب يتكاثر كلما ازداد عدد الزبائن، لكننى كنت أتسلل إلى خارج الحانة عند دخول بعض الأشقياء وقطاع الطرق لأبدأ تجوالى حتى ينتهى بى الأمر إلى اللعب أمام بيتنا.

تكررت زيارات الفتوات والأشقياء للحانة وفى بعض الأمسيات بدا الأمر كأن شيئًا لم يحدث فى العالم، فكانت أمى تخرج كل صباح لبيع بضاعتها فى السوق، وكانت تعود أحيانًا مبكرة فى المساء وغالبًا ما كانت ملامح وجهها خالية من أى تعبير ولا توحى بشىء كأن السوق قد اختفت ولم يعد لها وجود.

كان الجو رطبًا فى المساء والظلال حادة كالسكاكين والهواء ساكنًا، ومن خلال الهواء الساخن بدا صوت الطيور كأنه قادم من حلم مكبوت، كما تسلل عرق تلك الأمسيات إلى الأدمغة ففقد الجميع قدرتهم على الإدراك

والفهم الصحيح حتى أصبح من اليسير أن ينام المرء بعينين مفتوحتين، كان الجو حارًا بشدة مما جعل السير أثناء النوم أمرًا طبيعيًا وظل الـزمن ثابتًـا لا يتحرك.

كنت أجلس فوق الرصيف أمام بيتنا وأشاهد النفايات وأكـوام الزبالـة المنتشرة على جانبى الطريق والتى يغطيها الذباب وأشعة الشمس الحارقـة وكانت أسراب طيور الماء البيضاء تحلق فى الأفق، فيقفـز الأطفـال فـى الشارع ويغنون:

ليكى.. ليكى
أعطنى طائرًا
أعطنى طائرًا أبيضًا

كان الأطفال يصدرون أصواتًا بأصابعهم وكفوف أياديهم وهم يشيرون إلى الطيور المحلقة، وعندما كانت الطيور تهرب كان بإمكـان الأطفـال أن يروا من خلال أظافر أصابعهم نقاطًا بيضاء فى السماء الذهبية الساخنة، لكن ما أصابنى بالدهشة حقًا هو امتلاء واحد أو اثنين من تلك الأظـافر بـالبقع البيضاء.

كان الزمن يتحرك ببطء بينما الهواء الساخن يتدفق مسرعًا، وفى مكان بعيد من الغابة كنا نسمع أصوات الفئوس وهى تقطع الأشجار دون توقـف، حتى أصبح الصوت مألوفًا كصوت نقار الخشب أو كصـوت نقـرات مـاء المطر فوق أوراق شجرة جوزة الهند، كما أصبح صخب الماكينـات أمـرًا عاديًا ومألوفًا أيضًا، وكانت أصوات معدات الحفر المتلاحقة تخترق آذاننـا أثناء قيلولة بعد الظهر التى لم يكن بمقدورنا مقاومتها.

فى بعض الأحيان كان العالم يبدو كأنه قد توقف عـن الحركـة وأن الشمس لن تغيب وفى أحيان أخرى بدا أن سطوع الشمس قد أخرج النـاس بالقوة من واقعهم، وذات مساء حين شاهدت صبيًا يجرى فى الشارع ببنطاله

الممزق وقميصه المرفرف تذكرت المصور وتمنيت وجوده معي لتسجيل تلك اللحظة، كان الصبى يتعقب إطارًا معدنيًا لإحدى الدراجات، ومن خلفه كـــان يجرى ثلاثة من الرجال وما أن وصل الصبى قريبًا من الشاحنة حتى ظهـــر فى السماء ضوء شديد ومخيف كأنه بريق خاطف لكاميرا كبيرة، مما جعلنى أفقد القدرة على الرؤية لكننى عرفت أن الصبى قد تلاشى، أغلقــت عينـــى فتراقصت فوق جفونى ألوان مضيئة مثل اللهب المتصـــاعد مـــن الكحـــول، وعندما فتحت عينى شاهدت إطار الدراجة المعدنى يتـــدحرج وقـــد أصـــبح الصبى ظلاً لنفسه وكان الرجال الثلاثة يهرولون بجانب إطار الدراجة، ثـــم اختفى ظل الصبى فجأة بينما استمر إطار الدراجة فى التدحرج حتى توقـــف بالقرب من البالوعة وعندئذ صرخت ثم ســـمعت عـــواء كلـــب، فأســـرعت وأمسكت بإطار الدراجة وتوجهت إلى الشاحنة المحترقة وظللت أنظر حولى فى كل اتجاه، لكننى لم أستطع أن أجد الصبى فى أى مكان، سألت التجَّـــار داخل أكشاكهم عن الصبى فأجابوا بأنهم لم يشاهدوا شيئًا غير عادى، ألقيـــت بإطار الدراجة فوق الشاحنة المليئة بالقاذورات والنفايات ثم جلست مرتبكـــا وقلقًا.

سمعت فى ذلك المساء أن رجلاً عجوزًا يعيش بالقرب من بيتنا كـــان يحدِّق فى سحلية أثناء احتسائه شراب الأوجوجورو، وكانت حرارة ما بعـــد الظهر ملتهبة عندما طار بالقرب من وجهه ملاك متوهج بـــاللون الأصـــفر فأصابه بالعمى.

سمعت الحكاية كلها لكننى لم أصدقها.

(٢)

كان الوقت ظهرًا فى يوم ما من الأيام حين تحرَّكت عجلات الــزمن وحدث شىء ما فى العالم، كنت نائمًا فوق الرصــيف الأســمنتى وعنــدما استيقظت لم أجد كابينة المصور الزجاجية وشاهدت شخصًا ما يشعل الحريق فى أكوام الزبالة المنتشرة فوق صندوق الشاحنة، أحاط اللهب بالشاحنة مــن كل اتجاه فسمعنا صوت فرقعة فى الجو أعقبها دخان أسود مروِّع، وفى نفس الظهيرة من ذلك اليوم غرق الشارع فى دخان الإطارات والفئران المحترقة.

كان الهرب من الدخان الكثيف ومحاولة تجنبه أمرًا عســيرًا بعــد أن امتلأ الهواء الساكن والساخن بغيمة من الضباب، ولم يكن من اليسير اجتناب تلك الروائح الخانقة التى أصابت باطن الحنجرة بالجفاف فلــم أقــدر علــى التنفس وأصبح لزامًا علىَّ أن أبتعد، مشيت فى الطرقات بــلا هــدف حتــى اقتربت من حانة مدام كوتو وسمعت الموسيقى ورأيت الناس وهم يرقصون، كانت الحانة مليئة بالغرباء ومشبعة برائحة عطر رخيص ورائحة عرق ونبيذ مسكوب وحرارة شديدة، وكانت مدام كوتو تغنى ببهجة وســط الأصــوات العالية والمرح الصاخب، لم تكن المقاعد والطاولات فــى مكانهــا المعتــاد وكانت المناديل الورقية مبللة بالعرق وملقاة فوق الأرض والعظام وأعقــاب السجائر منتشرة فى أرجاء الحانة، بحثت عن مدام كوتو لكننى لــم أشــاهد سوى رجال بقبعات زاهية ونساء يرتدين الأربطة والمشدات ويلوحن بمناديل بيضاء فى الهواء، ويرقصن ويضربن الأرض بأقدامهن على أنغام الموسيقى الصاخبة، كان الرجال غارقين فى العرق كأنهم قد خرجوا لتوهم من أنهــار مليئة بالبخار وكانت كرات من الرغاوى الصغيرة تعلو أطــراف أفــواههم، وكانت ملابس النساء مبللة بالعرق من الخلف ومن الأجزاء الواقعــة تحــت أذرعهن، ولم أستطع التعرُّف على المكان الذى تنبعث منه الموسيقى.

كان جو الحانة مختلفًا فشعرت للحظة بأننى دخلت حانة أخرى وأننى أصبحت فى عالم آخر فوق حافة الغابة، كانت الأطباق الورقية المليئة بالأرز المهروس وقطع من عظام الدجاج متناثرة فوق أرضية الحانة، وكانت النتائج معلقة فوق الجدران وإلى جوارها صور بعض الوجوه القاسية ذات العيون الفاترة والذقون غير الحليقة، وثمة صور أخرى لبعض الطقوس الغريبة المروعة والجمعيات السرية ولوحات ورسومات غريبة لأسماك ذات رؤوس كرءوس الطيور، وقطيع من الماعز شبيه بالإنسان وطيور لها أجساد كأجساد النساء، كانت بعض النتائج والتقاويم والصور تسقط فوق الأرض أحيانًا بعد أن يصطدم الراقصون فى الجدران من شدة الاندماج فى رقصاتهم.

كانوا جميعًا يرقصون بشغف وحماس شديدين وكانت سيدة من الأقزام تحدِّق فىَّ وهى جالسة إلى جوار الكاونتر، وأحد الرجال يطأ أصابع قدمى وهو يرقص وحين رفعت بصرى لم أجد المرأة القزم، كان الجو حارًا بشدة فتصبَّب وجهى وجسدى كله بالعرق، وفى تلك الأثناء أمسكتْ امرأة بيدى وأجبرتنى على الرقص معها ثم ضمتنى إليها حتى التصق وجهى بفخذيها ورائحة جسدها المثير؛ مما أفقدنى القدرة على التحكم فى قدمى فرحت أتمايل وأترنح أمامها كأننى شربت نوعًا جديدًا من النبيذ المعتق، أمسكت المرأة بوجهى وضمته إلى جسدها ثم بدأت تتمايل وترقص ببطء على أنغام الموسيقى فشعرت فجأة بنيران متوهجة تسرى فى دمى، ضحكت المرأة ودفعتنى بعيدًا عنها ثم ضمتنى مرة أخرى بحب وشغف غريبين، وعلى الرغم من أن قدمى كانتا فوق الأرض فقد شعرت بأننى أحلِّق فى الهواء وأن رأسى تدور كالدوامة وانتابتنى نوبة من التشنج وتقلَّصت عضلاتى وظللت هكذا حتى قذف شخص ما بالنبيذ فوق وجهى فوقعت منهارًا وسط أقدام الراقصين فى حالة من المتعة الحسية الغريبة، ساعدتنى المرأة على النهوض وكان العالم من حولى يتأرجح ولم أقدر على الرؤية بوضوح، ضحكت المرأة مرة أخرى وهى تدير جسدى باتجاهها ثم بدأت ترقص معى وهى تهز

فخذيها، وكان وجهى مبللاً بالنبيذ الذى تسلل إلى رقبتى وامتــزج بلزوجــة عرقى وبارتعاشة قدمى وجسدى المشبع بذلك الإحساس الممتع الغريب، كنت أستمع للموسيقى والذباب يطن حول وجهى حين وقف رجل قوى البنية بينى وبين المرأة، ونظر إلى وقال بصوت عال جدًا حيث سمعه الجميع: "انتبهــوا لنسائكم فها هو صبى صغير يريد أن يمارس الجنس!"

انفجرت النسوة فى الضحك وتوجهت أعينهن الكبيرة الجائعة ناحيتى، فهربت متسللاً وسط الزحام وأخفيت ارتباكى خلف الكاونتر وعندئذ عرفــت مصدر الموسيقى، كانت الموسيقى منبعثة من ذلك الجهاز الغريب الموضوع فوق الكاونتر، كان شكل الجهاز غريبًا وله بوق معدنى وكانــت الموســيقى المنبعثة منه تلهب خيال السحرة، بدا أن روحًا ما هى التى تدير الاســطوانة وتحرِّك الريشة، وكانت قطعة معدنية طويلة تنتهى بــإبرة مســتقرة فــوق الاسطوانة لا تكف عن الدوران فتنبعث الموسيقى من البوق دون أن يغنــى أحد فيه، فبدا لى أنه جهاز مثالى للاحتفــال بــالموتى ولمســاعدة الأرواح والساحرات الفاتنات على الرقص، هربت للمرة الثانية مــن ذلــك الشــىء الساحر العجيب فسقطت فى الخلف متعثرًا وحينئذ تقدمت امــرأة ذات رداء أحمر وأمسكتْ بى.

احتدم رنين الجهاز الغريب فى رأسى ثم ناولنى شخص ما قدحًا مــن النبيذ لم أتردد فى احتسائه فى جرعة واحدة، ملأوا كأسى بمزيد من النبيــذ فشربته عن آخره، كان وجه المرأة التى أمسكت بى مليئًا بكرات من الدهون وكانت رغاوى العرق تتخلل خصلات شعرها، وكانت ترقص علــى أنغــام الموسيقى المشبعة بالجوع والاشتياق كأنها تقيم شعائر الصلاة لإلــه الحيــاة الطيبة الجديد، كانت عيناها سوداوتين مظللتين وشفتاها حمراوتين بلون الدم ووجهها مبتسمًا على الدوام، وكانت تتزين بقلادات مرجانية بيضــاء حــول رقبتها، رقصتْ معى رقصة غريبة فجذبنى رجل آخر من بين ذراعيها وراح

يرقص معى حتى أصابنى الدوار، وحين هاجمنى الذباب وظل يتراقص أمام عينى أصبحت ضائعًا فى ذلك الزحام الغريب وتائهًا وسط تلك الكائنات الضخمة.

بدت لى الحانة أكثر اتساعًا أو أنها فى طريقها للاتساع، وراحت أجساد الرجال والنساء تتخبط فى بعضها البعض من شدة الزحام وعندما رأيت المرأة ذات الرداء الأحمر مرة أخرى شعرت بقليل من الارتياح، كانت ترقص مع رجل بدين من أصحاب النفوذ، دفع الرجل بنفسه ناحيتها وظل يتحسس فخذيها على أنغام الموسيقى الحارة المشبعة بالرغبة فتغيَّرت تعبيرات وجهها واتخذت لنفسها مظهرًا مختلفًا، وحين اكتشفت أنها مدام كوتو غرقت فى دهشتى لأن شعرها كان مصففًا بعناية كأن الرب قد أعاد تشكيله أثناء نومها، وكان وجهها ملطخًا بالبودرة والماكياج الصارخ وتفوح من جسدها البدين رائحة عطر نفاذة ومثيرة، اندهشت مدام كوتو لارتباكى فناولتنى قدحًا بلاستيكيًا أزرقًا مليئًا بالنبيذ، كانت ذبابة ميتة تطفو فوق رغوة القدح البلاستيكى فنفخت فيها حتى وقعت على الأرض ثم شربت القدح عن آخره، وعندئذ شعرت بالحانة كلها تدور حول نفسها.

صرخت قائلاً: "مدام كوتو".

انفجرت مدام كوتو فى الضحك فدفعها الرجل الذى كانت ترقص معه بقوة داخل حلبة الرقص ووسط صخب الموسيقى والأجساد المتراصة الثملة، أصبحت الإضاءة فى الحانة غريبة فاستطعت التعرُّف على الأبعاد الأخرى للحانة واكتشاف عالمها السرى، بدا الرجال والنساء كأنهم نسخة مكبرة من الأرواح التى اعتدت على رؤيتها فى الحانة والتى طالما حاولت أن تسرقنى من هذا العالم، كانت الأرواح تملك براعة فائقة فى التنكر وتعرف كثيرًا من أسراره، ولقد سمعت أصواتهم الرنانة وشممت رائحة عبيرهم لكننى وسط كل تلك الرقصات الماجنة وكل ذلك النشاط الصاخب شممت – أيضًا –

رائحة كريهة، وحين هبَّت الرياح وتسللت إلى داخل الحانة أصبحت الرائحة كريهة أكثر؛ وكأنها صادرة من مستنقع مليء بالحيوانات الميتة.

شدت النساء انتباهى بأياديهن المجزعة ومزاجهن الغريب وأجسادهن ذات البشرة المختلفة وعيونهن التوَّاقة الجائعة، كان الكثير من النسوة نحيلات وبدا أنهن يستمتعن بصحبة بعضهن البعض، لكن أفواههن كانت مفتولة بالكراهية والاشمئزاز وكن يتحدثن معى بطريقة حزينة لم أستطع أن أفهمها؛ مثلما كان يحدث حين كنت أقف عاجزًا عن تفسير تلك البقع فوق ألسنة بعض الرجال عندما يضحكون أو عندما كنت أعجز عن تفسير حالة الظمأ، كانت أجزاء من جلودهن تتلألأ كالصفائح، وحاولت أن أهرب من الحانة لكننى لم أستطع أن أجد طريقًا وسط الزحام فشربت مزيدًا من النبيذ وكانت الأجساد تتصادم ببعضها البعض مما أشعل الرغبة، واستطعت أن ألمح من بعيد يد رجل وهى تتحسس أفخاذ امرأة من تحت الطاولة.

ضربنى أحدهم فوق رأسى وأنا أنظر بخبث إلى يد الرجل فاستدرت إلى الناحية الأخرى ورأيت المرأة القزم، كانت امرأة قصيرة ذات أفخاذ بدينة وجسد ثقيل وأثداء كبيرة، ووجه جميل لفتاة فى الثانية عشرة من عمرها لكنه كان وجهًا حزينًا وكأنها فقدت أمها للتو، أمسكتْ بيدى وقادتنى وسط زحام الحانة وأسرارها إلى ما وراء الكاونتر حيث كان الجهاز ذو البوق يغنى، أجلستنى إلى جوارها فوق حصيرة من ريش الدجاج وحين أمعنت النظر إليها أدركت أن لها وجهًا يافعًا جميلاً وعينين شبيهتين بقطع اللوز الجميل، أمسكت المرأة بذراعى وتحدَّثت معى بصوت مدهش وكلام مثير حتى قالت إنها ستأخذنى معها وإنها ستحبنى إلى الأبد، وحين أخبرتنى بأنها متأكدة من عدم تذكرى لها ارتسمت علامات الحزن داخل عينيها وبدأت عيناى تحرقنى ثم توقفت الموسيقى، ظلت المرأة صامتة وصوَّبت نظراتها إلى الأرض حتى بدأت أنغام الموسيقى تنتشر فى أرجاء الحانة من جديد، فراحت تشد ذراعى

وتضايقنى بكلمات لم أستطع أن أفهمها، حاولت أن أنهض من فوق الحصيرة لكنها شدتنى إلى أسفل، وعندما حاولت أن أجرى بسرعة أمسكت بنطالى القصير من الخلف بذراعها المفتول وأعادتنى إلى مكانى، ثم جذبتنى إلى جوارها فأصابتنى رائحة جسدها المثير بالدوار، أصبح وجهها في مواجهة وجهى فأبصرت شفتيها المكتنزتين ووجهها الفتى الجميل، اقتربتْ منى أكثر وهمستْ لى بشىء لم أسمعه، كانت فى انتظار إجابتى على السؤال الذى لم أسمعه، وحين أدركتْ بأننى أحدِّق فيها بشرود وبلا إدراك راحت تكرر ما همستْ به: "هل سوف تتزوجنى؟"

نظرت إليها بعينين طارفتين نصف مفتوحتين وقلت: "لا".

ابتسمتْ فاتسعت شفتاها وأصبحتا كأنهما مصنوعتان من مادة مطاطية مرنة، ثم ألقت برأسها إلى الوراء وراحت تضحك ضحكات ساخرة قوية ومفاجئة شعرت بعدها بشىء من الفزع، اكتسى لسانها بالبقع أيضًا مثل الرجال فانكشف فمها عن خرزات مرجانية بدلاً من الأسنان، صرخت وبدأت المرأة القزم فى البكاء لكننى لم أهتم وسارعت بالاندفاع والاصطدام بالكاونتر؛ فانطلق صوت كريه من الجهاز وواصلت اندفاعى وانطلاقى حتى شاهدت الباب فهربت من خلاله إلى الخارج.

كانت دقات قلبى سريعة ومتلاحقة فتوقفت فى الفضاء الشاسع وتحت قبة السماء المفتوحة لالتقاط أنفاسى، وكانت قدماى ترتعشان وعندما لمحت مدام كوتو قادمة من بعيد كنت لا أزال أتنفس بصعوبة لكننى لم أتوقف عن الجرى، تبعتنى مدام كوتو بردائها الأحمر وظلت تجرى بكل قوتها وهى حافية القدمين، حتى سقطت الباروكة من فوق رأسها فظهر شعرها الحقيقى الخشن بخصلاته المجعدة، خفت منها لكنها أمسكتْ بى قبل أن أصل إلى الشارع، وبعد أن بذلت مجهودًا كبيرًا ثم سحبتنى وأعادتنى إلى الحانة وهى تضحك وتقول بطريقة رقيقة وبمودة: "أنت دائمًا تهرب منى".

شاهدت جرحين بلون أسود فوق وجهها وكأنها وضعت الرماد فوقهما للتو، كى يتوقف النزيف فبدا وجهها مختلفاً.

قالت بصوت خفيض وهى تنحنى وتلتقط الباروكة: "أنت السبب فى وقوع الباروكة".

وصلنا إلى الباب فدفعتنى إلى داخل الحانة وسدَّت الطريق أمامى حتى لا أهرب مرة أخرى ثم ارتدت الباروكة فبدت فى الحال كأنها فتاة يافعة وقالت لى: "هذه حفلة فاذهب واستمتع بوقتك وعليك تقديم المشروبات للحاضرين".

أغلقتْ باب الفناء خلفها وكان الجو بالداخل مشحوناً بمزيد من الناس الذين جاءوا لحضور الاحتفال، فلم أعرف الطريق التى يجب أن أسلكها وسط كل ذلك الزحام المحيط بى من كل الجوانب، كان الصخب مدويًا وتمنيت بينى وبين نفسى ألا تقع عينا المرأة القزم علىَّ، نظرت حولى بحثًا عنها لكننى لم أستطع رؤيتها كما أنها لم تعد موجودة خلف الكاونتر، فكان لا بد من القيام بمجهود كبير للوصول إلى كل أركان الحانة للبحث عنها ومعرفة مكانها قبل أن تعرف هى مكانى حتى يتسنى لى الهرب فى الوقت المناسب، عدت وجلست بالقرب من الكاونتر دون أن أفعل شيئًا سوى التفكير فى كيفية الهرب.

كان الرجال يرقصون مع النساء بطريقة جنونية ومثيرة وهم غارقون فى العرق دون أن تتوقف النساء عن هز أجسادهن ودفع أفخاذهن باتجاه الرجال، وفى لحظة مفاجئة ظهرت مدام كوتو فى شكل مختلف وهى ترتدى تنورة مخططة باللون الأبيض والأسود وقميص أصفر، كانت تلوح بالجريدة أمام وجهها لجلب الهواء وكان شعرها متلألئًا بوميض ذهبى باهت، ثم أصبح الأمر كله باعثًا على الحيرة والدهشة خاصة بعد أن خلع بعض الرجال قمصانهم وظهرت عضلات أجسادهم المليئة بالندوب، كان الرجال مخمورين

بما فيه الكفاية فاحتقنت عيونهم وظلوا يترنحــون فــى رقصــاتهم، وحــين صرخت واحدة من النساء لم ينتبه لصراخها أحد.

أصبحت إحدى النساء مخمورة بشدة فسحبها أحــد الرجــال ناحيتــه وضمها إلى خصره وراح يتحسس أردافها؛ فبدأت المرأة تتلــوى بطريقــة مثيرة وعندئذ شرع الرجل فى الاحتكاك بأفخاذها حتى التصق بهــا تمامًــا، وكانت أثداء المرأة مبللة من تحت قميصها.

كانت الرياح بالخارج قوية وكانت الموسيقى داخل الحانة تعبــر عــن الرغبة فى التحرر من المعاناة، ظهر شبح وسط المحتفلين ورفرفت جــدائل الستارة من شدة الرياح، دخل طائر أصفر مع الهواء إلــى فضــاء الحانــة المتأجج بالحرارة والإثارة، ثم سادت الفوضى فجأةٍ وشملت كل مكــان فــى الحانة مما أصاب الطائرِ بنوع من الذعر جعله يحلِّق عند السقف ويتخبَّط فى الجدران حتى سقط دائخًا فوق شعر المرأة، صرخت المــرأة مــن الخــوف فحاول الطائر أن يطير بعيدًا لكن مخالبه اشتبكت بشعر المرأة مما زاد مــن صراخها المدوى، تحسستْ شعر رأسها فشعرتْ بالطائر المرتجــف فــازداد إحساسها بالخوف ولم تستطعِ أن تفهم شيئًا، هزَّت رأسها إلى الأمام وبــدأت تصرخ من جديد كأن شيطانًا ما قد تلبَّسها، انتقل خوفها إلى كل الحاضــرين فتبعثروا فى أرجاء الحانة وهم يتطلعون إلى الطائر وهو يحاول الفكاك مــن خصلات شعرها، ورأوا أن ما يحدث أمرٌ ينذر بالسوء.

توقفت المرأة عن الصراخ وكانت عيناها مفتوحتين عن آخرهما وهى تزعق وتقول: "ساعدونى".

لم يتقدم أحد لمساعدتها وكانت مدام كوتو تضع يديها فوق ثدييها وهى واقفة بالقرب من الباب، وكانت ملامح وجهها تــوحى بتعبيــرات الدهشــة وعلامات التعجب، هزت المرأة رأسها وأطلقت صرخة مدوية أصابت الطائر المسكين بالفزع؛ فراح يحرِّك جناحيه بقوة حتى تساقط الريش مــن جســده،

وبعد أن شعرت المرأة باليأس لجأت أخيرًا إلى خلع الباروكة وألقت بها فـــى الهواء، كان الطائر لا يزال متشبثًا بالباروكة، اصطدمت الباروكة بالحـــائط فاستطاع الطائر أن ينتزع نفسه منها ثم سقط وسط حلبة الرقص مرتعشًـــا، سادت لحظة من الصمت استرد الطائر بعدها عافيته فبدأ الناس فى الانـــدفاع والجرى، خوفًا من الطائر الذى طار حتى اصطدم بالسـقف ووقــع علـــى الأرض، ثم راح يطير ويقع بين فضاء الحانة المزدحم حتى وقع منهارًا فوق الكاونتر وظل قابعًا إلى جوار بوق جهاز الموسـيقى حتـــى اسـتقر فــوق الاسطوانة.

صاح شخص ما قائلاً: "لقد هبط فوق الجرامافون".

ظل الطائر ساكنًا بلا حراك فأدركت أن تلك هى فرصـــتى المناســبة للهرب، اندفعتْ مدام كوتو فى تلك اللحظة صـــوب الجرامـــافون وأمســكتْ الطائر بإحكام ثم سارعت بالخروج من الحانة من باب الفناء الخلفى، مضى الشبح خلفها فأطلق المحتفلون صرخة أخرى للتعبير عن ابتهاجهم ورأوا أن ذلك أمرٌ حسنٌ.

خرجت وراء مدام كوتو لمتابعتها لكننى لم أجدها فى الفناء الخلفـــى، فتوجهت إلى حجرتها ووضعت أذنى فوق الباب حيث سمعت غناءً صـــاخبًا ورنين جرس ودقات ناقوس وصوتًا عذبًا، لقد أصبح الطـــائر جـــزءًا مـــن مجموعة أساطيرها، توقفت عن الإصغاء وعدت إلى الحانة فوجدت الجميـــع صامتًا والموسيقى متوقفة، ثم عادت مدام كوتو للظهور بعد لحظة قصـــيرة وقالت كلامًا مختصرًا، رحل بعده الرجال فى مجموعـــات وهـــم يحملـــون الجرامافون ويتحدثون بأصوات هادئة كما يحدث عند وقوع حادث جلل، ثـــم تبعتهم النساء لكنهم جميعًا لم يتوقفوا عن النظر إلى الوراء.

(٣)

مشيت فى الشارع جيئة وذهابًا دون أن أعرف مقصدى، وكانت رائحة الفئران الميتة لا تزال عالقة بالجو ثم مضيت فى سيرى بمحاذاة حافة الغابة، واكتشفت تلك الممرات التى تحولت إلى شوارع، وبعد فترة طويلة من التجوال وجدت نفسى فجأة فى عالم لم أكن أعرف شيئًا عن وجوده من قبل، عالم خال من الأشجار، عالم تلاشت فيه الغابة ولم يتبق منها سوى بعض جذوع الأشجار والدم النازف فى كل مكان، وكان بعض العمال بخوذاتهم الصفراء يتحركون فى كل اتجاه وعدد وفير من القوائم الخشبية منتصبًا فوق الأرض وحزمة من الأسلاك ممتدة فى الهواء، تجمَّع الأطفال وراحوا يراقبون تلك الأحداث الغريبة، وحين سألتهم عما يحدث أجابونى بأن الرجال يوصلون الكهرباء ثم أشاروا إلى الأبراج المشيدة فى الفضاءات المفتوحة الواسعة وإلى الخيام، لكننى لم أعرف - أو أفهم شيئًا - مما يشيرون إليه ويتحدثون عنه فاستسلمت لمشاهداتى ودهشتى.

كانت الخيام والشاحنات منتشرة فى كل مكان، وفى إحدى الخيام كان المصباح الكهربائى متوهجًا بالضياء، تسلَّل أحد الأولاد إلى داخل الخيمة لإطفاء ذلك الضوء المتوهج وقبل أن يتمكن من فعلته شاهده أحد العمال وأخرجه من الخيمة، ظللنا نتطلع إلى الرجل فى انتظار أن يفعل شيئًا غريبًا مع تلك الإضاءة المتوهجة من المصباح لكنه لم يفعل شيئًا سوى إغلاق مدخل الخيمة، ظللنا فى حالة من الترقب انتظارًا لحدوث شىء غير عادى، ولم تتوقف محاولاتنا الجادة فى السيطرة على شغفنا الشديد، وبينما كنا ننظر بشغف رفرف مدخل الخيمة وانفتح مرة أخرى وشاهدنا الرجل وهو يخرج وحينئذ لم نصدق أعيننا فقد تغير لون الرجل إلى اللون الأصفر الشاحب المبقع باللون الوردى، نظرنا إليه بدهشة كبيرة بينما كان يترنح فى مشيته

بشعره الشبيه بالقش وكومات الذرة، وكانت عيناه ظاهرتين من تحت نظارة الشمس السوداء، ويرتدى شورتًا واسعًا وقبعة ذات حافـــة كبيـــرة وقميصًـــا أبيضًا منتفخًا فوق جسده، خرج الرجل من الخيمة فازدادت دهشتنا وظنَّ كل منا أن الشياطين قد اقتحمت المكان؛ فجرينا بعيدًا وصرخنا ثم عـــدنا مـــرة أخرى.

لم نتوقف عن التحديق فى الرجل الأبيض وكنا نتوقع فى كل لحظة أن يطير أو يقفز أو يتشقلب فى الهواء، لكنه لم يفعل أى شيء من ذلك وبدا أنه فى حالة مزاجية سيئة، أصدر أوامره بلغة غير مألوفة بالنسبة لنا فقفز العمال بسرعة ونفذوا أوامره فى الحال، وعندما جلس فوق المقعد سارع أحد العمال بإحضار مظلة وظل ممسكًا بها فوق رأسه، توقَّفت سحلية أمامه ثـــم مالـــت برأسها وظلت تنظر إليه مدة طويلة، لكنه سحق رأسها بقدمـــه فـــى حركـــة سريعة وأصدر أمره لأحد العمال أن يلقى بجثتها بعيدًا، كنا لا نزال نراقبـــه وننظر إليه وساورنا اعتقاد بأن لون بشرته سيتغيَّر فى أى لحظة من تـــأثير الهواء الساخن، جاءت سحلية أخرى ووقفت فى مواجهته وهى تهز رأسها ثم تحرَّكت من مكانها ودارت حوله مرتين متتاليتين، تبـــادل معنـــا النظـــرات وعندما أصدر أوامره إلى العمال بإبعادنا ومطاردتنا بالعصى وجلدنا فـــوق ظهورنا، انتابتنى كراهية شديدة تجاه ذلك الرجل الأبيض، أصبحنا نراقبه من بعيد فكان الظل الصادر من المظلة باهتًا وكانت الشمس حارقة وغير رحيمة معه، لقد كرهته بشدة حتى أننى تحدثت إلى الرياح وطلبت منها أن تثور وما هو إلا وقت قصير حتى اشتَد الهواء وهبَّت الريـــاح قويـــة؛ فانحنـــت قمـــة الأشجار على إثرها وامتلأ الهواء بالتراب وأطاح بالمظلة بعيـــدًا عـــن يـــد العامل.

طاف الذباب حول أنفه فأصابه انزعاج شديد كما احتشد النمل الأحمر بأعداد كثيرة حول مقعده؛ فسارع بسحقه وحين ضحكنا ظنَّ أننا نسخر منـــه

فقدَّم بعض المال إلى العمال وأشار لهم بملاحقتنا وإبعادنـــا، تــرك العمـــال الأسلاك من بين أياديهم واتجهوا ناحيتنا فتبعثرنا فى كل اتجاه وجرينا؛ لأننا كنا نعرف بأنهم لو أمسكوا بنا وأعادونا إلى الرجل الأبيض فإنه لن يتردد فى القضاء علينا.

هرولت مسرعًا عبر طرقات الغابة المتشعبة قاصدًا البيت، وفيما تبقى من ذلك اليوم لم أبرح شارعنا المألوف الآمن.

(٤)

عادت أمى فى مساء ذلك اليوم بعد الانتهاء من جولة البيع فحكيت لها عن الرجل الأبيض، وعندئذ أظهرت اهتمامًا بالغًا وتلألأت عيناها ثم قالت وهى تحاول إخفاء اهتمامها ودهشتها: "جاء الفتوات وقطاع الطرق اليوم مرة أخرى، لقد اقترب موعد الانتخابات".

- إن ما شاهدته فى تلك اللحظة كان أكبر مما أتصور.

سألتنى أمى بشغف: "كيف يمكن للرجل أن يصبح رجلين؟ وكيف يمكن للرجل الأسود أن يتحوّل إلى رجل أبيض؟"

- بالسحر.
- وما هو السحر؟

أخبرتها عن المصباح المتوهج بالإضاءة وعن أسلاك الكهرباء، وحكيت لها عن الطريقة التى قتل بها الرجل الأبيض السحلية، وعن رغبته فى الإمساك بنا وإبعادنا عن المكان فقالت: "ماذا كنتم تفعلون هناك؟"

لم أقل شيئًا وبدت أمى هزيلة وقلقة وكانت تشكو من الصداع، رقدتْ فوق السرير فلاحظت جرحًا نازفًا فوق كاحلها مليئًا بالصديد، وكان لون الدم النازف منها أسودًا على غير العادة فأخبرتها به، لكنها لم تبد أى اهتمام ولم تتحرَّك، حاول الذباب أن يستقر فوق الجرح لكننى أزحته بعيدًا، فتحتْ أمى عينيها وقالت بصوت مضطرب: "اذهب لتلعب".

بقيت إلى جوار الباب وتكاثر الذباب فوق جرحها ثم شاهدت ارتعاشة قدمها، رفعتْ رأسها وكانت على وشك أن تصيح بشىء ما قبل أن تسارع بالخروج من الحجرة.

كانت الشمس فى طريقها للمغيب وكان الناس يتشاجرون فى الشارع بالقرب من الشاحنة، ويتحركون فى اتجاهات مختلفة ويتبادلون تهديد بعضهم البعض بأصوات عالية، ثم أظلمت الدنيا وحلَّقت الطيور فى الهواء وانتشر الغبار والدخان فى السماء وهبَّت الرياح بقوة فى شارعنا؛ فانطلقت النفايات عبر المكان واختفت رائحة الفئران والإطارات المحترقة وبدأت النجوم تظهر واحدة بعد الأخرى ببطء شديد.

ظللنا طوال تلك الليلة فى انتظار عودة أبى وبدا أن حياتنا لم تتوقف عن الدوران داخل نفس الدائرة من الكرب والمعاناة، نهضتْ أمى بعد قسط كاف من النوم ووضعت بعض رماد الخشب المحترق فوق جرحها دون أن يبدو على وجهها أى إحساس بالألم، ومضت لتجهيز الطعام وتنظيف الحجرة ثم راحت تحصى نقودها داخل العلبة الصفيحية، واستطاعت أن تحسب مكسبها رغم الظلام، وبعد الانتهاء من عد النقود بدأت فى إصلاح ملابسنا وتثبيت الأزرار وإصلاح الثقوب فى بنطلون أبى، كانت أمى صامتة وهى تعمل بتركيز غير عادى، وكانت جبهتها متجعدة مثل شخص يعانى من ألم الانتظار، انتهت من إصلاح بنطلون أبى وبدأت فى إصلاح بنطلونى وحين نظرت إليه لم يكن أمامها من خيار سوى انتزاع الجيوب الخلفية من البنطلون؛ لترقيع الثقوب الكثيرة بين القدمين ثم وضعت أزرارًا كثيرة ومختلفة فى قمصانى لكنها لم تتحدث قطُّ طوال فترة عملها، أصبحت الإضاءة ضعيفة جدًا فى الحجرة فأغلقت النوافذ لحثها على استخدام الشمعة، غير أنها واصلت عملها فى الظلام وعندما فرغت من كل شىء تنهدت بصوت مسموع ثم وضعت الملابس فوق الحبل، كان الحبل مليئًا بالكثير من الفوط البالية والقمصان القديمة والبنطلونات واللفافات ومختلف الخرق البالية، فبدا أنه جاهز للوقوع فى أية لحظة، جلست أمى بلا حراك ثم قالت: "امسح حذاء أبيك".

لم يكن تنظيف حذاء أبى فى الحقيقة هو ما تعنيه بالضبط؛ لكنها أرادت أن تتساءل عما حدث لأبى بطريقة غير مباشرة، بحثت عن الحذاء ونظفتـه فى الظلام ثم وضعته فى ركن الحجرة ومضيت لأغسل يدى وعندما عدت لم أجد أمى بالحجرة، كانت جالسة فوق الرصيف الأسمنتى فى مقدمـة الحـى وهى تلوح بيديها لإزاحة الذباب الصغير والحشرات الطائرة من أمام وجهها، وكانت تضرب الناموس المحيط بجسدها من كل اتجاه، كـان الليـل كثيفًا والسماء فى كامل زرقتها والهواء معتدلاً فى برودته لكنـه ينـذر بـالمطر، وهناك على البعد – وباتجاه مركز المدينة – كان ثمة ضوء أبيض يواصـل ومضاته صوب السماء، شاركنا بعض سكان منطقتنـا الجلـوس بالخـارج وراحوا يتبادلون أحاديثَ جانبية خاصة.

قال أحدهم: "هل حقًا أن بعض العاهرات يعملن مع مدام كوتـو فـى حانتها هذه الأيام؟"

– ذلك ما سمعته.

– وأنها اشتركت مع الحاضرين فى الاحتفال الراقص.

– ليس ذلك فقط.

– وماذا أيضًا؟

– لقد حصلت منهم على وعد بالتعاقد.

– التعاقد على أى شىء؟

– على احتفالاتهم واجتماعاتهم.

– سنتابعها وسوف تصبح امرأة ثرية.

– إنها ثرية بالفعل.

– وكيف تعرف؟

– يقول الناس إنها سوف تشترى سيارة.

– سيارة؟

– وسوف تنعم بالحصول على الكهرباء.

- كهرباء؟
- لقد دفعت مقدمًا لشراء كميات كثيرة من الشرائط وأربطة المشـدات والأحذية.
- كميات من الشرائط والأربطة؟
- لعمل ماذا؟
- من أجل حياكة الثياب للحاضرين.
- وكيف دبرت أمرها؟
- إنها تعرف ما تريد.
- نحن نعرف جميعًا يا صديقى ما نريد، لكن من منا يستطيع الحصول على ما يريد؟
- نعم، من يستطيع؟
- لا بد أنها تمارس سحرًا ما.
- أو أنها تملك تعويذة سحرية.
- وربما تكون على اتصال بمجتمع سرى.
- وقد تكون كل هذه الأشياء الثلاثة معًا.
- بالإضافة إلى أشياء أخرى.

توقفوا جميعًا عن الكلام وراحوا يتأملون فى الليـل ويفكـرون فـى أحوالهم، وفى ذلك الفقر الذى يسيطر على المنطقة كلها ثم تنهد أحدهم وقال: "لماذا تبدو الحياة هكذا، إيه؟"

- لا أعرف.
- بعض الناس يملكون الكثير حتى أن كلابهم تأكل طعامًا أفضل مـن طعامنا، بينما نحن نعانى ونتعذب حتى الموت دون أن نجرؤ علـى فعل أى شىء أو قوله.
- وحتى إذا قلنا أى شىء فإن أحدًا لن يستمع إلينا، أليس كذلك؟

قال واحد منهم: "الله يسمعنا".

كان بقية الناس صامتين حين هبَّت الرياح حولنا وجلبت معها الرمال والغبار والصحف المتناثرة فى الهواء، فأصبح سقوط الأمطار أمرًا محتومًا.

- ستحدث معجزة فى يوم ما وسوف يزيل الرب ذلك الشر من فوق وجه الأرض.
- إن الوقت الذى سيختاره الرب لنجدتنا هو الوقت المناسب.
- أتمنى أن يتفق وقت الرب مع وقتنا.
- الله أعلم.
- ذلك ما كان أخى يردده دائمًا قبل وفاته بشهرين.

قال أحدهم بانفعال مفاجئ: "سوف يأتى وقتنا يا صديقى".

التزموا الصمت مرة أخرى، تحرَّكت أمى وأوشكتْ أن تقول شيئًا لكنها لم تفعل، وظلت صامتة ثم نهضت وأمسكت بيدى ومضينا فى طريقنا عبر الشارع الكئيب نحو الطريق الرئيسية، حاولت أمى أن تجعل الأمر مجرد نزهة بريئة لكننى شعرت بالقلق الشديد الذى تعانى منه.

ارتفعت كل الأصوات من حولنا بالضحك والألم ومررنا بقطعة أرض صغيرة مليئة بالشجيرات، كان يتردد من خلفها صوت غناء ورقص الكنيسة الجديدة، كان الغناء مشوبًا بالخوف والآمال المثيرة للفزع والاحتياج الشديد والندم القاتل، فشعرت أن العالم موشك على الانهيار وازداد خوفى من الحياة مع ذلك الغناء القادم من الكنيسة، أصبحنا بعيدين عن مصدر الصوت لكن صدى الصوت ظل يلاحقنا وقتًا طويلاً، وبعد أن تقدمنا كثيرًا حتى وصلنا إلى بستان من الأشجار كانت الأرض تنبض بمزيد من الغناء والرقص والتراتيل؛ لكنها تراتيل مختلفة وأكثر عمقًا ورقص أكثر نشاطًا وقوة مما جعل الأرض نفسها تتحرك من تحت قدمينا، وكان الغناء مليئًا بالأسرار والأصوات الخائفة فبدا الأمر كله كأنه احتفال بألم قديم ومعاناة سحيقة ترفض

التخلى عن أصحابها وحزن قائم يجدد نفسه فى الليل، كانوا يتعبدون فى ضريح المعاناة وكنا نستمع إليهم وهم يصرخون ويتوسلون لتحويل آلامهم إلى قوة، كما استطعنا أن نسمع الأذكار والتعاويذ والنباح طلبًا للنقود وأملاً فى تغيير قدرهم دون التوقف عن مناشدة آلهة الثأر وآلهة الثروة وآلهة الرحمة، فأصابنى كل ذلك بمزيد من الخوف والرهبة من الحياة وعرفت أنهم أيضًا يعانون من الجوع والبؤس، غير أن أمى لم تكن قلقة وبدا أنها لم تسمعهم أو تنتبه لوجودهم؛ فقد كانت عيناها المشرقتان تبحثان فى أركان الشارع وفى الواجهات فى محاولة للعثور على أبى، بعد أن مشينا بعض الوقت وحين رفع الهواء جلبابها طلبت منها أن تحكى لى شيئًا عن الناس ذوى البشرة البيضاء، فلم تقل شيئًا فى بادىء الأمر ثم قالت بعد لحظة قصيرة: "سوف أخبرك بحكاية فى وقت آخر".

لم يتحدث أحدنا إلى الآخر وبدا أنها غيَّرت رأيها، لكنها قالت بعد لحظة من الصمت وكأنها تتحدث إلى الرياح: "عندما جاء أولئك البيض إلى بلادنا أول مرة كنا قد رحلنا إلى القمر ووصلنا إلى كل النجوم الكبيرة، وكانوا يأتون إلينا فى الماضى ليتعلموا منا، لقد قال لى أبى إننا علمناهم الحساب وأسرار النجوم وقدمنا لهم بعض آلهتنا، لقد شاركونا معرفتنا ورحبنا بهم لكنهم نسوا كل شىء وتناسوا أشياء كثيرة، لقد نسوا أننا جميعًا إخوة وأخوات، وأن السود هم أجداد الجنس البشرى، وعندما جاءوا فى المرة التالية أحضروا معهم البنادق وسلبوا أرضنا وحرقوا آلهتنا ثم اقتادوا الكثير من أبناء شعبنا للعمل بوصفهم عبيدًا فى البلاد البعيدة، إنهم جشعون لأنهم يريدون امتلاك العالم كله ويرغبون فى قهر كل شىء حتى أن بعضهم يعتقد فى قدرته على قتل الإله، كما أن بعضهم الآخر يعبد الآلات، إنهم يسيئون استخدام القوة التى منحنا الله إياها جميعًا، لكنهم ليسوا جميعًا أشرارًا وإذا أردت أن تتعلم منهم فعليك أن تحب العالم".

فكرت فيما قالته أمى فاندهشت كثيرًا وتأثرت من عذوبة صوتها وهى تقول: "هل تعرف ما قالته لى أمى فى الحلم؟"

- لا.

- قالت إن هناك سببًا وراء اتساع العالم وشكله الكروى وأن الجمال والعدالة سوف يحكمان ذلك العالم، ذلك ما قالته أمى.

مضينا فى طريقنا دون أن نتبادل الحديث لكننى كنت راغبًا فى توجيه كثير من الأسئلة لها، تغيَّر مزاجها فجأة وأصبحتْ أكثر قوة ونشاطًا فاتسعت خطواتها وانتصبت أذناها، كانت الرياح في مواجهتنا وأحاطنا الليل بظلامه الغامض من كل اتجاه وعندئذ سمعت صوتًا يصرخ من بعيد، كان الصوت قادمًا من البيوت ذات الأسقف المصنوعة من القش أو من أكواخ الزنك، وربما من البيوت الريفية الطينية ذات الطابق الواحد أو من تلك البيوت الصفيحية أو من أبواب الأرضِ الغامضة، توقفتْ أمى عند تقاطع الطريق، وكانت الرياح قوية والليل حالكًا وبدت المنطقة كلها معبأة برائحة الشقاء والموت، حتى خيل لى أنها تنتهد من الألم، كانت الكلاب تتقاتل بجوار البئر، وبعيدًا عن إحدى الطرقات المبهمة وفى عمق الظلام ظهرت امرأة بثياب فضفاضة بيضاء تحمل فانوسًا فوق رأسها، وكانت عيناها مشرقتين ومتلألئتين كأنهما مرصعتان بالجواهر وشعرها غير مرتب، وقد خامرنى شعور ما بأنها واحدة من تلك الكاهنات المقدسات.

هتفت المرأة قائلة: "إن حياتنا تتمثل فى الرب والرب هو الضياء، إن العالم ملىء بالشرور فامضوا فى طريقكم وإلا فإنكم ستتلاشون فى ظلامكم".

أضافت بصوتها الحاد: "ابقوا فى حالة من اليقظة يا أيها الضعفاء، وانتبهوا لأرواحكم فسوف تأتى الشرور من المدينة الكبيرة المنغمسة فى الترف والآثام وتقتلع هويتكم، اسألوا عن النور والضياء كى تتغير حياتكم وتستطيعوا التخلص من رقدتكم".

اختلط صوتها بالرياح وعتمة الظلام واستطعنا فى الحال رؤية النـــور المنبعث من الفانوس، وما هى إلا لحظات قليلة حتى ظهر رجل يترنح مـــن نفس الطريق، استرد الرجل عافيته بعد أن كان يعرج فى مشيته وراح يقسم ويطلق السباب واللعنات، سارعت أمى بالجرى نحـــوه واحتضـــانه دون أن ترى وجهه؛ إذ لم تكن أمى فى حاجة للتأكد من أنه أبى، كان شعره غارقًـــا فى الطين ولم يسمح لأحد بمساعدته رغم أنه كان يتـــرنح، كانـــت ملابســـه ممزقة وصدره يواصل الصعود والهبوط وعيناه ساكنتين وخاليتين مـــن أى تعبير، ورائحة الدم والشراب تفوح من جسده.

تمتم قائلاً: "اشكروا تلك المرأة نيابة عنى، لقد أنقذت حيـــاتى بعـــد أن أوشكوا على قتلى، لقد ظهرت فى الوقت المناسب فاعتقدوا أنها مـــلاك، ثـــم صرخوا ولاذوا بالفرار".

فكرنا فى الأمر وتساءلنا عن موضع النور فى فانوس المرأة الذى لـــم يعد مضيئًا، واستطعنا فقط أن نستمع إلى صوتها ومن مكان ما بعيد كانـــت بعض الأصوات تتمنى قدوم زمن الحيرة والارتباك، كان صـــوتها يـــرتعش وسط هواء الليل مما أفقدنا القدرة على تحديـــد موقعهـــا الصـــحيح، لكنهـــا استطاعت أن تفتح أبواب آذاننا على مئات من الأماكن المختلفة فى جـــراح قريتنا والقرى المجاورة لنا.

قال أبى بأسى: "إذا لم تستطيعوا اليوم أن تقدموا لها الشكر فعليكم بفعل ذلك غدًا".

أمسكتْ أمى بأبى من إحدى ذراعيه لمساعدته على المشى رغم رفضه لأى مساعدة، وقد سمعتها وهى تتنهد وتقول له: "أنت تنزف".

- كانوا على وشك أن يذبحونى وهذا النزيف ليس سوى جرح بســـيط، كانوا سيقتلون أباك يا أزارو لأننى لم أوافق على التصويت لصالحهم و...

فقد القدرة على مواصلة الكلام فأمسكت بذراعه الأخرى، احتشد الناس فى الظلام وأعلن الليل عن حزننا وعن المحنة التى نعانى منها، كان النـــاس يعرفون ما حدث وكان الجوع والعرق باديين فوق وجوههم وهم يحدِّقون فينا ويتتبعوننا عبر الشارع مؤكدين لنا مدى الشجاعة والقوة التى نتمتــع بهــا، قدَّمت أمى الشكر لهم وانفجرت إحدى النساء فى البكاء، بينما ظل أبى يعرج ويحاول إخفاء الألم من فوق وجهه، هبَّت الرياح فى مواجهتنا وبدأت النساء تغنى على إيقاع خطواتنا وعندما وصلنا إلى البيت قدَّمت أمى الشكر لهم مرة أخرى فعادوا فى الظلام وتركونا وحدنا نتعايش مع شقائنا بينما كــان بقيــة العالم نائمًا.

وضعت أمى الماء فوق النار ليغلى وضمدت جراح أبــى وعالجــت الخدوش والكدمات المنتشرة فوق جسده، وحين أخبرنا عن حكايته أدركنا أنها حكاية مألوفة وعادية، لقد اقترب منه بعض الرجال السكارى وســألوه عــن الشخص أو الحزب الذى سننتخبه فأجاب أبى بأنه لن ينتخب أحدًا؛ وعندئــذ هجموا عليه وسلبوه نقوده وكانوا على وشك أن يفعلوا ما هو أســوأ، لــولا ظهور تلك المرأة التى أجبرتهم على الفرار.

انتهى أبى من سرد حكايته فجلسنا صامتين وقــدمت أمــى الطعــام، وكانت هى المرة الأولى منذ زمن بعيد التى ينام فيها أبى مباشرة بعد الطعام دون أن يطيل السهر والتفكير ودون أن يدخن كثيرًا من السجائر.

استيقظ فى الصباح التالى وهو يشكو من آلام فــى المعــدة وكانــت الضمادات قد التصقت بجروحه التى كانت تنزف فى الليل، اضطرت أمــى لصب الماء الدافئ فوق الجروح فانفصلت الضمادات عن جلــده الجــاف، وعاودته أحزانه ثم مضى كعادته للعمل.

(٥)

أتذكر – بوضوح – ذلك اليوم حين كنت عائدًا من المدرسة وسمعت انفجارًا مدويًا عبر الغابة، كما لو أن كل الأشجار قد سقطت فى وقت واحد، لقد تغيَّر كل شىء بسرعة وأصبحت السماء قريبة من الأرض وازدادت حدة الرياح حتى فقدنا القدرة على التنفس، لم أستطع أن أتحرك ثم أصبح الجو كئيبًا، ودوى الانفجار مرة أخرى وثمة ضوء مشرق كان يلقى بظلاله فوق كل شىء، وسرعان ما انشقت السماء إلى جزأين، وتحول الطريق إلى أرض خالية من الأشجار.

فى لحظة خاطفة أصبحت الدنيا هادئة وتحولت إلى مجرد صورة من صنع الإله، واستحالت الأرض منزوعة الأشجار إلى عالم جديد، وبعيدًا عن الضوء المشرق ظهرت فى الهواء بعض الأرواح ذات الوجوه الحزينة والرءوس المتدلية من شدة الإرهاق، سقطت الأرواح فوق الأرض وراحت تقفز وتطفو وسط هذه الدنيا الهادئة ثم عبرت بالقرب منى ومن خلالى، فأبصرت عيونها البراقة كالماس وعندما حدث انفجار آخر وتلاه ضوء آخر مبهر اختفت الأرواح وسكن الهواء وامتلأت السماء بالسحب الكثيفة البيضاء، ثم غرقت الأرض فى سيل من المياه الجارفة.

تحولت السحب إلى أمطار فغرقت الأرض تمامًا، وتغيَّر كل شىء فجأة من حالة الثبات والجمود إلى حالة من الاضطراب والفوضى، وكأن سحرًا ما قد انطلق من مخبئه، ضربت الرياح أغصان الأشجار فصرخ الناس من الذعر وسارعوا بالفرار واندفع بعضهم لجمع الملابس من فوق حبال الغسيل، بينما سارع البعض الآخر بتغطية الملابس، لكن كثيرًا منهم أحضر الجرادل ووضعها فى المكان المناسب لجمع أكبر كمية من الماء النقى، وكانت فرصة

عظيمة للأطفال بعد أن لفحتهم حرارة الشمس الشديدة طوال فترة ما بعد الظهر والتى كانت فترة مملة بالنسبة لهم، صاح الأطفال وسارعوا بالجرى وهم عرايا ببطونهم المنتفخة وكانوا يصيحون بفرح وسرور كلما غمرتهم المياه النقية، تسربت المياه إلى رءوس الأطفال وتلألأت أجسادهم العارية.

تدفقت المياه حتى تسربت إلى داخل الحجرات فهرعت الأمهات لإغلاق تلك النافذة أو ذلك الباب، وفى تلك الأثناء لم يعد ثمة وجود للطيور والحشرات وظلت المياه تتدفع عبر الجداول والقنوات الصغيرة إلى الأماكن المنخفضة والبالوعات وتتسرب بسرعة إلى الأرض، إنه الموسم الجديد بعبيره الغامض وأعشابه الريفية البسيطة ولحاء الشجر الجاف وحياة البلادة والخمول ورائحة المعبودة السرية المنبثقة من باطن الأرض، والذى ظل قابعًا فى ذاكرتى إلى الأبد.

أصبح الجو فى منطقتنا الخربة المهجورة صافيًا بفعل الرياح، وراودتنى رغبة فى التخلص من ملابسى والجرى عاريًا تحت وابل من الأمطار الأولى لهذا العام، لكننى كنت راغبًا أيضًا فى الحفاظ على ملابسى وكتبى دون بلل، وما بين الرغبتين جلست ساكنًا لمدة طويلة حتى اندفعت الأمطار تجاهى؛ فوقفت بصعوبة ورحت أنظر إلى الماء وهو يرتفع إلى كاحلى وإلى دود الأرض وهو يزحف نحو قدمى، أزحت الدود بعيدًا لكن الأمطار هطلت بشدة، وضربت المياه رقبتى بقوة حتى شعرت بأن كل قطرة مياه كأنها حجر، وانتابنى خوف شديد لئلا تفتح السماء جميع أبوابها ونوافذها لمزيد من المياه فتتحول الأرض إلى محيط.

طوال فترة الحصاد دائمًا ما كنا ننسى موسم المطر، لكن الأمطار كانت تهطل بغزارة فى اليوم الأول لعلها تنعش ذاكرتنا وتساعدنا على تذكر ذلك الموسم، كانت الأمطار تهطل بكثافة والمياه تلاحق جفونى فلا أستطيع أن أفتح عينى، وعندئذ كنت أمضى فى طريقى مغمض العينين، اتجهت إلى

أحد أركان الطريق وكان المطر يواصل انهماره، دفعتنى قوة الرياح بعيدًا وألقت بى فوق الأرض، أصبح الطريق غامضة وتحولت الأرض بسرعة إلى أكوام من الطين، وعندما استطعت الرؤية بوضوح بدا لى الشارع غير موجود، وكانت الغابة مشوهة والبيوت مرتجفة.

ظهرت فى الأفق سلسلة من الأعاجيب المخيفة وتلألأت الأنوار ثلاث مرات متعاقبة بطريقة غريبة ومخيفة، ثم سقط طائران من فوق أغصان إحدى الأشجار وكانت أجنحة الطائرين ترفرف بالكاد، سمعت صوت ألواح من الزنك وهى تنهار فوق الأرض وتتجعد وأصوات المسامير وهى تشق الخشب، ثم شاهدت سقف أحد البيوت وهو يطير بكامله فى الهواء، صرخ الأطفال وبكت النساء وقد تملك الجميع إحساس بنهاية العالم، أبصرت حطام أحد الأكواخ الطينية وقد تحوّل إلى كتلة خراب متراصة بعد أن سارع الناس بالخروج منه، كما انهار بابان من أحد البيوت الريفية وطار السقف حتّى وصل إلى جانب الطريق، بينما تبعثرت أشياء أهل البيت وملابسهم فى كل مكان، وفى مقدمة شارعنا كان أحد البيوت يطفو فوق الماء كأنه مصنوع من الفلين ولم يعد الطريق كما كان، لم يعد الطريق جدولاً من الطين البدائى ولم يعد الطريق نهرًا، تجولّت فى بدايات الطريق حتى وصلت إلى بيت ريفى لأحد الرجال الكبار، ذلك الذى قيل إن ملاكًا أفقده بصره، كان الرجل يجلس خارج البيت فى المطر ولا يستر جسده سوى غطاء أبيض، ويمسك بالغليون فى فمه ويحدّق من بين قطرات المطر إلى الشارع الغارق فى المياه بتركيز شديد وهو منبهر بقوته وبصورته المتموجة فى المطر، وكانت قدماه غارقتين فى المياه الكثيفة وكذا بنطاله الأحمر وكانت عيناه الخضراوتان متجلطتين، اقتربت منه فأشار لى فجأة وكان إصبعه يتلوى ويتجعد كقطعة من الفلفل الحار، ثم قال بصوت شبيه بالأصوات التى تحدث فى الكوابيس: "تعال هنا أيها الولد، تعال لتساعد الرجل العجوز".

سألته: "أساعد فى أى شىء؟"

أجاب الرجل: "تساعدنى على الرؤية".

كانت يده ترتعش وهو يشير ناحيتى وكانت مياه الأمطار تترقرق من عينيه التى تغيَّر لونهما إلى اللون البنفسجى، ارتجفت من شدة البرد وتسللت القشعريرة إلى رقبتى وأصابتنى الرهبة من ذلك الانقلاب المفاجىء فوق الأرض، صاح العجوز بعنف وصوت مرتجف قائلاً: "لقد استطعت أن أرى".

نهض واتجه ناحيتى بخطوات هزيلة ومترنحة وكانت ملامح وجهه مشعةً بالفرح، وكانت قطعة من القماش الأبيض متساقطة من فوق كتفيه، اقترب منى فتلألأت السماء بالضوء واهتزت الأرض ففقد العجوز نفوذه وقدرته على السحر، ثم شاهدته حين توقف ولم يقدر على مجرد الإشارة واستطعت أن ألمح نوعًا من الإخفاق والضعف مرتسمًا فوق وجهه كما عادت عيناه إلى لونها الأخضر الطبيعى، وعندئذ بدأ يتحدث بطريقة صاخبة وعنيفة وراح يلعن عدم قدرته على الإبصار التى عاودته من جديد، هبَّت الرياح فى مواجهتى فأيقظت البثور المنتشرة فى كل جزء من جسدى مما ساعدنى على الخروج من حالة النشوة التى تملكتنى، وسارعت بالعودة لكن الرجل العجوز راح يتعقبنى وهو يترنح حتى وقع على الأرض والتصق وجهه بالطين، ظل العجوز هكذا وكنت خائفًا جدًا من مساعدته أو محاولة عمل أى شىء، كما أن أحدًا لم يتحرك لإنقاذه وربما لم يلحظه أحد على الإطلاق، سارعت بالجرى ناحية الاتجاه الأول الذى قادتنى إليه قدماى.

عندما توقفت وجدت نفسى ألهث بجوار جدار أحد البيوت التى لم ينته بناؤها بعد، وكان الحائط مليئًا بالديدان والزواحف الصغيرة المتسلقة التى تسببت الرياح الشديدة فى وقوعها من فوق الحائط غير أنها لم تتوقف عن محاولة التسلق من جديد، سمعت صوت العجوز فى المطر فنزلت مسرعًا صوب الطريق الرئيسية لكن قدمى غاصتا فى الطين حتى وقعت فى حفرة

فتسللت المياه الغارقة فى الطين إلى عينى وغطت جسدى وعندما استطعت العثور على أرض جافة بعد مجهود كبير وقفت وتطلعت حولى؛ فأبصرت عالمًا كبيرًا مليئًا بالتماثيل العملاقة المائلة، كانت الأضرحة المقدسة فى كل مكان وكان الرب يتحدث وسط تلك الرياح العاتية فترد عليه التماثيل العملاقة بصوت هامس.

صرخت طلبًا للنجدة لكن أحدًا لم يسمعنى، وبينما كنت أتعثر فى خطواتى وأنا أسير فوق النباتات الشائكة وأنزلق إلى الأرض وحين اصطدمت بجذوع الأشجار أدركت أننى تائه وأن أحدًا لا يرانى، مسحت عينى بماء المطر وعندما أصبح الطين متماسكًا بعض الشيء وجدت نفسي عند أحد مواقع بناء الطرق، وكانت الطريق الأسفلتية التى تم إنشاؤها حديثًا قد تلاشت، وطافت الشجيرات فوق الماء كما طارت خيام عمال الطريق فى كل مكان، وهرب كل المشاركين فى تشييد الطريق السريعة ولم يعد بالإمكان رؤيتهم.

مضيت فى سيرى قليلاً فرأيت كومات من القش فوق نباتات الموز وبدا أننى وصلت إلى موقع آخر من مواقع التخريب، كان الرجال ينشرون أسلاك الكهرباء فوق الأرض ولم تكن ثمة خيام، لكننى شاهدت مظلة فوق أغصان إحدى الأشجار وكان الهواء ملوثًا بالدخان على إثر حدوث شيء ما لم أستطع أن أتبينه فاكتست الشجيرات باللون الأسود، كانت الأعمدة الخشبية محترقة وقطع من القماش المشمع معلقة فوق جذوع الأشجار المقطوعة، وكان العمال واقفين حول أسلاك الكهرباء وهم يحدّقون فيها فى انتظار حدوث شيء ما مفاجئ ومثير.

دفعتنى الأمطار وقوة الرياح إلى حافة الغابة وإلى حفرة كبيرة كانوا يستخرجون منها الرمال، كان أحد الرجال البيض واقفًا إلى جوار الحفرة الكبيرة واضعًا قدمه فوق قطعة من الحطب، وكان يرتدى حذاءً أسود ومعطفًا

أصفر سميكًا للوقاية من المطر، أمسك الرجل الأبيض بالمنظار وصوَّب نظراته إلى الجانب الآخر من الحفرة فتحوَّل الطريق فجأة إلى خندق وتحرَّكت الأرض من مكانها وتسللت المياه بغزارة من الغابة حتى غرقت أقدامنا، لكننى تشبثت بقطعة من الخشب وأمسكت بها بقوة، صاح الرجل الأبيض فطار منظاره فى الهواء وجرفته المياه الغزيرة ببطء إلى أعماق الحفرة، تحرَّكت قطعة الحطب من مكانها فتجمعت فوقها الكتل الخشبية وتدحرجت باتجاه الحفرة حتى لم يعد للرجل الأبيض وجود لكننى لم أسمع صرخاته، ثم تلألأ فى الأفق بريق لامع بدأت بعده فى الصياح فاندفع العمال من الغابة ناحية الحفرة فى محاولة للعثور عليه لكنهم بعد أن تمكنوا من استخراج خوذته ومنظاره ونظارته وحذائه وبعض أوراقه لم يستطيعوا العثور على جثته، كانت الحفرة مليئة إلى نصفها بالماء فتطوَّع ثلاثة من العمال وقرروا الغطس للبحث عنه لكنهم لم يعودوا أبدًا، لقد ابتلعتهم نفس الحفرة التى ساعدتهم فى بناء الطريق.

شعرت بارتباك شديد وغمرنى حزن غريب وامتلأ الهواء بأشكال عدة متموجة، اختلطت بالرياح العاتية والأمطار الغزيرة، كانت اللافتة المثبتة فوق الأرض تشير إلى أرض الجنيات، وحين اقتربت منها كان الباب مفتوحًا، دخلت وشاهدت الطاولات والمقاعد الغارقة فى المياه وكان المكان خاليًا إلا من إحدى الأمهات القدامى، كانت تجلس فوق أحد المقاعد بشكلها الكبير الضخم، وكان وجهها المشبع بالماء غارقًا فى الحزن والأسى، أمسكت بى قبل أن أقع ثم نقلتنى بالقوة إلى حجرتها.

(٦)

طلبت منى أن أستحم وقدمت لى طبقًا من حساء الخضروات واللحم والتوابل ثم وضعت قليلاً من المرهم فوق كل أجزاء جسدى وراحت تدلكنى بأصابعها الخشنة، أزاحت شبكة الناموس الخضراء من جانبها ووضعتنى فوق حجرها الكبير ذى الرائحة الكريهة وابتسمت لى من خلف الشبكة بوجهها الشاحب، ثم تراجعت ببطء غير أن ابتسامتها الغريبة لم تفارقنى قطُّ وظلت قابعة فى مؤخرة رأسى.

كانت الأمطار تواصل انهمارها عندما استيقظت فتسرب الماء إلى الداخل عبر النافذة والسقف، ولم أقدر على الرؤية بوضوح وكدت أفقد ذاكرتى، كان العنكبوت ينسج خيوطه فوق شبكة الناموس الكبيرة فخرجت منها وجلست عند حافة السرير، لكننى كنت خائفًا من كل تلك الأشياء الجديدة التى أراها وتلك التى تحدث من حولى، كانت الحجرة مليئة بنشارة الخشب وريش الطيور الجارحة والكافور والنباتات ذات الروائح المختلفة، وكان عدد كبير من الثياب معلقًا فوق المسامير والحبال، أما بقية الملابس والثياب والأشرطة والقمصان البيضاء والأقمشة الغالية ذات الخطوط الذهبية والتنورات الكبيرة وأربطة الرأس والملابس المصبوغة والعباءات - فكانت منتشرة فى كل مكان، وكانت العباءات وحدها كافية لعمل أعداد وفيرة من أغطية السرير.

كانت الملاءات البيضاء تملأ أحد أركان الغرفة، وفى الخارج كان صوت الأمطار يقرع فوق أوراق البطاطا وكان الساتر الواقى من الناموس مليئًا بمختلف الصور والأشكال الغريبة، انبثق شىء ما كالصنبور فى فضاء الحجرة وسحب شىء آخر الهواء من شجرة الماهوجانى، وراح يتنفس فى

هدوء ثم دوَّت فى كل أرجاء الحجرة صيحات غريبة شبيهة بصيحات الأرواح عند تحررها من الجسد طارت الصراصير على إثرها فى الهواء، وصفّقت الطيور بأجنحتها المكسورة لكننى حاولت أن أتجاهل كل ذلك كى أحقق رغبتى الشديدة فى النظر إلى ما وراء ساتر الناموس.

انبعثت رائحة المطر من الأرض وأوراق النبات وتسرَّبت إلى الداخل من خلال شقوق النافذة وتحوّل كل شىء بفعل تلك الأمطار المتواصلة إلى شىء آخر مختلف، فتغيرت رؤيتى للأشياء وبدا لى بعد لحظة أن سوقًا من الأسرار والألغاز الغامضة وشبه قارة مليئة بالممنوعات موجودتان فيما وراء ذلك الساتر الواقى من الناموس، نهضت وحاولت أن أزيح الملاءة البيضاء عنى لكنها كانت ثقيلة وكانت تنبعث من نسيجها سحابة من الرمال، امتلأت الغرفة بالظلال المتحركة، وتغيَّر شكل عباد الشمس الضخم الملاصق للحائط إلى شكل ثور وبدأ الناموس يطن وتشكلت شبكة غامضة من العنكبوت، فقررت أن أزحف من تحت الساتر وبدا كأننى أزحف من خلال أوراق شفافة من النبات لا يمكن اختراقها ثم ملأ التراب وجهى وحين أصبحت جزءًا من متاهات تلك الحياة السرية الغريبة تبعثر النمل فوق ذراعى، وشاهدت الصراصير وصغار الفئران وهى تتحرّك أمامى مما أصابنى بفزع شديد.

عندما ظهرت فى الجانب الآخر لاحظت أرضًا مرسومة بالصلصال الأبيض النقى فالتصق بياضها بذاكرتى ولم يفارقنى، كانت الطاسة الخزفية بجوار الحائط مليئة ببعض القواقع والأصداف وفصوص جوزة الكولا وبراعم البصل المزدهرة وريش طائر أصفر وبعض العملات القديمة وواحد من أمواس الحلاقة وأسنان نمر، وكانت ثلاث زجاجات تقف إلى جوار الطاسة، كانت واحدة من الزجاجات الثلاث مملوءة بشراب الأجوجورو، والثانية بجذور النباتات المنقوعة فى سائل أصفر، وكانت بعض الكائنات الصغيرة ذات العيون الحمراء تسبح داخل مياه الزجاجة الثالثة ذات اللون

الداكن وبالقرب منها كانت إحدى السلاحف مقلوبة على ظهرها وكان الجزء الأسفل منها مطليًا باللون الأحمر، ظلت السلحفاة ترفس بقدميها كي تعتدل فأحدثت نوعًا من الصخب وحينئذ ساعدتها للتخلص من وضعها المقلوب، زحفت السلحفاة بعيدًا لكننى أمسكت بها وكانت دهشتى كبيرة حين اكتشفت أنها ثقيلة فقلبتها على ظهرها مرة أخرى وعندئذ توقفت السلحفاة عن الحركة، ثم أدركت – لأول مرة – ذلك الوجود اللطيف الضخم وبدأت أحترس من ذلك الذى كان يحدِّق فىَّ من خلال ظلام الحجرة الدامس.

شعرت بنظرة الأم القديمة الثاقبة التى تحولت إلى قطعة من الخشب، كانت تعرفنى رغم نظرات عينيها الثاقبة وعلى ما يبدو أنها كانت تعرف مصيرى مقدمًا، جلستْ وسط النسيج المتراكم فى كوة الحائط وبدتْ كتمثال ضخم مصنوع من خشب الماهوجانى المشبع برائحة الخصوبة، وكان ثديها الكبير يشير إلى قدرة شهوانية مخجلة وكانت خصوبتها الرقيقة متدثرة بثوب أصفر، وبدت من خلف نظارتها السوداء كأنها تنظر إلى كل شىء بنفس القدر من الهدوء ثم تراءت فى أشكال جميلة مختلفة ومتناقضة؛ فأصابتنى أقنعتها الساحرة بالافتتان.

استطعت أن أسمع ضربات قلبها الشبيهة بضربات الساعة الغريبة، وثمة مذياع صغير كان بالقرب من مقعدها وكانت مرآة زرقاء معلقة إلى الحائط خلفها وفوق رأسها تمامًا، أما الساعة الكبيرة فوق الرف الصغير فكانت متوقفة عن الدوران وخلف رأسها كان جرس دائرى وناقوس معلقين فوق أحد المسامير وكانت ترتدى زوجًا أحمر من الأحذية، انبعثت منها رائحة شراب كحولى عتيق ورائحة دم حيوان وصلصال أبيض، ولاحت فى الأفق – من خلالها – آمال الغرباء وأمنياتهم التى يصعب السيطرة عليها والحيلولة دون تحقيقها ونوع ما من الجمود وفقدان الحس، كان حجرها مليئًا بالخرز الأبيض وحين دقَّت الساعة دقات مفاجئة قفزت من مكانى، لكنها ظلت تحدِّق فىَّ بإصرار وكانت نظراتها هادئة وصارمة فى آن واحد.

كانت الساعة متوقفة حين رأيت الطائر الأصفر واقفًا فى العتمة خلف الأم القديمة، كان الطائر مكبلاً لكن عينيه كانتا متلألئتين فى كوة الحائط ولم يتوقف عن محاولات تحريك جناحيه، تسلّل العنكبوت فوق وجهى وسمعت شدو أحد الطيور من خلفى، حلّق الطائر حول المكان ثم استقر فوق أنف المرأة الساحرة، دقت الساعة مرة أخرى فهربت الذبابة من الخوف وهجر الطائر موقعه وظلت السلحفاة ترفس، نظرت إلى نفسى فى المرآة الزرقاء لكننى لم أستطع رؤية وجهى فخفت كثيرًا وفى نفس تلك اللحظة كانت الأم القديمة تكلمنى.

حدثتنى فى كل الأشياء وأخبرتنى عن صخب السلحفاة المقلوبة ومحاولات الطائر فى التخلص من قيوده وحكت لى عن خوف الذبابة، بدأت الساعة تدق مرة أخرى فانتقلت السلحفاة بسرعة غريبة من مكانها واستقرت فوق قدمى، قفزت من الخوف وعندما عدت إلى صوابى وجدت نفسى ملتصقًا بالحائط، وكان قلبى يخفق بشدة ثم لاحظت أن كل شىء فى زاوية الحجرة ينبض بالحياة، تحركت الطاسة نحوى وعلقت المرأة نفسها فوق الحائط لكنها لم تكن تعكس أى شىء، وما أن التصقت بالحائط حتى شعرت بأنه يتزحزح من مكانه ويوشك على الانهيار وراحت كل الأشياء تزحف وتطير فى الهواء، شاهدت قوقعة معلقة إلى الحائط فسارعت بالابتعاد لكننى خطوت فوق السلحفاة أثناء ابتعادى، كانت السلحفاة خلف الطاسة ولم تكن مقلوبة على ظهرها، وحين نظرت إلى شبكة الناموس البيضاء شاهدت كثيرًا من القواقع الكبيرة ووجبات كثيرة من الطعام، مضيت مترنحًا صوب الدلو فشاهدت كثيرًا من القواقع حول الأم القديمة وفوق سطح المرآة وعلى جوانب الدلو، ولم أعرف إلى أى اتجاه يمكننى أن أمضى وفى تلك الأثناء شد انتباهى حديث المرأة الفاتنة الساحرة وهى تخاطبنى، كانت تتحدث لى عبر القواقع وأشياء أخرى موضوعة فوق حجرها.

كيف استطعت أن أتخلص من كل تلك الأشياء الحالمة المحيرة التي كانت تمثل عقبات بالنسبة لي؟ وكيف استطعت الهرب من رأس تلك الأفعى الغامضة ومن جلدها المرقط؟ كيف استطعت التخلص من تلك الأحجار الغارقة في أسفلت الطرق الجديدة؟ وكيف هربت من ذلك الإصبع الوحيد وهو يشير لي من داخل إبريق شفاف؟ كان التمثال الخشبي للمرأة الفاتنة يتحدث لي من خلال كل تلك الأشياء لكنها كانت تتحدث لي بعينيها ولم أستطع أن أفهم كلامها دون تفكير عميق، وفي النهاية شعرت بأنني أنتقل من حلم غريب إلى حلم آخر أكثر غرابة، تسلّقت جسد المعبودة الفاتنة وانتزعت نظارتها فأبصرت عيوناً من الأحجار النفيسة الحمراء داخل أعماق تجاويفها، توقفت المرأة عن التنفس وصوّبت نظراتها باتجاهي فسارعت بوضع النظارة فوق عينيها مرة أخرى، وعندئذ تصبّب جسدي بالعرق ووجدت نفسي في حالة من الجمود، وحين تحركت المرأة من مكانها أصابني هلع كبير خاصة حين أوشكت أن تضمني إليها، قفزت من فوق جسدها الكبير ورحت أصرخ وأجاهد للتخلص من ورطتي.

جلست فوق السرير وكانت رحلتي داخل ذلك العالم الغريب قد غيرت رؤيتي لكل الأشياء الموجودة في الحجرة فشاهدت كومات الملابس الملقاة على الأرض وهي تتحوّل إلى شعر مستعار وشالات وملابس داخلية وأربطة ملونة وقماش ذي ألوان زاهية، كانت نتائج المجتمعات السرية الباهتة وتقاويمها معلقة فوق الحائط، وكانت تتدلى من القواقع المثبتة في أجزاء متفرقة من الحائط بعض الدواب النظيفة الجافة، وكان الدولاب من الداخل مليئاً بملابس الرجال وعكاز واحد أسود وخمس مظلات، أما فوق الدولاب فكان مكتوبًا بالحروف القوطية لافتة تقول: (ساعة الرب آتية لا ريب، إنها أفضل الأوقات).

وعند أعلى الحائط كانت صورة المسيح المصلوب وأسفلها مباشرة لافتة أخرى تقول: (الشرور التي يرتكبها الإنسان) وإلى جانبها صورة

فوتوغرافية قديمة وباهتة لمدام كوتو معلقة أيضًا فوق الحائط وصورة أخرى قديمة لأحد الرجال، كان وجه الرجل فى الصورة مفعمًا بالحياة لكن إحــدى يديه كانت بثلاثة أصابع فقط، وكانت عيناه تشعان بحزن غريب.

ظلّ نفس السؤال يراودنى: "كيف استطعت أن أهرب وأتخلص من تلك الورطة ومن تلك الأشياء المتشابكة الشائكة؟"

صعدت فوق السرير ورقدت وسط شبكة متداخلة من الغموض وشلال هادر من التساؤلات، ثم نمت داخل خيالات الحجرة المفعمة بالنشاط.

(٧)

استيقظت وقد نسيت كل شيء وبدا أن ذاكرتي لم يعد لها وجود، اتخذتْ الحجرة شكلاً مغايرًا وازدحم الفراغ بعالم الآخرة غير المرئي، وكانت الأشباح المكبلة والأشكال التنكرية الخائفة تختبئ بين أنسجة الظلال الكثيفة المنتشرة فوق جدران الحجرة، كما تشبَّع الهواء ببعض الطاقات والقدرات التي لم يكتمل نشاطها بعد، نظرت بإمعان وتدقيق إلى أشكال الأسرى وصور الوحوش الطليقة والعفاريت المحبوسة داخل زجاجات مظلمة وبعض الكائنات القزمية الصغيرة التي تتوسط أعشاش الخفافيش، وكان من اليسير مشاهدة بعض الكائنات الغريبة في كل مكان، أطاحت الرياح بالسطح الصفيحي ثم توقفت الأمطار فجأة، وعندئذ دلفت إلى خارج الحجرة وأغلقت الباب خلفي وما هي إلا لحظة خاطفة حتى شعرت باختلاف كبير، وأحسست برياح المستقبل وهي تخترقني.

كان الطريق خالية وعند الفناء أشعل شخص ما حريقًا في الخشب الجاف؛ فانتشرت في المكان رائحة كريهة وخانقة ومع حلول المساء تساقط المطر من جديد وكانت السماء باهتة والفناء موحلاً، مضيت في طريقي قاصدًا حانة مدام كوتو فأدركت مع كل خطوة من خطواتي أن حياتنا قد تغيَّرت.

كانت الحانة مظلمة فتصورت أنها خالية من الزبائن ومضيت بهدوء إلى مكاني المعتاد بجوار الآنية الخزفية، لم يكن الباب الأمامي مفتوحًا عن آخره وكان طنين الذباب مزعجًا؛ فلم أستطع سماع الأبراص وهي تتحرك بين الطاولات وحين جلست تمكنت من معرفة ملامح النساء في الظلام، كن يجلسن في هدوء ورءوسهن في مواجهة الباب الأمامي، وما هي إلا لحظة قصيرة حتى بدأن في الكلام.

- متى ستصل إلينا الكهرباء؟
- لا أعرف.
- منذ فترة طويلة ومدام كوتو تتحدث عن الكهرباء.
- لقد أصبحت من أولئك الذين يتحدثون فى السياسة.
- وعود ولا شيء سوى الوعود.
- وكلام، مجرد كلام.
- سيوصلون الكهرباء.
- وسوف تتلألأ هذه الحانة بالأنوار.
- وفى يوم ما ستتحول إلى فندق.
- ولكن متى ستصل الكهرباء؟
- فى يوم ما.
- فى يوم ما سأبنى فندقى الخاص.
- كيف؟ هل ستسرقين المال؟
- لا، سيمنحنى الساسة إياه.
- هل ستمارسين معهم البغاء؟
- أليس ذلك ما تفعلينه أنت أيضًا؟
- لست أنا فقط.
- ومن أيضًا؟
- مدام كوتو.
- لا تذكرى اسمها على الملأ هكذا، إن لها آذانًا مصغية فى كل مكان.
- لقد سمعت أنها حامل.
- ومن هو الرجل؟
- كيف أعرف؟ هل كنت معهما حين فعلا ذلك؟
- من المحتمل أن ما تقولينه قد حدث.
- كل شيء محتمل فى هذه الأيام.

– ولكن من الذى أخبرك بأنها حامل؟
– نعم، كيف تعرفين؟
– الناس يتكلمون.
– الناس دائمًا يتكلمون.
– أنا لا أصدقهم.
– الناس يتكلمون كثيرًا.
– إن ترويج الإشاعات عمل حقير ورخيص.
– وماذا عنك؟
– أنا لست امرأة حقيرة.
– بل أنت أكثر حقارة من الخراء.
– وماذا عنك أنت؟ يقول الرجال إن رائحة كريهة تفـوح مـن فتحـة مؤخرتك.
– حتى الدجاج يستطيع أن يضاجعك.
– الفأر يستطيع أن يضاجعك.
– والكلب كذلك.
– اخرسى.
– اخرسى أنت أيضًا.
– إن الخنزير يضاجع أمك.
– لقد جئت أنت من مضاجعة الماعز لأمك.
– اخرسى.
– لماذا تطلبين من كل واحدة أن تخرس؟
– اخرسى أنت أيضًا.

صمتت النسوة لحظة، وحين اجتاحت الرياح الحانة من الباب الأمامى واصطدمت بالحائط الخارجى بدأت النسوة من جديد فى تبـادل الاتهامـات بعبارات ساخنة وكانت أصواتهن أكثر حدة من الزجاج، توقفن عن الشـجار

وتبادل الاتهامات بعض الوقت، وأشعلت إحداهن سيجارة بينما كانت الرياح تتلاعب بأوراق الشجر ثم بدأ صوت الصراصير يتصاعد من كل اتجاه، جاءت مدام كوتو أثناء فترة الصمت من الباب الخلفى وهى تحمل فانوسًا فى يدها لكنها بدت أكثر ضخامة وبدانة وكأنها شىء منتفخ فى الظلام، وكانت ملامح وجهها متألقة بالضياء، شاهدت موزع النبيذ بالخارج وكانت براميل النبيذ مربوطة بالحبال فوق دراجته ومتدلية من الجانبين.

قالت مدام كوتو متسائلة: "ألا توجد إضاءة؟"

تقدمتْ ناحيتى وأشعلت الفانوس أمام عينى وقالت: "أنت مستعد؟"

- نعم.
- هل تشعر بتحسن؟
- نعم.
- لماذا عبثت بجردل القواقع؟
- أنا لم أفعل ذلك.
- أنت كاذب، أتدرى كم استغرقت من الوقت فى العثور على تلك القواقع؟ لقد اختفى عددكبير منها، لماذا تسبب لى كثيرًا من المتاعب؟ هل أرسلوك إلى هذا العالم لمعاقبتى؟
- لا أعرف.
- وكنت تفتش فى كل ركن من حجرتى.
- لا.
- ما الذى عثرت عليه؟
- لا شىء.

نظرت إلى وجهى بإمعان ولم تتحرك النسوة من أماكنهن، وظلت وجوههن مصوبة نحو الباب ثم نظرت إحداهن نحوى وسألتنى: "متى دخلت إلى هنا؟"

أجبت: "لا أعرف".

قالت مدام كوتو: "من الأفضل أن ترحل الآن".

بقيت ساكنًا فى مكانى بينما توجهت مدام كوتو ناحية الكاونتر ثم وقفت خلفه، وعندئذ نهضت إحدى السيدات وخرجت ثم عادت حاملة ثلاثة فوانيس ووضعتها فوق ثلاث طاولات مختلفة، وقالت: "متى سيوصلون الكهرباء؟"

قالت مدام كوتو: "لا تسألينى أى سؤال".

استدارت من مكانها خلف الكاونتر وخرجت من الحانة وقد سمعتها وهى تساوم موزع النبيذ حتى توصلا إلى اتفاق، داعبها الموزع بمزحة عنيفة ثم سمعته وهو ينطلق بدراجته بعيدًا مخلفًا وراءه صوتًا معبرًا عن الفرح والزهو، دخلت مدام كوتو إلى الحانة حاملة معها ثلاثة براميل صغيرة، وكان الذباب يتعقبها فتساقطت قطرات من النبيذ فوق الأرض، لم تتحرك أى واحدة من النساء لمساعدتها فألقت مدام كوتو بالبراميل جانبًا، ثم وضعت قبضتيها بقوة فوق أردافها وراحت توبخ النساء واحدة تلو الأخرى بعد أن اتهمتهن جميعًا بالكسل، قفزت النسوة وتظاهرن بالانشغال وترتيب المقاعد وتنظيف الكئوس والأطباق، وما أن خرجت مدام كوتو مرة أخرى حتى سارعن بالعودة إلى أماكنهن وساد الحانة هدوء غريب، قذفت الرياح بأحد الرجال إلى الباب الأمامى فظل واقفًا بالخارج وكان من اليسير رؤيته من خلف جدائل الستارة، نظر الرجل حواليه ثم سارع بالدخول، فاندفعت امرأتان نحوه وساعدتاه على الجلوس ولم يكن ذلك الرجل سوى أبى، جلست النسوة قبالته فتقدمت بدورى ناحيته حتى اقتربت منه وعندئذ راح يتحسس رأسى لكنه لم يقل شيئًا، كان وجهه هزيلاً وشعره الخشن غزيرًا ولم تكن نظراته التائهة تعبِّر عن شيء، أدركت أن شيئًا ما فى طريقه للحدوث فقلت له: "فلنذهب للبيت".

- لماذا؟ لقد وصلت للتو وكان اليوم عسيرًا، ناولنى بعض النبيذ، أين مدام كوتو؟
- خرجت.

أحضرتْ له واحدة من النساء كأسًا من النبيذ ووقفت أمامه فى انتظار أن يدفع لها ثمن الكأس، فأزاحها من أمامه ثم قالت له: "أنا لا أعرفك وعليك أن تدفع الآن تجنبًا للمشاكل".

حدَّق أبى فيها وكأنه كان موشكًا على ضربها فقلت: "إنه أبى".

قالت المرأة: "ثم ماذا؟"

دفع أبى ثمن الكأس رغمًا عنه وحين جلست إلى جواره قال: "ستصبح المشكلة ذات يوم أكبر مما هى عليه الآن وسوف تلاحقنا وتخترق حياتنا مثلما تفعل بنا الرياح".

امتصت إحدى النساء أسنانها ومصمصت شفتيها ثم بصقت واحدة أخرى فوق الأرض، فقال أبى: "ابصقن جميعًا كما تشئن لكن المشكلة ما زالت قائمة".

ابتعدت النساء عنه فرفع أبى رأسه وراح يشرب ببطء وبدأت النسوة فى الحديث عن الاحتياطات التى يجب القيام بها فى مواجهة تلك المشكلة، وعن ضرورة الاحتشاد والتضامن واقترحن أن يتجمع أكبر عدد ممكن من الناس فى سوق كبيرة وضخمة عند نهاية العالم، تحدَّثت النساء أيضًا عن الأبقار والماعز التى سيتم ذبحها وتحميرها فوق النار، وعن أهمية أن يتقدَّم الركب مجموعة من الموسيقيين الكبار وعن مختلف أنواع السيارات التى يجب أن تحيط بالموكب، ثم تطرقن فى الحديث عن اللحظة التى سيشاهِدْن فيها النقود وهى تتساقط فوق رءوس الشعب بعد إخراجها من الحقائب الكبيرة، وآلاف من الناس المهرولين والمتدافعين من كل أنحاء العالم بحثًا

عن الشبع ومشاهدة المعجزات التى يمكن للقوة أن تحققها، وحين بدأن فى الحديث عن تلك الوعود بمستقبل جديد قال أبى وهو يلحس أسنانه: "هراء".

صمتت النساء لحظة ثم قالت إحداهن بصوت أجش: "إن أمثالك من الناس هم من يتفوهون بالهراء".

أفرغ أبى ما تبقى من النبيذ فى جوفه بجرعة واحدة ثم تجشأ بقوة ونظر متعمدًا إلى إحدى النساء التى بادلته نفس النظرات، ثم اقتحمت المكان فجأة رياح خفيفة اهتزت على إثرها جدائل الستارة فنظرنا جميعًا إلى الباب وكأننا كنا نتوقع دخول شخصية نادرة قادمة من المطر، لم يتوقف أبى عن النظر بإمعان إلى المرأة وكان يصوب نظراته الباهتة الخالية من أى تعبير أحيانًا إلى الجدران فشعرت بالخوف، ارتعش ضوء المصباح القريب من الباب ثم انطفأ، ارتجف جسدى حين ضحك أبى ضحكة فاترة وكانت ضحكاته وقهقهاته شبيهة بالرياح لكن وجهه كان جامدًا، وبالنظر إلى عينيه الساكنتين بدا كمن يرتدى قناعًا فى الظلام فلم أستطع قراءة ما بداخلهما، اهتز سقف الحانة وسمعت مواءً غريبًا لبعض القطط قادمًا من الغابة، تسللت الرياح إلى الحانة وكأنها روح تحررت لتوها من جسدها وراحت تبحث عن مكان ما للجلوس، توقف أبى عن الضحك فبدت الحانة أكثر إظلامًا وهدأت الرياح فساورنا جميعًا أمل ما لكنه ظل أملاً غامضًا.

قلت وأنا أرتعش: "دعنا نذهب للبيت".

قال أبى بنفس العينين الساكنتين: "اسكت".

وقفت إحدى النساء ثم عادت للجلوس ثم وقفت امرأة أخرى ومضت فى سيرها وهى تهز أردافها حتى وقفت بجوار الباب، واستطعت من خلال الضوء الضعيف أن أرى ندبة فوق الجزء الخلفى من رقبتها، وقفت المرأة عند الباب مدة طويلة وهى ترتجف، تساقط المطر من جديد وتسرَّب الرزاز

ببطء وعندئذ صب أبى لنفسه مزيدًا من النبيذ، انطفأت الشمعة من مصباح آخر فتلألأت عيون النساء فى الظلام وكانت واحدة من الأرواح الشريرة تتقلّب فى الهواء، عصفت الرياح مرة أخرى بأوراق الشجر وزلزل الهواء الشديد سقف الحانة الصفيحى، كان صوت الرياح قويًا فتلاشت أمامه أصوات الضفادع وسمعت الأشجار وهى تشكو من شدة الرياح، استدارت المرأة الواقفة إلى جوار الباب وراحت تهز كل جزء فى جسدها اللين ثم تقدمت نحونا، وظلت تلف حول إحدى الطاولات حتى جلست بصعوبة وقالت وهى تتنهد: "لا يوجد زبائن هذه الليلة".

سادت لحظة من الصمت وحين نظرت إلى الباب شاهدت جدائل الستارة وهى تنفتح وكأنها تفسح الطريق لدخول شخص عظيم، دخلت الحانة روح بثلاث رءوس غير متشابهة، رأس حمراء بعيون زرقاء ورأس أخرى صفراء بعيون حمراء والثالثة زرقاء بعيون صفراء، وكان مجموع العيون كلها عشرًا، دخلت الروح الحانة وظلت واقفة عند الباب وكانت كل رأس من رءوسها الثلاثة تنظر فى اتجاهات مختلفة ثم انطلق دخان من العيون الصفراء فارتبكت وتحركت ببطء ورغم شعورى بالتوتر الشديد إلا أننى كنت أنظر إليها بافتتان، اقتربت الروح منى ووقفت أمامى ثم تمددت برءوسها الثلاث فوق الطاولة وظلّت تحدّق فىَّ بعيونها العشرة، انفعلت بشدة وأصابنى دوار غريب واجتاحت رأسى من الداخل دقات ضربات مدوية، ظلت الروح تنظر إلى وجهى مدة طويلة ولم أستطع أن أتحرك ثم بدأت الألوان فى عيونها تضايقنى وتفقدنى القدرة على الرؤية وسمعت صوتًا قادمًا من مؤخرة رأسى يقول: "أغلق عينيك".

أغلقت عينى لكننى أصبحت قادرًا على الرؤية فشاهدت رءوس الروح الثلاثة وهى تكبر وتتمايل ثم تتراجع وتتكمش، مشت الروح بين الطاولات كأنها غير موجودة وجلست وسط النساء، كانت اثنتان من رءوسها الثلاثة فى

اتجاهين متضادين، وراحت تحدّق بهما فى وجوههن لكن الرأس الثالثة ذات اللون الأصفر والعيون الحمراء والواقعة فى المنتصف كانت تواصل نظراتها نحوى والتحديق فى وجهى بلا توقف، أصيبت إحدى النساء بالسعال وراحت أخرى تعطس بينما نهضت امرأة ثالثة ثم جلست مرة أخرى وسمعنا صوت أبى وهو يتجشأ.

قالت المرأة التى عطست: "أشم رائحة كريهة".

وقالت أخرى: "أشعر بالقرف".

- أريد أن أتقيأ.
- أنا لست قادرة على العمل.
- ولا يوجد زبائن.
- لا زبائن، لا نقود.
- ولا كهرباء.
- أمطار تبعث على الملل.
- رياح سيئة.
- واختفت مدام كوتو.
- أين ذهبت؟
- كيف أعرف؟

ساد قليل من الصمت وهدأت الرياح وكأن الحياة عادت إلى الأرض من جديد بعد طول عناء، أخرجت واحدة من النساء بعضًا من النشوق وراحت تشمه بلهفة، ثم أمسكت الطاولة بإحكام مدة طويلة وكانت رأسها تترنح وفمها يرفرف وهو مفتوح عن آخره، وحين أبصرت الروح ذات الرأس الزرقاء فى مواجهتها عطست عطسة كبيرة أطاحت برأس الروح فانسحبت الرأس إلى الوراء بخوف بينما فتحت الرأسان المتبقيتان عيونهما وبدأت الرأس الجالسة فى الجانب البعيد تتمايل وتتحرك مكانها حتى صارت عيونها كبيرة جدًا ثم عطست عطسة مدوية قذفتنى إلى جوار الحائط.

سألنى أبى: "ماذا حدث لك؟"
- لا شيء.
- امرأة تعطس وتقذف بك بعيدًا هكذا! ألست رجلاً؟

بدأت بدورى أعطس فضربنى أبى فوق رأسى ثم عطست بعض النسوة الأخريات، وهكذا فعل أبى وما هى إلا لحظة قصيرة حتى أصيب جميع الحاضرين بنوبات شديدة من العطس، ظللنا نعطس مدة طويلة ولم نستطع التوقف حتى بدا أننا على وشك أن نفقد رءوسنا تمامًا، تسرب الرزاز من أنف المرأة التى بدأت بالعطس فانتشر فى كل مكان حتى وصلت قطراته إلى الفانوس الوحيد المضاء، أزاح أبى الرزاز من كأس النبيذ وراح يهزه فوق الطاولة، وشعرنا جميعًا بألم مفاجىء وعندما عادت الرياح لاقتحام الحانة من جديد تناثر معها الرزاز وظهر خمسة من الرجال المشاكسين، وكان الرجال الخمسة يضحكون علينا ولم ندرك بأننا توقفنا عن العطس إلا حين قال أحدهم: "أهكذا ترحبون بالزبائن؟"

مسحت النسوة أنوفهن وبدأن فى التشاجر حتى وقعن فوق بعضهن البعض ثم اندفعن باتجاه الرجال الخمسة لإرشادهم إلى الطاولات.
قال أبى: "أريد مزيدًا من النبيذ".

لم تهتم أى واحدة منهن بكلام أبى فاستدارت رأس الروح الواقعة فى المنتصف بعيونها الحمراء ولونها الأصفر وأصبحت فى مواجهة أبى وكأنها قد تَجسَّدت للتو فأضاف أبى قائلاً: "ومزيدًا من الضوء".

نهضت إحدى النساء وأضاءت المصابيح فقال أبى بغضب شديد: "إن وجود بعض الزبائن لا يعنى ألا تقمن على خدمتى!"
قال واحد من الرجال الخمسة: "اسكت".
نظر إليه أبى نظرات حمقاء ذات مغزى فبادله بقية الرجال نفس النظرات ثم رفع أبى نظراته عن الرجل وراح يتطلع بعيدًا دون أن يتكلم

وظل يفكر فى شئونه الخاصة، اقتربتْ منه المرأة التى أضاءت المصابيح وقالت: "أتريد قنينة أخرى من النبيذ؟"

لم يقل أبى شيئًا وحتى لم يتطلع إليها أو يهتم بها، وبدا أنه مستغرق تمامًا فى أفكاره الخاصة ولا يشعر بما حواليه وحين كررت المرأة نفس السؤال كان أبى ممسكًا برأسه ولم يقل شيئًا.

قال أحد الرجال: "اتركى ذلك الرجل العقيم بمفرده".

وقال آخر: "إذا لم يكن راغبًا فى الإجابة فاتركيه ليبتلع ريقه".

رفع أبى رأسه ونظر إلى أعلى ثم عاود النظر إلى أسفل مرة أخرى، عطس أحد الرجال فحرَّكت الروح واحدة من رءوسها وراحت تنظر إليه، وضعت المرأة قبضتها فوق فخذها ثم توجهت إلى الحوش وعادت بسرعة حاملة قنينة من النبيذ وضعتها بقوة فوق الطاولة، صبَّ أبى كأسًا من النبيذ لنفسه بينما ذهبت المرأة لتجلس مع رجل وحيد وبدأ كلاهما فى تبادل الحديث، نهضت الروح وجلست بالقرب من الرجل الذى عطس، شرب أبى كأس النبيذ فى جرعة واحدة ثم رفع رأسه مرة أخرى وتطلع حواليه بوجه جامد وعينين مرهقتين، وظل يتفحص الرجال حتى التقطتْ عيناه ذلك الرجل الذى عطس وراح يحدِّق فيه رغم اعتقادى فى البداية أن أبى كان يحدِّق فى الروح، تابعت المشهد عن قرب فأدركت بأن الرجل لم ينتبه لنظرات أبى.

قالت المرأة المصاحبة للرجل: "إلى أى شىء تنظر؟"
أجاب أبى: "ليس من شأنك".

رفع الرجل رأسه وسدد نظرة شريرة إلى أبى فقلت: "دعنا نرحل من هنا ونعود للبيت خاصة وأن المطر قد توقف".

مرت لحظات من الصمت رفع أبى خلالها يده وأشار بإصبعه إشارات متتالية وكأنه يوجه اتهامًا إلى شخص ما، تطلعت حولى لمعرفة الشخص

المقصود بإشارة أبى وبدت رأس الروح الواقعة فـــى المنتصـــف مندهشـــة فتلألأت عيونها بمختلف الألوان.

كان للرجل الذى عطس ندبة غريبة إلى جوار عينه اليسرى، نهـــض أبى وأشار إليه بوضوح وصاح فى وجهه قائلاً: "أنت جبان".

سأله الرجل بغضب: "من هو ذلك الذى تدعوه بالجبان؟"

– أنت، أنت وأصدقاؤك وبخاصة حين هاجمتمونى فى تلك الليلة، أنـــت جبان.

صاح الرجل قائلاً: "أنت مجنون ولص! وأبوك كان جبانًا!"

قال أبى بصوت راعد: "إذا كنت شجاعًا فلماذا لا تتقاتـــل معـــى الآن بمفردك؟"

سادت لحظات أخرى من الصمت بدأت المرأة بعدها فى ســـب أبـــى ونعته بالمشاغب ورجل المشاكل، حاولوا السيطرة على الرجل فتعلقت أياديهم بأكتافه فى محاولة منهم لإجباره على الجلوس، لكن الرجل هز كتفيه بقـــوة وأطاح بأياديهم من فوق أكتافه، كان أبى لا يزال واقفًا بجسده المنتفض وكان فكاه يصعدان ويهبطان وهو يشير بإصبعه، صرخت إحدى النساء وعطست أخرى وكانت عيناى مفتوحتين عن آخرهما لكننى لم أستطع رؤيـــة الـــروح لبعض الوقت، تقدَّم الرجل وبدأ فى الدوران حول الطاولة فحاولت النسوة أن تكبح جماحه لكنه ألقى بهن بعيدًا، وفى تلك الأثناء عصفت الرياح من جديـــد ومضى الرجل فى سيره للأمام حتى وصل إلى منتصف الحانة ثم أمضـــى وقتًا طويلاً فى خلع ملابسه الفضفاضة التى التصقت وتشابكت مع الخرزات والأحجبة المعلقة فى رقبته، صرخت امرأة أخرى وصبَّ أبى لنفســـه كأسًـــا أخرى من النبيذ سارع باحتسائها ثم نهض وراح يلف ويدور حول طاولتنا، وقام بمساعدة الرجل فى التخلص من ملابسه المتشابكة، كانت شدة الريـــاح

كافية للإطاحة بالحانة وانتزاعها من مكانها وشعرت بأن الأرض ترتعش وعندما انتهى الرجل من خلع ملابسه الفضفاضة راح يسب ويلعن بغضب شديد، ثم بدأ فى خلع قميصه وفى تلك الأثناء خرج أبى ليبول وحين عاد كان صدر الرجل عاريًا تمامًا إلا من تلك التعاويذ والتمائم حول رقبته، وكانت الندوب وعلامات من الوشم الغريب منتشرة فوق صدره وفوق بطنه، التف أتباعه حول أبى فخفت كثيرًا وتعالت صرخاتى رغم حالة الهدوء الغريبة التى انتابت أبى والتى تعجبت لها كثيرًا.

اخترقت صرخاتى مسامع إحدى النساء فقالت: "نحن لا نعرفك، نحن لا نعرفك، أنت تأتى إلى هنا مع ابنك المزعج لتفسد أعمالنا ودائمًا ما تكون سببًا فى إثارة المشاكل وجلب المتاعب".

كان الغضب الشديد مرتسمًا فوق وجهها وكانت عيناها لا تتوقفان عن الحركة وبدت أظافرها كالمخالب الحمراء لكن أبى لم يهتم بها أو بكلامها، وعندئذ سأله الرجل وهو يشير إلى واحدة من التعاويذ المتدلية من رقبته: "وإذن فماذا تريد أن تفعل؟ هل تعرف هذا الشيء الذى أحتفظ به هنا؟ إذا تجرأت على مجرد لمسى فسوف تسقط على الأرض سبع مرات ثم..."

ضربه أبى فجأة فى وجهه فبدا الأمر كأن شعاعًا من البرق قد اجتاح الحانة، حدث ذلك بسرعة خاطفة وفى اللحظة التالية مباشرة أصبح باب الحانة مفتوحًا على مصراعيه ولم يعد الرجل موجودًا، سمعناه وهو يئن ويتألم خارج الحانة فى الظلام، تراخت قبضة أبى فقفزت المرأة ذات الأظافر الحمراء فوق كتفه من الخلف وراحت تولول وتصرخ كالقطة المجنونة وهى تخدش رقبة أبى وتحاول أن تقتلع عينيه، أزاحها أبى بعيدًا فسقطت فوق الطاولة وعندئذ قفز الرجل المصاحب لها فوق أبى، وظل كلاهما يتدحرج نحو الخارج، سمعتهما وهما يتقاتلان ويحاول كل منهما التخلص من الآخر، شاهدتنى المرأة التى وقعت فوق الطاولة فسارعت نحوى وصفعتنى صفعة

قوية، عادت الروح للظهور فى الحانة فأسرعت بالخروج وتبعتنى المـــرأة، اصطدمت بأحد الرجال فدفعنى بعيدًا عنه ووقعت فوق لافتة مدام كوتو الملقاة على الأرض والمشبعة بالماء، ثم استطعت من خلال رذاذ المطر المتواصل أن أرى الرجلين وهما يتصارعان مع أبى، كان أحدهما ممسكًا به من الخلف والآخر يضربه من الأمام لكن أبى انتفض بقوة وراح يهز جسده بحركـــات مفاجئة إلى الأمام وإلى أسفل، حتى تمكن من التخلص من الرجل القـــابض عليه من الخلف ثم أوقع الرجل الآخر على الأرض بضربة شديدة فوق أنفه، فتمدد كلاهما فوق كومة من الطين الوسخ، شعر أبى بالرضا ونظر نحـــوى مبتسمًا لكن المرأة قفزت عليه مرة أخرى وشدَّتْ شعره ونشبت أظافرها فى جسده؛ فوجد أبى صعوبة فى إبعادها عنه وأثناء محاولاته خرج بقية الرجال من الحانة.

قلت: "دعنا نجرى".

أحاط الرجال بأبى وبدأ الرجلان اللذان وقعا على الأرض فى النهوض وحين فكرت بضربهما أدركت على الفور أنها فكرة غير جيدة، تجمَّع خمسة من الرجال فى دائرة مغلقة حول أبى وظلوا يصرخون ويهتفون بأصـــوات غريبة، فانتهزت المرأة تلك الفرصة وبدأت فى تشجيعهم وحثهم على قتل أبى ووضع وجهه فى الوحل وإجباره على أكل القاذورات، حاول أحد الرجال أن يضرب أبى فى وجهه لكنه تراجع لكن رجلاً آخر اندفع بقوة وسدَّد لكمة قوية فى وجه أبى فوقع كلاهما على الأرض، وحينئذ سارع بقية الرجال بـــالقفز فوقهما، تراكمت الأجساد فوق بعضها البعض وأصبحت المعركة متشـــابكة وبدا أن جميعهم يتبادلون الضربات، وفى تلك الأثناء ظهرت رأس الـــروح الصفراء بالقرب من الأجساد الغارقة فى الوحل وبدت الـــرأس مضـــطربة بشدة، انتزعت الروح نفسها تمامًا من المشاجرة وتقدمت نحـــوى ووضـــعت رأسها الصفراء بالقرب من وجهى، فلم أستطع مقاومة تلك العيون الحمـــراء الملتهبة واخترق مسامعى نفس الصوت وقال مرة أخرى: "أغلق عينيك".

أغلقت عينى لكننى لم أفقد قدرتى على الرؤية، رمقتنى الروح بنظرة مختلسة وسريعة فأصابتنى عيونها المتألقة الساطعة بالأذى، نهض الرجال من فوق بعضهم فاندفع أبى ناحيتهم بوحشية وراح يسدد الضربات القوية إليهم ثم جرى نحو الفناء وعاد بسرعة حاملاً معه قطعة من الخشب، فتحت عينى فشاهدت المسامير الطويلة الكثيرة المثبتة فى قطعة الخشب وصرخت، مالت الروح برأسها المركزية نحوى وفتحت العيون العشرة فى رءوسها الثلاثة وقالت: "طلبوا منى ألا أعود بدونك".

- من الذى طلب منك ذلك؟
- أصدقاؤك وزملاؤك.
- عن أى أصدقاء وزملاء تتحدثين؟
- أصدقاؤك وزملاؤك فى عالم الروح.

اندفع أبى حاملاً قطعة الخشب حين أضافت الروح قائلة: "بينك وبينهم معاهدة واتفاق من قبل أن تولد، أتتذكر؟"

تبعثر الرجال حين بدا أبى فى التلويح بقطعة الخشب، وصرخ أحدهم قائلاً: "أمسكوه".

بدأ أبى فى ملاحقتهم فهربوا ثم راح يتعقب المرأة التى ظلت تصرخ وتجرى بسرعة نحو الغابة.

قالت الروح مرة أخرى: "أخبرونى بضرورة إحضارك معى".

قلت: "لكننى لا أريد".

خرجت بقية النسوة من الحانة وحين التقط أحد الرجال غصناً طويلاً اندفع أبى ناحيته بوجه مفعم بالملامح الإجرامية، فأسقط الرجل الغصن من بين يديه وجرى.

صاح أبى وقال بفخر: "جبناء".

ظل يتعقبهم وظلوا يهربون ثم عاد ودخل الحانة، التقط قنينة النبيذ الخاصة بأعدائه وراح يشرب منها بهدوء دون أن يتوقف عن مراقبة الرجال، وكانت النساء تبتعد عنه كلما اقترب منهن.

سألتنى الروح قائلة: "وإذن فأنت لا تريد أن تأتى معى؟"

- لا.
- وماذا عن وعودك؟
- أية وعود؟
- سوف يغضبون.
- وما العمل؟
- لا تقل بأننى لم أحذرك.
- بماذا؟
- تذكر أننى بثلاث رؤوس فقط وإذا فشلت فى إقناعك بالعودة معى فإن زملاءك الروحيين سوف يرسلون لك روحًا أخرى بأربع رؤوس.

قفزت إحدى النساء فوق أبى وهو يتجرع آخر رشفة من النبيذ ثم توالت قفزات بقية النساء عليه، وبدأن فى استدعاء الرجال بأصواتهن العالية للحضور والقضاء عليه لكن أبى ظل يقاوم حتى تحطمت قنينة النبيذ وملأت صرخات النسوة أرجاء الحانة فاقترب الرجال بحذر.

- وإذا لم تستجب فإنهم سيرسلون روحًا أخرى بخمس رؤوس.

نجح أبى فى التخلص من النسوة وإسقاطهن من فوقه لكن إحداهن اختطفت سلاحه الخشبى الملىء بالمسامير ولاذت بالفرار.

- وعندما يأتى دور الروح ذات الرؤوس السبعة فلن يستطيع أحد أن ينقذك.

اقترب الرجال من أبى دون حذر هذه المرة وإنما بثقة، وبدأت النسوة فى إلقاء الحجارة عليه.

- وإذا حاولت الهرب من الروح ذات الرؤوس السبعة بأى طريقة فإن زملاءك سيحضرون بأنفسهم.

ظلت النسوة يلقين بالحجارة على أبى حتى أصيب فى رأسه وظل أبى يقاومهن بالحجارة أيضًا، لكن عددهن تضاعف فتساقطت الحجارة فوق أبى فى الظلام من مختلف الجهات.

قال أبى بصوت عال: "عاهرات!"

ألقين الحجارة باتجاهى أيضًا فالتقط أبى لافتة مدام كوتو الواقعة على الأرض واستخدمها بوصفها ساترًا واستطعنا أن نتقهقر حتى دخلنا الحانة وأغلقنا الباب الأمامى، دخلت الروح من خلال الباب المغلق وظلت تضايقنى وتطلب منى أن أتبعها، وضع أبى كل المقاعد خلف الباب حتى لا يتمكن أحد من فتحه، وكانت الروح تتبعنى أينما ذهبت وتذكرنى بالوعود وهى تضع إحدى رؤوسها الثلاثة أمامى طول الوقت وتحدثنى برأسها الأخرى فى أذنى مباشرة، كانت تتوسل لى أحياناً عند تذكيرى بالوعود لكن حديثها كان ينطوى على كثير من التهديد فى أحيان أخرى.

قذف الرجال بالحجارة فوق الباب وسمعت خطواتهم وهم يتحركون من خلف الحانة، أطفأ أبى كل الأنوار فلم يمتلك الرجال الشجاعة الكافية للدخول فى الظلام، وكانت الروح بعيونها المضيئة المتوهجة تتخبط فى الظلام كأنها ضلت طريقها، سمعت أبى وهو يسب ويلعن وقال إنه كان ينزف، وكانت الفرصة سانحة للناموس فى ذلك الظلام أن ينهش جسدينا ويتغذى علينا لكننا حاولنا أن نبقى هادئين وألا نتحرك، ولم تكن لدى أية فكرة عما قد يحدث بعد لحظات، كانت الروح تتجول فى الحانة ولا تبالى بنا ثم خرجت من خلال أحد الجدران.

عادت الروح للدخول باندفاع فى نفس اللحظة التى سمعنا فيها دوى الرعد وتلألأت فيها السماء بضربات البرق فاضطربت الروح وتمايلت

وراحت تتخبط فى كل الاتجاهات، ثم بدأت الأمطار فى السقوط مـن جديـد وعندئذ سمعنا شخصًا ما يزحف عند الباب الخلفى مما جعل أبى يلقى بشـىء ما صرخ على إثره الرجل ولاذ بالفرار، وسادت بعد ذلك لحظات طويلة من الصمت والهدوء سمعنا بعدها صوت مدام كوتو الصاخب أمام الحانة، طرقت الباب بشدة فانطلق الفتوات إلى الحوش واندفعت النسوة العاهرات إلى داخـل الحانة ثم أشعلن الفوانيس وسارعن بترتيب المكان ووضع المقاعد المكدسـة خلف الباب فى أماكنها المعتادة، ثم فتحن الباب واعتذرن عن إغلاقه بسـبب شدة المطر، جاءت الروح وجلست إلى جوارى حين دخلت مدام كوتو الحانة بوجه غاضب وراحت تهز جسدها بوصفه طائرًا ضخمًا مليئًا بالريش ثم بدأت برش الماء فى كل مكان، وفى تلك الأثناء كان أبى جالسًا بهدوء والدم يتساقط من جبهته فوق الطاولة مما أثار انتباه الروح ذات الرأس الزرقاء فظلت تنظر إليه بافتتان، نظرت مدام كوتو إلينا ولم تقل شيئًا لكنها كانت تفكر بعمق فيمـا يمكن عمله بشأننا، سارت ببطء فى الحانة فنهضت الروح وتبعتها وتجمعـت العاهرات عند الحائط بخوف وكانت وجوههن تعانق الظلال.

نهض أبى وقال: "مدام كوتو".

توقفت عن السير وكان الماء يتساقط من ذيل لفافتها، وحين اقتربـت الروح منها ارتجفت فاستطرد أبى قائلاً: "إن أصدقاءك يا مدام كوتو كـانوا على وشك أن يقتلونى منذ يومين ولقد شاهدتهم هنا اليوم وظلـوا يقـاتلوننى ويرموننى بالحجارة مثلما فعلت نساؤك أيضًا فكيف ستتصرفين حيال ذلك؟"

لم تقل مدام كوتو شيئًا ومضت فى سيرها باتجـاه الكـاونتر دون أن تتوقف الروح عن السير وراءها ومتابعتها.

قال أبى بصوت هادئ: "أنت امرأة شريرة ولأنك لا تبالين بالبشر فإن أشياءَ سيئة سوف تحدث لك، أنا وابنى لن نحضر إلى هنـا مـرة أخـرى وللأبد".

استدارت مدام كوتو ونظرت إلى أبى وبدت مندهشة لكنها لم تهتم بكلام أبى، نظرت إلى نظرات ذات مغزى فتجمدت فى مكانى، ومنذ تلك اللحظة ساورنى شعور بأنها عدوة لنا، مضت فى سيرها حتى وصلت إلى الحوش واختفت وعندما انتهى أبى من شرابه أمسك بيدى وقادنى إلى الخارج.

غادر الفتوات المكان وكان المطر يتساقط فوقنا دون أن نشعر والغابة غارقة فى الظلام والوحل وتحول الشارع إلى بركة من الماء، وكانت البالوعات طافحة بالمياه القذرة وكلما مضينا فى طريقنا كلما تحولت الأرض الجافة إلى طين، كنا نشق طريقنا فى الوحل الذى يصل إلى ركبتى دون أن يقول أبى شيئًا، لقد أصاب سقوط المطر المتواصل كل الناس بالصمت، وكانت السماء حالكة الظلام وحين اقتربنا من البيت قال أبى وهو يضحك بينه وبين نفسه: "لقد انتصرنا عليهم، أليس كذلك؟"

- بلى.
- وهكذا تكون رجلاً.
- كيف؟
- عليك بإظهار ملامح القسوة والصمود حين يشرع الناس فى القتال معك ويجب أيضًا أن تحاول معرفة ما بداخلهم، ثم عليك باختيار الوقت المناسب لمقاتلتهم بشرط أن تقاتل كالمجنون، يجب أن تقاتل كالساحر، وعندئذ سوف يخافون منك.

كنت فى ذلك الوقت أرتعد وكانت أسنانى تصطك ببعضها البعض، سار أبى أمامى وتسلل المطر إلى ظهرى.

وصلنا إلى البيت ولم تكن سوى شمعة واحدة فقط هى التى تنشر ظلالها الباهتة، وكان من اليسير أن تتخلل أنوفنا رائحة الشوربة اللذيذة المصنوعة لتوها، كانت الحجرة نظيفة ودافئة وكان الباب مفتوحًا لكن أمى لم

تكن موجودة، التقط أبى الفوطة وذهب للاستحمام وبعد الانتهاء ذهبت بدورى لأغتسل وما أن انتهيت حتى وجدت أمى جالسة فوق السرير، وكانت طاسة كبيرة من الشوربة الطازجة موجودة فوق الطاولة، بدت أمى نضرة ومفعمة بالنشاط كما بدت مختلفة بتلك المساحيق المنتشرة فوق وجهها وكانت عيناها مشرقتين، لكنها كانت هزيلة وعندما خرجت من الحمام وأنا ألــف فــوطتى الصغيرة حول خصرى ابتسمتْ أمى وقالت: "من الواضح أنك أنت وأبــاك كنتما تتقاتلان مع كل الناس، أليس كذلك؟"

تقدمت نحوها ثم جلست فوق حجرها فسألتنى قائلــة: "هــل قــذفوك بالحجارة أيضًا؟"

أجبت: "نعم، لكننى كنت أتجنبها بكثرة الحركة من مكان لآخر".

ضحك أبى وراحت أمى تدلك جسدى بالزيت ثم قمت مشَّطْت شعرى، وارتديت ملابس النوم بعد أن خلعت الفوطة الصغيرة من حــول خصــرى، غرقت فى النوم بين ذراعى أمى، وحين استيقظت فجأة كان جهاز الناموس يحترق والإضاءة مختلفة.

قالت أمى: "فلتأكل شيئًا".

كنت راقدًا فوق الفراش فنهضت وأجهزت على ما تبقى من الشــوربة التى كانت ساخنة، فبعثت الحياة فى فمى ورأسى كما دمعت عيناى وكان أبى جالسًا فوق مقعده ذى الأرجل الثلاثة حين قلت: "لقد رأيت روحًا اليوم".

انتصب كلاهما وقالا بذعر: "أية روح؟"

- روح بثلاث رؤوس.
- أين؟
- فى حانة مدام كوتو.
- متى؟
- عندما كنا نتشاجر.

نظر أبى إلىَّ بطريقة مريبة ثم عاد للجلوس ببطء وسألنى: "وماذا كانت تشبه؟"

- كان لها ثلاث رءوس.
- وماذا قالت؟
- قالت بأننى يجب أن أتبعها.
- إلى أين؟
- إلى المكان الذى جئت منه.

توقف أبى عن الكلام ولم تقل أمى شيئًا، ثم أغلق أبى عينيه وراح يتأرجح بمهارة فوق مقعده، وبعد لحظة قصيرة فتح إحدى عينيه ورمقنى بنظراته وقال: "يجب أن تنام".

لم أقل شيئًا لكن أبى استطرد قائلاً: "كل ما تقوله وتتذكره أنك رأيت الروح، لكنك لم تهتم بشىء آخر رغم أنهم كانوا سيقتلوننى!"

- لا.
- يجب أن تنام الآن.

فردت حصيرتى فقال أبى: "نم فى السرير".

تسلقت السرير وبدأت أمى فى ترتيب الطاولة وتنظيفها، ثم فردت الحصيرة وقالت: "إذا استدعتك الروح فلا تذهب معها، أتسمعنى؟ يجب أن تفكر فينا وعليك أن تتذكر تلك المعاناة الشديدة التى يلقاها أبوك كل يوم من أجل إطعامنا ولا تنسَ أمك التى حملتك فى رحمها تسعة أشهر والتى تزرع الشوارع جيئة وذهابًا من أجلك".

أضاف أبى: "نعم، يجب أن تفكر فينا".

أومأت برأسى فاستطرد أبى بعبوس: "من الآن فصاعدًا عليك أن تعرف بأن مدام كوتو هى عدوتنا، وإذا عرفت يا أزارو أنك ذهبت إلى الحانة مرة أخرى فسوف أضربك بشدة وأضع الشطة فى عينيك، أتسمعنى؟"

- نعم يا أبى.
- إنها امرأة شريرة ولعوب ولذلك فليس لها أطفال.
- لكنها حامل.
- وكيف عرفت؟
- سمعت أحدهم يقول ذلك.
- اخرس، ولا تستمع إلى ما يقوله الناس، هل هى حامل منك أنت؟
- لا.
- لا تتكلم إذن ولا تجادلنى حين أتحدث إليك.
- حاضر يا أبى.

استدرت ناحية الحائط كى أتجنب تعبيرات وجهه المخيفة وخوفًا من أن تصيبه نظراتى بالغضب فيسارع بالانقضاض علىَّ، ظل يتمتم بكلمات غير مفهومة ويطلق اللعنات فى الهواء ويتهم الفتوات والحزب والعمل الذى يقوم به والمستعمرين وصاحب البيت والمطر مما أثار الضغينة فى نفسه حتى أصبح مزاجه أكثر سوءًا، صبَّ لعناته على مدام كوتو وتساءل بصوت عال عما إذا كان ضروريًا أن يحرق حانتها أم لا، وعندئذ أطفأت أمى الشمعة وألقت بجسدها فوق الحصيرة، سمعتها وهى تتقلب فى نومها بينما كان أبى يواصل لعناته فى الظلام.

(٨)

غادرت الحجرة فى لحظة خاطفة ووجدت نفسى هائمًا فى الطرقات المظلمة دون أن أعرف كيف ومتى خرجت من الحجرة، مشيت فى الشوارع الوعرة وعبر الأدغال البرية وكان الجو كله مشبعًا بالحيرة، فكرت فى الكتاب المقدس والشهور والتواريخ المنسية فوجدتنى أتتبع امرأة جميلة ذات رأس زرقاء، كانت المرأة تتحرك بخطوات منتظمة وتسبح فوق رياح الأبدية كأنها شعاع ذهبى برّاق، استدارت المرأة الجميلة واقتربت من أمى وسمعت توسلاتها الحزينة ثم ابتسمت وأشارت لى، لم أستطع أن أقاوم ابتسامتها الساحرة وحين سمعت تغريد الطيور الشاردة شعرت بانجذاب نحوها، ثم انطلقت روحى إلى منابع الضوء وإلى الموسيقى وتلبستنى صور مختلفة من أشكال أطفال الروح وحينئذ رحت أتتبعها دون أن أدرى، كان الجو مليئًا برائحة الدخان وعبق البخور والجوافة والكرز وعصير الأناناس، سرت خلف المرأة الجميلة منجذبًا مدة طويلة من الوقت، وكانت أصوات الرجال العالية ونغمات النساء المنخفضة تنطلق من أشجار الصنوبر ثم سمعت شخصًا ما ينادى على اسمى من مكان سحيق لكننى لم أهتم، وواصلت سيرى وفيما وراء شعر المرأة الجميلة كان من اليسير مشاهدة أعمدة الكهرباء المضاءة والحدائق المليئة بالزهور الخلابة والزنابق الساحرة.

سمعت اسمى يتردد بصوت أعلى وظلّت المرأة تطالبنى بمتابعتها، كان شعاع من الضوء المتألق ينبعث من عينيها فبدا وجهها رقيقًا وبدت كأنها تحدثنى عن وطن غامض مبهج وعالم ملىء بالعطلات والمناسبات الدينية المفعمة بالنشوة، شعرت بيد مألوفة وخشنة تتحسّس كتفى وتقول: "إلى أين أنت ذاهب يا أزارو؟"

كانت أمى فقلت لها: "طلبتْ منى تلك المرأة أن أسير وراءها".

سألتنى أمى: "أية امرأة؟"

أشرت إلى المرأة صاحبة الشعر الأزرق والابتسامة الساحرة المتألقة على الدوام، والتى اختفت بين أشجار الرمان وترنيمات الزهور حتى أصبحت رأسها مجرد سحابة منعزلة.

قالت أمى: "لا يوجد أحد هناك".

- بل يوجد.

- ستأتى معى إلى البيت.

لم أقل شيئًا وكنت لا أزال قادرًا على رؤية رأس المرأة الجميلة وسماع الأصوات الرخيمة فى الحدائق وأناشيد عباد الشمس، استدارت المرأة برأسها ناحيتى ورمقتنى بابتسامة أخيرة قبل أن تختفى تمامًا وتذوب فى نغمات الموسيقى العذبة، أبصرت فتيات ساحرات يرقصن رقصات شعبية وسط النجوم، وسمعت نغمات الفلوت الأخيرة الهادئة وهى تطفو فوق بحيرة من المرايا الخضراء، ثم شعرت فجأة بأن الجو لم يعد مثيرًا للحيرة والاندهاش.

رفعتنى أمى فوق كتفيها ومضت فى سيرها نحو البيت عبر الطرقات الموحلة والشوارع القذرة وتحت أضواء النجوم الخافتة دون أن تتكلم، شممت رائحة البالوعات والبيوت المتراصة المتآكلة، لكننى فى النهاية لم أعد أتذكر شيئًا سوى ذلك العالم الغارق فى الفقر وضوء القمر الرمادى، وذلك الظلام الحالك السابق لطلوع الفجر.

الكتاب الخامس

(١)

ظلت الأمطار تتساقط بغزارة وبلا شفقة لمدة أسبوعين متواصلين؛ فبدت السماء كالبحار الغارقة فى المياه، تسرَّبت المياه من سقف بيتنا فى الليل ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفنا كثيرًا من الثقوب فاضطرت أمى لتجميع المياه المتساقطة فى الأوانى وفى الحوض الذى تضع فيه بضاعتها، كانت حجرتنا مليئة بالصناديق والأوانى المكدسة بجوار السرير وفى منتصف الحجرة وداخل الدولاب، وكان لزامًا علينا أن نحافظ على كل شيء فانتزعنا حبل الغسيل وأزحنا حذاء أبى بعيدًا، وذات ليلة ماطرة تآكلت أجزاء أخرى من السقف المصنوع من الزنك فتساقطت قطرات من المطر فوق رأسى وأنا نائم فاضطررت لنقل حصيرتى من مكانها، وكانت الأمطار تهطل بغزارة أكثر فى بعض الأحيان فتمتلىء الصناديق والأوانى بالمياه عن آخرها حتى تفيض فتغرق أرض الحجرة بالمياه، ساورتنى الشكوك فى البداية وقلت بينى وبين نفسى: "ربما تبولت على نفسى بكثرة أثناء نومى".

تبلَّلت الحصيرة عن آخرها فخفت كثيرًا وتعجبت من ذلك البول الكثير الذى تدَفق منى أثناء النوم، ثم نهضت وحاولت بهدوء تنظيف مكان البول وحين استيقظتْ أمى شعرت بالخجل لكننى أدركت فى النهاية أنها مياه الأمطار الغزيرة.

تدفَّق المطر بشدة أكثر من الثقوب حتى أننى لم أقدر على النوم على حصيرتى فوق الأرض؛ فاضطررت أن أشارك أبى وأمى السرير الوحيد الذى نمتلكه وعندما ازداد عدد الثقوب فى السقف ظللنا نحرك السرير من

مكان إلى آخر فى الحجرة لكننا لم نستطع العثور على مكان جـاف، وبعـد محاولات عدة نجحنا فى العثور على مكان لا تتساقط فيه الميـاه إلا فـوق أقدامنا، تحدَّث أبى مع صاحب البيت بشأن ذلك السقف الملىء بالثقوب فوافق على إصلاحه بشرط أن يرفع من قيمة الإيجار، لم يكن بمقدورنا احتمال أى زيادة فى الإيجار، فلم يعد أمامنا سوى اختيار وحيد، كان لا بد من احتمـال قطرات المياه المتساقطة من السقف ومعرفة كيفية التعـايش معهـا داخـل الحجرة بدلاً من الغرق فى ليل الشارع المظلم.

كانت الديدان الطفيلية والحشرات الزاحفة والأفـاعى تفاجئنـا أحيانًـا عندما نستيقظ فى بعض الصباحات وهى تزحف باتجاه الحجرة، كما ظهرت فوق الجدران بعض القواقع الصغيرة واكتشفنا أسماكًا صغيرة داخل الأوانى؛ مما جعل أبى يعلن عن قناعته بوجود عدو يحاول وضع السم لنا، وسـاوره الشك فى كل الناس ثم حذرنى بعدم تناول الطعام من أى شخص أو اللعب مع الأطفال فأصبحنا نعانى من عزلة شديدة.

أصبحت الأيام ثقيلة بفعل الأمطار المتواصلة فشعرت بملـل شـديد، وحين أصبح الجو سيئًا توقفت أمى عن الخروج لبيع بضاعتها فلم تسـتطع تدبير المال الكافى، أما أبى فكان يعود كل مساء بملابسه المبلَّلة والملطخـة بالطين وعينيه الغاضبتين وجسده الملىء بالجروح والدمامل وأقدامه الرخوة، كانت أياما صعبة وقاسية على الحمَّالين من أمثال أبى.

تحول شارعنا إلى نهر متدفق فتسربت المياه مـن البالوعـات إلـى حجراتنا، وأحيانًا كان المطر يتساقط بغزارة فيوشك الحى بكامله على الغرق، تدفقت المياه من المراحيض وسقط الأطفال ضحية للمرض وأصيب كثير من الناس بأمراض غريبة هرعوا بعدها إلى قراهم؛ بحثًا عن أعشـاب للعـلاج بينما شيَّد بعض القادرين سدودًا أسمنتية أمام بيوتهم؛ لصد المياه ومنعها من الدخول إلى حجراتهم، أما نحن (وبقية الناس) فجلسنا عاجزين فى حجراتنـا

ولم نكن نملك شيئًا سوى مشاهدة المياه وهى ترتفع شيئًا فشيئًا، أصابنى البرد فى كثير من الأوقات وعندما كانت أمى تعود من جولات البيع السريعة كانت أسنانها تصطك ببعضها البعض، فتسارع بالاستحمام وتغيير ملابسها ثم تجلس فوق السرير وتتحدث إلى نفسها بدلاً من الحديث معى، حيث وقفت الأمطار الغزيرة المتواصلة عائقًا بيننا فلم نجد ما نقوله لبعضنا البعض، اخترقت عظامنا أصوات المطر المتساقط وسرقت هدوءنا وقتلت أحلامنا واكتسى وجه أبى بالهزال وعندما كانت تعود أمى من عملها بوصفها بائعة متجولة وأشاهد كاحلها الملىء بالديدان الأرضية ووجهها الغارق فى قطرات المطر لم يكن بمقدورى أن أعرف إذا ما كانت تبكى أم لا.

لم أنقطع عن الذهاب إلى المدرسة فى كل صباح، وكانوا يجلدوننى طوال الوقت بسبب دفاترى المبلّلة بمياه المطر وأيضًا بسبب قلمى الخالى من الحبر، لم يكن لمدرستنا سقف يحمينا فانهارت المدرسة بجدرانها المنخفضة المشيدة بالطين والأسمنت؛ وظهرت الآفات الزراعية والأعشاب فى فصولنا وعندما اشتدت حدة الأمطا ر كان علينا أن نواصل دروسنا تحت سقف المبانى المجاورة.

أثناء عودتى من المدرسة ذات يوم كان المطر غزيرًا فمررت بالقرب من حانة مدام كوتو، فأبصرت كثيرًا من السيارات المتوقفة خارج الحانة، وعندما اقتربت من الباب نظرت من خلال الستائر فشاهدت نساءً بشفاه حمراء ووجوه مزينة بالماكياج بصحبة رجال يرتدون ملابس زاهية وبرّاقة لكننى لم أتمكن من رؤية مدام كوتو وفى تلك الأثناء كان البرق مدويًا فى السماء فشعرت بأنها ستقع فوق رأسى ثم سارعت بالهرب وانطلقت باتجاه الغابة، غير أن الرياح كانت قوية ولم أستطع أن أقاومها وهى ترفعنى عاليًا وتطرحنى أرضًا، نهضت لكننى شعرت بدوار شديد، ثم سمعت أنينًا مخيفًا بدأت الشجرة من بعده تتساقط ببطء – كما يحدث فى الأحلام – حتى

تحطمت وتحولت إلى عدة أشجار أخرى فأعاقتنى أغصان الأشجار وأوراقها وسدت الطريق أمامى، عدوت باتجاه وميض البرق وكنت أجرى وسط المياه فاصطدم باطن قدمى بالحجارة وكانت مياه المطر تضربنى فـوق وجهـى كالسياط، شعرت برئتىّ تلتهبان فلم أقدر على المضى قدمًا، لكننـى عـدوت تحت إفريز أحد البيوت المجاورة لنا وعندئذ فقط - وبعيدًا عن قسوة الجو - أدركت بأننى كنت أجرى باتجاه أرض الرجل العجوز الذى أصابه المـلاك العابر بالعمى.

كان الرجل جالسًا فى الشرفة فوق أحد المقاعد يدخن الغليون ويرتدى قبعة وكانت عيناه الخضراوتان شاردتين، أدار وجهـه نـاحيتى، وعنـدما أبصرته عن قرب شعرت بخوف شديد فأوشكت على الهرب رغم ضـربات البرق المخيفة لكنه قال: "لا تهرب أيها الولد".

كان صوته الممتزج بصوت المطر رقيقًا ومثيرًا للرعب فى آن واحد فقلت وأنا أرتعد: "ولِمَ لا؟"

نقر غليونه فوق طرف المقعد وابتسم لى ابتسامة مثيرة للقلق ثم حرك عينيه بطريقة غريبة وقال: "لأنك لو هربت ولم تستمع لى فسوف تغرق فى الحفرة وسوف تزحف الأفاعى إلى فمك".

شعرت بلفحة الرياح وهى تضرب وجهى حين قال: "تعال إلى هنا".

- لماذا؟
- أريد أن أرى بعينيك.
- لكننى أريد أن أهرب.

قال بلهجة آمرة: "لا تتحرك".

تجمدت فى مكانى وفقدت إحساسى بجسدى وأطرافى، ولم أسـتطع أن أتحرك، ضحك الرجل العجوز فكشفت ضحكاته عن أسنانه ذات اللون البنى وفمه الشبيه بالجرح.

أمرنى مرة أخرى قائلاً: "تعال هنا".

ظللت ساكنًا فى مكانى بلا حراك وازدادت شدة الرياح مرة أخرى فتدفق رزاز المطر كثيفًا فوق جسدينا، وما هى إلا لحظة قصيرة حتى شعرت بنفسى أتحرر من ثباتى وراح شىء ما بداخلى يتحرك، حاولت مقاومة ذلك الشىء لكن الرياح كانت أقوى من قدرتى على المقاومة بينما كان العجوز الأعمى يضحك وأنا أقاوم، ثم اكتشفت أن الرياح قد شقتنى إلى نصفين وفصلتنى عن نفسى وفجأة لم أقدر على معرفة إذا ما كان شىء ما بداخلى يطفو باتجاه العجوز الأعمى أم أن العجوز هو الذى كان يطفو باتجاهى ويخترق شعورى؟ لم أستطع أن أعرف.

توقفت الرياح فتوقف معها المطر ثم اكتسى كل شىء بالظلام، حاولت أن أختلس النظر هنا أو هناك غير أننى لم أستطع رؤية أى شىء، وإنما مرت أمام عينى أشياء خضراء سميكة كأننى كنت أعانى من كابوس مخيف، بدأت أرى تدريجيًا فرحت أتفحص العالم من حولى مرة أخرى لكننى صرخت من هول ما رأيت، كان كل شىء مقلوبًا رأسا على عقب، وكان العالم صغيرًا والأشجار العملاقة تتحرك ببطء وتحول المطر إلى ليل دائم والليل إلى مطر متواصل، كانت الأرض مليئة بفوهات البراكين وظلت تتحرك كأنها وحش نائم وتخلّلت الفراغات بين الأشياء أرواح مرعبة مليئة بالجروح لم أشاهد مثلها من قبل، وكانت الجروح تنزف صديدًا وعندما بدأت الأرواح تتحدث تدفَّق بصاق أخضر اللون من أفواهها، صرخت من الخوف واحتقنت عيناى ثم تراءت لى ابتسامة الملك الشاب، وسرعان ما اختفت لكنها ساعدتنى على الرؤية بشكل أفضل، سمعت صوت الساحرات الصاخب وهن يعترفن بأعمالهن الشريرة، ورأيت الوحش الذى انشق من الأرض بفمه المتثائب وعينيه المتوهجتين الحمراوين ومخالبه الطويلة؛ فتراجعت إلى الوراء وهبَّت رياح قوية داخل رأسى واحتقنت عيناى مرة أخرى حتى انتابنى إحساس بأنهما ستحترقان، وأخيرًا ساد ظلام دامس.

فتحت عينى فوجدت نفسى واقفًا ما أزال ومياه الأمطار تغمر وجهى، وكان العجوز الأعمى جالسًا خلفى فى مقعده وهو يداعب الهـواء بأصـابعه العقفاء، كان غليونه فوق الأرض وقبعته غارقة فى مياه المطر وبداخلها قط أبيض كبير جميل ذو عينين صغيرتين، سارع القط بالقفز من القبعـة حـين هممت بالتحرك ثم اختفى بسرعة، وحين طلب العجوز الأعمـى المسـاعدة انفتح باب ما وخرجت منه امرأتان شاهدتا العجوز وهو يتلَوى فوق الأرض المبللة بفم مفتوح لا يتحرك، كما أبصرتانى واقفًا إلى جواره، أومأتـا لـى بإشارات غريبة، ثم صاحت كلتاهما بصوت عال فهربت مقتحمًا ذلك الطقس السيىء لكنهما لم يتبعانى.

شعرت بألم فى جلدى من شدة المطر ورغم ذلك لم أتوقف عن الجرى وحينئذ أبصرت المستقبل كله فى لحظة خاطفة وقبل حدوثه، شاهدت البيوت التى لم يكتمل بناؤها بعد وهى تنهار من شـدة الأمطـار، دون أن تخلِّـف وراءها سوى القضبان الحديدية الملقاة فوق الأرض المبللة، لقد حـدث كـل شيء بسرعة كبيرة وكنت مقتنعًا بأننى ما زلت أرى العالم من خلال عينَـى الرجل العجوز الأعمى.

عندما وصلت إلى البيت كانت أمى واقفة عند الباب وهى تزيح المـاء بطاسة من البلاستيك خارج الحجرة، كانت كل الثقوب ترشح بالمياه وكأنهـا صنابير مفتوحة، وكان السرير مبللاً عن آخره وكانت المياه تتسـاقط مـن الملابس والأوانى والجرادل المنتشرة فى كل مكان.

قالت أمى كأننى لم أحضر لتوى: "هيا سـاعدنى فـى تفريـغ تلـك الأوعية".

وضعت حقيبتى المدرسية جانبًا وبدأت فى سكب المياه من الجـرادل والأوانى ثم وضعتها فى أماكنها وقلت: "إننى مصاب بنزلة برد".

قالت أمى كأنها لم تسمعنى: "أفرغ تلك الأوانى من المياه".

قلت: "سيصيبنى المرض".

واصلت أمى نزح المياه من الحجرة باتجاه الممر الضيق وقالت: "إذا قاومت المرض فسوف أقدم لك قطعة من السمك المقلى وإذا أفرغت الأوانى وساعدتنى فى تجفيف الحجرة فسوف أحكى لك حكاية جميلة".

- أية حكاية؟
- عن المطر وإله المطر.

أفرغت الأوانى بحماس كبير وكان جيراننا ينظرون إلينا من نوافذهم ولم تكن السماء توحى بأن المطر سيتوقف، بعد انتهائى من إفراغ الأوانى أحضرت خرقة بالية ورحت أساعد أمى فى تجفيف الأرض، هبط الليل ممتزجًا بقطرات المطر، وعندما أصبحت أرض الحجرة جافة بقدر ما استطعنا نهضنا وغسلنا أيادينا ثم خرجت أمى لإعداد العشاء لكننى بقيت بالداخل وأنا أقاوم البرد الشديد وأحاول جاهدًا أن أتجاهل صوت الرياح العاتية، رقدت فوق السرير وغطيت نفسى ببطانية مبللة بالماء وحين غلبنى النوم سمعت هدير ملك المطر الصاخب وعندما تلألأت عيناه انتشر ضوء باهر فى كل مكان، بدا لى فى بعض الأحيان كأنه زجاجة مضيئة تندفع بقوة باتجاه حائط أسود.

انتشرت رائحة الطعام فى الحجرة فشعرت بقليل من الدفء وألقت الشمعة المشتعلة فوق الطاولة بظلالها الكبيرة فوق الجدران، انتصبت واقفًا وشاهدت أبى وهو يصارع الهواء، ويحنى رأسه بسرعة ويتمايل يمينًا ويسارًا ويراوغ ظله، وحين شاهدنى قال: "إن والدك سيصبح بطل العالم".

- فى أى شىء؟
- سأصبح ملاكمًا.

بدا مسرورًا من شيء ما وهو يواصل الانحناء برأسه والاندفاع بجسده في كل الاتجاهات والإمساك بالهواء، وبدت أمي في حال أفضل بوجهها المتألق وشعرها المصفف وحينٍ أصبح المطر خفيفًا ولم يعد يتساقط بغزارة بدأ أبي في ملاكمة الهواء وظلٍّ يتحرك ويدور حول أمي فقالت لي: "إن أباك سيصاب بالجنون".

- لماذا؟
- إنه يتدرب لكي يصبح ملاكمًا.

ظللنا نراقبه وننظر إليه وهو يهاجم الناموس والحشرات الطائرة حتى أصبح جسده مبلَّلاً بالعرق، وكانت ملامح وجهه غارقة في تركيز مثير للضحك.

قالت أمي: "كم نحن مساكين، كيف سيتسنى لنا إطعام ملاكم؟"

توقف أبي فجأة كأنه قد تلقى ضربة في بطنه ثم تشبث بالأرض بحركات بطيئة ورقد مغشيًا عليه متظاهرًا بأن الضربة كانت قوية، فضحكت أمي وتلألأت عيني بشعاع من الضوء وكأن مخي كان يحتوي على كاميرا بداخله ثم هدأ كل شيء في لحظة واختفت الجدران وتلاشت الحجرة وانتقلنا - من خلال أحد فراغات ذلك الوقت - إلى مكان آخر.

قلت: "نحن الآن فوق سطح القمر".

سأل أبي وهو ينهض ويسوِّي بنطاله: "هل الطعام جاهز؟"

أحضرت أمي الطعام ورحنا نتناوله في هدوء وكانت شهية أبي مفتوحة عن آخرها؛ حتى أنه التهم الطعام المتواضع باستمتاع بالغ وبعد أن انتهينا أشعل سيجارة وانشغلت أنا وأمي بتنظيف المائدة، كان أبي يدخن فوق مقعده ويسحب الدخان بعمق ثم يتنهد تنهيدة طويلة بينما جلست أمي على الأرض، وبدأت تعد نقودها داخل السلة وتقول: "هذا الموسم الماطر سيجعلنا أكثر فقرًا".

قال أبى: "سيتوقف المطر قريبًا".

تذكرت عندئذ الحكاية التى وعدتنى أمى بها فسألتها عنها، ابتسمت أمى لكنها واصلت عد النقود مستخدمة كل أصابعها فى العد، وفجأة ارتعش أبى وارتجف كتفاه فنهض بسرعة وارتدى حذاءه وخرج.

قلت متسائلاً: "ماذا حدث؟"

– لقد شعر والدك بشىء ما.

– أى شىء؟

– رسالة ما وربما تحذير ما.

– كيف؟

– فى جسده.

ظللت صامتًا واجتاحنى خوف غريب لم يكن من اليسير تفسيره، واستطعت أن أسمع العالم وهو يتنفس، توقفت أمى عن عد النقود ووضعت السلة بعيدًا وأرسلتنى لشراء كمية صغيرة من الأجوجورو.

خرجت فى الظلام بعد أن توقفت الأمطار لكن الهواء كان مثقلاً بالرطوبة والبخار، وكانت المياه تتسرب من كل الأسطح والطريق مغطًّى بالوحل وكان الهدوء يخيم على الحى كأن المطر قد التهم كل الأصوات وكانت الطريق التى لم أعرفها من قبل مليئة بالمبانى والجدران مبللة والمياه تتساقط من الأسطح، وعند واجهة الحى سمعت المياه وهى تتدفق فى البالوعات وكان الحى خاليًا من الناس، كانت الأشجار تتلوى فى الظلام ولم يكن بمقدورى سماع شىء سوى أوراق الأشجار التى بدت لى كأنها تتنفس، أصابتنى رعشة ما فى جسدى وعبرت الشارع فرأيت الشاحنة المحترقة وقد تقلص حجمها أو هكذا بدت لى، ولم يكن ثمة شىء يعيد كابينة المصور إلى الذاكرة سوى تلك الشظايا الزجاجية الملقاة على الأرض، طرقت باب بائعة الأجوجورو ففتحت الباب بعد لحظات وقالت: "نعم؟"

كان وجهها صارمًا ومليئًا بالخدوش مما أخافنى، لكننى استجمعت شجاعتى وطلبت منها الكمية المطلوبة، تناولت الزجاجة التى معى وعادت إلى حجرتها تاركة إياى فى الطريق المثقلة بالرطوبة والبخار، واستطعت أن أسمع العائلة وهى تتبادل الحديث بالداخل وبعد لحظة قصيرة خرجت المرأة وكان وجهها لا يزال متجهمًا وهى تمسك طرف عباءتها بإحدى يديها، شاهدت من خلفها أطفالها الخمسة وزوجها جالسين فى الحجرة فى دائرة على الأرض وهم يتناولون الطعام من نفس الإناء، ناولتنى الزجاجة وأخذت منى النقود ثم غادرت المكان الغارق فى السمك الجاف والبول ومضيت نحو الواجهة، كنت أفكر فى المصور حين رأيت رجلاً يتحلق حول الشاحنة المحترقة، تصورت فى البداية أنه أبى لكننى عندما اقتربت فوجئت برجل غريب تمامًا يبول فوق باب الشاحنة وكان البخار يتصاعد من بوله.

- إلى أى شىء تنظر؟
- لا شىء.
- ابتعد عن هنا، أنت طفل عديم التربية.
- أنا لست كذلك.
- اخرس.
- لا، لن أخرس.

صاح قائلاً: "ماذا؟"

ثم راح يسب ويلعن حتى قال: "لقد جعلتنى أبول على نفسى".

ضحكت ثم كتمت ضحكاتى فسألنى غاضبًا: "من هو والدك؟"

استدرت وهممت بالمغادرة حين سمعته يسب ويلعن مرة أخرى، وعندما نظرت خلفى كان يتتبعنى وهو يواصل تبوله فوجدت نفسى أجرى بكل ما أملك من سرعة.

زعق بأعلى صوته قائلاً: "سيعاقبك الله أيها الطفل السيئ".

قلت: "وأنت أيضًا لن تفلت من عقاب الله".

صاح بصوت مخمور وراح يكيل الاتهامات واللعنات على الجيل الجديد من الأطفال، وهو يتعقبنى ويقول: "أطفال حمقى وعديمو الإحساس".

خفت منه فجريت وبدأ الأجوجورو يتساقط من الزجاجة ولم يكن أمامى سوى الاختباء خلف الأغصان الكثيفة لإحدى الشجيرات ولم أشعر بالأمان إلا حين اختفى صوته، وعندئذ بدأت أزحف حتى وصلت بالقرب من فناء البيت غير أن صوته كان يخترق أذنى بين لحظة وأخرى عبر الظلام.

لم يعد لصوته وجود فأدركت أننى بعيد عنه بما يكفى ثم نهضت من مكان اختبائى وكانت الرياح قد بدأت تهب من جديد وتصفر فى أذنى، تحرَّكتْ إحدى القطط فجأة بالقرب منى فى الظلام وصدر منها مواء صاخب فأصابنى فزع كبير قفزت على إثره، وتدفق الدم إلى جانب وجهى ثم سمعت أصواتًا رقيقة تنادينى فى الظلام، مضيت نحو الشارع وظلت الأصوات الرقيقة تلاحقنى وتنادينى من بين أغصان الأشجار القريبة من النافذة الأمامية لأحد البيوت الريفية، شعرت بالخوف عند سماعى لتلك الأصوات وبعد أن خفَّتْ حدَّة الرياح أجبت عليها قائلاً: نعم، "أنا أزارو".

كنت متيقنًا أنها ليست أصوات الأرواح التى أعرفها وإنما هى أصوات أطفال يسخرون منى فى الظلام لكن الأصوات تغيرت وبدأت تتغنى باسمى وتعزف ألحانًا راقصة، فقلت متحديًا إياها: "فلتظهروا ودعونى أرى وجوهكم".

غضبت وألقيت عليهم قطعًا من الخشب وبعض كرات من الورق المجفف لكننى فوجئت وأصابتنى الدهشة حين ردُّوا على بإلقاء الحجارة فأصيب كتفى بواحد منها، وضعت زجاجة الأجوجورو فوق الأرض ورحت

ألعنهم وأرشقهم بالحجارة أيضًا حتى تصبَّب جسدى كله بالعرق، كنت بارعًا في إلقاء الحجارة لكننى غضبت لعدم إصابتهم ولعدم سماعى بكاء أى أحد منهم، حتى أننى لم أنتبه للوقت الذى توقفتْ فيه تلك الأصوات وكان الشىء التالى الذى سمعته هو صوت زجاج يتحطم، فعرفت أننى حطمت إحدى النوافذ، وعلى الفور أضيئت حجرة النافذة التى تحطمت وسمعت صوت المفتاح وهو يستدير داخل القفل ثم تحركت الستارة، فظهر الرجل الأعمى وهو يحمل فانوسًا سارع بوضعه فوق جدار النافذة المحطمة ونظر إلىَّ بعينين متدفقتين بالشرر وصاح طالبًا النجدة ولم أسارع بالتقاط زجاجة الأجوجورو من الأرض والهرب إلا حين أدركت أنه بيت الرجل الأعمى الذى تحطمت نافذته.

سألتنى أمى عندما دخلت: "أين كنت؟ ولماذا تأخرت؟"

- لم أذهب إلى أى مكان.
- إن ملابسك مليئة بالتراب والطين ولقد تساقط الأجوجورو من الزجاجة فوق جسدك حتى أن رائحة كريهة تفوح منك، ماذا كنت تفعل إذًا؟
- لا شىء.

نهضتْ وسارعتْ بالتقدم نحوى وهى تهددنى ثم تغيرت ملامح وجهها، وقالت: "لقد شربت الأجوجورو، أليس كذلك؟"

قلت بخجل: "بلى، نعم".

امتدتْ يدها نحوى بسرعة تفوق سرعة الرياح وأمسكت بى وضربتنى فوق رأسى ثم رفعت إحدى قدميها وخلعت الشبشب وراحت تضربنى به فوق ظهرى وتقول: "أنت تشرب الأجوجورو رغم أنك لا تزال طفلاً صغيرًا".

- لا.
- وتسرق الأجوجورو؟
- لا.

صاحت قائلة: "أنت تختبيء بين الأغصان وتشرب، أليس كذلك؟"

انعكست ضربات الشبشب على تعبيرات وجهي فهربت منها وهرعت نحو الباب، وما أن فتحته حتى رأيت أبي واقفًا بلا حراك كأنه شخص غريب، وضعتْ أمي الشبشب على الأرض ثم جلستْ فوق السرير، دخل أبي وأغلق الباب قائلاً: "إن رياحًا شريرة تجتاح رأسي".

لم يجلس – كعادته – فوق مقعده لكنه وقف إلى جوار النافذة واستطرد قائلاً: "إلى متى سيظل المرء يكافح ويعمل بشقاء؟ أما لذلك الشقاء من نهاية؟"

سادت لحظة من الصمت حاولت خلالها أن أبكي من شدة الألم الذي لحق بي بسبب ضربات أمي فوق ظهري، لكن حالة أبي المزاجية حالت دون ذلك، ثم كسرت أمي حدة الصمت وقالت: "يوجد بعض الأجوجورو فوق المائدة".

التقط أبي الزجاجة بعينين شاردتين وكأنه شخص استيقظ لتوه من نوم عميق ووجد نفسه في أرض غريبة ثم مضى نحو الباب، ربطتْ أمي رأسها بقطعة من القماش وتناول أبي جرعة كبيرة من الشراب، وبدأ يناشد أسلافه ويتوسل إليهم أن ينقذونا من ذلك الفقر والجوع ومن تلك المتاعب التي تلاحق حياتنا، كان يبحث عن دليل وعلامات ترشده وتنير عقله حتى يتمكن من فعل شيء يقاوم به معاناتنا، صبَّ لنا بعضًا من شراب الأجوجورو ورشف كأسه في جرعة واحدة، ثم أغلق عينيه وقال بسأم: "شيء ما غريب في طريقه للحدوث لكنني لا أستطيع معرفته أو التنبؤ به".

ظل أبي ساكنًا دون أن يفتح عينيه وبين الحين والآخر كان يهز رأسه للوراء ويقول: "إن الرياح الشريرة لا تحرر المرء من فقره بل تجعله فقيرًا على الدوام".

كنت أنا وأمي ننظر إليه باهتمام بعد أن ظل صامتًا لمدة طويلة جدًا، وكان المكان غارقًا في الأجوجورو ومياه المطر فراحت أمي تنظف الحجرة

وأعددت حصيرتى، وما إن بدأت أرقد فوقها حتى سمعنا طرقات قوية فوق الباب فخطر ببالى أنه المصور لكننى حين فتحت الباب شاهدت العجوز الأعمى ومعه رجل آخر وامرأة.

قال أحدهم: "ها هو".

حاولت إغلاق الباب بسرعة لكن الرجل وضع قدمه الكبيرة حاجزًا واندفع إلى الداخل.

تساءل أبى قائلاً: "من الطارق يا أزارو؟"

جريت للاختباء خلفه وقلت: "لا أدرى".

دخل الغرباء الثلاثة إلى الحجرة فاكتسى وجه أمى بالرعب، وكان العجوز الأعمى يمضغ شيئًا ما فى فمه ويلوِّح بالعصا فى الهواء، وكان الرجل الآخر متعلقًا بذراعه، أما المرأة فقد وقفت فى منتصف الحجرة واضعة كلتا يديها فوق فخذيها بعد أن ارتسم وجهها بملامح العنف والتحدى، مال العجوز الأعمى برأسه وأدار وجهه نحو أحد الاتجاهات ثم انتقل به إلى اتجاه آخر وكانت عيناه ترشحان بسائل أخضر، لوَّح بالعصا مرة أخرى فأوقع الشمعة فسارعت أمى بالتقاطها ووضعها فى صحن الفنجان فوق المائدة، وأثناء ذلك أصابتها العصا بضربة فوق مؤخرتها ثم وقعت العصا من يد العجوز الأعمى، التقطتها المرأة المصاحبة وأعادتها إلى قبضة أصابعه وقالت بصوت غاضب: "لقد حطم ابنك نافذتنا".

قلت: "لم أفعل".

رد أبى قائلاً: "اخرس".

واستطردت المرأة: "لقد حطَّم نافذة الرجل العجوز بالحجارة".

وقال الرجل: "يجب أن تعلم ابنك الأدب".

وأضافت المرأة: "اضربه واجلده".

فرد الأعمى ذراعيه للأمام وبدأ فى التحرك لكنه تعثر فى خطواته لعدم معرفته تفاصيل الحجرة، ثم أدار لسانه فى فمه وقال: "أين الولد؟ فليأت إلى هنا".

سارعت بالاختباء تحت السرير وسمعت المرأة وهى تقول لأبى: "نريدك أن تدفع لنا ثمن النافذة".

- الزجاج غالى الثمن!

تقدم العجوز الأعمى وقال بصوت أجش وغير طبيعى: "أحضره لى هنا ودعنى أمسك به".

تساءل أبى: "وكيف عرفتم أن ابنى هو الذى كسر النافذة؟"

قالت المرأة بعد أن غيَّرت من وقفتها: "لقد شاهده العجوز".

صمت الجميع وساد الحجرة لحظات من الصمت قطعه أبى متسائلاً بقليل من الشك: "العجوز الأعمى؟"

- نعم.

سادت لحظات أخرى من الصمت أضاف أبى بعدها قائلاً: "وكيف شاهده؟"

لقد شاهد ابنك وهو يلقى بالحجارة.

- كيف؟

- أى نوع من الأسئلة هذا؟

- كيف شاهده؟ ذلك ما أعنيه.

- إن العجوز يستطيع أن يرى حين يريد.

اختلست النظر من خلف السرير فشاهدت العجوز وهو واقف فى مكانه رافعًا كلتا ذراعيه فى الهواء، وكانت رأسه تتمايل وعيناه تتحركان بطريقة

غريبة ثم أصابنى خوف شديد ودهشة عظيمة حين أشار العجـوز بعصـاه ناحيتى وتحولت كل الأنظار ناحيتى، فتح العجوز فمه وتمتم بأصوات غريبة وانفعال شديد ثم عاد إلى طبيعته فجأة وتوقف عن الادعـاء بقدرتـه علـى المشاهدة، تقدَّم للأمام ومرّض بجوار ركبتَى أمى، لكنه تعثر فـى الطاولـة فسقطت الشمعة وغرقت الحجرة فى الظلام، تسلق السرير بسرعة لكنه بذل مجهودًا كبيرًا فى الصعود، وفى تلك الأثناء أشعل أبى عـودًا مـن الثقـاب فشاهدنا العجوز وهو يترنح باتجاه أبى كحيوان مجنون ويصـفق بذراعيـه ويصدر أصواتًا غريبة من حلقه دون أن يتوقف عن الصراخ والعويل، شعر أبى بالخوف لسبب ما فسقط من فوق المقعد ثم تحـرك العجـوز نـاحيتى بإصرار عجيب وعينين مفتوحتين، وكانت دموع خضراء اللون تتدفق فـوق وجهه وحين توقَّف عن الحركة أشعل أبى الشمعة فقفز العجوز فوقى وصرخ مرة أخرى، لكننى أحنيت رأسى وانطلقت بعيدًا، سقط الرجل خلف السـرير فسارعت المرأة والرجل المصاحبان له بالاندفاع ناحيتـه لمسـاعدته علـى النهوض، لكنه صرخ بجنون هذه المرة وفرد ذراعيه بعيدًا فى الهواء وكأنه وحش ثائر، ثم راح يتعقبنى مرة أخرى ويمضى ورائى فـى كـل أرجـاء الحجرة، ظللت أجرى حول المائدة بشكل دائرى وقد تملكنى رعب هائل من مجرد التفكير فى قدرة الرجل على الإمساك بى، لكنه صمت فجأة وأصـبح هادئًا، بدا كأنه كان يقاتل بهدوء للتخلص من كابوس مخيف، وبدت الحجـرة فى شكل جديد حيث تلونت باللون الأحمر ثم أصابتنى الدهشة حـين رأيـت رأسين للرجل العجوز إحداهما بعينين سليمتين ووجه يحمل ابتسـامة قويـة ومخيفة أما الرأس الأخرى فكانت عادية.

قال العجوز بصوت قوى ورنَّان كصوت الشـباب: "تعـال هنـا يـا Abiku*، أنت طفل روحى عنيد، أتظن أنك تتمتع بالقوة؟ إننى أقوى منك".

قالت أمى قبل أن تطلق صرخة مدوية: "ابتعد عن ابنى".

توقف الرجل عن ملاحقتى فقال أبى محاولاً إرضاء الرجل: "سوف ندفع ثمن النافذة".

عاد العجوز كما كان برأس واحدة ثم قالت المرأة كأنها تحررت من نوبة سحر: "بالطبع سوف تدفع".

تقدم الرجل الآخر وأمسك بالعجوز ثم ردَّت المرأة العصا إليه فبدأ فى السير باسترخاء وبطريقة مترهلة وغريبة، وبدا كتفاه متدليين وظهره محدودبًا ورأسه منحنية، أصبح العجوز ضعيفًا وغير قادر على الحركة وكانت عظامه تتحرك من تحت جلده وهو يتعثر فى خطواته ويتمتم بكلمات غريبة غير مفهومة، لقد ظهرت عليه علامات الشيخوخة كأن جهوده الخارقة فى الماضى تساعد الآن فى الإسراع بإنهاء حياته، غادر ثلاثتهم الحجرة دون أن يتفوه أحد منهم بكلمة واحدة.

ظللنا ننظر إليهم وهم يغادرون ونحن نلتقط أنفاسنا، وعندما تأكدنا من مغادرتهم نهضت أمى وأغلقت الباب ثم استدارت نحوى وقالت: "لماذا حطمت نافذتهم؟ أتريد أن تقتلنا وتقضى علينا؟ ألا ترى كم نحن فقراء؟ ألا تملك قليلاً من الشفقة تجاه أبيك؟ وهل تعرف تكلفة ذلك الزجاج؟"

- أنا لم أكسره.
- ومن كسره إذن؟
- الأرواح.
- أية أرواح؟

وتساءل أبى قائلاً: "كيف يمكن للأرواح أن تحطم نافذة؟"

- لا أدرى.
- دائمًا الأرواح هى حجتك كلما ارتكبت عملاً مشينًا وتسببت فى مشكلة ما، أليس كذلك؟
- نعم.

- أنت تكذب.

قلت صارخًا: "أنا لا أكذب".

كرر أبى: "أنت تكذب".

بكيت وقلت: "أنا لا أكذب، إنها الأرواح فعلاً هى التى كانت تقـذفنى بالحجارة وكنت أرد عليها".

- لماذا كانوا يلقون عليك الحجارة؟
- لا أعرف.
- وهل كسرت النافذة لأن الأرواح كانت ترشقك بالحجارة؟

لم أقل شيئًا فاستطرد أبى: "هل تعرف الآن أنك ولد مشـاغب ومثيـر للمتاعب؟ وهل تدرى بأنك سوف تقتلنا فى يوم ما؟ سـوف ننهـار بسـبب مشاكلك الكثيرة، انظر إلى ما فعلته، لقد كنت سببًا فى دخول الرجل العجوز إلى حجرتنا، أتعرف مدى قوته؟ أرأيت الطريقة التى تعامل بها معنا؟ إن الله وحده الذى يعلم ما كان سيحدث لك لو أمسك بك!"

تقدَّمت أمى ناحيتى بصعوبة والخوف يتملكها وأمسكت أذنـى بقـوة وراحت تضغط بأصابعها وإبهامها حتى خيل لى أنها سوف تنزع أذنى مـن رأسى فصرخت وبدا أن صراخى قد زاد من حدة غضبها مما جعلها تضغط على أذنى بقوة أكثر وبطريقة موجعة ثم ضربتنى بعنف فوق رأسى، وكانت الضربة مؤلمة بشدة جعلتنى أترنح عبر الحجرة فوقعت منهارًا بجوار الحائط ورحت أزحف على الأرض وأنا صامت متطلعًا إلى أمى بإجلال لا يخلو من الرغبة فى الانتقام.

قال أبى: "لا تنظر إلى أمك هكذا".

نظرت إلى أسفل ورحت أبكى فى صمت وغرقت عيناى فى الـدموع حتى تساقطت فوق فخذى، وظللت هكذا حتى ابتعدت أمى بسـرعة حاملـة

الشمعة معها، ذهب كلاهما للنوم لكننى بقيت جالسًا بجوار الحــائط دون أن أتحرك من موضعى رغم شخيرهما المتواصل وتقلباتهما فوق السرير، ولــم يعد يعنينى إذا ما لاحظ أى منهما الطريقة التــى أمــارس بهــا احتجــاجى وغضبى أم لا فلقد قررت أن أظل هكذا إلى الأبد.

وجدت نفسى فى الصباح متمددًا فوق الحصيرة وثمة ملابــس باليــة تغطينى وقطرات جافة من الدموع تكسو وجهى، نهضت وغمرنى إحســاس جارف بالسعادة وحين ناولتنى أمى قطعة من الخبز نسيت أننى غاضب منها ومن أبى ومن كل شخص وكل شىء.

حملتْ أمى سلة بضائعها وخرجت للعمل.

(٢)

كنت جالسًا فى الحجرة حين عاد أبى من عمله فى المساء وبصحبته النجار ولوح من الزجاج ولم يستطع إخفاء غضبه الشديد منى، وضع لوح الزجاج جانبًا ثم غيَّر ملابسه وخرج دون أن يتفوه بكلمة واحدة، تابعت خطواته وهو يبتعد شيئًا فشيئًا فعرفت أنه ذهب مع النجار إلى بيت العجوز الأعمى، كان النجار هو نفس الشخص الذى أشرف على بناء الكاونتر فى حانة مدام كوتو.

كان العجوز الأعمى جالسًا فى الشرفة بالخارج واضعًا قطته بين ذراعيه والغليون فى فمه وكان يرتدى نفس القبعة التى شاهدته بها أول مرة، لم يقل أبى أى شىء له وإنما أشار إلى النافذة فقام النجار على الفور بإزالة شظايا الزجاج المكسور من بين إطار النافذة، انزعجت القطة وقفزت من بين ذراعى العجوز، أما المرأة فقد اعترضتْ وتذمرتْ حين امتلأت الحجرة بشظايا الزجاج وطلبت من النجار أن يكنس الحجرة لكنه رفض وأسقط الشاكوش وبقية معداته على الأرض، خرج بعض الرجال من البيوت المجاورة ودفع أحدهم النجار بيديه ثم دفع أبى أيضًا بنفس اليدين فى محاولة منه للدخول، واستطعت فى تلك اللحظة أن ألمح محاولات أبى الشاقة فى احتواء غضبه والسيطرة على نفسه، احتدم النقاش والجدل وعلت الصيحات فتجمَّع عدد كبير من الناس وجاءت مدام كوتو لمعرفة ما يحدث وحين شاهدتْ أبى حاولت تهدئة الوضع القائم غير أنها لم تفلح وراح أبى يكيل لها الشتائم، انسحبتْ مدام كوتو ومضت بعيدًا فى هدوء وهى تلعن أبى وكل الرجال.

أصبح الجدل بشأن كنس الحجرة وتنظيفها من بقايا الزجاج المتناثر ساخنًا وعنيفًا، ثم صاح العجوز بعد فترة وسمح للنجار بمواصلة عمله وقال:

"أيها الناس، أتريدوننى أن أموت من لسعات الناموس وأنا فى مثل هذا العمر؟"

توقفت المناقشات والشجارات فى الحال وسمحت المرأة للنجار بأن يواصل عمله بشرط أن يتساقط الزجاج خارج الحجرة لكنه لم يستأنف العمل إلا بعد أن قدَّم له أبى زجاجتين من البيرة وقليلاً من جوزة الكولا، هزَّ العجوز رأسه معبرًا عن رضاه بعد أن وضع النجار الزجاج الجديد داخل إطار النافذة الخشبى وقد طرب لسماع أدوات النجار وهى تدُق وتصدر ألحانًا مختلفة ثم طلب آلة الأكورديون كأنه أراد أن يضيف ألحانًا أخرى ممتعة وبينما كان النجار يدُق المسامير فى الخشب محاولاً تثبيت لوح الزجاج ووضعه فى مكانه بدأ العجوز الأعمى يعزف ألحانًا لم أسمع أسوأ أو أبشع منها فى حياتى؛ مما جعل النجار يرتبك ويدُق المسمار فوق إبهامه ومما جعلنى أشعر بالقرف وحين نظرت إلى وجه أبى وهو يصوِّب نظراته البائسة إلى العجوز أدركت على الفور مدى كراهيته لتلك الموسيقى لكن العجوز كان يعزف بسعادة بالغة وغليونه عالق فى فمه، انسحب أبى إلى أبعد مكان فى البيت وحاول النجار أن يعمل بسرعة للانتهاء من تركيب النافذة حتى يتمكن من تحقيق رغبته فى الهرب من صوت تلك الموسيقى البغيض لكنه لم يتمكن من ذلك إلا بعد أن شعر العجوز بالملل من الأكورديون وطرحه جانبًا.

استقرَّ لوح الزجاج داخل إطار النافذة فراحت المرأة تشتكى من الشظايا المتناثرة داخل الإطار غير أن النجار التقط أدواته استعدادًا للرحيل وكأنه لم يسمعها، لملم أبى بقايا الزجاج المتناثر ووضعه فى الجاروف ثم ألقى به خلف الشاحنة، وأثناء مغادرته بصحبة النجار قال العجوز: "لو أن ابنك هذا تسبَّب لى فى مشكلة أخرى فسوف ألقنه درسًا لن ينساه أبدًا".

لم يقل أبى شيئًا ومضى فى طريقه نحو البيت مع النجار حيث اشترى له بيرة أخرى، لم يتردد النجار فى احتسائها وقد غمره شعور جارف

بالسعادة، كانا يتحدثان عن مدام كوتو ولم يتطرقا فى حديثهما إلى الشـئون السياسية.

كنت أنظر إليهما من فوق عتبة الباب حين قال أبى: "ادخـل إذا أردت أو اذهب لتلعب".

دخلت وكان النجار منتشيًا من البيرة فعرض على أبى أن يصلح لـه مقعده، لكن أبى قال بطريقة فلسفية: "لا، أنا أحبه هكذا فهو يـذكرنى بأننـا سنسقط فى يوم ما مهما كان المقعد الذى نجلس عليه".

ضحك النجار وقام واحتسى آخر رشفة من البيرة ثم راح يساوم أبـى من أجل أجرته، وأخيرًا قبل ما دفعه له أبى بنـوع مـن التـردد وسـارع بالمغادرة.

عادت أمى من عملها وكان الإرهاق الشديد باديًا فوق وجهها الملـىء بالتراب وتلك البقع والظلال القاتمة الناتجة عن قلة النوم واعتلال الصـحة، وعندئذ فقط نهض أبى فجأة وقفز فوقى بعد أن سحب حزامه مـن بنطالـه وأغلق الباب ثم مزق قميصى من الخلف وراح يجلدنى بـلا رحمـة وظـل يلاحقنى بضرباته وأنا أجرى وأرتجف حول الحجرة، ضربنى بكل ما تملك عضلات جسده الكبير من قوة حتى امتلأ جسدى بومضات مضيئة من الألـم الناتج عن انسلاخ جلدى، اكتسى وجهه بتعبيرات وحشية وبـدت طرقعـات الحزام فى فضاء الحجرة كأنه سوط كبير، قفزت وكان جسدى يتلَوى بطريقة جنونية، فربط أبى قدمى ورقبتى وظهرى ورجلى وكلتا يدى وبدأ فى ضربى من جديد كأنه ملاكم محترف يضرب منافسًا ضعيفًا بغضب ثم قـال: "أنـت طفل عنيد وأنا أيضًا أب عنيد فإذا أردت العودة إلى عالم الأرواح فلتعد وإذا أردت البقاء فلا بد أن تكون ولدًا طيبًا".

توقفت عن الجرى فى أرجاء الحجرة ووقعت منهارًا فوق كومة قريبة من الباب وكان أبى راغبًا فى سماع بكائى وصراخى للتأكد مـن أن عقابـه

جاء بالنتيجة المطلوبة حتى ينعم بقليل من الرضا، لكننى لم أمنحه هذه الفرصة ولم أحقق رغبته فقد بقيت صامدًا دون بكاءٍ أو صراخ خاصة وأن شعورى بالألم قد تلاشى فاستشاط أبى غضبًا، ثم توقَّف عن ضربى بعد فترة طويلة واستسلم ولم أكن أدرى حينئذ إذا ما كان مستمرًا فى معاقبتى أم أن الألم الذى أحسست به لم يكن سوى خيال من خيالاتى الكثيرة، طرح ذراعيه جانبًا وجلس فوق مقعده ورقدت أنا على الأرض حتى جاءت أمى ورفعتنى فوق السرير.

قال أبى متوعدًا وهو ينهض: "لا تقدمى له أى طعام هذه الليلة".

كنت أنظر إليهما فى تلك الليلة وهما يتناولان طعامهما وبعد فترة شعرت أمى بالضعف ولم تستطع مقاومة قلب الأم الرقيق بداخلها، فناولتنى بعض الطعام سرًا لكننى رفضت تناوله، نام أبى بسلام فى تلك الليلة وراح يطلق شخيرًا مدويًا كالثور، وفى الصباح رفضت الذهاب إلى المدرسة ورفضت اللعب وتناول الطعام وبقيت جالسًا فوق السرير تملأنى الرغبة فى الانتقام وكان ذلك مدخلاً جديدًا إلى حالة غريبة فى شخصيتى، بدأت أتغذى على جوعى بشهية عظيمة وانسحبت داخل نفسى فاكتشفت كثيرًا من العوالم الأخرى فى انتظارى، اخترت عالمًا لا توجد فيه أرواح وانتظرت، إنه عالم الأشباح، عالم المجاعة والعجز والجوع والظمأ والجفاف وبقيت فى ذلك العالم مدة طويلة أيقظتنى أمى خلالها عدة مرات، ولم يتوقف خلالها أبى عن تذمره وشكاواه وعن كيفية تدبير المال اللازم لإطعامى والحديث بصوت عال عن تكلفة زجاج النافذة وعن الإذلال الذى يعانى منه فى السر وفى العلن بسببى، كان أبى يتحدَّث أيضًا عن الكرب والضيق الذى يعانى منه فى عمله حتى قال أخيرًا: "إن أزارو ولد سيئ ومثير للمتاعب وهو السبب الوحيد فى القضاء على أحلامى".

توقفت عن الاستماع إليه وانسحبت خارجًا من عالم الوجدان والأحاسيس والعواطف، حتى أننى رفضت تناول الطعام فى الليلة التالية

أيضًا فأصبح فمى جافًا وفقدت القدرة على الحركة وشعرت بنفسى خفيفًا كالضوء، ثم تملكنى إحساس غامر بالنشوة والابتهاج شممت بعده رائحة الأعياد وعالم الأرواح وشاهدت الناس وهم يعزفون الموسيقى فى الساحات والميادين وأبصرت نافورات من البهجة، وحين رحت أستمع إلى موسيقى الجوع والظمأ والجفاف امتلأت رأسى بالهواء وتقلّص وجهى واتسعت عيناى.

فى اليوم الثالث من رفضى للطعام بدأت فى مغادرة العالم وأصبح كل شيء بعيدًا ومختلفًا وغريبًا واشتقت للرحيل والابتعاد وأنا أغنى أغنية الرحيل، التى لا يستطيع القيام بغنائها سوى زملائى فى الروح بطريقتهم المتميزة والفريدة والتى يبدون - أثناء غنائها - كأنهم يعزفون على الفلوت فوق جبال مهجورة، أصبح وجه أمى بعيدًا واتسعت المسافة بيننا وأصبح وجه أبى كبيرًا ومتجهمًا لكنه لم يعد يخيفنى لأن علامات التجهم والصرامة التى تظاهر بها وبدت فوق ملامحه أضفت عليه قوة خيالية جعلته يبدو فى شكل مضحك، وكان انسحابى من العالم بمثابة عقاب له ولقد سببت لكليهما العذاب عندما استمعت بكل أحاسيسى للألحان الفريدة لأصدقائى الروحيين، كبرت معدتى أثناء تلك الحالة من الجوع وهى تتغذى من وجبات العالم الآخر، وكنت أرى وأستمع إلى شرور العالم بابتهاج وأمتص طعام المعاناة الطافح فوق الهواء الذى نتنفسه والذى نراه من خلال كل تلك السلسلة من الشرور، سمعت أمى وهى تبكى ولم أتحرك من مكانى وإنما غرقت داخل الهدوء والصفاء المثالى الذى تتمتع به شخصية الأطفال الروحيين، ذلك الهدوء والصفاء الذى يتقبل أقصى التجارب والخبرات بدون انزعاج لأن طفل الروح متآلف مع الموت، لم أنم لمدة ثلاثة أيام ولم أتناول أى شيء من الطعام، فظلت أمى تبكى بلا انقطاع وحين توغلت داخل العالم الآخر تراءت لى أمى فى مكان بعيد من الكرة الأرضية.

فى اليوم الرابع بدأت تتسرب إلى روحى المتناقضة بهجة غريبة نسيت معها الجوع فاكتشفت أن روحًا برؤوس ثلاثة جالسة إلى جوارى فى حالة من الانتظار الممتزج بالصبر ولم تغادرنى أبدًا، كانت الروح تتحدث عن قسوة البشر وصلابتهم غير المقصودة وكراهيتهم لبعضهم البعض وإهمالهم وتجاهلهم الدائم لمقومات الوجود الأساسية، صمتت الروح قليلاً عندما كان أبى جالسًا فى مقعده ينظف حذاءه ويختلس النظر نحوى فشعرت بمدى ضعف الوالدين وهشاشتهما وأدركت أنهما - فى حقيقة الأمر - لا يتمتعان بأى نوع من القوة، لم يقل أبى لى شيئًا ولم يقم بأى محاولة للتحدث معى ولم يلوِّح بأدنى إشارة فى اتجاهى كما لم يفعل شيئًا لاسترضائى ولا حتى مجرد ابتسامة صغيرة، فاضطررت للاستماع إلى صاحبة الرءوس الثلاثة وهى تقول: "إن والديك يعاملانك بوحشية وكراهية، تعال معى فزملاؤك مشتاقون لاحتضانك، إن احتفالاً رائعًا فى انتظار عودتك إلى وطنك الأصلِى، إنهم يحلمون بوجودك المبهج معهم وسوف يعاملونك معاملة الأمراء، أما هؤلاء البشر فهم لا يعبأون بك مثلما لا يعرفون معنى الحب، ها أنت تموت وكل ما يفعلونه هو تنظيف أحذيتهم فهل هم يحبونك؟ إنهم بالتأكيد لا يحبونك".

فكرت فى كلمات تلك الروح وقادتنى كلماتها إلى أرض زرقاء نسيت معها ذلك الجوع الذى يمزق جسدى حيث كانت الطيور المغردة الجميلة تتسلق الأغصان وتشدو بأعذب الألحان، وكانت الأشجار ذات لون ذهبى متلألئ فانطلقت عبر الرياح المنسية حتى وصلت إلى طريق خضراء كبيرة وطويلة.

قالت صاحبة الرؤوس الثلاثة: "هذا الطريق لا نهاية له".

فسألتها: "وإلى أين يؤدى؟"

قالت: إلى كل مكان، إنه يؤدى إلى عالم البشر وإلى عالم الأرواح، إلى الجنة وإلى الجحيم ويؤدى أيضًا إلى عوالم أخرى لا نعرف عنها شيئًا.

رحلنا عبر الطريق فأبصرت الأشجار وهى تتحرك حوالينا وكانت لكل شجرة لغتها الخاصة وشكلها المتألق وشخصيتها المتميزة، لكن بعض الساحرات الفاتنات وبعض السحرة كانوا معلقين فوق أشجار أخرى بغيضة الشكل وكانوا ينظرون إلينا باهتمام خاصٍ، وأثناء مواصلة الترحال شاهدت طائرًا ذا وجه شبيه بوجه مدام كوتو، حلّق الطائر فوقنا ثلاث مرات وهبط أمامنا ثم انحدر الطريق إلى الأسفل وكلما توغلنا فى الطريق كلما أشرقت ألوان ذلك العالم المبهجة التى لم أكن أعلم بوجودها من قبل، ألوان مبهرة جدًا ومفعمة بالحياة ومتألقة، ألوان عسيرة على الفهم ويصعب معها التمييز بين الإشراق والعتمة، بدت وكأنها أحلام جديدة مما جعلنى أبحر فى حالة من الدهشة المتواصلة، ظل العالم يتغير وبدأ الطريق يتحرك مثلما يفعل النهر وراح يتدفق فى الاتجاه المضاد لسيرنا فأصبح الترحال فجأة شديد الصعوبة وشعرت بألم فى قدمى، كنت جائعًا بشدة ومع كل خطوة كنت أشعر بالرغبة فى الاستسلام خاصة بعد أن فكرت بأن الرحلة إلى العالم الآخر طويلة وشاقة وتحتاج إلى مجهود كبير ولا نهائى.

– هل سنواصل السفر فى هذا الطريق إلى النهاية؟

قالت ذات الرؤوس الثلاثة وهى تسير كأن طول المسافة لا يمثل سوى خطوات قليلة بالنسبة لها: "نعم".

– لكنك قلت بأن الطريق لا نهاية لها!
– نعم، هذا حقيقى.
– كيف يكون حقيقيًا؟
– عند نقطة معينة من المشهد سيتشكل الكون كله بكثير من المتناقضات والمفارقات، لكن كل شىء سيتضح وتلك هى معادلة التناقض.
– لا أفهم شيئًا.
– عندما نتمكن من رؤية كل شىء من جميع جوانبه التى يمكن تخيلها تستطيع عندئذ أن تفهم.

- وهل تستطيعين أنت؟

- لا.

نهض أبى من فوق مقعده ووقف أمامى وكانت أنفاسه كالرياح العاتية التى واجهتنا أثناء ترحالنا إلى العالم الآخر، لفحتنى أنفاسه ورفعتنى عاليًا فى الهواء فعرفت بأننى خفيف جدًا وشعرت بتعب شديد، وعندئذ سارعتْ ذات الرؤوس الثلاثة بالإمساك بى وسحبتنى إلى الأرض ثم قالت: "لا تحاول الطيران بعيدًا لأنك إذا فعلت فإننى لا أعرف أين ستهبط، توجد أشياء كثيرة هنا يمكنها أن تلتهم المسافر كما توجد الأرواح الشريرة بكثرة بالإضافة إلى الوحوش، فعليك أن تتمسك بالأرض الراسخة".

سعل أبى فوقعت فوق صخرة خضراء فى الطريق لكننى نهضت ورحنا نواصل رحلتنا حتى وصلنا إلى بداية أحد الأودية، كان الوادى ذا لون برتقالى، وظلت ألوانه تتغير من الأزرق فى لحظة ما إلى اللون الفضى فى لحظة أخرى لكننى كنت متأكدًا أن لونه كان برتقاليًا حين وقعت عليه عيناى أول مرة.

على جانبى الطريق كانت الأشجار مثقلة بكل أنواع الفاكهة، فبدت أرض الوادى المرتفعة كأنها مغطاة برؤوس آدمية استطعت من خلالها أن أتعرَّف على بعض الوجوه، وحين تساقطت الفاكهة وقعت الوجوه على الأرض وذابتْ من حرارة الشمس ثم تحوَّلت إلى مياه مقدسة ظلت تتدفق داخل جذوع الأشجار، وبعد ذلك بلحظات ظهرت وجوه جديدة على شكل فاكهة لذيذة فوق الأغصان، وتكررت عملية السقوط والذوبان وعملية ظهور أشكال جديدة من الفاكهة بسرعة كبيرة، فشاهدت وجوهًا كثيرة تموت ثم تحيا من جديد مع كل خطوة من خطواتى وفى لحظات قصيرة.

كان الوادى مسكونًا بمخلوقات غريبة ترتدى الأقنعة بدلاً من الوجوه وكلما نظرت إليها مدة أطول كلما ازدادت فتنتها وجمالها وربما كانت الأقنعة

هى وجوههم، كانت لتلك المخلوقات بيوت على طول جانبى الطريق، وكانت لهم أيضًا قصور ومراكز ثقافية تحت الأرض، لكن قلاعهم الممتدة بمــوازاة مقابرهم الخرافية كانت مشيدة فى الهواء، كانوا جميعًا يعملون بجد واجتهــاد فى ذلك الوادى.

تساءلت قائلاً: "ماذا يفعلون؟"

انحنى أبى نحو الأرض وركع واضعًا وجهه قبالتى ثم راح يتحسسنى فارتعش جسدى.

– إنهم يشيدون طريقًا.

– لماذا؟

أمسك أبى بكلتا يدى فشعرت بالبرودة وبدأت أرتعش من جديد ثم راح يطلق أنفاسه فى وجهى، ويبدو أن الرياح أطاحت برأسى بعيدًا، ظللت معلقًا فى الهواء حتى جاءت الروح أخيرًا وشدتنى من شعرى فنزلت على الأرض.

– إنهم يعملون فى تشييد ذلك الطريق منذ ألفى سنة.

– لكنهم لم ينجزوا منه إلا جزءًا صغيرًا!

– أعرف، لقد انتهوا من إنجاز قدمين فقط من الطريق.

– لكنهم يعملون بجد واجتهاد كبيرين!.

– وما الذى يفعلونه بكل ذلك الجد والاجتهاد؟

– يبدو أنهم جميعًا يعملون فى تشييد الطريق!.

– تمامًا.

– ولكن لماذا يقومون بعمل هذه الطريق؟

وضع أبى يده فوق وجهى وراح يتحسسنى فشعرت بوجهى يحتــرق، وحين هزَّنى ارتطمت عظامى ببعضها البعض وارتجَّت رأسى بقوة وتحرَّكت معدتى الفارغة، وبدأت عندئذ أحس بمدى الجوع الذى أعانى منه، حدَّق أبى بعمق فى عينى فتوقف بعض سكان الوادى عن العمل واستداروا بوجــوههم

المقنَّعة ناحيتنا، فألقانى أبى فوق السرير ونهض وما أن غادر الحجرة حتى بدأ الناس فى استئناف العمل من جديد.

- لأن لديهم حلمهم الرائع الجميل.
- أى حلم هذا؟

أغلق أبى الباب بقوة وهو يغادر الحجرة فاهتز كل جسدى.

- كانوا يعيشون حياة أبدية كتلك الوجوه القابعة فوق هذه الشجرة، لكنهم أصيبوا بالسأم من تلك الأبدية ولم تكن حرارة الشمس تؤثر فيهم ولم يتحولوا بفعلها إلى مياه مقدسة فأصبحوا بشرًا بأقنعة، وفى أحد الأيام أخبرهم قائدهم الملهم بوجود عوالم أخرى وعوالم من البشر فوق سطح الأرض، وكان القائد يتحدث عن بشر بعينهم وعن العظماء الذين لا يدركون عظمتهم وأطلق اسم الجنة على ذلك العالم، ثم أخبرهم بوجوب بناء طريق كبيرة وضخمة حتى يتمكنوا من تبادل الزيارات مع أولئك القوم وهكذا يستطيع كلاهما أن يكون مكملاً للآخر، ويستطيعون بالتالى تحقيق شيء مهم فى ذلك الكون.
- كيف أطلق قائدهم اسم الجنة على ذلك العالم الآخر؟
- لأن قومه ميتون.
- وكيف يكون للموتى قائد؟
- أنت تكون ميتًا بطرق عدة ومختلفة كما أن الموتى ليسوا كما تعتقد.
- لكن هذا يتناقض مع ما كنت تقول.
- ماذا تقصد؟
- أقصد اسم الجنة الذى أطلقه القائد على العالم الآخر.
- نعم، إن الجنة تعنى أشياء مختلفة بالنسبة لقوم مختلفين، ولأنهم هم الموتى فقد أرادوا أن يعيشوا وأن يكونوا أكثر استمتاعًا بالحياة من غيرهم، لقد أرادوا أن يعرفوا طعم الألم والمعاناة والإحساس والحب والكراهية، لقد رغبوا فى الإعلاء من شأن الحب والسمو به فوق

الكراهية، ولم يرغبوا فى الكمال حتى يجدوا شيئًا جميلاً يكافحون من أجله كما أنهم أرادوا الوقوف أمام الأعاجيب والمعجزات لمعرفة أسرارها، إن الموت أولاً وقبل كل شيء هو عالم مثالى يصل فيه المرء إلى حد الكمال.

- وإذن فلماذا كل هذا الوقت الطويل لعمل جزء صغير جدًا من الطريق؟
- لقد قال قائدهم أشياء كثيرة لم يقدروا على فهمها قطّ، وكان أحد هذه الأشياء هو قوله باستحالة الانتهاء من الطريق.
- ولِمَ لا؟
- كان قائدهم يعنى بأنه إذا ما تم الانتهاء من الطريق فى لحظة ما فإنهم سيهلكون ويموتون فى نفس الحظة.
- لماذا؟
- لأنهم - على ما أعتقد - لن يجدوا شيئًا آخر يفعلونه ولا شيئًا آخر يحلمون به ولن تكون هناك حاجة للمستقبل، سوف يصيبهم الفناء بسبب الاكتمال وبفعل الضجر، إن الطريق هى باعثهم على النشاط وهى بمثابة الملهم لهم ولتاريخهم؛ ولذلك فليس من الصواب أن يسارعوا بإنجاز جزء كبير من الطريق وإذا لم يتذكروا كلمات قائدهم وبدأوا بمجرد التفكير فى الانتهاء منه فإن الزلازل ستضرب الأرض وسيدوى الرعد فى السماء وستثور البراكين الخامدة، كما ستتساقط الأنهار فوقهم وستمزق الأعاصير أرضهم وستتهاوى الطرقات وتدور حول نفسها حتى تدمِّر كل شيء وربما يصبح الناس أرواحًا ويبدأون فى تحويل الطريق إلى شيء آخر، وقد يصاب العمال بالجنون وتبدأ الحروب ويسود التمرد وينصرفون إلى أشياء أخرى كثيرة فيتحطم ما بَنَوه ثم يأتى جيل آخر ليبدأ العمل فى ذلك الحطام.

نظرت إلى الطريق برؤية مختلفة ورأيتها بعيون جديدة فتراءت لي قصيرة وبديعة ومدهشة كأنها عمل فنى جميل أو مكان مقدس يفوق الخيال ويعجز المرء عن وصفه، وبدا لى أن أكثر الأشياء النادرة والثمينة فى العالم كله قد دخلت فى تكوينه، حتى تخيلت أنه مخلوق مصنوع من الأحجار الكريمة الأرجوانية المتلألئة بالنقوش الفيروزية والأحجار الكريمة الصفراء المرصعة بالعقيق الأحمر.

- لماذا هو جميل إلى هذا الحد؟
- لأن كل جيل جديد يبدأ بلا شيء وبكل شيء، إنهم يعرفون كل الأخطاء التى وقع فيها السابقون عليهم وربما لا يعرفون بأنهم يعرفون لكنهم على دراية بالخطط القديمة والمقاصد والغايات الأصلية والأحلام المبكرة، إن مصلحة كل جيل جديد تتمثل فى ضرورة الاتصال بالقديم، إنهم عازمون على أن يصبحوا أكثر حكمة، ولو بقدر ضئيل لكنهم لا يعملون على تحقيق عزمهم بسرعة كبيرة، إنهم يسافرون الآن ببطء أكثر وسوف يرتكبون أخطاءً أكبر وأفدح وهكذا يبدون كبقية الناس والبشر، فلديهم عدد غير محدود من الآمال وعليهم مواصلة الجهد والكفاح إلى ما لا نهاية ولا شيء يستطيع تدميرهم وإنما هم فقط القادرون على تدمير أنفسهم، لن ينتهوا أبدًا من الطريق التى هى روحهم المحركة الملهمة التى لا يعرفونها.
- وإذن فلماذا لا تخبرهم؟
- لأنهم يعانون من لعنة النسيان ولأنهم يغلقون آذانهم دائمًا عن الأشياء التى هم فى حاجة لمعرفتها.
- هل يمكننى إخبارهم؟

رمقتنى ذات الرءوس الثلاثة بنظرة صارمة ثم راحت تواصل الترحال فهبطنا إلى عمق الوادى وعندما وصلنا إلى أسفل نقطة تغيَّر لون المكان من البرتقالى إلى الأحمر الداكن وتلونت الشمس باللون الأزرق، وكان من اليسير

مشاهدة النجوم والأبراج في السماء وبدا كل نجم مضيئًا وخفاقًا بلون مختلف ثم انبثق اللون الأحمر من الضوء المنعكس على مكونات الوادى فتأثرت سلبًا بذلك اللون الأحمر الذى تغيَّر - بعد لحظة قصيرة - إلى لون ذهبى ساحر وجميل يتخلَّله وميض من الأضواء القرمزية؛ مما أصابنى بكثير من الدهشة وكان الوادى كله جزءًا من تلك الحقيقة المدهشة، مشينا بين السكان العاملين فى الوادى، كانوا يشيدون طريقهم وكانت الموسيقى العذبة الرائعة تنبعث من معداتهم وهم يضربون بها الأرض لاستخراج الأحجار الكريمة ومختلف أنواع الثروات التى يستخدمونها فى تعبيد طريقهم، كانت أدوات عملهم ومعداته مصدرًا للموسيقى، وبينما كنا وسط سكان ذلك الوادى الذهبى عشت فى صفاء وهدوء نادرين، لم يكن بمقدورهم أن يتحدثوا إذ لم تكن لديهم الحاجة للكلام وكانت ومضات من الضوء الغريب والعسير على الفهم تنطلق من بعض الفتحات فى عيونهم، احتشدوا حولنا واقتادونا إلى بيوتهم، فبقينا معهم وبينهم ونعمنا بقدر من الراحة وقد تعاملوا معنا بوصفنا ضيوف شرف وكأنهم قد تنبأوا بقدومنا عن طريق الوحى، قدَّموا لنا الطعام لكن الروح صاحبة الرءوس الثلاثة أخبرتنى بألا أتناوله رغم أنها كانت تلتهمه بشهية مفتوحة واستمتاع كبير، شبعتْ ذات الرءوس الثلاثة بينما أصبحت أنا مجرد خيال من شدة الجوع، لكنهم حين سمعوا هدير معدتى الخاوية سارعوا بتقديم الولائم احتفالاً بوجودنا طوال أيام عدة رغم أنهم لا يعرفوننا ويجهلون سبب مجيئنا، دخلت أمى الحجرة بعد انتهاء الولائم وأزاحت فى طريقها كثيرًا من العمال ثم بكت بشدة حتى انهمرت دموعها كالشلال، جاء أبى وصاح فى وجهى بغضب وتحوَّل غضبه إلى رعد وعواصف من الأمطار وإلى أعاصير، فنظر الناس إلينا بارتياب وفكروا أننا سنكون سببًا فى حدوث كارثة وأننا سنجلب لهم سوء الحظ وعلى الفور انتابهم شعور بالاشمئزاز والقرف، ثم راحوا يفكرون فى التضحية بنا فى مذبح مصنوع من الذهب على شرف كثير من الأنبياء والرسل الأفاضل الذين أساءوا فهمهم.

قالت الروح: "حان وقت الرحيل".

واصلت أمي بكاءها بالقرب مني وحدثتني عن الحب بكلمات معبِّرة ومؤثرة فتحركت قليلاً من مكاني وعندئذ أمطرت السماء بغزارة حتى غرقت بيوت الوادي في الفيضان، ولم يجد النهر وسيلة للتعبير عن ابتهاجه بمشهد الدمار سوى أنه أطلق صوتًا كزئير الأسد ثم غمر الأرض واخترق البيوت وأسقط الأشجار التي نبتت لتوها، كما دمر النهر أجزاءً كبيرة من الطريق الجميلة، سحبتني ذات الرؤوس الثلاثة ومضت بي فوق الحطام فشاهدت القلعة بعد أن تحولَت إلى مكان خرب، نبتت فوق الأرض وبسرعة مذهلة نباتات الخبيزة، وبرزت أحجار العقيق الأخضر المنقط باللون الأحمر ونضجت الأزهار والزنابق بوفرة في المواقع التي كانت فيما مضى مزدهرة بطقوسهم السرية الغامضة، وغرقت مدينتهم في الأراضي الميتة وأقام الناس الحداد وحزنوا بشدة لكن حزنهم لم يكن من أجل الأطفال والعائلات التي أصابها الفناء بفعل الفيضان، وإنما بسبب تدمير أجزاء من طريقهم وظلوا يبكون في كل مكان، أصبحت الشمس متألقة باللون الأبيض وتلونت السماء باللون الأسود واصطبغت النجوم بألوانها الخاصة المتلألئة التي يعجز المرء عن وصفها كما تلاشت الطريق القديمة ذات الألفي عام وراح الناس يندبون قدرهم وانتحر بعضهم حزنًا على الطريق فأحرقوا جثثهم بجذوع الأشجار الشريرة ثم بدأ الجنود يبحثون عنا في كل مكان، اعتقادًا منهم بأن موتنا هو الشيء الوحيد القادر على إعادة مكانتهم القوية وإحياء حلمهم القديم.

كنا نسير داخل أنفاق سرية لنصعد إلى الأرض فهاجمتنا مجموعة من الجنود وراحوا يرجموننا بالحجارة ويصوبون السهام ويطلقون البنادق علينا، فسارعنا بالهرب وأصابني جرح في بطني وحين اختلط الدم النازف من الجرح بجوعي قلت لهم بصوت عال: لماذا تهاجموننا؟ نحن لسنا سببًا في الخطأ الذي حدث.

قالت الروح: "اسكت".

لم أهتم بما قالت وصرخت قائلا: "إن طريقكم لن ينتهى أبدًا على أية حال".

لقد كشفت بشجاعة عن الحقيقة التى اختلط صداها بالصخب والبكاء من حوالينا، فدوى رعد هائل امتزج بصوت الروح وهى تقول: "أنت أحمق ومجنون".

- لماذا؟

تفجَّر الرعد فوق رؤوسنا وتشقَّقت الأرض بفعل البرق ثم انشقت فجوة كبيرة وضخمة فى مواجهتنا فوق تلك الأرض الغريبة، لكننا واصلنا طريقنا عبر الجانب الآخر لتلك الفجوة التى كانت أكثر المناطق انخفاضًا فى رحلتنا.

- لأنك أغضبت ربَّهم.
- كيف؟
- إن ربَّهم لا يريدهم أن يعرفوا ما قاله القائد.
- ولماذا سمح ربُّهم للقائد أن يقول ذلك؟
- لأنها حقيقة.
- أتعنى بأن ربَّهم لا يريدهم أن يعرفوا الحقيقة؟
- إنه يريد ولا يريد، سوف يعرفون ما هم فى حاجة لمعرفته عندما يحتاجون معرفته فالرب وحده الذى يعرف الحقيقة، لكن أحدًا لا يعرف كل الحقيقة إلا إله وحيد ناتج عن اتحاد كل الآلهة فى إله واحد، وسيضطر الناس لأن يصبحوا آلهة لكنهم غير مستعدين ولن يكونوا مستعدين لعدة آلاف من السنين علاوة على أنه لمن الأمور الصعبة أن يكون فى هذا الكون عدة آلهة وأن يعرف الناس كل احتياجاتهم، لأنهم عندما يريدون المزيد ويبحثون عن المزيد سيجدون المزيد فهل تعتقد أنه من الصواب أن تعرف كل الحقيقة وأنت لم تزل بعد فى بداية بناء طريق كبيرة وضخمة؟
- لا.

صمتتْ ذات الرؤوس الثلاثة فأضفت قائلاً: "على أية حال أنا لا أعتقد بأنهم سمعونى فلقد كان الصخب يحيطهم من كل اتجاه".

- لا تقلق بشأن ذلك إن الناس دائمًا لا يجيدون سماع الحقيقة، أنت أغضبت ربَّهم ولم تتعرض لهم وكل ما أستطيع قوله لك إن رحلتنا سوف تكون محفوفة بالمخاطر.

جاء دورى فى التزام الصمت وعندئذ انهارت البيوت من حولنا وانبعثتْ من الطريق أصوات بكاء وعويل وراحت الأرض تتلوَّى بألم كأنها فى حلم مخيف؛ فارتبك الناس ونبتت وسط ذلك الحطام ومن بين الأماكن المقفرة القاحلة أزهار عجيبة ورائعة الجمال وأثمر دم الموتى أشجارًا فضية اللون، وزحف الدم الأحمر القانى حتى غطَّى حواف الوادى الذهبية وكأنه لهب طبيعى، أما الورود فقد ازدهرت فى الهواء وتلطخت القلاع برائحة الموت والجمال لكن عبير الجمال جعل الخراب يتراجع، أصبح الطقس منعشًا والهواء باعثًا على النشوة لكن السكان كانوا مشغولين فى بكائهم ولم يلحظوا ذلك التغيير فى الجو.

- كيف سنعبر هذه الفجوة؟
- إنها غلطتك.
- آسف.
- يجب أن نعبرها فزملاؤك فى انتظار وصولك بشغف.
- ولكن كيف سنعبرها؟

لم تقل الروح شيئًا وسمعنا صوت الرعد يدوِّى من بعيد وساد البرق فى كل مكان وكذلك اللون الأصفر الذهبى الذى تفشى حتى أصبح نوعًا من الظلام المشع.

- سوف أربطك فوق ظهرى لأننى ما زلت غير قادرة على الثقة بك.
- لماذا لا تستطيعين أن تثقى بى؟
- لأننى ما زلت أشك برغبتك فى العودة إلى زملائك.

أمسكتْ بى قبل أن أحتج على كلامها وثبَّتتنى فوق الأرض ثم ربطتنى بحزام فضى، وفى أثناء ذلك دخلت أمى الحجرة ونزلت بوجهها قبالة وجهى واحتضنتنى بقوة لكن الروح ربطتنى إلى ظهرها وقالت: "إن وزنك خفيف جدًا على أية حال ولن تسبب أى مشكلة فى الطيران".

تحدَّثتْ أمى معى وسط ذلك المشهد الذهبى المظلم وطوقتنى بين أحضانها بقوة أكبر ووقفت صاحبة الرؤوس الثلاثة متوازنةً فوق الفجوة وقالت: "هل أنت مستعد؟"

قلت: "لا".

ضغطت أمى بوجهها الدافىء فوق وجهى ثم رفعتنى عاليًا لكن الروح سارعت بالقفز إلى داخل الفجوة دون أن أفقد ثباتى فوق ظهرها؛ لأننى كنت مربوطًا بإحكام بذلك الحبل الفضى، تدلَّت قدماى وكانت يداى غير مكبلة فاندفعت رياح عاتية إلى داخل عقلى الذى احتل جوعى جزءًا من فراغه ثم تمدد شىء ما مخيف ومرعب بداخلى، طارت الروح إلى أعلى وهى تقاوم الرياح البيضاء وسقطت فى الفجوة وفى قاع الهوة السحيقة، عرفت نوعًا جديدًا من الصفاء المخيف فصرخت، لكن ذلك الصفاء بدا كقوة راحت تشدنا إلى أسفل، وفجأة لم أقدر على الرؤية وبدت الرياح كأنها صخور تتساقط فوقنا، كانت الهاوية مليئة بالرعب المختبىء والوحوش والمعجزات والزخارف السوداء المطلية بالذهب ومجموعة من كلاب القنص البيضاء وخليط من الضوضاء ممتزج بحديث متواصل لا ينقطع مع صوت الرياح المرعب، بذلت الروح مجهودًا خارقًا لترفعنا إلى أعلى حتى لامسنا السماء الوردية، رفعتنى أمى عاليًا وحملتنى إلى السرير بعد أن أرجحتنى قليلاً فى الهواء وهى تحدثنى حديثًا طيبًا وبصوت ملائكى، وفى تلك الأثناء قالت الروح: "لا تخف".

كان صوت أمى متغلغلاً داخل روحى فلم أعد خائفًا، طارت الــروح مرفرفة فوق الطريق الخضراء وعند هبوطها سمعت صخبًا شــديدًا خلفنــا وأصواتًا مدوية وصواعق من الرعد وتصفيق مجموعة من الأيدى الضخمة الشبيهة بأيادى الآلهة، وضعتنى أمى فوق السرير برقــة فتفككــت الحبــال الفضية التى تربطنى بالروح وتلاشت، وعندما استيقظت وعدت بأفكارى إلى الوراء كانت الفجوة الكبيرة قد اختفت ولم يعد للوادى الذهبى وجود.

قالت الروح: "سوف يعاودون الظهور فى مكان آخر".

واصلت الروح رحيلها وتبعتها رغمًا عنى ودون رغبة منى ثم صعدتُ إلى أعلى الطريق، ولم يكن ثمة وجود للأشجار فيما حولنا فســمعت همــس الأنهار وأخبرتنى الروح قائلة: "هناك عند قمة الطريق تلتقــى كــل أنهــار العالم".

- ماذا يحدث هناك؟

تحسستْ أمى وجهى فشممت رائحة نبات عطرى فى أصابعها.

- سوف أخبرك عندما نصل إلى هناك.

غادرت أمى الحجرة ومضيت فى ترحالى باستخفاف وبدون حمــاس، واكتشفت أن الصعود إلى قمة الطريق الطويل أمر ليس باليسير وقلت: "إننى جائع".

قالت الروح: "لا تأكل أى شىء".

فكرت الروح فيما قلت وصنعت لنفسها بعض الطعــام مــن الهــواء وتناولته بسعادة بالغة ثم أضافت: "إذا تناولت أى نوع من الطعام لن تصــل إلى مبتغاك، ولن تكون قادرًا على العودة وستلتصق إلى الأبد بتلك الفجوات المرعبة".

ظللنا نصعد الطريق مدة طويلة فشعرت بإرهاق وضجر شديدين لكن الروح لم تدعنى أنعم بقليل من الراحة حتى وصــلنا إلــى مســتنقع ملــىء

بالتماسيح والثعابين، وكان المستنقع فى حالة من الفوران فامتلأ بالفقاقيع وتدفقت من فوق سطحه غازات صفراء وعندئذ حطّ فوق حافته طائر شبيه بوجه مدام كوتو، فانزلق ثعبان باتجاهه وحدثت ضجة مفاجئة طار على إثرها الطائر ثم ظهرت يد صفراء فى المستنقع أصابتنى بالذعر وانطلقت فى الهواء وأمسكت الطائر بطريقة متقنة، ثم عادت بسرعة إلى المستنقع حيث اختفى الطائر وتلاشى فى الأعماق.

شاهدت سحلية شبيهة بالرجل العجوز الأعمى وهى تعزف على الأكورديون عند جانب الطريق، فرحت أتعقبها لكن الروح طلبت منى العودة وعدم السير وراءها.

تجاهلت ما قالته الروح وواصلت سيرى خلف السحلية لكنها جرت بسرعة ودخلت إلى فروة شعر ذات لون زبرجدى، انطلقت وراءها ودخلت إلى فروة الشعر الزبرجدية، فسارعت السحلية بالجرى لكننى التصقت بذيلها حتى وقع منها فتوقفت السحلية بضع لحظات وهى تعانى من الحيرة والارتباك، ثم أمسكت بحجر وألقيته فوق رأسها لكنها هربت منى ورمت الأكورديون الصغير على الأرض فحطمته تمامًا بالحجر؛ مما أحدث ضجيجًا من الموسيقى الغاضبة، كنت لا أزال أبحث باهتمام عن السحلية كى أحطمها تمامًا وأقضى عليها وعندما جاءت الروح وسحبتنى بعيدًا كنت متأكدًا بأن السحلية لها تأثير ما على الرجل العجوز الأعمى.

واصلنا صعود الطريق وفى الحال انشقت صخور وأحجار خضراء من سطحه الأخضر الناعم وكانت الصخور والأحجار حادة على باطن القدم؛ فشعرنا بالألم مع كل خطوة ثم أصبحت زجاجًا جارحًا ومتلألئًا باللون الأخضر ورحت أنزف طوال الطريق الذى لا ينتهى، كان اللون الأحمر يتلألأ خلفى فوق اللون الأخضر عندما تبخر الدم وتلون الهواء بلونه الضبابى المعتم.

قالت الروح: "يجب أن تفقد دمك قبل أن تصل".

عندما فكرت بأنه لم يعد بمقدورى تحمل المزيد من الجوع والألم فـي باطن قدمى، اكتست جوانب الطريق بالجثث المجففة وهياكل الأطفال العظمية وتبعثرت الجماجم كقصيدة من الشعر المقفًى، وتحول الطريق إلـى جـدول أخضر وافترشته الأعشاب الضارة الكثيفة، فمضينا فى سيرنا فوق سجادة من الأعشاب الضارة المتدفقة فى كل مكان.

قالت الروح: "أوشكنا على الوصول إلى النهر العظيم فلتتقدم بالشـكر، عندما نعبر النهر لن يكون هناك طريق للعودة وسيكون زملاؤك وكل عـالم الأرواح وكذا معبودة الأنهار الفاتنة فى انتظارك، وقد انتهوا من إعداد مأدبة رائعة ومليئة بأفخر أنواع الطعام لأنك صديقهم الحميم".

تقدمنا بخطواتنا إلى مسافة أبعد وكنت منجذبا خلف معدتى الملتهبـة وأصابت الجراح باطن قدمى ولم يعد لون دمى أحمر لكنه أصـبح أزرقًـا كالحبر وبواسطته تمت كتابة تاريخى القابل للفهم بالكاد فوق سجادة الأعشاب الضارة. مضت الروح فى سيرها أمامى لكنها كانت تنظر للخلف من وقـت لآخر للتأكد من أننى ما زلت أتبعها، أصبح النهر سهلاً واسعًا ومرتفعًا مـن الصوف المطرز بالقطن. ولست أدرى هل أصبح هكذا بالفعل أم أنها مجرد تخيلات منى حدثت بفعل الضباب والسحاب، سمعت عويلاً فى كـل مكـان حولى وبعد لحظة قصيرة صرخت الروح قائلة بابتهاج: "انظر! إننـى أرى ضفة النهر".

لم أشاركها فرحتها ووصلنا إلى ضفة النهر فكان النهر ممتدًا بلا حدود وهادئًا ومستويًا وبدا مستحيلاً أن تكون مكوناته من الماء كبقية الأنهار، لـم يكن يشبه أى شىء وبدا كالفراغ والهواء، وبالقرب من ضفته والتـى مـن المفترض أن تحتوى على الماء كان الزورق الطويل الضيق يقف متأرجحًا، وفيما وراء الزورق مباشرة أبصرت شخصًا ما يغطى رأسه بقلنسوة سوداء حسبت أنه الرجل الذى ينقل الموتى فى القارب عبر النهر.

اقتربنا من ضفة النهر فلم أشاهد أى نوع من الطيور ولم يكن النسيم يرفرف فوق المياه ولم نر أثرًا للأغصان المزدهرة أو الزهور المنسقة أو ضبابًا فى الأفق، لم يكن ثمة شيء يتحرك فوق النهر الغامض وبجانبه الذى بدا فاقدًا للإحساس، ولم نسمع أى نوع من الأصوات ولا حتى رقرقة المياه العذبة، وعندما اقتربنا من الزورق وقف صاحب القلنسوة السوداء فتضاعفت انعكاسات صورته فوق امتداد المياه الغريبة الساكنة والمخيفة، ولم أنتبه لتلك المرأة الضخمة إلا حين أمعنت النظر فى النهر، وقف الزورق فوق غيمة من الضوء دون أن يؤثر فى سطح المرأة وقد جعلتنى أضواء ذلك العالم المتمركزة حول سطحها المتلألئ بالضياء أنعم بشفافية مطلقة وكأننى اختفيت تمامًا من الوجود، وأصبحت مجرد طيف وفى لحظة خاطفة لم أقدر على الرؤية بعينى المخضبة بالضوء والفضة، وعندئذ عاد أبى إلى الحجرة حاملاً القمر فى عينيه وراح يتحلق حولى وقال برقة: "أزارو، إن ريحًا عجيبة تهب فى رأسى، لقد حدَّقت فى القمر هذه الليلة فأبصرت النجوم وهى تعزف على الفلوت وكان الهواء مختلطًا بموسيقى الجنيات المختبئة، وسمعت صوت الحب وهو يدغدغ جسدى ويتغنى بألحان غريبة، كانت مياه المطر يا ولدى مليئة بالزهور التى جعلتنى أرتعش فشعرت بأننى أصبحت رجلاً حقيقيًا، رأيت مستقبلنا غارقًا فى السعادة والهناء ورأيت الابتهاج والفرح الشديد، ووقعت عيناى عليك وأنت تخرج بسرعة من الشمس ثم شاهدت الذهب فى عينيك وكانت بشرتك تتلألأ برزاز الماس، وأخيرًا تراءت لى أمك بوصفها أجمل امرأة فى العالم".

سكت أبى عن الكلام وكنت راغبًا فى سماع المزيد من كلماته التى أشعرتنى بالارتواء والشبع وزودتنى بأنفاس جديدة، لكنه ظل صامتًا دون أن تحرِّك أنفاسه الضعيفة أى رياح فوق وجه المرأة الضخمة.

ركع أبى بجوار السرير ووضع رأسه فوق الوسادة وكانت رائحة الخمر تنطلق من أنفاسه الهادئة وحين حرَّك رأسه ولم يقدر على النظر إلىَّ

أصابتني دهشة عظيمة وبدا لي أنه يشعر بالخجل لإظهاره شيئًا ما قد يعتقه ويغير حياته، وفي تلك الأثناء مضى صاحب القلنسوة السوداء نحونا ورفع قلنسوته السوداء من فوق رأسه وكانت تقف إلى جواره امرأة شابة عارية، لكن وجهها كان وجه امرأة عجوز وكانت عيناها مشرقتين ومتلألئتين كالماس لكنهما لا توحيان بالود.

قالت الروح بطريقة متعجرفة: "أين الرجل المسئول عن الزورق؟"

أصبح صوت صدى الروح - وهو يتردد في كل مرة فوق انعكاس المرايا - أكثر حدة من سابقتها لكن المرأة لم تجب وإنما تقدمت خطوة ناحيتنا فتبين لي لأول مرة أن قدميها مثل أقدام اللبؤة تمامًا، وعينيها هي نفس عيني النمر، تقدمت الروح للأمام وأثناء المضي في طريقها نحو الزورق أزاحت المرأة قليلاً فحدث دوِي هائل للبرق وتلألأت السماء بفعل الملامسة، كان ضياء البرق مبهرًا بشدة حتى أنني - وفي لحظة بعينها - لم أستطع رؤية أي شيء سوى قمرين صغيرين يدور أحدهما حول الآخر داخل كأس من الكحول الصافي.

كان أبي يقول: "شاهدت أنفسنا ونحن نرقص فوق شواطيء ساحرة، وكانت عذراء النهر تغني لنا ورأيت أيام بؤسنا وهي تتقلب وتتحول إلى أيام مشرقة ومليئة بالبهجة والسعادة، ابني، ابني الوحيد، إن أمك امرأة شابة ولديها كثير من الآمال والطموحات وأنا كذلك رجل شاب وأعرف أننا فقراء ولا نملك الكثير لتقديمه لك سوى الحب، لقد خرجت إلى الدنيا في لحظة من أروع لحظات حياتنا وأكثرها متعة ونحن نتضرع إلى الله من أجلك ومن أجل أن نوفر لك حياة أفضل من حياتنا، نحن نريدك يا أزارو وأتذكر يوم ولادتك حين كانت تعلو وجهك ابتسامة غامضة ومحيرة، لاحظنا مع مرور الوقت أنها تختفي شيئًا فشيئًا رغم أن غموضها ما زال باقيًا، ألا تشعر يا بني بأحاسيسنا تجاهك؟ في كل لحظة كانت تنفجر فيها رأسي من كثرة الأثقال في

محطة الشاحنات كانت أمنياتى الطيبة وأحلامى من أجلك لا تفارقنى، وكانت هى عزائى الوحيد الذى جعلنى أواصل ذلك العمل الشاق فى كل مرة، كل شيء فى هذه الحياة يمكن أن يكون جميلاً كما ترى وحتى الحزن والأسى، نعم يا بنى، يمكن للحزن أن يكون جميلاً ونبيلاً، إن حياتنا تبدو وكأنها موسيقى حزينة ولذلك كيف تأتى ثم تغادرنا؟ هل تعرف ما ستكون عليه تعاستنا؟ وهل تعرف كم سيكون الأمر عسيرًا؟ إنهم يقولون إنك طفل Abiku وإنك لا تهتم لأمر والديك ولا تملك أى عاطفة تجاههما وأن لك عينين من أجل تلك الروح فقط والتى هى فتاة صغيرة فاتنة ذات سوار ذهبى وخلخال من الفضة، لكننى لا أصدقهم لأنك بكيت من أجلنا ورويت شجرة الحب بالماء، نحن عانينا من أجلك حتى صارت المعاناة جزءًا منا ونحن لم نصنع ذلك السرير الغريب المجبرين على النوم فوقه، وإنما هو العالم هكذا وهو عالم واقعى ولكم نزفت فيه دمًا وحزنت فيه كثيرًا وكذلك أنت لكن نصيب أمك من النزيف والحزن يفوق نصيبنا نحن الاثنين معًا، توجد فتيات جميلات هنا ويمتلكن أصواتًا عذبة وعيونًا صنعها الله من ضوء القمر، هل يجب أن أغنى لك طوال الليل لمدة سبعة أيام متواصلة وأقدم دجاجتين قربانًا وزجاجتين مسكرتين من الأجوجورو قبل أن تسمعنى؟ إن أمك أيضًا تتساءل فى الليل وتتعجب بشأنك هذه الأيام، وتتوسل إلى الرياح وإلى الطريق والملائكة المختفية بحثًا عن طريقة للوصول إليك ومعرفة أسرارك، ألا تثير حياتنا هذه شيئًا فيك؟ وألا يتحرك قلبك حين تلعب فى الشارع وترى الأطفال وهم يموتون والأمهات وهن يبكين وحين تسمع كبار السن وهم يتغنون بكل ميلاد عجيب؟ نحن نعانى هنا من الحزن والأسى لكننا أيضًا نحتفل بالمناسبات ونعرف المتع الخاصة، لدينا حزننا لكنه حزن لصيق بالحب والموسيقى، لقد رأيتك وأنت ترقص يا ولدى وإذا لم تستمع إلى أغنيتى فلن أغنى بعد ذلك".

غرق أبى فى الصمت مرة أخرى وحاولت أن أتحرك وأشير له بأننى كنت أستمع، وأن نفسى كانت غارقة فى الدموع لكنه قام بحركة مفاجئة؛ انتبهت على إثرها فسمعت صخبًا مدويًا وحين رحت أبحث عن عينيه رأيت الروح وهى تنحنى وتترنح بقوة حاملة السلاح فى يديها وتقوم بمهاجمة المرأة وراحت كل منهما تقاتل الأخرى، وجهت الروح ضرباتها نحو المرأة، فحدث ضجيج هائل من حولى وظلت الروح تواصل ضرباتها حتى تدفق دم ذهبى اللون من جروح المرأة لكنها لم تحاول الدفاع عن نفسها، سال الدم الذهبى تحت أقدامها وتحوّل إلى ستار واق شديد الضياء ثم سحبتْ سلاحًا من جسدها ولوحت به فى الهواء، وفجأة رأيتهما وقد تحولتا إلى شىء لا نهائى، وأصبحتا فى كل مكان وكانت انعكاسات كلتاهما حقيقية وعندئذ اكتشفت وجه أبى كأننى أراه من خلف زجاج نافذة مضاءة فى الليل. كان يراقبنى بعينين هادئتين بينما كانت الروح تتقاتل مع المرأة فوق نهر من الزجاج وفوق الزورق وفى السماء وراح يهمس فى أذنى برقة، وكأننى زهرة ويقول: "نحن معجزات الله التى خلقها خصيصًا كى تتذوق مرارة الزمن، إننا شىء ثمين وفى يوم ما ستتحول معاناتنا إلى واحدة من أعاجيب الدنيا. إن السماء ليست عدوتنا وهناك أشياء تحرقنى الآن هى التى تتحول إلى أشعة ذهبية عندما أكون سعيدًا، هل يمكنك إدراك سر معاناتنا؟ هناك أيضًا أشياء تساعدنا على تحمل الفقر وتجعلنا قادرين على الغناء وقادرين على الحلم بأشياء جميلة وحلوة، إننا لا نلعن الهواء أبدًا حين يكون دافئًا أو الفاكهة حين تكون طازجة وذات مذاق طيب، ولا نشكو من الأضواء التى تتعانق برقة وحنان فوق المياه، نحن نتقدم دائمًا بالشكر للإله حتى فى أشد لحظات الكرب والمعاناة، ونبارك الأشياء فى صمت ولذلك فإن موسيقانا دائمًا عذبة ومعبرة، توجد يا ولدى معجزات غامضة فى العمل لا يمكن إدراكها إلا بمرور الوقت، لقد سمعت أيضًا الموتى وهم يغنون وقد أخبرونى حينها بأن الحياة جميلة ويجب أن أعيشها بلطف وأن أتقبل انفعالاتها وآمالها دائما، ستجد الأعاجيب يا ولدى

هنا وستصيبك الدهشة من كل شيء لا تستطيع فهمه، إن المحيط مليء بالأغاني والسماء ليست عدوتنا والقدر صديقنا".

ركع إلى جانب السرير وراح يشدو بألحان ساحرة فى أذنى وحكى لى حكايات بطريقة غنائية عن أجدادنا الذين غادروا أرضهم الأصلية وصنعوا لنفسهم وطنًا فى مكان غريب، وعن الجد الذى قاتل روح الغابة الكبيرة طوال أيام سبعة ثم جعلوه قسًا لضريح الطرق المقدس ثم حدثنى بغنائه العذب عن الآلهة التى قسمت الكون إلى أرض للأرواح وأخرى للبشر وعن المناطق غير المحدودة المليئة بالكائنات السماوية، وعن أولئك الشجعان الذين حصلوا على وطن خاص بهم فى كل الدنيا.

توقف فجأة عن الكلام وتغيرت الأضواء وتبدّل الوقت واصطدمت الأسلحة فتلألأت فوق وجهى ومضات قوية ثم وقف أبى أمامى ممسكًا بسكين، وسمعت أنين طائر أبيض وكانت المرأة العجوز تلَوِّح بسلاحها فانعكس لون ذهبى فوق أسطح المرايا المتلألئة، صوبت السلاح فى اتجاه الروح واقتلعت واحدة من رءوسها ثم جرحت رأسها الثانية فتساقط الريش بكثافة فوقى، وامتلأ وجهى بدم الروح حتى فقدت الرؤية فى لحظة ما لكننى عندما حاولت النظر مرة أخرى، أبصرت أبى وهو يتجول حولى حاملاً دجاجة بيضاء فى إحدى يديه وسكينًا حادة جدًا فى اليد الأخرى، وكانت أمى تقف مستندة بظهرها على النافذة ومحاطة بتسع شمعات زرقاء ومجموعة من الأصداف، أمسك أبى الدجاجة البيضاء بقوة من جناحيها وقدميها ورأسها حتى تساقط الدم فوق ذراعه، وفى أثناء ذلك كان ثمة ظل يتمدد فى فضاء الحجرة حتى تعبأت الحجرة برائحة أضرحة القرية المخيفة وجلال القساوسة ذوى الوجوه الصارمة، وراح الظل يرقص فى أرجاء الحجرة حاملاً مروحة كبيرة من ريش النسر فبدت الحجرة كلها كأنها تطير، كان الظل يرقص بحماس وبطريقة جنونية وكانت التمائم والأحجبة الحمراء المعلقة به تطرقع حول رقبته فأصبحت مصدرقلق دائم للروح ذات الرأسين المقطوعتين.

انعكس سلاح المرأة العجوز على قدمها الشبيه بقدم اللبؤة فاكتسى باللون الأحمر اللامع، وتدحرجت واحدة من رءوس الروح فوق مرايا النهر وراحت تحدّق بعينيها إلى الانعكاسات اللانهائية بدهشة بينما كانت الروح تلف وتدور بسرعة وهى تولول وتصرخ من أجل الوصول إلى الزورق ثم قفزت فجأة بداخله ودفعته باتجاه المرأة وبدأت تجدِف، اتجهت المرأة العجوزبخطوات سريعة ناحية الروح شاهرة سلاحها، وكانت سكين أبى المليئة بانعكاسات الضوء مرفوعة فوقى فصرخت بعد أن شعرت بأننى سأكون الضحية التى سيقدمونها قرباناً، لوَّح أبى بالسكين مرتين فى الهواء بقوة فأطلق الرجل الذى جاء لمعالجتى بالأعشاب صرخة حادة فى نفس اللحظة التى كانت المرأة العجوز تضرب فيها الروح ضربات عنيفة بسلاحها، ذبح أبى رقبة الدجاجة بالسكين وقطعت المرأة العجوز رأس الروح الأخيرة، وظلت الروح تقاوم بلا جدوى داخل الزورق حين كانت الدجاجة تنتفض من شدة الألم فتناثر الدم النازف منها إلى جبهتى وظل رجل الأعشاب صامتاً دون أن يتفوه بكلمة واحدة، نظرت رأس الروح الواقعة فوق الفضة حواليها وعرفت أنها مفصولة عن جسدها، فصرخت صرخة الفزع الأخيرة التى انشقَّ سطح النهر على إثرها وتبعثرت المرايا وأصبحت الدنيا ظلامًا، لكن شظايا المرايا المبعثرة وانعكاساتها ظلت عالقة بعينى.

(٣)

كانت أمى جالسة إلى جوارى وهى تتحسس حواجبى برقة، بينما كان أبى جالسًا فوق مقعده بجبهته المتجعدة ولحيته الخشنة غير الحليقة، وفوق الطاولة كانت توجد قنينة من الويسكى مليئة عن آخرها، شممت رائحة طعام فاخر فى الهواء ففتحت عينى على اتساعهما وقلت: "أين الطريق؟"

اندفع أبى فورًا ناحيتى وأمسك عينى بأصابعه وأبقى عليهما مفتوحتين فسارعت أمى بصب السائل داخلهما وعندما أغلقت عينى تألمت من تأثير السائل، لكننى لم أشعر بأى ألم بعد أن فتحت عينى ورحت أحدِّق فى كل شيء بشغف فعرفت أن رجل الأعشاب قد رحل، غير أننى شاهدت ظله وكومة من ريش النسر الذى كان يستخدمه، صنعت لى أمى شرابًا من الأعشاب المُرَّة وقدمته لى وبدأ أبى يجرحنى بالموسى فى صدرى وأكتافى وجبهتى، ثم رشَّ محلولاً لاذعًا فوق الجروح، صرخت طالبًا الطعام لكنهما لم يبديا أى اهتمام لصراخى فحاولت العودة لاستكمال رحلتى لكننى لم أستطع إغلاق عينى، وضعتْ أمى فى فمى طعامًا لينًا اعتدن على تقديمه للأطفال والمرضى فقط ثم روتنى بقليل من الماء وعصير البرتقال وبدا أبى مرهقًا وكأنه لم يذق طعم النوم طوال حياته، وكانت أمى هزيلة جدًا وكالحة الوجه وعظام جسدها بارزة لكن حزنها أضفى عليها جمالاً من نوع خاص، وحين تأكدتْ بأننى ما زلت على قيد الحياة بدت مشرقة ومتألقة مما جعلنى أبكى من أجلهما، بدأ أبى يغنى ألحانًا شجية وراحت أمى تضربنى برقة فى صدغى ولم أتناول الطعام لمدة أسبوعين؛ فأعلن الأطباء والمعالجين بالأعشاب موتى لكننى فى الحقيقة لم أغادر أبدًا عالم الأحياء.

(٤)

بدأت فى تناول الطعام تدريجيًا وبدلاً من طعام الأطفال والمرضى الخفيف رحت أتناول الطعام الدسم وبذلتْ أمى - بحب شديد - مجهودًا كبيرًا فى صنع أشهى الأطباق، وتساءلت بينى وبين نفسى عن كيفية حصولهما على المال الذى استطاعا به توفير تلك الشوربة اللذيذة؛ المكونة من لحم الماعز والسمك المقدد وقطع البطاطا وكذلك أطباق الخضار المختلفة وذلك الطعام المطهو المطعم بنكهة الفلفل والاستاكوزا ذات اللون الأحمر المشرق، كان الضعف قد تملكنى وأصبحت نحيلاً بما يكفى حتى أننى لم أقدر على الحركة وأصبحت قدماى تؤلماننى من المشى والتهبت عيناى، وكان السائل الذى يصبونه داخل عينى كل مساء يؤرقنى ويقلل من ساعات نومى وكنت أنام كما تفعل الأرانب بعينين مفتوحتين ترقبًا للأعداء الحمقى، ظل أبى فى كثير من الليالى يتناوب السهر مع أمى لملاحظتى حتى طلوع الفجر.

جاء الرجل المعالج بالأعشاب فى زيارة أخرى، وبعد أن قام بعمل الشعائر اللازمة وعالجنى بأدوية ودهانات غريبة أخبر أبى وأمى بضرورة أن يكونا أكثر طيبة ورقة فى تعاملهما معى وألا يصيحا فى وجهى أو يفكر أحدهما فى ضربى أو الحد من حريتى، كما طالبهما بعدم الشجار وأشار إلى إمكانية عمل بعض الاحتفاليات وممارسة بعض الطقوس التى تساعد فى منع وصولى إلى عالم الأرواح، ثم قال شيئًا عن أهمية استردادى لتذكاراتى وعملاتى الفضية الروحية التى يعتقد بأننى خبأتها فى أماكن سرية، كان يتحدث إليهما فى الليل، وكانا يعتقدان بأننى نائم لكننى لم أكن كذلك وسيطرت على ذهنى فكرة تفيد بأن ذلك الرجل عدوّى، تناول أتعابه الباهظة ومضى مصطحبًا معه ظلاله الحية.

ظل كل من أبى وأمى يتحدثان معى برقة ويعـاملاننى بلطـف لمـدة طويلة، وكأننى طفل حديث الولادة وعندما كنت أتناول الطعام اللذيذ – الذى تجاهد أمى فى إعداده بشكل لائق – كانا يجلسان فى مواجهتى دون التوقـف عن ملاحظتى وكان وجه كليهما يرتسم بابتسامة من الرضا، وفى تلك الأثناء كانت عينا أمى تشرق بالفرح وتتألق بنوع من الزهو الغريب، وكـان أبـى يواصل النظر إلى وجهى كأننى حيوان غريب ومدهش وكانا فى كـل مـرة يتوسلان ويطلبان منى أن أتناول المزيد من الطعام، ابتاعا لـى مشـروبات مثلجة ولم يبخل أبى فى تقديم بعض كئوس الويسكى لى، حدث كل ذلك رغم الصعوبات الهائلة التى واجهتهما فى الحصول على النقـود ورغـم الإذلال الكبير الذى عانى منه أبى والعذابات المكتومة من جراء حمـل مزيـد مـن الأثقال، أو بسبب التوسل فى طلب النقود من الناس وكانت أمى تقطع المدينة كلها سيرًا على الأقدام كى تبيع مزيدًا من بضائعها وهى تنادى بأعلى صوتها الأجش عبر الشوارع المليئة بالغبار، حدث كل ذلك عن طيب خـاطر ودون أن يظهر أى منهما أى علامة من علامات الضيق أو التبرم، وهكذا اكتشفت – بطريقة أو بأخرى – أن شفائى كان يشكل أهمية قصوى لكننـى شـعرت بالأسف والخزى لأننى كنت سببًا فى مضاعفة معاناتهما، حاولت أن أجلـب لهما السرور فرحت ألبى احتياجاتهما وأقوم ببعض المهمات وأغسل الأطباق وألتزم البقاء فى البيت وأواظب على الذهاب للمدرسة، لكن كليهما بدا أكثـر قلقًا من محاولتهما المتكررة فى إسعادى وشعرا بالإهانة من محاولاتى فـى مساعدتهما، كان أبى فى تلك الأثناء يكنس الحجرة ويحضر الماء من البئـر ويعود من عمله دائمًا بروح مبتهجة، وكان رقيقًا وطيبًا مع أمى وغالبًا مـا كان يعانقها ثم يجلس فوق مقعده ويبدأ فى التدخين والغناء، كان أبى يشـدو بأغنيات قديمة عذبة.

بدا لى أن حياتنا قد عرفت فجرًا جديدًا وتشكلت بألوان جديـدة مـن الجمال وأن بؤسنا قد تحوّل إلى شىء ما حقيقى ورائع مثل طيور الجنة، كان

عالمًا جديدًا بالنسبة لى، وكل شىء كان عذبًا ونقيًا فبدا العالم فى مرحلة التكوين الأولى وتعجبت لتلك العناكب والصراصير، ولم أستطع التوقف عن النظر فى وجوه الناس وأعينهم والذين بدوا أصحاء ويحملون ذلك الشىء المسمى بالحياة داخل أجسادهم كما لم أستطع أيضًا تصديق تلك الوقائع والأحداث التى كانوا يتبادلون تلاوتها، ووقفت حائرًا ومندهشًا أمام ضحكاتهم وبكائهم وقلقهم المشوب بالعرق وهالنى ما سمعته من أشعار غنائية جميلة جعلت الحياة ممكنة وقابلة للعيش، شاهدت الأطفال الرضع بأفواههم المفتوحة المعبرة عن الدهشة، ولم أستطع تجاهل الحقيقة التى تؤكد قدرتنا على النظر من خلال عيوننا ومن أعماق عوالمنا إلى الناس والتى يقابلها عدم قدرة الناس على إدراك المغزى الحقيقى وراء نظراتنا أو معرفة أفكارنا وعوالمنا الداخلية، كم هى شفافة أحاسيس المرء وكم هى غامضة فى آن واحد! لقد حيرنى ذلك الأمر طويلاً كما حيرتنى وأدهشتنى حركة الإنسان الذى يمشى على قدمين يحفظ بهما توازنه، تفحصت العالم من حولى بعينين مفتوحتين على اتساعهما وقد انتابنى خوف من النوم، وحاولت قدر استطاعتى أن أرى كل ما يحتوى عليه ذلك العالم وأحببت كل شىء فى حياتى واحتضنت أسرار الواقع المثيرة والمرعبة حتى اشتد عودى وأصبحت قويًا.

شعرت بغرابة كل شىء من حولى وبدا كل شىء كأنه يتلاشى ويعود فى آن واحد، وحتى جيراننا الذين كانوا يضمرون لنا الضغينة ويتذمرُون من وجودنا جاءوا لزيارتنا ذات مساء وأحضروا معهم هدايا من الحلوى وبعض المشروبات وبضعة أمتار من القماش الجديد، كما جاءوا بأطفالهم معهم للعب معى وراحوا يتحدثون ويتبادلون الشراب بمرح مع أمى وأبى؛ كأنه لم يحدث قطُّ أى عداء أو خصومة بيننا من قبل، كانت وجوههم جميعًا شبه مألوفة وشعرت فى لحظة بأننى كنت فى مكان آخر بعيد وظللت فيه مدة طويلة، كانت الأسماء أثناء تلك الفترة غامضة وصعبة بالنسبة لى، وكنت أردد ألقابهم وأسماء شهرتهم كثيرًا ومرة تلو الأخرى كأننى أرددها للمرة الأولى، وبدا لى أننى كنت أقترب من الأطفال وألعب معهم بحركات بطيئة.

تحدَّث الجيران معى بدفء وحميمية وكنت أنظر إلى وجوههم وهم يتحدثون وقد هفا قلبى تجاههم جميعًا؛ خاصة بعد أن شاهدت المعاناة مرتسمة فوق وجوههم ثم وكأننى شخص غريب لاينتمى إليهم أدركت سنوات البؤس والريبة فوق جباههم وحساسيتهم المفرطة تجاه الاستخفاف بهم، وتجاهلهم تجاه قوة ردود أفعالهم وشهيتهم الكبيرة وحماسهم ورغباتهم اللامحدودة، كانت وجوههم الجامدة والغليظة بفعل المعاناة تبدو هشة ورقيقة بالنسبة لى وكان الفزع ينتابهم فى كل مكان، وبدا أن سنوات الإحباط والفشل قد حولت أعينهم إلى آلات تطل على العالم بحدَّة وبنظرات مليئة بعدم التسامح وباحتقار شديد فى معظم الأوقات، لكنهم - رغم كل ذلك ورغم الحرمان والفاقة والجوع وكل أنواع المعاناة التى تلاحقهم من كل اتجاه - جاءوا لزيارتنا للتعبير عن سعادتهم بشفائى.

(٥)

اشترى أبى بعض المشروبات من أجلهم وقدمت أمـــى لهـــم الطعـــام وكانوا جميعًا يتحدثون بأصوات خافتة وكأنهم واقفون أمام إحدى الجثث، ولقد عرفت من أحاديثهم بعض الأشياء التى حدثت أثناء غيابى كتلك البيوت التى أصابها الفيضان فى موسم الأمطار الشديد وأجبر ساكنوها علـــى الرحيـــل، والشوارع والمقابر التى غرقت فى المياه حتى أنهم شاهدوا توابيت المـــوتى وهى تطفو وتقترب من البيوت أو ترسو أمام مساكن بعض الساسة الصغار بعينهم، كانوا يتحدثون أيضًا عن أسلاك الكهرباء التى ســـقطت بفعـــل قـــوة الرياح والأمطار، وأضاف بعضهم قائلاً: "وإنما بفعل قوى كثيرة ضد التقدم".

عرفت أنهم عثروا على الأسماك داخل الآبار وقد تسلل ثعبان الى أحد البيوت وقتل امرأة، وقال الناس إن الثعبان مبعوث من أحد الأعداء، ســـمعت حكايات كثيرة ومختلفة عن الرجال الذين يمارسون العمل السياســـى وقـــالوا إنهم أعضاء فى تنظيمات سرية وكيف أنهم حاولوا مقاومة الأمطار لمواصلة مظاهرتهم الكبيرة وعدم الاضطرار لتأجيلها، سمعت أن مدام كوتو لحقت بهم وسمعت أيضًا أنها انزلقت فى يوم ما ووقعت فوق الأرض الملطخة بالوحل، وكانت إصابتها خطيرة مما جعلها تهرع إلى رجل الأعشاب القوى.

هكذا كانوا يتبادلون الكلام وينتقلون من الأحداث العاديـــة جـــدًا إلـــى الأحداث الفردية الخاصة، ومن الكلام عن ذلك الرجل الذى كان يهذى تحت وطأة المطر الغزير إلى تلك المرأة التى تملك موهبة خاصة تستطيع معها أن تجعل البيضة البيضاء الكبيرة تفقس مولودًا جديدًا.

كانوا يتحدثون عن أشياء غريبة ويتكهنون بأحـــداث تنـــذر بالشـــؤم والنحس، وسمعتهم وهم يقصُّون حكاية الرجل العجوز الأعمى الذى استيقظ

ذات ليلة وهو يصرخ لأن سحلية ضخمة كانت تتعقبه حتى حطمت الأكورديون الخاص به، وتطرقوا فى أحاديثهم إلى تحركات الأبراج والكواكب الضخمة المنذرة بالسوء، وكيف أن أحد النجوم سقط فى المحيط الأطلنطى بينما تفجر آخر فوق منطقتنا وكان من اليسير عندئذ رؤية طيور من الذهب أثناء الليل وسماع النسوة وهن يغنين أغنيات عذبة فى الظلام، وكيف أن تلك الأغنيات كانت تتسرب إلى الشوارع الخالية، كان الناس يحلمون بالتماثيل المتحركة التى تجلب الهدايا إليهم وبالطيور والفراشات والحيوانات المهجنة وكانوا يحلمون بالظباء التى تتدلى القلادات الذهبية من أعناقها وبالفقراء والشحاذين الذين كانوا أمراء فى يوم من الأيام وبالأمطار التى يتساقط منها القليل من الذهب وبالأرض المكدسة بكل شىء، بينما الغالبية تتضور جوعًا وبالوفرة وحدوث معجزات فوق الطرقات المكتظة بالجوع، كان الناس يحلمون بظهور رجل حكيم من أى مكان ليحكم ويغير كل آلام الأرض المستقبلية وصراعاتها وكروبها ولم يخلُ حديثهم حتى من الإشاعات سريعة الانتشار والتى سرعان ما تصبح شيئًا حقيقيًا ومؤكدًا فى معظم أرجاء المعمورة؛ مثل حكاية الرجل المهم الذى كان أحد رجالنا المشتغلين بالسياسة والذى شاهدوه فوق القمر.

أصابنى خوف شديد من العالم جراء استماعى إليهم وقذفتنى الحياة بضربات من البرق، وعندما غادروا احترقت رأسى تمامًا من الوقائع التى كانوا يستحضرونها ويرددونها بأصوات منخفضة.

شعرت فى تلك الليلة بإرهاق شديد وقلق بينما كان أبى وأمى ينعمان بجو هادئ تسوده رائحة عطر ما وكان وجه كليهما متألقًا ومشعًا، رغبت فى رؤية العالم من جديد، وكانت أمى تغنى حين قال أبى: "إن الميلاد يستحضر الفخر ويأتى بالأمجاد".

نمت ليلتها فوق السرير ورقدتْ أمي مع أبـــى فــوق الحصـــيرة ثـــم سمعتهما بعد لحظات قليلة وهما يتحركان ويهمسان؛ حتـــى اهتـــزت أرض الحجرة من تحتهما كأنهما كانا يتعجلان إغراق العالم بالأمجاد.

القسم الثانى

الكتاب السادس

(١)

أصبحت قويًا أكثر مما كنت عليه ورحت أغامر فى الشارع فاتضح لى أننى أمتلك مساحة من الحرية تفوق كثيرًا ما كانت عليه فى الماضى، وأن حريتى هذه ستبقى طالما بقيت على قيد الحياة، عندما خرجت لألعب بدا أن شيئًا ما قد أسهم فى تغيير العالم؛ حيث ازدهرت الأشجار الخفيضة كثيرة الأغصان والنباتات الغريبة بكثافة فى كل مكان وامتلأت الفتحات المنتشرة فوق سطح الأرض بمياه الأمطار، وأصبح المرور فى الشوارع متعسرًا بفعل الطين بالإضافة إلى سقوط الأشجار عبر الممرات والطرقات وتدلّت أسلاك الكهرباء فى الهواء، لم أستطع السيطرة على قدمى وهما تتزحلقان لكننى حاولت جاهدًا أن أتحرك وأبدأ تجوالى، غير أن المياه أعاقت حركتى وبسبب كثرة الأمطار بدا لى العالم أصغر مما هو عليه، وكانت أرض الغابة غارقة فى الطين وأوراق الشجر الصفراء ومليئة بالقرابين والأضحيات، تجوّلت وسط الخراب فى منطقتنا وأنا ألهو وأمرح، كانت شوارعنا فى يوم ما جزءًا من النهر لكن الأمطار أغرقتها الآن بالوحل وبدت كالمستنقع، لكن إله النهر - كالعادة - كان يطالب باسترداد أرضه.

لم أجد مكانًا أذهب إليه فرضيت باللهو وسط كل ماحدث من ارتباك فى شارعنا، وبينما كنت أقاوم الدخول إلى الساحتين المتقاطعتين من شارعنا اكتشفت أنهما ساحرتان، فتسلقت شجرة وجلست فوق أحد أغصانها كطائر مرتبك ورحت أنظر إلى بيوت تلك الساحتين، كان الأطفال يلعبون خارج بيت العجوز الأعمى الذى لم يكن موجودًا، وكان مقعده غارقًا بمياه المطر فى نفس المكان بالشرفة وكانت نافذته محطمة كما بدت الحجرة خالية، كانت

حانة مدام كوتو مختلفة حيث غطت المياه والطحالب والأعشاب الضارة أركان المدخل؛ فوضعوا ألواحًا من الخشب فوق الأحجار للدخول وكانت لافتة الحانة موشكة على السقوط وجذائل الستارة مفتوحة فاستطعت مشاهدة الحانة من الداخل، ومن أحد أعمدة الشارع كانت أسلاك الكهرباء متصلة بسقف الحانة وكانت مدام كوتو هي الوحيدة التي تتمتع بذلك الامتياز، وصلت بعض السيارات القليلة وتوقفت أمام مدخل الحانة ثم انطلقت الأبواق بالنفير؛ فخرج عدد كبير من النسوة على الفور من الحانة وهن يثرثرن ووقفن في طابور فوق ألواح الخشب ثم بدأن في الرقص على أنغام الموسيقى، خرجت مدام كوتو وأشارت لأصحاب السيارات بعلامات الترحيب، وكانت بطنها أكبر من أي وقت مضى وقدمها اليمنى مربوطة بقطعة من القماش ثم مضت السيارات في سيرها فتفرقت النسوة وابتعدن عن الطريق.

توقفت مدام كوتو عند الباب وظلت تتفحص كل ما حولها وكان عقدها المليء بالخرزات البيضاء يلف رقبتها ثم ثبتت نظراتها فجأة في اتجاهي واستمرت بالتحديق في وجهي مدة طويلة، راحت بعدها تتجه نحوي مما أصابني بالدهشة، حاولت النزول من فوق الشجرة لكن مؤخرة بنطلوني القصير كانت عالقة بأحد أغصان الشجرة فاستسلمت لما يمكن أن تفعله بي، تحركت باتجاهي وهي تدحرج جسدها المكتنز ومع كل خطوة كانت تحاول عدم التزحلق في الطين، تقدمت ناحيتي بخطى واسعة وكان جسدها ضخمًا كما أضفى عليها فستانها الشفاف الكبير نوعًا من العظمة الغريبة، وبدت علامات جديدة من الإرهاق المؤثر واضحة فوق وجهها، وقفت تحت الشجرة ونظرت لي بحدّة وقالت: "ماذا تفعل يا أزارو؟"

– لا شيء.

– هل تعتقد أنك طائر؟

– لا.

- ولماذا تنظر لى بدهشة؟

- أنا لا أنظر إليك.

- انزل.

- لا.

نظرتْ إلىَّ بغضب ثم قالت فجأة: "ماذا كنت تفعل فى أحلامى؟"

- لا شىء.

حاولتْ الإمساك بقدمى لكننى سارعت بالابتعاد وحين حاولت القفز للنيل منى وقعتْ على الأرض وأصيبت فى قدميها، فتوقفتْ عن مجهوداتها فى الإمساك بى وعن محاولة إقناعى بالنزول وقالت: "إذا رأيتك فى أحلامى مرة أخرى فلن أتردد فى القضاء عليك".

عرجت مدام كوتو عائدة إلى حانتها وعندما اختفت خلف جدائل الستارة خرجت النسوة ورحن ينظرن فى اتجاهى ويلوِّحن بعلامات توحى بالضرب والإيذاء، وما هى إلا لحظات قليلة حتى شعرن بالقنوط وعرفن باستحالة نزولى من فوق الشجرة، فسارعن بالعودة إلى داخل الحانة، نزلت من فوق الشجرة وجريت نحو البيت.

كان أبى موجودًا فى البيت بعد أن عاد مبكرًا من عمله وقد ربط حزمة مليئة بالخرق البالية فى الحائط وراح يسدِّد ضرباته إليها بصدره العارى، نظر إلىَّ والعرق يتصبب من وجهه وقال: "إننى أتدرَّب يا ابنى".

- لماذا؟

- لكى أصبح بطل العالم.

استمر فى تسديد ضرباته القوية إلى الحزمة المحشوة بالخرق فاهتزت الجدران ومع كل ضربة كان أساس البيت يرتج، وكان فمه يصرخ

بأصوات كأصوات الخنازير ولم يتوقف إلا حين سمعنا أحد الجيران وهو يطرق الباب ويقول بصوت عال: "ماذا تحاول أن تفعل؟ أتريد أن تحطم الجدار؟ من الأفضل لك أن تذهب وتلتحق بالجيش بدلاً من إزعاج الناس".

توقف أبى عن تسديد لكماته إلى الحزمة وبدأ فى توجيه ضرباته إلى الهواء والظلال وكان يذكر مع كل ضربة قوية أسماء أعداء حقيقيين أو وهميين موجهًا إليهم سيلاً من الشتائم، قفز حول المكان وهو ينحنى برأسه ويتمايل بجسده دون أن تتوقف يداه عن تسديد اللكمات فى الهواء حتى ظهرت فقاعات كبيرة من العرق فوق صدره العارى، شعر بالتعب فمضى إلى الحمام ليغتسل، وبعد عودته قدمت له الطعام لكنه منعنى ورأى أن يخدم نفسه بنفسه ثم بدأنا نأكل سويًا.

انتهينا من تناول الطعام فذهبت لتنظيف الأطباق وكان أبى جالسًا إلى مقعده وهو يدخن، وبعد الانتهاء من تنظيف الأطباق عدت ولاحظت أنه مستاء وقلق، كنت أراقبه بهدوء وهو ينظر إلىَّ ويبتسم وبعد لحظات قليلة فتح صاحب البيت الباب دون أن يطرقه واندفع إلى داخل الحجرة بعد أن ترك الباب مفتوحًا عن آخره، وقال بصوت صارخ: "أخبرونى بأنك كنت تحطم الجدران! إذا تسببت فى إتلاف أى شىء فى بيتى فإننى لن أتردد فى القضاء عليك ومن الأفضل أن تبدأ فى الاستعداد للرحيل من هنا فلقد سئمت منك ولم أقدر على تحمل مشاكلك الكثيرة!".

اندفع صاحب البيت كالعاصفة نحو الخارج وراح أبى يواصل التدخين دون أن يتحرك من مكانه وبعد أن تأكد من خروج صاحب البيت نهض وأغلق الباب ثم عاد إلى مقعده، لكننا التزمنا الصمت ولم نقل أى شىء قبل عودة أمى إلى البيت.

(٢)

لم نكن نعلم شيئًا عن رغبة أبى الجادة فى تعلم الملاكمة فقد بدأ فى التدريب باهتمام بالغ وبطريقة جنونية وكان يستيقظ أحيانًا فى الليل ويسدِّد ضرباته ولكماته إلى مختلف الاتجاهات متخيلاً أنه فى مواجهة الخصوم، وفى الصباح كان يواصل تدريباته قبل أن يتناول إفطاره وكانت خطواته وأنفاسه توقظنى وبالنظر حولى كنت أرى أقدامه الضخمة وهى تقفز حول رأسى وهو يحمى وجهه بكوعه، كان يسدِّد لكماته أيضًا باتجاه حبل الغسيل حتى يقع وإلى الذباب والناموس لكنه كان بارعًا فى منازلة ظله كأنه خصم لدود، وكنت أقف أحيانًا فوق السرير ممسكًا بفوطة ملفوفة ليسدِّد إليها ضرباته من كل الزوايا، أصبحت تحركاته مثيرة للقلق وأظهر تقدمًا مُلاحظًا فى تدريباته لكن تلك التدريبات الشاقة جعلته يتناول مزيدًا من الطعام وأصبحت شهيته مفتوحة حتى أن توسلات أمى لم تفلح فى إيقافه عن التهام الطعام.

قالت أمى: "لا نستطيع الحصول على المال اللازم لإطعامك".

لم يقل أبى شيئًا وكأنه لم يسمعها فاضطررنا إلى التقليل من كمية طعامنا وتقديم الباقى له دون أن نخبره حتى يتمكن من بناء جسده.

أصبح أبى أكثر جدية فازدادت الأمور تعقيدًا حيث كان يلاكم الهواء فى ذهابه وعند عودته من العمل ويراوغ بقدميه، ويسدِّد لكمات بارعة بطريقة متوافقة فتملكنا إحساس مخيف بأن شيئًا ما قد حدث له.

قالت أمى: "لقد أصابه الفقر بالجنون".

وبدأ الناس ينظرون إلينا نظرات مريبة كأننا غرباء أو قوم غير أسوياء، أصبحت الحجرة ضيقة بالنسبة لتدريبات أبى وعندئذ راح يسدِّد

لكماته وضرباته إلى أى شيء وكل شيء تقع عليه عيناه، وأتلف حصيرتى حين وضعها ملاصقة للحائط وراح يوجه ضرباته نحوها كما لم يتردد فى ضرب الثقوب المنتشرة فى فراش السرير وحطّم قاعدة واحدة من سلال أمى، ولم يعد يسمع أى شيء من أى شخص، أصبح أكثر استغراقًا فى هواجسه وأفكاره التى لم نستطع فهمها لكنه حين كان يتدرب على الملاكمة فى الشرفة كنا نتوقف عن التفكير فيما أصاب عقله، لقد تغير شيء ما فى أبى فأصبحت عيناه ضيقتين فاترتين وحادتين عنيفتين فى آن واحد وبدا أنه ينظر إلى الناس وكأنهم أشخاص وهميون وضعفاء، وأصبحت مفاصل أصابعه كبيرة ومحتقنة من كثرة ضرباته فوق جدران الفناء.

ذهبت إلى الفناء فى يوم ما فرأيته وهو يضرب الحائط بكل قوته وقد ربط كلتا قبضتيه بقطعة من القماش، ولم يتوقف عن الضرب إلا عندما امتلأت قطعة القماش البيضاء بدمه ثم قال لى: "ليس من اليسير أن تصبح رجلاً".

كانت ظلاله المتحركة وهو يضرب الحائط فى الفناء قد جذبت الانتباه، فظهرت بعض النسوة حول البئر وتظاهرن بجلب المياه من البئر ثم لحقت بهن أخريات من النسوة المتزوجات وغير المتزوجات، لم يهتم بتقديم عروضه أمام ذلك الحشد من النسوة والأطفال وأصابه الضيق من الفناء الذى غرقت أرضيته بالمياه ولم يعد صالحًا لحركة القدمين ومواصلة التدريب، حتى أنه انزلق فى أحد الأيام ووقع فتعالت ضحكات النسوة مما جعله ينتقل لممارسة تدريباته إلى الممر وفى تلك الليلة راح يستأنف التدريب فى وسط الحى اعتقادًا منه بأن الناس كلهم نائمون.

وفى تلك الليالى واجه أبى أقوى الخصوم وظل يقاتل الرياح والأقزام وملايين من الناموس القادم من الطريق الملىء بالأوساخ والمستنقعات، وكثيرًا ما كنت أستيقظ فى الليل ولا أجده فى الحجرة ولم يكن غيابه سوى

غياب لقوته التى لا تهدأ وحين كنت أنهض وأسير على أطـراف أصـابعى متوجهًا نحو وسط الحى كنت أشاهد أبى وحيدًا كبطل الليل الذى لا يقهر وهو يسدِّد اللكمات تلو الأخرى فى كل الاتجاهات كأنه يقاتل خصـومًا وهميـين وبطريقة توحى بأن العالم كله يقف ضده، كان يقاتل أولئك الخصـوم بـلا توقف ودائمًا ما كان يصرعهم ويرفع ذراعيه عاليًا معلنًا انتصـاره عنـدما يقعون فوق الأرض، وتخيلت عندئذ أنه ملك الليل، كنت أراقبه لفترات طويلة بعد أن أصبح الليل آمنًا بالنسبة لى مما جعلنى أتوقف عن مشاهدته وأذهـب للتجوال فى عرض الطريق، أثناء وجوده كان كل شىء مألوف يتغيـر فـى الليل ويتحول العالم إلى عالم آخر ويااله من عالم جديد ذلك الذى كان يتخلق فى الليل، كانت البيوت مليئة بالصمت ولم تكن ثمة أضواء فـى أى مكـان وبدت الغابة مثل كتلة من الظلام، ظلام أزرق داكن وعميق يفوق فى عمقه ظلام الليل المحيط وقد شكلت البيوت والأشجار والأغصان سلسلة غريبة من الجبال على طول الطريق، كانت البيوت محدودبة فبدت مثل الوحوش النائمة فى الظلام، وبدت الأشجار المنعزلة كأنها مجموعة من العمالقة النائمـة ذات الشعر الهائج كما لم يعد الطريق هو نفس الطريق بعد أن أصبح نهرًا، وراح ينتشر بكبرياء فى الظلام مع كل خطوة ولم أدرك للمرة الأولى أننى كنـت أتلاشى وأختفى أحيانًا إلا حين تجولت ليلاً فى الطريق وشعرت فـى بـادئ الأمر بالخوف وأنا أواصل سيرى دون أن أقدر على رؤية الأشياء البعيـدة، كنت أتوغل فى الظلام فشعرت أننى فقدت نفسى وأننى أصبحت شبحًا أسودا، هبت الرياح بجوارى لكننى عندما كنت أصطدم بحجر أو حين كنت أتعثر فى سيرى أو عندما كان يغمرنى ضوء ما كنت أعود من حالة التلاشى وأعـاود الإحساس بنفسى؛ فأسارع بالعودة إلى بيتنا لأجد أبى وهو منهمك فى تدريباته انهماكًا شديدًا لا يشعر معه بوجودى.

بدا جسد أبى قويًا فى تلك الليالى وأصبح الظلام رفيقه الذى يحميـه، وكانت عيناه مشرقتين وكان يتحدث إلى الرياح بصوت رجل جديـد قـوى

وبثقة كبيرة فى النفس، وعندما كان ينتهى من تدريباته كان يقفز من مكان إلى آخر بمرح ويرقص مراوغًا بخطوات رشيقة ومذهلة وهو يطلق على نفسه لقب النمر الأسود، شعرت أنه جدير بذلك اللقب خاصة وأننى لم أشاهده قطُ بمثل ذلك التألق وتلك القوة التى كان يبدو عليها أثناء التدريب الليلى المتواصل الذى جعل اسمه ينتشر ويجذب الاهتمام، كنت أراقبه ذات ليلة حين كان الناموس يتحلق حولى فأبصرت شعاعًا من الضوء وقد انطلق عبر الطريق فاردًا أشعته ثم توقف بالقرب من أبى ولم يكن الضوء يفوق فى قوته ذلك المنبعث من اشتعال أحد أعواد الثقاب لكنه ظل إلى جوار أبى كأنه كان يحرسه ويعتنى به فى الظلام ومع مرور الوقت ازدادت الأضواء التى تحرسه واستطعت فى أحد الأيام أن أحصى ثلاثة من تلك الأضواء فقلت: "أبى، توجد أضواء ثلاثة تحرسك".

حاول جاهدًا أن يسمع صوتى وخيل لى أنها المرة الأولى التى شعر فيها بوجودى ثم قال: "ماذا؟ أية أضواء تتحدث عنها؟"

أشرت إلى الأضواء الثلاثة لكنه لم يستطع رؤية أى شىء ومضى يواصل تدريباته وهو يقول: "أنت تتخيل أشياءَ لا وجود لها".

ظلت الأضواء تراقبه وتحميه من الليل حتى انتهى تمامًا منّ التدريب ولم تتحرك من مكانها كما لم تتأثر قطُ بالرياح وعندما بدأنا فى طريق العودة نظرت خلفى فوجدتها باقية فى مكانها.

ذات ليلة أخرى وحين كان أبى يتدرب بجدية أكثر رأيت عيونًا صفراء مشرقة قادمة من المستنقع تتوقف بالقرب من أبى وتراقب تحركاته وهو ينحنى برأسه ويراوغ بقدميه فوق جانبى الطريق ويسدِّد لكماته القوية فى الاتجاه الصحيح، وأدركت أن تلك العيون لا تتوقف عن متابعته وإمعان النظر فيه وفى تحركات قدميه الرشيقة، نظرت إليها فلم أجدها لكنها عاودت الظهور عندما عدت إلى المكان الذى كنت أجلس فيه، وظلت تلك العيون

تراقب أبى حتى انتهى من التدريب، مضينا فى طريق العودة إلى البيت وسارعت باختلاس نظرة إلى الخلف فلم أجد العيون الصفراء المشرقة.

حدث شيء غريب فى الليلة التالية وأنا أتابع مشاهدة أبى حيث ظهرت الأضواء وتألقت أشعتها واحدة بعد الأخرى وقد شكلت ما يشبه مجموعة من النجوم الأرضية، وبدت فى ظهورها المفاجئ كأنها كانت على موعد ثم برزت العيون الصفراء من المستنقع، وعندما كان أبى يستريح قليلاً بعد الانتهاء من جولة التدريب الأولى خرج رجل ضخم من الظلام فجأة، كان الرجل كبيرًا جدًا بالنسبة لى وبدا أنه خرج من لا مكان أو من فضاء مختلف لكننى لم أستطع رؤية عينيه.

سأل الرجل أبى: "من أنت؟"

نظر أبى إلى جسده الضخم وقال بلا خوف: "أنا النمر الأسود".

- حسنًا.

سأله أبى فى المقابل: "ومن أنت؟"

ضحك الرجل بينه وبين نفسه وأجاب: "إنهم يلقبوننى بالنمر الأصفر".

- جيد.
- وإذن فسوف تقاتلنى؟

قال أبى: "نعم".

ضحك الرجل مرة أخرى وأردف قائلاً: "لقد بدأت شهرتك فى الانتشار لكننى سوف أضع حدًا لها".

قال أبى وهو يتخذ وقفة الرجل الأعسر: "لا تتكلم كثيرًا".

كنت قلقًا لعدم رؤية عينى الرجل، بدأ الرجلان يدوران حول بعضهما لكن الرجل الضخم وقع على الأرض عندما سدَّد أبى إليه الضربات القوية

وعندما صوَّب أبى الضربات إلى وجهه راح يصرخ ويقول: "أنــت جامــد كالخشب".

قال الرجل بعد أن ضرب أبى فى وجهه: "أنت الذى يتكلم الآن وليس أنا!".

وقع أبى وتدحرج حتى غرق فى بركة صغيرة مــن الوحــل، وكــان الرجل فى انتظاره بعد أن ينهض وكنت لا أزال غير قادر على رؤية وجهه، نهض أبى ببطء وراح يتمايل برأسه ثم هجم على الرجل فجأة فتفرقت أشعة الأضواء الثلاثة، لكن أضواءً أخرى كثيرة ذات ألوان مختلفــة بــدأت فــى الظهور، وقع كلاهما فى بركة أخرى من الوحــل وظــل كلاهمــا يحــاول الخروج، وعندئذ ضرب أبى الرجل بكل ما يملك من قوة فوقع الرجل مــرة أخرى وصاح أبى قائلاً: "أنت كالشجرة الجامدة!".

سدَّد الرجل وابلاً من الضربات إلى أبى فرأيته وهــو يحنــى رأســه بسرعة وينتقل من مكان إلى آخر فى محاولة لتفادى سيل الضربات، انحنى مستندًا إلى مرفقيه وظل يتمايل ويترنح لكنه لم يتراجع أو يستسلم وإنما ثبَّت قدميه بقوة فوق الأرض وأطلق صرخة مدوية ومتواصلة كصرخة الحيــوان الجريح ثم راح يستجمع قوته وانطلق فى تسديد اللكمات القوية والضــربات المتتالية المتوحشة وهو يتحرك بقدميه بسرعة ورشاقة فشاهدت الرجل وهو يتراجع للخلف، أحنى الرجل رأسه وأصبحت ذراعاه عاجزة لكن أبــى لــم يتوقف عن صرخاته حتى ألقى بالرجل فى المستنقع وقفز وراءه، ارتفعــت معنوياتى وشعرت بالفخر وبدا الظلام القادم من المستنقع أكثر كثافة فلم يكن من اليسير رؤية أى منهما، ساد هدوء قاتل بعض الوقت وكنت مترقبًا حدوث أى شىء لكننى لم أسمع شيئًا أو أرى أى شىء، وبعد مرور لحظات قليلــة سمعت خطوات أقدام تسير بصعوبة فى الطين ظهر بعدها أبى وهــو يتجــه ناحيتى.

سألته: "أين الرجل؟"

قال أبى بصوت مرهق: "لا أعرف، لقد اختفى فى المستنقع".

ما أن فرغ أبى من كلامه حتى سمعت صوت شخص ما يرفس ويقاوم الطين ثم ارتفع صوت عال ومشبع بقوة الظلام وقال: "ها أنـــذا قـــد بـــدأت لتوى".

عاد الرجل للقتال بكل ما يملك من قوة وحين ظهر من أعماق الظلام وبدأ يحوم حول أبى لفت انتباهى جسده الغارق فى الطين وتلك الإشـــعاعات الصفراء المنبعثة من عينيه، هبط فوق أبى كالزوبعة المثقلة بالرياح العاتيـــة وكأنه إعصار عنيف ولم يترك لأبى فرصة للدفاع عن نفسه، وأصاب كـــل تحركات أبى بالفشل وراح يكيل الضربات القاسية واللكمات السريعة إلى أبى وكانت لكماته دقيقة وقوية، وقع أبى كالدمية من شدة الهجوم الشرس وأصبح الرجل منتشيًا بقوته الوحشية الغريبة التى تفوق قوة الطبيعة ذاتها، وبدأ يظهر فى كل مكان فى نفس الوقت على هيئة خمسة أصابع متوهجة فوق الغابة.

هتف أبى قائلاً: "إن عينيك متوهجتان بقوة".

أدركت عندئذ أن العيون الصفراء المشرقة قد انصهرت داخل الرجـــل الذى قال متباهيًا (وهو يسدِّد سيلاً من الضربات القوية إلى أبى): "إننى النمر المجنون".

سحق الرجل أبى وهو يواصل ضرباته ولكماته المفاجئة، وقـــع أبـــى منهارًا من شدة التعب والارتباك الذى أصابه وارتسمت فوق عينيـــه نظـــرة توحى بالخوف وفقدان الشجاعة وكان الدم يتدفق حول أنفه ومن بين عينيه، لكنه رغم كل تلك الدماء وكل تلك الضربات المتوحشة لم يحاول الفـــرار أو الاستسلام، لقد واجه الضربات وحاول مقاومتها وامتصاصها داخـــل جســـده وروحه، سمعت مفاصل رقبته وهى تصطدم ببعضها البعض، وعندما كانت

عظام قبضة الرجل تتوجه نحو وجه أبى كنت أسمع اصطكاك أسنانه وصوت طقطقة العظام، صرخ أبى وتأوه ثم انكمش مرتعدًا من الخوف، رفع قبضتيه بالكاد وانحنى كأنه كان يحبو فانقض الرجل عليه بعينيه المتحركتين فى الظلام، انحنى أبى وبدأ يتحرك حركات شبيهة بحركات حيوان متوحش أسير، ثم سار ببطء إلى اليمين وإلى اليسار وهو يتأرجح فاردًا يديه أمامه كأنه يصلى وعندئذ عرفت مدى التحول الذى طرأ على أبى، لقد تحوّل إلى أشياء بسيطة وأصبح ماءً وأرضًا وطريقًا وأشياء رقيقة، لقد راوغ بقدميه وأصبح سائلاً وكان يتحرك كقط كبير، انسحب للخلف وامتزج فى غموض الأضواء المزخرفة الكثيرة وشعرت أنه قد تزود بطاقة غريبة وكبيرة استطاع أن يحصل عليها من الليل والهواء والطريق ومن أصدقائه، اقترب الرجل منه وظل أبى يرقص ويتمايل للأمام والخلف محاولاً التغلب على آلامه، وكانت الأضواء تتابع تحركاته ولم يتوقف إلا حين اصطدم ظهره بهيكل الشاحنة المحترقة التى علاها الصدأ ولم يجد مكانًا آخر يذهب إليه، صرخت فجأة ودون أن أعرف السبب الذى هو ربما أحد ألغاز الإنسان التى لا يفهمها سوى الأحياء من بنى البشر، ظل صدى صوت صرخاتى يتردد بعض الوقت وكأنه كان يطفو فوق الرياح لكنه بدا صوتًا ضعيفًا، صرخت قائلاً: "استخدم قوتك أيها النمر الأسود!"

كانت لحظة فارقة لا يملك فيها أبى سوى الاختيار بين الموت أو الحياة فنهض بكل غضب وجنون وانقضَّ على الرجل فى هجوم مضاد مستخدمًا كل ما يملك من عنف وضراوة مما أصاب الرجل بدهشة كبيرة، لم أستطع أن أعرف إذا ما كانت مجرد تراكمات ضخمة من الضربات واللكمات ومجموعة من القذائف تلك التى انطلقت من قبضة أبى أم أنها لم تكن سوى ضربة واحدة ذهبت إلى المكان المناسب، لكن فجأة - ووسط جنون أبى الذى أفقده القدرة على الرؤية - أطلق الرجل صرخة مدوية ومخيفة وهو يترنح ويتراجع للوراء، فتبعه أبى رافعًا كلتا ذراعيه استعدادًا

لصد أى هجوم، وقف الرجل ساكنًا وكانت عيناه الصفراوتان المشرقتان منحرفتين، هبَّت الرياح فوق رأسه فاختفى بريق عينيه وعندما أغلقهما أصبح المكان من حولنا أكثر إظلامًا كأن مصباحًا خفيًا قد انطفأ، ثم وقع الرجل مغشيًا عليه كشجرة كانت تنتظر سقوطها مدة طويلة بعد موتها ثم ارتطم بالأرض وصدرت منه أصوات مكتومة حدثت بعدها أكثر الأشياء غرابة، لقد اختفى الرجل وتلاشى داخل الأرض وفى أعماق الظلام فأصابنى الذهول وروعتنى الدهشة، ارتفع بخار شاحب كالكبريت المشتعل من الأرض المبلَّلة، وتلاشت كل أشعة الضوء وساد الليل هدوء كامل فسمعت ضحكات أحد الضباع فى الغابة، بحثت مع أبى عن الرجل فى الظلام فلم نستطع العثور عليه، شعر أبى بإعياء شديد وكان مرتبكًا إلى حد كبير.

سألت: "ماذا حدث؟"

همس أبى قائلاً: "لا أعرف".

انتظرنا بعض الوقت لكن الرياح هبَّت فوق الحى النائم فتصدَّعت أغصان الشجر، وشعرنا عندئذ بأننا ندور حول الأرض ثم وجدت نفسى فجأة أمام حفرة كبيرة وحين أشعل أبى عودًا من الثقاب اكتشفنا أنها ليست حفرة وإنما أثر كامل لرجل فوق الأرض بدا كأنه سقط بعد أن أعياه الطريق الطويل، كان أبى ملطخًا بالطين والدماء وكانت شفتاه ضخمتين وأنفه مليئة بالجروح، وقد أخافتنى تلك الانتفاخات والأورام فوق جبهته وكان الدم يسيل من الجروح القريبة من عينيه ومن أركان فمه.

شعرت بالبرودة تسرى فى جسدى حين سألنى أبى وهو يطفئ عود الثقاب: "ماذا كان اسمه؟"

قلت: "النمر الأصفر".

أمسك أبى بيدى فى حركة مفاجئة ومثيرة للفزع وقال بصوت خفيض وهو خائف: "النمر الأصفر، لقد كان ملاكمًا شهيرًا فى هذه المنطقة".

- وماذا حدث له؟

- لقد مات منذ ثلاث سنوات مضت.

سرت القشعريرة فى عظامى وسمعت أنفاس الرياح وقلت لنفسى: "لقد هزم أبى ملاكمًا من عالم الأرواح".

ارتعش أبى وتمسك بيدى أكثر فشعرت به وهو يرتجف وقلت: "إن الجو بارد".

قال بسرعة: "فلنذهب إلى البيت".

رفعنى فوق كتفيه ومضى مسرعًا فى طريق العودة حتى دخلنا حجرتنا، أغلق الباب وجلس فوق مقعده وسمعنا صوت أنفاس أمى وهى نائمة فى الظلام فوق السرير، أشعل أبى سيجارة وراح يدخن وكانت عيناه متوهجتين ومتألقتين، فاستطعت أن أشم فيه رائحة الطين والعرق والقتال والإثارة والفزع والدم، كما تراءت لى قبضة النمر الأصفر داخل روحه واكتشفت ميلاد أبى الجديد قبل أن يموت.

كان الأمر كله محيرًا وغامضًا بالنسبة لى، وبعد الانتهاء من تدخين سيجارته نهض أبى ومضى ليغتسل ثم سارع بالرقاد فوق السرير لكننى ظللت طوال الليل أسمعه وهو يتقلَّب ويطرقع جسده ويحرِّك رأسه إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى فعرفت أنه مثلى تمامًا؛ لم يستطع أن ينام من كثرة التفكير فى الملاكم الميت.

(٣)

لم يغادر أبى البيت طوال الأيام الستة التى تلت معركته الشرسة مع النمر الأصفر، كبرت الخدوش والكدمات فى جسده وفوق وجهه وتورمت عيناه حتى صارت مثل البصلة الكبيرة المنتفخة وأصبحت شفته السفلى أكبر من حبَّة المانجو الفاسدة، لم يكن مريضًا لكنه بدا فى حالة سيئة وكان يشعر بصدمة غريبة ومزيج من الألم والشعور بفقدان الذاكرة، بدا صامتاً طوال الوقت وكانت عيناه شاردتين وخاليتين من أى تعبير، وبين الحين والآخر كان يبتسم لى ابتسامة غامضة ويغمز لى ببلاهة فاضطررنا لتزويده بطعام المرضى والأطفال الصغار وتراءى لى عندئذ فى صورة أكبر طفلاً حديث الولادة فى العالم، كان ينام لساعات طويلة فى الليل والنهار بنفس الطريقة التى ينام بها الأطفال ويبتسم ابتسامة عريضة بين حين وآخر ثم يضحك بسخرية، ويكشف أحياناً عن نظرات غريبة وحادة كتلك التى يتمتع بها الأطفال وبعض المجانين من الرجال فقط، فقد التحكم فى أطرافه لبعض الوقت وكان جسده يرتجف فوق السرير وهو يهذى بكلمات غامضة وغير مفهومة وارتسم وجهه بأشكال مثيرة للضحك وكان يعبث بأصابعه الكبيرة الضخمة كالمهرج الكريه، كشفت جروحه وكدماته عن حجم الضربات التى تلقاها غير أن الكدمات تلاشت بسرعة، ولم تكن الأورام كبيرة وتوقف انتفاخ عينيه ومع مرور الوقت توقفت جروحه عن النزيف ولم تعد آثار الضربات واضحة فانتابنى القلق وكنت أراقبه وهو يرفس فوق السرير كالخنفساء أو كالصرصور المنقلب على ظهره كأنه اختار أن يكون حشرة حتى ينعم بقدر من الحرية وحتى يتمكن من الدخول إلى عوالم أخرى لا يستطيع الإنسان دخولها، كان يتمتع بمزاج سيئ وتبدو عليه الكآبة والكدر لبضع ساعات ثم يتحول فجأة إلى شخص أحمق ومعتوه وتنتابه حالة من الهذيان والانفعال

الشديد، وحين سمع أقرباؤنا الفقراء بالتغييرات التى طـرأت عليـه جـاءوا لزيارتنا لكن أحدًا لم يستطع أن يجد تفسيرًا لحالته، كما لم يفهم أى شـخص منهم ما حدث له ولم يستطيعوا فعل شيء سوى ترديد بعض الحكايات عـن مئات من الحالات الغريبة التى عرفوها عبر سنوات، كانوا يقدمون العـزاء لأنفسهم بسرد تلك الحكايات البائسة عن الآخرين، لم نخبرهم بالقتال الـذى دار بين أبى وبين الرجل الميت، وعلى مدى أيام ثلاثة امتلأ البيت بالزائرين الذين لم يفعلوا شيئًا سوى الدعاء وتقديم الأمنيات الطيبة، حضر أيضًا زملاء أبى الحمالون، وقد أحضروا معهم بعض الهدايا وجلسوا حوله وهم يشربون فى صمت، وحتى صاحب البيت لم يبخل علينـا بزيـارة قصـيرة دون أن يحضر معه أى شيء أو يلاحظ حالة أبى والوضع الذى أصبح عليه البيـت، وتمنى له الشفاء قائلاً: "ليته يكون قد تعلم الدرس ولعله يتوقف بعد الشـفاء عن تدمير الجدران".

شعر بقية الزائرين بما أصاب أبى ووقفـوا عـاجزين أمـام هذيانـه وأحاديثه الطفولية وعدم قدرته على معرفة الناس، وجلسوا صـامتين أمـام نوبات الانفعال التى كانت تنتابه والتى جعلته يبدو فى حالة غريبـة وغيـر طبيعية، حالة رجل بالغ وقع فى شرك الطفولة.

كانت الحجرة مليئة بالكبار ذوى الذقون الطويلة والصدور الضـخمة فشعرت أنهم يتعقبوننى من كل اتجاه، سادت الحجرة أجواء حزينة وبدا الأمر شبيهًا بموت فيل ضخم، ولم يكن أى شخص راغبًا فى رؤية حالة أبى المثيرة للشفقة.

سمعتْ مدام كوتو بحالة أبى فجاءت لزيارتنا، فى اليوم الذى بدأت فيه كدمات أبى تأخذ أشكالاً وألوانًا مختلفة وفور دخولها الحجرة التزم الجميـع الصمت بما فيهم أولئك الذين لا يعرفونها، جلستْ فوق مقعد أبى ذى الأرجل الثلاثة، وراحت تتفحص كل شخص بينما كانوا جميعًا يتجنبون النظر إليها،

لقد تغيَّرت مدام كوتو وأصبح وجهها كبيرًا وفقدت قليلاً من جمالها وفتنتها وكانت إحدى قدميها متورمة ومربوطة برباط قذر واتسمت نظراتها بالشر والعدوانية؛ ربما بفعل تلك البقعة الداكنة الخشنة المطبوعة فوق وجهها لكنها بدت أكثر حدَّة وانفعالاً وأكثر انعزالاً ووحدة وأكثر قوة فى آن واحد، تعبأت الحجرة برائحة عطرها وأيقظت ملابسها الفاخرة إحساس الجميع بفقرهم، كانت بطنها أكبر مما كانت عليه وكانت عيناها تشعان بالعنف والازدراء، جاء معها رجلان كانا واقفين خارج الحجرة لحمايتها وكانا شبيهين بالسفاحين وقطَّاع الطرق، طلبت أمى منهما الدخول لكنهما وقفا عند مدخل الباب فحجبا الضوء وأظلمت الحجرة قليلاً وكان أحدهما يحمل لفافة ما تحت ذراعه.

ظلت مدام كوتو صامتة فترة طويلة من الوقت ثم هزت كتف أبى بأصابعها الغليظة وسألته: "ماذا حدث لك؟"

حدَّق فيها أبى ولم يستطع التعرُّف عليها، لكزته مرة أخرى فوق كتفه فصدرت منه أصوات كأصوات الحشرات، استدارتْ وأصبحتْ فى مواجهتى وجالت ببصرها فى أرجاء الحجرة ثم عادت للجلوس فوق المقعد وقالت: "لا أحد يريد التحدث معى؟ ما الخطأ الذى ارتكبته والذى جعلكم تغرقون فى الصمت فور دخولى؟ هل سرقت نقودكم؟ هل أحرقت بيوتكم؟ هل أنا صاحبة البيوت التى تسكنون فيها؟".

سادت لحظة من الصمت تجرَّأ أحدهم بعدها وقال: "أنت مغرورة جدًا ومتغطرسة".

وقال آخر: "وأنت تساندين ذلك الحزب".

توقف الجميع لحظة أخرى ولم يقل أحدهم أى شىء وبدا أنهم فى انتظار سماع ردة فعلها، لكنهم لم ينتظروا طويلاً حيث سارعت بالقول: "أنتم جميعًا تحسدوننى وتغارون منى ولا يستطيع أحدكم أن يفعل مثلى".

نهضتْ وبدأت تومىء برأسها وتلّوح بـــذراعيها وفـــي تلـــك الأثنـــاء صدرت أصوات غريبة من أبى فتماسكت مدام كوتو وتغلبت على انفعالاتها، وراحت تسوِى لفافتها وتعلن بأنها تحملت ما يكفى ثم أشارت إلى أبى بعلامة الخروج وقالت: "سمعت بمرضك فجئت لرؤيتك والاطمئنان عليك لأننا جميعًا بشر كما أننا جيران ولقد ساعدنى ابنك فى العمل ولم أتشـــاجر معـــك قـــطُ وأتذكر أننى أحضرت لك بعض الهدايا، إن العالم صغير جدًا وعلى الناس أن يتذكروا دائمًا أننا جميعًا ننتمى إلى نفس الجنس البشرى وبالنســـبة لأولئـــك الذين التزموا الصمت عندما جئت ودخلت الحجرة فإنهم ســـوف يعرفـــوننى ويكتشفون حقيقتى".

تناولتْ اللفافة من تحت ذراع الرجل ووضعتها فوق الطاولة وقالـــت: "سأصلى من أجلك لتنعم بالشفاء فى أقرب وقت وتسترد قوتك".

غادرتْ مدام كوتو الحجرة فتبعتها أمى وسمعتهما تتحدثان فى الممـــر وبدا الارتباك واضحًا على الناس المحتشدين فى الحجرة، فتوجه أبى بنظراته إليهم ثم ساد الصمت وقتًا طويلاً دون أن ينقطع أبى عـــن تســـديد نظراتـــه الغريبة وقد أضفت الكدمات الزرقاء والجروح الكثيرة على نظراته نوعًا من السخرية الغامضة، كان أبى يعانى فعلاً من آلام شديدة، فقال أحد الزائـــرين وبالنيابة عن الآخرين إن الوقت قد حان للمغادرة لكن أحدًا لم يتحـــرك مـــن مكانه بينما كانت أمى لا تزال تتحدث إلى مدام كوتو فى الممر، ظل حشـــد الزائرين فى الحجرة بعض الوقت دون أن يتحدثوا فى أى شـــىء، وعنـــدما عادت أمى كان وجهها مشرقًا فتفرق الحشد وغادروا واحـــدًا بعـــد الآخـــر تاركين وراءهم هداياهم المتواضعة.

فى اليوم السادس بدت على أبى علامات قليلة وغامضة توحى بتحسن صحته وعندئذ جاء الرجل العجوز الأعمى للزيارة حاملاً معه الأكورديـــون وكان يرتدى قميصًا أزرق زاهيًا وقبعة حمراء مصنوعة من اللباد ومزخرفة

بالريش ونظارة زرقاء وكان برفقته شاب لمساعدته فى الدخول، جلس فوق مقعد أبى وقال بصوت غريب: "عندما سمعت بأنك مريض جئت على الفور وحرصت على إحضار الأكورديون معى كى أعزف لك بعض الموسيقى".

اكتست ملامح وجه أبى بالاستنكار وقدَّمت له أمى كأسًا من الأجوجورو المسكر سارع العجوز الأعمى باحتسائه فى جرعة واحدة، كأنه مشروب خفيف ثم راح يعزف على الأكورديون بحماس مدهش وبين الحين والآخر كان يتجه بنظراته العمياء نحوى كأنه كان يطلب منى التصفيق، وظل يعزف ألحانًا ركيكة وكريهة لا تصدر إلا من إنسان متوحش وشرير حتى أصابنا الصمم من تلك الموسيقى الخرافية الرديئة كأنه أغمد سيفًا فى أجسادنا وبدأ وجه أمى فى الارتعاش، وظللت أنا أرتجف ومع نغمات الموسيقى امتلأت الحجرة برائحة غريبة كرائحة الجثة المتعفنة أو رائحة حيوان ضخم يعانى من سكرات الموت فأصبح الأمر كله غير قابل للتصديق، بدأ أبى يتقلب فوق السرير ويتلَوى وكأن تلك الموسيقى أصابته بآلام لم يشعر بمثلها أثناء ضربات النمر الأصفر الشهير، فتحتْ أمى الباب والنافذة لطرد تلك الموسيقى خارج البيت فدخل الهواء الفاسد وعندئذ نهض أبى من رقدته وانتصب فى الفراش وهو يحاول جاهدًا عدم سماع تلك الموسيقى الكريهة، فبدا وكأنه كان واقعًا فى شرك بمكان ضيق لا يتناسب مع روحه الوثابة أو مع مزاجه المتقلب، بذل مجهودًا مضنيًا فى النهوض وهو يئن وكان يبكى تقريبًا من شدة الألم الناتج عن سماع موسيقى العجوز الأعمى الذى استدار ناحيتى مرة أخرى وراح يعزف بإلحاح أكثر أنواع الموسيقى بشاعة، كان أبى ما يزال يقاوم لكنه كان عاجزًا عن الحركة فلم تنجح كل محاولاته المضنية، توقف العجوز فجأة عن العزف فسقط أبى على ظهره وقال العجوز الأعمى: "كم هو عدد المرات فى الحياة الواحدة التى يولد فيها الإنسان من جديد؟"

ضحك بينه وبين نفسه ونظر نحوى ثم راح يواصل العزف باستمتاع غريب، وفى تلك الأثناء دخل شخص ما من الباب يحمل ابتسامة سحرية وعذبة ومليئة بالذكريات وحين نظرت إليه كان يلتقط إحدى الصور فأصابنى ضوء الكاميرا بانبهار فى عينى، كان ذلك الشخص هو المصور الذى ما فرغ من التقاط الصورة حتى هرع إلى حيث يرقد أبى وتحدَّث إليه طويلاً متمنيًا له الشفاء وأطيب الأمنيات لكن أبى لم يستطع التعرف عليه فلم يحاول المصور أن يضايقه بكثرة الكلام؛ وإنما أمسك بيد أبى وراح يهزها، تغيرت ملامح وجه أبى فانتهز المصور تلك الفرصة وسارع بالتقاط صورة أخرى لكن أبى راح يئن ويتألم من شدة ضوء الكاميرا.

قال المصور بطريقة غير مفهومة: "سوف أرحل لأنهم لا يشعرون بوجودى!"

تحسَّس رأسى وداعب شعرى ثم ارتدى قبعته وخرج مسرعًا وكأن أحدًا ما كان يتعقبه.

قال العجوز الأعمى بصوته الكئيب: "عندما يسارع الناس بالخروج ويواصلون الجرى فلا شك أنهم ملاحقون ومطاردون من شىء ما!"

بدأ العجوز يعزف من جديد مما أثار غضب أبى وكم كانت دهشتنا كبيرة حين نهض أبى من فوق السرير وأمسك بيد العجوز الأعمى واتجه به ناحية الباب.

فى اليوم السابع نهض أبى من كبوته بأعجوبة وبدا منتشيًا وتلاشت ألوان الكدمات الغريبة، وكان وجهه لا يزال مشوَّهًا وعيناه متورمتين ومليئتين بالغضب، وكانت جروحه لا تزال واضحة لكن شيئاً ما بداخله قد شفى وتحسَّن، أصابتنا جميعًا الدهشة من شفائه حتى أننى استيقظت ذات مرة فوجدته يقفز ويتدرب من جديد على الملاكمة، بدا نحيلاً لكن عينيه كانتا

مشبعتين بالبريق كأن مرضه وهروبه إلى عالم الطفولة قد زوَّده بقوة جديدة وسارع بشفائه، عاود الذهاب إلى العمل لكنه كان يعود مبكرًا وينام بعض الوقت دون أن ينقطع عن ممارسة الملاكمة فى أحلامه، استيقظ ذات مرة وطلب منى أن أحكى له عن معركته البطولية مع النمر الأصفر، وكرر طلبه بسرد نفس الحكاية عدة مرات لكنه بدا غير قادر على تذكر معظم الأحداث وكان يتحدَّث عن المعركة كأنها شىء ما لم يحدث سوى فى الأحلام، أما المرض الذى أصابه فكان بمثابة الحقيقة الوحيدة فى الحياة.

عادت أمى متأخرة وأخبرتنا عن الإعداد للقيام بعمل مشترك حيث جمعت النساء مبلغًا كبيرًا من المال استعدادًا لذلك الحدث، وقالت أمى إن مدام كوتو كلفتها بعمل وتنتظر موافقة أبى.

قال أبى: "سيعتقد الناس أنك امرأة عاهرة".

– لكننا نحتاج للمال.

– لا نحتاج لأموالهم ذات الرائحة الكريهة.

سيطر العبوس على أمى بقية الليل ولم ترغب فى الحديث عن أى شىء فلم يشعر أبى بالضيق لأنه لم يكن يريد شيئًا سوى الحديث عن معركته مع النمر الأصفر التى استحوذت على كل أفكاره، وراح يتحدث عنها طوال اليوم التالى والتى جعلتنى أستعيد انحناءاته للأسفل وتحركاته فى الظلام وكيفية هجومه الضارى على خصمه، كان الشىء الوحيد الذى أفسد الأمر كله على أبى هو عدم وجود أى شخص آخر بجوارى يمكن أن يكون شاهدًا على تلك المعركة الغريبة.

– أأنت متأكد من أن أحدًا لم يشاهد المعركة؟

– نعم.

– ولم يستيقظ أى شخص؟

– نعم.

سيطرتْ على أبى نوبة مفاجئة من الكرب والألم لعدم وجـود شـهود على تلك المعركة البطولية فأضاف متسائلاً : "وإذن فإن أحـدًا لـم يشـاهد المعركة؟"

- لا.
- ولا حتى امرأة واحدة؟
- لا.
- ولا حتى أطفال غيرك؟ ألم يكن هناك من يعبر الشارع؟ ولا حتى أحد من التجار؟
- نعم.
- وإذن فأنت الوحيد الذى شاهدنى وأنا أقهره؟
- نعم.
- ولا حتى كلب أو قطة؟
- ولا حتى كلب أو قطة.
- ألم يكن ثمة غرباء فى الطريق؟
- نعم، فيما عدا أضواء ثلاثة.
- أية أضواء؟

قلت: "ثلاثة أضواء".

ضربنى فوق رأسى فأضفت: "ثم انضمت إلى الأضواء الثلاثة أضواء أخرى".

ضربنى مرة أخرى فتوقفت عن الكلام وبدا أبى متأثرًا جدًا بـالعرض البطولى الذى قدَّمه وكان راغبًا بشدة فى الحديث عنه والتباهى به رغم علمه بأن أحدًا لن يصدقه، لكنه فى النهاية لم يهتم كثيرًا وراح بعد شفائه يتـدرب من جديد محاولاً استعادة قوته وحماسه مع قدر من الحماقة الممتزجة بالنشوة الغامرة.

كان يردد وهو يلاكم الهواء والفراغ قائلاً: "عليك أن تقهر الأشياء أولاً في عالم الأرواح قبل أن تتغلب عليها في هذا العالم!".

ظل أبي يدور ويلِف بلا انقطاع وبطريقة جنونية كأن النمر قد أصابه بشيء في عقله، وأظهر نشاطاً لا يمكن احتماله وعندما كان يقترب مني كنت أشعر بجسده المرتعد فبدا لي مثل حيوان ضخم ومتوحش.

(٤)

عاد أبى لممارسة تدريباته من جديد وكنا نستيقظ فى الصباح على إثر سماع تحركاته، وكان يذهب للعمل بعد الانتهاء من تدريباته الصباحية لكنه كان يعود مبكرًا عن العادة ثم ينام قليلاً لينهض مع بداية المساء لاستئناف التدريب أمام عتبة الباب حيث يشاهده الجيران الجالسون أمام عتبات بيوتهم هربًا من حرارة الجو داخل حجراتهم، كانوا يخرجون فى معظم الأمسيات من حجراتهم الساخنة حاملين مقاعدهم للجلوس باسترخاء بحثًا عن نسمة هواء نقية، وكانوا يشربون ويتبادلون الأحاديث انتظارًا لقدوم أبى الذى اعتاد عدم الخروج من الحجرة إلا بعد أن يتجمع عدد كبير من الناس أمام بيوتهم ويهتفون قائلين: "النمر الأسود!"

كان الخجل يعتريه بعد تلك الهتافات فيبدأ فى ملاكمة ظله وإظهار مهاراته ورشاقته وهو يصدر أصواتًا كأصوات الخنزير مما أثار اهتمام الكثير من الناس حتى إن الباعة الجائلين كانوا يتوقفون لمشاهدته بعد أن يتمددوا على الأرض للاسترخاء قليلاً من عناء التجوال طوال اليوم، وكذلك كان باعة البرتقال والبيض المسلوق والخبز والبندق المشوى يتجمعون لمشاهدته والتحديق فيه، انتهز بعضهم الفرصة لبيع بضاعتهم لأهل الحى حيث كانوا يجلسون فوق الرمال ويبسطون سلة البضائع أمامهم ثم يتمددون أخيرًا ويغلبهم النوم بينما يواصل أبى تدريباته وحتى الأمهات والأطفال والنسوة الكبيرات فى السن وبائعو التعاويذ والسحرة كانوا يتوقفون عن متابعة مهامهم لمشاهدة أبى ليس لشىء سوى أن الناس تجمعت حوله.

كان أبى فى تلك الأثناء يقفز ويسدِّد ضرباته المتلاحقة فى اتجاه الرياح فتسائل أحدهم قائلاً: "هل هذا شىء جديد؟"

- نعم.
- هل هو كذلك؟
- نعم.
- أهو شيء جديد بالفعل؟
- جديد تمامًا.
- وإذن فمن هو هذا الرجل؟.
- إنهم يدعونه بالنمر الأسود.
- أهو كذلك؟
- نعم.

كسب أصحاب المحلات وتجار الشارع أرباحًا طائلة بسبب أبي، وأفادوا جميعًا من الناس المحتشدين حوله فيما عدا أمي التي لم تكن مدركة لكل ذلك الاهتمام بأبي، والتي كانت في تلك الأثناء تتجول ببضاعتها في أرجاء الحي الفقير دون أن تبيع شيئًا طوال المساء سوى علبة من عود الثقاب، وبينما هي في طريق عودتها إلى البيت كان تجار الشارع يبيعون المشروبات والحلوى والسجائر والأجهزة القاتلة للناموس وجوزة الكولا واللبان والنظارات الرخيصة ومصابيح الغاز واختلطت تحركات أبي الغريبة بأصوات نداءاتهم وهو يلاكم الهواء والأتربة ويبعثر أحجار القرميد بقبضة يده، حتى اشتهر بين الناس بمزاولة تدريبات الملاكمة أمام البيت وأصبح الجميع يخافون منه وانتشرت شهرته على أجنحة خوفهم.

أثناء تجوالي في الحي والمرور بجوار الحانات وبالقرب من بيوت الشراب كنت أسمع الناس وهم يتحدثون عن النمر الأسود، لقد سمعت اسمه يتردد مع الرياح، وكانت النسوة تتحدث عنه في الأماكن المظلمة وراح الناس يتجادلون حوله ويعقدون مقارنة بينه وبين أبطال الملاكمة المعاصرين فكانت المقارنة لصالح أبي لأنه غير معروف بالنسبة للأبطال المشهورين

ولأنه ينتمى إلى نفس الحى الفقير ولأنه لم يخف من إظهار قوتـه للنـاس، أخبرت أبى بما سمعت فاستحوذت الفكرة على كل تفكيره وبدأ يتعامل مـع تدريباته بجدية أكثر؛ وراح يتناول مزيدًا من الطعام لينعم بمزيد من القوة فى نفس الوقت الذى كنت أنا وأمى نتناول القليل فأصبحنا أكثر فقرًا بسبب تلـك الفكرة التى سيطرت عليه، أصبحت شهيته للطعام كبيرة ولا يمكن تصـديقها مثل تلك الشهية التى يتمتع بها الفيل فكان بعد الانتهاء من التدريب فى المساء يذهب للاستحمام ثم يشرب الشعير والبيرة المركزة ليبدأ بعد ذلك فى التهـام الطعام بنهم شديد، كنا ننظر إليه بخوف وهو يبتلع كميات كبيرة من طعـام الإيبا.

قالت لى أمى: "ذات يوم امتلأ حلق أحد الرجال بطعام الإيبا حتى لـم يقدر على التنفس مما اضطرهم لقطع حلقه كى يتمكنوا من إخـراج كميـة الطعام".

قال أبى فى الوقت الفاصل بين جرعة من الشعير وأخرى: "لم يكـن الرجل نمرًا أسودًا".

كان يبتلع كميات كبيرة جدًا من الإيبا كافية لقتله وبـدا كـأن جسـده لانهاية له، وكان يأكل بسرعة كأنه يهاجم الطعام وهو يضع الجرعات أمامه ويسارع إلى التهام كميات ضخمة فأصبحت أمى نحيلة جـدًا، وفقـدت أنـا شهيتى وعند نهاية كل وجبة كان أبى يشكو من عدم كفاية الطعام ومن عدم قدرته على التهام المزيد لكنه لم يتحدث قطُ عن مذاق الطعام، كانت معـدتى تتمدد وفى حاجة لمزيد من الطعام.

أصبح عائده المادى من عمله أقل كثيرًا مما كان عليه فأصبح الأمـر أكثر سوءًا ولم يكن يفكر فى شىء سوى الملاكمة طوال الوقت حتى أنه كان يسير مسافات طويلة لمشاهدة مباريات الملاكمـة المجانيـة أو الرخيصـة، ويختفى لساعات طويلة يعود بعدها لإنفاق القليل من النقود على الطعام لأنه

كان ينفق الكثير على الشراب، كان يخرج بعد تناول الطعام ويمضي إلى الحانات وإلى كل مكان متباهيًا بشهرته التى جعلت الناس يطلبون له الشراب، ولم يكن يعود للبيت إلا وهو مخمور جدًا وكلما مارس تدريباته أكثر كلما شرب أكثر وكلما شرب أكثر كلما أصبح أكثر جنونًا وإثارة للقلق، فكان يواصل طرقعة مفاصله طوال ساعة كاملة محاولاً تحرير جسده من الطاقات المحبوسة وأحلام العظمة عديمة الجدوى.

بدأنا نخاف منه وعندما كنت أعرف أنه عائد فى الليل بعد تناوله كثيرًا من الخمر كنت أخرج للتجول فى الشارع لكننى فى المساءات المتأخرة كنت دائمًا أشاهده وسط الزحام وهو يتدرب ويرتجل حركات جديدة، فبدا لى كأنه يمارس نوعًا من السحر وفى تلك الأثناء راح الناس يتحدثون عن معدتى المنتفخة وقال رجلان وهما يراقبان تدريباته بشغف: "إن ابنه يتضور جوعًا".

- وزوجته نحيلة.
- هل لاحظت أنه كلما أصبح قويًا...
- أصبح ابنه نحيلاً وضعيفًا.
- وكلما زادت قوته...
- تقلصت زوجته.
- وبينما يتعلم خدعًا جديدة...
- تصبح أقدام ولده كالعصى.

ضحك كلاهما وانطلق صوت عميق من وسط الزحام قائلاً: "إنه يلتهم كل طعامهما".

وقالت امرأة: "شىء ما أصاب رأسه".

بدأ الرجلان يتحدثان مرة أخرى بسخرية واستخفاف، فقال أحدهم: "رجل كبير...

- ولا يخجل.

- عضلات ضخمة...

- بدون عقل".

ضحك الرجلان مرة أخرى ضحكات مخمورة فشعرت بالحزن، وبعد قليل من الوقت توقفت مؤقتًا لمشاهدة تدريبات أبى وكنت ألعب بمفردى فى الشارع حين كان الناس يشاهدونه وهو يقدم أعماله البطولية الجديدة؛ المتمثلة فى تكسير ألواح الخشب بقبضة يده وتحطيم القوارير فوق رأسه ورفع كثير من الناس فوق ذراعه وثنى القضبان المعدنية بكوعه.

كنت أراقب ما يحدث فى الشارع وأنا جالس بمفردى بعيدًا عن الزحام عندما اخترق عينى ضوء أزرق متوهج ثم سمعت صرخات العجوز الأعمى، لكننى لم أستطع أن أفهم شيئًا، سمعت نباح أحد الكلاب وكانت السماء صافية ورحت أتابع مشاهداتى للشارع حين رأيت فجأة إطارا معدنيًا لإحدى الدراجات يتدحرج ويتوهج بومضات من الضوء مع كل دورة، وقفت ساكنًا ورحت أتطلع حولى فأبصرت الشارع خاليًا من الناس غير أن إطار الدراجة كان يتدحرج نحو الشاحنة المحترقة،سمعت صخبًا ونظرت حولى بعينين نصف مفتوحتين ثم عاودت النظر مرة أخرى فشاهدت ظلاً وسرعان ما أصبح الظل صبيًا يرتدى سروالاً قصيرًا أبيض وقميصًا أزرق ويقود طوقًا، ظل الصبى يلف ويدور بالطوق حول الشاحنة المحترقة وتساءلت بينى وبين نفسى متعجبًا: "من أين جاء ذلك الصبى؟"

بدا لى أنه ظهر من الفراغ وانتابتنى مشاعر الإثارة والغضب، وعندئذ اختفى الصبى فجأة فنهضت وتوجهت نحو الشاحنة، كان الطوق المعدنى فوق الأرض وحين تجولت ببصرى حول الشاحنة لم أر شيئًا فأوشكت على مغادرة المكان لكننى استدرت حول نفسى حين أبصرت ظلاً كبيرًا حجب الشمس عن وجهى، جلس الصبى فوق قمة الشاحنة كالطفل الفاتح المنتصر الذى يتفقد أرضه الجديدة والذى أجبروه على الخروج من أرض الواقع أثناء

الليل وعاد ليتشكل الآن فى الموسم الماطر، كان يراقب أبى من موقعه فوق الشاحنة فسألته: "هل أنت ذلك الصبى الذى اختفى منذ قليل؟"

- لا.
- هل تحولت إلى ظل؟
- لا.

كان يجيب على أسئلتى باستهتار وهو يرمقنى بنظرات سريعة وعندئذ قلت له: "انزل".

- لماذا؟
- لأنه غير مسموح لك باللعب فوق الشاحنة.
- ولِمَ لا؟

أصابنى هدوءه بالارتباك فتسلقت الشاحنة وحاولت دفعه إلى أسفل فبدأ الشجار بيننا وحين ضربته فوق وجهه بادلنى نفس الضربة فوق وجهى، ضربته مرة أخرى فأمسك بخاصرتى ورحنا نتصارع لكنه نجح فى الإيقاع بى ثم ألقى بجسده فوقى وما هى إلا لحظة قصيرة حتى وقع كلانا فوق الأرض الصلدة، ضربته فأمسك بقدمى ورمانى على الأرض لكننى نهضت واقفًا ورحت أسدِّد الضربات فى كل الاتجاهات كما كان يفعل أبى أحيانًا بضراوة ووحشية، أصابت إحدى ضرباتى أنفه الذى راح ينزف دمًا غير أن نزيف الدم لم يؤثر فى قوته وراح يطلق وابلاً من الضربات حتى أصابنى بصفعات قوية عند أحد جانبى وجهى، بدأنا نتصارع من جديد فوقعنا على الأرض ثم نهضنا من جديد وراح كلانا يضرب الآخر بوحشية إلى أن تدخلَت بعض أيادى الشباب لإبعادنا عن بعضنا كأننا دجاجتان متوحشتان فى معركة دموية، كنا نرفس فى الهواء ونقاوم ونحن نتبادل الشتائم وراح كلانا يتوَعد الآخر ويقسم بضرورة الانتقام.

في يوم آخر وحين كان أبى يمارس تدريباته شاهدت الولد واقفًا فوق الشاحنة مرة أخرى فتقدمت ناحيته وقلت: "انزل".

قال: "لا، لن أنزل".

تسلقت الشاحنة لكنه لم يتحرك وقال: "لقد منحنى أبى شيئًا خاصًا ومتميزًا".

- لأجل ماذا؟
- إذا اقتربت منى أو لمستنى..
- نعم...
- وضربتك...
- نعم..
- سوف تسقط سبع مرات ثم تموت.

سألته: "من هو والدك؟"

أجابنى: "إن أبى نجار وإسكافى بارع".

قلت له وأنا أضربه فى وجهه: "وأبى هو النمر الأسود".

بادلنى نفس الضربة فى وجهى ولم يحدث أى شىء سوى أننى بدأت أضحك فسألنى قائلاً: "لماذا تضحك؟"

قلت: "بسبب ذلك الشىء الأبله الذى منحك أبوك إياه".

لم يقل شيئًا ثم نهض بعد لحظة من فوق الشاحنة وراح يلعب بالقرب من الجماهير المحتشدة التى تستمتع بمشاهدة أبى، لكننى بقيت فوق الشاحنة بعض الوقت ولم يكن بقائى مبهجًا فشعرت بالملل ولاحظت أن الناس كانت تنظر إلىَّ، نزلت ومضيت أبحث عن الولد الذى لم يكن فى البداية راغبًا فى التحدث معى، ثم أخبرته مرة أخرى أن ذلك الرجل الملاكم هو أبى فتألق وجهه بالإعجاب فسألته: "ما اسمك؟"

أجابنى: "آد، وأنت؟"

أخبرته باسمى وتبادلنا التحية بالأيدى، كان والـده إسـكافيًا ونجـارًا ومؤيدًا قويًا للحزب السياسى الموالى للفقراء ويتمتع بموهبة سحرية وكان يعدّ كثيرًا من المشاغبين أصدقاءً للعائلة مما جعلنى أتأثر بعض الشىء.

أخذنى معه إلى بيتهم وكانوا يعيشون بجوارنا فى حجرة واحدة صغيرة رغم عائلتهم الكبيرة، كان أبوه متزوجًا من امرأتين ولـه عشـرة أطفـال، فتساءلت بينى وبين نفسى: "كيف يعيشون فى هذه الحجرة الصغيرة".

كانت أمه وهى الزوجة الكبرى ذات أسنان صغيرة متآكلة وكان وجه أبيه مليئًا بالخدوش الكبيرة البارزة والمثيرة فبدا مثـل تماثيـل المحـاربين القدامى، كما كان طويلاً ويتمتع بروح وشجاعة مروعة وكانت أسنانه ملونة بلون جوزة الكولا وعيناه محتقنتين وغالبًا ما كان يضـرب أولاده ويزعـق فيهم بصوته الحاد الفاتر؛ اعتقادًا منه بأن الضرب هـو الوسـيلة الناجحـة للإصلاح فلم أشعر تجاهه بحب كبير.

اصطحبنى آد إلى ورشة أبيه وجعلنى أشاهد الشـواكيش والمسـاكات وأدوات النحت وصناديق المسامير الثقيلة والبنك الطويل الذى يجلس عليـه والده أثناء العمل، وبعض الطاولات المزدحمة بكميات ضخمة متناثرة مـن الأحذية والحقائب، كانت الورشة معبأة برائحة الصمغ والمسـامير الصـدئة والمعادن القديمة والأرض الرطبة وذلك الخمر المعتق المسكوب فوق الخشب وكانت الظلال تعكس صورة العناكب والديدان البيضاء الطويلة والخنـافس والأصنام المتأرجحة فوق العوارض الخشبية وكان سقف الورشة مظلمًا من كثرة العناكب وتتدلى منه الجلود بمختلف أطوالها، كان المكان مثيـرًا وبـدا أننى اكتشفت عالمًا جديدًا تمامًا للمعرفة واللعب فبدأت مـع آد نقلِّـب فـى الأحذية المختلفة متنوعة الأشكال والأحجام، واختبأنا خلف الدكـة الخشـبية ورحنا ندُق المسامير بقوة فى الخشب المسطح ونضع الصمغ فوق قطع مـن

الجلد الملقى فوق الأرض كى يلتصق ببعضه البعض فى محاولة لصنع أحذية جديدة، كنا منهمكين فى اللعب حين دخل والد آد فجأة، وشاهدنا ونحن نلعب ولم يخطىء فى التعرف على علامات الضحك المرتسمة فوق وجهينا، تناول سوطًا طويلاً من خلف الباب وجلدنا فوق ظهورنا فسارعنا بالخروج ونحــن نصرخ وفى نفس اللحظة قررت ألا أذهب إلى هناك مرة أخرى.

حاولت أن أصطحب آد ليتجول معى فى الشوارع لكنه كان يخاف من والديه ولم يسبق له أن ابتعد عن البيت حتى إذا ما قام أحــدهما باســتدعائه فلابد أن يجيب على الفور وإلا فإنه سيتعرض للجلد، أخبرته أن يهجر بيتــه ويأتى للإقامة معى لكنه كان خائفًا وقال إن والده سيغضب جدًا ويعاقبه عقابًا شديدًا إذا فعل ثم جعلنى أشاهد ظهره فرأيت علامات سياط قديمــة وعــددًا هائلاً من جروح الموسى التى يستخدمونها فى العلاج بالأعشــاب، وعندئــذ شعرت بالأسف والحزن من أجله فتوقفت عن الخروج والتجوال مدة قصيرة وذات يوم حاولت اصطحابه إلى حانة مدام كوتو لكنه أيضًا لم يوافقنى على ذلك لأن والده أخبره أنها امرأة لعوب ولا تتوقف عــن مســاعدة أعــدائهم السياسيين.

كنا نلعب ذات يوم فى الغابة حين وجدنا أنفسنا فجأة أمام مدام كوتــو التى كانت راقدة فوق جذع شجرة من أشجار الإيريكو الأسطورية، وكانــت خرزاتها البيضاء تبدو كثعبان مزخرف فى يديها وعندما شــعرتْ بقــدومنا قفزتْ من رقدتها ونظفتْ نفسها من التراب العالق بها وبدت فى حالــة مــن الارتباك الشديد ثم سألتنى بخوف وهى تطرف بعينيها: "من يكون صــديقك هذا؟"

قلت: "إنه آد".

نظرتْ إليه نظرة متفحصة فقال آد إنه سيعود للبيت وابتعد قليلاً، وظل فى حالة من الانتظار وهو ينظر إلينا بطريقة ماكرة أما مــدام كوتــو فقــد

تحولت بنظراتها الثاقبة غير المستقرة نحوى وصوَّبت نظراتها نحو بطنى وقالت بعد أن اكتسى وجهها بقليل من الرحمة: "أنت لم تعد تحب حانتى، أليس كذلك؟"

- نعم.

ابتسمتْ وأضافت: "هل أنت جائع؟"

- لا.
- كيف حال أبيك؟
- لا أعرف.

نظرتْ إلىَّ بإمعان ثم فكَّتْ لفافتها وحلَّت العقدة الكبيرة فى نهايتها، فشاهدت لأول مرة فى حياتى لفة سميكة من الأوراق النقدية عند نهاية دثارها فقلت لنفسى: "إن هذه اللفة كافية لخنق حصان إذا ما حاول ابتلاعها".

تناولتْ كثيرًا من الأوراق النقدية وقدمتها لى لكننى رفضت فى البداية وأنا أبحث عن آد غير أنها وضعت النقود فى كفى وأغلقت أصابعى عليها بقوة وقالت: "إذا سألتك أمك فعليك أن تخبرها بأنك وجدت النقود فى الغابة".

- لا.
- لا تقل لها بأننى أعطيتك إياها، أتفهمنى؟
- نعم.

راحت تتحسسنى برقة فوق رأسى فأدركت للمرة الأولى بأنها تغيرت وبدت لى كأنها محاطة تمامًا بنسمات غير مرئية من القوة، كانت بطنها كبيرة بالفعل وكان وجهها يوحى بمعاناة كبيرة وعبء ثقيل، وبالنظر إلى ظلها انتابنى شعور بالكآبة وحين تطلعت إلى عينيها أدركت أنهما غائبتان وتحاول قدر المستطاع أن تبتعد بهما عن رؤية بنى البشر، كانت عيناها مثل عينى الأسد ووجهها مستديرًا وقد بدت فى حال جيد رغم عينيها الشاردتين.

قالت فجأة: "أنا لست سعيدة".

- ولِمَ لا؟

نظرتْ نحوى نظرة حائرة وكأن الدهشة قد أصابتها عندما بادلتها الحديث ثم ابتسمتْ واستدارتْ وراحت تجرجر قدميها صوب ممرات الغابة برشاقة نادرًا ما يتحلى بها بنو البشر، وكان الذباب الصغير يتعقبها.

لم يحاول آد مقابلتى أو التحدث معى طوال أيام عدة لأن مدام كوتو أعطتنى نقودًا وعندما قدمت النقود لأمى حدثت ثورة فى البيت؛ حيث بدا المبلغ أكبر بكثير مما كنت أتخيل فأمرتنى أمى بالجلوس فوق السرير لساعات طويلة وهى تستجوبنى وتطرح أسئلة دقيقة عن الكيفية التى وجدت بها تلك النقود وانتابها شعور بالخوف لئلا تكون النقود ملكًا لأحد التجار أو أولئك الذين يمارسون الطقوس السحرية أو أنها ملك لأحد أصحاب النفوذ القادرين على مطاردتنا ومعاقبتنا، لم يكن كل ذلك حقيقيًا وإنما هى بعض الشكوك التى ساورتها وجعلتها تعتقد بأننى سرقت تلك النقود فشعرت بضيق شديد وانفجرت فى بكاء غاضب، كان أبى جالسًا فوق مقعده يدخن ويميل بجسده إلى اليمين وإلى اليسار حين قررتْ أمى بإصرار أن أصطحبها إلى المكان الذى تساقطت منه تلك النقود، فقلت لها إننى لا أتذكر وإننى عثرت عليها مصادفة بالقرب من بعض الشجيرات كما لو أننى كنت أحلم.

قالت أمى بنوع من السخرية: "هل أنت متأكد بأنها ليست الأرواح هى التى منحتك كل هذه النقود؟"

قلت: "نعم".

خرج أبى من حالة الهدوء والاسترخاء التى كان ينعم بها وهددنى بالضرب إذا لم أخبرهما بالحقيقة فرحت أواصل الكذب وأختلق الحكايات حتى نفد صبره وصفعنى فوق وجهى، نظرت إليه بغضب وأصبح جسدى

فجأة ساكنًا ثم ضمني إلى صدره وانحنى فوق رأسي، وقال: "سامحني يا ولدي فلم أقصد قطٌ أن أصفعك فوق وجهك لكننا لسنا لصوصًا، وإنما نحن أسرة نبيلة رغم كل شيء، نحن فقراء يا بني لكننا شرفاء".

سألني مرة أخرى عن المكان الذي عثرت فيه مصادفة على تلك النقود الكثيرة لكنني لم أخبره بالحقيقة وواصلت أكاذيبي حتى توقفا عن محاولة الحصول على معلومات حقيقية مني وظلا هكذا حتى وقت متأخر من الليل، ثم قرر كلاهما بعد ذلك ألا يتصرفا في النقود لمدة أسبوع كامل وإذا لم يسمعا أي شيء من أي شخص فإنهما سيعتبران تلك النقود هدية من السماء، أصبح أبي في مزاج أفضل فأرسلني لشراء زجاجة من الأجوجورو وبعد عودتي عرفت أنه كان يصلي ويتوسل لأجدادنا وآلهتنا الغامضة، ثم أمضى بقية الليل يتناقش مع أمي في كيفية التعامل مع النقود وكان راغبًا في شراء كل أدوات الملاكمة كما أرادت أمي أن تفتح دكانًا تبيع فيه بضاعتها بالإضافة إلى دكان آخر للبيع بالتجزئة، وظلا يتجادلان طوال الليل بطريقة ساخرة وعنيفة بينما غرقت أنا في نوم عميق على أنغام أصواتهما الحادة الغاضبة، وعندما استيقظت في الصباح كانا لا يزالان منخرطين في خلافاتهما الصاخبة، وكان كلاهما يعاني من انفعال شديد وبقيا هكذا طوال أيام ثلاثة ثم مضت أربعة أيام أخرى لم يتوصلا خلالها لأي اتفاق كما لم يتوقفا عن الخلافات طوال الوقت وتذكير بعضهما البعض بمئات الأحداث المؤسفة المتعلقة بالنقود، أنفق أبي في تلك الفترة بعضًا من النقود الكثيرة في شراء المشروبات واستضافة الأصدقاء واشترى لنفسه حذاءً وزوجًا احتياطيًا من قفازات الملاكمة، وأصبح الباقي كافيًا لشراء كثيرٍ من البضاعة لأمي كي تمارس تجارتها على نطاق أوسع وكافيًا لنا جميعًا لشراء بعض الملابس الجديدة ودفع ايجار البيت وكان بمقدورنا أن ننعم بأشهى الطعام لمدة شهر كامل.

(٥)

اقترب يوم الاجتماع الحاشد الذى تأجّل كثيرًا وتحدثوا عنه كثيرًا، وثمة أشياء غير عادية كانت تحدث فى حانة مدام كوتو أولها تلك الأسلاك الكهربائية التى كانوا يركبونها فى سقف الحانة لتوصيل الكهرباء، تجمَّع عدد كبير من الناس الذين لا يعرفون شيئًا عن الكهرباء أمام الحانة لرؤية تلك الأعجوبة الجديدة فشاهدوا الكابلات وأبراج الأسلاك الكهربائية من مسافة ليست بعيدة، لكنهم لم يشاهدوا تلك المعجزة التى يسمونها الكهرباء بينما دخل الحانة عدد آخر من الناس بعد أن استبدَّ بهم الفضول وحب الاستطلاع لكنهم خرجوا فى حالة من الارتباك والحيرة ولم يصدِّقوا ذلك الضوء المنبعث من تلك الكرة الزجاجية الصغيرة والذى يفوق فى تألقه ضوء المصابيح كما لم يفهموا السبب وراء عدم قدرتهم على إشعال سيجارة من ذلك الشىء المنتفخ لكن عدم قدرتهم على رؤية أو معرفة سبب الإضاءة كان هو أكثر الأشياء التى أصابتهم بالحيرة الشديدة.

رفعت مدام كوتو من أسعار النبيذ ثم فرضت لبعض الوقت رسومًا متواضعة للدخول؛ حتى يتمكن القادرون على دفع الرسوم من الاستمتاع بميزة الكهرباء الفريدة والتى هى الشخص الوحيد فى شارعنا وفى كل منطقتنا الذى يملك ذلك الامتياز، شعرت مدام كوتو بالتميز ففكرت فى تغيير لافتة الحانة وسلطت عليها مزيدًا من الأضواء للفت الانتباه.

بدأ الناس يسمعون الموسيقى الصاخبة وهى تدَوى من داخل الحانة ولكنهم لم يشاهدوا أى فرقة موسيقية تقوم بعزف تلك الموسيقى؛ مما أثار دهشتهم وبعد ذلك راحوا يتبادلون الحكايات عن الحفلات الغريبة وعن النساء العاريات وهن يجرين فى الغابة والسكارى الغارقين فى احتساء النبيذ وعن

أعضاء الحزب وهم يلقون بالمال الوفير فوق أجساد الراقصات، وانتشرت الشائعات الكثيرة عما يفعله الرجال مع النساء فى الليالى المضاءة بالكهرباء وهم غارقون معًا فى الضحك، كبر جسد مدام كوتو أثناء تلك الفترة وأصبحت أكثر بدانة حتى أنها لم تقدر على الدخول من الباب الخلفى فاضطرت لتوسيعه، شاهدناها وهى ترتدى الفساتين الحريرية الجميلة والمشدات الفيروزية المطرزة بإحكام والعباءات والقبعات الصفراء وهى تلوِّح بمروحة من الجلد الأزرق وكانت الأساور والخلاخيل الفضية والذهبية تحيط بكلتا ذراعيها وقلادات من الخرز والأحجار الكريمة تطوِّق رقبتها حتى أن كل تلك الأشياء كانت تصدر أصواتًا مجلجلة أثناء سيرها معلنة عن حضورها المهيب قبل ظهورها، كانت أظافر أصابعها مطلية باللون الأحمر وأهداب جفونها أكثر تحديدًا ووضوحًا، وكانت تزين شفتيها بأحمر الشفاة وترتدى حذاءً ذا كعب عالٍ وتتحرك بخطوات واثقة وتحمل دائمًا عصا السير فى يدها؛ فبدت فى شكلها الجديد مشرقة ومتماسكة وقوية وشبيهة بأحد زعماء العصور القديمة العظماء الكبار.

بدأت السيارات تظهر أمام الحانة وكانت الأضواء تتلألأ حتى وقت متأخر من الليل ودائمًا ما كنت أسمعهم من الشارع وهم يتبادلون الأحاديث بحماس، كما استطعت رؤية وجوههم عبر جدائل الستارة، كانت الشائعات المبتذلة قد لحقت بمدام كوتو فاتهموها بالانضمام إلى أكثر الطوائف والفرق الدينية المثيرة للجدل فى أرجاء البلاد وأنهم وافقوا على انضمامها رغم عدم السماح بقبول النساء فى هذه الطائفة، وقالوا إنها تقدم مجموعة من الطقوس فى الغابة وكنت قد سمعت عن الأضحيات الغريبة والعجيبة وعن طقوس ذبح الماعز فى الليل وعن أولئك الذين يرتدون الملابس البيضاء ويرقصون حول بيتها، وتلك الصرخات والهتافات التى تخترق سماء الحى وعن الأناشيد والتراتيل المدوية المصاحبة لدقات الطبول وكان أغرب شىء سمعته هو حديثهم عن الميلاد الوشيك لصاحب الرؤوس الأربع الذى لا يعرف أحد أى شىء عنه.

اعتقد الناس بأن مدام كوتو قد تجاوزت حدود السحر والفتنة وكـانوا ينظرون إليها بكراهية عندما تمر بالقرب منهم، وقالوا إنها ترتدى باروكة من شعر الحيوانات وشعر الإنسان فوق رأسها وراحت الشائعات تتصاعد حتـى قالوا إن الطائفة التى تنتمى إليها تقدِّم أضحيات من البشر وأن مـدام كوتـو تأكل الأطفال وتشرب دم الإنسان ليطول عمرها الذى تجاوز المائة عام، ثم أضافوا بأن الأسنان التى بفمها ليست أسنانها وأن عينيها ليست بعينيها وإنما هى عينا ابن آوى وأن الإرهاق قد أصاب قدميها لأنهما فى الأصـل قـدما شخص آخر كان يحاول الرقص فى مقبرتهم، أصبحت مدام كوتو فى نظـر الناس أجمعين مخلوقًا خرافيًا ووحشيًا ولم يشفع لها إصرار بعض الناس على أن خصومها السياسيين هم الذين اختلقوا كل تلك الحكايات التى ساعدت فـى تشويه تصوراتنا ورؤيتنا لها وبدأ الناس تـدريجيًا فـى تصـديق مختلـف الحكايات حتى أصبحت مدام كوتو كائنًا غامضًا بالنسبة لنا.

نجحت مدام كوتو فى عملها بالرغم من كل ما قاله الناس بينما كـان بقية الناس يعانون من الفاقة والحرمان، افتتحت حانة أخرى فى مكان آخـر من المدينة، وراحت توزع وقتها بين الحانتين كما افتتحت متجرًا كبيرًا لبيع الجارى والأشرطة والمشدات وأربطة الأحذية والمجـوهرات فـى السـوق الكبيرة وكان لديها العديد من الموظفين والعمال وتناهت إلى أسماعنا قصص وحكايات متضاربة حول ثروتها وقال البعض من الناس إنها لم تكن ثريـة جدًا وإنما يتلخص الأمر فى وجود عدد كبيـر مـن النـاس الـذين كـانوا يساندونها، بينما أشار آخرون بأنها تمتلك كثيرًا من المال تستطيع به إطعـام الحى بأكمله لمدة سنوات خمس، سمعت أنها كانت تمضى أياما غير معدودة فى إحصاء مكاسبها وأنها كانت تحتاج لشاحنة مصفحة عند ذهابها للبنك، ثم بدأنا نسمع مختلف الحكايات المتضاربة عن شخصيتها وكيفية تعاملهـا مـع العاملين معها، كان أحدهم فى حاجة للمال للعلاج من مرض الكبد فلم تساعده سوى بالقليل، لكننا سمعنا – من ناحية أخرى – أنها منحت إحـدى النسـاء

كثيرًا من المال دون أن تعرفها لإنقاذ طفلها الذى تناول طعامًا فاسدًا وكــان موشكًا على الموت لولا تدخل مدام كوتو فى الوقت المناسب، وبالنظر إلــى كثير من أطفال مدينتنا بدا لى أن العالم ملىء بأمثال مدام كوتو.

ذات يوم بينما كنت ألعب مع آد شاهدنا كثيرًا من النــاس المحتشــدين أمام حانة مدام كوتو، كانوا واقفين فوق الوحل وهم يرتدون السترات البيضاء المزركشة ويحملون الكتب المقدسة الفضفاضة وكان قائدهم يحمل أكبر هــذه الكتب فبدا كأنه أداة من أدوات الانتقام، وكان شعره جافًا وهائجًا وذقنه خشنًا ومدهونًا بالمراهم كذقن أحد الأنبياء ولم يكن يرتدى حذاءً فى قدميه ولــولا الصولجان الخشبى الخاص بكبار القساوسة لبدا رجلاً فى أقصــى حــالات الجنون، كان الصليب الكبير يتدلى من رقبته أثناء قيامــه بتعيــين ممثلــين للكنيسة الجديدة فى المدينة، وكان كل أتباعه متأثرين بتوجيهاته وفى حالة من الترقب الشديد، كانت المجموعة تتكون من عدة طوائــف مختلفــة وكــانوا يرقصون بحماس فى خط مستقيم ويقيمون الصلوات بيقين ملىء بالخوف أمام الحانة ويصورون مشاهد النار والكبريت والعذاب والخطيئة، كانوا يصــلُّون كأنهم يطهرون الأرض من الشرور البشرية الكبيرة، ثم راحوا يرشون المياه المقدسة فوق الأرض وينثرون ذرات الرمل باتجاه الحانة وظلوا هكذا مــدة طويلة وهم يغنون بحيوية ونشاط وبإيقاعات متصاعدة ومتناســقة، وكانــت أقدامهم تغوص فى الطين وقد تسبب وجودهم فى عدم قــدرة النــاس علــى دخول الحانة، كانت النسوة داخل الحانة تطلقن الصفير من خــلال جــدائل الستارة من حين لآخر فيشير إليهن قائد المجموعة بإصــبعه المائــل وفمــه الملىء بالرغاوى فتتصاعد على الفور حدة الغناء، استمروا فــى مواصــلة طقوسهم وغنائهم أمام الحانة حتى الغروب ونجحوا بذلك تمامًا فى عدم تمكن مدام كوتو ومن معها من النسوة من الخروج، فلم تتمكن من مباشرة عملهــا فى ذلك اليوم.

عادوا فى مساء اليوم التالى وأحضروا معهم مزيدًا من جماعة المصلين ورعايا الكنيسة وشاهدناهم وهم يغنون ويقرعون طبول الكنيسة عبر الشارع، وبدا أن بصحبتهم فرقة موسيقية كاملة حيث امتلأ الهواء بموسيقى آلات النفخ النحاسية وعصفت دقات الطبول بالرياح وكانت أصوات الرسل والأتباع الخفيضة تقود الطريق إلى المعركة ضد الشرور مما أيقظ الشارع من سباته وعند وصول الموكب إلى حانة مدام كوتو التحق الجميع بهم فأصبحوا كتلة متدفقة من المتفرجين، وبدوا كالطوفان البشرى وراحوا ينشدون الأغانى المتنوعة فى وقت واحد كأنهم جيش الانتقام الإلهى، وصلوا إلى حانة مدام كوتو واكتشفوا أنها مغلقة فبادروا بمواصلة الغناء والعزف وإنشاد التراتيل ودق أقدامهم فوق الأرض، وارتفعت أصواتهم بالألحان المقدسة حتى أصبحت أصواتًا خشنة، توقع بعض الناس حدوث شىء ما لكنهم أصيبوا بخيبة أمل فلم يحدث شىء سوى الخيبة والإحباط مما جعلهم يتشاجرون وتفجر القتال بين أفراد الفرقة الموسيقية وبين قادة الطوائف المختلفة وبين المتنافسين، وحين اقترب الشجار من رئيس القساوسة سارع برسم التعاويذ وهو يرفع عصاه وإنجيله عاليًا فى الهواء ووجد نفسه حائرًا بين تهدئة رعاياه الجامحين أوشن هجومه الشديد باتجاه الكهرباء التى جلبتها مدام كوتو، لكنه نجح - رغم حيرته - فى إلقاء خطبة شديدة اللهجة فأصبح الصياح أكثر وحشية بين طائفته وأتباعه واندفع أحد الرجال بقوة نحو الطين وراح يقذف به الناس بينما كان رجل آخر مخنوقًا بسترته وسرعان ما راحوا جميعًا يتقاتلون فيما بينهم.

قال رئيس القساوسة صارخًا: "لقد دخل الشيطان بيننا".

لم يسمعه أحد فاستطرد متوعدًا: "سيبدأون بتحطيم الكهرباء أولاً ولن يتوقفوا إلا بعد إحراق الأرض بكاملها".

لم يهتم أحد بما قاله القس الأكبر ثم حدثت - فجأة - أكثر الأشياء غرابة، تشقّقت السماء إلى قطع صغيرة متناثرة وأصبح المشهد مشرقًا وكأن

مخلوقًا مشعًا بقوة كان هابطًا من السماء، كان الضوء المنبعث من السماء براقًا لفترات طويلة فلم يستطع أحد أن يقول شيئًا والتزموا جميعًا الصمت، وجعلتهم تلك البشارة المجهولة يتجمدون فى أماكنهم وقد أصابنا جميعًا نوع من الافتتان كأن سيفًا متلألئًا قد تعلَّق برقابنا ثم بدأت الرياح تهب بهدوء.

قال رئيس القساوسة: "لقد استجاب الرب لمطالبنا وتوسلاتنا".

انخفضت السماء ولم تعد متلألئة بالضوء وانتشر الهواء بقوة غير أن الرياح كانت ساكنة، ولقد شممت فى تلك اللحظة كل روائح أعشاب الغابة المعروفة وغير المعروفة وأصبح العالم غارقًا وسط عبير تلك الروائح.

هتف رئيس القساوسة صارخًا: "هالليلو.. هالليلويا".

التقط أتباعه صرخته فرفعوا أياديهم إلى السماء وأعادوا تكرارها مرارًا، ثم التزموا الصمت وظلوا فى حالة من الترقب.

شيء ما كان ينهار ويتشقق فى أعماق السماء حتى ابتعدت تمامًا عن مكانها وراحت تتدحرج إلى أسفل على شكل قباب سماوية لا حصر لها، وكانت أصواتنا تعلو وتزداد حدتها بطريقة عجيبة ونندفع بقوة فى اتجاه بعضنا البعض كلما اقتربت منا القباب التى انفجرت أخيرًا فوق رءوسنا، وقبل أن نستفيق من ذلك الحدث الكونى الفريد انفتحت السماء من جديد وعادت إلى رحابتها واتساعها ثم تساقطت الأمطار بغزارة فوق رءوسنا.

تبعثر أتباع الطائفة فى كل مكان وساد اضطراب كبير ومثير للضحك، وتعالت صيحات الناس وبكاء الأطفال وصرخات الأمهات وكان رئيس القساوسة هو الوحيد الواقف فى مكانه بثبات وما هى إلا لحظة خاطفة حتى سارعت فرقة آلات النفخ النحاسية الشجاعة ومعهم جمع المحتشدين بالهرب فى اتجاهات عدة، كما تفرقت الرياح النشطة نحو نفس الاتجاهات متأثرة باندفاع المطر الغزير، بدوا لى كأنهم يهربون من بيت محترق وكان رئيس

القساوسة ينادى عليهم ويعترض على هروبهم ويحثهم على التحلى بالشجاعة والثبات فى المحن، لوَّح بعصاه وإنجيله فى الهواء فدوى الرعد فوق رءوسهم لكنه لم يتحرك ولم يقدم تبريرًا لما يحدث وإنما ظل يواصل صلواته بحماس شديد، ثم راح يلعن مدام كوتو وأطلق عليها اسم العاهرة الكبرى، وعندئذ بدأ فى الرقص والغناء بمفرده بينما كانت الأمطار تتساقط فوقه بلا رحمة.

أصبح شبيهًا بالدجاجة الضخمة المنقوعة فى الماء وكان شكله مثيـرًا للسخرية وكان يرتعش فى صلواته والتصقت ملابسه بأردافه مما كشف عن أعضائه الداخلية وبقدر ما فقد حماسه وتلاشى تدريجيًا مع زخـات المطـر القوية بقدر ما كان يرتعش، كانوا جميعًا يراقبونـه مـن خـلال مخـابىء الأسطح، تقاطرت المياه من كتابه المقدس أثناء مقاومته للمطر، وبدت ذقنـه كسفينة غارقة فى المحيط واختفى صوته وسط ضجيج الأحداث الكبرى ولم يكن يملك خيارًا سوى الاستمرار فى وضعه العبثى فبدأ بإنشاد التراتيل وهو يضرب فوق ركبتيه دون أن يتوقف عن شجب العاهرات والعلم ونظريـات التطور ونساء بابل المنغمسات فى اللذة والترف والآثام، وفى تلـك الأثنـاء عبر الشارع موكب من السيارات، توقف الموكب حواليه ثم انفتحت أبـواب السيارات وخرج منها رجال ونساء يرتدون الملابـس الفـاخرة المزركشـة ويحملون مظلات الوقاية من المطر، كانت مدام كوتو واحدة من أولئك الناس وكانت ترتدى فستانًا كبيرًا أسود مطرزًا بالحرير المتلألىء وحـذاء أبـيض ووشاحًا أبيض، وكانت المجوهرات تزين رقبتها وكلتا ذراعيها، مرَّ الضيوف العظماء بجوار القس ولو أنهم سمعوا شيئًا من هذيانه وشتائمه لما اهتمـوا، كان باب الحانة مفتوحًا فدخلوا جميعًا فيما عدا مدام كوتو التى عادت وقدَّمت مظلتها للقس الذى تناولها بخجل ثم عرجت عائدة إلى الحانة حاملـة عصـا السير فى إحدى يديها، بينما راح القس يستأنف لعناته واتهاماته لها، وعندئذ بدأ الناس يسخرون منه ويظهرون عدم رضائهم، وعندما حل المساء وسـاد الظلام أصبح رئيس القساوسة مجرد حطام رجل غارق فـى الميـاه وكـان

يرتعش فى الظلام وتحشرج صوته، مضى فى سيره الهزيل والمثير للشـــفقة بعيدًا عن الحانة واتجه نحو الشارع، وفيما بعد بأيام كثيرة عرفنا أنه تـــزعم أتباعه فى تحريض الحزب الموالى للفقراء على مدام كوتو، كما سمعنا أيضًا بعض الأقاويل عن ثمة تبرعات خيرية لصندوق الكنيسة فأصابتنا خيبة أمل كبيرة من مثل تلك الأساليب التى ينتهجونها.

(٦)

كان أصحاب الدراجات العادية يشعرون بفخر عظيم لامتلاكهم مثل تلك الوسيلة التى تساعدهم فى التنقل، وكانت تنتابهم أحاسيس متباينة من الشعور بالتميز لكن أحدًا لم يكن يمتلك الدراجات البخارية التى يمنحونها لكبار السن وشيوخ القبائل سوى رجل واحد وربما اثنين فقط وحين سمعنا أخبارًا مؤكدة بامتلاك مدام كوتو سيارة جديدة أصابتنا الدهشة ولم نستطع أن نصدق فلا أحد فى طول شارعنا وعرضه وفى كل منطقتنا يمتلك مثل ذلك الشيء، أصبحت الأخبار مؤكدة أكثر لكننا أيضًا لم نصدق حتى شاهدنا سيارة صغيرة زرقاء جميلة ذات واجهة معدنية من الصلب تقف أمام الحانة وظللنا فى حالة من عدم التصديق، حتى بعد أن شاهدنا مدام كوتو وهى تتدرب على قيادتها وحتى حين أطاحت ودمرت كشكًا لإحدى النساء العجائز أثناء تدريباتها على القيادة، أعادت بناء الكشك على الفور وأعطت للمرأة العجوز نقودًا أكثر مما تستحق، كنا نراقبها وهى تتدرب على القيادة وكان جسدها الضخم لا يتناسب مع تلك السيارة الصغيرة، فبدت أمام عجلة القيادة كأنها داخل إحدى القواقع وكانت تلك الحقيقة المتمثلة فى كون السيارة صغيرة جدًا بالنسبة لجسدها الضخم هى العزاء الوحيد للناس، لكن الدهشة لم تفارقنا رغم كل شيء.

تعلمت مدام كوتو القيادة فى شارعنا بمساعدة أحد الرجال، وراحت تسير بالسيارة فى خطوط متعرجة وكان وجهها مليئًا بنظرات الارتباك والخوف وكتفاها محدودبين كأن وزنها الثقيل كان – بطريقة أو بأخرى – هو الذى يساعد السيارة فى التحرك إلى الأمام، لم تستطع أن تحافظ على السير فى خط مستقيم وعندما كان الناس يشاهدونها قادمة كانوا يصرخون قائلين: "ابتعدوا وأبعدوا أطفالكم فالسيارة المجنونة قادمة!".

اعتدنا بعد ذلك على رؤية سيارتها وهى تتأرجح من جانب إلى آخر وتتسبب فى تفريق الماعز ومختلف أنواع الطيور، وهرب المتفرجون الأبرياء إلى أماكن لا يرغبون فيها خوفًا من تلك الأعجوبة لكن إصرارها على القيادة لم يتوقف وكانت تقود السيارة بانفعال شديد وتضغط بعنف على التروس فتنبعث من المحرك أصوات مخيفة، وعندئذ كان الناس يقولون: "إن السيارة المجنونة الصغيرة جائعة".

سمعنا بعد ذلك ببعض الأضرار التى لحقت بالسيارة بسبب قيادتها السيئة وكانت تستخدم الفرامل على نحو مفاجىء وبقوة حتى أن رأس الرجل الذى كان يعلمها كثيرًا ما ارتطمت بتابلوه السيارة، ولأنها لم تستطع أن تتعلم فقد تركت الأمر لسائقها الذى كان يصطحبها لتلبية حاجياتها.

لم يهتم الناس لأمر امتلاكها سيارة صغيرة ولم تكن قيادتها السيئة للسيارة هى ما يشغلهم لكن ما كان يؤرقهم ويشغل بالهم هو أنها الوحيدة المتفردة بقدرتها على عمل شىء لا يفعله الآخرون، فوصل بهم الأمر إلى حد الاعتقاد بأنها تستطيع – لو أرادت – أن تطير فوق الحى بعد أن تمتطى طاسة مستديرة.

فى اليوم الذى كان على مدام كوتو أن تغسل فيه سيارتها تجمع كثير من الناس للاحتفال بهذه المناسبة معها وكان صاحب البيت موجودًا، وحضر بعض الناس بدراجاتهم العادية والبخارية لكن الغالبية جاءت سيرًا على الأقدام، وكان بعض الرجال المسنين الذين لم نشاهدهم من قبل قطٍ من بين الحاضرين وبعض النسوة الغريبات من ذوات الشأن والمقام الرفيع واللاتى لا تحمل عيونهن أية مشاعر، شاهدنا الزعماء وكبار القوم وقطاع الطرق والمعالجين بالأعشاب والسحرة بصحبة معاونيهم وقد تجمعوا داخل الحانة، وراحوا يتبادلون الشراب ويتحدثون بأصوات عالية، وأخيرًا خرجوا جميعًا وتجمعوا فى دائرة حول السيارة لمشاهدة عملية الغسيل وكان من بينهم أكبر

المعالجين بالأعشاب شأناً وهو رجل صارم وذو وجه عابس وعينين مثيرتين للفزع تكفى نظرة واحدة منهما لتحطيم مجموعة من المرايا، تفــوَّه الرجــل بمجموعة من التعاويذ العصبية على الفهم وبدأ يصلِّى من أجل السيارة ثم قال: "ستحدث أشياء كثيرة وغامضة ستتمكن بعدها هذه السيارة من الســفر إلــى القمر والعودة بسلام".

هزَّ الناس رؤوسهم فأضاف: "سوف تجلب لكم هذه الســيارة الرخــاء ووفرة من المال ولا شيء سوف يضاهيها وإذا ما اصطدمت بها أى ســيارة أخرى فإنها ستتحطم دون أن يحدث أى شيء لسيارتكم، وذلك مــا نســميه بالسحر الأعظم وإذا حاول أحدكم قيادتها حتى وهو نائم فإنه لن يصاب بأذى وسيكون فى أمان كامل أما إذا حاول أى شخص أن يسرقها فإنه ســيتعرض فى الحال لحادثة تنتهى به إلى الموت وكذلك لن يفلت من الموت من يتمنــى لها أى مكروه!".

وافق الناس بالإجماع على كلام الرجل وأومأت مدام كوتو برأسها وهى تحمل العكاز فى إحدى يديها وفى تلك الأثناء كان كل شخص مخموراً بطريقة أو بأخرى، فاستطرد الرجل مخاطباً مدام كوتو: "إذا شعر الناس بالغيرة تجاهك فدعيهم يغارون لأن الغيرة شيء طبيعى وحق لكل فرد، وهم يســتطيعون أن يلتهموا السيارة ويقتاتوا عليها حتى تمتلئ بطونهم، لكن إذا ما فكر أحدهم فى إيذائك فقد تدهسهم هذه السيارة أثناء نومهم، سوف تطارد هذه السيارة أعداءك وتتعقب أرواحهم الشريرة لتسحقها فى الطريق، قد تسير سيارتك فوق النــار دون أن يلحق بها الأذى وقد تعبر المحيط بأمان فإن لها أصدقاءها فى عــالم الروح، ولذلك فإن سيارة مثل هذه سوف تدهس أعداءك ولن يشــعروا معــك بالأمان وحتى إذا ما سقطت قنبلة فوق هذه السيارة فلن تتأثر وستبقى كما هى، لقد فتحت الطريق من أجل هذه السيارة التى ستسافر عبر كل الطرق ثم تصل إلى كل الأماكن التى تريدها بأمان وذلك كل ما أريد قوله".

هتف الناس وقد انتابهم شعور بالبهجة وضحك بعضهم ثم رش الرجل العشَّاب كمية من محتويات أعشابه المركبة والسوائل فوق السيارة وبعد ذلك أفرغ نصف زجاجة من الأجوجورو المعتق فوق غطاء محرك السيارة، وبعد الانتهاء من طقوس تنظيف السيارة وغسلها وحضور كبار السن من ذوى الشأن والرؤساء وأصحاب المذاهب وقيادات الطوائف الذين ساعدوا فى رش السيارة بالماء والأعشاب والأجوجورو المعتق، انصرف جمع الناس وراحوا يتسابقون فى الشراب حتى أصبحوا مخمورين تمامًا، كانوا يتناقشون ليشربوا أكثر ويشربون ليتناقشوا ويتبادلوا الحديث بشكل أفضل وانضم إليهم مزيد من الناس، وكانت النساء العاهرات تقمن بالخدمة وتقديم النبيذ واللحم المقدد والأرانب المشوية، ظهر العجوز الأعمى فجأة وألقى بنفسه وسط المخمورين وانخرط فى مناقشات ساخنة مع زعيمهم وكان من المتوقع أن يتبادل الحاضرون الاتهامات والمشاكسات، وربما كانوا يرغبون فى ذلك فتفجر فجأة صخب واضطراب كبير لم يعرف أحد كيف بدأ حيث حلَّقت الطيور فوق الرءوس وحطَّت فوق سطح السيارة وأظلمت السماء وكان كبير العشَابين فى ذلك الوقت مخمورًا بما يكفى فبدا أكثر إزعاجًا ومضايقة للآخرين من أى وقت مضى وبدأ يتفوه بألفاظ غير لائقة ويكشف عن أكثر القضايا إثارة للجدل، ثم قال فجأة: "ستتحول هذه السيارة إلى تابوت، لقد رأيتها هكذا للتو".

حدَّق الناس فيه بارتباك شديد وقد سيطر عليهم صمت كامل وبدا أن رياحًا غريبة تهب فوق رأسه وراحت عيناه تنظران فى اتجاهين متضادين، وأضفى فمه المرتعش على كلامه أهمية كبيرة وهو يستطرد قائلاً: "وإذا لم تقدمى الأضاحى والقرابين المناسبة فسوف تتحول هذه السيارة إلى تابوت، لابد أن أقول الحقيقة التى أراها وإلا فإننى سأموت".

تغيَّر مزاج الحاضرين فى الحال ومضى الرجال والنساء الكبار إلى بيوتهم بخطوات رشيقة غير معهودة بعد أن أصابهم القلق من الكلمة المخيفة،

وصعد الرؤساء وأصحاب المقام الرفيع إلى سياراتهم أما الشباب من النسوة والرجال فقد تقوقعوا داخل الحانة ولم يواصل الجدل وتبادل الحديث سوى العاهرات وصاحب البيت والعجوز الأعمى وكأن شيئًا لم يحدث وظلت مدام كوتو باقية فى مكانها.

أشار الرجل العشّاب إلى واحدة من العاهرات متحسرًا واستطرد قائلاً: "لكن لو منحتمونى واحدة من تلك النساء فلن تتحول السيارة إلى تابوت".

وقف مترنحًا وراح يحدق فى اتجاه الغابة بعينين غارقتين فى التعب، هبَّت رياح معتدلة ففزعت الطيور وطارت من فوق سطح السيارة وسمعنا صفيرًا من خلال الأسلاك الكهربائية ثم لملم العشّاب جرعاته السحرية وبدأ يترنح فى مشيته بالقرب من السيارة وعبر الشارع متجهًا ناحيتنا، كان فمه مليئًا بالرغاوى وعيناه غائبتين وفى حالة من السكر الشديد وكنت أنا وآد جالسين فوق أحد جذوع الأشجار فقال لنا قبل أن يمضى قدمًا باتجاه الغابة: "سيموت أحدكما فى القريب العاجل".

قفزنا من فوق جذع الشجرة ومشينا خلفه لكنه توقف لحظة للتبول تحت الشجرة، وكان بوله شديد الاصفرار وبعد أن أفرغ كل ما فى مثانته بدأ يترنح فى مشيته من جديد وهو يلوِّح بكلتا ذراعيه ويومىء برأسه، ثم صاح قائلا بمرارة: "كل هذه الأشجار سوف تموت لأن الناس فقدت حبها للأشجار".

طرح ذراعيه جانبًا واستدار حتى أصبح فى مواجهتنا وقال وهو يرفع إصبعه بقوة ناحيتى: "أنت، أيها الطفل الروحى، إذا لم ترحل أنت وصديقك بعيدًا عن هنا الآن فسوف أحولكما إلى ثعابين".

استدرنا إلى الخلف ولذنا بالفرار، ثم سمعناه ونحن نجرى وهو يبكى فى الغابة وكان صدى صوته يتردد عبر الأشجار ثم يرتد مرتطمًا بالأرض، سمعنا بكاءه ونواحه حين صاح بصوته المخمور قائلاً: "كثير من الطرق!

الأشياء تتغير بسرعة! لا توجد رغبات جديدة، الجبناء فى كل مكان! الأنانية تلتهم العالم، إنهم يدمرون إفريقيا! إنهم يدمرون العالم والوطن والأضرحة المقدسة والآلهة! إنهم يدمرون الحب أيضًا".

كان الهواء ممتزجًا بضحكاته المجنونة ثم راح يواصل صرخاته بأصوات متنوعة قائلاً: "من الذى يستطيع أن يحلم بطريق واسعة وممهدة ويحيا حتى يسافر فوقه؟ من الذى يستطيع أن يهب الميلاد لنفسه ويصنع من نفسه أبًا وأمًا؟ من الذى يستطيع أن يحيا فى المستقبل وفى الحاضر فى آن واحد دون أن يصاب بالجنون؟ من الذى يستطيع أن يحيا بين الأرواح وبين البشر فى وقت واحد دون أن يموت؟ ومن يستطيع أن يأكل وينام فى ظل ما هو مكتوب له دون أن يفقد معرفته بالسعادة الناتجة عن أى شىء جميل؟"

ضحك بنفس الطريقة المجنونة، ثم سمعناه يصيح من بعيد قائلاً: "تلك هى ألغاز الأشجار المحيرة".

لم نعد نسمع صوته بعد ذلك مرة أخرى، وعندما وصلنا إلى الحانة كانت النساء تحيط بمدام كوتو الجالسة بالخارج فوق مقعد من الخيزران، نظرنا إليهن بعض الوقت فلاحظنا أنهن لا يتحركن وكن يجلسن فى صمت كامل دون التوقف عن التحديق بشغف فى السيارة.

(٧)

كان على أبى أن يقدم عروضًا أكثر إثارة ففى الفترة التى تمكنت فيها مدام كوتو من توصيل الكهرباء وشراء السيارة، فقد الناس الاهتمام بمشاهدة تدريباته وأصبحت السيارة هى شغلهم الشاغل، كانوا يذهبون كل مساء إلى الحانة ويتحلقون حول السيارة ويحاولون لمسها بأياديهم وهم يتعجبون، وذات ليلة حلمت أن مدام كوتو قادت السيارة حتى وصلت إلى القمر لكنها لم تستطع العودة وعندما كان سائقها يتجول بالسيارة عبر شارعنا لإحضار النبيذ والطعام ومتطلبات الحانة كان الناس يتوقفون عن أعمالهم ليعبروا من جديد عن دهشتهم من ذلك الشيء العجيب، ودائمًا ما كان الأطفال يجرون خلف السيارة مبتهجين.

تم افتتاح شركتين لتصنيع البيرة فى المدينة فواصلت مدام كوتو تقدمها فى عملها وأضافت البيرة إلى قائمة المشروبات خاصة وأن مكاسب البيرة تفوق بكثير عائد النبيذ، وكانت فى بعض الأحيان – وبعد تسليم كمية البيرة المسائية المطلوبة – تدعو أطفال الحى للركوب فى السيارة مما جعلها تشعر بالبهجة واعتبرت أن اصطحاب الأطفال فى جولة قصيرة مجانية هو عمل من أعمال الخير، لكن آد رفض ركوب السيارة أو الاقتراب منها بعد أن قال له والده محذرًا: "إنها عمل من أعمال الشيطان".

كانت تأمر السائق بالتوقف لاصطحاب الأطفال فى جولة بالسيارة وذات مرة منحتنى فرصة لن أنساها أبدًا، ركبت بمفردى إلى جانب السائق بينما جلست هى فى الخلف وحينها لم أستطع رؤية الطريق، وبدا لى الأمر كأن السيارة تمضى فوق بساط من الريح ثم طلبت من السائق أن يضاعف من سرعته، فرح السائق وقاد السيارة بسرعة جنونية فانتابنى شعور مؤكد

بأننا منطلقون نحو القمر، شعرت بالدوار والغثيان فطلبت من السائق التقليل من السرعة لكن مدام كوتو قالت: "بسرعة أكثر، بسرعة أكثر".

انطلقت السيارة بجنون بعد أن ضغط السائق علـى محـرك البنـزين بطريقة انتقامية، لكننى لم أستطع أن أفهم سببًا لذلك الانتقام، شـعرت مـدام كوتو بالسرور من تلك السرعة الفائقة وازدادت غبطتهـا حـين أبصـرت علامات الفزع فوق وجهى فتألّق وجهها واتسعت عيناهـا وتـلألأ جسـدها الضخم بالضياء، تقيأت فوق ملابس السائق من شدة السرعة ومن إحساسـى بالخوف فأمرته مدام كوتو بالتوقف وأشارت له أن يساعدنى فى النزول وبعد أن أزال عن نفسه آثار تقيؤى مستخدمًا الرمال والخرق البالية فعل ما أشارت له به لكنه رمقنى بنظرات متوحشة، وحين لاحظ أننى لم أتأثر بنظراته سار فى اتجاه جانبى وتظاهر بأنه يتحسس رأسى ويطلب العفو عن السرعة الفائقة التى أفزعتنى وجعلتنى أتقيأ لكنه ضربنى بمفاصل أصابعه المليئة بالعظـام فوق رأسى وأصابنى بدوار شديد لم أشعر بعـده بالسـيارة وهـى ترحـل وتتركنى وحيدًا، مشيت مسافة طويلة حتى عدت إلى البيت ولم أوافق علـى ركوب السيارة بعد ذلك أبدًا.

عدت متأخرًا فى ذلك المساء وكان أبى يتدرب على الملاكمة بطريقـة جنونية، غير أن أحدًا لم يكن يشاهده سوى أحد الصبية ودجاجتين وواحدة من الماعز والعجوز الأعمى، فلقد سئم الناس من سلوكياته الغريبة، انطلق أبـى بعنف نحو الطريق معلنًا عن تحديه للعالم كله وأعلن متباهيًا عن قدرته على محاربة ثلاثة رجال فى وقت واحد وحين لم ينتبه أحد لذلك التحدى أعلن مرة أخرى و(بإصرار) عن مضاعفة العدد إلى خمسة رجال، لكن أحدًا لم يظهر لمنازلته إلا حين ضاعف العدد مرة ثالثة إلى عشر رجال حيث ظهر النـاس من أعماق الظلام.

شعرت بإرهاق شديد فى تلك الليلة فجلست فوق الرصيف الأسـمنتى ورحت أراقب الرجال السبعة وهم يتقدمون ناحية أبـى، كـانوا مثلـه مـن الحمالين لكنهم كانوا يعملون من وقت لآخر حراسـا لحمايـة الأشـخاص والممتلكات، وغالبًا ما شاهدتهم وسط الجموع التى كانت تتجمع لمشاهدة أبى أثناء تدريباته، ضرب أبى أحدهم بطريقة عشوائية فأصابه بجرح كبير فـى فكه العلوى حتى وقع الرجل ولم يستطع النهوض مرة أخرى، تجمع حولـه الرجال الستة المتبقون فقفز أبى وراح يهتف بأسمائه القتالية وأسمائه السرية التى أطلقها على روحه، اندفع رجلان وضرب أحدهما رأس أبـى بقبضـته المستديرة، ضحك أبى بسخرية وأمسك رأس الرجل وضربه بنفس الطريقـة فسقط الرجل متألمًا ثم مضى أبى ليتعقب الرجل الثالث لكنه غيـر اتجاهـه وضرب الرجل الرابع بقوة واضعًا إياه خارج حلبة المنافسة، وأصبح ثلاثـة من الرجال يرقدون فوق الأرض بلا حراك بينما هرب الأربعة الآخرون ولم يتعقبهم أبى وعندئذ صفق العجوز الأعمى لأبى وظل الصبى يـردد اسـمه المعروف به فى الملاكمة، وعندما جاءوا لاصطحاب العجوز الأعمى تسللت إلى أسماعنا عبر الظلام ألحانًا صادرة من الأكورديون الخـاص بـه ولقـد أصابتنا الدهشة حين طربنا لسماع تلك الألحان الجميلة.

(٨)

استيقظنا فى اليوم التالى فاكتشفنا أن الناس ينظـرون إلينـا بـاحترام وتقدير لم نألفه من قبل، فلقد سرت فى الكون كله وحتى فى عـالم الأرواح أخبارٌ تفيد بأن أبى قهر وتغلب على سبعة رجال فى إحدى المعارك، توقـف أبى عن التدريب أمام الناس لمدة أيام ثلاثة وشرح لى أسبابه الوجيهة قائلاً: "عندما تفعل شيئًا لا يعتقد الناس فى قدرتك على فعله فـإنهم يبـدأون فـى احترامك وتقديرك والآن حان وقت الاختفاء لأن الملل سيصيبهم مع مـرور الوقت وسيملُّون انتظارك ثم يفقدون الإيمان بك وبقوتك شـيئًا فشـيئًا، أمـا الاختفاء عن أنظارهم لبعض الوقت فيعنى أنك تحتفظ بأسرارك لنفسـك وأن مدة احترامهم لك ستطول وأن شغفهم للمعرفة سيزداد".

لم أفهم أى شيء مما قاله وبدلاً من مواصلة تدريباته أمام البيـت راح يركض فى الشارع وحين كان الناس ينادونه بلقب النمر الأسود لم يكن يجيب عليهم مواصلاً الركض إلى مسافات طويلة، وكان من المتعذر رؤيته بعد ذلك إلاحين يعود إلى البيت مع حلول الظلام وعندئذ كان يمثل بيديه دور الملاكم للحظات قصيرة أمام الناس ثم يسارع بالاختفاء داخل حجرتنا.

ازداد الاهتمام به وانتشر اسمه فى كل مكان وأصبح أسـطورة بـين الناس وكلما كنت عائدًا من المدرسة كنت أرى وأسمع بعضهم وهم يتبادلون الأسئلة والاستفسارات حول أبى، كانوا راغبين فى معرفة المكان الذى تلقَّى فيه تدريباته ومعرفة المدرب الخاص به والحزب الذى ينتمى إليـه، كـانوا يتجمعون فى المساء حول بيتنا وكان أولئك الذين سـمعوا عـن شـجاعته وبراعته الفائقة يأتون من أماكن بعيدة ومن أحياء الأقليات النائية ليحتشـدوا أمام البيت، وكان الجيران يخرجون فى وقت مبكر حاملين معهم الطـاولات

الصغيرة والمقاعد والمشروبات بالإضافة إلى تجار الشارع والباعة الجائلين وبائعي البيرة والماء المثلج والنشوق الذين كانوا يحتشدون في حالة من الترقب وبمجرد رؤية أبي وهو عائد من عمله كانوا يحثونه على القيام بتدريباته أمامهم حتى يستمتعوا بمشاهدته، فكان يستجيب لهم باستعراض بعض اللكمات وبعض الحركات السريعة من قدميه ثم يسارع بدخول حجرتنا دون أن يستجيب لرغباتهم المتكررة مما جعلهم يشعرون بالضجر والسأم وفقدان الرغبة في مشاهدة تدريباته السحرية، وعندئذ كانوا يتفرقون كل إلى حال سبيله لكنهم بدأوا يرددون بأن أبي لم يتغلَّب قطُّ على سبعة رجال وأنه في الحقيقة لم يتقاتل مع أي شخص طوال عمره كما أنه يخاف من التدريب أمام الناس.

ابتسم أبي ابتسامة غير مفهومة عند سماعه لتلك الإشاعات، ومضى لمواصلة تدريباته بأحد الأماكن التي لا يعرفها أحد في الغابة.

(٩)

في غضون تلك الأيام بدأ الانشغال بالسياسة من جديد حيث سمعنا فجأة – ذات صباح – أصواتًا عبر مكبر الصوت تحثنا على الانضمام لحزب الأغنياء، وتقول لنا إنهم عازمون على القيام بحشد الناس في مظاهرة كبيرة جدًا تضم أشهر الموسيقيين الأفارقة وأنهم سيقدمون هدايا للأطفال وجوائز للنساء ووظائف للرجال، ثم شاهدنا بعد وقت قصير بعض الحافلات وهي تسير ببطء معلنة عن حضورها الجليل وكثيرًا من قطاع الطرق ورجال الحراسة من ذوي الأجساد الرياضية الضخمة، كانت أعلام الحزب الكبيرة تزين الحافلات وكان الرجال يوزعون المنشورات، فكرت في المشكلة الكبيرة التي حدثت عند ظهورهم في المرة السابقة وفي البيوت التي احترقت وفي سياراتهم الكبيرة التي تم تدميرها وفي أولئك السفاحين والفتوات الذين تم القضاء عليهم، وفكرت بوجوب أن يتذكر الناس كيف أن نفس الحزب هذا هو الذي وضع لهم السم في اللبن وتسبب في تعكير صفو ليالينا بالغضب ولكن يبدو أنهم نسوا كل شيء وقال بعضهم باستهجان إن ذلك حدث منذ زمن بعيد ولا فائدة من العودة إلى مثل تلك الذكريات بالإضافة إلى أن الحزب يضم الآن قيادات جديدة.

حاول أبي أن لا يعير انتباهًا لعودة الأحداث السياسية المفاجئة، وظل يواصل تدريباته بأحد الأماكن في الخفاء وعند عودته في ذلك اليوم شاهد أرض الشارع مليئة بالمنشورات التي لم يقرأها أحد لكنه لم يأخذ الأمر على محمل الجد؛ وإنما أظهر اهتمامًا قليلاً بما يحدث لنا وعندما أخبرناه بأمر الحافلات اختلس نظرة لا مبالية وقال: "أية حافلات؟"

– حافلات الساسة ورجال الحزب.

قال بعينين خاليتين من أى تعبير: "أوه، رجال السياسة".

وعندما سألته أمى عن المكان الذى كان فيه أجاب بنفس الطريقة متسائلاً: "المكان الذى كنت فيه؟"

- نعم، أين كنت؟
- أوه، كنت أتدرب.
- أين؟
- أين ماذا؟
- أين كنت تتدرب؟
- فى مكان ما؟
- أخبرنى أين ذلك المكان؟
- ماذا؟
- أين كنت؟
- لماذا؟
- هل كنت تتدرب مع امرأة أخرى؟
- امرأة؟
- نعم، امرأة.
- أية امرأة؟

انسحبت أمى من المناقشة بعد أن أصبحت ساخطة من كثرة الأسئلة التى لم تقابلها أجوبة شافية، وراح أبى يأكل بنهم كعادته وبقى صامتًا فوق مقعده معظم الوقت، حاولت أمى أن تفتعل شجارًا لكن أبى اتخذ لنفسه شكلاً جديدًا من أشكال القوة ورفض الانصياع لأى نوع من الجدل، ولم يكن راغبًا فى النزاع ومرت لحظات قليلة أدركنا بعدها أن قوته الجديدة كانت تسيطر عليه؛ فلقد أصبح رجلاً مختلفًا وصارت عيناه أكثر حدَّة مثل الأحجار الكريمة التى تزين الخواتم والأساور، وبدا أكثر انسحابًا كأنه ينتمى إلى كوكب آخر كما أن وجهه قد اتسم بنوع غريب من الغموض اللافت للنظر.

قال لى: "ذات يوم تغيرت رؤيتى للأشياء وبدا لى أننى أرى كل شىء للمرة الأولى، هذا العالم ليس كما يبدو عليه فهو زاخر بالقوى الخفية الغامضة فى كل مكان، ونحن نعيش فى عالم ملىء بالألغاز".

كنت أستمع إليه بتركيز شديد لكنه توقف عن الحديث ثم رمقنى بنظرة ذات مغزى وكأنه كان يتوسل إلى أن أصدق ما هو عازم على قوله، واستطرد قائلاً: "كنت أتدرب بالأمس حين جاء ذلك الرجل العجوز ناحيتى وهو يحمل شيئًا خفيًا فوق رأسه وسألنى بعض النقود فأعطيته كل ما معى لكنه أعاد النقود لى وقال لى بأننى محظوظ".

- لماذا؟
- أخبرنى بأننى كنت سأموت فى قتالى التالى مع أى شخص إذا لم أكن قد قدمت له النقود.
- وماذا فعلت؟
- فى البداية لم أصدقه وحين أدرك بأننى لم أصدقه أشار إلى السماء حيث كان ثمة طائران يتقاتلان فى الهواء ويصدران أصواتًا غريبة وقد لحقت بهما طيور أخرى كثيرة ملأت السماء، وعندما سقطت إحدى الطيور ببطء جريت وأمسكت بها قبل أن تلامس الأرض غير أن الطائر ذاب فجأة فى يدى كما يذوب الثلج فى الماء لكنه لم يتحول إلى ماء وإنما إلى دم، حاولت تنظيف يدى من الدم لكن محاولاتى باءت بالفشل ولم يختف الدم إلا حين اقترب العجوز منى وبصق فى يدى، أشار العجوز مرة أخرى إلى السماء فتطلعت إلى أعلى لكننى لم أر شيئًا، وحين نظرت حولى كان العجوز قد رحل، أبصرته من مسافة بعيدة وجريت خلفه وعلى الرغم من سرعتى فى الجرى فإن المسافة بيننا أخذت فى الابتعاد مما اضطرنى فى النهاية للتوقف، ولم أواصل تدريباتى فى تلك الليلة.

صمت قليلاً ثم أضاف: "لا تخبر أمك بما قلته لك، أتفهمني؟"

أومأت برأسي ثم انسحب أبي داخل صمته العميق وأصبحت بـــدوري صامتًا؛ خاصة وأنني تأثرت جدًا بقصته لكن أمي لم تستطع احتمال صـــمتنا فبدأت في اختلاق المعارك وراحت توبخني على أشياء لم أفعلها، ورغم ذلك لم أستطع أن أقول شيئًا وظللت أنا وأبي صامتين طوال الليل.

(١٠)

ازداد شوقى لمعرفة المكان السرى الذى يمارس فيه أبى تدريباته، وفى اليوم التالى انتظرت ذهابه للتدريب لكنه كان نائمًا وطال انتظـــارى دون أن يستيقظ فلم أستطع أن أتتبعه، كان مرهقًا حين رحت أوقظه وأذكِّره بالتدريب، نظر حواليه وعاد للنوم من جديد فخرجت لكننى لم أبتعد كثيرًا وظللت أراقب باب البيت من حين لآخر أثناء اللعب، كان الهواء مشبعًا بالضجيج وحافلات رجال الحزب تسير هنا وهناك مدوية بموسيقى الحزب ومعلنة عن البلاغات والوعود اللامتناهية المثيرة للسأم، كان حزب الأغنياء يتحدث عن الرخـــاء للجميع وعن الكهرباء وإنشاء الطرق الجديدة ومجانيـــة التعلـــيم، ووصـــفوا المعارضين لهم باللصوص والمتعصبين وقطاع الطرق ووعدوا بضـــرورة إطعام كل شخص وحل كل المشاكل والإجابة على كل الاستفسارات.

كانت حافلة حزب الفقراء تستعرض موكبها فى شارعنا فى نفس تلك الليلة وكانوا - أيضًا - يطلقون موسيقاهم الخاصة بهم ويطالبون بالأشـــياء نفسها ويوزعون المنشورات ويطلقون الوعود بأربع لغات، فبدا الأمر بالنسبة لى محيرًا بشدة وقلت بينى وبين نفسى متســـائلاً: "كيـــف لكـــلا الحـــزبين المتناقضين أن يطلق نفس الشعارات ويعد الناس بنفس الأشياء؟"

كانت حافلات كلا الحزبين مليئة بالحراس المسلحين، وعندما مـــرت إحدى حافلات حزب الأغنياء بجوار حافلة حزب الفقراء بدأت كلتا الحافلتين تتباريان فى إطلاق أبواقهما بصوت عال، وراح الحراس يتبادلون الاتهامات والشتائم عبر مكبرات الصوت وتداخلت موسيقاهم المدوية فـــامتلأ الهـــواء بالضجيج والمشاحنات والأصوات المتنافرة، ازدحم الطريـــق بـــالمتفرجين وساورهم إحساس مؤكد باقتراب حدوث اضطراب كبيـــر بـــين الطـــرفين،

اصطدمت الحافلتان ببعضهما مرتين فى ذلك المساء وتأكد إحساسنا بأن حربًا ما سوف تندلع، ولكن بدا أن كلا الحزبين كان ملتزمًا بعهود السلامة غير أن الأمر لم يكن كذلك وإنما تمثلت الحقيقة فى أن الوقت لم يكن قد حان بعد.

شوهدت سيارة مدام كوتو وهى تقدم الخدمات لحزب الأغنياء لكنها لم تكن داخل السيارة مما جعل السائق يسير متباهيًا ويقود السيارة بطريقة لافتة للنظر، مثلما كان يفعل عند رؤيتنا فى منتصف الطريق فيزيد من سرعته فى اتجاهنا ثم يتوقف فجأة قبل أن يسحقنا، كنا نسارع جميعًا بالهرب قبل اقترابه منا باستثناء آد الذى كان يبقى بمكانه دون خوف وغالبًا ما كان يتحدى السائق قائلاً: "اقتلنى إذا كنت تجرؤ".

لكن السائق دائمًا ما كان يقف قبل الاصطدام به بخطوة واحدة بعد أن تعلو وجهه تكشيرة واضحة ثم بدأ يغير من ولعه بترويعنا، وعندما اكتشفنا بأنه لن يسحق آد بالسيارة أصبح بقيتنا لا يتحرك أيضًا من مكانه أثناء تهديده لنا، ورغم ذلك كان الخوف يتملكنى عند رؤيتى لابتسامة السائق وعند توقف السيارة المفاجىء وتصاعد الدخان من المحرك لكن آد كان جريئًا على الدوام ولم يبادل السائق ابتسامته أبدًا وغالبًا ما كان يتوقف عن القيام بما يشغله ويعود إلى بيته، لقد كان آد طفلاً وحيدًا.

كره الناس مدام كوتو بشدة بعد رؤيتهم المتكررة للسائق وهو يستعرض بالسيارة ويطلق النفير ويصيح لاعنًا الماعز والدجاج والمارة، كان السائق ينقل الفتيات فى طريقه من مكان لآخر، وكانت عجلات السيارة تلطخ العمال الأشقياء بالطين وكلما سنحت له الفرصة كان يسرع بالسيارة فى اتجاهنا بطريقة مروعة وهو يضحك لكن مدام كوتو لم تكن تعلم شيئًا مما يفعله السائق.

بعد أيام ثلاثة من لقاء أبى فى مكان تدريباته السرى تجمع عدد كبير وغير عادى من الناس فى طول الطريق، وكانت عدد الحافلات أكثر من

المعتاد وانطلقت موسيقاهم عبر مكبرات الصوت فحدث ضجيج صاخب، صرخ الأطفال وأصيب بقيتنا بالصمم ولم يعد بمقدورنا سماع ما يقولون من شدة ضجيجهم، جاء بعض الرجال فى ذلك اليوم للسؤال عن أبى وظلوا يتحلقون حول المكان فى انتظار عودته، توقفت إحدى الحافلات المليئة برجال الحزب ذوى الأجساد الضخمة فى منتصف الطريق وأطلقت دويًا من الموسيقى الصاخبة المتنافرة وكثيرًا من النصائح عديمة المعنى، تحدثوا بلغات عدة وبنفس الطريقة المتحمسة حتى أن مكبر الصوت لم يكن يصدر إلا لغوًا وكلمات متداخلة غير مفهومة، وكان الجميع منفعلاً فى ذلك اليوم وكانت درجة الحرارة مرتفعة جدًا والهواء رطبًا حين كثرت الأقاويل بيننا، وانتابنا شعور بأن شيئًا كريهًا فى طريقه للحدوث.

تجمع الرجال حول أبى لحظة عودته من العمل وظلوا يلاحقونه بالأسئلة لكنه لم يجب على أسئلتهم وأزاحهم بيديه جانبًا ثم مضى إلى داخل الحجرة، كان مرهقًا بشدة من كثرة العمل وعيناه زائغتين وبدا فى صمته متذمرًا، أحضرت له الماء وبعد أن انتهى من الحمام وضعنا الطعام أمامه؛ فلم يتردد فى تناول نفس الكميات الكبيرة التى اعتاد عليها ثم ذهب للنوم، كان الرجال بالخارج لا يزالون فى انتظاره لكنه ظل نائمًا حتى وقت متأخر من المساء فمضوا إلى حال سبيلهم، وكانت الحافلة لا تزال واقفة فى مكانها بينما أحد الرجال – بين حين وآخر – يواصل تعليقاته على الانتخابات القادمة ويتنبأ بالفائزين فيها، واصلوا عزف موسيقاهم المزعجة بصوت عال ولم تكن من تلك الموسيقى التى نحبها فغضب أبى من ذلك الصخب، وشاهدناه وهو يضع الفوطة حول رقبته ويهرع قبل ميعاد استيقاظه بنصف ساعة نحو الحافلة بصدره العارى.

عندما وصل أبى إلى الحافلة ظهر من جديد أولئك الرجال الذين كانوا فى انتظاره، وأحاطوا به بينما اتجه أبى إلى باب السائق وصاح هاتفًا ببعض

الكلمات لكن الموسيقى ارتفعت وازداد الضجيج، صاح أبى من جديد ثم رأيته وهو يمسك بعجلة القيادة حيث تحولت الموسيقى فجأة إلى أصوات متداخلة كريهة قبل أن تتوقف تمامًا.

قال أحدهم بعد أن ساد الهدوء: "ها هى المتاعب والمشاكل قد بدأت".

لم يحدث شيء للحظات طويلة ثم أمسك أحد الرجال برقبة أبى الذى لم يتردد فى ضربه، فاستدار الرجل ووقف مستندًا بظهره على الحافلة وبدت عيناه متجمدتين، اندفع أبى عائدًا إلى البيت وظل بقية الرجال فى أماكنهم دون أن يتحركوا أو يحاولوا اللحاق بأبى، بينما كان الرجل الذى ضربه أبى يفقد السيطرة على قدميه شيئًا فشيئًا حتى وقع على الأرض.

اندفع حراس الحزب وفتواته من ذوى الأجساد الضخمة والعضلات المفتولة من خلف الحافلة بوجوههم المخيفة حاملين الهراوات، وكان آخر المندفعين هو أكثرهم ضخامة وقوة ويرتدى ثياب الحرب، خلع سترته فور ظهوره وكانت هى المرة الأولى فى حياتى التى أرى فيها شخصًا بمثل هذه العضلات القوية والعينين المتوهجتين بالغضب ورغم الصرامة الشديدة التى بدت عليه إلا أنه كان وسيمًا وكان وجهه يرتعش كمن يعانى ألمًا مبرحًا فى رأسه، أفسحوا له الطريق فبدا واضحًا أنه قائدهم وراحوا يطوفون حوله بنوع من الاحترام وهم يحنون رءوسهم وظهورهم أمامه ثم أشاروا له على بيتنا، نظر القائد إلى بيوتنا نظرة ازدراء وبدت عليه سيماء الوقار الذى يتحلى به أولئك الواثقون دائمًا من قدرتهم على النصر، مضى بخطوات واثقة نحو بيتنا وتبعه حشد كبير من الناس، وعندئذ تعالت صيحات الأطفال وازدادت همسات سكان الشارع ولعناتهم، عادت الموسيقى تدوى عبر مكبرات الصوت وراح أحدهم يغنى أغنيات شهيرة مختلفة معبرة عن المتاعب التى جلبها الناس لأنفسهم.

تجمع الناس بأعداد كبيرة فى حلقة دائرية أمام بيتنا فى نفس الوقت الذى اقترب فيه القائد الضخم من الباب وخرج سكان الحى المجاورون ومعهم مقاعدهم ومشروباتهم، ثم جلسوا فى أماكن تساعدهم على الرؤية بوضوح، سمعنا صوتًا ما يدندن باسم أبى من خلف الناس ويردد قائلاً: "النمر الأسود، النمر الأسود".

انتشر اسم أبى بسرعة بين الحاضرين وراحوا جميعًا ينادون على أبى بطريقة إيقاعية وهم يدقون بأقدامهم فوق الأرض، لكن كبير الفتوات وقائدهم صاح فجأة وقال: "اخرسوا".

صمتوا جميعًا فأضاف القائد: "من هو ذلك النمر الأسود؟ ألا يخاف من الموت؟ ولماذا أهان رجالى وأصاب أحدهم بالأذى وأوقف موسيقانا؟ أخبروه أن يخرج حالاً".

استأنف السكان وجميع الحاضرين نداءاتهم على أبى وهم يرددون اسمه بنفس الطريقة الغنائية، وعندئذ اخترق القائد دائرتهم الجالسين حولها بصدره العارى وقوامه المنفوخ وصاح مرة أخرى بصوت صاخب قائلاً: "اخرسوا، هل تعرفون من أنا؟"

أجابوا: "لا".

- إنهم يدعوننى...
- ماذا يدعونك؟
- النمر الأخضر!.

تنهَّد الحاضرون وتساءلوا: "أهو كذلك؟"

سادت فترة من الصمت والسكون المشوب بالحذر لأن اسمه فقط هو إحدى خرافات الرعب المثيرة فالنمر الأخضر شخصية أسطورية بارزة وهو أكثر المقاتلين إثارة للفزع والرعب فى كثير من أحياء الأقليات ولقد اعتاد أن

يظهر فى صورة اللص المسلح، وكان على الأرجح بطل العالم فى الملاكمة ونشر الرعب لسنوات عدة فى كثير من الشوارع، امتزجت أمسيات وليالى النساء والرجال بالخوف وظلوا يرددون اسمه دائمًا بأصوات منخفضة، بسبب الخوف رغم أن أحدًا لم يشاهده أو يلتقى به وجهًا لوجه قبل هذه اللحظة وإنما كانوا يسمعون فقط عن أسطورته المرعبة.

لم يخرج أبى من البيت فاعتقد الجميع بأنه خائف وأنه جبان وشعروا بالقلق، مشى النمر الأخضر الأسطورى وسط الحشد الكبير من الناس ببطء وتشامخ وكبرياء فقالوا إنه كان رجلاً من رجال الحزب المتميزين ونظروا لعضلاته المفتولة وجسده العملاق فقد قرروا الإفادة منه فى التصدى للأعداء وأعمال الدعاية الانتخابية، إنه رجل ضخم حقًا وشبيه بالثور، إنه أكبر ثور فى منطقتنا، مشى بخطوات واثقة بيننا بصدره المنطلق للأمام حاملاً الأسلحة بين جنباته.

حركوا – أثناء ذلك – العجوز الأعمى المنكمش فوق مقعده وكان يرتدى قبعة حمراء ويحدّق فينا من خلال نظارته الخضراء حاملاً الأكورديون بين يديه حين قال بصوته الضعيف وهو يضحك ويرتعش فى مقعده كالصرصور: "آه، يبدو أن قتالاً ما سوف يحدث، آه، قتال، ملاكمة، شيء حسن ورائع، عنما كنت شابًا.."

توقف عن الحديث وراح يضغط فوق حبال الأكورديون فانطلقت الموسيقى.

تجمع بائعو البيرة وتجار الحلى والأساور الصغيرة حول الناس، وانضم إليهم أصحاب الأكشاك وباعة الأسماك المجففة الجائلون وباعة البندق لبيع أشيائهم وتم بيع كثير من المشروبات، وجدنى آد وسط كل ذلك الزحام والصخب وبقينا متجاورين فى انتظار ما سوف يحدث ورأينا مدام كوتو بقدمها المتورمة وعصاها السوداء وهى تندفع إلى مقدمة المشاهدين وسمعنا

سائقها وهو يضغط على بوق السيارة محدثًا صفيرًا مدويًا عبر الشارع، كان العجوز الأعمى يتناقش مع شخص ما وقد راهن كل منهما الآخر على الفائز فى المعركة، ثم انتشرت المراهنات بعد ذلك بين الجميع وراح الرجل البدين صاحب كشك المراهنات يتجول بين الناس ويجمع النقود، كانت مراهنات معظم الناس لصالح النمر الأخضر، خاصة وأن أبى ظل داخل البيت لمدة طويلة دون أن يخرج مما أصاب الناس بخيبة الأمل، أدرك سامى صاحب كشك المراهنات أثناء جمعه للنقود أنه فى حاجة لدلو لحمل كل تلك النقود فاشترى دلوًا ثم أرسل طلبًا لإخوته بالحضور فجاء ستة من إخوته حاملين الفئوس والبنادق الدانمركية، وسارعوا بالالتفاف حول الدلو وعندئذ ذهب سامى للتحدث مع النمر الأخضر فرمقه النمر الأخضر بنظرة مرعبة، وقال بأعلى صوته: إذا لم أستطع تدمير تلك الدجاجة السوداء فى دقيقتين فقط فلن أتردد فى إعطائه مائة جنيه.

هتف المتفرجون بحماس كبير وظلوا ينشدون قائلين: "النمر الأخضر، النمر الأخضر".

طال اختفاء أبى فشعرت بالقلق ثم سارعت باتجاه البيت لمعرفة السبب.

(١١)

كانت الحجرة مظلمة وأمى ترتق قميص أبى وهى جالسة فوق مقعده، بينما كان أبى يغط فى نومه، أيقظته وأخبرته بما يحدث فى الخارج فقالت له أمى: "لا تذهب".

أشرق وجه أبى حين سمع بالجنيهات المائة وقال متسائلاً: "إنهم مستعدون إذاً؟"

أشرت له بقوة وحماس فسألنى مرة أخرى: "وهل يوجد كثير من الناس؟"

- كل سكان المنطقة وحتى مدام كوتو.

ابتسم ثم سمعنا اسم قائدهم يتردد عبر جدران الحى فسألنى أبى: "ما هذا؟"

- إنها الجماهير المحتشدة ترحب بالرجل وتهتف باسمه.
- أى رجل؟
- النمر الأخضر.

نهض أبى برشاقة وابتهاج يوحيان بعدم معرفته بقوة خصمه وما يتمتع به من شهرة، وبدأ فى تحريك قدميه وذراعيه وتسديد اللكمات بكلتا قبضتيه فى الهواء فى محاولة منه لإنعاش عضلاته وسرعان ما تصبب بالعرق، ارتفعت أصوات الناس المنادية باسم الرجل فراح يتحسس جيوبه وأخرج بعضًا من الأوراق النقدية ثم أعطانى إياها وطلب منى الذهاب للمراهنة نيابة عنه وقال: "احترس من ضياع النقود فنحن لا نملك سواها".

نظرة بائسة ومثيرة للشفقة ارتسمت فوق وجه أمى وبدت كأنها تعانى من المرض منذ زمن بعيد.

قلت لأبى متسائلاً: "وإذن فأنت خارج لملاقاته؟"

قالت أمى: "لا، لا تذهب".

أجاب أبى: "وسوف أقهره فى عشر دقائق".

قلت له: "قال الرجل أيضًا إنه سيقهرك فى عشر دقائق".

قال أبى بعينين زائغتين: "مدهش".

غادرت الحجرة وما أن فتحت الباب حتى اكتشفت أن عدد المتفرجين قد تضاعف، ولمحت وجوهًا كثيرة فى كل مكان، ووجوهًا جائعة ومتعطشة لرؤية المشهد غير العادى بين النمر الأخضر والنمر الأسود.

كان المساء مشرقًا وكانت الحرارة وحدها كافية لإصابة كل الناس بالحمى، مضيت فى طريقى حتى وصلت إلى سامى وأعطيته قيمة رهان أبى، فابتسم على الفور وهو يتناول النقود فقد كانت كل المراهنات لصالح النمر الأخضر.

ظهر أبى فأدركت السبب وراء رهان الناس على خسارته أمام خصمه، لقد بدا أبى سقيمًا بالمقارنة بالنمر الأخضر وفور ظهوره علت صيحات السخرية، خرج أبى وراح يقفز حواليه ويضرب بقبضتيه فى الهواء وارتسمت فوق وجهه علامات الازدراء والغضب وحين نظر إليه النمر الأخضر باحتقار وسخرية سأله بصوت صارخ وبثقة: "ما هو وزنك؟"

أجاب أبى: "ليس لى وزن".

انفجر المتفرجون فى الضحك وقالوا: "إن الرجل ليس له وزن".

شعرت بالأسف تجاه أبى ومضيت مخترقًا الزحام لإقناعه بالانسحاب من الحلبة، لكن آد شدنى للوراء وقال: "أعطانى أبى هذه التعويذة السحرية".

ثم أضاف بعد أن لوَّح أمام وجهى بضفدعة ميتة وأعطانى إياها: "عليك أن تقذف بها وسط الحلبة".

ألقيت بالضفدعة الميتة فى اتجاه رأس النمر الأخضر لكنهـا سـقطت فوق رأس أحد أتباعه فاستدار الرجل وراح يتعقبنا، هرعنـا نحـو الحافلـة المحترقة وجرينا حولها مرتين ثم توارينا تحت أحد الأكشاك، وبعد أن تأكدنا من عدم رؤيته لنا سارعنا باتجاه الغابة، عدنا للانضمام إلى زمرة المتفرجين بحذر حتى لا يشاهدنا الرجل ورحنا نتسلل نحو المقدمة وفى تلك اللحظة كان كلا النمرين قد بدأ فى مرحلة التسخين وانطلقت الموسيقى من حافلة الحزب مدوية عبر مكبر الصوت، أصبح النمر الأخضر أكثر رشاقة وتصبب العرق من كل أجزاء جسده وبدا جبارًا وضخمًا كأنه منحـوت لتـوه مـن جبـل الجرانيت، وكانت عضلاته تتلألأ فى شمس المساء وكأنه كان غارقًـا فـى حمَّام من الزيت بينما بدا أبى نحيلاً وحازمًا، خفت كثيرًا على أبـى وبـدأت أشعر بالغثيان والسأم.

كان النمر الأخضر يتراقص حول المكان بحيويـة ونشـاط، ويسـدد قبضات تجريبية فى الهواء فى اتجاه رأس أبى من مسافة قصيرة حين سـأل أبى قائلاً: "أليس لك وزن إذن؟ إيه؟"

قال أبى وهو يقفز كالفراشة الصغيرة ويتحرك بانحراف إلى اليمـين وإلى اليسار كما لو أنه حيوان يدافع عن نفسه: "لا، لكننى سـوف أقهـرك وستكون نهايتك على يدى".

ضحك النمر الأخضر بازدراء شديد مرة أخرى فبادره أبى بضـربة قوية وسريعة كالبرق فوق وجهه، تمايلت رأس النمر الأخضر إلى الـوراء وتحولت ابتسامته على الفور إلى قناع من الألم وتسللت قطرات الدم من فمه، أصابته دهشة كبيرة من سرعة الضربة وأطلق الجمهور أنفاسًا لاهثة وتوقف صوت مكبر الصوت فجأة ثم عصفت الريح فوق رءوسنا المشبعة بالذهول، تململ العجوز الأعمى فوق مقعده.وراح يتحرك بعصبية ثـم كسـر حـدة الصمت بعزفه بعض الألحان مستخدمًا آلته القديمة وقـال: "لقـد انطلقـت الضربة الأولى".

هجم النمر الأخضر على أبى هجومًا شرسًا ولاحقه بضربات متتالية، وهو يصيح ويتأرجح بطريقة وحشية مستخدمًا مرفقيه لصد أى هجوم مضاد، تعالت صرخات النسوة من بين الزحام وتمايل أبى مترنحًا من الضربات القاسية حتى اختفى وسط المتفرجين، اندفع الناس بعيدًا عنه وعندما نهض دفعته بعض الأيادى للعودة إلى مضمار القتال، وكان صاحب البيت واحدًا من تلك الأيادى التى دفعته للعودة.

هتف العجوز الأعمى قائلاً: "الهجوم الأول".

كرهته بشدة وسألت آد: "هل لديك ضفدعة أخرى؟"

أخرج من جيبه نبلة لإطلاق الحصى والحجارة وقال: "لا، لكننى أملك هذه".

خطفتها منه فورًا والتقطت حجرًا صغيرًا ووضعته فى النبلة ثم سددت ضربتى نحو وجه العجوز الأعمى غير أن الضربة لم تصب سوى قبعته الحمراء، أوقفنى شخص ما ومنعنى من تكرار المحاولة وكان العجوز يشكو ويتذمر، انطلقت أنفاس الجمهور اللاهثة مرة أخرى حين تلقى أبى وابلاً من الضربات القاسية واللكمات الثقيلة وبدأ أتباع النمر الأخضر فى مساعدته على النهوض وهم يبتسمون ابتسامات زائفة ويدفعونه بقوة للعودة إلى القتال.

سارع العجوز الأعمى بإخفاء وجهه بعد أن أعلن قائلاً: "هجوم ناجح آخر".

خطف النبلة منى شخص ما بينما كنت أبحث عن حجر آخر، صرخت جماهير المتفرجين وهتفت بأعلى صوتها، فأبصرت النمر الأخضر وهو يترنح للخلف بعد أن انقض أبى عليه وسدد إليه شلالاً من الضربات القوية المفاجئة السريعة، فبدت يداه كأنهما آلة جهنمية وكانت سرعته مثيرة للدهشة حقًا، حتى أنه كان من العسير رؤية ذراعيه مما جعل النمر الأخضر ينبطح

أرضًا مستندًا إلى أردافه، تحرَّك أتباعه لمساعدته لكنه سارع بالنهوض حين كان العجوز الأعمى يرتعش فوق مقعده.

صحت قائلاً: "عليك بالقضاء عليه".

اختفت صيحاتى وسط ضجيج المشاهدين وتذمرهم وكان أبى يترقب نهوض خصمه، فراح يرقص ويقدم عروضًا بارعة ومتقنة بخطوات أقدامه ويقفز من نقطة لأخرى ويتبختر فى مشيته بمرح وثقة، عادت إليه كل قوته فجأة وتلألأت بشرته السوداء وعلت وجهه نظرة غريبة لم أشاهدها من قبل قطُّ، نظرة رجل يعرف هدفه، كانت روحه مفعمة بالطاقة ولم يكن وجهه يوحى بأى خوف، وبدا هادئًا ومخبولاً فى آن واحد.

صاح قائلاً: "لا وزن لى، ليس لى وزن! لكننى نمر الغابة الأسود".

اندفع النمر الأخضر باتجاهه محاولاً الهجوم عليه فلم يتمكن حيث قفز أبى برشاقة بعيدًا عن متناول يده، كان النمر الأخضر إرهابيًا شهيرًا فوقف أبى خلفه وانتظر أن يستدير حتى يصبح فى مواجهته لكن النمر الأخضر كان مضطربًا، نظر إلى أبى لكنه - على ما يبدو - لم يستطع رؤيته وعندما استدار بدا وجهه متورمًا ومنسحقًا وشبيهًا بسيارة صغيرة بعد تعرضها لحادث بشع، وكانت عيناه ضيقتين والدم يتدفق من أحد الجروح المروعة عند أنفه فخيل لى أن قبضة أبى مصنوعة من شىء يفوق المعدن فى صلابته، استدار النمر الأخضر مثقلاً بأورامه فلاحقه أبى بوابل من اللكمات والضربات الخاطفة واحدة تلو الأخرى فأصابه بعدد من الجروح، كانت اللكمات عنيفة ومتوحشة ومتلاحقة مما أثار دهشة المتفرجين الذين عبروا عن شجاعة أبى وجرأته المطلقة فى مواجهة ذلك الرجل الضخم، أصيب النمر الأخضر بالدوار وزاغت عيناه وبدا مرتبكًا وشعر بأنه موشك على الوقوع فى هزيمة يصعب الإفلات منها، لكنه تماسك وحاول جاهدًا ألا يقع على الأرض خاصة بعد أن سدَّد أبى ضربته الأخيرة إلى أذنه.

أطلق العجوز الأعمى ضحكة غريبة لم يسمع أحد بمثلها من قبل قــطُ فتوقف أبى واستدار ناحيته، ابتسم العجوز الأعمى وصرخت قــائلاً لأبــى: "احترس".

جاءت صرختى متأخرة، سدَّدَ النمر الأخضر ضربة عنيفة إلى أبــى حتى أننى سمعت طقطقة عظام رقبته وأنين جمجمة رأسه، وشــعرت بــأن رؤيته للعالم كله من حوله قد تغيرت، تدحرج أبــى بفعــل قــوة الضــربة واصطدم بالعجوز الأعمى حتى اختفى كلاهما بين أجساد وأقدام المتفرجين، ثم هجم النمر الأخضر على أبى بعد أن دفع كل الناس عن طريقــه وفجــأة أصبح من المتعذر إيقافه أو السيطرة عليه بعد أن تحول إلى شخص هــائج، وراح يشتت الناس بذراعيه فى كل الاتجاهات ويبعد النساء والأطفال عــن طريقه ورمق الجميع بنظرات شريرة وبصق دمًا فوق وجوههم وهو يلعنهم، ثم أمسك بالعجوز الأعمى وقذف به وسط الجماهير المبعثرة كأنــه دميــة، تناول أحد المقاعد وألقاه بوحشية فوق الأرض ثم أمسك برقبــة أبــى وراح يرفعه إلى أعلى مواصلاً جلده وضربه باهتياج شديد وغضب مكبوت، ســاد الهرج والصخب بين الناس وعلت الأصوات بالنحيب والشكوى حين فقــدت المعركة قواعدها المتعارف عليها واتسم الأمر بالحماسة والغضب والجنون، أصبح النمر الأخضر يدور فى فلك من الجنون الخالص وفى ثورة غضــبه سدَّد ضربة عنيفة إلى جسد أبى بدا بعدها وكأنه غارق فى بحر مــن نشــوة الطغيان وفرغ من هجومه البربرى بضربة فى المعدة اختفى أبى على إثرها بين الزحام وبعد أن عاد للظهور لم أستطع التعرف عليه، كان وجهه متورمًا بطريقة يتعذر وصفها ومهروسًا كالعجينة وملطخًا بالدم، وكانت أنفه مقطوعة والدم يتدفق من تحت عينيه، وثمة جرح كبير كان واضحًا فوق جبهته وكان فمه مشوهًا وشبيهًا بالفاكهة الفاسدة، ظل أبى يترنح بين حشــد المتفــرجين، وكانت ذراعاه تتأرجح فى كل مكان وقدماه ترتعد لكنه لم يقع.

صرخت بكل قوتى: "بابا".

توقف فى مكانه واستدار بجسده وراح ينظر بعينين زائغتين عن مصدر الصوت، اختفى فجأة فاعتقدت أنه سقط، جريت نحوه محاولاً اختراق ذلك الحشد الكبير من الناس، بحثنا عنه بين الأقدام وبين الناس الواقعة على الأرض لكنه لم يكن موجودًا فى أى مكان، وقف النمر الأخضر فى وسط الدائرة التى يتحلق حولها الناس، وكانت ذراعاه ممدودتين عن آخرهما تعبيرًا عن فوزه بإحدى البطولات القتالية المهمة وكان وجهه يتدفق بالدم وقال متسائلاً: "أين الرجل الذى لا وزن له؟"

أجاب المتفرجون: "لقد هرب".

قال: "أخبروه أن يهرب إلى أبعد مكان ممكن لأننى إذا أمسكت به فسوف.."

عاد أبى للظهور فجأة ومشى بخطوات سريعة وسط المتفرجين بشكله المروع ووجهه المغطى بالأوساخ، وكان خصره ملوثًا بالطين والأوحال وكأنه كان خارجًا للتو من أحد المستنقعات، كان مظهره بشعًا ويدعو للرثاء لكنه بدا غير مبال ولم تكن عيناه توحيان بالخوف من الموت، ولم يعد – بأى حال – كالحيوان المدافع عن نفسه لكن عينيه كانتا محترقتين، حاول أن يستعيد جزءًا من حالته الأولى واخترق الدائرة وقال: "ماذا سوف تفعل؟"

أجاب النمر الأخضر: "سأقتلك".

– عليك أولاً أن تجدنى.

– ذلك أمر يسير.

– عدنى إذن بألا يتدخل أتباعك.

بدا النمر الأخضر واثقًا ومرتبكًا فى آن واحد ثم تحدَّث إلى أتباعه بسرعة وباللغة الوحيدة التى يستطيعون فهمها وحين اعترضوا على كلامه خاطبهم بغضب، وراح يوبخهم بعنف مما اضطرهم للرضوخ رغمًا عنهم.

حرّكت مدام كوتو لسانها فوق أسنانها وقالت: "رجال مجانين، لن أبقى هنا لمشاهدة الناس وهم يقتلون بعضهم البعض".

اندفعت بعيدًا عن الزحام وسمعتها وهى تنادى على السائق.

قال العجوز الأعمى: "نساء".

تقدَّم أبى نحو الدائرة لكنه لم يتراقص ولم يفعل شيئًا غريبًا وإنما وقف فى وضع الاستعداد فاردًا قبضتيه أمام وجهه، مضى النمر الأخضر متراقصًا فى اتجاهه بثقة وخيلاء واضعًا ذراعيه عند جانبيه وعندئذ بدأ أتباعه فى الغناء والهتاف باسمه.

- النمر الأخضر.
- بطل الملاكمة.
- عليك بتدميره.
- والقضاء نهائيًا على شهرته.

انطلقت الموسيقى مرة أخرى من مكبر الصوت وأضاف العجوز الأعمى أنغامًا متنافرة من الأكورديون، وجدت قطعة يابسة من طعام الإيبا فوق الأرض، فألقيت بها لكننى لم أخطىء الهدف هذه المرة حيث عرفت القطعة اليابسة طريقها إلى فم العجوز الأعمى الذى راح يتطلع حواليه بغضب وتوقف عن العزف، ثم سمعته يقول: "خذونى بعيدًا من هنا، لقد بدأت الأرواح تهاجمنى فى وضح النهار".

قادته المرأة التى جاءت به إلى بعيد وهو جالس فوق عربته المتحركة وعندما رحل اتخذ القتال شكلاً جديدًا، اندفع النمر الأخضر للأمام بقوة وهجم على أبى فاردًا كلتا ذراعيه هجومًا دقيقًا غير متوقع لكنه لم يكن شجاعًا بما يكفى بينما بدا أبى مستعدًا للمواجهة رغم ارتعاد قدميه، ورغم أنه بدا منهزمًا ولا ينقصه سوى قليل من اللكمات العادية حتى يقع منهارًا على الأرض لكنه

أصابنا جميعًا بالدهشة حين خرج من حالة الضعف فجأة وأصبح كالصخرة المتأرجحة، أطلق صرخة جنونية وفى لحظة خاطفة اتسم بالتوهج والطاقة وقوة التركيز، تحرَّرت قبضتاه من حالة الجمود وانطلقت تسدِّد سلسلة من اللكمات السريعة فى اتجاه مئات من الزوايا المختلفة، كانت اللكمات قوية ولاذعة وتناثر الطين من قبضتى أبى فى كل اتجاه ولم يستغرق المشهد كله سوى لحظات قليلة لكن سرعة الهجوم أدت إلى الشعور بطول اللحظة على ما يبدو، وبدا الأمر ساحرًا وفاتنًا إذ لم يندفع أبى فى هجومه ولم يتقدم للأمام وإنما كان يسدِد لكماته وهو واقف فى مكانه وكأن دائرة من القوة الخفية كانت تحيط به، وأثناء تلك المعركة الزاخرة باللكمات والضربات العنيفة انطلقت ضربة مفاجئة وسريعة من قبضة أبى الواقف بثبات فوق الأرض وكانت الضربة محملة بغضب شديد، استقرت الضربة فوق فك النمر الأخضر، تنهد الجمهور تنهيدة كبيرة توحى بمزيج من الدهشة والخوف، مرَّت سحابة ما فوق وجه الشمس فأظلمت الدنيا وحلَّقت الطيور فوق الرءوس، وكانت الموسيقى الصادرة من مكبر الصوت تعبر عن احتفالها بالنصر، وقف النمر الأخضر وكانت ذراعاه متدليتين فى الهواء بلا حراك كأنه أصيب بالصمم بعد أن تلقى ضربة من الخلف وكانت عيناه شاحبتين وخاليتين من أى تعبير وفمه مفتوحًا عن آخره، هبَّت سحابة من الرمال فانهار الملاكم العظيم ووقع ببطء فوق الأرض وبدا المشهد كأنه حلم من الأحلام، كان أبى راكعًا فوق إحدى ركبتيه محاطًا بنفس الدائرة من القوة التى لا يمكن رؤيتها، بينما كان جمهور المتفرجين صامتًا وفى حالة من الذهول.

هتفت فرحًا ثم اندفع أتباع النمر الأخضر لحمله ومساعدته على النهوض لكنه كان غائبًا عن الوعى وكان فمه مفتوحًا وجسده المنهك لا يتوقف عن الارتجاف، مما أصاب المتفرجين بخيبة أمل كبيرة فراحوا يلعنون النمر الأخضر وأتباعه ويلقون بسيل من الشتائم ويسخرون من شهرته

وسمعته الزائفة ثم بدأوا فى الرحيل وقد أصابتهم اللوعة من النقود التى راهنوا بها على رجل ضعيف لم يكن بمستوى أسطورته التى سمعوا عنها، رفع أتباعه رئيسهم المنبطح على الأرض وبطل الملاكمة وجالب الرعب لأحياء الأقليات وصانع أسطورتهم التى لا تقهر وشعروا بخجل شديد، توقفت الموسيقى وساد صمت جنائزى مطبق، حملوا أسطورتهم ورفعوه عاليًا كأنه ميت فى تابوت ثم ألقوا به بسرعة داخل الحافلة وسارعوا بقيادتها بعيدًا بعد أن خسر النمر الأخضر الرهان ولحق بهم العار، كانت المنشورات التى وزعوها مبعثرة فى الشارع وما لبثت أن طارت فوق رءوسهم وهم يهرولون بالحافلة.

لم يتقدم أحد لتهنئة أبى سوى أنا وآد فقد كان انتصاره المدهش سببًا فى إصابتهم بالذهول، قفزنا حول أبى مبتهجين فرفعنا وحملنا عاليًا فى الهواء حيث بدأنا نردد اسمه بأصواتنا الطفولية ونتغنى بإنجازه العظيم حتى شهدت علينا الأرض والرياح والسماء، تبعثرت الجماهير وقد اعتراهم الخجل لتأييدهم الخاطئ للنمر الأخضر الذى خدعهم بمظهره الضخم وقوة عضلاته الجبارة، تعكَّر مزاجهم لأنهم لم يستطيعوا إدراك قدرة أبى على التحول السريع من الضعف إلى القوة لكننا لم نتضايق فقد كان انتصار أبى هو كل ما نطمح إليه، حملنا أبى ومضى بنا باتجاه البيت ونحن نهلل، وعندئذ ذكرنى آد بالرهان فقلت صائحًا: "لقد هرب سامى بنقودنا".

نزلنا من فوق أكتاف أبى الذى سارع بالاندفاع نحو كشك المراهنة ومضينا مهرولين خلفه مكللين بالفخر.

كان سامى يحصى النقود لحظة وصولنا وكان إخوته الأقوياء يجلسون حوله فى الكشك كاشفين عن عضلاتهم المفتولة، وكانت عيونهم متلألئة من وهج مصباحِ الكيروسين ومن بريق النقود وكان وجه سامى الجالس فوق المقعد متشيئًا بالعرق، وعيناه متوهجتين وعندما نظر إلى أعلى وشاهدنا

انطفأ وجهه على الفور، ثم ابتسم وقال: "أوه، النمر الأسود، لقد أصبت الجميع بالدهشة، اجلس من فضلك وتناول شرابًا فها نحن قد بدأنا لتونا في عد النقود وبعد الانتهاء سوف نزورك لنعطيك نصيبك، والآن ماذا ستشرب؟ لقد جلبت لي مباراتك هذه في يوم واحد ما لم أجمعه في شهور".

قال أبي بعد أن رفض الجلوس: "نعم، هكذا أرى".

وقفت إلى جانبه الأيسر ووقف آد إلى يمينه كأننا نقوم على حمايته وحراسته، في تلك اللحظة ثم سادت لحظة طويلة من الصمت سأل أبي بعدها بحدة: "هل ستعطيني نقودي أم لا؟ أم أنك ستجبرني على القيام بضرب كل الموجودين هنا؟"

ابتسم سامي وساد الصمت مرة أخرى وبدأ لهب المصباح يتذبذب ويصدر صوتًا كالفرقعة، نهض سامي وذهب إلى الحجرة الخلفية ثم عاد أخيرًا حاملاً معه حزمة سميكة من الأوراق النقدية وقدمها لأبي الذي قدمها لي بدوره، أحصيت النقود فأشار أبي برأسه معبرًا عن رضاه، وحين هممنا بالمغادرة قال سامي: "في مباراتك القادمة لا تشغل بالك بالحضور وإنما عليك فقط بإرسال أحد رجالك".

- لماذا؟

- نستطيع معًا أن نربح كثيرًا من المال.

لم يقل أبي شيئًا وخرجنا ثم قال آد: "يجب أن أعود للبيت".

ناوله أبي جنيهًا كاملاً فمضى آد في طريقه للبيت وهو يرقص في الشارع ويغني لنصرنا.

لم يشعر أبي بالتعب إلا فور وصولنا إلى البيت، وسيطر عليه إجهاد شديد وحين فتحنا الباب كانت أمي جالسة فوق المقعد وكانت الشمعة مضاءة فوق الطاولة أمامها فبدت كأنها تصلي، رفعت وجهها وحين رأت أبي

نهضت من فوق المقعد وعندما شاهدت ملامح أبى المشوهة فتحت فمها عن آخره واندفعت ناحيته ثم سارعت باحتضانه وبدأت فى البكاء، أصيب أبـــى بالانهيار بين أحضانها وحاولت مع أمى – طوال ساعة كاملة – حتى نجحنا فى نقله إلى السرير، حيث رقد بلا حراك.

(١٢)

نام أبى يومين كاملين دون أن يستيقظ وبدا كالعملاق فوق السرير ولقد فوجئنا برؤية كثير من الجروح والخدوش فى قدميه وبعض أجزاء مقطوعة فى باطن قدميه وحبات من الفقاقيع فى أصابع القدم، ازداد الورم فى وجهه أثناء النوم وكان فمه المحتقن يتحرك على نحو متقطع مما أثار فينا الخوف وأصبحت جبهته أكبر مرتين من حجمها الطبيعى، وأخذ الجرح الواضح فوق أنفه فى الازدياد، كان وجه أبى أثناء النوم متورمًا وعيناه متمددتين وكان الدم يتدفق بين الحين والآخر من جروحه الكثيرة وأجزاء جسده الممزقة، وضعت أمى بعض الكمادات الدافئة فوق الجروح وظلت تعالجه بسوائل الأعشاب وسهرت على تمريضه كما نظفت شعره ومشطته كأنها كانت تعالج جثة لا ترغب فى دفنها.

فى اليوم التالى أصابنا القلق بشأنه فحاولنا إيقاظه، استدار ناحيتنا وفتح عينيه المتورمتين ثم أزاح أمى بضربة ضعيفة فأصابها فى فكها، ظل فك أمى متورمًا طوال ذلك اليوم مما جعلها تحرص على إخفاء وجهها بغطاء الرأس، لم ننقطع عن متابعة أبى وتحريك جسده برقة من وقت لآخر للتأكد من أنه مازال على قيد الحياة، وفى المساء كنا نجلس فى الحجرة ونضع ثلاث شمعات مضاءة فوق الطاولة وكان ضوء الشموع يكشف بوضوح عن مدى القلق المنعكس من وجوهنا، سادت الحجرة أجواء من الصمت المخيف وكلما تطلعنا إلى شكله وهو نائم كلما غرقت الحجرة فى ظلال من الشؤم، كان يتمتم أحيانًا بأى كلام غير مفهوم فنهرع لمحاولة سماعه لكنه سرعان ما كان يعود للنوم مرة أخرى.

فى مساء اليوم الثالث هبّت رياح عاتية تحرّك على إثرها سقف حجرتنا فبدأ أبى يتململ فى نومه ويرفس فوق السرير، حتى وقع على

الأرض، نهض وكانت عيناه الكبيرتان تشعَّان بالجنون ثم راح يتحرَّك في أرجاء الحجرة ويركل كل شيء أمامه وأثار الفوضى الشديدة بجسده العملاق، وفي النهاية وقع منهارًا أمام الباب حين كان يحاول الخروج فحاولنا لمدة ساعة أخرى إعادته إلى السرير، أشعلت أمي بعد ذلك ثلاثة أعواد من البخور ووضعتهم في أركان الحجرة الرئيسية للحماية من الأرواح الشريرة، وحين كنت جالسًا – في ذلك المساء – بمفردي في الحجرة أراقب أبي وهو يتنهد فوق السرير بدا لي عاجزًا عن التنفس، جاءت أمي بثلاث نساء إلى بيتنا، وكانت مدام كونو إحداهن وكن يرتدين ملابس سوداء وعلمت فيما بعد أن واحدة منهن كانت من أكبر المعالجات بالأعشاب وأنها هي نفسها التي كانت ساحرة ذات مرة وكان عامة الناس يعترفون بها ويعترفون بقدراتها، رغم أنهم رجموها بالحجارة ذات يوم فاختفت لمدة عام كامل لكنها عادت للظهور وأصبحت معالجة قوية ووعدت الناس بعمل الخير، كان معظم الناس يخافون منها وقليل من الناس فقط كانوا يثقون فيها.

دخلت النسوة الثلاث حجرتنا فعرفت بأن شيئًا خطيرًا ومهمًا في طريقه للحدوث، جلست صامتًا عند أحد الأركان وأخفيت نفسي بالملابس المعلقة غير أنهن لم يبدين أي اهتمام بوجودي، ظللت صامتًا ولم أتحرك من مكاني لكنني كنت أنظر إليهن وسمعتهن، وهن يناشدن روح أبي أن تعود من أرض الأشباح المليئة بالاقتتال والصراعات وظللن طوال الليل يرددن أسماء أبي العادية وأسماء شهرته بأصواتهن الغريبة ويقمن بعمل طقوسهن الروحية المقدسة، وينشدن أغنيات حزينة وينسجن المراثي المقتبسة من أسمائه العدة ويرددن كلمات السحر ويستخدمن الأحجبة والتعاويذ المختلفة حتى تغيَّر فضاء الحجرة وسادت ظلال من اللون البني الداكن وسالت العناكب فأصبحت كالسوائل القديمة السوداء، ظهرت بيننا أشكال مختلفة من طيور الليل وراحت ترفرف بخفة فوق أضواء الشموع وامتلأت الحجرة بالكائنات والأرواح الغريبة التي يصعب وصفها وتصنيفها، كانت تلك الكائنات

والأرواح تحلّق فى فضاء الحجرة المشبعة برائحة أعشاب الأضحيات المحترقة وثمة موجات سوداء كموجات البحر كانت تسبح بين أعمدة السقف فى الوقت الذى كانت فيه النسوة يستحضرن مئات من الأرواح فى محاولة للتغلب على ما يحول بينهن وبين الوصول إلى روح أبى القابعة فى مكان بعيد جدًا بأحد أقاليم البشر النائية، تصببت الساحرة المعالجة بالأعشاب بالعرق وهى تؤدى عملها وتستحضر الأرواح وكانت قسمات وجهها توحى أحيانًا بالألم وقد تغيَّر شكلها بفعل الظلال الكثيرة التى تغطى الحجرة ثم بدأت تخوض حربًا بطولية مع الأرواح التى لم نستطع رؤيتها، كانت تقاتل الأرواح بشكلها الضعيف فتغضن وجهها وامتلأ بالتجاعيد وأصبحت كالسلحفاة العتيقة الموشكة على الموت والتى وضعوها فوق السرير للإسراع برحيلها عن هذا العالم، علَّقت الرءوس المجففة لأحد الأبقار الوحشية وأحد النمور فوق الباب ثم وضعت جمجمة خنزير برِّى وكف أسد ميت منذ زمان بعيد فى المقدمة وقدَمت دجاجتين بيضاوتين كقربان، اختلط دم الدجاجتين برائحة الدواء القوية المسكوبة فوق جدران الحجرة وامتلأت الأرض بريش الببغاء وريش النسر، جرحت المرأة الساحرة كتف أبى بالموسى ووضعت مزيجًا من الأعشاب داخل الجرح النازف فشاهدت الدم وهو يسيل من كتفه لكن أبى لم يتحرك كأنه لم يشعر بشىء وكان دمه المختلط بمزيج الأعشاب أسود اللون.

فى وقت متأخر من الليل بدأت النسوة فى الرقص حول السرير وهن يصرخن فتجمع حشد من الناس خارج حجرتنا وبدأ أبى يتحرك ثم هبَّت عاصفة أخرى من الرياح العاتية كادت تقتلع بيوتنا وانفتح الباب وانطفأت كل الشموع، ثم شاهدت فى الظلام روحًا متورمة ضخمة وبيضاء متدلية من سقف الحجرة فصرخت وعندئذ راحت الروح الكبيرة تتمايل فى الهواء حتى سقطت فوق رأس أبى بسرعة كبيرة، وعندما تم إغلاق الباب وأضيئت الشموع من جديد اهتز أبى فجأة وظل يلهث وينتهد وانفتحت عيناه عن

آخرهما كما لو أنه استيقظ لتوه من نوم عميق مليء بـالكوابيس المفزعـة، اندفعت النسوة باتجاهه لكن أبى طرحهن جانبًا ولم يكن يعرفهن وربمـا لـم يكن مدركًا بأنه استيقظ، دفع الساحرة بقوة وألقى بها فوق السـرير، وأزاح مدام كوتو بعنف حتى اصطدمت بي ثم هرب من الحجرة كمن يهرب مـن كابوس ثقيل وشوهد وهو يشق طريقه نحو الغابة.

مضيت خلفه بصحبة أمي والنساء الثلاث وكان الظلام كثيفًا ومثيـرًا للفزع ووسط الظلام الدامس كانت وجوه النسوة الثلاث الملتحفـة بـالظلال تتغير، نزعت مدام كوتو الرباط من فوق قدمها، أما المرأة الثالثة فقد بـدت كالهواء أو الظل أو مجرد انعكاس لشيء ما بلا ملامح كأنها لم تكن موجودة حتى أن أحدًا لم يشاهدها وهي تجري لكن وجودها الباهت، كان ضـروريًا ومهمًا بطريقة ما لم أستطع أن أدركها جيـدًا، كانـت المعالجـة السـاحرة أصغرهن سنًا، ولقد لاحظت أنها كانت تضـرب بـذراعيها فـوق ثوبهـا الفضفاض أثناء الجري لكن طيرانها المفاجيء وتحليقها في الهواء المشـبع بالظلام كان هو المفاجأة الكبرى التي أصابتني بصدمة لم أستطع الشفاء منها إلا بعد وقت طويل، بدت كأنها متحالفة مع الرياح أو كأنهـا جـزء منهـا، ازدادت حدَّة الظلام من حولها وأصبح كثيفًا وبدا السحاب كمن يرتدي ثوبًـا أسود وعندما خلا السحاب من الغيوم والضباب شاهدت امرأتين فقط بلباسهما الأسود وهما تجريان بجوار أمي ولم تكن الساحرة تجري معهـن، اختفـت الساحرة وسمعت أجنحة كبيرة تصفق في الهواء من فوقي وأبصرت نسـرًا ضخمًا أسودًا ذا عيون حمراء يطير محلقًا باتجاه الغابة مخترقًا الليل المليء بالأسرار، وصلنا إلى أعماق الغابة فوجدنا أبي نائمًا ومستندًا بظهـره علـى جذع شجرة كبيرة، وكانت الساحرة واقفة فوق جسده المتهالك حـين قالـت: "يجب أن نعود به الآن قبل أن تكتشفه أرواح الغابة".

ساورنا القلق بشأن الطريقة التى يمكن أن نحمل بها أبى ونعود به إلى البيت، لكن المرأة الثالثة التى بدت بدون ملامح والتى لم تتفوه بأى كلمة من قبل سحبته من ذراعه بقوة حتى وقف وأصابتنا الدهشة خاصة وأنه بدا كالطفل، وبدت عيناه مفتوحتين وخاليتين من أى تعبير ولم يكن من اليسير معرفة ما إذا كان نائمًا أو مستيقظًا أو القول بأنه ميت أو حى، أمسكت أمى بذراعه الأخرى لتشارك المرأة فى مساعدته ثم مضينا به عبر دروب الغابة المتشعبة حتى وصلنا إلى البيت، وكانت الجماهير المحتشدة قد مضت إلى حال سبيلها، وضعنا أبى فوق السرير لكنه رفض أن ينام وظل يتحرك ويرتعش ثم قال: "إذا نمت لن أستيقظ مرة أخرى".

قدَّمت له الساحرة شيئًا ما ليشربه كان على ما يبدو دواءً شديد المرارة، فأصبحت عينا أبى أكثر اتساعًا كأنه ابتلع كمية كبيرة من البيرة المليئة بالأعشاب فى جرعة واحدة، نهض بعد ذلك وجلس فوق مقعده ذى الأرجل الثلاثة بعيونه المنتفخة وفمه الكبير ثم بدأ يتحدث بكلمات غير مفهومة، جلست النسوة الثلاث بملابسهن السوداء فوق الأرض وجلست أمى فوق السرير، بينما اتجهت أنا إلى أحد الأركان التى أستطيع من خلالها رؤية وجه أبى ولقد تمكنت – من خلال ضوء الشمعة – من رؤية وجهه النحيل وعينيه الشبيهتين بعينى رجل يحدق بعمق فى أكثر أشياء الوجود غموضًا وكان من العسير فى البداية أن نسمع ما يقول، لكننا استطعنا أن نتفهم الأمر أخيرًا.

قال أبى وهو ينظر أمامه فى خط مستقيم كأنه يتحدث إلى شخص ما موجود فى الحجرة لكننا لا نراه: "لقد مررت بأكثر التجارب صعوبة، كنت نائمًا ثم استيقظت ووجدت نفسى – فجأة – أتصارع مع سبع أرواح، وأخبرونى بأن أم النمر الأخضر هى التى أرسلتهم وأنهم أرادوا قتلى فى المنام حتى لا أستيقظ مرة أخرى، لم أكن نائمًا كما كنتم تعتقدون لكننى كنت

مشغولاً بالقتال معهم، لقد قاتلونى بعنف وشراسة لمدة طويلة من الزمن فى محاولة منهم للقضاء على ثم القضاء على زوجتى غير أننى استطعت أن أهزمهم فى النهاية وحاولت بعد ذلك أن أنعم بقسط من الراحة، لكن روحًا برؤوس سبعة..."

صرخت المرأة الثالثة: "لا".

استطرد أبى: "نعم، روح برؤوس سبعة ومسلحة بسبعة سيوف ذهبية تقدمت ناحيتى وقالت إنها تريد قتل ابنى مقابل صديقتها الروح التى قتلتها".

صرخت النسوة واندفعت أمى للأمام وأمسكت بى ثم أحاطتنى بذراعيها فقلت: "لا".

انخرطت النسوة فى وتيرة متماثلة من البكاء وأمسكتنى أمى بقوة أكثر حتى أننى خشيت أن تكسر رقبتى دون أن تشعر.

أضاف أبى قائلاً: "هاجمتنى الروح ذات الرؤوس السبعة وظللت أقاتلها لمدة تسع ليال لم أنجح خلالها إلا فى قطع واحدة فقط من رؤوسها السبعة، كانت الروح أقوى منى بكثير ولم يكن بمقدورى عمل أى شىء سوى الهرب، جريت نحو الغابة لكن الروح لحقتنى وتملكت منى ثم ربطتنى بحبال من الفضة، وراحت تجرجرنى حتى وصلنا إلى أرض الأشباح المتصارعة، إنها الأشباح التى لا تتوقف أبدًا عن القتال، واصلت الروح جرجرتى فوق الأرض، وظللت أقاوم ولم ينقذنى سوى..."

توقف أبى لحظة عن الكلام وصدرت من النسوة بعض الأصوات والتمتمات الحزينة وامتدت الرؤوس إلى الأمام ثم استطرد أبى: "و.. لم ينقذنى سوى أبى كاهن ضريح الطرقات المقدس، لأن مجرد وجوده فى أى طريق كان كافيًا لمنع مرور الروح".

واصل حديثه قائلاً: "استمر القتال بينى وبين الروح مدة طويلة ولم أدرك بأن أبى كان قويًا بما يكفى إلا بعد أن عرفت أنه قطع رأسين من رؤوس الروح السبعة، وبعد أن استبد بهما التعب اتفقا على عقد هدنة، أخبرنى أبى خلالها بأنه كان سيأخذ مكانى لو تركتنى الروح أمضى إلى حال سبيلى، لكننى لم أستطع أن أفهم كلامه".

بكت أمى فقال أبى: "كفى أيتها المرأة".

سكتت أمى على الفور وسمعتها وهى تبتلع دموعها فأضاف أبى: "اختفى كاهن الطريق المقدس واختفت معه الروح فحرَّرتُ نفسى من قيد الحبال الفضية وتدفقت كل طاقاتى ثم حطَّ أحد النسور فوق رأسى وتحوّل إلى امرأة".

أشار أبى إلى النسوة الثلاث مواصلاً حديثه: "وكانت ثلاث نساء من بين أربع يرتدين مثلكن لباسًا أسودًا قد جئن ناحيتى وأخذننى بعيدًا عن الغابة ثم استيقظت".

حدَّقنا فيه جميعًا دون أن نتكلم فقال آمرًا: "أحضروا لى مشروبًا قويًا لأحتسيه".

صبَّت له أمى بعضًا من الأجوجورو احتساه أبى على الفور فى جرعة واحدة وقدمت له الساحرة مزيدًا من البيرة المخلوطة بالأعشاب وطلبت منه أن يستحم مستخدمًا المياه التى أعدتها خصيصًا وعالجتها بالأعشاب، عاد أبى بعد أن اغتسل وكانت الساحرة قد أعدت له جرعة أخرى من البيرة سارع أبى بتناولها ثم أدهشنا جميعًا برقته، جلس فوق المقعد وراح يتحدث عن صخور القمر السوداء ومدى حلاوة مذاقها وكيف شرب من إكسير الشمس الذهبى، وقال بأن السود ينتظرهم مستقبل عظيم، ثم حكى عن رؤيته لأمى وهى ترقص عارية فى الغابة بشعرها المسترسل كخيوط النسيج المشرقة

الجميلة التى سهرت الآلهة على نسجها، شرح بعد ذلك كيف أنه شاهدنى وأنا أسير للخلف حتى وقعت فى نهر أصفر وكيف شاهد امرأة شابة فاتنة استطاعت أن تستدعيه إلى مكان ملىء بالجثث ذات الأفواه المزينة بالزهور الحمراء.

وكما بدأ فى الحديث فجأة صمت أبى فجأة، وظل فمه مفتوحًا وعيناه مغلقتين.

قالت الساحرة: "إن رأس هذا الرجل قوية فدوائى عادة ما يجعل الناس ينامون قبل أن أصل فى العد إلى ثلاثة، ساعدونى كى نحمله إلى السرير".

حملناه وهو يغِط فى نومه ثم نهضت النسوة الثلاث بعد لحظة وتبادلن الحديث مع أمى بشأن النقود التى اختلفن بسببها، لكن أمى فكَّت لفافة جلبابها وأخرجت بعض النقود ثم ناولتها للساحرة والمرأة الثالثة.

قالت مدام كوتو مخاطبة أمى: "يجب أن نواصل حديثنا".

قالت أمى: "زوجى يرفض".

استطردت مدام كوتو: "اسأليه مرة أخرى".

غادرت النسوة الثلاث، وكانت هى المرة الأولى طوال ليال ثلاث التى ننعم فيها بقسط من النوم.

(١٣)

استيقظ أبى فى الصباح التالى مفعمًا بالنشاط والحيوية كأن شيئًا لم يحدث له، وكان وجهه لايزال متورمًا وعيناه زائغتين وفمه منتفخًا، لكنه أقسم أن لديه شعورًا بأنه صغر فى العمر عشرين عامًا، وراح يتحدث عن مشاريع كبيرة وعن شراء ما يكفى من الزنك المتجعد لعمل أسقف لكل أهل الحى وشراء كمية وافرة من الأسمنت لبناء بيوت للعائلات الكبيرة التى تعيش فى حجرة واحدة وعن رصف كل الطرق بالقار وتنظيف كل النفايات والأفكار القديمة المتراكمة داخل عقول أهلنا، ثم راح يواصل حديثه معبرًا عن رغبته فى فتح مطعم كبير جدًا يبيع فيه الطعام لكل الفقراء بأسعار زهيدة، سمعنا كل ذلك لكن القلق لم يساورنا إلا حين استطرد فى حديثه وأفصح عن رغبته الجارفة فى أن يصبح موسيقيًا محترفًا وعندما قال إنه سيعمل بالسياسة وسيجلب الحرية والرخاء لكل العالم وأنه سيوفر مجانية التعليم من أجل الفقراء، عندئذ فقط ساورتنا الشكوك وبدأنا فى الاعتقاد بأن شيئًا ما قد أصاب عقله بعد لقائه الشهير بالنمر الأخضر، كنا نستمع إليه بانتباه ولم نتوقف عن سماعه إلا حين بدأ يقول بصوت عال: "سأصبح رئيسًا للدولة وسأستولى على كل مصادر القوة من البيض الذين يحكموننا وسأفعل الكثير من أجل الفقراء".

ذات صباح راح أبى يتنقل من بيت إلى آخر طارقًا الأبواب لإيقاظ الناس وسؤالهم عن إمكانية التصويت لصالحه وحدث أن أغلبية الناس أغلقوا الباب بقوة فى وجهه لكن واحدًا أو اثنين - لسوء الحظ - حاولا مسايرته والتخفيف عنه وقبلا التصويت لصالحه؛ فشعر بأن هناك من يشجعه فلم يتردد على الفور فى التنقل من حى إلى آخر متحدثًا إلى أصحاب الأكشاك والباعة الجائلين ثم راح يطرح الأسئلة على بائعى البندق والجوز وكهنة المدينة وبائعى التمائم والتعاويذ، تناقش طويلاً مع أصحاب الحانات وبائعى

النبيذ وقد شوهد فى ليال كثيرة داخل الحانات وهو يتحدث إلــى السـكارى موضحًا لهم سياساته من أجل الحكومة الجديدة، وبدا أن مثالية من نوع جديد قد حطّت عليه وتملّكت منه بعد أن استرد عافيته، سأل بجديــة عــن تكلفــة الزنك وعن مساحة حى الأقلية الذى يعيشون فيه ثم قام بعمل حسابات شاملة غير دقيقة عن التكلفة اللازمة لبناء البيوت والمدارس، وعن عــدد الفقــراء وعن النقود اللازمة لكى ينجح فى الانتخابات.

أصابتنا أفكاره الغريبة المجنونة بالدهشة خاصة بعد أن راح يستحضر فى ذهنه صورة للبلد التى سيكون هو حاكمها الخفى والتى سينال كل فــرد فيها قسطًا وافرًا من التعليم، والتى سينعم فيها كل فــرد بــتعلم الموســيقى والرياضيات وخمس لغات عالمية على الأقل، وســيكون المواطنــون فيهــا منفتحين على العالم من حولهم وعلى دراية بكل ما يحدث وقادرين على فهم الأحداث القبلية والمحلية والدولية والتى سيصبح فيها الموهوبون والشــعراء والعلماء والمعالجون بالأعشاب وقساوسة الديانات الغامضــة أســاتذة فــى الجامعات، كما سيتحوّل فيها سائقو الحافلات وأصحاب عربات الكارو ونساء السوق إلى محاضرين فى المدارس والجامعات دون أن يهجــروا وظــائفهم الأصلية، ازدادت دهشتنا وهو يواصل حديثه عن ذلك البلد الذى ســيحكمه، حين أضاف بأن الأطفال سيكونون من التلاميذ البالغين وسيكون بمقــدورهم منافسة مدرسيهم وحين قال: "لا بد من إرسال وفود من الفقراء لمقابلة رئيس الدولة من وقت لآخر ولا بديل عن القيام بعمل انتخابات جديدة فــى حــال حدوث أكثر من خمس حالات من أعمال الشغب العفوية فى أى عام".

أنفق أبى كثيرًا من المال الذى ربحه على شراء الكتب رغــم أنــه لا يعرف القراءة فأصبحت مضطرًا لقراءتها له، اشــترى كتبًــا فــى الفلســفة والسياسة وعلم التشريح والعلوم الطبيعية وعلم التنجيم والطــب الصــينى، وأضاف إلى ذلك كله بعض الروايات الكلاسيكية الإغريقية وأصبح مفتونًــا

بالإنجيل وأثارت الكتب الصوفية اهتمامه وسيطرت حكايات ألف ليلة وليلة على أحاسيسه ووقع فى غرامها، كان يستمع لى باهتمام بالغ وعند سماعه للشعر الإسبانى وكلماته المشبعة بالحب وعندما كنت أعيد عليه قراءة حياة شاكا العظيم وزولو البطل كان يغلق عينيه وظل طوال الوقت يطلب منى بإصرار أن أقرأ له شيئًا، وأجبرنى على الاهتمام بالتعليم.

كان يجلس فى المساء فوق مقعده ويضع قدميه فوق الطاولة والسيجارة فى فمه ولم تكن عيناه توحيان بأى شىء وكان يضع بجانبه دائمًا ورقة وقلمًا ثم يطلب منى أن أقرأ له بصوت عال ويقاطعنى أحيانًا لمزيد من الشرح والتفسير، لكن كثيرًا مما قرأته لم يترك أى بصمات بداخلى فاشترى أبى قاموسًا كبيرًا تقدَّر تكلفته بعشر لكمات قوية من قبضة النمر الأخضر على الأقل، انتفضت إحدى عينيه المنتفختين وانطلقت من فمه مقتطفات من كلمات الكتب التى سمعها منى حتى تشبعت حجرتنا بعبير الكلمات، ثم قال كالبائع المتفائل وهو يشير إلى الطاولة: "هذا الكتاب يفسر كل الكتب".

أصبح مولعًا بالكتب فأوشكنا على الإصابة بالجنون، تكدَّست الحجرة بمختلف أنواع الكتب الكبيرة والصغيرة، كتب ذات أغلفة صماء بدون رسوم وحروف صغيرة كأنها كتبت من أجل أن تقرأها الحشرات فقط وأخرى ذات حروف مائلة تعمل على إيذاء الرقبة والتوائها ونوع ثالث من الكتب التى تنبعث منها رائحة العنكبوت ولحاء الأشجار الطبية ورائحة نشارة الخشب القديمة بعد سقوط الأمطار عليها، تذَمرت أمى وعبَّرت عن استيائها وكانت تجمع أحيانًا كومات متراكمة من الكتب وتضعها فى السلال، غضب أبى لعدم تقديرها واحترامها للكتب وكثيرًا ما تناقشا بعنف وتعاركا مما جعل أبى يفكر مليًا فى أهمية إصدار قرار يلزم النساء اجباريًا على الالتحاق بالخدمة العسكرية، نظر ناحيتى وتخيل نفسه رئيسًا خفيًا للدولة وسيدًا للياقة البدنية فبدأ يأخذنا معه فى الصباح للتدريب، وكان يعمل على إيقاظنا فى وقت مبكر

من الصباح لممارسة التدريبات الروتينية كلما تسببنا فى مضايقته، وكانت أمى تفعل ذلك فى البداية راضية حتى لو كان ذلك أثناء قيامها بطهو الطعام لدرجة أنها أحرقت – ذات يوم – إناء الشوربة لأول مرة فى حياتها، ولم نأكل فى ذلك اليوم فتم إعفاء أمى من التدريب، ربما حدث ذلك عندما سيطرت فكرة التحاق النساء بالخدمة العسكرية على رأس أبى لأول مرة.

لم يذهب أبى للعمل لبضعة أيام كان يتجول خلالها فى الحى وكانت الضربات التى تلقاها من النمر الأخضر واضحة فى رأسه، وراح أخيرًا يتحدَّث إلى العاهرات ويواصل حديثه معهن حتى حين كن يقذفنه بالسباب والشتائم وحتى حين بدأ الناس يتبادلون الكلام بصوت عال عن حلفائه الغرباء لكنه لم يتوقف عن حديثه، وأخبرهم بأهمية اختيار وفد من نساء مدام كوتو العاهرات للقيام بالتظاهر ضد الإدارة الاستعمارية.

رفضت أمى عمل الطعام لمدة أيام ثلاثة فاضطر أبى إلى تناول الفول من الباعة الجائلين والذى يسبب نوبات متتالية من متاعب المعدة، استغنى عن فكرة عمل مجلس للعاهرات لكنه خصص لهن مكانًا خاصًا فى بلده الذى يتخيله ويحلم به.

أدرك أبى بعد وقت قصير أنه لم يكن يدرى بما كان يتحدَّث بشأنه وأن تحقيق أحلامه الخرافية شيء بعيد المنال، وذلك بعد محاولته الأولى فى تنظيم صفوف الرجال والبدء فى تنظيف الشوارع وإزالة القاذورات المتراكمة منها؛ حيث فوجىء بقسوة الشتائم والإهانات التى انهالت عليه وأصابته دهشة كبيرة من لهجة التحقير التى لحقت بأفكاره خاصة حين قالوا: "أتعتقد أننا لا نملك شيئًا آخر لنفعله؟ لدينا ما هو أهم".

لم يتأثر أبى بما قالوا وأخذ على عاتقة القيام بتلك المهمة بنفسه، ثم قال مرددًا شيئًا ما قرأه فى أحد الكتب: "يجب أن نزيل النفايات والقاذورات من شارعنا قبل أن نزيلها من عقولنا".

نظف بمفرده مساحة صغيرة من الشارع ونجح فى إزالة القــاذورات منها وظل طوال أسبوع كامل يواصل عمله فأخذت رقعة الشارع النظيفة فى الازدياد غير أن الناس لم تتوقف عن إلقاء الزبالة والفضلات، خاصــة فــى الأماكن التى نظفها فلم تثمر مجهوداته أى نتائج محمودة وأصــبح الشــارع أكثر قذارة، كان الناس مؤمنين بأن إلقاء القاذورات فى الشارع هو الشــىء الطبيعى والسائد فتشاجر أبى معهم مما حدا بالقليل من الناس الــذين كــانوا سيصوتون لصالحه أن يغيروا رأيهم ويتراجعوا عن تأييده، لكنهم بدأوا - بعد وقت قصير - ينتبهون لأهمية إلقاء القاذورات فى المستنقع، بدلاً من الشارع فأشار أبى لهم إلى الطريقة التى يجب أن يتبعوها وعندما أصــبح الشــارع متراكمًا بالزبالة والقاذورات راحوا يفرغونها فى المستنقع غيــر أن ســقوط الأمطار بعد ذلك جعل المستنقع يفيض ويغرق نصف الشارع.

لم يستطع أبى أن يدرك عدم قدرته على أن يصبح رئيسًا ظــاهرًا أو خفيًا للدولة ولم يفهم صعوبة ذلك الأمر إلا حين حكى الناس له عن مشاكلهم الخاصة، وطالبوه بحلها وكذلك حين سألوه عن حاجتهم للنقود وعــن كيفيــة السماح لهم بعلاج أطفالهم فى المستشفى وكيفيــة الحصــول علــى الكتــب لصغارهم، ثم حين راحوا يطلبون النصيحة فى كل شىء وأى شىء فــأعلن ذات صباح قائلاً: "لا بد لمن يعمل بالسياسة أن يكون له حلفاء وأصدقاء".

فكَّر بعمل تحالف جديد مع مدام كوتو اعتقادًا منه بأهميــة المعــارف الإنسانية وجمع المعلومات وكانت أول أحلامه هى أن يجعل منى جاسوسًــا؛ فطلب منى أن أعاود زياراتى لحانة مدام كوتو وأستمع للمناقشات التى تدور داخل الحانة لمساعدته فى كيفية أن يصبح سياسيًا، أصابنا وجه أبى المتقــد بالذهول ووبخته أمى فى البداية وقالت له بأنه منافق وجبان لكنهــا بعــد أن أفرغت ما بداخلها من غلٍ وانتقام تراجعت ووقفت بقوة إلى جوار خطة أبى، وراحت تفكر بعمق فى إمكانية توفير الأموال اللازمة للقيام بمظاهرة كبيــرة تضم حشدًا كبيرًا من الناس.

بعد عودتى للتردد على حانة مدام كوتو بفترة وجيزة فكَّر أبــى فــى العودة للظهور بين الناس والالتحام بهم والتحدث إلى زبائن الحانة ومؤيــدى الحزب الذي تنتمى إليه مدام كوتو وإلى المقربين من ذلك الحــزب للإفــادة ومحاولة تعلُّم العمل السياسى على أمل إقناعهم فى النهاية بفلســفته ووجهــة نظره فيكسب بذلك مزيدًا من المؤيدين.

قالت له أمى: "كنت دائمًا تكره السياسة ولا ترغب فى الحديث عنهــا فماذا دهاك؟"

- كنت أفكر.

- وهل النمر الأخضر هو الذى جعلك تفكر؟

قال أبى: "توجد النقود حيث توجد السياسة".

صمتت أمى فاضاف أبى قائلاً: "إنه لأمر شاق وغير محتمل أن نظل فقراء إلى الأبد".

قلت: "لكنه من المحتمل أن نبقى كذلك".

رمقنى أبى بنظرة قاسية وأشار إلى وجهه المتورم وعينيه المنتفختــين وشفتيه الزرقاوتين وقال بعد لحظة من الصمت: "إذا لم يكن لديك ما تفعلــه فى هذا العالم فستبقى فقيرًا إلى الأبد".

توقف لحظة عن الكلام ثم استطرد قائلاً: "لكننى سأواصل مسيرتى ما دمنا نقوم بعمل تلك الأشياء وطالما أننا نحاول معرفة ما يدور فى حانة مدام كوتو ونسعى لاكتشاف كل شيء".

لم نستطع أن نفهمه حيث وقفت دقة ملاحظاته وأفكاره الغريبة عائقًــا أمام قدرتنا على الإدراك، خاصة وأنه لم يكن يفسر أو يشرح ما يقول لكننــا أدركنا بعد ذلك وببطء شديد أن طريقة أبى قد تغيرت، كانت عيناه ما تــزال شاردتين ومليئتين بالغموض فلم نستطع أن نكتشف أيًا من الإضاءات المبهرة

بداخلهما، غير أنه لم يعد مثل الملاكم المجنون الذى يسعى دائمًا للتحدى بحثًا عن دور وإنما راح يتخذ ببطء شكل الجندى أو الضابط وكنت أنا وأمى وكل من يستمع إليه هم الفريق التابع له، كان جيشًا صغيرًا ولأننا كنا أتباعًا من الأسرى المقيدين، فقد سنحت الفرصة لأبى أن يجد منفذًا سريًا يقفز منه، لقد ملأ حياتنا بالحكايات المثيرة الغريبة التى لم نستطع أن نفهمها فى حينها.

أشار لى وقال مستطردًا: "ولذلك فأنا أشعر بأننى شخص رائع وأننى أكثر شهرة من أى شىء آخر فى العالم، فأنا أفعل ما أريد وأسعى دائمًا لاكتشاف كل ما هو جديد كما أننى أجيد مهارة الحلم وهكذا تستطيع أنت يا ولدى أن تفعل ما تريد ولكن أيضًا لا بد أن تفعل ما أخبرك به، ومن الآن فصاعدًا عليك أن تستمع جيدًا لما أقول وتنتبه جيدًا لما أفعل فهذه الحياة ليست سوى مسرحية هزلية وتافهة لكنها فى الحقيقة ليست كذلك، لا بد أن نحيا بطريقتنا ويجب أن نصنع أحلامنا طالما أننا مجبرون على العيش".

اخترقت نظرات أبى جدران الحجرة وأضاف قائلاً: "وحتى الباعوض يا ولدى يعرف بأنه مجبر على العيش وأنه لا بد أن يحيا".

(١٤)

أدركنا – تدريجيًا ومع مرور الوقت – مدى دقة أفكاره الصائبة، لقد تغير أبى كما اعتقدنا لكن نوع التغيير الذى لحق به أصابنا بالكدر فبدلاً من أن يوفر النقود التى ربحها فى معركته مع النمر الأخضر كما اقترحت عليه أمى، راح يخبرنا فى الحال بأنه عازم على إقامة حفل كبير وسارع بدعوة أهل الحى ومدام كوتو والعجوز الأعمى ووالد آد والساحرة التى عالجته وبدأ الناس يهمسون بأن الرجل الذى هزم النمر الأخضر يحتفل الآن بانتصاره، وجه أبى الدعوة إلى نفر قليل من الناس لكن عدد الحضور كان كبيرًا جدًا.

كان من المفترض أن يكون الحفل خاصًا وحميميًا فاشترى أبى بعض المشروبات وطلب من أمى تجهيز ثلاث دجاجات، أصيبت أمى بالسعال من شدة الدخان المتصاعد أثناء قلى الدجاج وتحميره وتناول أبى الجزء المفضل لديه من إحدى الدجاجات ثم راح يتجول بين الناس، وطلب تجهيز دجاجة رابعة لكن أمى كادت تختنق من الدخان فجهزتها بينما ظل أبى يشرب البيرة بإسراف.

قالت أمى متسائلة: "أنت معتاد على احتساء الأجوجورو".

أجاب أبى وهو يفتح زجاجة أخرى: "إن الحياة تتقدم دائمًا نحو الأفضل".

بعد الانتهاء من قلى الدجاجة وتحميرها أرسلونى لاستئجار بعض المقاعد، وعندما عدت بصحبة الرجل الذى يؤجر المقاعد كان أبى واقفًا أمام عتبة الباب متشيئًا بالعرق، لقد عاد للتدريب مرة أخرى لكننا لم نأبه بذلك وفككنا المقاعد عن بعضها ووضعها أمام حجرتنا، ثم تذمرت أمى وتمتمت بكلمات غامضة ودفعت ثمن المقاعد للرجل الذى سألها: "هل يمكننى أيضًا أن أحضر الحفل؟"

قالت له أمى: "إنها مناسبة صغيرة ولا تستحق".

قال الرجل: "نعم، يمكننى إذن الحضور بصحبة زوجتى".

لم تكن أمى تملك خيارًا آخر سوى الموافقة، وأمام عتبة الباب كان أبى يمشى بخطى واسعة إلى الأمام وإلى الخلف بصدره العارى مرتديًا قفازه المقطوع، وكان يعلن على الملأ من حين لآخر بأنه بطل العالم وأنه مستعد لمواجهة كل المتنافسين، كان مخمورًا بما يكفى وكان مشبعًا بنوع من العنف والضراوة لم يسبق له مثيل.

أعلن صارخًا بأنه قادر على هزيمة خمسة من النمور الخضر، وليس واحدًا فقط وقال إن باستطاعته قتل ثلاثة أسود بيديه ودون الاستعانة بأى أسلحة، ثم أضاف معلنًا عن قدرته على تسديد ضربة قوية إلى عشر شجرات متماسكة وتدمير بناية كبيرة بضربة واحدة.

قال صاحب المقاعد متسائلاً: "أليس ذلك الرجل هو من قهر النمر الأخضر؟"

- بلى.

- شىء رائع، سأحضر إذن بصحبة أصدقائى لنستمتع بحفلته.

عاد الرجل لعمله وكان أبى يواصل هذيانه ويتحدث بحماس بالغ ويتباهى بوحشيته ويندفع فى كل الاتجاهات بكل طاقته فتصبَّب العرق منه بغزارة، ولم يعد مخمورًا كما كان فذهب إلى الحجرة ليزود نفسه بمزيد من الشراب وعندما عاد واستأنف اعتزازه وافتخاره بقوته ووحشيته عبرت بجانبه سيارة مدام كوتو، فأبطأ السائق من سرعته لكى يستمع إليه وهو يقول: "كنت أقول إننى أستطيع تدمير بناية كاملة بضربة واحدة من قبضتى، وكذلك أستطيع رفع سيارة بإصبع واحد وإذا ما اتجهت السيارة ناحيتى، فإننى أستطيع إيقافها بيد واحدة كما يمكننى أن أشيد طريقًا فى يوم واحد".

ضحك السائق فصاح أبى قائلاً: "يمكننى أن أضربه بقوة تجعله غير قادر على فعل أى شىء فى حياته سوى الضحك، نعم، ضربة واحدة من قبضتى المتوحشة كافية لإصابته بالجنون".

أشار السائق برأسه وبدأ فى التحرك بالسيارة وبعد أن أمضى أبى وقتًا طويلاً فى التدريب والصياح والتحدى ولم يجد من ينازله أو يتحدَّاه دخل البيت وسارع بالاستحمام ثم بدأ فى إعداد مراسم الحفل.

تأخر حلول المساء وشاهدت الغابة - من خلال الطريق - وهى تتشح بالظلام شيئًا فشيئًا وأسراب الطيور البيضاء وهى تحط مفترشة أغصان الأشجار، وفى تلك الأثناء كانت مدام كوتو وسائقها يأتيان ويذهبان مرات عدة وهما يحملان صناديق البيرة والأطباق الورقية ومناديل المائدة، شاهدت أيضًا نساء الحانة وهن يرتبن المقاعد المستأجرة وكانت الإعدادات للحفل الحاشد تمضى بجدية، انتشرت بين الناس حمى التكهنات والتوقعات بشأن ذلك الحدث، وأولئك الذين أقسموا على عدم الحضور ما لبثوا أن غيروا رأيهم وكان لظهور عدد كبير من الموسيقيين الشعبيين وكثرة التلميحات والشائعات حول توزيع النقود على الحاضرين والحديث عن مشاهدة أفلام مجانية قد أسهم بشكل كبير فى حضور حتى أشد الخصوم عداوة.

كان والد آد وزوجتاه الاثنتان وآد نفسه أول الحاضرين فى حفل أبى المتواضع، فتحنا بعض المقاعد المطوية لهم وقدمنا لهم الشراب فراح أبى يتحدث مع والد آد عن السياسة وشئونها، وتبادلت أمى مع الزوجتين كلامًا عن فتح بعض المحلات وعن كيفية التجارة فى السوق ورحت أنا أخبر آد عن رغبة أبى فى أن يصبح رئيسًا للدولة.

ظهر بعد ذلك العجوز الأعمى برفقة مساعده حاملاً الأكورديون معه وجاءت بعدهما مباشرة مدام كوتو ببطنها الكبيرة ووجهها الحزين وتلتها الساحرة بصحبة مساعدتها الصامتة، ثم توالى حضور أهل الحى وأطفالهم

فمضينا نبحث عن مزيد من المقاعد، ظل كثير من الناس يتوافدون لكننا لم نتعرف على عدد كبير منهم، تجار وسائقو شاحنات وكتبة وأصحاب أكشاك وباعة جائلون وأصحاب ورش لتصليح الدراجات وكذلك النجار وزملاؤه، حتى لم تعد الحجرة كافية لاستيعابهم فتفرقوا خارجها وامتلأت الطرقة بالناس، أصبح جو الحجرة خانقًا من شدة الحرارة وكان الذباب يطن ويتحرك بسرعة فوق المشروبات ثم يستقر فوق وجوهنا المليئة بالعرق، حاول شخص ما فتح النافذة بالقوة فتكسرت ووعد النجار بإصلاحها مجانًا وعندئذ راح العجوز الأعمى يعزف على الأكورديون ألحانًا كريهة.

وفى الوقت نفسه كانت مشكلة أولئك الذين جاءوا بدون دعوة والذين ينتظرون بالخارج قد تفاقمت، رفعوا أصواتهم احتجاجًا وتعالت صيحات الغضب عبر الممر المؤدى للحجرة، شعرت بالاختناق من العرق ومن موسيقى العجوز فحاولت جاهدًا أن أخرج فأصابنى الذهول من شدة الزحام، وأدركت أن المتشردين برءوسهم المليئة بالقمل والقاذورات قد اقتحموا حفلة أبى البسيطة، كانوا غارقين فى البؤس والتعاسة وبدت على ملامحهم علامات الجوع الشديد والتشرد لكنهم كانوا يتمتعون بنظرات حادة تتسم بقدر هائل من التحدى، فشعرت بأنهم سيهجمون على أى شخص يطلب منهم الرحيل ولن يترددوا فى القضاء عليه، كان شكلهم بشعًا وأرجلهم شبيهة بحرف الكاف واللعاب يسيل من أفواههم بلا انقطاع وكانت أقدامهم مستديرة إلى الخلف كالمصابين بالكساح، شمل الزحام أيضًا أهل الحى المتسكعين وأصحاب الورش الميكانيكية الذين يحلمون برحلات بحرية تقودهم إلى عوالم أخرى بعيدة وشاهدت أولئك الذين تتسم وجوههم بالتعب والإرهاق الشديدين بعيونهم الضاربة إلى الصفرة والذين اعتدت على رؤيتهم فى الشوارع والأسواق وكان يتوسط كل هذا الحشد من الناس بعض الشباب المتأنقين بصحبة فتياتهم، وكذلك بعض النسوة غير المعروفات وكثير من الرجال والنساء كبار السن الذين لا يختلفون فى شىء عن كل الكبار الذين شاهدتهم من قبل،

وآخرون يرتدون ثيابًا سوداء بوجوه ذابلة وعيون مشرقة كعيــون النمــور الاستوائية وصدور وأذرع مغطاة بالأحجية والتعاويــذ والتمــائم والأعمــال السحرية وبعض الناس المعروف عنهم العمل بالســحر، والــذين اســتطعت التعرف عليهم فى الحال من رائحتهم ومن عدم رغبتهم فى ملامسة أحد، لقد وقفوا بعيدًا بقدر الإمكان عن الآخرين وحين حدَّقت فى أحدهم نظــر إلــى بدوره ثم تحرَّك نحوى فاستدرت لأجرى لكننى سمعت نباح كلــب، نظــرت مرة أخرى فاكتشفت اختفاء الساحر وأصبح الكلب واقفًا مكانه، كــان كلبًــا أبيض بعيون خضراء.

هتفت قائلاً: "اقتل هذا الكلب".

اكتسبت ملامح وجه الكلب بنفس نوع الارتباك الذى يصيب الإنســان وحين ألقى عليه واحد من الناس حجرًا وصوَّبت أنا بحجر آخر إلى فمه لاذ بالفرار وهو ينبح وبعد لحظة قصيرة ظهر الساحر فى الشارع مــن جديــد وكانت إحدى عينيه متورمة ولم يحاول الاحتكاك بى أو الاقتراب منى طيلة الوقت المتبقى من المساء.

وبمعزل عن السحرة والعرَّافين الذين جلبوا معهــم رائحــة العــرق الممتزج بالشر كان السفاحون وقطاع الطرق والفتوَّات من كــلا الحــزبين الرئيسيين أيضًا من بين الحاضرين وكذلك بعض من المنظمــات الأخــرى الأقل شأنًا والذين جاءوا لرؤية أبى والتعبير عن احترامهم وتقديرهم للرجــل الذى استطاع أن يقضى على أسطورة النمر الأخضر، بذل فتوات الحــزبين مجهودًا كبيرًا لاختراق ذلك الحشد الكبير من الناس حتى يتمكنوا من دخــول الحجرة لكن الزحام كان كثيفًا عبر الممر المؤدى للحجرة ممــا اضــطرهم لاستخدام عضلاتهم وصدورهم القوية.

حلَّ الظلام فتدفَّق مزيد من الناس من كل مكان، ملاكمــون يرتــدون ملابس التدريب ويحملون قفازات الملاكمة ويلفُّون المناشف حول أعنــاقهم،

رجال شرطة وجنود مسلحون بالبنادق والذخيرة كانوا فى السابق من سكان حى الأقلية الذين يتباهون بماضيهم البائس، وحين سمعوا عن بطولة أبى الفذة جاءوا وراح بعضهم يتجول بكبرياء وسط الزحام ويتبادل الحديث مع العاهرات، ظلوا يسألون عن أبى لكنه لم يكن موجودًا فى أى مكان فأصبح العثور عليه أمرًا عسيرًا، لم يكن موجودًا بالحجرة ولا فى الممر أو فى الحمَّام ولا حتى فى سائر أرجاء الحى.

أثناء بحثنا المتواصل عن أبى شاهدنا موكبًا من الشحاذين الفقراء قادمًا من الطريق تقوده فتاة شابة جميلة بدت كأنها نائمة أو غائبة عن الوعى، كانوا سبعة أو ثمانية من المتسولين بعضهم بأقدام مرنة كالمطاط وآخرون برقاب ملتوية والبعض الآخربقدمين خلف الرءوس، وكانت عين أحدهم أعلى بكثير من عينه الأخرى فى حين بدا آخر بثلاث عيون وعند الاقتراب منه وبمزيد من الفحص والتدقيق عرفنا أنها ليست سوى جروح على هيئة تجاويف خالية من العيون، كان أحدهم أعمى تقريبًا ويمشى بمساعدة مريديه الذين كانوا يتزاحمون ويتدافعون حوله كصفار البيض المجروش، لم نكتشف أن الفتاة الجميلة لا ترى سوى بعين واحدة إلا حين اقتربنا منها وكان كل المتسولين متبعثرين فوق الأرض بملابسهم الرثة البالية الملتصقة فوق مفاصلهم الرخوة المترهلة الملتصقة بالأرض الخشنة الوعرة، وكانت الأتربة تتصاعد كلما تحركوا من أماكنهم، نظروا إلى أعلى بوجوه مشرقة وهم فرحون بقدومهم وأصابتنا الدهشة حين وجدناهم فجأة فى مقدمة الحشد، نظمتهم الفتاة على شكل نصف دائرة وأدركت عندئذ أن موكب الشحاذين ليس سوى عائلة واحدة كان الأب هو أكثرهم تشوهًا وبدا أنه يتمتع بكل العيوب والتشوهات الجسدية التى كان يتمتع بمثلها وبأنواع أخرى مختلفة من التشوه كل أفراد العائلة والتى حظيت منه الفتاة بعين واحدة عمياء، لم أستطع التوقف عن النظر إلى الفتاة، كانت تتمتع بقدر هائل من الجمال والفتنة، وكأنها زهرة تشع بالانعكاسات المضيئة وبدت مألوفة وحميمية بطريقة لافتة

للنظر كالموسيقى التى يستمع إليها المرء فى الأمسيات حين يكون العالم كله غارقًا فى الأحلام، تلك الموسيقى القادمة من لا مكان، الموسيقى النابعة من أعماق الروح ومن حالة مزاجية لا تتكرر، الموسيقى المشبعة بنوع سرى من الانجذاب.

تسللت بين المتسولين وسألتهم: "من أنتم؟"

أجابت الفتاة: "نحن من مكان بعيد وقد سمعنا أن الملاكم الشهير سيعقد حفلاً للجائعين من الناس، ولأننا نعانى من الجوع دائمًا سارعنا بالمجىء بعد أن أمضينا يومًا كاملاً للوصول إلى هنا".

مضيت على الفور فى البحث عن أبى من جديد فوجدته أخيرًا فى الحجرة محاطًا بمجموعة من الملاكمين الراغبين فى منازلته لاختبار قدراتهم، كان أبى فى حالة من الهياج الشديد وكانت الحجرة مزدحمة والناس يصرخون ويتذمرون من تلك المساحة الضيقة التى لا يستطيعون التحرك فيها، قطع أحدهم حبل الغسيل فتبعثرت ملابسنا على الأرض وداستها الأحذية المليئة بالطين، وكان أحد الملاكمين يجرب قبضته اليسرى فكسر النافذة وكان عدد كبير من الأطفال يقفز فوق السرير كما فتح بعض الغرباء الخزانة بحثًا عن الطعام وكان مجرد التحرك فى الحجرة أمرًا شبه مستحيل، فى أحد أركان الحجرة سدَّد أحد الملاكمين ضربة عنيفة إلى الحائط بقبضتيه العاريتين، فى حين جلست أمى فوق الملابس التى وقعت من حبل الغسيل وكان وجهها معبرًا عن الخوف ووسط كل ذلك الزحام لم أستطع أن أصل إلى أمى أو أبى لكننى أثناء محاولاتى أدركت أن الناس كانت تتعمد إعاقتى عن الدخول وأصبحت محاطًا تمامًا بالساحرات، ابتسمت إحداهن لى فكشفت عن أسنانها البيضاء المبهرة ثم نظرت لى الساحرة الطويلة خلسة فعرفت أنها رائعة الجمال وذات وجه ملكى، أخرجت نظارة من بين ملابسها وارتدتها فبدت عيناها كبيرتين ثم ضحكت ووضعت يدها فوق كتفى وراحت تتحسس

وجهى، كانت يدها باردة فى ذلك الجو الخانق فأصابنى شعور بالإغماء، اقتربت الساحرات منى وكانت رائحتهن جميلة فشعرت بأننى أختنق وأننى مضطرب، أخرجت ذات العين المتورمة كيسًا أسودًا فصرخت وحين توقفت عن الصراخ لم أجد أيًا منهن حولى ووجدت نفسى محاطًا بالسفاحين والفتوات وقطاع الطرق، ضربنى أحدهم فى رأسى وسألنى قائلاً: "ماذا بك؟"

بذلت مجهودًا كبيرًا أثناء محاولتى الثانية فى البحث عن أبى، ناديت عليه ثم سمعته فى الجانب الآخر من الحجرة وهو يخبر الجميع أن يرحلوا من الحجرة، وأن الحفل سيكون فى الخارج لكن أحدًا لم يستمع إليه فراح يتحدث بصوت عال مضيفًا بأنه لن يقدّم أيًا من المشروبات أو الطعام إذا لم يغادروا الحجرة، وعندئذ فقط بدأوا يتدافعون للخروج وكان سلوكهم فظًا وهم يمضون عبر الممر ويعبرون عن خيبة أملهم ولم يتبق فى الداخل سوى مدام كوتو وبعض العاهرات وآد وعائلته والعجوز الأعمى.

تساءل أبى: "ماذا سنفعل؟"

أجابت أمى: "أنت الذى دعوتهم فلماذا تسألنا؟"

قال أبى: "لكننى لم أدع العالم كله".

سألت مدام كوتو: "وما هى المشكلة؟"

أجاب أبى: "لا يوجد مزيد من الشراب ولا ما يكفى من الأطباق والدجاج والمقاعد".

قال العجوز الأعمى: "وماذا لديك؟"

قال أبى: "عدد كثير جدًا من الناس".

اقتربت من أبى وأخبرته أن بعض المتسولين والشحاذين قد جاءوا لرؤيته، بعد أن عانوا من مشقة السفر طوال يوم كامل وقلت له إنهم جائعون.

– إيه، أتعنى بأنهم جاءوا لرؤيتى؟
– نعم.
– وسافروا سبعة أيام لرؤيتى؟
– يوم واحد فقط.
– وهل تقول إنهم موجودون بالخارج؟
– نعم.

قال أبى وهو يترنح: "تعال معى لرؤيتهم".

غادرنا الحجرة وفى الخارج أدركت أنه كان مخمورًا بشدة ووسط الحشد الكبير من الناس استطاع أبى أن يتفاعل مع الجنود ومع زملائه الحمالين وأصحاب عربات الكارو ومع الملاكمين، وأصبح مفعمًا بالحيوية والنشاط وراح يتحدث عن المعجزات والأعاجيب السياسية ثم تهت عن أبى لحظة وصولنا إلى المقدمة، اقتربت منه مجموعة من الفتوات وراحوا يتجادلون بحماس حول بعض الأمور، ذهبت إلى المتسولين وبدأ العجوز فى الغناء، بينما راحت الفتاة تتفحصنى بعينها الحزينة الجائعة وكان الجو المحيط بنا من كل اتجاه مشوشاً والناس يتصارعون للحصول على المقاعد، وبدأ الملاكمون فى إظهار قوتهم وتجمعت الساحرات والمعالجات بالأعشاب ورحن يتبادلن المناقشات الساخنة حول طريقة كل منهن فى العلاج وتشاجرن بشأن قدرتهن على التفوق وتحدثت كل منهن عن قيمة الإنجازات التى قامت بها وعن تأثيرها الممتد فى العالم المرئى والعالم الخفى، أخرجت إحداهن كيسًا أحمر ولوَّحت به فى الهواء ثم ألقته فوق الأرض فانتشرت سحابة من الدخان الأخضر فى الهواء ظلت تدور فوق رؤوس الناس، بينما أخرجت أخرى حزمة ملفوفة بورق الفضة وهتفت ببعض التعاويذ ثم ألقت بالحزمة فى الهواء، وعندئذ اختفت السحابة الخضراء، كان الجنود متجمعين حول العاهرات حين خرجت مدام كوتو من الحجرة وأصدرت أمرها لإحداهن أن تستدعى السائق الذى شوهد وهو يقود السيارة ذهابًا وإيابًا عبر المكان، مسببًا

الرعب فى قلوب النساء ومهددًا الناس الذين يعبرون الشارع بإطلاق بوق السيارة، كان السائق مخمورًا وكان يسب ويلعن أولئك الذين يتحركون ببطء، أحاط الفتوات بمدام كوتو وراحوا يتغنون بأمجادها ويمدحونها، كان أبى مخمورًا بشدة حين وصل إلى الرصيف الأسمنتى وحاول أن يلقى خطابًا وهو يلَوح بالزجاجة فى يده.

صاح أبى قائلاً: "يوجد طعام لكل شخص والشراب متاح للجميع، لقد تبرعت مدام كوتو بمساعدات هائلة".

ساد الهدوء تدريجيًا فاستطرد أبى معلنًا: "ثمة معجزة ستحدث اليوم!".

تعجَّب الناس وغرقوا فى توقعاتهم فقال أبى وهو يغادر الرصيف: "سأذهب لتقسيم دجاجة كى يأخذ كل شخص نصيبه".

ساد الصخب وبعد لحظة قصيرة خرجت أمى وأم آد وراحتا توزعان قطعًا صغيرة من الدجاج على الناس المحتشدين، لكن الناس تذمروا خاصة بعد توزيع البيرة عليهم فى كئوس بلاستيكية بكميات قليلة، اشتكى الفتوات وقالوا إن هذه الجرعات القليلة تعدُّ إهانة لشغفهم وانطلق الجدل مدويًا وانفجرت الأفواه معبرة بغضب عن عدم الموافقة أو القبول بذلك القدر الضئيل من الطعام والشراب، فانتهز أصحاب المحلات الفرصة واندَسوا بين الناس وراحوا يبيعون الأجوجورو والبيرة المعلَّبة، شرب الجنود والفتوات كميات كبيرة، وعندما ظهر أبى وسط المتسولين شاهدته وهو يقدِّم لهم دجاجة كاملة ما لبثوا أن انقضُّوا عليها حتى مزقوها إربًا وبدأوا يتناولونها بسرعة خاطفة كالوحوش الجائعة، ثم قال أبى الواقف متباهيًا بينهم بعينيه البارزتين وشفتيه المتورمتين وهو يحمل زجاجة من البيرة فى يده: "هؤلاء هم أعضاء حفلتى وهذا هو جمهورى العريض من الناخبين، إنهم بداية طريقى فلتنظروا إليهم، سوف نتذكر ذات يوم ذلك الجوع الذى يعانون منه عندما نجوع مثلهم، إن هؤلاء الناس هم قدرنا".

لم يستمع أحد إليه وربما سمعوه غير أنهم لم ينتبهوا لكلامـــه، لكنـــه واصل خطابه السياسى وهو حزين لعدم سماعه فاضطر إلى توجيـــه النقـــد لسكان الحى الذين لا يهتمون بمصيرهم والذين لا يملكون مواقف جادة تجاه هذا العالم ولا يفعلون شيئًا سوى الاستسلام لفقرهم، طلب مـــنهم أن يغيـــروا أفكارهم ويحلموا بغد أفضل، ثم صاح فيهم قائلاً: "إذا فكرتم بطريقة مختلفـــة فإنكم ستغيرون العالم".

بدا أيضًا أن أحدًا لم يستمع إليه فصاح بصوت أعلى: "إذا عرفتم مدى الحرية التى تنعمون بها فإنكم تستطيعون تحويل جوعكم إلى قوة".

انفجر أحد الجنود فى الضحك فصرخ أبى فى الجنود الذين يحملـــون دائمًا البنادق والأسلحة ويسيرون بكبرياء وغطرسة، ثم شنَّ هجومًا على كل السفاحين وقطَّاع الطرق الذين يجلبون الهلع للناس، ومضى فى حديثه لاعنًا الحكومة واتهم كلا الحزبين بتخريب عقول الناس، لكنه صبَّ جـــام غضـــبه على الناس أنفسهم ووجه لهم اللوم على عدم التفكير فى أنفسهم وراح ينتقـــد فلسفتهم فى الحياة وعقلية القبائل التى يفكرون بها وابتلاعهم الدائم للأكاذيب وتسامحهم تجاه الاســـتبداد والطغيان وصمتهم الأبدى فى وجه المعاناة، انتقد - كذلك بمرارة - عدم رغبة الناس فى رؤية الأشياء بوضـــوح ومحاولـــة التفكير الحر، وأقسم بأن استمرار الجنود ورجال السياســـة فـــى أكـــاذيبهم الخاصة لا بد وأن يؤدى فى يوم ما إلى اشتعال الحرائق وحدوث الفيضانات.

قال شخص ما: "لقد أصابه الجنون".

وصاح آخر: "نحن لا نرغب فى سماع كلام عن السياسة".

- نحن نريد طعامًا.
- ونريد نبيذًا.
- وموسيقى.
- واحتفظ بالسياسة لنفسك.

حرّك أبى ذراعيه وحاول الإجابة على أسئلتهم المتلاحقة الكثيرة، غير أنهم كانوا يهتفون بأصوات عالية مطالبين بالشراب، وسادت حالة من الاضطراب والجدل وانطلقت النسوة المخمورات فى التعبير عن غضبهن، بينما كان الجنود مشغولين بمداعبة العاهرات فلم يستطع أبى أن يقول شيئًا.

- الموسيقى.
- الطعام.
- النبيذ.

ارتبك أبى وراح العجوز الأعمى فى نفس اللحظة يعزف على الأكورديون، وقد بدا شبيهًا بكائن خرافى فتغيَّر جو الاحتفال وبدت الموسيقى كريهة كصوت الوحوش المفترسة وهى تصير بأسنانها فى الغابات، كان العجوز يعزف بحيوية ومرح فامتلأ الهواء بنغمات متنافرة وصاخبة، ولم يمض وقت طويل حتى ضربت المرأة التى تعالج بالأعشاب – بيدها الملفوفة بكيس أسود – واحدة من الساحرات فانطلق الصخب فى كل مكان، وامتزجت الفوضى بنغمات الأكورديون الرنانة الكريهة، صرخت امرأة وأطلق أحد الجنود طلقة نارية فى الهواء بدون قصد، وكانت الساحرة المضروبة تترنح فى مكانها بعينين مفتوحتين عن آخرهما وذراعين مفرودتين، ثم سارعت بضرب المرأة التى تعالج بالأعشاب وصفعها فوق وجهها الذى تحوّل إلى اللون الأزرق ثم إلى اللون الأحمر، وبدأت أجنحة الطيور الضخمة تضرب الهواء فوق رءوسنا فتلفحنا بالظلال وملأت الأجنحة كل الفراغات، وساد الظلام، شاهدت إحدى الساحرات وهى تحاول ترتيب ثوبها وقد أصبحت عيناها زرقاوتين وتحولت أصابعها إلى مخالب لكن وجهها أصبح جميلاً بطريقة مدهشة، طار أحد المقاعد فى الهواء وسقط فوق الفتوات وهاجم المتسولون الجنود وانقضَّ المتشردون على العاهرات؛ فانعكست إشارات من الضوء فوق عينَى لم أتمكن خلالها من الرؤية، ثم سمعت بوق السيارة وهو يخترق الفضاء كما تخترق الصرخة الغاضبة البائسة سكون الليل، وما أن

انقشعت الإشارات الضوئية من فوق عينَى حتى تجسد الإنسان أمامى فى الظلام، على هيئة صور وأشكال مختلفة فأوشكت على الوقوع لكن شخصًا ما أمسك بى، وعندما مسحت عينى بقبضة يدى أبصرت الناس وهم يتشاجرون والمقاعد وهى تتطاير فى الهواء، كان أعضاء كلا الحزبين السياسيين يهجمون على بعضهم البعض؛ فتبعثرت الأجساد وتناثرت بشكل غريب وارتطمت قبضات الأيادى بالوجوه كما نشبت إحدى النساء أصابعها فى عينى أحد الرجال، قفزت واحدة من الساحرات فوق ظهر أحد الجنود الذى راح يصرخ كأن زوجًا من المخالب الحادة قد اخترق روحه، حاول أبى السيطرة على الموقف وتهدئة الأمور بينما كان السفاحون والفتوات والملاكمون يتبادلون اللكمات.

تحطمت الزجاجات فوق الرءوس فى الظلام، وتبعثرت الطيور الصفراء بيننا مثلما تتبعثر أوراق الأشجار المثمرة واخترق عينَى شعاع آخر من الضوء فزعت على إثره، لكننى لم أدرك أنه كان المصور إلا بعد أن أضاء السائق مصابيح سيارة مدام كوتو الأمامية، أدركت أن خطأً ما قد حدث للناس قبل أن أتمكن من النداء على المصور، سمعنا صوت محرك السيارة وصرخة السائق المتلهفة وشاهدنا فوانيس السيارة المضاءة وهى تتوجه ناحيتنا، فتبعثرنا فى كل اتجاه وأصابنا الهلع وانطلقت - فى نفس اللحظة - صرخات عدة، وفى لحظة خاطفة أبصرت وجه سائق مدام كوتو المضىء فبدا لى مخمورًا تمامًا، وكانت رقبته لا تتحرك كأنها مثبتة بالأوتار، ويحاول أن يفتح عينيه بصعوبة وكان العرق يسيل فوق جبينه، انحرفت السيارة فاكتسى وجه السائق بالذعر وبدا كأنه استيقظ فجأة من النوم، لكنه فقد السيطرة على السيارة فلاذ الناس بالفرار وهم محاطون بالطيور الصفراء، شاهدت الناس - من خلال دائرة الضوء - يقفزون فى الهواء وقد اختفى بعضهم، بينما تغيَّر شكل بعضهم الآخر، وأخيرًا انطلقت السيارة بسرعة وسط الزحام واصطدمت بآد وواحد من المتسولين قبل أن تصطدم بقوة فى

الرصيف الأسمنتى، ثم بأحد الجدران حيث تحطمت فوانيس الإضاءة وعلا صوت المحرك وانحرفت العجلات عن مسارها، فأثارت الأتربة وبعد أن تبعثر زجاج السيارة بقوة ساد الصمت لفترة طويلة.

حدث ارتباك شديد بعد ذلك وانتشرت الفوضى وامتزج العويل بالظلام، وانطلقت رصاصة أخرى فى الهواء لكن أبى - الذى لم يشهد ما حدث - بدأ يلقى خطابًا آخر ويسخر من كل رجال السياسة الذين يتعمدون الحفاظ على جهل شعوبهم، سمعت أحدهم وهو يعزف على أكورديون العجوز الأعمى، وكان الناس يهرولون عبر الظلام فى كل مكان بينما كان آد يصرخ، انطلق وابل من الشتائم والاتهامات ولعن بعض الناس مدام كوتو وطموحها المدمر، ثم سمعنا السائق المسجون داخل السيارة وهو يصرخ، أحضرت نساء الحى المصابيح وحاول الرجال أن يفتحوا باب السيارة المحطم لإخراج السائق الذى كان غارقًا فى الدم، وكان صدره كالوعاء السحرى ووجهه ملطخًا بالزجاج المكسور فبدا مثل النباتات المكسوة بالأوراق المتشعبة، وكانت شظيات الزجاج متناثرة فى كل أجزاء جسده وفوق جروحه وملتصقة بدمه ومتبعثرة فوق مقاعد السيارة، وواحدة من تلك الشظيات كانت مستقرة داخل إحدى عينيه، ظل يرفس بقدميه ويبكى كما لو أنه يعانى من كابوس مروع، وكان الصديد الأخضر ومشاهد الدم تتصبب من جانبى وجهه الذى أصبح كالبيضة المتفجرة، حملوه وساعدوه فى التمدد فوق الرصيف الأسمنتى وصرخت إحدى المعالجات بأسماء الآلهة الغامضة السرية، واقتلعت الشظية من عينه، وفى نفس الوقت راحت معالجة أخرى تجهّز تعويذة ما لتعالج النزيف وتدفق الصديد والسوائل من العين، فى مكان قريب كان آد - الذى أصيب فى مفصله والتوى ذراعه حين وقع عليه - يحاول أن يتغلب على آلامه وهو يبكى، تحسَّس والده جسده برفق وراحت أمه تتمتم ببعض الكلمات فى أذنه جعلته يبكى بصوت أعلى، ثم شدَّته إحدى الساحرات من قدميه وراحت المعالجة تدلك ذراعه المصاب، لكن أباه صاح قائلاً: "يجب أن تتركوه وشأنه وأرجو ألا يقترب أحد منه".

كان السفاحون وفتوات كلا الحزبين يتقاتلون فى الطين وفى المستنقع كما يتقاتل العمالقة فى الأساطير؛ فتحطمت الجماجم وطارت المقاعد فى الهواء وعندئذ بدأت عائلة المتسولين بقيادة الفتاة الجميلة ذات العين الواحدة فى الرحيل، ظلت الفتاة تنظر للخلف ولم يكن وجهها يوحى بأى شىء، ومن خلفها كانوا يعرجون ويزحفون بتشوهاتهم الفريدة وأقدامهم الهزيلة الملتوية حول رقابهم، وكانوا يجرون أقدامهم العليلة فوق الأرض بلا جدوى وكانت رءوسهم الكبيرة تتألم من كثرة التفكير فى كيفية البقاء على قيد الحياة، رغبتُ فى متابعتهم والمشاركة فى رحلة عودتهم حتى لا أفقد الفتاة الجميلة التى جعلتنى أنسى كل تشوهاتهم، ولا أرى سوى تلك العين المدهشة التى ظل وجهها يلاحقنى فى الأحلام ويتسرب إلى قلبى كلما سمعت الموسيقى.

صرخت أمى فى الناس وتوقف أبى عن سيل لعناته المتدفقة وأمسكا بى بمساعدة مدام كوتو التى نجحت فى التحرر من الفتوات المحيطين بها، وبمشاركة آد الذى كان يبكى بمرارة فوق الأرض ومنعونى من متابعتهم والذهاب معهم، لكننى شعرت أثناء رحيلهم أن شيئًا ما بداخلى قد رحل معهم، وكانت الرياح المحملة بكل أحزاننا تصطدم بقوة بفروع الأشجار كلما أبصرتهم يبتعدون، اصطدمت الرياح برءوسنا وشاهدت أطيافًا من الملائكة فى السماء المظلمة، وفزعت الطيور الصفراء من مشهد السيارة المحطمة، وحين تنسمت رائحة الدم راحت تصفق بأجنحتها ثم طارت مخترقة تلك الليلة المليئة بالنواح فبدأت الأمطار فى السقوط على الفور رغم أن السماء لم تكن تنذر بالمطر، سقطت الأمطار فوق السيارة المحطمة وفوق مدام كوتو التى كانت تبكى بحرقة على سيارتها وفوق فتوّات كلا الحزبين وهم يتقاتلون لإثبات ولائهم الغامض، سقطت الأمطار أيضًا فوق السائق المصاب بحالة من الإغماء ولم تسلم منها المعالجات بالأعشاب اللاتى لم يعرفن كيف يتصرفن، وتساقطت كذلك فوق صديقى الذى توقف عن البكاء وعرف كيف يتعامل مع آلامه، لم تنجح أحداث تلك الليلة المأساوية فيما نجحت فيه

الأمطار التى تسببت فى تشتيت الناس ورحيلهم، رحل الجنود وهم مخمورون من البيرة والفوضى ورحل معهم المتشردون الذين جاءوا بعد سماعهم بإقامة حفل كبير، وأولئك الذين رغبوا فى الترحيب ببطلهم الجديد ومضى البائسون والفضوليون إلى حال سبيلهم، رحل أيضًا والد آد مع زوجتيه حاملاً آد فوق ظهره، واندفع صاحب المقاعد إلى الشارع وهو يلعن أبى بسبب المقاعد التى تكسرت كما اختفت الساحرات فجأة، بينما حملت المعالجات سائق مدام كوتو لمداواته بعيدًا عن الزحام.

اشتدت الأمطار ولم يتبق أمام البيت سوى أبى الذى كان مرتبكًا ومخمورًا، ومدام كوتو التى كانت جالسة فوق الأرض الموحلة بباروكتها الملتفة فوق رأسها، ثم أمى التى وقفت بجوار السيارة وكانت قدماها محاطة بالدم ومياه الأمطار، قاد أحدهم العجوز الأعمى إلى بيته وكان الأكورديون الكريه يتدلى من جانبه فبدا كأنه جهاز قد دمرته الموسيقى الكريهة المنبعثة منه، وظلت السيارة محطمة فوق الرصيف الأسمنتى طوال تلك الليلة دون أن تتحرك من مكانها.

انقضَّ صاحب المقاعد على أبى مهاجمًا إياه؛ فاضطر أبى أن يضربه مرتين مما جعله يسارع بإحضار سكين كبيرة، وحين أوشك على رفعها أقسم له أبى بأنه سيدفع ثمن المقاعد التى تكسرت أو سيصلحها بنفسه، عاد الرجل إلى بيته بمساعدة أربعة رجال آخرين لكنه كان حزينًا وغاضبًا بشدة، ثم جاءت نساء مدام كوتو العاهرات وأمسكن بها من ذراعيها لئلا تقوم بعمل شىء خطير، ومضين بها بعيدًا ومن بعيد كان من اليسير سماعها وهى تبكى، لم تكن مدام كوتو تبكى من أجل سائقها ولكن من أجل السيارة.

عندما رحل كل الناس فى النهاية دخلت أمى الحجرة بهدوء ومضى أبى ليستحم، لكننى بقيت عند عتبة الباب أحدّق فى حطام المقاعد المكسورة وزجاج السيارة المتبعثر والملابس الممزقة البالية والزجاجات المهشمة

وعظام الدجاج المتناثر فى الطريق، ولم تكن الأمطار قد توقفت بعد فشعرت بأن ما حدث فى تلك الليلة ليس سوى تعبير حى وإشارة صارخة عن كثير من مشكلاتنا ومتاعبنا، وليس تدميرًا للمقاعد أو تخريبًا للسيارة أو قتالاً بين الناس، تشبع الطريق بالدم الممتزج بماء المطر فلم يعد الطريق ظمآنًا وأصبح الدم نوعًا جديدًا من الشراب، كان الطريق حديثة لكن الجوع الذى يعانى منه كان موغلاً فى القدم، بدا الطريق جائعة بشدة فى تلك الليلة ولم تتغمر كل الطرق بالفيضان رغم أن المطر كان غزيرًا ومتواصلاً بلا انقطاع، لم أستطع رؤية السماء لوقت طويل ثم هبت الرياح عاتية حيث كنت أقف ورفعتنى إلى أعلى.

قالت أمى: "ادخل يا أزارو فهذه ليلة لا يجب على طفل مثلك أن يشهدها".

نام أبى فوق السرير واستطعت أن أسمع شخيره الممتزج بصوت المطر والرعد، أما أمى فقد أشعلت شمعة ووضعتها فوق الطاولة، وبعد أن تناولت الطعام معى لم تقل شيئًا لكننا لم نفكر فى النوم وبقى كل منا مستيقظًا ومحدقًا فى الشمعة، بينما كانت الرياح العاتية وصوت الرعد المدوى يضربان بقوة فوق نافذتنا المكسورة.

الكتاب السابع

(١)

كثير من تساؤلات الموتى وألغازهم الغامضة لا يستطيع الإجابة عليها سوى الأحياء؛ فبعد أحداث الحفل المأساوية اتخذ أبى لنفسه فلسفة أخرى جديدة وغريبة، وبدأت الأرواح تجتاحنى من جديد لكن أبى استطاع - بمعاركه المختلفة - أن يطارد الأرواح التى لم يستطع كثير من الناس مطاردتها، فى صباح اليوم التالى للحفل المشئومة أحضرت مدام كوتو ستة من الفتوات لرفع السيارة من مكانها والذهاب بها إلى الورشة الميكانيكية، استيقظنا على أصواتهم الصاخبة حين كانوا يواصلون حمل السيارة، وشاهدنا مجموعة أخرى من الفتوات المعارضين تعترض طريقهم وتحاول الهجوم عليهم لأنهم ضربوا آد.

عدت من المدرسة فسمعت أن المسلحين بالهروات يحتشدون بأعداد كبيرة حول المكان، عاد أبى مبكرًا وكان يتناقش مع صاحب المقاعد بخصوص عدد المقاعد التى تكسرت، وكذلك عادت أمى فى وقت مبكر لأن المعارك كانت محتدمة بين قادة الحزبين الرئيسيين فى كل الأماكن التى ذهبت للبيع فيها، رحل صاحب المقاعد راضيًا وهادئًا بعض الشىء بعد أن دفع له أبى بعض النقود، ثم سألنى أبى أن أقرأ له شيئًا مما يدور فى عالم الكتب، وحين بدأت أقرأ عليه مقتطفات من هوميروس كانت أمى تصُب جام غضبها وتتحدث عن المشاكل التى حدثت بسبب الحفل، لم يكن الطعام فى تلك الليلة جيدًا، لكن أبى لم ينتبه لذلك وراح يأكل بشهيته المفتوحة العادية بنهم شديد.

بدأت ملامح وجهه تعود إلى ما كانت عليه واتسمت عيناه بنوع جديد من الضراوة والوحشية، وبعد أن عاودت القراءة من أوديسا هوميروس تساءل أبى بصوت مرتفع قائلاً: "كيف سأتمكن من عمل الخير فى هذا العالم إذا لم أعرف المزيد عن السياسة وإذا لم أختلط بالهيئات والمنظمات الموجودة وأصبح واحدًا منها؟"

اقتنع أبى بعد ذلك بفكرة عمل تجمع كبير عند الرصيف، لبث أفكاره ومحاولة الحصول على أكبر قدر من الأصوات، ثم تذكّر فكرة استخدامى بوصفى جاسوسًا.

قالت أمي: "إن ابنى ليس جاسوسًا".

أجاب أبى مؤكدًا: "كلنا جواسيس بطريقة أو بأخرى".

- لا داعى لأن يتعرض ابنى للمشاكل.
- لكنه سيكون جاسوسًا رائعًا.
- لماذا؟
- أنت لا تفهمين.
- هذا ما يقوله الرجال دائمًا عندما لا يرغبون فى قول الحقيقة.

لم يقل أبى شيئًا وظل صامتًا بعض الوقت، بينما راحت أمى تشكو من استخدام أبى لى فى مخططاته المجنونة وتذمرت بشأن النقود التى بددها فى الحفل المأساوية، غير أن أبى لم يستمع إلى شكاواها واستدعانى وقال: "أريدك أن تذهب من جديد لحانة مدام كوتو وسوف ألحق بك فيما بعد".

لم أتصور أنه كان جادًا فيما يقول، لكننى حين كنت أجلس بالخارج فى وقت متأخر من المساء لمراقبة العالم وهو يتحرك ببطء كالسحاب جاء أبى، وبعد أن ذكرنى بمهمتى أخبرنى بأن أشياءَ جديدة تحدث فى العالم وفى بلدنا، وعندئذ قادنى شغفى إلى التردد على حانة مدام كوتو.

لاحظت أن طريقنا قد تغيرت، ولم يعد أى شيء كما كان فى السابق، وكان بعض المتسولين الذين حضروا حفل أبى المشئومة يصيحون عند جانبى الطريق، وكان أحدهم راقدًا فوق حصيرة أمام بيت العجوز الأعمى وحين مررت بالقرب منه وضع رأسه بين أصابعه وطلب منى بعض النقود، كانت عيناه غائرتين وفمه متشققاً من شدة الجوع لكننى مضيت مسرعًا، واكتشفت أن الشجيرات الموجودة فى جانبى الطريق قد أصبحت أكثر قفرًا وشاهدت شجرة صغيرة تتوسط بيت العجوز الأعمى وحانة مدام كوتو، اشتدت الرياح فجأة وعندما هدأت قليلاً استطعت أن أشم رائحة أشياء صغيرة متعفنة فى الغابة، وعند اقترابى من الحانة توقفت أمام اللافتة الجديدة المتألقة بنور الكهرباء وسمعت أصواتًا صاخبة وموسيقى، جلست أمام الحانة ولم أكن متأكدًا من ردود الأفعال التى ستترتب على وجودى، لم تكن السيارة موجودة، وحين خرج رجل من الحانة نظر إلىَّ بازدراء وبصق بقوة فوق الشجيرات، ثم عاد للدخول وخرجت بعده بوقت قصير إحدى العاهرات وقالت لى: "ماذا تريد؟"

- مدام كوتو.
- من الذى أرسلك؟
- أبى.
- ومن هو؟
- النمر الأسود.

رمقتنى بنظرات عميقة وعادت لدخول الحانة، لم يحدث شيء للحظة تعالت الأصوات بعدها، وبدأت المعركة فتطايرت المقاعد وتكسرت الكئوس وصاحت النسوة ثم توقف الشجار واكتفوا بسيل من الشتائم، وضع أحدهم أسطوانة فى الفونوغراف فانطلقت الأنغام الشعرية فى الفضاء، هبَّت الرياح فتمايلت الأشجار وظهر موكب الشحاذين وهو يعبر الطريق، وعندما توقفوا أمام الحانة واقتربوا منى أدركت أنهم ليسوا أولئك الشحاذين الذين شاهدتهم

من قبل، كانوا حوالى سبعة، وبينهم اثنان بأقدام مشوهة وكانا يزحفان فوق الأرض كالأفاعى باستخدام كوعيهما الملفوفين بالقماش، كانت أذرع بقيتهم مفتولة ولهم رقاب طويلة ونحيلة، وكان واحدٌ منهم بذراع واحدة وآخر بإصبعين فقط، أما الثالث فقد أفزعنى بعيونه الثلاث فحاولت أن أجرى لكننى لم أستطع، وتعجبت حين وجدت نفسى متسمرًا فى مكانى، جلبوا معهم رائحة البالوعات الكريهة والشوارع القذرة وسلال الزبالة والأجساد العفنة والليالى الرطبة، ولم أقدر على احتمال كل تلك الروائح الكريهة، كان من العسير معرفة عمر قائدهم ذى الوجه المعدنى المشوه والعيون العميقة والفم المجعَّد والذى اقترب منى وطلب منى المساعدة بأى شيء، وبدت اللغة التى حدثنى بها وكأنها تنتمى إلى عالم آخر ثم أحاط بى هو والآخرون فاجتاحتنى رائحتهم الكريهة حتى كدت أختنق ولم أقدر على التنفس، ضحك أصغر المتسولين سناً فبدا كأن حشرة قد خرجت من فمه، صرخت لكن أكبرهم أمسك بى بإصبعيه الاثنين بقوة كأنهما آلة جهنمية ووضع وجهه قبالة وجهى وقال: "اتبعنا".

شعرت بالإغماء لكننى رحت أرفس وأقاوم حتى تمكنت من دفع المتسولين بعيدًا عنى وجريت بسرعة حتى دخلت الحانة، كانت باحة الرقص مليئة بالراقصين والمكان معبأً بالدخان، وقعت فوق الدكة واصطدمت بزوج من الراقصين فصرخت المرأة وتوقفت الموسيقى، وظل كل شخص ثابتًا على الوضع الذى توقفت عنده الموسيقى وراحوا جميعًا يحدِّقون فى كما لو أننى قمت بعمل سحرى غريب، ثم سألتنى إحدى العاهرات قائلة: "ماذا بك؟"

– لا شيء.

صاح أحد الرجال ذى الأكتاف العريضة والرقبة الكبيرة وقال: "اخرج من هنا".

عرفت أنه أحد الفتوات فقلت: "لا".

- هل أنت مجنون؟
- لا.

ضربتنى واحدة من النساء فوق رأسى فقفزت فوقها لكن يدًا من الخلف أمسكت برقبتى ورفعتنى بعيدًا.

سمعت صوتًا قويًا يقول: "إذا لم تخرج من هنا على الفور فإننى سألقى بك فى الهواء".

قلت: "سوف أخرج".

تركنى وشأنى وانتظرت لحظة أشرت بعدها إلى الباب فنظروا جميعًا، كانت جدائل الستارة تتحرك، دخل المتسول العجوز وقدَّم التحية، كان وجهه مشتعلاً بومضات حمراء فبدا أكثر غرابة، وحين دخل الحانة تبعه عدد كبير من المتسولين فتسللت إلى الحانة كل روائح العالم الكريهة، مضيت نحو ركن الحانة وجلست فوق الدِّكة ثم سادت لحظات طويلة من الصمت، كان المتسول العجوز ينظر خلالها إلى كل شخص بشجاعة وبدون خوف، حتى جاء ناحيتى وبصحبته بقية حاشيته من المتسولين، وأشار بإصبعه المعقوف ناحيتى وقال بصوت عال: "أريد ذلك الولد".

تدفقوا من باب الحانة إلى الداخل كالرياح فساد الظلام، وعندما شاهدت إحدى العاهرات أولئك المتسولين بمختلف تشوهاتهم انطلقت منها صرخة مدوية وشعرت بألم شديد، وفجأة بدأت المواجهة، صاح أكثر الفتوات شجاعة وأظهر المتسولون عنفًا شديدًا فانتشرت رائحتهم الكريهة فى كل أرجاء الحانة، كان أحد صغار المتسولين بلا أقدام، وراح يتحرك مستندًا إلى عكازين منخفضين أحدهما أطول من الآخر، حتى تسلَّق المائدة التى يجلس حولها معظم الزبائن، ولأول مرة أرى الفتوات والجنود المتمرسين فى العمل السياسى وهم خائفون، تراجعت العاهرة وأغلقوا أنوفهم بأصابعهم تجنبًا لتلك الرائحة الكريهة.

قال العجوز وهو يتحرك بثبات ناحيتى: "لقد أرسلونى لإحضار هــذا الولد".

قلت: "ومن الذى أرسلك؟"

اتجهت أنظار كل الموجودين فى الحانة نحوى، ضحك أحد المتسولين والتقط آخر زجاجة من النبيذ ثم شربها عن آخرهــا، وكأنــه ألمــح لبقيــة المتسولين فجأة بوجود الشراب والطعــام فــوق المائــدة، فســارعوا إلــى الانقضاض على الطعام، أما أولئك الذين ليست لهم أقدام فقد اندفعوا أيضًــا فوق المائدة مستخدمين أياديهم، بينما قفز أولئك الذين ليســت لهــم أيــادى وانقضُّوا على طاسات الشراب حتى فرغوا منها وسال الشراب على جوانب أفواههم وفوق ملابسهم الرثة البالية، كان المتسول العجوز ما يزال واقفًا ولم ينتبه للصخب الدائر من حوله لأنه كان مشغولاً بمتــابعتى، وكــان جســده المتهالك يرتعش وابتسامة غريبة تعلو شفتيه، وقف ساكنًا فى مكانــه وفعــل مثله كل شخص، توقفت الموسيقى وانقلبت الأطباق وشرب المتسولون وأكلوا كل اللحوم والعظام من فوق المائدة مما أصاب الفتوات وبعض الزبائن بحالة من الذهول لم يستطيعوا معها التحرك من أماكنهم، كاد المتسول الصغير أن يختنق وراح أحدهم يضحك، اندفع العجوز نــاحيتى فلجــأت إلــى الهــرب والاختفاء بين العاهرات المحتشدات عند الباب، لكن المكان كان محاطًا بنوع ما من أنواع السحر واندفع الفتوات فجأة نحو المتسولين وراحوا يركلــونهم بالأقدام ويلقون بالأطباق فى وجوههم، بينما ظل المتسولون ينعمون بالطعام والشراب وكأن شيئًا لم يحدث، وعندما فرغت الكئوس من النبيــذ وفرغــت المائدة من الطعام والعظام قفز المتسولون بأعضاء أجسادهم الناقصة فــوق الفتوات فى مشهد مثير، فهربت العاهرات إلى خارج الحانة وكــذلك فعــل الفتوات بعد أن أصابهم الهلع، كان العجوز جالسًا إلى جــوارى لكننــى لــم أتحرك وراح يتفحص العظام الملقاة على الأرض والمائدة المقلوبة والكئوس المهشمة، ثم سألنى: "كم عدد العيون التى تملكها؟"

أجبت: "ثلاث".

حدّق فى وأضاف: "وكم أذن؟"

- واحدة.
- لماذا؟
- إننى أسمع الأشياء والأصوات والكلمات والأشجار والزهور.

ضحك وقال: "لقد أرسلونى لإحضارك".

- من الذى أرسلك؟
- أصدقاؤك.
- من أنت؟

نظر حواليه وراح يلوّح بيده فى أرجاء الحانة، أظلمت الحانة وحين ضربنى فوق رأسى سمعت مواء إحدى القطط وشاهدت كلبًا ظل يحدّق فىَّ، وغمرتنى المياه لكننى بقيت متماسكًا ولم يعترنى الخوف، دخل أحد النسور من الباب وحطَّ فوق رأس العجوز، تحسَّس العجوز النسر بيده فانطلقت شرارة سوداء واخترقت عينى، وعندما فتحتهما وجدت نفسى فى أحد الحقول وحولى نهر أخضر، نظرت إلى أعلى فأبصرت جبلاً أزرق وسمعت أصواتًا تردد اسمى عبر النهر، قفزت القطة فوقى فتحركت من مكانى وضحك المتسول العجوز، استدرت ونظرت إليه ثم صرخت، كانت له أربع رؤوس إحداها رأس سلحفاة ضخمة، حاولت أن أتحرك لكنه أمسك بى، كانت الأرواح مختبئة وسط لهب عباد الشمس المتوهج، اهتز الحقل من تحت قدمى ودفع النهر بمياهه فوق الشواطىء المرجانية التى تحولت إلى زهرات منسقة وأغصان مزدهرة شاهدت من خلالها زملائى الروحيين، كانوا جميعًا يحملون مرايا زرقاء فوق رءوسهم وكان صديقى آد من بينهم، ولم تسنح لى الفرصة للتعرف على الآخرين؛ فلقد تحلّلت الأغصان والزهرات المنسقة من شدة الأضواء المنعكسة من المرايا، انطلق صوت صاخب أحدث ارتباكًا

للجبل، وقعت وحين قمت وجدت نفسى راقدًا فوق مقعد طويل، نهضت فى الظلام وكانت الأسماك تسبح فى أضواء الحانة المغلفة بالسواد، بقيت ساكنا وعندما رحت أتفحص المكان لاحظت أن شخصًا آخر موجود فى الحانة، دخل شخص ما من الباب يحمل مصباحًا فطمس الضوء الأصفر ملامحهم، انتظرت قليلاً فوضع الشخص المصباح أمامى وقال: "كان حظك جيدًا اليوم".

- كيف؟
- لقد تقاعست عن إتمام مهمتى لكن روحًا ما ذات رؤوس خمس جاءت بعدى.
- لماذا؟
- لاصطحابك فى طريق العودة.
- ولماذا تقاعست عن مهمتك؟

ظل ضوء المصباح يومض ثم يخبو وعندئذ تحركت امرأة ذات جسد ضخم فى الحانة ورفعت وجهها المتورم؛ فشاهدت عينيها الكبيرتين المنعزلتين وعرفت أنهما أكثر العيون حزنًا فى العالم، قلت على الفور: "مدام كونو".

- لا تتفوه باسمى.
- ولِمَ لا؟

صمتت وأبصرت قليلاً من الخوف فى عينيها حين قالت: "توجد أرواح فى الحانة".

نظرت إلى ما وراء المصباح فلم أجد أحدًا ولاحظت أن شيئًا ما يتحرك خلف المصباح، دققت النظر فأبصرت سحلية كبيرة تتلوى برأسها الخضراء وعينيها المتآكلتين، تحركت ببطء ورحت أتحسس أرض الحانة حتى لامست حجرًا فسارعت بضرب السحلية فى رأسها، انطفأ النور وهبَّت رياح زرقاء قوية داخل الحانة تحطم الباب على إثرها، فمضيت أتحسس

طريقى نحو الفناء لكن مدام كوتو أمسكت بى فى الظلام وقالت بصوت شبيه بصوت أحد الثيران الضخمة: "لماذا أتيت بهم؟"

صرخت قائلاً: "من؟"

- أصدقاؤك.
- عن أى أصدقاء تتحدثين؟
- المتسولين وتلك الروح.
- إنهم ليسوا أصدقائى.
- إنهم أصدقاء أبيك.
- لا.
- أليس هو من يمثلهم؟
- لا أعرف.
- لقد أصبح مهمومًا بالسياسة إلى حد كبير.
- أنا لا أعرف شيئًا.
- ماذا قالت الروح لك؟
- لم أسمع شيئًا.

أزاحت يدها عنى وقالت: "أنت فى حاجة لبعض الشراب".

قلت: "نعم".

خرجت وتركتنى فى ظلام الحانة الغريب، وتساءلت بينى وبين نفسى عما حدث للكهرباء، شممت رائحة السلحفاة الميتة، انفتح الباب الأمامى واهتزت جدائل الستارة فشاهدت شكلاً ما مفعمًا بالنشاط عند المدخل، وقد سبقته رائحة أجهزة القضاء على البعوض.

قلت: "أبى".

أشعل عودًا من الثقاب وكانت السيجارة فى فمه، وكان من اليسير رؤية ملامح الأسى والاكتئاب فوق وجهه لكن عينيه كانتا مشرقتين ومليئتين

بالدلالات العميقة، انطفأ عود الثقاب فجلس ورحت أستمع إليه وأنا أفكر، حتى ضحك بحيوية وابتهاج وقال: "يستطيع المرء أن يرى العالم كله دون أن يتحرك خطوة واحدة من مكانه!، وقد يمتلك العقل الراجح ولا يستطيع رؤية ما يحدث أمامه!، لماذا تجلس هكذا يا ولدى؟"

لم أستطع الإجابة على سؤاله فضحك بينه وبين نفسه واستطرد قائلاً: "يمكن للمرء أن يحمل العالم كله فوق رأسه لكنه لم يزل عاجزًا على تحمل ما بداخل رأسه".

سألته: "وماذا بداخل رأسه؟"

قال بقليل من الضجر: "الأفكار والأحلام يا ولدى، لقد تغير العالم بعد معركتى مع النمر الأخضر، وكبرت الأحلام والأفكار داخل رأسى".

صمت قليلاً ثم أضاف: "ربما أكون قد بدأت فى اكتشاف أفكارى".

كانت السحلية الميتة فوق المائدة فقال: "من الذى قتلها؟"

- أنا.
- لماذا؟
- إنها روح.
- وكيف عرفت؟
- لقد تكلمت معى قبل أن تتحول إلى سحلية.
- لا تقتل السحالى مرة أخرى.
- ولِمَ لا؟
- لأنها رسل مبعوثة من قبل شخص ما أو شىء ما، وأحيانًا تكون من الجواسيس، لقد أرسل لى والدى سحلية ذات يوم ليحذرنى.
- يحذرك من ماذا؟

توقف أبى عن الحديث لحظة ثم قال: "كان بعض أعدائنا فى طـريقهم لقتلى بالسم حين كنا بالقرية، وضعوا السم فى حسائى، وحين أوشكت علـى الشراب شاهدت السحلية وهى تنظر لى وتهز رأسها".

- ذلك ما تفعله السحالى عادة.
- أنت لا تفهم يا ولدى.
- وماذا حدث إذن؟
- لم أنتبه للسحلية ولم أهتم بهزات رأسها وعندما أوشكت على تنـاول الحساء تسلقت السحلية الجدار، نظرت إليها بافتتان ثم سقطت أخيـرًا فى الحساء وماتت.

فكرت فيما قاله أبى وسمعت بالخـارج أصـوات بعـض السـكارى الصاخبة القادمة من أعماق الغابة.

قال أبى: "أين السحلية؟"

- فوق المائدة.

أشعل أبى عودًا آخر من الثقاب وقال: "لا يوجد شىء فوق المائدة".

انطفأ عود الثقاب فقلت: "ربما تكون قد عادت إلى عالم الأرواح".

- لا تتحدث عن الأرواح.

أصبحت الأصوات الصاخبة بالخارج أكثر حدَّة فأضاف أبى قائلاً: "لا بد أن أحدًا ما قدَّم النبيذ للمتسولين إذ لم يسبق لى قطُّ رؤيتهم وهم سـكارى، إنهم جميعًا أعضاء فى حزبى".

استطعت أن أسمعهم وهم يضحكون ويطلقون اللعنات ويتشاجرون مع بعضهم البعض حين استطرد أبى: "إنهم يعدوننى قائدهم وأنا لا أملك المـال الكافى لإطعامهم، لكننى سأبنى لهم مدرسـة وسـتكون أنـت واحـدًا مـن المدرسين، هل يوجد أى قدر من النبيذ؟ أين مدام كوتو؟"

- في الفناء.
- اذهب وأحضرها معك.

خرجت من الباب الخلفى وكان الظلام حالكًا، لكننى شاهدت العاهرات وهن جالسات فوق المقاعد وبعضهن واقفات، وكانت كل منهن تـدَخن فـى الليل وعندما شاهدننى تحسست كل منهن أسنانها، وكان الفتـوات والزبـائن الآخرون قد رحلوا، مضيت نحو باب مدام كوتو وطرقت فوقه بأصـابعى، فتحت لى بعد لحظة وهى تحمل مصباحًا فى يدها وباروكة فى اليد الأخرى، وكانت بطنها كبيرة جدًا ووجهها متورمًا وكأن أحدًا ضربها، وبالنظر إلـى عينيها كان من اليسير معرفة مدى التعب الذى تعانى منـه وحالـة السـأم والضجر التى تعتريها.

قالت لى: "أنت ولد منحوس، ماذا تريد؟"

- إن أبى...
- أبوك؟! اتركنى وشأنى، كان العمل فى الحانة على ما يرام إلـى أن جئت أنت ومعك الشحاذون المتسولون فتسببت فى إخلاء الحانة مـن زبائنى.
- أنا لم أحضرهم.

نظرت لى نظرة طويلة وثاقبة ثم ناولتنى المصباح لأمسكه نيابة عنها وعندئذ تمكنت من ارتداء الباروكة لكنها بدت خائفة، أغلقت بابها ومضـت نحو الفناء وطلبت من العاهرات الرحيل، تذمرت العاهرات ورحن يتمـتمن بكلمات غير مفهومة اعتراضًا على عدم دفع أجرتهن، فقالت مـدام كوتـو: "سوف أدفع لكن غدًا فى عدم وجود ذلك الولد المنحوس".

نهضت العاهرات واحدة بعد الأخرى وهن يتمتمن ويطلقـن الشـتائم واللعنات، خرجن فى الظلام مرورًا بعتبة البيت وجلست مدام كوتو فوق أحد المقاعد تراقب الإناء الكبير الأخضر الموضوع فوق الموقد، وكـان نقيـق

الضفادع يتسرب من الشجيرات الصغيرة وسمعنا صوت أحد الطيور وهو يغرد فى الغابة لكنه توقف فجأة وكانت صراصير الليل تصدر أصواتًا مزعجة، ثم هاجمنا البعوض بلدغاته وبعد لحظات قليلة عادت إحدى العاهرات فسألتها مدام كوتو: "ماذا حدث؟"

- أولئك المتسولون، إنهم مخمورون.
- هل شربوا من نبيذى؟
- إذا لم نتخلص منهم فإن عملنا سيفشل.
- اذهبى الآن وعودى غدًا.

مضت فى طريقها وسمعنا نداء المتسولين عليها وسخريتهم منها، فراحت تلعنهم لكنهم لم يهتموا بلعناتها وظلوا يضحكون بأصوات خشنة.

قالت مدام كوتو: "حطم أصدقاؤك كئوسى وأطباقى ولعنوا زبائنى وأساءوا معاملتهم كما كسروا مقعدين، من الذى سيدفع قيمة كل هذه الخسائر؟"

- يريد أبى أن يتحدث معك فى أمور السياسة.
- مع من؟
- معك أنت.

التقطت العصا من جانبها وبدأت تضربنى وحين لم أتحرك من مكانى توقفت وقالت: "أنت وأبوك مجنونان".

- نحن لسنا مجنونين.

قالت بصوت مختلف: "أنا لست على ما يرام".

- ما الخطب؟
- المال، السياسة، الزبائن، الناس.

كنت صامتًا حين استطردت: "ماذا يريد والدك؟"

- يريد نبيذًا.

ضحكت ضحكة قصيرة وقالت: "لقد أعطيت النبيذ كله للمتسولين".

- لماذا؟
- لقد أثاروا المشاكل وحين أخبرتهم بأن يرحلوا بعيدًا لم يفعلوا، وإنما تجمَّعوا أمام الفناء فلم أجد طريقة أخرى.

قلت: "إنهم يريدون أن يصوتوا لصالحه".

- لصالح أبيك؟
- نعم.

ضحكت مرة أخرى وقالت: "لن يصَوت لصالحه سوى الدجاج والضفادع".

- وماذا عن البعوض؟
- والبعوض أيضًا وكذلك الكسالى.
- أخبرنى أبى أن أستدعيك.
- أين هو؟
- فى الحانة.
- إيه، لقد عاد إلى حانتى بعد أن دعانى بالساحرة الحيزبون؟
- إنه يريد أن يتحدث فى الشئون السياسية.
- اذهب وأخبره بأننى قادمة.

عدت إلى الحانة فوجدت أبى نائمًا ورأسه مرفوعة إلى أعلى، فبدا كمن يستمتع بنشوة ما، اقتربت منه وسمعت صرير أسنانه، كانت اليراعات الطائرة تبعث الضوء وسط ذلك الظلام، وكنت أراقب الفراشات الصفراء وهى تحلِّق فوق رأس أبى، وعندما حطَّت فوق رأسه استطعت فجأة رؤيته بوضوح فى الظلام بعد أن أحاط به الضوء الأصفر من كل اتجاه، كان الضوء شبيهًا تمامًا بوجه أبى وظل يرتفع فى الهواء ويبسط ظلاله هنا وهناك

حتى انتشر فى كل أرجاء الحانة، ظل الضوء يغير لونه وتحول إلى اللــون الأحمر ثم الأحمر الذهبى اللامع وراح يتحرك إلى أعلى وإلى أسفل، ويصعد فى الهواء ثم يرتد مرتطمًا بالأرض ثم يعاود التحلق حول أبى وكأنه يبحــث عن مخرج، اقترب منى اللون الأحمر اللامع وظل إلى جــوارى، شــعرت بالعرق يسرى فى جسدى وصرخت فتغير لون الضوء وعاد مرة أخرى إلى اللون الأصفر ثم تحول إلى الأزرق المشع وعندما لمست أبى فزعت الفراشة واختفت من فوق رأسه، فتح أبى عينيه فشاهدنى وصرخ صرخة غريبة، ثم نظر حواليه باندهاش وبدا أنه لا يعرف مكان وجوده فقلت له: "أنت فى حانة مدام كوتو".

حدَّق فى وأشعل عودًا من الثقاب وبعد أن تأكد منى أطفأه ثم ســحبنى إلى جواره؛ فأصبح بمقدورى أن أشم رائحة قدراته المحبطة وذلــك العبيــر المنبعث من الجهاز القاتل للبعوض، أشعل سيجارة وراح يدخن فــى هــدوء لبضع لحظات قال بعدها: "يستطيع المرء أن يرى العالم كله دون أن يتحرك خطوة واحدة، لقد حلمت يا ولدى بأننى بدأت فى اكتشاف قارة جديدة".

- وما اسمها؟
- قارة الإنسان المشنوق.
- ماذا حدث؟
- عندما هبطت بقاربى أبصرت جبالاً وأنهارًا وصحراء ثم كتبت اسمى فوق صخرة، كنت وحيدًا ومضيت إلى أعماق القارة حيث حدث شىء غريب.
- ما الذى حدث؟
- لا تستطيع أن تفهم ما حدث لأنك ما زلت صغيرًا.
- أخبرنى بما حدث.
- حلمت بالسهول والغابات والممرات والفضاءات الشاسعة المفتوحــة والنباتات العنقودية الطويلة ثم حلمت بالناس، لم يكن أولئــك النــاس

مثلنا، كانوا من قاطنى الأدغال ذوى البشرة البيضاء، وحين تحرَّكوا ناحيتِى واقتربوا منى أدركت أنهم يرتدون نوعًا غريبًا من الملابس، ويعلِّقون أحجارًا كريمة حول رقابهم فقلت لأكبرهم سنًا: "ماذا تفعلون هنا أيها الناس؟"

سألنى: "وماذا عنك؟"

- لقد اكتشفت لتوى هذا المكان الذى هو من المفترض أن يكون قـارة جديدة ولا يفترض بكم أن تكونوا هنا.

أجاب: "نحن موجودون هنا منذ زمن سحيق".

حلمت بعد ذلك بأنهم رحلوا ثم جاء أحد الرعاة وقال لى: "ليس لهـذه القارة اسم".

قلت له: "إنها تدعى قارة الإنسان الرافض".

قال: ليست هذه هى قارة الإنسان الرافض، إنها فى مكان آخر.

- ولماذا هى بدون اسم؟

- إن الناس لا يطلقون اسمًا على قاراتهم الخاصة فى الغالب، وإذا لـم تستطع أن تطلق عليها اسمًا فإنك لن تستطيع البقاء هنا.

تلاشت القارة واختفت ووجدت نفسى فى جزيرة غريبة يقطنهـا ذوو البشرة البيضاء أيضًا، تعاملوا معى بقسوة وبغير مـودة وبعـداء صـارخ، وعشت بينهم سنوات عدة لم أستطع خلالها أن أهرب إلى مكان آخـر، لقـد وقعت فى شرك تلك الجزيرة الصغيرة وكانت الحياة فيهـا صـعبة، كـانوا يخافون منى بسبب لون بشرتى المختلف وبدأت أفقد وزنى فلجأت إلى تقليص القارة بداخلى؛ كى أتمكن من التكيف مع الجزيرة الصغيرة وهكـذا مضـت الأيام.

سحب أبى نفسًا من سيجارته وكانت عيناه مشرقتين فى الظلام، وسألته عندئذ: "ثم ماذا حدث؟"

استطرد قائلاً: "بدأت أتنقل من جديد فوق الطريق حتى وصلت إلى مكان اختفى عنده الطريق، وتحوّل إلى هواء رقيق فاضطررت أن أحلم بوجود طريق فى ذلك العالم الجديد، ورأيت عند نهايته مرآة، نظرت فى المرآة فكدت أموت من الدهشة حين رأيت نفسى وقد أصبحت رجلاً أبيض".

- كيف حدث ذلك؟
- لا أعرف.
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- تغيَّر كل شيء بعد ذلك ووجدت نفسى فى مدينة كبيرة بوسط الجزيرة، كنت أبيع الصحف خارج محطة القطار لكنها كانت وظيفة مؤقتة لأن أحلامى كانت أكبر من ذلك بكثير، كان الجو شديد البرودة يا ولدى، وكان الثلج فى كل مكان.
- ثلج؟
- نعم، كان يتساقط من السماء وقد صبغ شعرى باللون الأبيض، لقد غمر الثلج كل شيء وانتشر فى كل مكان.
- وبعد ذلك؟
- جئت أنت ذات يوم لتشترى الصحيفة منى وكنت شابًا، وعندما ناولتنى النقود احترقت يدى وكنت موشكاً على الهرب منك لكنك جئت وأيقظتنى.

جلسنا صامتين وظل أبى يطرقع عظامه لمدة خمس دقائق ثم تمدَّد بجسده، وضرب المائدة بقبضة يده وقال: "أوه، أين النبيذ؟"

أُضيئت الأنوار الكهربائية فى الحانة فتلاشت الظلال وظهرت الأشياء بوضوح، ثم جاءت مدام كوتو وهى تعرج حاملة زجاجتين من البيرة فى يدها وطاسة من الشوربة فى يدها الأخرى، وقالت لأبى: "بعد أن تفرغ من الشراب عليك بالرحيل".

قال أبى: "مدام كوتو العظيمة، ألست مسرورة لرؤيتى؟"

- هل أشعر بالسرور لرؤيتك بعد أن قلت عنى أننى ساحرة شمطاء؟
- إن نبيذك الذى لعب برأسى هو الذى قال ذلك.

مضت بعيدًا وهى تعرج فى مشيتها إذ لم تتحسن قدمها؛ بل صارت أسوأ فأعادت تضميدها، مضت نحو الكاونتر وجلست خلفه ثم وضعت اسطوانة موسيقية فى الفوتوغراف وفى أثناء ذلك كان أبى قد التهم الشوربة بنهم شديد، وبعد أن أعطانى قطعة من اللحم فتح زجاجة البيرة بأسنانه وقال متسائلاً: "ألا يوجد نبيذ؟"

أجابت مدام كوتو: "لقد قدَّمت النبيذ كله لأصدقائك".

- من هم أولئك الأصدقاء؟

قلت له: "المتسولون".

وأضافت مدام كوتو: "لقد حطموا أطباقى وكئوسى، لماذا جئت بهم إلى هنا؟"

- أنا لم أحضرهم.
- لماذا دعوتهم إلى حفلتك؟
- أنا لم أدعهم.

أوقفت مدام كوتو الموسيقى فى اللحظة التى انتهى فيها أبى من زجاجة البيرة الأولى، وبدأ يشرب من الثانية وحينئذ قال: "مدام كوتو، أريد أن أتحدث معك فى السياسة".

- لماذا؟
- بعيدًا عن أى مصلحة.
- ومن أجل ماذا؟
- من أجل الناس.

- من ستنتخب؟
- سأنتخب نفسى.
- سمعت أنك ستنشيء حزبًا خاصًا بك، هل ما سمعته صحيح؟

لم يقل أبى شيئًا ورحت أنا أنظر إلى ملصقات الحزب السياسى الـذى تدعمه مدام كوتو، وأتفحص صور قادة الحزب فأضافت مدام كوتو قائلة: "لا تسبب لى المشاكل وخذ أتباعك المتسولين بعيدًا عن هنا، لأننى لا أريـد أن أفقد زبائنى".

- إن المتسولين أيضًا لهم حق التصويت.
- فليدلوا بأصواتهم لصالحك لكن دعهم يبتعدون عن هنا.

هبَّت الرياح وعصفت بباب الحانة ثم سمعنا دقات طبول غريبة فـوق السطح اهتز على إثرها المصباح الكهربائى وظل يتأرجح يمينًا ويسارًا، دخل بعض الناس وفى البداية لم أستطع التعرف عليهم، لكن مدام كوتو صـاحت فيهم قائلة: "اخرجوا من هنا".

شاهدت بعد ذلك ثلاثة من المتسولين عند الباب، كان اثنان منهم بـلا أقدام وكانا يتحركان باستخدام الكوع، أما الثالث فكانت إحدى عينيه طافحـة بالشرر، دخل ثلاثتهم الحانة وتجمعوا حول مائدة أبى، كان أبى قد فرغ مـن احتساء البيرة فقالت له مدام كوتو: "إذا عرفت كيف تتخلص مـنهم فـإننى سوف أنسى كل ما تسببوا فيه من خسائر، وعندئذ يمكنك أنـت وابنـك أن تعاودا التردد على الحانة فى أى وقت ويمكنك أن تشرب ما تشاء".

كان المتسولون يتلاعبون بزجاجات البيرة الفارغة فخطفها أبى مـنهم ونهض ثم قال لى: "هيا بنا".

خرجنا وتبعنا المتسولون الثلاثة وهم يتمسكون ببنطال أبى ويتمتمـون بكلمات غامضة، أثناء سيرنا عبر الشارع شاهدنا متسولين آخرين نائمين فى

عرض الطريق، ظل المتسولون الثلاثة يتابعوننا حتى وصـلنا إلـى بيتنـا فاستدار أبى وأشار لهم أن يرحلوا، توقفوا فى مكانهم ومضيت مع أبى إلـى داخل البيت، نظرت إلى الخلف فأبصرت المتسولين الثلاثة وقد ركعوا فـى الظلام، وراحوا يلاحقوننا بنظراتهم الغريبة.

(٢)

كانت الرياح المصاحبة للرعد قوية فى تلك الليلة، وعندما دخلنا وجدنا أمي جالسة فوق مقعد أبي وكان جهاز البعوض فوق الطاولة والباروكة البالية الممزقة فوق السرير، وكانت أمي مرهقة فلم تقل شيئًا لحظة دخولنا وإنما كانت تتمايل إلى الأمام وإلى الخلف بفعل الرياح القوية وصوت الرعد المدوى فوق سطح حجرتنا، وبدت الأشياء على غير حالها والحجرة لم تكن هى نفس الحجرة، جلست أمي تحدّق إلى الأمام فى خط مستقيم كأنها كانت تنظر إلى طريق طويلة لا نهاية لها، أوشكت الشمعة على الاحتراق فأصبح الضوء خافتًا، ثم سمعنا صوت أنّات البعوض وراحت إحدى الفراشات تحلّق حول أمي فبدا أن رأسها محاطة باللهب وأصبحت عيناها متألقتين بالفتنة والسحر.

تساءل أبي وهو جالس فوق السرير: "ماذا حدث؟"

بكت أمي بكاءً صامتًا وظلت تحدّق إلى الأمام بعينيها المتألقتين لكنها بدت هذه المرة وكأنها تحدّق فى الرياح دون أن تتوقف عن البكاء، مضيت نحوها ووضعت رأسي فوق فخذيها لكنها لم تتحرك.

ناولني أبي نقودًا وقال لى بطريقة فظة: "اذهب واشترِ بعض الأجوجورو".

خرجت مهرولاً عبر الطريق وشاهدت مجموعة من المتسولين المحتشدين بوسط الحى فى مجموعات متفرقة، كانوا يرقدون فوق الحصائر تحت افريز زنكى منحدر وراحوا يراقبونني، اشتريت الأجوجورو، وفى طريق عودتي ساروا خلفى حتى تجمعوا فى النهاية أمام عتبة البيت.

دخلت الحجرة فوجدت أمى جالسة فوق السرير وأبى فوق مقعـده ذى الأرجل الثلاثة، وقد شكّل الدخان المتصاعد من جهـاز البـاعوض دوائـر حلزونية زرقاء حول رأسه، وكان لهب الشمعة الجديدة يراوغ الحجرة بظلاله وأبى يدخن سيجارته بلا إحساس وبطريقة روتينية، اختطف الأجوجورو منى وصب لنفسه كمية وفيرة سارع باحتسائها بينما كانت أمى تنتظر إليه، مضيت لتجهيز حصيرتى، ثم أخبرت أبى عن المتسولين الذين تبعونى حتـى عتبـة الباب.

قالت أمى: "فى المرة القادمة سيقتحمون حجرتنا".

أجاب أبى: "سأبنى بيتًا كبيرًا لهم ومدرسة وسيكون أزارو واحدًا مـن مدرسيهم، سيعلمهم أزارو كيف يقرأون".

أشار لى وقال مستطردًا: "ستعلمهم أيضًا كيف يبيعون الأشياء، أما أنا فسأعلمهم الملاكمة".

سألته أمى: "ومن الذى سيطعمهم؟"

أجاب أبى: "سيعملون من أجل طعامهم".

تمدّدت أمى فوق السرير وظلت صامتة بعض الوقـت ثـم نهضـت وراحت تشكو قائلة: "لقد طردونى من المكان الذى أبيع فيه بضـاعتى ممـا جعلنى أسير على قدمى طوال اليوم ولا أبيع إلا القليل، لقد تورمت قـدماى وانسلخ الجلد عن وجهى من شدة الشمس".

أضافت أمى موجهة حديثها إلى أبى: "لقد جاءنى صاحب المقاعد اليوم وأعطيته النقود القليلة التى معى، يجب أن أستردها منك".

قال أبى: "سوف أرد لك ضعف ما دفعتيه للرجل".

استطردت أمى مواصلة حديثها: "وحين كنت أتنقل فى الشارع الرئيسى من مكان لآخر لبيع بضاعتى قابلت امرأة كانـت زميلتـى فـى المدرسـة

الابتدائية، كانت تمتلك سيارة وسائقًا وترتدى ملابس أنيقة وباهظة الثمن، وبدت أصغر منى بعشر سنوات، اشترت منى البرتقال لكنها لم تعرفنى فقررت أن أتوقف عن البيع وعدت إلى البيت على الفور، لقد عرفت أن حظى فى هذه الحياة قليل وأن هذه الحياة ليست عادلة بأى حال".

قال أبى وهو شارد الذهن: "ستنعمين بحظ طيب ووفير".

وقلت لها: "سأعمل على سعادتك".

نظرت أمى فى وجهى ثم استلقت فوق السرير وسرعان ما غرقت فى نوم عميق، تسللت الرياح إلى داخل الحجرة من خلال الشقوق فبدأنا نرتجف، وغامرت بالقول: "شيء ما فى طريقه للحدوث".

قال أبى وهو يتأرجح فوق مقعده بمهارة: "شيء ما مدهش وعجيب".

اشتدت الرياح وكانت الفراشة تحلِّق حول لهب الشمعة، انطفأت الشمعة فجأة وبقينا فى الظلام وسط هدوء الحجرة القاتل.

كسر أبى حدة الصمت وقال: "أشتاق لسماع صوت الفئران".

- لماذا؟

- إنها تساعدنى على التفكير، كل الأشياء تشقى من أجل الحياة، والفئران تشقى كثيرًا وتعمل بجدية كبيرة، وإذا لم ننتبه فإن بمقدورها أن ترث الأرض ومن عليها.

غرقت الحجرة فى هدوء عميق لكنه كان هدوءًا صارخًا وغامضًا، فرقدت فوق حصيرتى ورحت أستمع إلى أفكار أبى، كانت أفكاره الكبيرة الهائلة تدور فى رأسه ثم تتطاير فى الحجرة، امتلأت الحجرة بأفكاره التى أرهقتنى وأوقعت الكآبة فى نفسى، لكننى بعد لحظة اخترقت رأسه من الداخل ورحلت فيها عبر البدايات، مضيت معه إلى القرية وشاهدت والده ورأيت أحلام أبى وهى تهرب منه، كانت أفكاره القوية غريبة تؤلم رأسى على

إثرها، وشعرت بوجع فى عينى وراح قلبى يدُق بسرعة متزايدة وسط حرارة الحجرة الخانقة.

تنهد أبى وتقلَّبت أمى فى فراشها فامتلأت الحجرة بالأفكار الأرجوانية الغريبة، تحرَّكت الصور والأشكال فى الظلام وأبصرت من فوق رأس أبى عينًا خضراء ظلت تتطلع نحوى بهدوء ودون أن تتحرك، لكنها تحركت بعد لحظة ومضت نحو الباب ثم أصبحت وشمًا واستقرت فوق الإطار الخشبى، ارتفع صوت الرياح وبدأ أبى فى طرقعة عظامه وعندما اشتدت ضربات الرياح فوق الباب وبين الشقوق شممت رائحة كريهة جدًا لم أستطع أن أتحملها، نهضت من مكانى فجأة فسألنى أبى: "ما الذى حدث؟"

قلت: "شىء ما يحاول اقتحام البيت".

كادت النافذة أن تتحطم من شدة الرياح فسارعت بفتحها وانطلقت الرياح إلى الداخل وجرفتنى نحو السرير، نهضت أمى ومضت نحو الباب وحين فتحته صرخت، لكن أبى ظل ساكنًا بلا حراك وتشبعت الحجرة بروائح الموتى والأعشاب المرة والجثث والعيون المتعفنة والجروح القديمة التى كشفت عن سوء التغذية والجوع الذى يعانى منه العالم، ثم ظهرت عيون كثيرة أضاءت ظلام الحجرة، دخلوا الحجرة وانطلقت الضحكات ثم أحاطوا بنا فى هدوء كهدوء الغرباء، وجلسوا على الأرض وفوق السرير وفوق حصيرتى وكانت الرياح القارسة تتعقبهم فى الظلام، فقدنا القدرة على التنفس فى وجودهم، ذهب أحدهم وجلس عند قدمى فاكتشفنا أنها فتاة، واستطعت أن أشعر بجمالها اللاذع وعينها التالفة وثديها المتسخ، لم يأتوا إلينا بوصفهم غزاة وإنما بوصفهم بشرًا طال انتظارهم فى العثور على مكان للعيش بين الأحياء، لم يقولوا شيئًا وكانت أمى واقفة عند الباب حين اقتحم الحجرة مختلف أنواع البعوض الغريب، وراحت اليراعات تبحث عن ظلالها المضيئة المتحلقة حول كل شىء، بينما ظلت الفراشة الحمراء تطير حول

رأس الفتاة، وعندما استقرت فوقها أضيئت الحجرة بأنوار برتقالية غامضة أصابت عينى بالارتعاش.

سأل أبى بلا خوف: "من أنتم أيها الناس؟"

سادت لحظات طويلة من الصمت أضاف أبى بعدها وقال لى: "أزارو، من هم أولئك الناس؟"

مدَّت الفتاة يدها ووضعتها فوق قدمى أبى ثم بدأت تحرِّكها برقة، حتى تلألأت القدمان بنفس الأضواء البرتقالية وأصبحتا براقتين، وفى الظلام بدا أنهما منفصلتان عن بقية أجزاء جسده، فقال أبى: "إن قدمَىَّ تحترقان لكننى لا أشعر بالحرارة".

صرخت أمى قائلة: "من أنتم؟ اخرجوا من هنا الآن، اخرجوا".

قلت بعد لحظات أخرى من الصمت: "إنهم المتسولون".

التقطت أمى أنفاسها وسحب أبى قدميه بعيدًا ثم نهض، اختفى الضوء البرتقالى من الحجرة وسمعت أبى وهو يتحسس جيوبه بحثًا عن علبة الكبريت، اشتعل عود من الثقاب لكنه لم يشتعل بواسطة أبى وإنما بواسطة الفتاة المتسولة؛ التى راحت ترفع عود الثقاب فى الهواء فاستطعنا أن نرى، بدت الفتاة فاتنة ومدهشة وهى تجلس عند قدمى أبى وكانت عينها التالفة فى الضوء المخادع قد تحولت إلى لون أصفر غريب، لكن عينها السليمة كانت بلون أزرق مشبع بحزن عميق وهدوء قاتل، وكانت ملابسها نتنة الرائحة ووجهها صافيًا وهادئًا كوجه أطفال الروح، أشعلت الفتاة الشمعة بدون أن ترفع عينيها عن أمى فنظرنا حولنا واستطعنا أن نشاهدهم، كانوا جالسين فى سلام فوق الأرض وكأنهم فى اجتماع مهم لمجلس القرية، وكانت ظهور بعضهم مستندة إلى الحائط والبعض الآخر مستند إلى السرير، وكانوا جميعًا يعانون من مختلف أنواع التشوه، جروح شاحبة وبقايا أذرع مبتورة وغريبة

وأقدام مشوهة، كان أحدهم برأس ضخمة بدت كأنها تمثال منحوت من البرونز ومتآكل بفعل الزمن، وكانت تفاحة آدم عند آخر متورمة، وثالث له عينان بارزتان لم أر مثلهما فى حياتى خيل لى أنهما مصنوعتان بواسطة إله أحمق ومخمور.

صرخت أمى وهجمت على الفتاة المتسولة الجميلة بطريقة جنونية، فأمسكت بها من شعرها وحاولت أن ترفعها إلى أعلى غير أن الفتاة لم تتحرك ولم تتفوه بأى كلمة فقبضت أمى على ذراعيها وحاولت جرها إلى الخارج وظلت تصرخ طوال الوقت، لكننا كنا جميعًا فى حالة من النشوة والغياب لم نستطع معها أن نفعل شيئًا، وإنما ظللنا ننظر إليها دون أن نتحرك من أماكننا، حاولت أمى أن تنقل الفتاة لكنها كانت كمن يناضل من أجل تحريك قوة راسخة من مكانها، أصبحت عينا الفتاة غريبتين وأصبح وزنها ثقيلاً جدًا كما لو أنها كانت مكبلة بكل فقرها ومعاناتها، بدأت أمى تصيح من جديد: "اخرجوا من هنا، اخرجوا جميعًا أيها المتسولون، ألا ترون أننا أيضًا نعانى من قسوة العيش، إننا نعانى من أعباء تفوق قدرتنا على الاحتمال فلترحلوا، خذوا طعامنا ولكن ارحلوا".

توقفت أمى فجأة عن الصياح وفى فترة الهدوء التى تلت ذلك حدثت نوبة من السحر، شممت عبير الزهور البرية ورائحة الأعشاب وتنفست رائحة السحاب والخشب العتيق وأوراق الموز والفضاءات الشاسعة المفتوحة والنسيم الشافى ورائحة المسك، وشاهدت فى الشمس أحجار العقيق الخضراء والحمراء وعندما اختفت كل تلك الروائح استدارت أمى ناحية أبى وانقضت عليه، وراحت تضربه بلا وعى لكن أبى لم يتزعزع من فوق مقعده وراح ينزف فى الحال من خدش بجوار إحدى عينيه، ثم بدأت أمى فى تمزيق قميصه وعندما وقعت كل الأزرار أفاقت من الانفعال الذى ألَم بها، توقفت مرة أخرى ومضت نحو الفتاة المتسولة ثم ركعت أمامها، وبدأت الفتاة فى

ملامسة قدمى أبى برقة فقالت لها أمى وهى تبكى: "أنا لا أقصد الإساءة إليكم أو إلحاق الأذى بكم، إن حياتى شبيهة بحفرة كبيرة حفرتها بنفسى، وكلما ملأتها فرغت من جديد وما زالت كما هى، انظرى إلينا، ها نحن جميعًا نعيش فى حجرة واحدة كما أننى أمضى اليوم بطوله من الصباح حتى وقت متأخر من المساء فى البيع وأنا أجرجر قدمى بصعوبة، وحين يسخر الرب منى ينسلخ الجلد عن وجهى وأحيانًا يصل الأمر بى إلى عدم القدرة على الكلام، إن فمى ملىء بالتجارب المريرة، لقد كنت أجمل فتاة فى قريتى ثم تزوجت هذا الرجل المجنون، وأشعر أننى وهبت الحياة لنفس هذا الطفل خمس مرات متتالية، لا بد أننى ارتكبت خطأً فادحًا أستحق بسببه كل هذه المعاناة، أتوسل إليك أن تتركونا وشأننا وتسارعوا بالرحيل، إن زوجى مجنون لكنه رجل طيب ونحن فقراء للغاية، فلا يجب إزعاجنا لأن قلوبنا - برغم كل معاناتنا - مفعمة بالطيبة والصلاح، أرجوكم أن ترحلوا، سوف نفعل شيئًا من أجلكم لكن دعونا ننام بسلام".

توقفوا جميعًا عن الكلام فى أعقاب خطاب أمى فسادت لحظات طويلة من الهدوء وكفَّت الفتاة المتسولة عن مداعبة قدمى أبى، وبدأت أنا فى البكاء لكن أبى أشعل سيجارة وصبَّ لنفسه مزيدًا من الأجوجورو ناول الفتاة قليلاً منه، احتست الفتاة الأجوجورو وأفرغ أبى كل ما تبقى فى فمه، أصيبت الفتاة بالسعال فسألتها أمى: "هل سمعت ما قلته لك؟"

قال أبى: "إنها أميرة، لقد سافروا سبعة أيام متواصلة من أجل حضور حفلتى، أنا لم أدعهم لكنهم جاءوا، إن النهر لا يتدفق نحو طريق جديدة من أجل لا شىء، لقد حملوا لى رسالة من الطريق، ألا ترين أنهم مجموعة من الرسل؟"

سألته أمى: "وما هى رسالتهم؟"

وسألتهم أنا: "ما هى رسالتكم؟"

استدار كل المتسولين ناحيتى فأضفت بعد أن تذكرت مواجهتى فى الحانة: "وأين أكبركم سناً؟"

نظر أبى نحوى ونهضت الفتاة ثم بدأ بقية المتسولين فى التحرك استعدادًا للرحيل؛ حاملين معهم تشوهاتهم وجراحهم دون أن يتكلموا، لكنهم تركوا رائحتهم الكريهة خلفهم بعد أن اصطفوا وبدأوا يغادرون الحجرة، حدَّقت الفتاة فى بقوة ثم رمقت أبى بنظراتها الغريبة قبل أن تغلق الباب خلفها، وكانت آخر المرتحلين، سمعتهم وهم يجرجرون أقدامهم عند عتبة الباب وكانت الكلاب تنبح من بعيد وكانت اليراعات والبعوض والفراشات ميتة فوق الطاولة وفوق الأرض؛ والتى ربما اختنقت كلها حتى الموت بسبب تلك الرائحة الكريهة التى ملأت الحجرة، كان أبى يحرك رأسه يمينًا ويسارًا دون أن يتوقف عن الشراب، وبدا كأنه مستغرق فى حلم عميق، أما أمى فقد انحنت بجسدها وطقطقت قدميها ثم اعتدلت وقالت بصوت خفيض: "جلبوا لنا البراغيث وتركوها لتأكلنا، تلك كانت هديتهم لنا، أنت مجنون يا زوجى".

لم يسبق لى أن سمعت أمى تتحدث بمثل هذه الطريقة الجافة من قبل، استدارت ومضت فى طريقها حتى جلست فوق السرير، كان جرح أبى ينزف بغزارة وعيناه تعبران عن انفعال شديد وفكاه يتحركان بلا انقطاع حين قال: "لقد كانوا فى يوم ما شعبًا عظيمًا لكن الجوع هو الذى أزاحهم عن مملكتهم، والآن أصبح الطريق هو مكانهم الوحيد للعيش، سأبنى لهم مدرسة وسأعلمهم كيف يعملون، سأعلمهم الموسيقى وسنصبح جميعًا سعداء".

خرجت أمى وعادت ببعض الماء ثم طهرت الحجرة ورشت المبيدات بكميات كبيرة فى كل مكان، فشعرت بلسعة ما فى فتحة أنفى ثم غيرت أمى فرش السرير وكان أبى جالسًا فى أحد الأركان بعينين حالمتين وذقن كثيف وخشن فوق وجهه، وكان الدم يتساقط من أحد جوانب وجهه ويتراكم فوق كتف قميصه الممزق، جاءت أمى وضمدَت الجرح ووضعت اللاصق فوق

وجه أبى ثم ذهبت لترقد فوق السرير، ظل أبى يتمتم بكلمات غير مفهومة لمدة طويلة وتحدَّث عن بناء طرق للأقليات، وعن مشاريع الإسكان التى سترفع من معنويات الناس وعن مدى الحاجة لعالم ملىء بالأفكار المثيرة الملهمة، واستطرد فى حديثه عن الحلم بوجود بحارة بدون سفن وقساوسة بدون أضرحة وملوك بدون قصور وملاكمين بدون خصوم وطعام لا يجد بطوناً خاوية وآلهة لا يجدون من يؤمن بهم وأحلامٍ كبيرة بدون حالمين وأفكار لا يستغلها أحد وبشرٍ لا يتلقون توجيهات من أحد، لم نستطع أن نفهم شيئًا وأوشكت الشمعة على الانطفاء فنهض أبى وتمدَّد إلى جوارى فوق الأرض، كان لا يزال يتمتم وكانت رائحته كرائحة حيوان ضخم أو فيل نحيل لكنها رائحة مفعمة بالطاقة والآمال العريضة والتناقضات الصارخة، ظلت عيناه تدوران وراح يواصل تمتماته المتنافرة المشوشة وهو يصر أسنانه، وعندما غلبه النوم عادت الشمعة للاشتعال من جديد وتوهجت كأن نوم أبى - بطريقة أو بأخرى - قد أمدَّها بمزيد من الأكسجين، نزلت أمى من فوق السرير وطلبت منى أن أبتعد قليلاً وأصابتنى الدهشة حين فتحت ساقيها ووقفت أمام أبى وراحت تضربه بهوس ضربات متلاحقة فى بطنه كما سدَّدت اللكمات إلى وجهه وصدره، كانت تضربه وترفسه بكل قوتها وهى تصرخ بصوت خائف وبدون توقف حتى شعرت بألم فى يديها وقالت: "أعتقد أن عظامى قد تكسرت فى فكه".

لم يتحرك أبى فنظرت إليه أمى وهو نائم بفمه المفتوح وقالت: "لماذا تموت الفئران وتفترش كل مكان فى الأرض حين أكون سعيدة؟"

كنت صامتًا فأمرتنى قائلة: "اذهب ونم فوق السرير".

أطفأت أمى الشمعة ثم رقدت بهدوء إلى جانب أبى فى ظلام الحجرة الملىء بالأسرار، وسرعان ما سمعت شخيرها فانقلب العالم على نفسه وتشبعت الحجرة بالليل الغامض الذى ملأ حياتنا بالأرواح المضيئة وصور

الحيوانات القديمة، وقفت الطيور المنقرضة بجوار حذاء أبى، وثمة حيوان جميل بعينين كبيرتين كان يقف فوق خيال أبى وأمى النائمين ويدارى ارتعاشاته بسحابة ذهبية من الغبار، ظهرت شجرة ما حول السرير حيث أرقد وكانت الشجرة عتيقة ذات جذع أزرق وفروع ذات ألوان كثيرة مبهجة من دم الروح وكانت الأضواء البراقة تتلألأ من أوراقها، رقدت واقفًا فوق جذعها فتحرك الظلام والقبائل المنقرضة وصور المستقبل باتجاه أرضنا الريفية الخلابة، ورحلوا عبر طرق جديدة لمدة ثلاثمائة عام حتى وصلوا إلى فضائنا المظلم.

لم أكن أحلم لكنها المرة الأولى التى أدركت فيها أن الفضاء الغامض قد اخترق عقلى وفكَّكَ البناء الداخلى لكينونتى، أبصرت كثيرًا من حياة الناس الذين ماتوا وحين شاهدت الملك الأعظم لعالم الأرواح وهو يحدِّق فى وجهى من خلال أبواب عينى المفتوحة عرفت أن أشياء كثيرة تناديني؛ ربما لأننا نمتلك أشياء عدة بداخلنا تبدو مهمة فى تماثلها، كان الليل رسولاً وفى الصباح استيقظت مبكرًا وشاهدت واحدة من الرسائل فوق الأرض وكان أبى وأمى ما زالا نائمين إلى جوار بعضهما بطريقة متناغمة، وكان من اليسير رؤية آثار الدموع القديمة فوق وجه أمى، نمت مرة أخرى وعندما استيقظت كانت الشمس دافئة ولم يكن حذاء أبى موجودًا، وكانت أمى قد تركت لى برتقالة فوق الطاولة.

(٣)

كان العالم يتغير حين شعر المتسولون بجوعهم الشديد فشربوا نبيذ مدام كوتو فى الليل، وعندما أصبحوا مخمورين لم يترددوا فى التعبير عن غضبهم فحطموا الأكشاك والدكاكين الصغيرة وكسروا لافتة مدام كوتو وقذفوا النوافذ بالحجارة، ثم لجأوا فى النهاية إلى الاختباء فى منزل فقير عند حافة الغابة؛ لكن سكان الشارع ثاروا ضدهم وأرسلت مدام كوتو فتوات حزبها لإبعادهم، شاهدت المتسولين عبر الشارع وكان بعضهم بلا أذرع والبعض الآخر بلا أقدام وأحدهم بذراع واحدة وآخر بعين واحدة، وكانوا متبعثرين بغير نظام ويعانون من الإرهاق كما بدت على وجوههم وأجسادهم آثار الخدوش واللكمات، تجمعوا تحت الأشجار وراحوا يتطلعون إلى حانة مدام كوتو وهم مسلحون بالعصى المهلهلة التى لا طائل من ورائها، كانوا جيشًا مثيرًا للشفقة والسخرية، لم أدخل الحانة لكننى شاهدت مدام كوتو جالسة بالخارج فوق مقعد مرتفع ومحاطة بالعاهرات والفتوات، وحين مررت بالقرب من المتسولين سمعتهم وهم يلعنوننى.

عند وصولى إلى البيت كان الباب مغلقًا وكان آد يلعب فوق إحدى سيارات الحزب المقلوبة، بدا آد نحيلاً لكنه فرح لرؤيتى وحكى لى عن حافلة الأغنياء التى جاءت وفرّقت المتسولين الذين ظلوا يتراجعون، غير أن قتالاً كثيرًا نشب بين الطرفين وأصيب الكثير بجروح مختلفة، كان آد يتحدث بطريقة خشنة وكان صوته ضعيفًا وكانت الشمس حادة فى ذلك المساء، رقدت الدجاجات بهدوء فى أركان الشارع وكانت الكلاب تعانى من الكسل والفتور ورحنا نلعب حول الشاحنة، فسمعنا صرخات تنطلق من حانة مدام كوتو، أسرعنا باتجاه الحانة فشاهدنا الفتوات وهم يضربون المتسولين مرة أخرى.

جاء رجل طويل فى المساء ليبحث عن أبى، كان الرجل طويلاً جـدًا وله رأس صغيرة وعينان غائرتان ويرتدى حلة بيضاء نظيفة، وقف تحـت الشمس الحارقة مستندًا على عصاه وراح يشكو من البراغيـث، ثـم ذهـب لشراء زجاجة من شراب الأجوجورو ووقف أمام عتبة بيتنا وبـدأ يشـرب بهدوء دون أن يتحدث إلى أحد، كانت علامات الأسى والاكتئاب تعلو وجهه وكان يطرف بعينيه لإزاحة العرق المتصبب حولهما، وقف بعد لحظة وظل على هدوئه، وعندما توجهنا ناحيته اكتشفنا أنه استسلم للنوم وهـو واقـف، لمسناه فانخلع من مكانه فزعًا ومضى نحو الشارع باتجاه الطريق الرئيسية ثم اختفى تمامًا.

ظهر أبى فى المساء بصحبة أولئك المتسولين الذين اقتحموا حجرتنـا فى تلك الليلة، كان أبى يملك طاقات وفيرة وهو يمضى بهم فـى الطريـق صعودًا وهبوطًا، كأنه رجل فى طريقه لدخول عالم جديد وقـدر مجهـول، حاول أن يرتب صفوفهم وطلب منهم تنظيف الأوسـاخ والقـاذورات مـن الطريق ثم طلاء الأكشاك وزارعة الزهور بجوار البالوعات، تسـلح أبـى بحماس كبير وارتدى قميصه الممزق وكان اللاصق فوق أحد جانبى وجهه، وراح يتنقل من بيت إلى آخر ليطلب من الناس أن يدلوا بأصواتهم لصالحه، رسم خطته الخاصة ببناء المدرسة واقترح على الناس أن يتبرعوا من أجـل المتسولين لكن الناس كانت تلعنه حيثما حلَّ لأنه أضاف مزيدًا من الأعبـاء إلى حياتهم.

أزال المتسولون بعض القاذورات فى جانب واحد من الطريق ودفنوها فى الجانب الآخر، وداسوا بأقدامهم فوق الزهور التى حاولوا زراعتها، ولأن أبى لم يستطع أن يتحمل تكاليف ما يكفى من الطلاء لدهان الأكشاك بـاللون البنى والبيوت باللون الأحمر والأزرق والأصفر، فقد وقف المتسولون طوال الوقت حاملين الفرشاة فى أياديهم بلا فائدة، تبعت الفتاة المتسولة الجميلة أبى

أينما ذهب وعندما ذهب، إلى مجموعة أخرى من المتسولين حدث بينهم الشقاق بمجرد أن تركهم فقلبوا الأكشاك ولم يحاولوا إعادتها إلى ما كانت عليه وراحوا يطوفون حول المستنقع، وبالقرب من الجسر الخشبى عثروا على فراش ملىء بالفطريات، ثم بدأوا فى تنظيفه من الحشرات والجراثيم الكثيرة، شاهدنا أشكالاً غريبة من الحشرات تنطلق فى الهواء وكان فى نية المتسولين أن يجعلوا من الفراش سريرًا يتقاسمون فيه النوم.

ظهر المصور للحظة كالبرق والتقط صورًا لهم ثم هرب بسرعة كأنه خائف من ظهور أعدائه فى أى لحظة من بين ظلال المساء الحزينة، وكان غامضًا وغاضبًا فى آن واحد ولم يمنحنى فرصة للحديث معه، كان أبى يزرع الطريق صعودًا وهبوطًا ويتحدث بصوت عال عن عجزنا وعدم رغبتنا فى التغيير، وفى أثناء ذلك انفجر المكان بالصياح وكشف عن موجة أخرى من التحول.

(٤)

حدث فى ذلك المساء أكبر وأضخم تجمع عند حانة مدام كوتو، كانت الحافلات الصفراء تقف فى كل مكان، وتدفقت فى جنبات الطريق رائحة عطور غريبة، وأعداد كبيرة من السيارات كانت تقف فى الممرات والشوارع الجانبية، ظلت الموسيقى تصدح طوال الليل فارتعشت معها البيوت المحاذية للطريق، وكانت مجموعة من النساء ترتدين أفخر الثياب المزينة بالأربطة والشرائط المزركشة المتناغمة والأقمشة الفاخرة، وكانت الأساور والخلاخيل الذهبية المقلدة والقلادات ودبابيس الزينة والخواتم والحلقان المصنوعة من الياقوت الرخيص وأحذيتهن ذات الكعب العالى تتلألأ وسط الأضواء، ازدحم المكان بالنساء وتفجَّر بأنوثتهن المخزية.

كان بعض الرجال قصار القامة من ذوى العضلات المفتولة يرتدون قلادات وأساور رؤساء العصابات وشيوخ القبائل حول رقابهم، ويمسكون بمراوح من جلد النسر فى أياديهم وامتلأ المشهد كذلك برجال آخرين من ذوى الأقدام الضخمة والأحذية البيضاء ورجال بعيون بارزة وبطون منتفخة، كانوا يتحركون ببطء وتثاقل لكن حركتهم كانت توحى بالرسوخ والتماسك، وكان بين الجمع أيضًا رجال عمالقة برقاب سميكة وملامح قاسية وأفخاذ قوية كألواح الخشب، احتشدوا جميعًا أمام الحانة وكانوا من ورثة الألقاب والأطيان وأصحاب الأراضى.

كان الأطفال يرتدون ثيابًا حمراء وعائلات بأكملها ترتدى أقمشة حريرية متناسقة الألوان، وثمة رجل عجوز يحمل ببغاء وبعض المعالجين بالأعشاب ورجال الشعائر والفرق والطوائف الدينية، ورجل قصير يرتدى قبعة بيضاء ويقود قافلة من الماعز لاستخدامها فى القرابين والأضحيات،

شاهدتهم على هيئة حيوانات غريبة الشكل وبدوا لـي كالظباء الإفريقية الصغيرة ذات العيون الثاقبة، دخلوا الحانة أخيرًا فضاقت بهم.

سمعنا إشاعات بالخارج تقول إن الحزب يحتفل بمدام كوتو التى حققت مزيدًا من القوة والسلطة والنفوذ مثل حصولها علـى الكهربـاء، وتضـامن حزبها واتساع نفوذها فى كثير من المجالات الأخرى فأصبح ممكنًا القـول بأنهم جاءوا خصيصًا للاعتراف والتصديق على دخولها عـالم الأسـاطير، دارت أكثر الإشاعات غرابة حول ما سيحدث فى الليل عندما ننام، وكـذلك أثناء النهار عندما نكون - كعادتنا - غير مدركين للمتغيرات التى حـدثت، أنشئت أماكن جديدة لكننا لم نشاهد سوى أحداث الفتوات من حراس الحـزب وحاشيته التى تقع أمامنا على الأرض والحافلات التى تطوف فـى المدينـة التماسًا للأصوات الانتخابية وعنف النزاعات السياسية وضراوتها ، ظهرت أماكن جديدة لا نعرف اسمها ولم نستطع أن نتخيلها لكننا استطعنا فقـط أن نشير إليها بمعلومات ناقصة ونتهامس بشأنها ونطلق عليها الأمثال الغامضة، حتى صبغت الشائعات كل شىء بدلالات بالغـة ومثيـرة، تشـبع الهـواء بالشائعات والأحاديث الخرافية وتجمع خارج الحانة بائعو البنـدق والـذرة المشوية والعرّافون والذين يعملون فى إصلاح إطارات السـيارات وتجـار البيرة وراحوا يتطلعون إلى الداخل من مسافة بعيدة ويمارسـون تجـارتهم وأعمالهم، بينما كان ضجيج السكارى وضحكاتهم وطقوسهم الخرقاء تنطلـق من داخل الحانة.

نزل عمال الكهرباء والنجارون والميكـانيكيون وأصـحاب الحـرف اليدوية المختلفة من فوق ظهر الشاحنة، وأصابتنا الدهشـة حـين وصـلوا الأسلاك الفضية من عامود الكهرباء إلى حانة مدام كوتو، وبدا أيضًا أنهـم يوصلون الأسلاك من السقف إلى واجهة الحانة حيث مكان اللافتة، أعـادوا ترتيب الأسلاك وأضيئت المصابيح الزجاجية المنتفخة ذات الألوان الكثيرة،

فأصبح الليل متلألئًا بالأضواء، أحضر صاحب المقاعد ستة وخمسين مقعدًا، وأصاب الذهول نظراتنا المحدّقة حين نصب العمال خيمة كبيرة من القماش المشمع ذات لون أحمر وأصفر، وكانت النسوة المتشحات بالعرق يجلسن حول مواقد النار حيث كان الزيت المغلى يطقطق متخللاً لحم الماعز ولحم الخروف والبقر والظباء، دخلت الحانة كميات كبيرة من البيرة المعبأة في صناديق تحمل أسماءً جديدة لأشهر مصانع البيرة، ثم فهمنا – للمرة الأولى– معنى الموسيقى الشعبية الشهيرة وطبول الفن الشيطانية وألحان الأبواق المتوهجة ونغمات المزمار الغامضة ومقطوعات الساكسافون ذات الصوت الجهير وأصوات الموسيقيين الرخيمة والحادة في آن واحد، ارتعش الهواء واهتزت الأرض من دقات النواقيس والأجراس وكانت أقدام المتفرجين في الخارج تنتفض من الاشتياق، كنا نشاهد ظلال الراقصين المنعكسة فوق قماش الخيمة، ساعد ضوء المصابيح الأزرق والأصفر والبرتقالي ونور مصابيح الفلورسنت الأبيض المشع المعلقة فوق الأعمدة في اجتذاب الذباب الصغير والفراشات إلى وسط الرقصات المسعورة، فظلت أجنحتها تضرب في الهواء بإيقاعات عنيفة.

لم يكن لدى سكان المنطقة المحيطة بالحانة أمل في حضور الحفل، لكنهم ارتدوا أحسن مالديهم من ملابس وتجمعوا حول الخيمة أملاً في إلقاء نظرة خاطفة على ذلك الاحتفال العاصف، كنا ننظر جميعًا ونتهامس في الظلام عن الحمل الغريب لمدام كوتو وبطنها الكبير، وقالوا إن موعد ولادتها قد أوشك وأحاط بعض الناس ذلك الأمر بالغموض، تجمع المتسولون أيضًا خارج الخيمة بالقرب منا، وسال لعابنا من رائحة لحم الماعز اللذيذة ولحم الظباء والكعك ولسان الحمل المشوى ومختلف أنواع الطعام المطهو على نار هادئة ثم رحنا نلعن – بمرارة كبيرة – ذلك الفقر الذى يلاحقنا للأبد.

وفى غمرة كل تلك الأحداث كان أبى يحاول أن يرغم المتسولين على العمل لكنهم فقدوا الاهتمام بمشاريعه ومخططاته؛ فبدأ أبى يصيح فى الطريق

وشعر بخيبة أمل كبيرة وحزن عميق جعلانى أتعاطف معه بسرعة، انفـضَّ المتسولون جميعًا من حوله ولم يهتموا بتعليماته، باستثناء الفتاة المتسولة التى ظلت تتبعه وهى تساعد أباها على السير مستندًا إلى عكازه.

صاح أبى قائلاً : "تستطيع أن نغير العالم".

ضحك الناس وسخروا منه فصاح أبى مرة أخرى وقال: "ليست لـدينا الرغبة فى تغيير الأشياء ولذلك فإن طريقنا جائعة".

قال واحد من الرجال الجالسين خارج الخيمة وأحـد سـكان الظـلام الخارجى: "النمر الأسود أصبح مجنونًا".

استدار أبى وضرب الرجل لكن سكان الحى غضـبوا مـن سـلوكه الغريب؛ فقفزوا فوقه وصرخت الفتاة المتسولة ثم ألقت بالحجارة فوق جسده وأصابته فى وجهه، كان السكان غاضبين من عدم قدرتهم على المشاركة فى ذلك الحفل الصاخب فهجموا على المتسولين الذين بادلوهم الهجوم ثم انشغلوا عن ذلك وهرعوا إلى داخل الخيمة، لكن الحراس ألقوا بهم خارج الخيمة بعد أن جلدوهم بالسياط وانطلقوا بعد ذلك ناحيتنا، وراحوا يضربون فـى كـل الاتجاهات دون تمييز بين السكان والمتسولين وكأننا جميعًا ننتمى إلى جماعة واحدة، ضربوا النساء والأطفال بغضب وهبَّت الرياح علينا جميعًا فصرخنا ولذنا بالفرار وتبعثرنا فى حالة من الارتباك وأصبح الهواء مشبعًا باحتقارهم لنا؛ لأنهم يتمتعون بحمى السلطة والنفوذ ويملكون زمام الحكـم ويشـعرون بقوتهم، أما نحن الذين نجلس فى الظلام الخـارجى فـإن وجوهنـا جميعًـا متشابهة وكأنها وجه واحد كما أننا نعمل على تعكير صفو الحفل.

خرجت مدام كوتو وصرخت حين شاهدت حالة الاضطراب والفوضى السائدة فقام حراسها والقائمون على حمايتها بالتهدئة فى الحال، كانت مـدام كوتو متألقة بملابسها المطرزة بالأشرطة الذهبية وغطاء رأسها المـزركش

بالريش، وكانت تحمل عصا جديدة للسير ذات رأس معدنية على شكل أسد، لكن قدمها كان متورمًا وصارت بطنها أكثر انتفاخًا وعلت وجهها بعض النتوءات وكان حاجباها يبرقان بالضوء، بدت مدام كوتو متألقة ورائعة، وكان مجرد حضورها الأسطورى هو الذى جعلنا نلتزم الصمت فى الظلام حيث كنا مبعثرين، توسلت إلينا أن نرحل ونترك حزبها ورجال حزبها بلا مضايقات، ووعدتنا بإقامة حفل خاصة لنا تظهر من خلاله تقديرها لنا وامتنانها لمساندتها فى آرائها السياسية، طلبت من سائقها المؤقت الجديد أن يقدِّم لنا المشروبات وبقايا الطعام ثم عرجت عائدة إلى الخيمة.

هجم المتسولون ومعهم السكان على الطعام والشراب وراح الحراس يحدِّقون فينا ويسخرون منا بالأغنيات، وكشفت سخريتهم عن حالة السكر التى يعانون منها، شتمهم أبى وعاد مندفعًا إلى البيت وكانت الفتاة المتسولة تتبعه ومضيت بدورى وراءها، دخل أبى الحجرة وبقيت الفتاة بالخارج وأصبح الناس فى الحى يتهامسون ويطلقون الشائعات حولنا، لكننى لم أستطع أن أسمعهم، استدارت الفتاة ناحيتى بعينها الغريبة فلم أقدر على سماع الهمسات وسألتها: "ما اسمك؟"

قالت: "هيلين".

قلت: "هل تحبين أبى؟"

ظلت صامتة بضع لحظات وحين أبصرتنى عازمًا على التحرك قالت: "قد تكون أنت هو الشخص الذى أحبه".

لم أفهم ومضيت إلى داخل الحجرة حيث كان أبى يرتدى بدلته الفرنسية السوداء، وكانت ثلاث لصقات تزين وجهه وكان يضع عطرًا عربيًا كريه الرائحة فوق ملابسه، ارتدى حذاءه القديم ومشَّط شعره فأخبرته عن الرجل الأبيض.

سألنى بشغف: "رجل أبيض؟"

قلت: "لا".

- ماذا يريد؟ هل يريد أن يمنحنى صوته فى الانتخابات؟
- لا.

ألقى أبى بالحذاء فوق الأرض وبعد أن فرغ من ارتدائه قال: "لقد نجحت فى التأثير على مختلف أنواع الناس، ومن اليوم سأجعل بابى مفتوحًا".

- وماذا عن اللصوص؟
- لصوص؟ ماذا يستطيعون أن يسرقوا؟
- نقود أمى.
- هل معها نقود؟
- لا أعرف.
- حسنًا، نحن فى حاجة لمزيد من الأصوات وأنا ذاهب الآن إلى حفل مدام كوتو، ارتدِ أحسن ما لديك من ملابس واغسل وجهك لأنك ستكون تابعًا لى.
- وماذا عن الفتاة؟
- أية فتاة؟
- هيلين المتسولة.
- ستكون واحدة من حراسى، كل المتسولين حراسى وحاشيتى وسوف أبنى لهم جامعة.
- متى؟
- بعد أن تغسل وجهك.

ذهبت وغسلت وجهى على عجل وحين عدت كان أبى قد رحل، وكانت الفتاة المتسولة واقفة عند عتبة الباب، مضيت متزعمًا الفتاة وزملاءها المتسولين، واتجهنا إلى حفل مدام كوتو.

(٥)

كان أبى خارج الخيمة يناضل من أجل الدخول حين قال: "إننى أحد رجال السياسة".

قال أحد الحراس: "لا نريد أمثالك من السياسيين".

- ولِمَ لا؟
- ابتعد عن هنا وحتى إذا كنت سياسيًا فأنت لست مدعوًا.

أجاب أبى ساخطًا: "هل اقتحمت بوابتك؟ أنا لا أملك سيارة".

- ابتعد عن هنا وفقط.

بدأ أبى يصيح بالشتائم وكان سببًا فى حدوث ضجة كبيرة، فخرج الحراس واستدعوا الفتوات الذين جاءوا بسرعة وحملوا أبى بعيدًا عن الخيمة، ثم ألقوا به بالقرب من الغابة لكنه عاد مندفعًا وقد تلطّخت سترته بالطين، واكتسى شعره بالأوراق الجافة الذابلة ولم يعد اللاصق مثبتًا فوق وجهه، مضى نحو أحد الحراس وسدَّد إليه ضربة قوية وقال: "إذا كنت لا تحترم سوى أصحاب الدعوات فإننى سأدخل الآن".

انقضَّ عليه الفتوات فألقى بأحدهم فوق مقدمة السيارة وضرب آخر بقبضة يده القوية فأطاح به بعيدًا وكان كل جسده يرتعد من القوة، وانطلقت من عينيه شرارات مضيئة ممتزجة بالجنون وحين صرخ أحدهم خرجت مدام كوتو وشاهدت ما يحدث فطلبت من الفتوات أن يتوقفوا عن القتال، ثم سألت أبى بأدب شديد أن يدخل ويشارك فى الحفل، حاولت أن أتبعه وتبعتنى الفتاة المتسولة لكننى قابلت العجوز الأعمى عند الباب، وكان يحمل آلة الهارمونيكا بدلاً من الأكورديون، ويرتدى نظارة صفراء وقبعة حمراء، وقال لى: "ماذا تريد؟"

- أريد أن أدخل.
- لا يمكنك الدخول.
- ولِمَ لا؟
- أنت طفل مزعج ومشاكس، أرنى أصدقاءك وسوف أقضى عليهم جميعًا.

اندفعت مرورًا بمقعده المتحرك ودخلت الخيمة فاكتشفت أن عدد الحاضرين أقل كثيرًا مما بدا لنا من خارج الخيمة، أو ربما هو عدد كبير بالفعل لكنهم مختبئون بمكان ما خلف الأحداث، كانت الآلات الموسيقية تدوّى بألحان صاخبة وشاهدت عمالقة وأقزامًا ورجلاً أبيض بأهداب فضية يرقص مع امرأة ذات أثداء كبيرة بارزة جعلت وجهه يلتهب بالرغبة، كانت الفاكهة واللحوم المشوية متراكمة فوق الموائد الطويلة، وكذلك الأرز وأطباق الخضار الكبيرة ذات الرائحة المثيرة وسكاكين المائدة البلاستيكية، كانت الأضواء تثيرنى كلما نظرت إلى أى مكان وفجأة أصبحت الفضاءات المزدحمة فارغة، فرأيت - عبر الفراغ - أطيافًا لرجال بيض يرتدون الخوذات ويديرون عمليات الحفر؛ باستخدام آلات خيالية بحثًا عن الأحجار الكريمة فى الأرض المليئة بالثروات، شاهدت أطياف بعض الشباب من الرجال والنساء ورءوسًا منحنية ورقابًا مربوطة إلى كاحل القدم بسلاسل، ظلوا يتحركون معلنين عن وجودهم الهادئ لكن دون أن يبتعدوا عن نفس المكان، وإلى جوارهم كان رجال السياسة والرؤساء بملابسهم الفاخرة ومراوحهم يرقصون على أنغام إحدى المقطوعات الموسيقية التى تتغنى بالاستقلال، وكذلك فعلت النساء بأحذيتهن الحمراء وأشرطتهن المزركشة الملفوفة حول الخصر والحراس المأجورون والمداحون تصببوا جميعًا بالعرق لكنهم كانوا مبتسمين وكانت مدام كوتو تسير بينهم متألمة حيث لم تعد قدمها المتورمة قادرة على حملها ومالت رأسها فى اتجاه واحد وبدت كأنها تعانى من الحزن والغم، رغم أن وجهها كان متلألئًا برغد العيش، ومن

الغريب أنها بدت أكثر جمالاً ببطنها الكبيرة، وكانت تعبيرات مـن الازدراء العميق مرتسمة فوق شفتيها بطريقة لا إرادية، سارت وسط الموكب المثيـر للانتباه بصفتها المنسق لتلك الأحداث الخيالية، وبدأت تعطـس بقـوة حتـى اهتزت رقبتها فجاءت النساء التابعات لها واصطحبنها إلى مكان منعزل فـى الحانة.

ظل أبى يتنقل من مكان لآخر مواصلاً الحديث فى الشئون السياسـية، وبدا بائسًا فى بدلته الفرنسية السوداء، كانوا ينظرون إليه بسخرية كلما تحدث إلى أى شخص، ويضعون المناديل فوق أنوفهم ولم توافـق النسـوة علـى الرقص معه، وعندئذ توقف أبى عند أحد الأركان وهو يقضم قطعة من لحم الماعز ويتطلع حواليه بارتباك، تجولت بـين أقفـاص الببغـاوات الكبيـرة وشاهدت دجاجًا عاريًا من الريش ينتفض فى الأطباق، وفوجئت بظبى صغير مربوط إلى أحد الأعمدة، ظل الظبى يحدِّق فى وكانت عيناه كبيـرتين ذات ألوان مختلفة ورائحته نفاذة ولحيته الطويلة تصل إلى أفخاذه وهـو واقـف بهدوء وسط حرارة الخيمة التى تموج بالرقص، رأيت رجالاً يرقصون مـع مجموعات من رجال السياسة، وتشبع الهواء بـالعرق والغرائـز الجنسـية وانطلقت موجات ساخنة ومثيرة من مؤخرات الراقصات، وعند أحد أركـان الحفل كان ثمة قرد مربوط بسلسلة يقضم باروكات العاهرات، وكـان أحـد الساسة يتأمل الأرداف المرتعشة المثيرة لإحدى النساء عندما خطف القـرد قطعة من الحمل المشوى من يده ثم اختفى، نظر الرجل حواليه والتقط قطعة أخرى من اللحم المشوى وراح يستأنف تأملاته، وبعد لحظات معدودة حدث نفس الشىء حيث خرج الرجل بصحبة المرأة، لاحظت أن أياد كثيرة تتحرك تحت الموائد وارتفع صوت الموسيقى، قدَّم لى شخص ما شيئًا لأشربه وكان شرابًا قويًا سارعت باحتسائه فى جرعة واحدة، وتبعته بالمزيد مـن نفـس الشراب فارتعشت الأرض وسط الموسيقى الصاخبة والرقصـات المجنونـة وترنحت المصابيح متعددة الألوان أمام عينى، وكانت الأيادى ذات الأصابع

الثلاثة والأقدام ذات الأصابع المنفرجة تتحرك تحت الطاولات دون أن تلمس الأرض، وبدأت تظهر فى الهواء كميات كبيرة من الطعام لا يحملها أحد ثـم اختفى الطعام تحت الطاولات، توقفت الموسيقى فتقدَّم أحـد الأقـزام نحـو المنصة وبدأ يغنى أغنيات تمدح حزب الأغنياء وتمجده الخالد، ثم شرع فـى ابتلاع بعض العملات النقدية وأخرجها من أذنيه، كان العجوز الأعمى يعزف على الهارمونيكا، وثمة سائل أخضر كان يتقاطر من عينيه، وصفق النـاس وابتهجوا وظلوا يلوحون بالكئوس فى صحة الحزب ونفوذه الدائم وفى صحة مدام كوتو، سمعنا صوت الموسيقى من جديد فبدأ العجوز الأعمى يترنح عبر المكان وهو مخمور تمامًا بمساعدة امـرأة ترتـدى دثـارًا أزرق وقميصًـا فضفاضًا متناسق الألوان، تحرك العجوز بين الناس ووقف بثبات وقال: "آه، الحزب".

ضحك وهو يترنح بين النساء وراح يحرّك أصابعه من داخـل يديـه النحيلتين بحثًا عن أثدائهن لكن النساء انتبهن له جيدًا وابتعدن عنه، وقادتـه إحداهن إلى مقعده حيث ظل يرقص كالحيوان المقلوب على ظهره ولم تنقطع النسوة عن تقديم الشراب له، شرب كثيرًا وبدا شاحبًا ومثارًا للسخرية وهـو يردد بين الحين والآخر: "آه، سيدات الليل".

صاحت الببغاوات بصوت عال من داخل أقفاصـها ونظـر الظبـى ناحيتى؛ فرحت أتطلع إلى عينيه الأخاذتين ذات الألوان المثيرة فشعرت بأننى غارق فيهما وأننى قلق، وملأنى توق كبير واشتياق لشىء ما وبعد انقضـاء تلك اللحظة شعرت بالمرارة فى حلقى وأصابنى الدوار، ثم وجدت نفسى فى غابة صفراء مكبلاً بخيوط العنكبوت البراقة ذات اللون الزمـردى، سـقطت النجوم من السماء فأغرقت أرض الغابة وأحدثت حفرًا عميقة، حلمت – من خلال الأدغال الشاسعة – بالقدرات الوفيرة وأحاطتنى الرياح الحرة والروح المحلقة التى حطمت كل مظاهر الليل، وبينما كنت مكبلاً رأيت أطيافًا مـن

أسلافنا الرجال والنساء تحولت النجوم من أجلهم إلى كلمات وآلهة، وتغيـر العالم وانقلبت السماء والأرض إلى لغة سريعة مـن الأحـلام والتكهنـات، عبرت أحجار التحول الضخمة فى الليل العميق عندما كانت كائنات الـزمن القديم مجرد مخلوقات، وقبل أن تتحـول إلـى كـلاب للصـيد، ومـررت بمجموعات من بيوت الأرواح، كنت رسولاً للريح وانطلقت الأرواح معـى وهى تسخر من سرعتى وغرابة كلماتى المليئة بالألغـاز، نظـرت الأرواح بعمق إلى عينى، ففهمت وجريت عبر الغابات المظلمة حيث كل الأطيـاف والأشكال كانت متغيرة وحيث استبدلت كل الأشياء هويتها، وكان كل شـىء يرقص بابتهاج ممتزج بالتوهج والحكمة، جريت حتى وصلت إلى المحـيط الأطلسى وعندئذ اصطبغ ظلام الليل باللون الفضى والأزرق وحلقت الطيور فى السماء الزبرجدية، وكان الريش متجمعًا فوق الأمواج والسـماء مليئـة بالسحب الكثيفة البيضاء، كانت السحب تتحرك فوق هدوء السـماء الأزرق الداكن وتحت النجوم المتجددة كجيوش من الضـباب والأشـباح، توافـدت مجموعات كبيرة من سفن الأشباح بلا انقطاع وحطَّـت فـوق الشـواطىء، فشاهدت الأساطيل الصغيرة والأجزاء العليا من السفن والمراكـب والسـفن الضخمة الخيالية، وكثيرًا من القوارب المزودة بالمجاذيف التى تحمل علـى متنها رجالاً يرتدون الخوذات ويحملون المرايا والبنادق وبعض النسخ مـن الكتاب المقدس والذى لم تلمسه مياه المحيط، شاهدت فى الظـلام الـدامس شاطىء السفن والقوارب ورجالاً بيضًا وأطيافًـا شـبحية مـرت جميعهـا بشواطئنا، ثم سمعت الأرض وهى تصرخ وشعرت بالفزع، ومـن خـلال أعماق عينى الظبى ووسط الغابات الصفراء ومرورًا بالأجيـال المخدوعـة وعبر الزمن كنت شاهدًا على تدمير الأضرحة المقدسة العظيمة وعلى موت الأشجار العملاقة التى احتضنت بين أغصـانها مجموعـات كبيـرة مـن المتمردين، وضمت بين أوراقها القديمة كثيرًا من الذكريات المؤلمة والكتب المقدسة وأسرار السحالى والأعشاب الفعَّالة القوية، أبصرت الغابات وهـى

تموت وتتلاشى والناس وهم ينقرضون، وكنت شاهدًا على طرقاتهم وممراتهم المتلاشية وعلى أسلوب حياتهم وكل فلسفاتهم، انتزعوا أحجارهم الكريمة وصخورهم ذات القوة الذرية من أعماق ذكريات الأسلاف، ورأيت الأشجار وهى تتراجع وتصرخ فى أعماق الأرض الجافة وسمعت الأرواح الضخمة للأرض والغابة وهى تتحدث عن المنفى المؤقت، رحلت الأرواح إلى أغوار الفضاءات السرية ونسجت حول مساكنها السرية نوبات من الجنون؛ كى تمنع بنى البشر فى أى وقت من محاولة الوقوف ضد تراجعهم وانسحابهم أمام أقدام الغزاة، شاهدت بيوتًا جديدة وجسورًا جديدة معلقة فى الهواء؛ أما الجسور القديمة التى كان يستخدمها الناس والأرواح فى السفر والترحال فقد بقت سليمة لكنها لم تعد مأهولة، أصبحت حرية الفضاء والأمكنة أكثر رحابة فى العصر الحديث لكننى فقدت شيئًا ما بداخلى، هربت إلى أعماق الأرض المليئة بالصخور ذات الكهوف الملحية، وتبعنى الصيادون بمعدات الموت الجديدة وعندما استطاع البشر والحيوانات أن يفهم كلاهما الآخر أصبحنا أحرارًا، لكن الصيادين راحوا يتعقبوننى داخل عينى الظبى، وحين هربت إلى غابة الرعد ذات البوابات الخفية المغلقة بسبع تعويذات سحرية شعرت بضربة فوق رأسى وثمة نجم متوهج جعلنى أدور حول نفسى، واجتاحتنى الضحكات وسط عالم من الفراغ الفضى، فتحت عينى ووجدت أن امرأة من الأقزام تضعنى فوق حجرها وتهدهدنى، كانت عيناها كبيرتين وحزينتين، حاولت أن أنهض وأتحرر من التشوش والارتباك الذى اقتحم رأسى لكنها أمسكت بى بقوة، وكانت ثمانى عشرة عينا تنظر نحوى وفيما وراء تلك العيون شاهدت الظبى وهو يحدّق فىّ بلا انقطاع، كان الظبى المخدَّر بعبوديته يحملق فىَّ كأن حريتى تتوقف على إنقاذه من الموت الوشيك، ومن التضحية به لأجل افتتاح طريق مدام كوتو القدرى.

(٦)

قالت المرأة القزم لى: "أوه، ها أنت قد استيقظت يا صديقى".

كانت ترتدى فستانًا مزركشًا مزينًا بالترتر الزائف وعرفت أننى رأيتها من قبل، وكانت الابتسامة المرتسمة بوضوح فوق وجهها توحى بـــالجنون، وعندما نظرت إلى أعماق عينيها الشبيهتين بالقمر اهتزت كل مكونات رأسى الداخلية، وعند أحد الأركان استوقفتنى عينـــا الظبـــى المليئتـــان بـــالخوف والغضب.

قالت المرأة القزم بعد أن تفجَّر وجههـــا بابتســـامة غريبـــة ومفعمـــة بالحيوية: "سألتك أن ترقص معى لكنك لم توافق".

أمسكت بكلتا يدى ووضعتهما فوق ثدييها الكبيرين المتفجرين بالرغبة، واللذين كانا ينبضان ويرتجفان بقوة كأنهما قلبان كبيران، ارتعشت وتراجعت الابتسامة من فوق وجهها ونظرت لى برقة ممتزجة بـــالخوف والاشـــتياق، فتصبب العرق غزيرًا من وجهى وكل أجزاء جسدى، سحبتنى إلـــى حلبـــة الرقص وجذبتنى – وسط ضحكات بقية المحتفلين المثيرة للارتباك والذهول – إلى إيقاعات الموسيقى المدوية، وضمتنى بقوة إلـــى صـــدرها وجســـدها الناعم، فشعرت برغبة جنسية غريبة وقبل أن تسحقنى تلك الرغبة وجـــدت نفسى أدور فى دوامة وسط أقدام الكبار الراسخة، لكنها ساعدتنى فى الوقوف أمامها وألقت بنفسها بين أحضانى وراحت تهز أثداءها فى وجهى وتعـــانق مؤخرتى الصغيرة بيديها وتلتصق بى حتى أصابنى الدوار، وأثارت رقصتها المتقدة مشاعرى ورغباتى، واصلت الرقص معى بنفس الطريقـــة المثيـــرة فتملكتنى رغبات عارمة غريبة وعندئذ عادت إليها ابتسامتها ثم ضمتنى إليها بقوة حتى تفجَّر الدم من أذنى واخترقت الأضواء الحمراء عقلـــى، وعنـــدما

تماسكت. قليلاً اخترقت كل أحاسيسى أنواع مختلفة وكثيرة من روائح العطور المثيرة للرغبات الجنسية المسعورة التى تتسم بها دائمًا مثـل تلـك الليـالى الساخنة المحظورة، ووسط حرارة الرقصات الملتهبة وبين أولئك الراقصين المشتعلين بالرغبات الجنسية، شاهدت الساسة والزعماء وكبار التجار ورجال الدين بمختلف طوائفهم والمأجورين والفتوات والعاهرات وهم يتمايلون على أنغام الموسيقى الجديدة، وقد تسلل بينهم بعض غرباء العالم مـن الأحيـاء، رأيت أن للعاهرات أقدامًا كأقدام الماعز، وكانت لبعض النساء الأخريات من اللواتى لهن رأس أسد وجسم شاه وذنب حية ويتمتعن بالغواية أقدام كأقـدام الحيات والطيور، أما بعض الساسة وكبار التجار والزعماء والأبرياء الـذين كانوا منغمسين فى العربدة والملذات فكانت لهم حوافر متشققة كحوافر الثور، وكانت حوافرهم وأقدامهم النحيلة مغطاة ببشرة ناعمة مـن الجلـد وكـانوا يرقصون بكامل ملابسهم بوصفه رجالاً ونساءً، لكنهم فـى الحقيقـة كـانوا كالموتى والأرواح والحيوانات المتنكرة الذين يرقصون بعض الوقت علـى أنغام موسيقى القوة المسيطرة وبدا أن كل شىء حولى قد تبدَّل ومنح نفسـه شكله الخاص، صرخت فضمتنى المرأة القزم إليها واتجهت كـل الأنظـار ناحيتى وراحوا يتفحصوننى بينما كنت دائخًا، وكان وجـودى المتفسـخ لا يرقص مع المرأة القزم وإنما مع الروح ذات الرؤوس الأربع التـى كانـت تنتظر فرصتها الملائمة، انتهزت الروح فرصة وقوعى فـى حـب الحيـاة واختارت أفضل لحظة للرقص معى، فراحت تدور وتتلَـوى حـولى فـى حركات دائرية فى ذلك المكان الغريب وجعلتنى أرقص بطريقتى خارج عالم الأحياء، تحولَت الإضاءة إلى اللون البنفسجى؛ فأصبحت غير قـادر علـى التحكم فى رقصاتى وعندئذ وجدت نفسى فـى أرض صـحراوية متراميـة الأطراف؛ حيث تحولت كل الصور الباهتة والزائفة إلى أشياء حقيقية وحيث امتزج الهواء بالرمال وغطى وجوه الوحوش الزجاجية الخرافية، ثم رقصت معى الروح ذات الرؤوس الأربع وسط رياح تلك الصحراء التـى حجبـت

صورة سيد الأرواح وقائدهم والكائنات القوية التى استعانت بالرمال العاصفة فى إخفاء عريها من خلال الرمال المخططة فوق ديدان الصحراء الكبيـرة، ومن خلال مدن السراب والتى تخفى فيها أشباح الهواء البراقة المدن المليئة بالأسواق الشرقية والدكاكين وأوكار الهلوسة، رقصت الروح معى فى تلـك المدن السرابية حيث النساء الطويلات لهن أثداء من الزجاج وحيـث تتمتـع النساء الجميلات بأذيال متلألئة كأذيال القطط، تحولَت الأطياف الغامضة فوق الآبار وإلى جوار الواحة إلى فضة داخل المياه، وتسربت إلى شوارع وأحياء النخبة حيث يتوق الناس إلى الحب وإلى ما وراء أزقة العبيد؛ حيـث كتبـت الآلاف من الأرواح أسماءها فوق الجدران بالدماء وعبر ضـواحى الجنـود المخدرين ومحميات مدن العبيد حتى وصلت إلى داخل الحضارة المنسـية، حيث جاء فيثاغورث ليتعلم الرياضيات داخل بسـاتين الآلهـة الصـحراوية المقدسة وبيوت الرسل والأنبيـاء الفارغـة، وأراض صـحراوية متراميـة الأطراف كانت فى الواقع مأهولة بقبائل من المغامرين والأعـداء، قـادتنى الروح ذات الرؤوس الأربع – من خلال كل ذلك – إلى رقصـة المـوت، شاهدت أبا الهول بوجهه الأسود الأصيل وغمرتنـى العواصـف الرمليـة والزوابع وتفجرت الرمال فرأيت أشجارًا وهمية ونباتات ومروج أزهار ذات كئوس جميلة وكل الأشباح النباتية، اندفعت إلى ثقوب الكوكـب المحترقـة فشعرت بالحرارة الشديدة واحترقت رأسى وامتلأت عينى بالرمال المتبخرة، صرخت لكن صرخاتى تلاشت أمام موسيقى آلهة الصحراء وظللت أناضـل من أجل الهرب، قاومت ورفست وعندما اقتربنا من مركز الصحراء الحارق كان الزورق الشراعى الكبير ينتظر استعدادًا للرحيل، فقالت لى الروح ذات الرءوس الأربع: "سيمضى بنا هذا الزورق عبر محيطات من الرمال وسنعود إلى الوطن وإلى زملائك".

انطلقت فى الأفق موسيقى جديدة ورافقتها أصوات صحراوية ناعمـة انصبت كلها فوقى وملأتنى بالكرب، ثم شعرت بألم حاد فهتفت مناديًا ملـك

عالم الأرواح العظيم، لكنه لم يستجب لنداءاتى المتكررة، صرخت من الألم وناديت على أمى بكل ما أملك من قوة، فتراءت لى من خلال سكون الحب الغريب بباروكتها البالية الممزقة وكانت ترتدى نظارة زرقاء فوق وجهها، وأساور فى ذراعيها ودثارًا مشرقًا وقميصًا فضفاضًا أبيض اللون، وقفت أمى إلى جانبى وحين انحنت لترفعنى اخترقت الصحراء عقلى وأحرقت رأسى ثم تدفق هدوء المياه الباردة فوق وجهى، وقالت أمى بصوت رقيق: "لماذا تبكى يا أزارو؟"

تحسستنى برفق فاختفت المرأة القزم وتبخرت الروح ذات الرءوس الأربع وسط غموض الرقصة، ولم أستطع رؤية العمالقة والكائنات الخرافية ولا تلك الحيوانات ذات الحوافر التى دمرت آمالنا وقضت على أحلامنا طوال جيلين متتاليين، كما لم أقدر على رؤية النساء الغريبات بأقدامهن الشبيهة بأقدام الطيور، لقد فقدت الأشكال والصور قدرتها على التحول والتغيير.

سألتنى أمى: "ماذا بك؟"

تمسكت بها فراحت تمسح دموعى من فوق وجهى وكان حلقى جافًا، وبقيت صامتًا لمدة طويلة وبين الحين والآخر كانت رياح باردة تهب من الخارج، قدمت لى أمى بعض الماء المثلج فشربته كله وطلبت المزيد ثم شعرت - بعد لحظة قصيرة - بتحسن طفيف ورحت أتطلع إلى أمى التى ابتسمت وقالت: "كنا نشاهدك وأنت ترقص يا ولدى، وكانت رقصاتك مثل رقصات جدك ثم شاهدناك وأنت تقع فهل أنت الآن على ما يرام؟"

لم أجب على سؤالها لكننى سألتها: "لماذا ترتدين هذه النظارة الزرقاء؟"

ضحكت وقالت: "سوف أخبرك فيما بعد، إنها قصة طويلة".

- أخبرينى الآن.

- يوجد كثير من الصخب، أين مدام كوتو؟
- لا أعرف.
- إذا ساعدتني في العثور عليها سوف أحكي لك القصة عندما نعود للبيت.

خرجت للبحث عن مدام كوتو وكلما سألت أحدًا أخبرني بأنه شاهدها منذ لحظات قليلة، كانت الفتاة المتسولة تجلس تحت المائدة دون أن تتوقف عن مراقبتي، وكنت على وشك أن أسألها فأشارت لي أن ألتزم الصمت، أشارت بإصبعها ورحت أتتبع الإشارة بنظرات محدّقة فشاهدت المتسولين أثناء قيامهم بعملية سرقة كبيرة، سحبوا الفاكهة واللحوم المشوية وطاسات الطعام المطهو وأطباق الأرز من فوق المائدة وقدموها إلى مجموعة من الأيادي، فاختفى الطعام من الخيمة وكانت هيلين هي التي تراقب.

قلت لها: "أترغبين في المساعدة؟"

أشارت لي بيديها فقلت: "ألا تستطيعين أن تتكلمي؟"

حدّقت في دون أن تتفوه بكلمة واحدة ثم دفعتني بعيدًا عنها لكن برفق.

(٧)

كان أحد رجال السياسة يضع النقود داخل صدر المرأة المبلل بالعرق، وهى ترقص بوحشية وبطريقة شهوانية لا حدود لها، وكان أبى منشغلاً فى نقاش ساخن مع رجل يرتدى قبعة حمراء، دفع الرجل أبى بعيدًا فتراجع أبى إلى الوراء ثم سارعت أمى بالاقتراب منه وأمسكت بقبضتيه، وراحا فى الحال يتبادلان الرقص سويًا وكانت هى المرة الأولى بالنسبة لى التى أراهما يرقصان معًا، واصلت بحثى عن مدام كوتو وكانت النسوة فى الحانة يقدمن طاسات الشراب المحلى الساخنة، حصلت على واحدة من تلك الطاسات فشربتها بسرعة شعرت بعدها بسخونة فى رأسى وأصبحت فى حاجة لبعض النبيذ لإطفاء حرارة ذلك الشراب الساخن، لكن النبيذ أصابنى برعشة فى عينى وفى طريقى للفناء الخلفى كانت أقدامى تترنح فتلقفنى الظبى بعينيه المتألقتين، لكننى دبرت أمرى ومضيت فى سيرى دون أن أتوقف عن النظر إلى تلك العينين؛ فاصطدمت بامرأة تحمل صينية من الطعام وعندئذ وقعت الأطباق فى كل مكان وتبعثر الطعام فوق الأرض، ظهر المتسولون من بين جدائل الليل وسارعوا معًا بتجميع الطعام المنسكب ثم اختفوا مرة أخرى، شتمتنى المرأة فشتمتها بدورى ثم التقطت قطعة من الحطب وراحت تتعقبنى فى الفناء، جريت وحاولت الاختباء بين أغصان الشجيرات الكثيفة وحاولت الاحتماء بمدام كوتو التى أصابها فزع مفاجىء، فوقفت وكانت عيناها لا توحيان بشىء وبدت أنها فى حالة من النشوة وربما كانت تعانى من ألم عميق، وكانت تنبعث منها رائحة عطور غريبة ومثيرة للرغبة ورائحة الضباع والريش والأشجار العتيقة.

قالت لى متسائلة: "ماذا تفعل هنا؟ اذهب إلى أبيك".

عدت للوراء وقلت: "أمى تبحث عنك".

صاحت فى وجهى وقالت: "ارحل من هنا".

تقهقرت للوراء ورحت أتسكع حول الموقد ثم اختبأت خلف الآنية الخزفية بالخارج، وبدأت فى مراقبتها فاكتشفت أنها ما زالت ساكنة، وفيما ورائى تفجر الاحتفال بالصخب واهتزت حالة الخمول والبلادة مع أنغام الموسيقى، وارتفعت الأصوات المرحة فى فراغ الليل، خرجت مدام كوتو من بين الشجيرات وتقدمت ناحيتى فاردة ذراعيها إلى أعلى بحركة مسرحية مفاجئة ثم تنهدَت، شاهدت عينى الظبى المتألقتين بالوميض الأخضر الذى أثارنى وحرّك شيئًا ما داخل رأسى، انطلقت مسرعًا من خلف الآنية الخزفية واختبأت بالقرب من الظبى وحين استدارت مدام كوتو ونظرت حول الآنية الخزفية لم تر شيئًا، والتزمت بالسكون مرة أخرى وكان ضوء القمر يعكس أشعته البراقة فوق عينيها، أمسكنى الظبى بقوة وضمنى إليه وهبَّت رياح غريبة من داخل وعيى، وتدفقت المياه حتى وصلت إلى أذنى ووجدت نفسى داخل عيون حيوان ساحر، كانت عينا الحيوان تتطلع إلى الخارج بحثًا عن لحظة قصيرة فى ذلك الواقع الذى تراه، كانت الصور والأشكال فى كل مكان، حيوانات محدودبة الظهر وجائعة وعيون طافية فوق الرياح وبيوت متناسقة كالنباتات المتلاحمة وزهور مليئة بالديدان وديدان مليئة بالزهور وحبال فضية تضىء المكان، شاهدت عندئذ أن مدام كوتو حامل فى ثلاثة أطفال غير عاديين، ويجلس اثنان منهم باستقامة وفى وضع عمودى داخل رحمها، بينما يجلس الطفل الثالث مقلوبًا، كان أحدهم بلحية قصيرة والثانى بأسنان كاملة والثالث بعيون شريرة، كانوا مزعجين ومولعين بالأذى وظلوا يشدون الحبل الذى يربطهم، كانوا أسوأ نوع من أطفال الروح ولم يكن فى نيتهم أن يولدوا أو يخرجوا للوجود، سمعت صرخة مثيرة للفزع، شىء ما أصاب ظلام وعيى الغريب، انحنت مدام كوتو فهربت بعيدًا عن الظبى

واعتدلت مدام كوتو ثم توجهت ناحيتى وقالت: "لماذا تنظر بشغف إلى بطنى؟ إن عينيك مليئتان بالحسد".

قلت: "لم أكن أنظر إلى بطنك".

ضربتنى مرة أخرى لكننى لم أتألم ثم ارتدت عقدها اللؤلؤى البرّاق وهى تلعن وتتمتم بكلمات عن الألم الذى تعانى منه فى بطنها، ذهبت إلى حجرتها وسرعان ما عادت للظهور وهى تحمل مروحة من ريش الطاووس ومضت فى طريق عودتها للحفل بخطوات وقورة.

رقصت مدام كوتو رقصة ارتجالية فراحٍ الساسة يلصقون النقود فوق جبهتها، وبدا المدّاحون يتغنون بمآثرها وتحلّقت النساء حولها وأمطرنها بالمديح والإطراء، تقدَمت أمى ناحيتهن وتبادلت معهن الحديث ثم أشارت إلى الطعام وبدا أن مدام كوتو كانت تخبر أمى عن الشخصيات المهمة الموجودة فى الحفل، بدت أمى نحيلة وجائعة بالمقارنة بمدام كوتو وكانت باروكتها مثيرة للشفقة كأنها عثرت عليها فى جانب الطريق، كما بدت - بنظارتها الزرقاء - كالمجانين وتحولت أساورها النحاسية إلى اللون الأخضر بفعل الصدأ والمياه التى تساقطت عليها من سقفنا.

كانوا جميعًا يتبادلون الحديث حين صرخ العجوز الأعمى وهو جالس فوق مقعده، لكن أحدًا لم ينتبه فى البداية فراح الرجل يرفس ويقاوم ثم نهض ومضى مترنحًا حتى وصل إلى منتصف حلبة الرقص، واستدار بجسده فى اتجاهين مختلفين ووقع على ركبتيه ثم زحف على الأرض وظل يكرر صيحاته قائلاً: "لصوص، لصوص!".

كانت مدام كوتو التى اعتادت دومًا على المجاملة، هى أول المنتبهين لحالة الهياج غير المبررة التى انتابته، لوّحت بالمروحة فوق وجهها وعرجت وسط زحام الراقصين حتى وصلت إلى العجوز الأعمى.

قال لها بصوت أجش: "أرى الطعام تحت المائدة".

- أين؟

- فى كل مكان، وأين الماعز المقلية؟

تعاملت مدام كوتو معه بلطف وحاولت مساعدته على الوقوف، لكنه رفض وقال: "لديك فئران كثيرة تحت المائدة، لقد شاهدت فأرًا كبيرًا بعين واحدة".

وقف العجوز الأعمى وراح يسوِّى وضع نظارته الصفراء وبدأ فى القفز إلى أعلى وإلى أسفل وهو يصرخ كالساحر المجنون، ثم أخرج الهارمونيكا وبدأ فى العزف لكن بعض الناس سخروا منه وهم يرقصون، وقال أحدهم: "فلترحل بموسيقاك الكريهة إلى مكان آخر".

كانت مدام كوتو فى طَريقها للخروج عندما شاهدت وميضًا من الضوء خلف العجوز الأعمى، وكانت طاسة من الشراب المحلى المسكر تطفو فوق المائدة،غيرَت طريقها وقفزت فجأة نحو الضوء فشعرت بألم فى قدمها ووقعت فوق الأرض، سارع الحرس بالالتفاف حولها وساعدوها على النهوض وعندئذ أشارت بيدها وصاحت قائلة: "أمسكوا أولئك اللصوص واجلدوهم بالسياط، فليأتوا إلى هنا ودعونى ألقنهم درسًا".

تفجر المكان بغضبها، صاحت وألقت بالأطباق والطعام فوق الأرض ثم توقفت الموسيقى وراحت تترنح فى أرجاء المكان وهى تلوِّح بذراعيها وتضرب الحرس وكل العاملين عندها بعكازها فهرع الفتوات إلى الخارج، سادت الفوضى وشاهدت مدام كوتو الفتاة المتسولة الجميلة وهى جالسة بهدوء تحت المائدة فأمرت بضرورة القبض عليها، عاد الفتوات بسرعة إلى داخل الخيمة بعد أن سحبوا معهم بعض المتسولين الذين يحملون طاسات الطعام المسروقة فى أياديهم، أمرتهم مدام كوتو بأن يحملوا الطاسات فوق رءوسهم فضحك المحتفلون، وعندئذ طلبت من الحرس - بكل ما تحمل فى

بطنها من قوة خفقان أطفال الروح وبكل الألم الذى تعانى منه فى قدمها المتورم وفى رقبتها الملفوفة - أن يضربوا المتسولين، سادت لحظات قليلة من الصمت ولم يتحرك أحد بينما كان الظبى الغريب يراقب المشهد بعينيه الهادئتين، ثم قال الحرس واحدًا بعد الآخر إنهم لن يضربوا المتسولين، انفجرت مدام كوتو بالغضب وراحت تعرج فى المكان بعكازها ذى الرأس الشبيهة برأس الأسد، وتضرب الحرس فوق ظهورهم وتصرخ فيهم بأن يضربوا المتسولين بقوة، نظر المتسولون إليها نظرات فاترة وخالية من أى عاطفة ولم يقولوا شيئًا، لكن رجلاً بلا أقدام وآخر بذراع واحدة وثالث بعين واحدة ورابع بأطراف عليلة كانوا يحدّقون فيها بعيون هادئة، كانت مدام كوتو ما تزال تترنح فى مشيتها وتحوّل ألمها إلى غضب عارم؛ فبدأت تدفع موظفيها إلى خارج الخيمة وهى تصيح فيهم بأن يتركوا الخدمة عندها وأن يعودوا إلى البالوعات القذرة التى جاءوا منها، التقطت واحدة من العاهرات إحدى العصى وهى تصرخ ثم راحت تجلد بها المتسولين وظلت تجلدهم بقسوة فوق ظهورهم وفوق جروحهم ووجوههم، كما لم تسلم أطرافهم الضعيفة من ضرباتها الشديدة، غيَّر الحرس رأيهم وفى تلك الليلة ظهرت فى حياتنا أشياء جديدة، وحين كان الفتوات يضربون المتسولين كانت ذرات من الغبار الغريب تتدفق من ملابسهم الرثة وتنتشر فى الهواء حتى لامست المصابيح الكهربائية، وعندئذ تضاعف عدد الذباب الصغير وانتشر فى كل مكان، تحوّل الغبار إلى حشرات طائرة وكبر حجم الحشرات وما هى إلا لحظات قليلة حتى امتلأت الخيمة والمصابيح بجيش من الفراشات الخضراء.

أدرك أبى ما يحدث فمضى بسرعة نحو الفتوات وانتزع منهم السياط لكنهم قفزوا عليه وطرحوه أرضًا، وفى تلك الأثناء كانت مدام كوتو لا تزال فى حالة من الكرب والضيق، أصدرت أوامرها بجلد الفتاة المتسولة أيضًا فلم تتردد إحدى العاهرات فى جلدها، لكن هيلين تحملت الجلد ولم تتحرك أو تصرخ؛ وإنما راحت تنظر إلى مدام كوتو بعينين رقيقتين وأصابت تلك الرقة

فى عينى هيلين مدام كوتو بمزيد من الجنون، توجهت أمى ناحيتها وقالت: "أخبريهم أن يتوقفوا، أنت لا تعرفين من تكون تلك الفتاة".

- إنها لصة.
- إنها ليست لصة.

رفعت مدام كوتو صوتها عاليًا وأهانت أمى واتهمتها بأنها أيضًا متسولة؛ مما أصاب أمى بسيل من الغضب والمرارة والذهول فسارعت بتمزيق الباروكة من فوق رأس مدام كوتو وألقت بها على الأرض، وسحبت النظارة الزرقاء من فوق وجهها ثم انطلقت وسط الفوضى وهى تتمتم بأبشع اللعنات، هبَّت الرياح مرة أخرى عندما استأنفوا جلد الفتاة المتسولة، لكنها كانت رياح شديدة وعاتية، كانوا يجلدون الفتاة بوحشية فانهارت الفتاة ببطء ووقعت على الأرض وراح أبي يقاوم – بغضب واهتياج – أولئك الذين يمسكون به وأطلق الظبى صوتًا غاضبًا، نزف الدم من فم الفتاة وتسلَّل إلى شفتيها وتساقطت قطرات من الدم فوق الأرض، بكيت فضربنى العجوز الأعمى الذى عاود العزف على الهارمونيكا فاختلط صوت الموسيقى مع صوت السياط، وكان يقول بين الحين والآخر: "إيه، ضربات جيدة بالسياط".

توقفت الرياح وكانت الفتاة المتسولة تزحف فوق الأرض كما يزحف الجنين فى بطن أمه، ورحت أتجول بين حشد المحتفلين المتألق وهم يستخدمون المراوح للتهوية، كانت وجوههم متأثرة بالمشهد الجديد، وحين كنت مندفعًا بينهم شاهدت للمرة الثانية حوافرهم وأقدامهم العنكبوتية الشبيهة بأقدام الماعز وبشرتهم الخشنة، زحفت باتجاه الظبى وفككت رباطه وحررته حتى لا يقدموه قربانًا، انفجر أبى بالشكوى ونهض متسلحًا بقوة جنونية وأطاح بالرجال فى الهواء، تحرَّك الظبى من الفناء قاصدًا الخيمة، هبَّت الرياح مرة أخرى فتأرجحت الخيمة على إثرها وبدأت المصابيح الكهربائية تضىء وتنطفىء، ارتبك المحتفلون وانطلقت أفواههم بصيحات الفزع، اتجه

الظبى ناحية جماعة المحتفلين المتأنقين، ووطأ أقفاص الطيور بقدميه وقلب الطاولات فتبعثر الطعام وانقلبت أوعية اللحم المقلى وأطباق الفاكهة، وانقلبت البيرة داخل قفص الببغاء وساد الهرج والصخب، صفق الببغاء بجناحيه في أرجاء الخيمة وهرب القرد بعد أن ملأ يده بالفاكهة، تحطمت مكبرات الصوت وبدأ الناس يدوسون بعضهم البعض وانتابتهم حالة من الارتباك، ثم راح الفتوات يتعقبون الظبى ويحاولون تقييده من جديد، كانت المرأة لا تزال تضرب الفتاة المتسولة وتجلدها بالسياط، فاندفع أبى بقوة ناحيتها وأزاحها بعيدًا لكن مدام كوتو ضربت أبى فوق رأسه بطرف عكازها المعدنى، أطلق العجوز الأعمى صرخة مدوية وزحف الظبى متسللاً من خلال فتحة في الخيمة إلى الخارج فهبَّت الرياح بالداخل ومالت الخيمة فى اتجاه واحد ثم أمرت مدام كوتو الجميع بالتزام الهدوء، طار الببغاء من خلال أحد ثقوب الخيمة واستدار الفتوات ناحية أبى وكانوا على وشك الانقضاض عليه حين انطلق صوت غريب وسط المحتفلين وقال بقوة: "توقفوا".

تجمَّد كل شخص فى مكانه وكأن سحرًا ما قد أصاب الجميع، ثم راحوا ببطء يحاولون معرفة صاحب ذلك الصوت القوى، هدأت حدة الرياح وساد بعض الهدوء وتوقفت معظم التحركات داخل الخيمة ثم تحرَّك الرجل الطويل ببدلته البيضاء - الذى كان ينتظر أبى - وتقدَّم بخطواته بعيدًا عن الحشد.

(٨)

قال الرجل بصوته الشبحى الرقيق: "اتركوه لى، سوف أهزم هذا النمر الأسود بسهولة ودون حتى أن تتسخ بدلتى البيضاء".

عزف العجوز الأعمى لحناً ما وقال: "آه، معركة جديدة، شيء جميل".

قبل أن نتمكن من إدراك ما يحدث كان الرجل ذو البدلة البيضاء قد سدَّد ضربة قوية إلى وجه أبى فأصابه بالدوار؛ حتى وقع فوق الطاولة وظل مغشيًا عليه لمدة تقل عن الدقيقة، لم يشاهد أحد تلك اللكمة التى أصابت أبى واستيقظ المحتفلون من المفاجأة الساحرة وراحوا يصفقون، عاود العجوز عزفه على الهارمونيكا وجرجر المتسولون أقدامهم ثم زحفوا خارج الخيمة بينما ظلت الفتاة المتسولة تزحف فوق الأرض، ألقى شخص ما بالماء فوق أبى فنهض بسرعة ونظر حواليه فى دهشة بعينين زائغتين، وقال متسائلاً بصوت عال: "أين أنا؟"

انفجر المحتفلون فى الضحك وتمايل أبى بشدة حول نفسه حتى وقع على الأرض، لكنه سرعان ما نهض مرة أخرى ومضى فى طريقه حتى وصل إلى كأس من النبيذ فالتقطه وسارع باحتسائه، وعندئذ تقدمت ناحيته فقال لى بصرامة وقسوة: "ماذا تفعل هنا؟"

- لقد ضربك الرجل ذو البدلة البيضاء.

- رجل أبيض؟

أشرت إلى الرجل وقلت: "لا، هذا الرجل".

ذرع أبى المكان جيئة وذهابًا ولم يتردد فى احتساء كل كئوس النبيذ التى صادفته، ثم هزَّ رأسه لإزالة كل ما علق بها محاولاً أن يفهم ما حدث،

وأطلق صرخة مدوية واندفع باتجاه الرجل صاحب البدلة البيضاء، لكنه قبل أن يتمكن من فعل أى شيء أصابه الرجل بضربة قوية انهار أبى على إثرها ووقع على الأرض، وظل يتلَوى كالدودة المصابة بجرح كبير، اندفعت ناحيته مرة أخرى وقلت: "دعنا نرحل من هنا ولنعد إلى البيت".

صرخ وقال: "لماذا؟"

- إن الرجل يضربك.
- أى رجل؟

فوجئت برد أبى الذى بدا كأنه فى عالم أسطورى وفى أرض خيالية، ولم يكن مدركًا لما يحدث له، انقسم وجهه إلى جرحين كبيرين بلون أرجوانى، وبدا كأنه واقع تحت تعذيب أحد السحرة الغامضين، لم أستطع رؤية عينه اليمنى، ولم أعرف أبدًا أن ثمة نوعًا من الضربات واللكمات يمكن أن يكون قاسيًا إلى هذه الدرجة ويمكن أن يتسبب فى كل هذا التشوه والعجز وفقدان الإحساس بالمكان والزمان، كانت عينا أبى دائختين وزائغتين ولم تتوقف شفتاه عن الحركة فاقتربت منه فى محاولة لسماع ما يقول.

قال بصوت ضعيف وبكلمات غير واضحة: "هذا حفل رائع".

- دعنا نرحل.
- إننى أستمتع بهذه الرقصة.
- لكنك لا ترقص.
- وماذا أفعل إذن؟
- لقد خسرت المعركة.
- معركة؟ النمر الأسود يخسر معركة؟ لا، أبدًا.

نهض وراح يشق طريقه وهو يترنح ثم وقع فوق الفتاة المتسولة وظل هكذا بعض الوقت، عزفت الموسيقى ونفض الرجل ذو البدلة البيضاء الغبار عن يديه، فانتبهت مدام كوتو فى الحال وأرسلت الوسطاء للاستفسار عنه

ومعرفة هويته، أما رؤساء الأحزاب وكبار التجار والقادة العسكريون الـذين يستأجرون الحرس والفتوات ويبحثون دائمًا عن مزيد من المحـاربين فقـد أرسلوا رجالهم للسؤال عن الجهة التى يعمل الرجل لصالحها ولمعرفة ما إذا كان بإمكانه الانضمام إليهم والعمل على خدمتهم، أحاط به الفتوات وسـألوه عن هويته وعن المكان الذّى جاء منه وقدموا له عرضًـا خاصًـا ومغريًـا للانضمام إليهم، جذب الرجل انتباه الجميع بما فيهم العاهرات اللاتى أبـدين اهتمامًا كبيرًا به، وأطلق عليه المدّاحون أسماءً من اختراعهم ووصفوه بأنـه صاحب المآثر العظيمة، نهضت الفتاة المتسولة وهى تنزف من فمها وأنفهـا ولاحظت – أثناء نهوضها – أن عينها الفاسدة كانت مفتوحة ومشوبة باللون الأصفر والأزرق، صافحت أبى فانطلقت صيحات السخرية، نهـض أبـى وأمسك برأسه وعندما أبصر الفتاة المتسولة طافت بشفتيه ابتسامة خبيثة، ثم أمسك بها واحتضنها وضغط عليها بقوة، لكن الفتاة اسـتطاعت أن تخلّـص نفسها من أحضانه الضاغطة واكتسى وجه أبى برقة العاشق المستسلم، وبدا أنه قابل للتحول فى أى لحظة إلى أغنية حـب خياليـة مشـبعة بالوجـدان والعاطفة.

سأل الفتاة المتسولة وقال: "إلى أين تذهبين يا زوجتى؟"

وقفت الفتاة وأزاحت التراب عن شعرها وكانت ملابسها ممزقة وبشرة ظهرها مهترئة، وكان شعرها مسترسلاً من فوق رأسها وكأنه شعر مستعار عاد إلى مكوناته الأصلية.

كان العجوز الأعمى يعزف على الهارمونيكا حين قال: "ساحر!"

نهض أبى فتراجعت الفتاة لكنه راح يتعقبها فصرخت قـائلاً: "دعنـا نذهب".

قال أبى وهو يترنح: "بعد أن أتزوج".

توقف ونظر حواليه ولاحظ أن الجميع ينظرون إليه وقد علت وجوههم ابتسامات مثيرة للضحك، ثم أبصر الرجل ذا البدلة البيضاء وتطلع إليه كأنه يراه للمرة الأولى، نظر إلى الفراشات الخضراء والذباب الصغير والأضواء ذات الألوان المتعددة وفوضى الطاولات المقلوبة والطعام الذى داسته الأقدام وإلى كل أرجاء الخيمة، ثم قال: "كنت أعتقد أننى أحلم".

قلت: "لا، لم تكن تحلم".

– كنت أعتقد أننى فى أرض الأشباح المقاتلة.

– إنه شبح مقاتل.

– أتعنى بأننى لم أكن أحلم؟

قلت: "لا، لقد خسرت المعركة".

قال العجوز الأعمى: "أنت مخمور".

وقال أحد الفتوات: "لقد أسرفت فى الشراب".

ارتجف أبى وتحسَّس وجهه وقال متسائلاً: "وإذن فقد كانت ضـــربات حقيقية؟"

قلت: "نعم".

– ومن الذى قام بذلك؟

– الرجل ذو البدلة البيضاء.

فجأة وبقدرته الروحية الغريبة على الوصول إلى أكثر الأماكن عمقًـــا انتابته قوة جبارة، وقال بيقظة كاملة: "اذهب بسرعة وأحضر معـــك ســـامى رجل المراهنات حتى يتسنى لنا الحصول على النقود ونستطيع بـــذلك بنـــاء مدرسة لأولئك المتسولين".

انطلقت مسرعًا إلى الخارج بصحبة آد لإحضار سامى وعندما عـــدت كان أبى قد خلع قميصه وراح يضرب الهواء بقبضتيه حتى اكتسى جسده كله

بالعرق، وبدا أنه يقظ تمامًا وبدأ يهز رأسه بانتظام ويقوم بتمارين الضغط ومختلف أنواع التدريبات المدهشة، ثم طرقع مفاصله وشدَّ عضلاته وحاول أن يكون رشيقًا وهو يواصل حركاته الخاصة، أخذ نفسًا عميقًا فانتفخ صدره وتفجَّر جسده بالقوة فأثار إعجاب الحاضرين الذين راحوا يراقبونه بازدراء، ولم يرحب به أو يناديه باسم النمر الأسود سوى جيراننا من السكان الذين استغلوا لحظة الاضطراب وغامروا باقتحام الخيمة، كان العجوز الأعمى جالسًا فوق مقعده المتحرك حاملاً الهارمونيكا فى إحدى يديه وقطعة مقلية من لحم الحمل فى يده الأخرى، وكان يطرقع بقدميه فى الهواء بين الحين والآخر وقال كالطفل المفعم بالإثارة: "معركة مهمة، شىء جميل، أين رجل المراهنات؟"

كان الرجل ذو الرداء الأبيض طويلاً وقد انحنى برأسه قليلاً وكان شكله متفردًا برأسه الصغيرة وعينيه الدقيقتين، وقف على قدم واحدة دون أن يتزحزح من مكانه وكانت عيناه تتجولان فى المكان بثبات وثقة، وكان مجرد النظر إليه مثيرًا للقلق حتى أن أحدًا لم يستطع النظر إليه مدة طويلة.

وصل سامى حاملاً الدلو وكان بصحبته جيش صغير من الحرس لحمايته، مضى فى تجواله بين الناس لجمع المراهنات التى كانت فى غير صالح أبى، أخرج أحد رجال السياسة مبلغًا كبيرًا من المال، وقال: "لقد سمعت كثيرًا عن ذلك النمر الأسود، إنه ليس سوى مهرِّج ومن الآن فصاعدًا سوف أدعوه بالفأر الأسود".

انتشرت الضحكات والقهقهات فى كل المكان حتى ترنحت أجساد المحتفلين من كثرة الضحك، وضع أحد الساسة رهانًا صغيرًا جدًا لصالح الرجل ذى الرداء الأبيض، وكان الجميع مشدودًا لمعرفة النتيجة حين كان سامى يواصل تنقلاته من مجموعة إلى أخرى ومن شخص لآخر بجسده المتصبب بالعرق وهو يدوِّن بسرعة أسماءهم وقيمة مراهناتهم، وجمع سامى

كل النقود ووضعها فى الدلو ووجد نفسه بسرعة فى حاجة لدلو آخر، أخرجت كل النساء والعاهرات والمحظيات نقودهن وكذلك فعل المتفرجون القادمون من الخارج فطلب سامى مزيدًا من الحماية حتى أصبح هو ومن معه محاطين بحاملى الهراوات والبنادق الدنماركية، انتهى من عد النقود وأصبح غارقًا فى العرق وخاف كثيرًا من احتمال الخسارة والإفلاس والفقر الكامل والتشرد؛ فمضى مباشرة ناحية أبى وقال وهو يتوسل بوقار ويمسح جبينه: "إذا ربحت هذه المعركة سيكون بمقدورك بناء جامعة".

قال أبى محاولاً التصحيح: "بل مدرسة للمتسولين".

قال سامى: "فلتفعل ما تحب ولكن من الضرورى أن تفوز، أتسمعنى؟ وإلا فسوف أصبح رجلاً فقيرًا وسيتضور أطفالى من الجوع وسيلحق الجنون بزوجتى، لقد وضعت كل نقودى وكل النقود التى استدنتها فى هذا الرهان، فلا بد أن تفوز".

دفعه أبى بعيدًا وبدأت المعركة، أحاط أبى بالرجل ذى البدلة البيضاء وهجم عليه لكن الرجل اختفى، فضحك العجوز الأعمى وراح يلوِّح بقطعة من عظام الدجاجة وقال: "ذلك ما ندعوه بالملاكمة السحرية".

ازدادت كراهيتى للعجوز الأعمى واندفع أبى نحو الرجل فاردًا ذراعيه عن آخرهما ومسدِّدًا اللكمات الوحشية التى تسببت فى إصابة الفراشات الخضراء بالدوار وفى ارتباك الذباب الصغير فقط دون أن تقترب من الرجل.

سأل أبى الرجل وقد أصابه الإحباط: "هل تريد أن تقاتلنى؟"

سدَّد الرجل إحدى اللكمات السريعة المفاجئة إلى أبى، وعندما دفعت النساء بأبى للعودة إلى حلبة المنافسة واصل الرجل تسديد اللكمات القوية لأبى، وكانت قبضاته تتحرك فى الهواء بسرعة مذهلة وبدا صامدًا وهادئًا فى

مكانه معظم الوقت، بينما كانت رأس أبى تترنح وتميل للخلف وكأن يدًا خفية كانت تشدها إلى الوراء، تحطمت قصبة أنف أبى وأصبح الأنف كله متورمًا وتدفق الدم منه بغزارة، حاول أبى ألا يتنفس فى وجود كل ذلك الدم وحين فعل شعر بحالة من التعذيب والتعب الشديدين، وبدا فجأة أن الألم قد أصابه بخوف كبير، كان الرجل يحرك كتفيه باستخفاف وازدراء، وكانت رأس أبى تواصل تأرجحها للخلف وأصبح بمقدور الرجل أن يضرب أبى وقتما يشاء ويتحدث إليه بفتور ولا مبالاة، وكان كل ذلك فوق قدرتى على الاحتمال، لم يتوقف الرجل عن تسديد الضربات إلى أنف أبى فازدادت الكدمات والجروح حتى تغير لون وجهه وتبدلَت ملامحه ولم يقدر على التحكم فى نفسه، كما تحطمت أسنانه وفقدت قدماه القدرة على الثبات، وثمة ضوء مشع وساخن كان يخترق جمجمتى مع كل ضربة كان يتلقاها أبى وحين أصبح أبى عاجزًا تمامًا خرجت وبحثت عن آد ثم سألته أن يعطينى السحلية السحرية التى صنعها أبوه.

قال آد: "إنها لا تنفع إذا كان الخصم يرتدى اللون الأبيض".

صرخت فيه ثم عدت من حيث أتيت وقلت: "ابتعد من هنا".

كان أبى مستغرقًا فى محاولة امتصاص الضربات الوحشية وظل العجوز الأعمى يضحك ويقهقه وحين تعرَّض أبى لهجوم آخر، كان العجوز الأعمى يتمتم بأصوات غريبة متنافرة ليصرف انتباه أبى وكرر ذلك عدة مرات، فاتخذ المحتفلون تلك التمتمات الغريبة المتنافرة نشيدًا لهم للتأثير على أبى ومحاولة إحباطه، قررت عندئذ أن أنتقم من العجوز الأعمى فخرجت وتوسلت إلى آد أن يأتى معى ويساعدنى، تسللنا إلى الداخل وسحبنا بهدوء مقعد العجوز المتحرك إلى خارج الخيمة، كانوا جميعًا فى حالة من الإثارة والترقب والتركيز فلم يلاحظنا أحد، وعندما أصبحنا خارج الخيمة سحبناه بسرعة أكبر وصحنا فى الناس بضرورة أن يساعدونا فى المرور متعللين

بأن العجوز الأعمى مريض، ظل يصرخ وراح يهدِّدنا ويسبنا بأفظع الشتائم، وكانت نوبة السعار والجنون التى انتابته فى تلك اللحظة هى التـــى تركـــت الناس يفسحون لنا الطريق.

صاح متذمرًا وقال: "إن السحلية تنقلنى من مكانى بالقوة".

لم يصدقه أحد وظللنا نشد ونسحب مقعده المتحرك عبر الطريق مرورًا بالطرقات حتى دخلنا إلى أعماق الغابة، وحين توقفنا سقطت نظارته من فوق وجهه فقال بصوت عال: "ماذا يحدث؟"

بدت عيناه كريهتين وبشعتين فى الظلام وكانتا تتلألآن بوميض غريب.

صرخ صرخة اهتز جسدانا على إثرها وقال: "لا أستطيع أن أرى".

كنا على وشك الرحيل حين أمسك بـــذراع آد ومنعـــه مـــن الرحيـــل فضربتُه فوق رأسه بالعصا، ترك ذراع آد لحماية رأســـه وتمـــتم بـــبعض الصرخات المنخفضة ثم أسرعت أنا وآد بالجرى من أمامه، وسمعنا بكـــاءه الصاخب يتردد عبر الغابة.

حين عدنا إلى الخيمة كانت المعركة قد تغيرت، تجاوز أبـــى متاعبـــه واكتسب قدرات جديدة قوية وكان العرق والجراح يغطيان كل جسده، وكانت رأسه مختبئة تمامًا خلف قبضتيه وكتفاه محدودبين، أصبح أبـــى كالصـــخرة وأدرك أن الأمر متعلق بالبقاء فلم يعد خائفًا من كل اللكمات الســـاحقة التـــى أصابه بها الرجل وراح يتمايل ويتهادى أمام قوة الرجل، وكان مثيرًا للدهشة أن الرجل ظل ثابتًا ولم يتصبب بالعرق، واصل أبى تحركاته حتـــى تبللـــت قدماه بالعرق، وكنت بينى وبين نفسى متأكدًا بأنه يتظاهر بالقوة فقلـــت لـــه صائحًا: "هيا أيها النمر الأسود، عليك بتلطيخ بدلته البيضـــاء وإلقائهـــا فـــى الوحل".

اتجهت كل الأنظار ناحيتى وكذلك فعل الرجل ذو الـــرداء الأبـــيض، فانتهز أبى تلك الفرصة وسارع بإمساك الرجل من ياقته ثم مزَّق المعطـــف وهو يصرخ صرخة جنونية، حاول الرجل حماية البدلة لكن أبى لم يلتزم بكل قواعد القتال المعروفة وراح يزيد من الرقعة الممزقة، أمسك بقطع المعطف الممزقة وجعل الرجل يدور حول نفسه ثم وضع قدمه فوق مؤخرة الرجـــل وشدَّ المعطف من فوق جسده، ولم يتوقف عند ذلك الحـــد بـــل راحٍ يتعقبـــه ويواصل تمزيق ملابسه، اختطف بعض القطع البيضاء الممزقة وعلَّقها على ذراعه ومزَّق القميص من تحت المعطف بكل ما يملك من إصرار ومثابرة، فأصبح الرجل عارى الصدر وكان جسده مليئًا بالشعر، ومرسوم فوق بطنـــه وشم غريب وكانت الأحجبة والتمائم تتدلى من رقبته، كان صـــدر الرجـــل غائرًا وصرة بطنه كبيرة ومحاطة بشعر كثيف شبيه بشعر حيـــوان الغابـــة، فأطلق الحاضرون صرخات ممتزجة بالدهشـــة عنـــدما شـــاهدوا منظـــره الحيوانى، بدأ الرجل فى الانكماش ثم فاجأه أبى بضربة فى رأســـه فوضـــع الرجل كلتا يديه فوق وجهه، وعندئذ أمسك أبى ببنطاله ومزقه فظهرت أقدام الرجل الطويلة النحيلة وبدت كأقدام العنكبوت وامتلأت عيناه بالفزع والخجل، تراجع الناس وهم يلهثون من الخوف، وفى نفس الوقت أرسل سامى النقـــود مع بعض حراسه إلى البيت وبدأت الفتاة المتسولة تبتهج وتهتف بالتشـــجيع، بينما انفتحت أفواه النسوة عن آخرها تعبيرًا عن الدهشة وهول المفاجأة.

نهض الرجل ساخطًا بسرواله السحرى وحاول الهجوم على أبى لكنـــه لم يستطع ثم نجح فى المرة الثانية، وسدَّد بعض اللكمات القوية إلى وجه أبى وراح كلاهما يضرب الآخر لمدة عشر دقائق متواصلة، لكن الرجل لم يسقط رغم ضربات أبى المتكررة ونجح فى إصابة أبى بجرح صغير وفى اهتزاز رأسه.

هتف آد قائلاً: "اضربه فى صدره أيها النمر الأسود".

لم يهتم أبى وعاوده الشعور بالإرهاق وراح يلهث ويترنح وأصبحت ضرباته ضعيفة، هبَّت الرياح فسدَّد الرجل ضربة وحشية اهتزت الخيمة على إثرها ثم انطفأت الأنوار فجأة وعاد كلاهما إلى وضعه الأول، لكن الرجل وقف مرتبكًا ورفع إحدى ذراعيه فى الهواء بينما طلب أبى أن يرددوا اسمه بعد أن حشد نفسه بالقوة اللازمة، ثم راح يسدِّد أقوى اللكمات المدمرة التى لم أشاهد مثلها من قبل، فطار الرجل فى الهواء حتى وقع خارج الخيمة على اليمين وتبعثرت حواليه الطاولات وأطباق اللحم المقلى، وقف أبى مترنحًا وهو يهز رأسه فى حالة من الترقب وكنا جميعًا ننتظر نهوض الرجل لكنه لم يستطع النهوض، حاولت العاهرات مساعدته على الإفاقة من غيبوبته، لكنه لم يستطع التحرك ولم يستطعن أيضًا أن يحملنه، قالت العاهرات إن شيئًا ما فى الرجل جعله ثقيلاً جدًا وظل جسده العاجز خارج الخيمة فى الظلام ولم نشاهده أبدًا بعد ذلك.

سارع سامى بالوقوف فى منتصف الحلبة وأعلن فوز أبى بالمباراة؛ فدخل سكان الحى الذين كانوا ينتظرون بالخارج وأحاطوا بأبى ورحت أنا وآد والفتاة المتسولة نتحسسه ونمسح قطرات العرق المتصبب فوق جسده، وقع أبى فوق الأرض منهارًا بعد أن غلبته نشوة النصر واستبد به التعب، حاولنا إنعاشه وتنشيطه فلم نستطع ولم يتقدم أحد لمساعدتنا.

عرف العجوز الأعمى طريقه أثناء كل تلك الأحداث وعاد من الغابة إلى الخيمة وهو يتمتم ويهذى بكلمات عن السحرة والأطفال الشياطين، جرى فى اتجاه واحد ثم فى اتجاه آخر وحاول مساعدوه الإمساك به والعمل على تهدئته، لكنه استطاع أن يتخلَّص منهم وكان غاضبًا بشدة.

حاولنا مساعدة أبى على الوقوف لكنه كان غائبًا عن الوعى؛ فطلبت هيلين من بقية المتسولين أن يأتوا لمساعدتنا وبينما كنا نحاول إنعاشه ظل العجوز الأعمى يتعقبنى فى أرجاء الخيمة ولم يستطع أحد أن يمنعه، جريت

تحت الطاولات وألقيت بعض الأشياء عليه لكنه لم يتوقف عن تعقبى بمثابرة وإصرار مثيرين للفزع، أسرعت بالعودة إلى أبى وحاولت إيقاظه غيــر أن العجوز كان يمشى بطريقة شيطانية كالسائر فى نومه فلحق بى وفرد ذراعيه أمامه ثم ابتعد عنى فجأة وأمسك آد بحركة سريعة مفاجئة كالتى يضرب بها الثعبان فريسة غير متوقعة، وصاح صيحة المنتصر وقال: "آه، ها، إنه أنت إذن، الساحر الهارب".

صرخ آد فضربت العجوز بالعصا لكن مساعديه أمطرونى بالضربات، ألقيت العظام والعصى عليهم ثم قال العجوز وهو ممسك بذراع آد بصــوت صارخ كريه: "دعنى أرى بعينيك".

حدثت أكثر الأشياء غرابة عندما أصابت آد نوبة من التشــنج، وبــدأ يتلوّى ويهتز وتقلّصت عيناه حتى لم يعد ممكنًا إلا رؤية الجزء الأبيض من عينيه، فتحنا فمه فتدلّى لسانه وراح يلهث ويصدر أصواتًا مختنقــة، حــاول الناس أن يحرروه من قبضة العجوز، وقفزت فوق ظهره فصاح قائلاً: "ابتعد عن ظهرى".

قلت له: "فلترفع قبضتك عن صديقى".

صرخ قائلاً: "أنت ثقيل جدًا أيها الطفل الروحى".

تحرّكت فوق ظهره وشعرت بعظامه وهى تدغدغنى ووضعت ذراعى حول رقبته وحاولت أن أخنقه لكنه ظلّ يقاومنى بحركات سريعة من رأســه وجسده، وحين فكرت فى خدش عينيه ضربنى وطرحنى أرضًا بقوة تعــادل قوة خمسة رجال، وقبل أن أقع على الأرض سمعت رقبته وهى تطقطق ثــم وقعت وسط الطاولات المكسورة وفوق الفاكهة والكعك وعندئذ أصــبح كــل شىء مفهومًا، وقف العجوز مترنحًا، وأصيب آد بنوبات غريبة من الصــرع وكان كثير من الناس قد رحلوا ولم تكن مدام كوتو موجودة، جمعوا مكبرات الصوت ووضعوها فى مكان بعيد وجلست العاهرات فوق المقاعد المطويــة ورحن ينظرن إلينا، التقط العجوز نظارته الصــفراء وبــدأ يعــزف علــى

الهارمونيكا ثم اصطحبه مساعدوه إلى الخارج، نهضت من فوق الأرض ورفع المتسولون وسامى وحراسه وبعض الناس من جيراننا ومعهم هيلين أبى فوق أكتافهم وحملوه إلى الخارج عبر الظلام وكأنه ملك صريع، ساعدت آد على النهوض فوقف منتفضًا وكان فمه يرتعش، لكن تلك النوبة لم تدم طويلاً وبدأ فى السير بطريقة غريبة وكأن قدميه مصنوعتان من المطاط، وفور مغادرتنا الخيمة التى لحق بها الخراب سمعنا العاهرات وهن يقذفننا بأبشع الشتائم ثم سمعت العجوز الأعمى وهو يعزف على الهارمونيكا ألحانًا متنافرة ويسير أمامنا فى الظلام، كنا فى مؤخرة الموكب الذى يحمل أبى فوق الأكتاف، وكان أبى فى مواجهة النجوم وبينما كنا نواصل سيرنا سمعنا صوت الخيمة وهى تنهار فنظرت إلى الوراء.

اشتدت الرياح وأدركت أن رجال الحزب قد أغلقوا الطريق، رحلت السيارات وتجزعت أغصان الأشجار وتلاشت موسيقى الهارمونيكا المتنافرة وسط الرياح، وسمعنا إيقاعات مخيفة من فوق الأشجار امتزجت بصوت ارتطام الرياح بالأسلاك الكهربائية، وراحت المصابيح الصفراء والزرقاء المشرقة تضىء وتنطفىء.

قال آد بصوت كصوت القطة: "شىء ما يحدث!"

توقفت الرياح لكنها هبَّت مرة أخرى فشاهدت الخيمة وهى تميل وترتفع فى الهواء، ارتفعت الخيمة وانقلبت على أحد جوانبها ثم دفعتها الرياح وقذفت بها فوق البيوت، وكان قماشها الفضفاض الخشن يصفق وهى تتدحرج مثل الموج فى الهواء حتى انتهى بها الأمر فوق السطوح، وعندئذ طرقعت السماء وانبعث الضوء من مكانين متقاربين ثم تدفقت الأمطار فسبحت الأرض فى الطين، ونبحت الكلاب وامتلأ الهواء برائحة المطاط المحترق.

انطلقت صرخة قوية وغاضبة من حانة مدام كوتو، ثم انطفأت كل الأضواء.

(٩)

أصوات كثيرة مختلفة كانت تخترق الظلام، حمل المتسولون وسامى أبى إلى البيت، وعندما دخلنا الحجرة كانت أمى قلقة ومرتبكة، وضعوا أبى فوق السرير وغطوه بملاءة بيضاء ثم رحلوا وسمعتهم وهم يترنمون عبر الشارع بألحان تتغنى بالبطولة، كان فم أبى يرتعش وثمة ندبة بيضاء كانت تعلو أحد جوانب وجهه، واختفت عيناه من كثرة الكدمات المحيطة بهما وبدت شفتاه كالزهور اليانعة وكان فى حالة من السوء لم تحدث له من قبل، فى كل معاركه السابقة، لم يتحرك وبدا أنه غير قادر على التنفس، ظلت أمى تبكى وأشعلت هيلين ثلاث شمعات إضافية، جلس سامى فوق مقعد أبى بينما افترش المتسولون الأرض وسمحت لآد أن يرقد فوق حصيرتى، جلسوا جميعًا فى صمت واستقروا فى أماكنهم فيما عدا أمى التى اندفعت خارج الحجرة، ثم عادت ببعض الماء المغلى وراحت تضع الكمادات الساخنة فوق وجه أبى كعادتها فى كل مرة وهى تتساءل: "لم يسبق لى قطُّ من قبل استخدام المياه الباردة فى تضميد جراحه، إن الكدمات والجروح التى تصيبه فى كل المعارك لا تنفع المياه الباردة فى علاجها".

هزَّت هيلين قدميه ولم يتحرك أى شخص آخر وبعد لحظة قصيرة انتهت أمى من عملها وألقت بجسدها فوق الأرض طلبًا للراحة، ثم راحت تنظر حواليها وتتفحص كل الموجودين وعندما شاهدت سامى صاحت فيه قائلة: "انهض من فوق مقعد زوجى".

قفز سامى من فوق المقعد بسرعة كأنه أصيب بلدغة ثعبان ووقف بجوار النافذة ثم اقترب منى وهمس لى قائلاً: "عليك باستدعائى عندما يكتمل شفاؤه، فالنقود كلها معى وسوف أحضر له أفضل المعالجين".

زحف سامي بعد ذلك متسسللاً خارج الحجرة كما يتسلل اللصوص، فصرخت أمي في بقية الحاضرين وقالت: "فلتلحقوا به جميعًا، هيا ارحلوا".

جرجر المتسولون أقدامهم ونهضت الفتاة المتسولة وتحسست رأسى فارتعش جسدى ثم قادت الجميع إلى خارج الحجرة.

كان آد ما زال راقدًا فوق الحصيرة وكانت عيناه زائغتين وجسده يرتعش بين الحين والآخر، وارتسمت فوق شفتيه ابتسامة ضعيفة شاحبة فيها من التعاسة أكثر مما فيها من الفرح.

انحنيت إلى جواره فقال: "سأموت يا أزارو".

- لماذا تقول ذلك؟
- لقد حان وقتى، إن أصدقائى ينادوننى.
- عن أى أصدقاء تتحدث؟
- أصدقائى فى العالم الآخر.

ساد الصمت بيننا بضع لحظات ثم سألته أمى وقالت: "ماذا تقصد؟"

أجاب: "لا شيء".

سألتنى أمى: "ماذا حدث له؟"

قلت: "لا أعرف".

قالت أمى بصوت عال: "فلينقذه الرب".

انطفأت الشموع فأغلقت أمى الباب وراحت تبحث عن أعواد الثقاب وهى تقول: "لا راحة فى هذه الحياة، لا شيء، امرأة تعانى وتشقى ولا تنعم بالراحة أو السعادة، وزوجى يشترك فى ثلاث معارك يعلم الله وحده مدى ما أصاب عقله بسببها، إن ما يحدث فى هذه الحياة فوق قدرتى على الاحتمال، سوف أشنق نفسى فى يوم ما".

قلت: "لا تفعلى ذلك يا أمى".

قالت: "اخرس".

لم أتكلم لكن بعض الأغنيات القديمة بدأت تتحـرك داخـل أعمـاقى، واخترقتنى أصوات عالم الأرواح المألوفة، كانت الأغنيات مثيرة فى نقائهـا وكانت الموسيقى المصاحبة تنطلق فى الهواء وتضيف إلى الأفق بريقًا لامعًا كذلك الذى يحدثه الضوء حين ينعكس متلألئًا فوق الماس، ارتعـش آد مـرة أخرى واهتزت الأرض فاستطعت أن أسمع طقطقة عظامه، أشـعلت أمـى شمعة وجلست فوق مقعد أبى وراحت تهز نفسها للأمـام وللخلـف دون أن تحرك عينيها ولم يكن وجهها متسامحًا، شعرت بحزن عميق وابتسم آد مرة أخرى بطريقة غريبة وغرق بعمق فى نشوة من الابتهاج السحرى الغـامر، اقتربت منه أكثر فقال: "نحن ملاحقون دائمًا بالمتاعب وقد يكون ذلك شـيئًا منصفًا وعادلاً، لقد بدأت قصتك للتو يا أزارو، أما قصتى أنا فهى على وشك الانتهاء، أريد الذهاب إلى وطنى الآخر، إن أمك على حـق فالعـالم ملـىء بالمعاناة التى لا مبرر لها".

كان فم آد يرتعش أثناء الكلام كأنه رجل عجوز فتسـلل ثعبـان إلـى عمودى الفقرى ولم أستطع التوقف عن الارتجاف، بينما كـان آد يواصـل حديثه بصوت أجش وكئيب كصوت العجوز الأعمى ويقول: "لقد حان وقـت رحيلى، لقد أرهقت رحم أمى ولم يعد بمقدورها أن تلد مزيدًا من الأطفـال، وما بين رحلة المجىء إلى هذا العالم والرحيل عنه شـاهدت المسـتقبل، إن القرآن يقول بأن لا شىء قادر على بلوغ حد الكمال".

سألته: "ماذا سوف يحدث؟"

ارتعش وعضَّ شفتيه حتى نزف الدم منهما ثم قال: "سيولد الأب مـن جديد وسيأخذك رجل بسبع رؤوس إلى مكان بعيد، لكنك ستعود وتبقى وقبل

ذلك سيعقد الأرواح ومعهم أجدادنا اجتماعًا مهمًا يناقشون فيه مستقبل العالم، سيكون واحدًا من أهم الاجتماعات التى حدثت من قبل، إن المعاناة قادمة حيث ستنتشر الحروب وتسود المجاعة، ستحدث أشياء مرعبة، أمراض جديدة وجوع وسيستولى الأغنياء على الكرة الأرضية وسيعمل الناس على تعكير صفو السماء وتلويث المياه، وباسم التاريخ سيصاب الناس بالجنون، وسوف تنفث السحب نارًا وتختفى روح الأشياء، أما الضحك فسيصبح شيئًا غريبًا".

توقف عن الحديث وقتًا طويلاً ثم أصابنى بالرعب حين استطرد قائلاً: "ستحدث بعض التغيرات وستسود الانقلابات وينتشر الجنود والقبح والجهل والحماقات فى كل مكان، لكن تحولاً كبيرًا سيحدث فى العالم، سيعرف أولئك المنغمسون فى المعاناة معنى العدالة والجمال، سيأتى التغيير المدهش من مكان بعيد وسيدرك الناس معنى النضال والأمل، سينعم الناس بالسلام، وبعد ذلك سينسون كل ما حدث ليبدأ كل شىء من جديد ويمضى الناس من الأسوأ إلى الأفضل، لا تخف، ستجد دائمًا ذلك الشىء الذى يوجب عليك أن تكافح من أجله حتى لو كان ذلك الشىء هو الجمال أو الفرح".

توقَّف مرة أخرى اشتدت بعدها الحمى وارتعش صوته وتوقفت عيناه عن الحركة، ثم أضاف قائلاً: "إن بلدنا مثل طفل الروح الذى يولد ويموت ثم يولد من جديد وتأتى وتذهب باستمرار لكنها - ذات يوم - ستتخذ قرارها بالبقاء، وستصبح قوية غير أننى لن أرى ذلك اليوم".

تغير صوته وأصبح طبيعيًا واتسمت كلماته بالرقة وهو يقول: "أرى أمامى صورة حية لسنوات عدة تقدر بألفى عام أدمنت خلالها الشراب واستمعت إلى الأشياء المبهجة وشاهدت كثيرًا من المتناقضات، لكن شيئًا لم يزدهر وينمو بداخلى إلا بعد قرون كثيرة، شاهدت واحدًا من كبار الموسيقيين عند إحدى الأراضى المجاورة للبحر منذ تسعمائة سنة وكان ذلك

الموسيقى هو أنا، رأيت قسًا وواحدًا من أولئك الذين يحكمون الناس الطيبين وكان القس هو أنا والحاكم هو أنا، أبصرت أيضًا أحد المحاربين الأشــرار والذى قتل كثيرًا من الأبرياء وكان يستمتع ويبتهج بإراقة الدماء وكنت أنـــا ذلك المحارب الشرير، وذات مرة كانوا يرجمون أحد الجنود بالحجارة فـــى مصر ثم قدموه طعامًا للتماسيح وكنت أنا ذلك الجندى".

قلت له: "أنت تهذى".

ضحك وسعل وراح يحرِّك فمه مواصلاً الحديث لكن صوته بدأ فـــى الانخفاض شيئًا فشيئًا حتى لم يعد بمقدورى سماعه، تقلَّصت أعضاؤه وأصابه التشنج وشممت عندئذ رائحة خشب محترق، وتجمَّع الدخان حـــول شـــعره فاعتقدت للحظة أن نوبة المرض التى ألَمت به قد أجهزت عليـــه، تحسَّســـت جسده فكانت جبهته باردة وعيناه مفتوحتين لكنه لم يقدر على رؤيتى، تطلَّعت حولى فشاهدت أمى نائمة فوق مقعد أبى ثم تمددت علـــى الأرض وأغلقـــت عينَى وغلبنى النوم كما يغلب الفراشات الخضـــراء وحـــين رحـــت أتتبـــع الفراشات فى أحلام أمى وجدت نفسى فى أحلامها فأصابتنى الدهشة، كانـــت أمى امرأة شابة جميلة ومفعمة بالحيوية، وثمة طائر أبيض كان واقفًا فـــوق كتفها وكانت الأساور الساحرة والتعاويذ تحيط برقبتها وكانت لؤلؤة مربوطة بحبل تحيط بكاحلها، كانت تتجول فى قرية مليئة بالخيام ذات اللـــون البنـــى الداكن وتواصل البحث عن أبى، شاهدته فوق الشجرة فسارعت بتسلقها لكن أبى قفز إلى الأرض وجرى باتجاه النهر، نزلت أمى مـــن فـــوق الشـــجرة وراحت تغنى أغنية قديمة من زمن طفولتها فى محاولة منها لاستدعاء روح أبى، ظلت تغنى لأبى وتطلب منه ألا يبتعد عنها وتوســـلت إليـــه أن يعـــود مناشدة إياه باسم الحب، اصطبغ النهر بلون أخضر مشرق ثم عانقت عذراء النهر أبى وكانت عيناها حزينتين وأثداؤها متوحشة ومثيرة ووجهها شـــبيهًا بوجه هيلين الفتاة المتسولة واصطحبته إلى أعماق النهر؛ حيث أرض الزمرد

وحيث الكئوس الفضية مليئة بالنبيذ، وكان البجع يروى حكايات تحت شجرة عملاقة من القطن الحريرى والنمر الأسود ذو العينين الشبيهتين بعينى جدى يرتدى تاج الأمير ويتجول فى ضواحى المدينة وهو يتلو أشعارًا مقتبسة من الملاحم القديمة ونصوصًا مقدسة من تلك التى استطاعت أن تغير طبيعة الأشياء، اصطحبت العذراء أبى إلى مكانها وغسلت قدميه وفى الردهة الكبيرة كانت عيون المحاربين تلاحق أبى بكل ما فيها من جسارة، ثم جاءت الظباء المطوقة بالزهور حول رقابها وجلست عند أقدام أبى، غيرت العذراء ملابس أبى وألبسته أروابًا زبرجدية غاية فى الأناقة والفخامة، وعند هذه اللحظة زأر أسد كبير من إحدى الحجرات السرية فبدأت كل التماثيل تتحرك فى الردهة واستيقظ المحاربون واستفاقوا من افتتانهم ومضوا ناحية الحجرات السرية، كانت التماثيل جميلة بوجوهها البشرية الغريبة، وكذلك الأقنعة وكانت بعض التماثيل تتسم بكثرة الثقوب الكبيرة وبعضها الآخر بأثداء مستديرة رائعة ذات حلمات مثيرة وكثير منها بأياد مثل يد أبى الهول، رقص المتنكرون فى الردهة وقدموا الهدايا لأبى ثم اقتادوه إلى الخارج حيث كانت السيارة فى انتظاره، صعد أبى إلى السيارة وكانت أمى واقفة عند ضفة النهر وعلى وشك القفز داخل السيارة حين لمستها فغضبت، وقالت: "ابتعد عن أحلامى، إننى أحاول استرجاع روح أبيك".

لم أعرف كيف أبتعد عنها حيث اشتدَّت حرارة الشمس حولنا وحلَّق الطائر من فوق كتف أمى حتى سقط فى الماء، ثم اختفت أمى وأصبح الجو خانقًا من شدة الحرارة وكاد شعر رأسى يحترق، تحولّت الأشجار إلى لهب وانطلق منها دخان أصفر مشرق وانتشرت الفراشات القادمة مع الشمس فى كل مكان وراحت تطير حول وجهى فأصابتنى بالدوار لكننى حين سعلت دخلت الفراشات إلى فمى فوقفت وشاهدت حجرتنا المعبأة بالدخان، صحت فابتسم آد ابتسامة غريبة وهو يرتجف فى نومه، ثم قفزت أمى وقالت: "انهض يا أزارو، إن الشمعة تحرق طاولتنا".

عدت إلى وعيى بسرعة وسارعت بإحضار الدلو، وصببت الماء فوق الطاولة ثم نهض آد وابتسم لى وقال: "أنا الآن على ما يرام".

مسحت أمى الطاولة بقطعة مجففة من القماش وعندما انطفأ اللهب تمامًا جلست فوق السرير وأمسكت بوجهى بين كفيها الساخنين وقالت: "ماذا كنت تفعل فى حلمى يا ولدى؟"

لم أقل شيئًا فاستطردت قائلة: "أجبنى".

قلت لها: "لم يكن حلمك وإنما كان حلم أبى".

هبَّت أمى واقفة ولم أستطع رؤية وجهها فى الظلام، وارتعش الليل من شدة حزنها وأضافت: "لقد صعد أبوك إلى السيارة وذهب إلى القرية وهناك قام جدك بمعالجة جروحه وتهدئة روحه ثم سافر إلى أوجيللى لشراء ذلك النوع من العطور القادر على التخلص من رائحة الفقر، ومن هناك ذهب إلى القمر ثم سافر بعيدًا إلى أرض الأرواح وإلى أراض أخرى كثيرة، لقد سمعت صوته وهو يصرخ فى السماء بعد أن رفضوا دخوله إلى الجنة وأرسلوه إلى ما وراء الجحيم وإلى دنيا الأرواح التى لا يتوقف فيها أجدادنا عن أسئلتهم العقيمة العصية على الفهم طوال اليوم، ثم وصل إلى بلد ملىء بالقصور والأشياء الرائعة الجميلة حيث لا يمكن رؤية الناس وحيث تتوفر الحكمة والسعادة فى كل مكان، ذهب بعد ذلك إلى محاكم القضاء الخاصة بعالم الأرواح وسمعته يصرخ ويطلب الإجابة عن تساؤلاته، ثم عاد أخيرًا واندلعت الحرب فأطلقوا عليه النار حين كان يمشى فوق الطريق التى شيدوها".

لم أعرف ماذا يمكننى أن أقول فقالت أمى: "ارقد وحاول أن تنام، هذه ليلة غريبة ولا بد من حماية روح أبيك وإلا فإنها سترحل بعيدًا".

رقدت فوق الأرض وقال آد بصوته الطبيعى: أبوك يعزف على الفلوت ألحانًا عذبة ولم أكن أعرف أنه عازف ماهر.

ساد الحجرة سكون تام وغلبنى النوم لكننى رحت أقاومه، بينما كانت أمى تعض السرير بأسنانها وتقاوم أبى وعندئذ بدأ آد يرتعش مرة أخرى وقال: "إننى أرحل ببطء".

قلت له: "فلتصمت".

سمعت شخير أمى وهى جالسة بهدوء وتراءى لى النوم على شاكلة طيور بيضاء، ثم شاهدت أمى وهى تتقاتل مع أبى فى أحلامه فى محاولة منها لتحرير جسده، وكان آد راقدًا إلى جوارى فى الليل وقد تعرض لمزيد من نوبات الارتعاش، وكانت روحه تطوف كالدوامة وتصطدم بقوى خفية فتحركت مشاعرى وطفنا معًا فى حالة الصرع المتوحشة الجارفة التى انتابته، ثم سافرنا عبر طرقات الأرواح الحمراء حتى وصلنا إلى قرية الظلام حيث تفرد الطيور أجنحتها فوق الأسلاك الكهربائية وحيث كان الكيميائيون يرتدون أزياء تنكرية، وحيث كان القس طائرًا مغردًا جميلاً وأمير القمر لقيطًا وحيث قامت حذرتنى السلحفاة عند جانب الطريق وقالت: "إن كل القصص والحكايات والأساطير وحتى الإشاعات الكبيرة لا تصل إلى حد الكمال وليس لها من نهاية محددة".

اختفت القرية مع بداية الفجر وسمعت أغنيات زملائى الروحيين وظهر لى – من خلال ومضات اللهب – الملك الأعظم لعالم الروح، وظل يتلألأ أمام عينى، تحرّك الجبل من مكانه وبدا وكأنه يلهث ويتنهد فشاهدت قطة سوداء فوق قدمى لم أتردد فى إطعامها وتقديم الكعك لها، كان آد راقدًا فى هدوء إلى جوارى وقد تغلّبت عليه حياته السابقة، وأدركت أنه لم يخبرنى بالحقيقة كاملة فانتابتنى أفكار مختلفة عنه، شاهدت قاتلاً فى روما وشاعرة فى إسبانيا وصيادًا بين شعب المكسيك وعاهرة فى السودان وكاهنة فى كينيا القديمة وقائد سفينة بيضاء بعين واحدة كان يؤمن بالله ويكتب تراتيل جميلة، وقد كرَّس حياته للقبض على العبيد واعتقالهم فى الساحل الذهبى، كما شاهدت أيضًا بطل الساموراى الشهير فى عصور اليابان السحيقة.

فى منتصف الليل وحين كانت تلك الصور ما زالت تلاحقنى انطلقت صرخة مدوية استيقظنا على إثرها، فنظرت حولى وأبصرت وجه أبى فى الظلام لكنه سرعان ما تلاشى فسألتنى أمى: "ماذا قال؟"

- لا أعرف.
- ألم تسمعه؟
- نعم.

قال آد فى الظلام: "أنا سمعته".

- ماذا قال؟
- كان يردد قائلاً: "افتحوا الباب".

اندفعت أمى من فوق السرير وارتطمت بقدمى ثم اصطدم رأسها بشىء ما، غير أنها لم تبكِ وفتحت الباب وعادت مرة أخرى إلى السرير، اكتظت الحجرة بالبعوض وفراشات الليل واستسلمنا للنوم، لكن أمى أيقظتنا وقالت لى: "لا أحد يجب أن ينام، لا بد أن نستعيد روح أبيك".

(١٠)

جلسنا فى صمت وداعبت الرياح أوراق الشجر وكان الهــواء يحمــل رائحة الغابة وعبق الحى النائم، تدفقت الرياح داخل حجرتنا محملة بالأحلام الغريبة وظلت تبحث عن الحالمين.

قلت: "دعنا نسمع حكاية من الحكايات".

انتصب آد واقفًا وكانت أطراف جسده هادئة، فأضفت قــائلاً لأمــى: "أخبرينا بحكاية نظارة الشمس الزرقاء".

- وهو كذلك.

انتظرنا حتى جلست أمى فوق مقعد أبى ثم بدأت تهز جسدها للأمــام وللخلف، شاهدت روح أبى وهى ترفرف حولها وعندما ارتعشت أمى عرفت أن روح أبى قد اخترقتها من الداخل ولم تكتف بالرفرفة حولها، أحضــرت أمى بعض شراب الأجوجورو وصلَّت ثم شربنا بعد أن سكبت قلــيلاً مــن الشراب فوق الأرض، أشعلت شمعة وأضاءت جهــاز البــاعوض وبــدا أن شخصية أبى قد تملكتها، فأشعلت سيجارة وراحت تواصل اهتزازهــا إلــى الأمام والخلف بلا انقطاع بنفس طريقة أبى، واتسم وجهها بالجدية وتغيــرَت كل ملامحها وقالت: "فى يوم من الأيام حين كنت أبيع بضاعتى وأتنقل مــن شارع لآخر كانت الشمس حارقة والسماء عارية وكنت مرهقة، وبدأت فــى رؤية الأشياء وفى البكاء والتذمر من قسوة هذا العالم وحين وصــلت إلــى إحدى الطرق الفرعية رأيت سلحفاة تزحف خارجة من بين الأشجار، عبرت السلحفاة الطريق وحين أوشكت على الإمساك بها راحت تبادلنى الحديث".

قلت متسائلاً: "ماذا قالت السلحفاة؟"

استطردت أمي: "وفي يوم آخر كنت أبيع أشيائي في المدينة وأتجول من مكان لآخر حين اقترب مني رجل أبيض يرتدي نظارة شمس زرقاء، اصطبغت عيناي باللون الأحمر من شدة الحرارة وكثرة التراب، وقال الرجل الأبيض لي: إذا أخبرتيني عن كيفية الخروج من إفريقيا سوف أهديك نظارتي".

- وماذا قلت له؟

قلت: "إن إفريقيا مليئة بالطرق المتشعبة لكن طريقًا واحدة فقط هي التي تؤدي إلى الخروج".

قال الرجل: "وما هي هذه الطريق؟"

قلت له: "أخبرني أولاً بما قالته لي السلحفاة".

اضطرب الرجل الأبيض وقال: "أنا لا أعرف عن ماذا تتحدثين!"

قلت له عندئذ بأنني لن أخبره عن الطريق الوحيدة التي تؤدي إلى خارج إفريقيا، ثم أخبرني بحكايته وقال: "أنا هنا منذ عشر سنوات وكنت طوال سبع سنوات واحدًا من الرجال المرموقين في الحكومة إلى أن جاء الاستقلال بمتاعبه ومشاكله، وها أنذا أحاول في السنوات الثلاث الأخيرة أن أغادر إفريقيا لكن كل محاولاتي تنتهي دائمًا بالفشل".

أضافت أمي قائلة: "لم يستطع العثور على طريق الخروج، وفي كل مرة كان يعد نفسه فيها للرحيل كان يعترض طريقه شيء ما ويمنعه وحتى حين صعد إلى الطائرة في يوم ما ظلت الطائرة تدور حول العالم ثم نزل منها فوجد نفسه هنا في نفس المكان".

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- أجبرته على شراء كل بضاعتي وسألته مرة أخرى عما أخبرتني به السلحفاة فتوقف وظل يفكر مدة طويلة، ثم عبرت بالقرب منا حافلة

كانت تسير ببطء ومكتوب على أحد جانبيها بعض الكلمات، قرأ الرجل الأبيض الكلمات المكتوبة بصوت عال وضحك، فقلت له إن ذلك هو ما قالته لى السلحفاة.

سألنى بدهشة وقال: "ماذا"؟

قلت: "كل الأشياء مترابطة ببعضها البعض!"

- وما الفائدة التى تعود على السلحفاة من عمل ذلك؟
- إذا لم تكن تعرف فلن تجد طريق الخروج أو أى طريق أخرى إلى الأبد.

منحنى النظارة الزرقاء وقال قبل أن يتركنى: "إن الطريق الوحيدة للخروج من إفريقيا هو الخروج من إفريقيا التى بداخلك أولاً!"

قلت متسائلاً بشغف: "ثم ماذا حدث؟"

أجابت أمى: "وفى يوم آخر كنت أبيع السمك فى السوق وجاء رجل زنجى غريب من أولئك الذين يقيمون فى ساحل أفريقيا الغربى، واشترى كل السمك وحين راح يتحسسه عادت الحياة إليه وبدأ السمك يتحرك فى الوعاء فألقيت به فوق الأرض حيث راح يتلَوى وحين بادرت بالهرب، أمسكنى الرجل من ذراعى وقال: ألا تتذكريننى؟"

كان رجلاً أسود لكنه كان مألوفًا بطريقة ما وأضاف قائلاً: "أنا الذى أعطيتك النظارة الزرقاء".

فكرت بعمق ولم أستطع أن أتذكره إلا بعد حين، إنه الرجل الأبيض، نفس الوجه ونفس الأنف وكل شىء فيه كما هو بالتمام فيما عدا أنه الآن رجل زنجى غريب، وتعلو وجهه بعض العلامات البارزة الجميلة.

قال لى: "لقد قابلتك أول مرة منذ خمسمائة عام ولقد اكتشفت الطريق".

سألته: "وأى طريق كانت؟"

أخبرنى عندئذ بالحكاية وقال: "عندما غادرت وتركتك أصابتنى حمى شديدة فى رأسى ونوبة من الغضب الشديد، قتلت بعدها خادمى الإفريقى فقبضوا على واعتقلونى داخل الزنزانة لكنهم أفرجوا عنى لأننى رجل أبيض، ورحت بعد ذلك أهيم على وجهى فى المدينة، أصيب الناس بصدمة كبيرة عند رؤيتهم لرجل مجنون من ذوى البشرة البيضاء فى إفريقيا، وكانوا يحدّقون فى أينما ذهبت، وذات يوم راح طفل إفريقى صغير يتعقّبنى فى كل مكان وأصبح صديقى الوحيد بعد أن هجرنى كل زملائى البيض وفى يوم آخر خلت رأسى من الشوائب ومضت خمسمائة عام وأصبحت الطريقة الوحيدة للخروج من إفريقيا هى أن تصبح إفريقيًا فغيَّرت من طريقة تفكيرى ومن أساليبى المختلفة وصعدت إلى الطائرة قاصدًا انجلترا حيث تزوجت وأنجبت طفلين ثم تقاعدت من الخدمة فى الحكومة، وقبل بلوغى السبعين أصابتنى أزمة قلبية ومت ودفنونى فى مقبرة الأبرشية كما يدفن أصحاب المقام الرفيع".

سألته وقد أصابنى الخوف وملأنى الرعب: "وماذا تفعل هنا إذن؟"

أجاب: مرت الأيام وولدت من جديد وأصبحت رجل أعمال، وجئت اليوم إلى السوق لشراء بعض السمك فرأيتك.

قلت: "لكنك قابلتنى منذ أسبوعين فقط!"

قال وهو يبتسم وقبل أن يغادر: "لا يمكن قياس الزمن هكذا، إن الوقت ليس كما تظنين".

أخبرتنا أمى بأن تلك كانت نهاية قصتها ثم ساد الصمت وقتًا طويلاً، لكننى كسرت حدة الصمت وقلت: "حكاية غريبة!"

قالت أمى: "حقًا، إنها حكاية غريبة".

هبَّت الرياح فقذفت بالأحلام الطائرة داخل حجرتنا وراحت أضواء الشمعة ترفرف حتى أوشكت على الانطفاء، وشعرت أننى فى مكان آخر وفى بلد آخر ثم فاجأنى آد بالقول: "انظر!"

جلبت الرياح الفجر إلى داخل حجرتنا وعند الباب كانت قطة سوداء تجلس فوق ذيلها وحين نظرنا إليها بهدوء بادلتنا نفس النظرات فقالت أمى: "ها هو العالم يبدأ للتو".

استدارت القطة وخرجت من الباب فنهضنا جميعًا ومشينا خلفها وفى الخارج كانت هيلين الفتاة المتسولة جالسة فوق عتبة الباب وهى تتحسس جراحها التى لم تندمل بعد، نظرنا إليها بارتباك فنهضت وتوجهت إلى الأمام قليلاً، لكننا لم نتتبعها وعدنا إلى الحجرة حيث كان أبى جالسًا فوق السرير كما يجلس مرضى الجذام وقبل أن يستسلم تمامًا للنوم قال: "لا تغلقوا الباب".

تحسسنا جسده لكنه لم يتحرك وبدت أمى سعيدة وظل آد يبتسم، فرحت أمى لأنها سمعت شخير أبى وابتسم آد لأنه استطاعٍ سماع وقع أقدام أبيه المتعبة وهو يواصل رحلته الطويلة كبطل قديم بحثًا عن ابنه، سمع آد خطوات أبيه وضربات قلبه الخفاقة ومضى خلفه من خلال شعوره بالمعصية والارتباك حين كانت خطواته تتجه نحو بيتنا، ابتسم آد كذلك لأن أباه تأخر فى الوصول إلى بيتنا بسبب الموكب الجنائزى الذى لم يكن موكبًا كبيرًا، كانوا بضعة من المعزين كلهن من العاهرات ما عدا مدام كوتو التى كانت ترتدى نظارة سوداء وعباءة سوداء حريرية، وكانت تفكر فى المكسب الذى يمكن أن يعود عليها من تجمع عدد كبير من الساسة أكثر مما كانت تفكر فى تلك العاهرة التى كان جسدها المحترق ممدًا فى تابوت خشبى رخيص، والتى ماتت صعقًا بالكهرباء بعد أن هبَّت الرياح بقوة واقتلعت الخيمة.

(١١)

سمعنا فى الصباح بكاءً فى الطريق استيقظنا على إثره، ثم طرق بابنا شخص ما قلت له بصوت عال: "ادخل".

كان الطارق هو والد آد وكان طويلاً جدًا ورأسه منحنية ووجهه محملاً بشقاء الليالى الطويلة الساهرة.

نهض آد فى الحال وفرك عينيه المنتفختين الحمـراوين وبـدا أكثـر شحوبًا واختفت ابتسامته المعهودة، وعندما شاهد أباه عند الباب لم يتحـرك ولم يقدِّم التحية التقليدية.

قال والد آد متسائلاً بصراحة: "كم عدد المرات التى يمكن للإنسان أن ينبعث فيها من جديد فى حياة واحدة بائسة؟"

لم تكن أمى موجودة فوق السرير، لقد غادرت قبل أن نستيقظ بعـد أن تركت لنا الطعام فوق المائدة ولم تكن السلة التى تبيع فيها بضاعتها موجودة داخل الدولاب، وكان أبى ما يزال نائمًا فى سريره وكانت قدماه الكبيرتـان ممددتين واحدة بعيدة عن الأخرى، وذراعه متدليًا من أحد جوانب السرير.

نظر والد آد حواليه نظرات مرعبة وقال مخاطبًا ابنه: "أين كنت طوال الليل؟ ولماذا لم تعد إلى البيت؟ لقد أصيبت أمك بقلق شديد حتـى أصـابها المرض".

كان والد آد ما يزال واقفًا عند الباب محاطًا بالظلام وبعد الانتهاء من مخاطبة ابنه تقدَّم بخطواته إلى داخل الحجرة، وجلس فوق السرير وعندئـذ تراجع آد حتى وقف إلى جوار النافذة، كان والد آد متصببًا بـالعرق الـذى استطعت أن أشم – من خلاله – رائحة الخيبة والإحباط والفشل والقلق الذى

أصابه طوال الليلة الفائتة الطويلة، وكانت روحه مفعمة بعبير نفَّاذ وقوى كأولئك الذين يقدِّمون القرابين ويقيمون الشعائر والطقوس ويتحدَّثون إلى أسلافهم ويحاولون الاتصال بالآلهة، كانت روحه مشحونة وثائرة وملأ الحجرة بالفزع وبدا آد الواقف عند النافذة متأثرًا بحالة أبيه المتوهجة، ولم تظهر عليه أى علامة من علامات التوبة أو الندم أو حتى التمرد وإنما وقف ثابتًا دون أن يحرِّك رأسه، واتسم وجهه بهدوء الواثق من أن أباه لم يعد يملك الجرأة الكافية على ضربه ومعاقبته حتى البكاء لكن شيئًا ما بالغ القسوة بدا لى داخل روح صديقى فهمت من خلاله السبب فى الخوف الدائم الذى يعترى دائمًا أطفال الروح، ذلك الخوف الممتزج دائمًا بالأغنيات ونسمات العالم الآخر ذات الرائحة العذبة، عالم ما وراء الموت حيث الإشراق والتألق، وحيث يعرف زملاء الروح رغبات بعضهم البعض وحيث يملكون القدرة على الوفاء بكل الرغبات، إن أطفال الروح لا يهتمون كثيرًا بما يحدث فى العالم من أشياء محدودة ولا يعترفون بالدساتير والقوانين المقيدة للحريات.

لم يكن آد راغبًا فى البقاء أكثر من ذلك ولم يشعر فى أى لحظة بالتعاطف مع هذا العالم المسيطر والمثقل بالأحزان، ومع هذه البقعة من الكرة الأرضية المليئة بالفزع، شعر آد بحب والديه وبآلامهما وعرف من خلال نظراتهما وتهديداتهما وضربهما له أن حراستهما له ووصايتهما عليه ليست إلا شيئًا مؤقتًا، أما موطنه الأعظم فى العالم الآخر فهو الشىء الدائم بالنسبة إليه.

لم أعرف قطُّ الفرق بينى وبين آد إلا فى ذلك الصباح عندما بدا أبوه فى حديثه الطويل وفى تقريع ابنه والشكوى منه مما جعل الابن يشعر بالذنب، رفع آد رأسه برشاقة وسبحت عيناه فى عالم الأرواح ثم تحرَّك من جوار النافذة بهدوء وخرج من الحجرة كالسائر فى نومه، خرج والده خلفه وهو فى حالة من الغضب الممتزج باليأس ورحت بدورى أتتبعه إلى

الخارج، كانت الدنيا فى ذلك الصباح ساكنة فأمسك والد آد بابنه عبر الشارع ورفعه عاليًا وعندئذ بدأ آد يصرخ بطريقة لا يمكن احتمالها، وكأن كل أضواء الحى المظلمة والطريق القذر المصنوع من القار وكل البيوت المهدمة والفقر الدائم قد التقت كلها عند مكان واحد فى منتصف جسده، حاول أبوه التخفيف عنه وألقى به إلى السماء ثم أمسك به مرة أخرى غير أن صرخات آد تضاعفت، لكننى عرفت أنه لم يكن يبكى من أجل حب والده له ولا بسبب إحساسه بالذنب ولا حتى بسبب مرض أمه؛ لكن لأن وقت الرحيل كان يضغط بشدة عليه ويلتف حول رقبته.

(١٢)

إن الطفل الروحى مغامر عنيد فى عالم التشوش وفى ضوء الشمس وفى أحلام الأحياء والموتى على حد سواء، الأشياء غير القابلة للولادة من جديد أو تلك التى لا تقدر على ذلك والأشياء التى لم تتوفر لها فرصة التجهيزات الكافية لتعزيز ميلادها المهم وإمداده بأسباب الحياة والأشياء التى تفتقد العزم والتصميم وتلك المكبلة بفشل الخوف من الوجود، كل تلك الأشياء يتكرر حدوثها وتعود بعد اختفاء وبينها وبين نفسها تشاطر طفل الروح صفاته وجزءًا من طبيعته، وتواصل الأشياء المجىء والذهاب حتى يحين وقتها المناسب ويبرهن التاريخ نفسه بما لا يدع مجالاً للشك على كيفية مشاركة كل تلك الأشياء لصفات طفل الروح وطبائعه.

يوجد الكثير ممن يشاركون طفل الروح صفاته لكنهم لا يعرفون، كثير من الأمم والحضارات والأفكار والاكتشافات المنقوصة والثورات والحب ومختلف أشكال الفن والتجارب والخبرات والأحداث التاريخية تشاطر طفل الروح صفاته لكنها لا تعرف، كما أن الكثير من الناس يفعل نفس الشىء ولا يعرفون أيضًا، إنهم جميعًا لا يعرفون الهدف من تكرار عودتهم وغالبًا ما يظهرون فى صورة طبيعية ويفهمون عودتهم على أنها مجرد شىء جديد، ويواجهون الموت فى كثير من الأحوال بهدوء باعتباره شيئًا مألوفًا، إنهم جميعًا يحملون الهدايا الغريبة داخل أرواحهم وكلهم مقيمون داخل أضواء القمر السرية التى بداخلهم لبعض الوقت فقط ويتوقون جميعًا للتضحية بأنفسهم بطريقة جميلة وصعبة؛ أملاً فى التغيير وطمعًا فى إشاعة الضوء فى حياتهم قبل أن يموتوا استعدادًا لبدايتهم الحقيقية حتى يتمكنوا من الصراخ فى وجه العالم، وهم ملتفحون بنشوة غريبة لقول نعم لذلك القدر ولتلك الإضاءات الساطعة.

كنت طفلاً روحيًا لكننى كنت متمردًا على الأرواح وأريد أن أحيا الحياة الأرضية بكل متناقضاتها، أما آد فكان راغبًا فى الرحيل والعودة إلى عالم الأرواح ليصبح روحًا من جديد وحرًا فى عالم الحرية الكامل، لكننى اخترت الحرية الناقصة المقيدة حتى أستطيع أن أجد أو أخلق طرقًا جديدة من رحم هذا الطريق الجائع بشدة، ولأننى لم أكن قويًا بما يكفى فقد كان العيش وسط هذه الحدود الأرضية أيسر كثيرًا بالنسبة لى من التمتع بالحرية فى تلك الأبدية.

هل كانت الحقيقة القائلة بخلود الأرواح سببًا فى رغبتى فى العيش بين البشر العاديين أم هى تناقضات الأشياء الكثيرة وتلك التغييرات الأبدية وسر الوجود الغامض حين يكون المرء على قيد الحياة؟ أم هى أسرار الوجود العصية على الفهم، أسرار الميلاد من خلال الميلاد والموت من خلال الميلاد والميلاد من خلال الموت؟ أم أنه ذلك التحدى الذى يهب المرء ميلادًا حقيقيًا وروحًا جديدة حتى تتوافر الشروط المناسبة للنجم الجديد الثابت من خلال كينونة المرء للدخول فى عالم الوجود؟ أم هو ذلك التحدى فى النمو والتعلُّم والحب وانتصار الإنسان على نفسه؟ أم أنها إمكانيات عهد جديد مع الروح؟ وهل هى الاحتمالات الكثيرة للقضاء على الظلم وعدم بقائه للأبد، أم أنها احتمالات الحب الذى لا يموت والضوء الذى لا ينطفىء أبدًا وحقيقة عدم وجود طريق حقيقية قادرة على الاكتمال أو طريق واضحة المعالم؟ أم أن الأمر كله متعلق باستحالة وجود حقيقة نهائية وأنه لا توجد أبدًا أية بدايات أو نهايات؟؟ ربما يكون الأمر كذلك فى أرض البدايات حيث كان الكثير منا طيورًا، لكن كل تلك الأسباب مجتمعة لا تبرر رغبتى فى العيش.

كل الأشياء ممكنة وقابلة للتفسير بطريقة أو بأخرى، لكن كثيرًا من الألغاز التى تحيط بنا لم يزل الأحياء والموتى عاجزين عن فك شفراتها ومعرفة أسرارها.

القسم الثالث

الكتاب الثامن

(١)

أثناء الأيام الثلاثة التى قضاها أبى فى استرداد صحته شهد الطريق أول موجة من الكوابيس، وكانت العاهرة التى صعقتها الكهرباء فى ليلة بلوغ مدام كوتو ذروة نفوذها هى السبب الأول فى القلق الذى ساد الطريق، حيث أقاموا لها مأتمًا صغيرًا وحملوا نعشها عبر الطريق وسمعنا فى الليل بكاء بعض العاهرات وعويلهن.

سقطت الأمطار فى اليوم التالى فمات ثلاثة من الرجال صعقًا بالكهرباء، أيضًا أثناء عملهم فى الأسلاك الكهربائية استعدادًا للاجتماع السياسى الكبير، كانت الأمطار غزيرة فى تلك الأيام مما جعل المتسولين يعانون من غزارتها وهم نائمون تحت جدران بيوتنا، وكانت هيلين تأتى إلى باب بيتنا كل صباح حيث كانت أمى تترك طعامها دون أن تأكل وتخرج بسلة بضاعتها التى دائمًا ما يصيبها البلل من كثرة الأمطار، ثم تعود كل يوم بعد الظهر مشبعة بماء المطر دون أن تبيع شيئًا بعد أن تتلف بضاعتها.

نام أبى كالمارد العملاق طوال فترة النقاهة وافتقد مشاهدة حافلات الأحزاب السياسية الكبيرة وهى تتجول فى المدينة وتصدر البلاغات عبر مكبرات الصوت، افتقد أبى مواجهاتهم العنيفة وثوراتهم عندما كانوا يلتقون فى نفس الشارع وافتقد رؤية المتسولين الذين كانوا يفترشون الطريق ويطلبون الصدقات عند الحافلة المحطّمة، كنت أشاهدهم كل يوم فى المساء وهم يتشاورون بحماس مع بعضهم البعض وبدا أنهم ينتظرون إشارة ما، لم يتصدّق عليهم أحد وكان سكان الحى ينتهزون أى فرصة ويطلبون منهم

الرحيل، لكنهم كانوا قلقين من الرحيل والسفر عبر الطرق المختلفة إلى عوالم جديدة، ولم توقفهم سوى هيلين التى لم تنطق بكلمة واحــدة لكــنهم كــانوا يفكرون بعمق فى الرحيل إلى أماكن جديدة، ومن الغريب أنهم كانوا مقتنعين بمحاولات أبى فى تحسين أوضاعهم حتى يصبحوا أشخاصًا نافعين، فراحوا بين الحين والآخر يزيلون القذارة والنفايات المتراكمة مــن فــوق الطريــق وحاولوا – بطريقتهم المتواضعة – أن يساعدوا لكن أحــدًا لــم يقــدِّرهم أو يشكرهم، مررت بالقرب منهم فى اليوم الثانى الذى رقد فيه أبــى فســمعتهم وهم يتناقشون بأصوات خشنة ويتحدثون عن الاجتماع الوشيك المؤجل وعن المدرسة التى كان أبى يزعم بناءها وأيضًا عن النقــود، وحــين شــاهدونى أشرقت وجوههم بالأمل وتقدموا ناحيتى ثم توقفوا وراحوا يراقبون تحركاتى بعيون جائعة، لقد اعتدت على سرقة الطعام من بيتنا وتقديمــه لهــم، لكــن مرض أبى وحظ أمى العاثر فى البيع وعودتها كل مساء بلا نقود جعلنــا لا نأكل إلا القليل وتضاءلت وجباتنا، كنا نأكل بهدوء ونحن نراقب ونستمع إلى شخير أبى فوق السرير بعد أن يملأ الحجرة بالهواء، كانــت روحــه تكبــر وتكبر طوال الوقت وتتغذى على جوعنا، كبر أبى فى رقاده وشاهدت قدمــه وهى تتدلى من حافة السرير وصدره وهو يتمدد حتى تمزَّق قميصــه، ازداد وزنه وعندما كان يهتز كمن يمتطى جيادًا أسطورية فى أحلامه كان السرير يئن بالشكوى، نام أبى بعمق وكانت الشموع تنطفئ أثناء نومه فيسود الحجرة ظلام مخيف، ظل الباب مفتوحًا لاستقبال الزائرين الذين كــانوا يتهامســون بجوار سريره ثم يرحلون سيرًا على أطراف أصابعهم.

كان أبى يحلم بالعالم كثيرًا أثناء نومه، شاهد برامج ومشاريع لم تعجبه وشاهد عالم السود الأشقياء ولم يعجبه وذلك العالم فى الجهة المقابلة للكــرة الأرضية، وحتى خط الاستواء والذى يقاسى فيه البشر بلا سبب واضح ولم يعجبه أيضًا، شاهد الناس عندنا وهم يغرقون فى الفقر وفى المجاعة والظمأ والقحط وفى الخلافات وشاهد الدماء المتساقطة فى الحروب، شــاهد أولئــك

الذين يسرقون الناس فى بلدنا وأولئك المتأثرين بالعالم الغربى، ودائمًا ما كانت تتراءى له إنجازاتنا العظيمة وتاريخنا القديم ملتفحًا بثياب الوجود، شاهد أثرياء بلدنا وملابس رجال السياسة الفاخرة وقابليتهم للرشوة والفساد، وعرف مدى الجشع الذى وصلوا إليه وأبصر عدم اهتمامهم بمستقبلنا وعدم الالتفات لصرخات الناس ومدى التحجُّر الذى وصلت إليه قلوبهم وأحلامهم بامتلاك القوة ذات النظرة العقيمة، شاهد أبى أيضًا تلك الانقسامات الحادة فى مجتمعنا وعدم القدرة على التآلف والوحدة وتلك الفجوة الكبيرة بين الذين يملكون كل شيء والذين لا يملكون شيئًا على الإطلاق، رأى كل شيء بوضوح بما فى ذلك نساء بلدنا فى الأسواق والقرى المكبلات بالكوابيس والأرواح الشريرة والمطاردات من قبل الرجال الباحثين عن اللذة، شاهد كل النساء المثقلات بميراث طويل من الصبر والقدرة على التحمل والضفادع الجائعة وشاهد الحروب قبل وقوعها والازدهار الاقتصادى قبل أن يحدث وما تلاه من تبذير وعربدة، وأبصر معاناة التنقل والنفى إلى أراض غريبة واستنزاف إرادة الناس من أجل التغيير، شاهد نشوء الطغاة والمستبدين الذين يبدون دائمًا وكأنهم ولدوا من رحم الأزمات الشديدة، وشاهد حكمهم الطويل وحالة الاضطراب والتشوش التى تحدث بعد الإطاحة بهم.

ترافع أبى فى ثلاث من محاكم عالم الروح، وظل ينادى بالعدالة فوق كوكب الأرض وكان يترافع ويتناقش بانفعال شديد ممتزج بحب كبير وكان مؤمنًا بما يقول، لكنه حين وقف ليعرض حالته وجد نفسه وحيدًا واختفى من العالم كله ذلك الحشد الكبير من الناس الذين كانوا متضامنين معًا، وهم يتقدمون بحالاتهم فى محاكم الأرواح العليا ويتوسلون طلبًا للعدالة والمساواة وإشاعة الجمال فى كل أرجاء العالم وطمعًا فى وضع حد نهائى للجوع والحروب القذرة والدمار والجشع، كان أبى وحيدًا لأنه لم ير الآخرين ولا ذلك التجمع الكبير من الحالمين الذين اقتحموا كل محاكم الدنيا بعد حالة العجز التى أصابت عقول بنى البشر، وخلقت ذلك الصراع الجاثم فوق أرض الواقع.

كنت أتتبع أبى أحيانًا فى أحلامه واقتفيت أثره أثناء هروبه إلى ممالك وفضاءات واسعة وفسيحة ووسط المناظر الطبيعية الخلابة، ومضيت خلفه حين وصل إلى أماكن الأرواح والعفاريت وإلى عوالم ما قبل الميلاد وإلى دنيا الأحلام الصافية الطاهرة ودنيا الرموز والإشارات، لاحقته فى أحيان أخرى أثناء اتصاله بروحه البدائية وعشيرته القديمة ومراجعته السريعة لقدره الحقيقى الغامض، شاهدت ملائكة يمحون بعض ذكريات رحلته، سافر أبى بعيدًا وتألمت روحه وحين تصبَّب بالعرق فى حجرتنا أمطرت الدنيا بالخارج، وأعادت الفيضانات تنظيم البيوت فى الطريق.

كانت الأمطار متقطعة واخترقت حياتنا الضفادع والحشرات والأمراض وكان الأطفال يموتون كل صباح، بينما كان رجال السياسة يعلنون من فوق شاحناتهم عبر مكبرات الصوت عن فجر الاستقلال الجديد، شاهد أبى أشكالاً كثيرة ومختلفة من الأشياء التى سبقت وجود الكون وحاربها كلها بمفرده أثناء نومه بكل ما يملك من جسد ثائر، لكنهم ألحقوا به الهزيمة وعندما فقد السيطرة على نفسه عاد للبيت فأشعلت أمى شمعة والجهاز الطارد للباعوض وأحرقت البخور ثم صبَت لنا بعض شراب الأجوجورو المسكر وراحت تصلى أمام عتبة الباب، أقامت أمى صلواتها بثلاث لغات وتوجهت بصلواتها إلى أجدادنا وإلى الله وإلى ملاك كل النساء وإلى الأشياء البسيطة التى تساعدنى على البكاء عندما تمتلىء حجرتنا بالظلام، وتوسلَت فى صلواتها طلبًا للطعام وكررت الدعاء من أجل أن تتحسن صحة أبى وطمعًا فى مكان آمن للعيش وأملاً فى مزيد من الحياة والمعاناة التى تمدنا بالقدرة على احتمال النتائج الجميلة، كما أقامت صلاة خاصة من أجلى، تضاءلت الأماكن والمسافات فى حياتنا وصارت أمى أكثر نحافة، وبدأت تفقد صوتها واختفت عيناها من الوجود وانسحبت إلى أعماق أحلامها وأصبحت عظامها أكثر وضوحًا وبدأت قمصانها تنزلق من فوق كتفيها واكتسى وجهها بضباب معتم غريب، استطعت أن ألمحها وهى تتوجه بنظراتها نحو مقعد أبى ذى الأرجل الثلاثة، حيث بدت

عيناها وكأنها تنظر إلى صور حياتها الضوئية ودائمًا ما كانت تبدو ابتسامة الجوع المصطنعة مغلفة بالكبرياء المتأنق ولم تتوقف الفئران والصراصير قط عن اختراق أحلامنا وبدا أن الدنيا بأسرها كانت تقف فى طريق أمى لمنعها من الخروج إلى عالم أفضل والتحرر من معاناتها.

كان ملاك الأراضى والبيوت يرفعون من قيمة الإيجار دائمًا، وكان الفتوات يطلبون منا التصويت في الانتخابات لصالح أشخاص بعينهم، وتسرب المطر داخل نومنا وأحيانًا كانت تتمنى فى صلواتها أن تجد أبى وهو يتجول داخل النجوم التى تعيد التوازن إلى الكرة الأرضية، لكن روح أبى كانت قلقة بشأن العدالة والتفكير فى حياة أفضل والقيام بثورة حقيقية؛ فظل يطوف فى أماكن بعيدة من العالم وخاصة تلك الأماكن التى تم فيها التبشير بالقوة والوعود بالسيادة منذ عهود سحيقة ترجع إلى ما قبل الميلاد، سافر أبى إلى النجوم في محاولة لاستعادة سلالتنا وسلالة كل المظلومين، وحين كنت أقتفى أثره تعلّمت أن نجومًا أخرى من تلك التى تتمتع بأنشطة وقدرات أكبر لديها عدالتها الخاصة لكنها مختبئة فيما وراء قدرتنا على الفهم، كما هو الحال أيضًا مع نجومنا وفى الأرض التى نعيش فوقها، إن قوى التوازن تتغير كل يوم والمطر المنهمر يتساقط فوق السكارى والضعفاء والأقوياء والصامتين، وتكشف الرياح عن الجوعى والمتخمين والمرضى والموتى وأولئك الذين يقتاتون من معاناة الآخرين بطريقة غامضة، لكن استعادة سلالتنا ومحاولة العودة إلى ما كنا عليه كانت تمضى ببطء لأننا كنا نفتقد الإحساس بالزمن حيث الزمن والحقيقة يتغيران على الدوام، إن أولئك الذين يبدو أنهم يملكون زمام الحكم ويحترفون التسلط ويحاولون وقف عجلة العدالة هم فى الحقيقة يعجلُون بها، وكان أبى أحد الذين طالبوا بتحقيقها فى الوقت الحاضر، طالب أبى بالعدالة وكافح من أجل الحقيقة ورغب فى المساواة، وقد اشتدت عاصفة مطالبه فى أحلامه وطرح كثيرًا من القضايا الصعبة، ولم يتوقف عن ترديد سؤاله الدائم: لماذا؟

بعد عدة دهور من الزمن تساءل قائلاً: "ما الذى يجب أن نفعله؟"

ثم قال متسائلاً: "وكيف نستطيع؟"

وأضاف وهو راغب بشدة فى معرفة الإجابة قائلاً: "ومتى؟"

وسأل مرارًا وتكرارًا وبإصرار: "وما هى أفضل طريقة؟"

وسأل بمزيد من الهدوء دون أن ينسحب من المواجهة المحتومة قائلاً: "وما هى الخطوة الأولى؟"

كبر جسد أبى وتساقطت الزهور فوق سقفنا وفى لحظة خاطفة أبصرت جدى الذى أشار لى بيديه، لقد ولد الطفل لكنه لم يشعر بجسده فهل ولدت من جديد فى صورة أبى؟ لقد اكتشف أبى فى رحلاته أن كل الشعوب ليست سوى أطفال، وأصابته الدهشة حين اكتشف أن شعبنا ليس إلا شعبًا مثل أطفال الروح التى تولد وتموت ثم تولد من جديد، وفى كل مرة يولد فيها يتدفق الدم وتتفشى الخيانة غير أن طفل إرادتنا يرفض البقاء إلا بعد القيام بتضحيات مناسبة وبعد إظهار هدفنا وقصدنا من تحمل عبء ذلك القدر الفريد القاسى.

تمتلىء كل النجوم والكواكب والكرات الأرضية بالحياة وبكل حياة، وحين كان أبى نائمًا كان يعيش فى قارة أخرى خارج الزمن وبعيدًا عن الحياة، وعندما سمعنا الإشاعات عن اجتماع مدام كوتو مع كبار النساء وأكثرهن فعالية فى الحانة، ذلك الاجتماع الذى خططن فيه لترتيبات وتعديلات لا حصر لها من أجل القيام بأعمال مشتركة، وتناقشن فيه عن المسئوليات الواجب اتباعها فى التصويت لصالح الحزب لم نندهش كثيرًا من عودة مدام كوتو السريعة إلى حياتها الطبيعية بعد وفاة العاهرة، ولم نندهش أيضًا حين خصَّصت مبلغًا من المال لإنشاء منظمة نسائية بأحد أجزاء مدينتنا، تورَّمت قدمها المصابة وصارت أكبر حجمًا وكأن الطريق قد ساعد

فى تخصيبها، وانتفخت بطنها بطفل الروح وشرعت فى الدخول إلى مجتمع سرى مشهور بتصنيع الواقع، تحدَّثت بشأن تحويل حانتها إلى فندق واشترت قطعة أرض كبيرة وكان سائقها يذرع طريقنا ذهابًا وإيابًا فى سيارتها، ويصطدم بالماعز ويقتل الدجاج ويسهم دون أن يدرى فى مضاعفة أعدائها.

أصبحت مدام كوتو أكثر قوة ونفوذًا مع حلول موسم المطر وكشفت عن مسيرة جديدة من الجلال والسمو، وكانت ملابسها تصيب المتسولين بالاستياء وعدم الارتياح، أفصحت عن رغبتها فى مغادرة منطقتنا البائسة القذرة وكانت تعامل كل الناس بازدراء وتوبِّخ كل العابرين بالقرب منها، أصبحت أكثر قوة وأكثر جمالاً فى آن واحد ومع انهمار المطر بغزارة أصابها الغرور وتجسدَت كل أساطيرها فى روحها الجديدة والتحمت مع خرافاتها، أصبحت مدام كوتو كل الأشياء التى كنا نهمس بها بل وأكثر مما كنا نهمس به، كانت عندما تنام فى الليل تسرق طاقات الناس وأحلامهم كما كان يفعل غيرها كثير من الناس وأصبح الليل حليفها، وبينما كان أبى يتجول فى أرجاء الكرة الأرضية مناديًا بالعدالة كانت مدام كوتو غارقة فى بسط نفوذها علينا وتسببَت أحلامها الكبيرة فى جِلب الكوابيس للأطفال ونبتت أجنحة كبيرة فى جسدها الضخم راحت تحلِّق بها فى الليل فوق المدينة وتستمد القوة والنفوذ من أجسادنا النائمة، تمددَت مدام كوتو فى هواء وجودنا وبسطت نفوذها فوق حياتنا وتمثلت أحلامها المتلاحقة الطائشة فى السهر واللهو والعربدة والتبذير والمرح الصاخب والانغماس فى الرقص والإسراف فى الشراب، وفى الفساد والانحلال والتفسخ وفى النساء البريئات والرجال الضعفاء، وحين كانت تغط فى نومها كان شخيرها يغير من جغرافية أقدارنا ثم بدأت قوتها تزداد تدريجيًا بينما كان الناس يزدادون ضعفًا وخوفًا وقبولاً بالأمر الواقع، حدث ذلك حين أدركت أن القوى المتصارعة كانت تحارب بعضها البعض على الملأ من أجل مستقبل بلدنا، وفى أحلامنا بالليل كانوا يمتطون جيادًا بيضاء لا يمكن رؤيتها ويجلدوننا بالسياط ويقمعون إرادتنا.

شنَّت الأحزاب السياسية حروبها فى فضاءات الروح فيما وراء مملكة مشاكلنا وهمومنا الأرضية، حاربوا بعضهم البعض بمجموعة من الأساطير المضادة وانزوى بعيدًا العشَّابون والسحرة والمشعوذون، وكانت الحافلات تجوب الشوارع وتتنافس عبر مكبرات الصوت لجلب مزيد من الأصوات، كانوا يتقاتلون من أجل التفوق فى عالم الأرواح وينادون على الجنيات والكائنات الخرافية وعلى الشيطانة التى تضاجع الرجال أثناء نومهم، والروح الشريرة التى تضاجع النساء ليلاً وعلى الأشباح الغريبة وراحوا يحشدون أرواح المحاربين القدامى ورجال السياسة والعسكريين، كما استأجروا أرواحًا مهاجرة ومغتربة عن الوطن، حصل حزب الأغنياء على تأييد الأرواح فى العالم الغربى ومن خلال أحلامنا فى الليل كتبوا المواثيق والمعاهدات الدولية، وتمت صياغة الاتفاقيات وكتابة العقود فى مملكة الفضاء الليلى؛ فأصبح مستقبلنا مرهونًا بهم وتأجلت أقدارنا.

جلب سحرة الأحزاب السياسية ومشعوذوها الرعد إلى تلك المملكة، وغمرت الأمطار أولئك القابعين فى الأسفل ثم دوَّى رعد مضاد وهتاف صاخب وانتشرت ضربات البرق المضيئة فى كل مكان وتواصلت بلا انقطاع فى كل القرى والمدن؛ حتى غمرت القارة بأكملها والعالم بأسره، تقلَّصت أحلامنا عندما اندلعت حروبهم الرامية إلى التفوق والسيادة السياسية، وهمس المشعوذون فى آذاننا بأشياء مفزعة بعد أن تنكَّروا فى صورة الأرواح والمبشرين فأصابنا مزيد من الخوف، لكن مجرد الشك ساعدنا على الهدوء الذى أسهم بدوره فى اكتساب مزيد من القوة، اشتدَّت رياح السيطرة بقوة فى فضاءات الليل واكتشفنا نحن الفقراء الذين يفتقرون للسلطة والنفوذ ولا يجدون من يساندهم ولا يدركون مدى القوة المختبئة فى ثنايا جوعهم والقادرة على إثارة فزع الآلهة ذاتها أننا محرومون من ممارسة أحلامنا بحرية، ودخلت رغباتنا وكل ما نشتاق إليه إلى عالم مسدود بعيدًا عن ممالك الوجود، واحتدمت معاركنا من أجل أقدارنا ولم نستطع أن نواصل الطيران

إلى القمر أو اقتياد الطائرات فى رحلاتها عبر الفضاءات الشاهقة، ولم نقدر حتى على تخيل الاختلاف والأفضلية التى ستتسم بهما حياتنا فحلم كل منا بالآخر أحلامًا مزعجة وتراءت مدام كوتو بردائها الأحمر وشعرها المربوط بمنديل أبيض وهى تحمل فى يدها ثلاث مظلات خضراء، وتبسط نفوذها على الحى بأكمله وترسل جواسيسها السريين إلينا وكانت تتغذى على أحلام يقظتنا وعلى نزواتنا وأوهامنا، وشاهدها الكثير منا فى الأحلام فى صورة عروس رؤساء وزعماء الدولة الروحية المستقبلية، أصبحت مدام كوتو شهيرة كملكة الظلام المعروفة فى الحى ولجأ إليها كل المحتاجين للمساعدة، لكنها كانت تستقبل القليل منهم، كانت تستمع إليهم وتتكلم كثيرًا فى الليل فعانت من آلام كثيرة فى جسدها أثناء النهار غير أنها حاولت إخفاء آلامها، لكن العرق فوق جبهتها زاد من دائرة التجاعيد فى وجهها وتخلّت العاهرات عنها ولم يستطعن العفو عنها لنسيانها السريع وفاة الفتاة العاهرة، عندما غادرت العاهرات أصبحت الحانة شبه خالية من الناس، لكن هدوء الحانة وجاذبية قوتها الجديدة جلبت جمهورًا أكبر من الرواد.

تراءت لى مدام كوتو ذات ليلة فى نومى وتوسلت إلى أن أمنحها بعضًا من شبابى فسألتها قائلاً: "لماذا؟"

أجابت: "لقد بلغت من العمر مائتى عامٍ وإذا لم تمنحنى دمك الشاب فإننى سوف أموت حالاً".

أصابتنى روحها البائسة بالعبوس وكادت تلك الروح أن تبتلعنى تمامًا، لكننا سمعنا زئير أسد ضخم اهتز البيت على إثره وأطاح بروحها بعيدًا، فأدركت عندئذ أن قِوى جديدة قد ولدت للوفاء بمتطلبات العمر، نمور وأسود من عالم الروح، تنين العدالة، نمور الحقيقة ذات الأجنحة، حيوانات مقدسة مفترسة، قوات منظمة تدور وسط الأعاصير العاتية وتعيد التوازن وتتغذى على الأوهام والأحلام، كان ثمة ملاك خرافى يولد مع كل زفرة هائلة

للتنفس، ولأجل كل هبَّة ريح من الأجنحة الشريرة ومن أجل كل قوة يتمتــع بها أولئك الذين يتغذون على دم الكرة الأرضية، وشاهدت بنفسي ملاكًا يطير فوق سطح بيتنا فى اليوم الثالث من رقاد أبى لكنه مضى بعيدًا فهدأت الرياح وانهارت أشجار غريبة فى الغابة، وفى الصباح توقفت الأمطــار واختفــى طوفان المياه بطريقة غامضة داخل أسرار الأرض وبين ثنايا التراب، كانت أمى تزرع الشوارع جيئة وذهابًا لتبيع بضاعتها بأسعار رخيصة، فوجــدت أوراقًا نقدية تطفو فوق المياه المتألقة باللمعان وأصبح الجو معتــدلاً لكننــى رأيت فى ذلك الصباح أول التلميحات والإشارات التى لم تكن توحى بموسم جديد من الهدوء والسكون، وإنما بقرب انتهاء فترة طويلة من الزمن، عرفت أن المتسولين هم الذين أطلقوا أول إشارة عندما كانوا يتوقعون ميلاد المسيح المخلِّص وعندما كانوا فى الحقيقة ينتظرون من يبشرهم بأن أوان رحيلهم قد حان.

جمع غفير من الناس الثائرين كانوا يتجمعون كل مساء فى الوقت الذى اعتادت فيه أمى على تجهيز الطعام، وكانوا يتبادلون الهمسات والأحاديــث، وذات مساء من تلك المساءات وتحت تأثير رائحة البخور الزكية والصلوات ودخان جهاز البعوض وتحت ثقوب سقف بيتنا ووسط الحشرات المتزايــدة فوق الأرض وفى ظل الفراشات الخضراء التى تملأ الحجرة اســتيقظ أبــى فجأة، ونهض بقوة من فوق السرير كمن ينهض ويستفيق من الموت ولم تعد لجراحه أية آثار وبدت روحه أكثر حدَّة ويأسه أكثر عمقًا كما بــدا حاســمًا وغاضبًا بشدة، نهض ثم جلس فوق مقعده، وبينما كانت الشــموع ترفــرف وتنشر الضوء فى فراغ الحجرة بدأ أبى يتحدث إلينا بصــوته الغــارق فــى الحزن، تحدَّث إلينا كأنه لم يغادرنا قط وكما لو أنه لم يقم برحلات كبيرة فى أعماق الروح، وكان حديثه مفعمًا ببراءة رجل استرد عافيته للتو.

قال أبى: "زوجتى وابنى، استمعا لى، لقد رأيت أشياءَ عجيبة فى منامى وعلَّمنى أجدادنا كثيرًا من الفلسفات وظهر لى أبى كاهن الطرق وقال لى: لا

يجب أن تغلق بابك ولا بد أن يكون قلبك منفتحًا ومتسعًا لمزيد من الحب وأن تكون حياتك حرة وخالية من القيود، كما يجب أن يكون طريقنا مفتوحة وواضحة ومليئة بالأضواء حيث أن الجوع لا يقترب من الطرق المفتوحة الواضحة".

استطرد أبى قائلاً: "ستواجهنا أوقات وأزمنة غريبة".

لكننى قلت لأبى متسائلاً: "وماذا عن اللصوص؟"

أجاب: "اسكت يا أزارو، نحن فى مأمن، أتسمعنى، إننا محصنُون ضد كل الغزاة والأشرار ولن ينالنا أى شر".

توقف قليلاً وطرقع عظامه ثم استطرد: "إن فكرة واحدة فقط قادرة على تغيير العالم، نحن بنو البشر لسنا سوى أفكار صغيرة لكن الحياة فكرة كبيرة، إنهم يعقدون الانتخابات الآن فى السماء وتحت البحر، لا بد أن ندخل عصرًا جديدًا ويجب أن نكون مستعدين فالعالم ملىء بالقنابل الغريبة والقوى العظمى تتقاتل فى الفضاء من أجل التحكم فى أقدارنا، إن الجماعات السياسية والفساد والأحلام الفردية سوف تلتهمنا وتقضى علينا، لقد دخلت سفينة فضاء ووجدت نفسى فى كوكب آخر ولم يكن الناس بشرًا رغم أنهم كانوا فى صورة بشر ورأيت بينهم قومًا غرباء، يجب أن نتوخى الحذر؛ فحياتنا تتغير وآلهتنا غارقة فى الصمت وأجدادنا عاجزون عن الكلام، شىء ما كبير وجليل قادم من السماء سيغير وجه الأرض، يجب أن نهتم بالعمل السياسى وأن نكون عيونًا حارسة للعدالة فبنو البشر يحلمون بإزالة زملائهم البشر من نفس الجنس وإبادتهم من الوجود، أما الفئران والضفادع فإنها تعرف مصيرها فلماذا إذن لا يعرف البشر مصيرهم وينتبهون لأقدارهم؟ زوجتى وابنى، إلى أين نحن ذاهبون؟ إن أرواحنا لا تنعم بالراحة رغم وقوف الرب إلى جانبنا، عندما تنظر حواليك وترى الفضاءات الفارغة فلا بد أن تحترس؛ فتلك الفضاءات تحتوى مدنًا وحضارات غامضة وحكايات عن المستقبل

وتضم بداخلها كل شيء، يجب أن ننظر إلى العالم بعيون جديدة وأن نـرى أنفسنا بطريقة مختلفة، فنحن أحرار أكثر مما نعتقد كما أننا لم نبدأ حياتنا بعد، إن الإنسان الذى يتجلى ضوء النهار فوق رأسه وتتبدى له الحقيقة فى حرارة الشمس لا يشعر أبدًا بالقهر أو الكآبة ولا باليأس أو العجز، نستطيع أن نعيد تشكيل هذا العالم وبمقدورنا أن نحوّل أحلامنا إلى واقع ملمـوس، إن بنـى البشر ليسوا سوى آلهة لكنهم يجيدون الاختفاء عـن بعضـهم الـبعض، إن جوعنا يا ولدى يمكن أن يغير العالم إلى الأفضل والأجمل، ولا يمكن لأولئك الذين يستخدمون عيونهم فقط أن يروا بوضوح، ولا يقـدر أولئـك الـذين يستخدمون آذانهم فقط على السمع، إن الحب يا ولدى أصـعب كثيـرًا مـن الموت، فليس الموت هو ما يخشاه البشر وإنما هو الحب فالقلب يفوق الجبل كثيرًا فى مساحته ورحابته وحياة إنسان واحد تفوق فى أعماقها أى محـيط، إن وحوش البحر والأسماك الغريبة والأشجار الضخمة تعـيش فـى قـاع أرواحنا الخاوية ولم يزل تاريخ الإنسان بأكمله قارة مجهولة لم تخرج مـن أعماقنا المليئة بالدلافين وصغار الأسماك الحالمة والأعشـاب والشـجيرات والطيور السحرية، إن السماء كذلك موجودة بداخلنا والكرة الأرضية وأشجار الغابات وحيوانات الأدغال والسلاحف والطيور وأيضًا الأزهار التى تعـرف مستقبلنا، إن العالم الذى نراه ونعيشه مختلف تمامًا عن ذلك العالم الـذى لا نعرفه، ولا تشتعل نار الحروب فى ميادين القتال لكن فى مكان أصغر مـن رأس الإبرة، نحن فى حاجة للغة جديدة نخاطب بها بعضنا الآخر، كثيرة هى أحداث التاريخ المختبئة داخل السياط وكم من الحكايات والكتـب المقدسـة والأعمال الجديرة بالتسجيل التى يختزنها الناس بداخلهم، عندما تنظر إلـى أعماق عيون الكلاب ستكتشف أن أسماكًا غريبة تسارع باختراق عقلك، كل الطرق تؤدى إلى الموت لكن بعض الطرق تؤدى إلى أشياء غريبة لا تصل أبدًا حدَّ الكمال، يوجد بشر فقراء ومتواضعون لكنك إذا ما أمعنـت النظـر فسوف تكتشف أن أرواحهم مفرطة فى الاتساع والرحابة. لقد قابلت طفلاً فى

أحلامى وكان الطفل جالسًا فوق سحابة، وروحــه تغطــى نصــف الكــرة الأرضية وكانت الملائكة والشياطين تتوسطنا وتتحدث بلغات وأساليب عــدة ومختلفة، وكان بمقدورهم الدخول إلى أعماقنا والإقامة بداخلنا لمــدة ثانيــة واحدة أو لمدة تعادل نصف أعمارنا، فى البدء كانت الروح، الــروح قديمــة وموجودة من قبل أن يولد أى شىء وهى التى دعت كــل الأشــياء الطيبــة والسيئة من بعدها للتواجد، عليك يا ولدى بدعوة الأشياء، الطيبة فقط واستمع إلى روح الأشياء وعليك بالاستماع إلى روحك الخاصــة وتتبــع خطواتهــا وحاول أن تفهمها فما دمنا على قيد الحياة، فلا بد أننا لم نفقد أحاسيسنا بعــد ولم تتبلَّد مشاعرنا وطالما أننا نحب فإن كل شىء بداخلنا يتحول إلى طاقــة يجب أن نستخدمها، إنه الثبات والسكون والقمع أحيانًا الذى يجعلــك تســير بسرعة أكبر محاولاً الرحيل، وهو الصمت والسكون الذى يجعلــك تطيــر محاولاً الفرار لكن إذا كان قلبك صديقًا للزمن فإن شيئًا لا يستطيع تدميرك أو القضاء عليك، لقد علَّمنى الموت عقيدة الحياة ولقد اهتديت إلى ديــن جديــد، إننى فى حالة من الانبهار لكننى بدأت أرى كل شىء، لقد كنت مخمورًا فى نومى وكانت كلماتى كلمات شخص غريب، عليك بارتداء قناع باسم فــوق وجهك، وزودنى ببعض النبيذ وبعض السجائر يا ولدى من أجل عودة أبيــك إلى وطنه الحقيقى".

سادت لحظات طويلة من الصمت غرقنا خلالها فى كلمات أبى المتدفقة الغريبة وبعد انقضاء وقت طويل ناولتنى أمى مبلغًا من المال، فاندفعت إلــى خارج البيت لشراء الأجوجورو والسجائر لأبى وتبعنى المتسولون فى طريق عودتى حتى منتصف الطريق، كانت الفراشات تحلــق فــى الهــواء فــوق مساحات كبيرة من الأرض وتغيَّرت الأضواء وإشارات السير التى تتحكم فى حياتنا وتلوَّنت السحب بلون أزرق قاتم، ووجدت نفسى سائرًا وسط جزيــرة عائمة من الذباب الصغير ذى اللون البنى الداكن، وعندما دخلــت حجرتنــا انطلقت ورائى سحلية ذات ذيل أرجوانى شاحب وحين رحت أتعقبها محاولاً

طردها قال أبى: "يجب معاملة كل المخلوقات باحترام من الآن فصاعدًا وإذا رغبت فى خروج السحلية فإنها ستخرج على الفور إذا ما طلبت منها ذلـك فقط دون اللجوء إلى العنف، يجب أن نستخدم قوتنا بحكمـة ولا يجـب أن نمارس الاستبداد والطغيان، أتسمعنى؟"

أومأت برأسى فنهض أبى من فوق مقعده وقال بصوت ضاحك: "أيـن أنت أيتها السحلية المحترمة؟ اخرجى من هذه الحجرة الآن واذهبى إلـى أى مكان آخر".

ظلَّت نظراتنا متعلقة بالأرض غير أننا لم نر أى حركة فتنهَّدت أمـى ولم يكرِّر أبى نداءه للسحلية وجلس فوق المقعد فاردًا ظهره، ثم جلست أنـا وأمى دون أن نتكلم وبعد لحظة خرجت السحلية من تحت الدولاب وأشارت إلينا برأسها ثلاث مرات ثم سارعت بالخروج من الحجرة، وساد بعد ذلـك وقت طويل من الصمت لكن أبى لم يأبه بخروج السحلية ولم يعبر عن شكره لها وفرد كلتا ذراعيه أمامى فناولته السجائر وزجاجة الأجوجورو المتلألئـة بالفقاعات الحالمة، شرب أبى بسلام وراح يدخن بهدوء وبدا كأنـه شـخص آخر غريب فأصابتنا دهشة كبيرة.

قال أبى كأنه قرأ أفكارنا: "كثير من الناس يقيمون داخلنا مثلما تسكننا حياة الماضى والحياة المستقبلية، إذا استمعت جيدًا ستعرف أن الهواء ملـىء بالضحكات، لا أحد يستطيع فهم بنى البشر، إنهم لغز كبير".

مضى وقت طويل من الصمت نهضت بعده أمى، ووضـعت الطعـام الموجود أمام أبى الذى راح يأكل بنهم وبعد أن التهم الطعام عن آخره بدأ فى تقليب الأطباق والنظر إليها كمن يبحث عن مزيد من الطعام.

قالت أمى: "لا يوجد كثير من النقود فى البيت لأنك لا تذهب للعمل".

شرب أبى كمية كبيرة من الماء ثم ارتدى جوربــه الوحيــد الملــىء بالثقوب وحذاءه الذى تفوح منه رائحة العرق وبدا فى حالــة مــن النشــاط المخيف الذى انزعج على إثره سكَّان الحجرة غير المنظورين.

رتبت أمى فراش السرير ونظفته ورتبت المائدة ثم فرشت حصــيرتى وقالت: "نحن قلقون بشأنك يا زوجى، لقد ظللنا نكافح طــوال أيــام ثلاثــة لاستعادة روحك وكنا جائعين وكاد الخوف أن يقتلنا، فلتنم الآن وانعم بمزيــد من النوم ثم استأنف عملك وكفاحك غدًا صباحًا ولتعد إلى ما كنــت عليــه، فنحن سعداء بشفائك والعودة إلى طبيعتك من جديد".

مضى أبى ناحية أمى برقة واحتضنها لأول مرة منذ شهور عدة، ثــم أشعل الجهاز الطارد للبعوض وترك الباب مواربًا وخلع حذاءه وجوربه ورقد فوق السرير المتهالك.

سمعت أمى تقول فى الظلام: "لقد زاد وزنك يا زوجى الحبيب".

لم يقل أبى شيئًا واتسمت روحه بالرقة خلال الليــل، وتســلَّلت إلــى الحجرة نسمات من الهواء المنعش ولم نشعر بأى اضطراب أو قلــق، كــان مجرد وجوده بيننا كافيًا لحمايتنا من فضاء الليل الغامض، توقفت الأشــباح عن اختراق هوائنا والضغط فوق سقفنا والتجول بحرية بين ثنايا الأشــياء، كان الجو صافيًا وبدت الحجرة واسعة، واكتشفت أثناء نومى أماكن مفتوحــة ظللت أسبح فيها بلا خوف وكانت السماء صافية وهبَّت فوق طريقنا نسمات من الهواء الجميل فأزالت كل الشوائب الغريبة العالقة بالجو، فأصبح الجــو هادئًا وآمنًا لكننى أصبت بالقلق بعد لحظات لأننى لم أتعود مثل ذلك الهــدوء وتلك الطمأنينة من قبل، وكلما ازداد الهدوء حــدَّة كلمــا ازدادت مخــاوفى وظللت فى حالة من الترقب لسماع أغنيات غريبة وغامضة تقــتحم عقلــى، وانتظرت قدوم عشَّاق الروح لحظة امتزاجهم وتضافرهم مع أشعة الشــمس، لكن شيئًا لم يحدث.

أشرقت الشمس وبدأ صباح آخر جديد لكن الحجرة كانت خاليـــة بعـــد خروج أمي وأبى، وتلاشى نسيم الهواء المنعش فأدركت حينئذ أن الحلم هـــو أجمل لحظات العمر.

المؤلف فى سطور:
بن أوكرى

- روائى وشاعر نيـچيرى، ولد فى مدينة مينا شمال نيـچيريا عام ١٩٥٩م.
- عضو الجمعية الملكية للأدب، وعضو جمعية الفنون بجامعة كمبريدچ.
- حصل على درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة ويستمنستر، وعلى الدرجة نفسها من جامعة إيسيكس Essex عام ٢٠٠٢م.
- له العديد من الأعمال الروائية وديوان شعر.
- حصل على الكثير من الجوائز الأدبية العالمية أهمها: جائزة بوكر ١٩٩١م.

المترجم فى سطور:

سمير عبد ربه

- ولد فى أغسطس عام ١٩٥٠م.
- متفرغ للكتابة والترجمة، وله اهتمام خاص بالأدب الأفريقى.
- عضو اتحاد الكتاب.
- أهم أعماله المنشورة:

١- رواية (سنوات الطفولة) للكاتب النيچيرى وول سوينكا – الحائز على جائزة نوبل ١٩٨٦م – مكتبة مدبولى – ١٩٩١م.

٢- رواية (سهم الله) للكاتب النيچيرى تشينوا أتشيبى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٢م.

٣- مجموعة قصصية بعنوان (الياقوتة) لكاتبة جنوب أفريقيا نادين جورديمر – الحاصلة على جائزة نوبل ١٩٩١م – دار الهلال (سلسلة جوائز عالمية) – ١٩٩٢م.

٤- رواية (العالم البرجوازى الزائل) لكاتبة جنوب أفريقيا نادين جورديمر – المشروع القومى للترجمة – ٢٠٠٢.

٥- رواية (الموت فى الشمس) للكاتب التنزانى بيتر بالانجيو – المشروع القومى للترجمة – ٢٠٠٢م.

٦- (نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى)– المشروع القومى للترجمة – ٢٠٠٢م، وأعيد طبعها فى مكتبة الأسرة بهيئة الكتاب ٢٠٠٥م.

٧- مسرحية (الحب والأسى) للكاتبة الصينية باى فنجكسى –الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة آفاق عالمية – العدد الحادى عشر) ٢٠٠٢ م.

إلى جانب العديد من القصص والمقالات والترجمات فى الصحف والمجلات المصرية والعربية المختلفة.

التصحيح اللغوى: أحمد عبدالعاطى
الإشـــراف الفنى: حســـن كامـــل



The Famished Road

يعد (بن أوكرى) واحدًا من أهم الأصوات فى الأدب الأفريقى المعاصر المكتوب بالإنجليزية، وتتميز أعماله بالهجاء والنقد للأزمات الاقتصادية والسياسية المختلفة التى أصابت الدول الأفريقية بالبلاء منذ نهاية فترة الاستعمار.

تتميز لغة (أوكرى) – فى الغالب- بالبساطة والوضوح والشفافية، لكنه فى هذه الرواية يضيف إلى ذلك خاصية شعرية، وتصويرًا دقيقًا لعالم غارق فى الفساد السياسى والمكبل بالتقاليد العشائرية، ويقدم لنا مزيجًا من الأمل واليأس بأسلوب سحرى أخاذ.





تصميم الغلاف: نسرين كشك

الإبداع القصصى